

ایمانی احمد صاحب

شرح منہج النبلاء

مؤسسہ مطبوعاتی اسلامیان
کراچی، پنجاب، شریعتی تعلیمی

پہلی طبع ۱۹۸۸ء

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل هاشم

الجزء الثالث

بإذن وإشراف
مجلس البحوث الإسلامية
ميسر الباني الجليلي وشركاه

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

رجعت في تحقيق هذا الجزء إلى النسخ التي سبق لي وصفها في مقدمتي الجزء الأول والثاني ، وأثبت من فروقها ما يعين على التحقيق ، ويوضح المبهم من المعاني ، والمشكل من النصوص ، كما أثبت من حواشيتها ما رأيته مفيدا ونافعا .

وقد رسمت لنفسى منهاجا : ألا أقطع عن النظر فيما يتم طبعه من أجزاء هذا الكتاب ؛ كما رأيت مجالا للتصحيح ، أو موضعا للتعليق ، أو سبيلا إلى الاستدراك والتعقيب ؛ مما يتهيأ لي من مراجعة ما يجد من النسخ ؛ أو أحصل عليه من الأصول ، أو يتبين لي من توجيه الرأي عند معاودة النظر ؛ أو يظهر من أخطاء الطبع ؛ أو ينبهني إليه إخواني من العلماء والفضلاء الغير على العربية وآدابها ؛ وأن أثبت كل هذا تباعا في باب الاستدراك والتعقيب ؛ في آخر كل جزء من أجزاء الكتاب .

وقد تفضل الأستاذ السيد مكي السيد جاسم ؛ أحد فضلاء العراق ؛ فنقد الجزء الأول نقداً دل على علمه وفضله وسعة اطلاعه ؛ وقد أفدت من هذا النقد فوائد قيمة ؛ أثبتتها في آخر هذا الجزء فيما أثبتته من ملاحظات .

وأرجو - مع فسحة الأجل - أن أظل على هذا المنهج ؛ قضاء لحق العلم ، وكفاء لهذا الكتاب العتيق .

والله الموفق للخير ؛ وهو الهادي إلى طريق الصواب .

محمد أبو الفضل إبراهيم

١٠ المحرم سنة ١٣٧٩ هـ
١٦ يولييه سنة ١٩٥٩ م

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

الجزء الثالث

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الكريم .

واعلم أنّ الذي ذكره المرتضى رحمه الله تعالى ، وأورده على قاضى القضاة^(١) جيّد ولازم ؛ متى ادعى قاضى القضاة أنّ العدالة إذا ثبتت ظلماً أو قطعاً لم يجز العدول عنها والتبرى إلا بما يُوجب القطع ، ويُعلم به علماً يقينياً زوالها ؛ فأما إذا ادعى أنّ المعلوم لا يزول إلا بما يُوجب العلم ، فلا يردّ عليه ما ذكره المرتضى رحمه الله تعالى .

وله أن يقول : قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان ، والإجماع دليل قطعى عند أصحابنا ، وكلّ مَنْ ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التى بها ثبتت إمامته ، لأنه لا يجوز أن تكون إمامته معلومةً وشرائطها مظنونة ؛ لأنّ الموقوف على المظنون مظنون ، فتكون إمامته مظنونة ، وقد فرضناها معلومة ، وهذا خلف ومحال . وإذا كانت عدالته معلومة لم يجز القولُ بانتفائها وزوالها إلا بأمر معلوم .

والأخبارُ التى رُويتُ فى أحداثه أخبارُ آحاد لا تفيد العلم ، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بها ، فهذا الكلامُ إذا رُتب هذا الترتيب اندفع به ما اعترض به المرتضى رحمه الله تعالى .

(١) انظر ص ٢٤ من الجزء الثانى ، وما بعدها .

[بقية رد المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبار
من الدفاع عن عثمان (*)]

فأما كلامُ المرتضى رحمه الله تعالى على الفصل الثاني من كلام قاضي القضاة ،
وهو الفصلُ الحكيمُ عن شيخنا أبي عليّ رحمه الله تعالى ، فنحن نورده . قال
رحمه الله تعالى (١) :

أما قوله : لو كان ما ذُكِرَ من الأحداث قَادِحًا لوجب من الوقت الذي ظهرت
الأحداث فيه أن يطلبوا رجالًا ينصبونه في الإمامة ، لأن ظهورَ الحدث كموته ، فلما رأيناهم
طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث . فليس بشيء معتمد ؛
لأن تلك الأحداث وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته ، وفاسخةً لها ، ومقتضية لأن يعقدوا
لغيره الإمامة ، (٢) إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نصب غيره ، (٣) مع تشبّهه
بالأمر ؛ خوفاً من الفتنة والتنازع والتجاذب ، وأرادوا أن يخلعَ نفسه ، حتى تزولَ الشبهة ،
وينشطَ مَنْ يصلحُ للأمر لقبول العقد والتكفل بالأمر . وليس يجزى ذلك مجزى موته ،
لأن موته يحسم الطمع في استمرار ولايته ، ولا تبقى شبهة في خلوة الزمان من إمام . وليس
كذلك حدثه الذي يسوغ فيه التأويل على بعده ، وتبقى معه الشبهة في استمرار أمره .
وليس نقولُ إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسه ، بل الوجه في عدولهم ما ذكرناه من
إرادتهم حسم (٣) المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة .

(*) تابع لما ورد في الجزء الثاني ص ٣٢٨ وما بعدها .

(١) الشافي ٢٦٦ وما بعدها ؛ وعبارته في أول هذا الفصل : « فأما عند الأحداث التي نقت عليه ، فنحن
نتكلم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بعشيئة الله تعالى عند ذكره لذلك ؛ فأما ما حكاه عن أبي علي
من قوله : لو كان ما ذكره من الأحداث قادحا » وانظر ص ٣٦٢ من الجزء الثاني

(٢-٢) كذا في ١ ، ج ، وفي ب والشافي : « فإنهم لم يقدموا على نصب غيره .. »

(٣) ١ : « لحم » .

قال : فأما قوله : إنه معلومٌ من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حُصر فيها وقتل ؛ بل كانت تقعُ حالاً بعد حال ، فلو كانت توجبُ الخلع والبراءة ، لما تأخر من المسلمين الإنكارُ عليه ، ولـكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد . فلا شك أن الأحداث لم تحصل في وقت واحد ؛ إلا أنه غيرُ منكر أن يكونَ نكيرُهُم إنما تأخر لأنهم تأولوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجمال الوجوه ؛ حتى زاد الأمرُ وتفاقم ، وبعُد التأويل ، وتعذر التخريج ، ولم يبق للظنّ الجميل طريق ؛ فحينئذ أنكروا ، وهذا مستمرٌ على ما قدّمنا ذكره ؛ من أن العدالة والطريقة الجميلة يتأول لها في الفعل والأفعال القليلة ، بحسب ما تقدم من حُسن الظن به ، ثم ينتهي الأمر [بعد ذلك] ^(١) إلى بعُد التأويل ، والعمل على الظاهر القبيح .

قال : على أن الوجهَ الصحيح في هذا الباب أن أهل الحق كانوا معتقدين بخلمه من أول حدث ، بل معتقدين أن إمامته لم تثبت وقتنا من الأوقات ، وإنما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدّمناه من أسباب الخوف والتقيّة ؛ لأن الاعتذار بالوجل ^(٢) كان عاما ، فلما تبين أمره حالا بعد حال ، وأعرضت الوجوهُ عنه ، وقلّ العاذرُ له ، قويت الكلمة في خلمه . وهذا إنما كان في آخر الأمر دون أوله ، فليس يقتضى الإمساك عنه إلى الوقت الذي وقع الكلام فيه نسبةُ الخطأ إلى الجميع ؛ على ما ظنه .

قال : فأما ^(٣) دفعه بأن تكون الأمة أجمعت على خلمه بخروجه ^(٤) نفسه وخروج مَنْ كان في حيزه عن القوم ، فليس بشيء ، لأنه إذا ثبت أن مَنْ عداه وعدا عبيده والرّهنيط من فجار أهله وفُسّاقهم ، كمرّوات ومن جرى مجراه ، كانوا مجمعين على خلمه ، فلا شبهة

(١) من كتاب اشاف .

(٢) كذا في ج ؛ ووحاشيتها : « يعني أكثر الناس يعتذرون بخوف » ، وفي ا ، ب : « لأن الإعذار بالرجل » ، وفي اشاف : « لأن الاعتذار بالرجل » .

(٣) ب : « بإخراجه » .

في أن الحق في غير حيزه ، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب ، وجميع الأمة مبطل ؛ وإنما يدعى أنه على الحق لمن ينازع في إجماع من عداه ، فأما مع التسليم لذلك ، فليس يبقى شبهة ، وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع بإجماع الشذاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع ؛ ألا ترى أنهم لا يحفلون^(١) بخلاف سعد^(٢) وأهله وولده في بيعة أبي بكر لقلتهم وكثرة من يازأهم ؛ ولذلك لا يعتدون بخلاف من امتنع من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ويعملونه شاذًا ؛ لا تأثير بخلافه^(٣) ، فكيف فارقوا هذه الطريقة في خلع عثمان ! وهل هذا إلا تقلب وتلون !

قلت : أما إذا احتج أصحابنا على إمامة أبي بكر بالإجماع ، فاعتراض حجتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جيد ، وليس يقول أصحابنا في جوابه : هؤلاء شذاذ ، فلا نحفل بخلافهم ؛ وإنما المعتبر بالكثرة التي يازأهم . وكيف يقولون هذا ، وحجتهم الإجماع ، ولا إجماع ! ولكنهم يُحییون عن ذلك ، بأن سعد مات في خلافة عمر ، فلم يبق من يخالف في خلافة عمر ، فاعتقد الإجماع عليها ، وبيع ولد سعد وأهله من قبل ؛ وإذا صحّت خلافة عمر صحّت خلافة أبي بكر ؛ لأنها فرع عليها ؛ ومحال أن يصبح الفرع ، ويكون الأصل فاسدا ؛ فهكذا يجب أصحابنا عن الاعتراض بخلاف سعد ؛ إذا احتجوا بالإجماع ؛ فأما إذا احتجوا بالاختيار فلا يتوجه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده ؛ لأنه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماع الأمة على الاختيار ؛ وإنما يكفي فيه بيعة خمسة من أهل الحل والعقد على الترتيب الذي يرتب أصحابنا الدلالة عليه ؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامة علي عليه السلام ، ولم يحفل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها .

(١) يقال : لم يحفل بالأمر ؛ إذا لم يبال به .

(٢) هو سعد بن عباد الأنصاري ، وانظر حديث السقيفة في تاريخ الطبري (حوادث السنة الحادية عشرة) .

(٣) ١ ، ج : « لا تأثير له » .

قال رحمه الله تعالى : فأما قوله : إن الصحابة كانت بين فريقين : من نصره^(١) كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان ، والباقيون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ ولأنه ما ضيق عليهم الأمر في الدفع عنه . فعجيب ؛ لأن الظاهر أن أنصاره هم الذين كانوا معه في الدار ، يقاتلون عنه^(٢) ، ويدفعون المهاجرين عليه .

فأما من كان في منزله ما أغنى عنه فتيلاً ؛ فلا يعدّ ناصراً ، وكيف يجوز ممن أراد نصرته ، وكان معتقداً لصوابه ، وخطأ المطالبين له بالخلع ، أن يتوقف عن النصر طلباً لزوال العارض ؟ وهل تُراد النصر إلا للدفع العارض ! وبعد زواله لا حاجة إليها . وليس يحتاج في نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها ؛ بل من كان معتقداً لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها ، ولا يحفل بنهيه عنها ؛ لأن المنكر مما قد تقدّم ، أمر الله تعالى بالنهي عنه ، فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره .

قال : فأما زيد بن ثابت ، فقد روى مبله إلى عثمان ، وما يعني ذلك وبإزائه جميع المهاجرين والأنصار ! وليله إليه سبب معروف ، فإن الواقدي روى في " كتاب الدار " أن مروان بن الحكم لما حصر عثمان الحضر الآخر ، أتى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكلّمها في هذا الأمر ، ففضيا إليها وهي عازمة على الحج ، فكلّماها في أن تُقيم وتَدبّ عنه ، فأقبلت على زيد بن ثابت ، فقالت : وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساويف قد اقتطعتكها^(٣) عثمان ، ولك كذا وكذا ، وأعطاك عثمان من بيت المال عشرة آلاف ديناراً قال زيد : فلم أزعج عليها حرفاً واحداً ، وأشارت إلى مروان بالقيام ، فقام مروان وهو يقول :

(١) الشافى : « من نصره » .

(٢) ب : « يقاتلون غيره » .

(٣) الشافى : « قد قطعها » .

حَرَقَ قَيْسٌ عَلَى الْبِلا دَحَى إِذَا اضْطَرَمَّتْ أَجْذَمَا^(١)
فنادته عائشة ، وقد خرج من العتبة : يا بن الحكم ، أعلى تمثّل الأشعار ! قد والله
سمعتُ ما قلت : أترانى فى شكّ من صاحبك ! والذى نفسى بيده ، لوددت أنه الآن فى
غِراة من غِرائرى مَحيط عليه ، فألقيه فى البحر الأخضر ، قال زىد بن ثابت : فخرجنا من
عندها^(٢) على اليأس منها^(٣) .

وروى الواقديّ أن زىد بن ثابت اجتمع عليه عصابة من الأنصار ، وهو يدعوهم إلى
نصرة عثمان ، فوقف عليه جبلة بن عمرو بن حبة المازنى ، فقال له : وما يمنحك يا زىد أن
تدبّ عنه ! أعطاك عشرة آلاف دينار وحدائق من نخل لم ترث عن أهلك مثله
حديقة منها .

فأما ابنُ عمر فإنّ الواقديّ روى أيضا عنه أنه قال : والله ما كان فينا إلا خاذلٌ
أو قاتل . والأمر على هذا أوضح من أن يخفى .

فأما ما ذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام ، فإنما
أنفذهما - إن كان أنفذهما - ليمعنا من انتهاك حرّيمه وتعمد قتله ، ومنع حرّيمه^(٣) ونسائه من
الطعام والشراب ، ولم يُنفذهما ليمعنا من مطالبته بالخلع ، وكيف وهو عليه السلام مصرّح بأنّه
يستحقّ بأحدائه الخلع ، والقوم الذين سعوا فى ذلك ، إليه كانوا يفتدون ويروحون .
ومعلوم منه ضرورة أنه كان مساعدا على خلعه ونقض أمره ، لاسيما فى المرة الأخيرة .

فأما ادعاؤه أنه عليه السلام لعن قتلته ، فهو يعلم ما فى هذا من الروايات المختلفة التى

(١) الإجماع : الإفتلاخ ؛ والبيت للربيع بن زياد ؛ من أبيات فى الحماسة ٢ - ٤٨٤ - ٤٨٧ - بشرح
المرزوق . وفى الشطر الأول من البيت زحاف بالجرم ؛ وهو جائز فى أول التقارب والطويل ، ورواية
اللسان : « وحرقت » ؛ بلاخرم . وقيس هو ابن زياد العيسى .

(٢-٣) الشافى : « على الناس » .

(٣) ب : « حرّيمه » ، وما أثبتته من ا ، وكتاب الشافى .

هي أظهر من هذه الرواية ، وإن صحّت فيجوز أن تكون محمولة على لعن من قتله متعمداً قتله ، قاصداً إليه ، فإن ذلك لم يكن لهم .

فأما ادّعاؤه أنّ طلحة رجّع لما ناشده عثمان يوم الدار ، فظاهرُ البطلان ، وغير معروفٍ في الرواية ؛ والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشدّ من طلحة ، ولا أغاظ منه .

قال : ولو حكينا من كلامه فيه ما قد روي لأفينا قطعة كثيرة من هذا الكتاب ؛ وقد روي أنّ عثمان كان يقول يوم الدار : اللهم اكفني طلحة ؛ ويكرّر ذلك ، علماً بأنه أشدّ القوم عليه . وروي أنّ طلحة كان عليه يوم الدار دِرْعٌ وهو يُرامى الناس ، ولم ينزع عن القتال حتى قتل الرّجل^(١) .

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ستكون فتنة ، وإن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى » ، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذة لا تكون في مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خلمه وخذله ، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه ، وبيزاء هذه الرواية ما يملأ الطروس عن النبي صلى الله عليه وآله وغيره ، مما يتضمّن ما تضمّنته . ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمان أولى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار ، وقد احتجّ عليهم بكلّ غثّ وسمين ، وقبل ذلك لما خصم وطولب بأنّ يخلع نفسه . ولا حتجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره ؛ وفي علمنا بأنّ شيئاً من ذلك لم يكن ، دلالة على أنّها مصنوعة موضوعة .

فأما ما رواه عن عائشة من قولها : « قتل والله مظلوماً » ، فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة ، وإخراجها قيص رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تقول : « هذا قيصه لم يبل ، وقد أبلَى عثمان سنته » ؛ إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة .

(١) ب : « الرجال » ، وما أثبتته عن ا ، ج ، وكتاب الشافي .

فأما مدحها له وثناؤها عليه ؛ فإنما كانا عَاقِبِ عِلْمِهَا بانتقال الأمر إلى مَنْ انتقل إليه ، والسببُ فيه معروف ، وقد وقفت عليه ، وقوبل بين كلامها فيه متقدما ومتأخرا .

فأما قوله : لا يمتنع أن يتعلق بأخبار الآحاد في ذلك لأنها في مقابلة ما يدعونه مما طريقه أيضاً الآحاد ؛ فواضح البطلان ؛ لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة - إلا مَنْ كان في الدار معه على خلافه ؛ فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز ، وبين متقاعد خاذل - معلومٌ ضرورة لكلِّ مَنْ سمع الأخبار . وكيف يدعى أنها من جهة الآحاد ، حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة ! وهل هذا إلا مكابرة ظاهرة .

فأما قوله : إنا لانعدل عن ولايته بأمرٍ محتملة ؛ فقد مضى الكلام في هذا المعنى ، وقلنا إن المحتمل هو مالا يظهر له ، ويتجاذبه أمور محتملة ؛ فأما ماله ظاهر فلا يسمى محتملا ، وإن سماه بهذه التسمية ؛ فقد بينا أنه مما يُعدّل من أجله عن الولاية ، وفضلنا ذلك تفصيلا بينا .

وأما قوله : إن للإمام أن يجتهد برأيه في الأمور المنوطة به ، ويكون مصيبا وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة ؛ فأول ما فيه أنه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في الأحكام ، ولا يجوز أن يعمل فيها إلا على النص . ثم إذا سلّمنا الاجتهاد ، فلا شك أن هاهنا أمورا لا يسوغ فيها الاجتهاد ؛ حتى يكون مَنْ خبر ناعنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب^(١) ، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ما تعاطاه من الأعداء عن أحداثه^(٢) على جهة التفصيل .

قلت : الكلام في هذا الموضوع على سبيل الاستقصاء إنما يكون في الكتب الكلامية المبسوطة في مسألة الإمامة ؛ وليس هذا موضع ذلك ؛ ولكن يكفي قاضي القضاة أن يقول :

(١) كذا في الأصول ، وفي كتاب الشافعي ❦ غير مصدق

(٢) الثعالي : ❦ في أحداثه .

قد ثبت بالإجماع صحة إمامة عثمان ؛ فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خلعه وإباحة قتله ، ولم يُجمع المسلمون على ذلك ، لأنه قد كان بالمدينة مَنْ يُنكر ذلك وإن قتلوا ، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرون ذلك ؛ كالشام والبصرة والحجاز واليمن ومكة وخراسان ، وكثير من أهل الكوفة ، وهؤلاء مسلمون ، فيجب أن تعتبر أقوالهم في الإجماع ، فإذا لم يدخلوا فيمن أجلب عليه ، لم ينقد الإجماع على خلعه ولا على إباحتها ، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأول .

[ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان والرد عليها]

فأما الكلام في المطاعن المفصلة التي طعن بها فيه ، فنحن نذكرها ، ونحكي ما ذكره قاضي القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى (١) .



الطعن الأول :

قال قاضي القضاة في " المغنى " : فَمَا طُعِنَ بِهِ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ : إِنَّهُ وَلَّى أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَا يَصْلَحُ لِذَلِكَ وَلَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ ؛ وَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُ الْفَسْقُ وَالْفَسَادُ ، وَمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، مِرَاعَاةَ مِنْهُ لِحُرْمَةِ الْقِرَابَةِ ، وَعَدُولًا عَنِ مِرَاعَاةِ حُرْمَةِ الدِّينِ وَالنَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ وَتَكَرَّرَ ؛ وَقَدْ كَانَ عَمْرُ حَذْرَهُ مِنْ ذَلِكَ ؛ حَيْثُ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَلِفٌ بِأَقَارِبِهِ ، وَقَالَ لَهُ : إِذَا وَرَيْتَ هَذَا الْأَمْرَ فَلَا تَسَلِّطْ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ . فَوَقَعَ مِنْهُ مَا حَذَّرَهُ إِيَّاهُ ، وَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَنْفَعِ الْعَتَبُ ، وَذَلِكَ نَحْوِ اسْتِعْمَالِهِ الْوَلِيدَ بْنِ عُقْبَةَ (٢) ، وَتَقْلِيدِهِ إِيَّاهُ ،

(١) نقله المرتضى في الشافي ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخو عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس . وولاه عثمان الكوفة بعد عزل سعد بن أبي وقاص ؛ ثم عزله عنها بعد أن ثبت عليه شرب الخمر ؛ في خبر مشهور . الإصابة ٣ : ٦٠١

حتى ظهر منه شربُ الخمر ؛ واستعماله سعيد بن العاص^(١) حتى ظهرت منه الأمور التي عندها أخرجَه أهل الكوفة ، وتوليته عبد الله بن أبي سرح^(٢) ، وعبد الله بن عامر بن كرز^(٣) ؛ حتى روى عنه في أمر ابن أبي سرح أنه لما نظَّم منه أهلُ مصر وصرفه عنهم بمحمد بن أبي بكر ، كاتبه بأن يستمرَّ على ولايته ، فأبطن خلافَ ما أظهر ، ففعل من غرضه خلاف الدين . ويقال إنه كاتبه بقتل محمد بن أبي بكر وغيره ممن يرد عليه ، وظفر بذلك الكتاب ، ولذلك عَظُمَ التَّظَلُّمُ من بعد ، وكثر الجمع ، وكان سبب الحصار والقتل ؛ حتى كان من أمرِ مروان وتسلطه عليه وعلى أموره ما قتل بسببه ؛ وذلك ظاهر لا يمكن دَفْعُهُ .

قال رحمه الله تعالى : وجوابنا عن ذلك أن نقول : أما ما ذُكِرَ من تَوَلِيته مَنْ لا يجوز أن يُستعمل ، فقد علمنا أنه لا يمكنُ أن يدعى أنه حين استعملهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح ؛ لأن الذي ثبتَ عنهم من الأمور القبيحة حَدَثَ من بعد ، ولا يمتنع كونهم في الأولِ مستورين في الحقيقة أو مستورين عنده ؛ وإنما كان يجب تخطيطته لو استعملهم ؛ وهم في الحال لا يصلحون لذلك .

فإن قيل : فلما علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم !

قيل : كذلك فَعَلَ ؛ لأنه إنما استعمل الوليد بن عقبة قبل ظهور شرب الخمر عنه

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي ولاء عثمان الكوفة بعد الوليد ابن عقبة ؛ ثم شكاه أهل الكوفة ؛ لتجبروا غاضة فيه ، وكتبوا إلى عثمان : لا حاجة لنا في وليدك ولا سعيدك ؛ فنزله . الاستيعاب لابن عبد البر ٥٤٠ .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب القرشي العامري ، أخو عثمان من الرضاة ؛ كان على نصيب في زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ؛ وانفتح فرريقية ، الإصابة ٣ . ٣٠٩ .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي ، ابن خال عثمان بن عفان عزل عثمان أباً موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن أبي العاص عن فارس ؛ وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر . الاستيعاب لابن عبد البر ٣٧٥ .

فلما شهد عليه بذلك جَلَدَه الحدّ وصرّفه . وقد روى مثله عن عمر ، فإنه ولى قُدّامة بن مَظعونَ بعضَ أعماله ، فشهدوا عليه بشرب الخمر ، أشخصه وجَلَدَه الحدّ ؛ فإذا عُدّ ذلك في فضائلِ عمر لم يجز أن يعدّ ما ذكره في الوليدِ من معائبِ عثمان . ويقال : إنه لما أشخصه أقام عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد اعتذر من عزله سعد بن أبي وقاص بالوليد ؛ بأن سعداً شكاه أهل الكوفة ، فأداه اجتهاده إلى عزله بالوليد .

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولى مكانه أبا موسى ، وكذلك عبد الله ابن أبي سرح عزله وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، ولم يظهر له في باب مروان ما يوجب أن يصرّفه عمّا كان مستعملاً فيه ، ولو كان ذلك طعناً لوجب مثله في كلِّ مَنْ ولى ، وقد علمنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولى الوليد بن عُقبة ، فحدث منه ما حدث . وحدث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة ، كالقَعْقاع بن شور ، لأنه ولاه على ميسان ^(١) فأخذ ما لها ولحق بمعاوية ، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذربيجان . وولى أبا موسى الحكم ، فكان منه ما كان ، ولا يجب أن يعاب أحد بفعل غيره ؛ وإذا لم يلحقه عيب في ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيما بعده .

وقولهم : إنه قَسَمَ أكثر الولايات في أقاربه ، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين ، وقد كان عمر حدّره من ذلك ، فليس بعيب ؛ لأنّ تولية الأقارب كتولية الأبعاد ؛ في أنه يحسُن إذا كانوا على صفات مخصوصة . ولو قيل إنّ تقديمهم أولى لم يمتنع ، إذا كان المولى لهم أشدّ تمكناً من عزلهم ، والاستبدال بهم ، وقد ولى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة ، وعبيد الله بن العباس اليمن ، وُوِّقَ بن العباس مكة ؛ حتى قال مالك الأشرع عند ذلك :

(١) ميسان : كورة بين البصرة وواسط ؛ فتحت في أيام عمر بن الخطاب .

عَلَىٰ مَاذَا قَتَلْنَا الشَّيْخَ أَمْسَ ! فَمَا يُرْوَى ؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدى ما وجب عليه في اجتهاده .

فأما قولهم : إنه كتب إلى ابن أبي سرح حيث ولى محمد بن أبي بكر بأنه يقتله ويقتل أصحابه ، فقد أنكر ذلك أشدَّ إنكار ، حتى حلف عليه ، وبين أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته . وكان في جملة مَنْ خاطبه في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام ، فقبل عذره . وذلك بين ؛ لأنَّ قول كلِّ أحد مقبول في مثل ذلك ، وقد علم أنَّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، فهو بمنزلة الخبر الذي يجوز فيه الكذب .

فإن قيل : وقد علم أنَّ مروان هو الذي زوّر الكتاب ، لأنه هو الذي كان يكتب عنه ، فهلاً أقام فيه الحدَّ !

قيل : ليس يجب بهذا القدر أن يُقطع على أنَّ مروان هو الذي فعل ذلك ، لأنه وإن غلب ذلك في الظنِّ ، فلا يجوز أن يحكم به ، وقد كان القوم بسوموته تسليم مروان إليهم ؛ وذلك ظلم ؛ لأنَّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدَّ على مَنْ يستحقه أو التأديب ، ولا يحلُّ له تسليمه إلى غيره ؛ فقد كان الواجب أن يُثبتوا عنده ما يوجب في مروان الحدَّ والتأديب ليفعله به ؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحقّ التعنيف . وقد ذكر الفقهاء في كتبهم أن الأمر بالقتل لا يُوجب قوداً ولا دية ولا حداً ، فلو ثبت في مروان ما ذكره لم يستحقّ القتل وإن استحقّ التعزير ، لكنَّه عدل عن تعزيره ؛ لأنه لم يثبت ؛ وقد يجوز أن يكون عثمانُ ظنَّ أنَّ هذا الفعل فعل بعض من يعادى مروان تقييحا لأمره ؛ لأنَّ ذلك يجوز ، كما يجوز أن يكون من فعله ؛ ولا يعلم كيف كان اجتهاده وظنه ! وبعد فإنَّ هذا الحدّ من أجل ما تقدموا عليه ؛ فإن كان شيء من ذلك يُوجب خلع عثمان وقلته ؛ فليس إلا هذا ؛ وقد علمنا أنَّ هذا الأمر لو ثبت ما كان يُوجب القتل ؛ لأنَّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل ؛ سيما قبل وقوع القتل المأمور به ؛ فنقول^(١) لهم : لو ثبت ذلك على عثمان أكان يجبُ قتله ! فلا يمكنهم ادعاء

(١) الشافعي فيقال لهم .

ذلك ، لأنه بخلاف الدين ؛ ولا بد أن يقولوا : إن قتله ظلم ، وكذلك حبسه في الدار ، ومنعه من الماء ، فقد كان يجب أن يدفع القوم عن كل ذلك ، وأن يقال : إن من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئا .

وفي القول بأن الصحابة اجتمعوا على ذلك كلهم ، تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك غير جائز ، وقد عُلِمَ أيضا أن المستحق للقتل والخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب ، وعُلِمَ أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنع أهل الشام من الماء في صيفين ؛ وقد تمكن من منعهم . وكل ذلك يدل على كون عثمان مظلوما ، وأن ذلك من صنوع الجهال ، وأن أعيان الصحابة كانوا كارهين لذلك . وأيضا فإن قتله لو وجب ، لم يجز أن يتولاه العوام من الناس . ولا شبهة أن الذين أقدموا على قتله كانوا بهذه الصفة ؛ وإذ اصح أن قتله لم يكن لهم ، فمنعهم والتكبير عليهم واجب .

وأيضا فقد علم أنه لم يكن من عثمان ما يستحق به القتل ؛ من كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحسان ، أو قتل نفس بغير حق ؛ وأنه لو كان منه ما يوجب القتل لكان الواجب أن يتولاه الإمام ؛ فقتله على كل حال منكر ، وإنكار المنكر واجب .

وليس لأحد أن يقول : إنه أباح قتل نفسه ، من حيث امتنع من دفع الظلم عنهم ، لأنه لم يمتنع من ذلك ؛ بل أنصفهم ، ونظر في حالهم . ولأنه لو لم يفعل ذلك لم يحل لهم قتله ، لأنه إنما يحل قتل الظالم إذا كان على وجه الدفع . والمروي أنهم أحرقوا بابه ، وهجموا عليه في منزله ، وبعجوه بالسيف والمشاقص ^(١) ، وضربوا يده زوجته لما وقعت عليه ، واتهبوا متاع داره ؛ ومثل هذه القتل لا تحل في الكافر المرتد ، فكيف يظن أن الصحابة لم ينكروا ذلك ، ولم يعدوه ظلما ؛ حتى يقال إنه مستحق من حيث لم يدفع القوم عنه ! وقد تظاهر الخبر بما جرى من تجمع القوم عليه ، وتوسط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم ، وأنه

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

بذل لم يأراده ، وأعتبهم^(١) ، وأشهد على نفسه بذلك ؛ وإن الكتاب الموجودَ بعد ذلك المتضمنَ لقتل القوم ، ووقف عليه - ومَن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام^(٢) - خلفَ أنه ما كتبه ، ولا أمرَ به ؛ فقال له : فمنَ تتهم ؟ قال : ما أتهم أحدا ، وإن للناسِ حَيلاً .

والرواية ظاهرة أيضا بقوله : إن كنت أخطأتُ أو تعمدت فإني تائب ومستغفر ؛ فكيف يجوز والحال هذه أن تهتك فيه حرمة الإسلام وحرمة البلد الحرام ! ولا شبهة في أن القتل على وجه الغيلة لا يحل فيمن يستحق القتل ؛ فكيف فيمن لا يستحقه ! ولولا أنه كان يمنع من محاربة القوم ظناً منه أن ذلك يؤدي إلى القتل الذريع ، لكثُر أنصاره . وقد جاء في الرواية أن الأنصارَ بدأت معونته ونصرته ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام ، فقال له : قل لأبيك فلتأني ؛ فأراد أمير المؤمنين عليه السلام المصيرَ إليه ، فمنعه من ذلك محمد ابنه ، واستعان بالنساء عليه ، حتى جاء الصريح^(٣) بقتل عثمان ، فمدَّ يده إلى القبلة ، وقال : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . فإن قالوا : إنهم اعتقدوا أنه من المفسدين في الأرضِ ، وأنه داخل تحت آية المحارِبين .

قيل : فقد كان يجب أن يتولى الإمام هذا الفعل ، لأن ذلك يجري مجرى الحدِّ . وكيف يُدعى ذلك ، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم ؛ حتى روى أنه قال لعبيده ومواليه ، وقد هموا بالقتال : منْ أعمد ضيفه فهو حُرٌّ ، ولقد كان مؤثراً لنكير ذلك الأمر بما لا يؤدي إلى إراقة الدماء والفتنة ؛ ولذلك لم يستعين بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وإن كان لما اشتد الأمر ، أعانه منْ أعان ؛ لأن عند ذلك تجب النصرة والمعونة ؛ فحيث

(١) أعتبهم : أرضاهم .

(٢) عبارة الشافعي : « وذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الكتاب »

(٣) الصريح : الغيث .

كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده وإعانتته بالحرب امتنعوا وتوقفوا ، وحيثُ
اشتدَّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلب ذلك في ظنه .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال ^(١) : أما قوله : لم يكن عالما
بجمال الفسقة الذين ولّاهم قبل الولاية ؛ فلا تعويل عليه ؛ لأنه لم يولِّ هؤلاء النفر إلا
وحالهم مشهورة في الخلاعة والمجانة والتجرّم والتهتك ؛ ولم يختلف اثنان في أنّ الوليد بن
عقبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدين على استقبال ولايته للكوفة ؛ بل
هذه كانت سنته والعادة المعروفة منه ؛ وكيف يخفى على عثمان - وهو قريبه ولصيقه وأخوه
لأمته - من حاله ما لا يخفى على الأجانب الأبعاد ! ولهذا قال له سعد بن أبي وقاص في رواية
الواقدي ، وقد دخل الكوفة : يا أبا وهب ^(٢) ، أمير أم زائر؟ قال : بل أمير ، فقال سعد :
ما أدري أحمقتُ بعدك أم كنتُ ^(٣) بعدى ! قال : ما حمقتُ بعدى ولا كنتُ بعدك ، ولكن
القوم ولّوا منكرا فاستأثروا ^(٤) . فقال سعد : ما أراك إلا صادقا .

وفي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي أنّ الوليد لما دخل الكوفة مرَّ على مجلس
عمرو بن زُرارة النَّخعي ، فوقف فقال عمرو : يا معشر بني أسد ، بثما استقبلنا به أخوكم
ابن عَفَّان ! أمِن عدله أن ينزعَ عَنَّا ابنَ أبي وقاص ، الهَينَ اللَّينَ السَّهلَ القَريب ،
ويبعثَ بَدَلَه أخاه الوليد ، الأحمق الماغن الفاجر قديما وحديثا ! واستعظم الناسُ مقدّمه ،
وعزَّل سعد به ، وقالوا : أراد عثمانُ كرامةَ أخيه بهوان أمة محمد صلى الله عليه ! وهذا تحقيقُ
ما ذكرناه من أنّ حاله كانت مشهورة قبل الولاية ، لا ريب فيها عند أحدٍ ، فكيف

(١) الشافعي ص ٢٦٩

(٢) أبو وهب كنية الوليد بن عقبة .

(٣) من الكيس ، وهو خلاف الحق .

(٤) الشافعي : « ملكوا فاستأثروا » .

يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ! وفي الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ (١) ، فالؤمن هاهنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ؛ حلى ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٢) ، والسبب في ذلك أنه كذب على بنى المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وادعى أنهم منعه الصدقة . ولو قصصنا مخازيه المتقدمة ، ومساويه لطلال بها الشرح .

وأما شربه الخمر بالكوفة وسكره ، حتى دخل عليه [من دخل] (٣) ، وأخذ خاتمه من إصبه ؛ وهو لا يعلم ؛ فظاهر ، وقد سارت به الركبان . وكذلك كلامه في الصلاة ، والتفاته إلى من يفقدى به فيها وهو سكران ؛ وقوله لهم : أزيدكم ؟ فقالوا : لا ، قد قضينا صلواتنا ، حتى قال الخطيئة في ذلك :

شَهْدَ الْخَطِيئَةِ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ	أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْقَدْرِ (٤)
نَادَى وَقَدْ نَفَدَتْ صَلَاتُهُمْ	أَزِيدَكُمْ ثَمَلًا وَمَا يَدْرِي (٥)
لِيزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا	مِنْهُ لِقَادِمٍ عَلَى عَشْرِ
فَأَبُوا أَبَا وَهْبٍ وَلَوْ فَعَلُوا	لَقَرْنَتْ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٦)

(١) سورة السجدة ١٨

(٢) سورة المحرات ٦

(٣) تكملة من كتاب الشافى .

(٤) ديوانه ٨٥

(٥) الديوان : « تمت صلاتهم » .

(٦) في الديوان موضع هذين البيتين بيت واحد ، وهو قوله :

لِيزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا لَقَرْنَتْ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ

حَبَسُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ خَلَوْا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي (١)
وقال فيه أيضا :

تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَزَادَ فِيهَا عِلَانِيَةً وَجَاهَرَ بِالنِّفَاقِ (٢)
وَمَجَّ الْخَمْرَ عَنْ سُنَنِ الْمُصَلِّي وَنَادَى وَالْجَمِيعُ إِلَى افْتِرَاقِ
أَزِيدِكُمْ هَلَى أَنْ تَحْمَدُونِي فَالِكُمْ وَمَالِي مِنْ خَلَاقِ

وأما قوله : إنه جلده الحدّ وعزله ، فبعد أيّ شيء كان ذلك ! ولم يعزله إلا بعد أن دافع ومانع ، واحتجّ عنه وناضل ، ولو لم يقهره أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عزّله ، ولا أمكن من جلده . وقد روى الواقدي أن عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرب الخمر أوعدهم وتهدّدهم .

قال الواقدي : ويقال إنه ضرب بعض الشهود أيضاً أسواطاً، فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام ، فشكوا إليه ، فأتى عثمان ، فقال : عطّلت الحدود ، وضربت قوما شهدوا على أخيك ، فقلّبت الحكم ، وقد قال لك عمر : لا تحمل بنى أمية وآل أبي معيط على رقاب الناس ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن تعزله ولا تولّيه شيئا من أمور المسلمين ، وأن تسأل عن الشهود ؛ فإن لم يكونوا أهل ظنّة ولا عداوة ، أقمت على صاحبك الحدّ . وتكلّم في مثل ذلك طلحة والزبير وعائشة ، وقالوا أقوالا شديدة ، وأخذته الألسن من كلّ جانب ، فحينئذ عزّله ، ومكّن من إقامة الحدّ عليه .

(١) رواية الديوان :

خَلَعُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكَوْا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

وبعد :

وَرَأَوْا شَمَائِلَ مَا جَدَّ أَنْفٍ يُعْطَى عَلَى الْمَيْسُورِ وَالْعُسْرِ
فَنَزَعَتْ مَكْذُوبًا عَلَيْكَ وَلَمْ تُرُدِّدْ إِلَى عَوَزٍ وَلَا فَقْرٍ

(٢) ديرانه ١١٩

وقد روى^(١) الواقدي أن اليهود لما شهدوا عليه في وجهه، وأراد عثمان أن يحدّه ألبسه جبّة خز، وأدخله بيتا، فجعل إذا بعث إليه رجلا من قریش ليضربه، قال له الوليد: أنشدك الله أن تقطع رحى وتغضب أمير المؤمنين! فلما رأى على عليه السلام ذلك، أخذ السوط ودخل عليه، فجلده به. فأى عذر لعثمان في عزله وجلده بعد هذه الممانعة الطويلة، والمدافعة الشديدة!

وقصة الوليد - مع الساحر الذي كان يلعب بين يديه، وبغرة الناس بمكره وخديعته، وأن جندب بن عبد الله الأزدي امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله، وقال له: احب نفسك إن كنت صادقا، وإن الوليد أراد أن يقتل جندبا بالساحر، حتى أنكر الأزدي ذلك عليه، فحبسه وطال حبسه حتى هرب من السجن - معروفة مشهورة.

فإن قيل: فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عتبة هذا صدقة بنى المصطلق، وولاه عمر صدقة تنلب، فكيف تدعون أن حاله في إنّه لا يصلح للولاية ظاهرة!

قلنا: لا جرّم، إنه غرّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذب على القوم حتى نزلت فيه الآية التي قدمنا ذكرها، فعزله. واس خطب ولاية الصدقة مثل خطب ولاية الكوفة، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله:

إذا ما شدت الرأس منى بمشوذٍ فويلك منى تغلب ابنة وائل^(٢)

عزله. وأما عزل أمير المؤمنين عليه السلام بعض أمرائه لما ظهر من الحدّث كلقمقاع بن شور وغيره، وكذلك عزل عمر قدامة بن مظعون لما شهد عليه بشرب الخمر، وجلده له؛ فإنه لا يشبه ما تقدّم؛ لأن كل واحد ممن ذكرناه لم يول إلا من هو حسن الظاهر عنده وعند الناس، غير معروف باللعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ما ظهر

(١) كذا في ١، ج، وفي ب والشاق: «وروى».

(٢) اللسان ٥: ٣١، والشوذ: العامة.

لم يحام عنه ولا كذب الشهود عليه وكأبرهم ، بل عزله مختاراً غير مضطر ، وكله هذا لم يجر في أمراء عثمان ، وقد بينا كيف كان عزل الوليد وإقامة الحد عليه .

فإنما أبو موسى فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يولّه الحكم مختاراً ، لكنه غلب على رأيه وقهر على أمره ، ولا رأى لمقهور .

فإنما قوله : إن ولاية الأقارب كولاية الأبعد ؛ ^(١) بل الأقارب أولى ؛ من حيث كان التمكن من عزلهم أشد ، وذكر تولية أمير المؤمنين عليه السلام ^(٢) أولاد العباس رحمه الله تعالى وغيرهم ^(٣) ؛ فليس بشيء ؛ لأن عثمان لم ينقم عليه تولية الأقارب من حيث كانوا أقارب ، بل من حيث كانوا أهل بيت الظنة والتهمة ؛ ولهذا حذره عمر وأشعر بأنه يحملهم على رقاب الناس . وأمير المؤمنين عليه السلام لم يول من أقاربه متهماً ولا ظنينا ؛ وحين أحس من ابن العباس ببعض الريبة لم يمهله ولا احتمله ، وكتبه بما هو شائع ظاهر ؛ ولو لم يجب على عثمان أن يعدل عن ولاية أقاربه إلا من حيث جعل عمر ذلك سبباً عدوله عن النص عليه ، وشرط يوم الشورى عليه ألا يحمل أقاربه على رقاب الناس ، ولا يؤثرهم لمكان القرابة بما لا يؤثر به غيرهم ؛ لكان صارقاً قويا ، فضلاً عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خصالم الذميمة وطرائقهم القبيحة .

فإنما سعيد بن أبي العاص ؛ فإنه قال في الكوفة : إنما السواد بستان لقريش ، تأخذ منه ما شئت وتترك ، حتى قالوا له : أنجمل ما أفاء الله علينا بستانك ولقومك ! ونابدوه ، وأفضى الأمر إلى تسييره من سير عن الكوفة ؛ والقصة مشهورة ، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيداً من دخولها ، وتكلموا فيه وفي عثمان كلاماً ظاهراً ، حتى

(١-١) كذا في الأصول وفي الشافى : « بل الأبعد أولى أن يقدم الأقارب عليهم » .

(٢-٢) الشافى : « عبد الله وعبيد الله وقتابي العباس وغيرهم » .

كادوا يخلعون عثمان ، فاضطر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى ، نلم بصرف سعيداً مختاراً ، بل ما صرفه جُملة ؛ وإنما صرفه أهل الكوفة عنهم^(١) .

فأما قوله : إنه أنكر الكتاب المتضمن لقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه ، وحلف على أن الكتاب ليس بكتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قبل عذره ؛ فأول ما فيه أنه حكى القصة بخلاف ما جرت عليه ؛ لأن جميع مَنْ يروى هذه القصة ذكر أنه اعترف بالخاتم والغلام والراحلة ، وإنما أنكر أن يكون أمر الكتاب بالكتابة ؛ لأنه روى أن القوم لما ظفروا بالكتاب قدموا المدينة ، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وجماعة الأصحاب ، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم ، وأخبروه بقصة الغلام ، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين ، فقال له : أهذا الغلام غلامك؟ قال : نعم ، قال : والبعيرُ بعيرك؟ قال : نعم ، قال : أفأنت كتبتَ هذا الكتاب؟ قال : لا ، وحلف بالله أنه ما كتب الكتاب ، ولا أمر به . فقال له : فإخاتم خاتمك؟ قال :

نعم ، قال : فكيف يخرجُ غلامك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك ، ولا تعلم به !
وفي رواية أخرى أنه لما واقفه عليه ، قال عثمان : أما الخط فخط كاتبى ، وأما الخاتم فهو^(٢) خاتمى ، قال : فمن تتهم؟ قال : أتهمك وأتهم كاتبى ؛ فخرج أمير المؤمنين عليه السلام مغضباً ، وهو يقول : بل بأمرك . ولزم داره ، وبعد عن توسط أمره ، حتى جرى عليه ما جرى .

وأعجبُ الأمور قوله لأمر المؤمنين عليه السلام : « إني أتهمك » وتظاهره بذلك وتلقيه إياه في وجهه بهذا القول ؛ مع بعده من التهمة والظنة في كل شيء ، وفي أمره خاصة ؛ فإن القوم في الدفعة الأولى أرادوا أن يعجلوا له ما أخبروه ؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسطه وأصلحه ، وأشار عليه بأن يقارِبهم ويعينهم ؛ حتى انصرفوا عنه ، وهذا

(١) ساقطه من ا ، ج ، وهي في ب والشاق .

(٢) كذا في ا والشاق ، وفي ب ، ج : « فلى » .

فعل النَّصِيح المشفق الحَدِيب المتحنُّن ، ولو كان عليه السلام - وَحُوشِيَ من ذلك - مَتَمَّا عليه لما كان للتهمة عليه مجال في أمر الكتاب خاصة؛ لأنَّ الكِتَابَ بِحِطِّ عَدُوِّهِ مَرُوان ؛ وفي يد غلام عثمان ، ومحمول عَلَى بَعِيرِهِ ، ومختوم بِخَاتَمِهِ ، فَأَيُّ ظَنِّ تَعَلَّقَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام في هذا المكان ، لولا العداوةُ وَقِلَّةُ الشُّكْرِ لِلنِّعْمَةِ !

ولقد قال له المصريون لما جَحَدَ أن يكون الكتاب كتابه شيئاً لا زيادة عليه في باب الحِجَّةِ ؛ لأنَّهم قالوا له : إذا كنتَ ما كتبتَ ولا أمرتَ به ، فأنتَ ضعيفٌ ؛ من حيثُ تَمَّ هَلِيكَ أن يَكْتُبَ كَاتِبُكَ بما نَحْتَمِهُ بِخَاتَمِكَ ، وَيُفْغِذَهُ بِيَدِ غَلَامِكَ وَعَلَى بَعِيرِكَ بِغَيْرِ أَمْرِكَ ؛ وَمَنْ تَمَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ لا يَصْلُحُ أن يكون والياً على أمور المسلمين . فاختلَعَ عن الخِلافةِ على كلِّ حال .

قال : ولقد كان يجب عَلَى صاحب " المغني " أن يستحي من قوله : إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِلَ عَذْرَهُ ؛ وكيف يقبل عَذْرَ مَنْ يَتَّهَمُهُ وَيَسْتَفِشُّهُ ؛ وهو له ناصح ! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف .

وقوله : إنَّ الكِتَابَ يَجُوزُ فِيهِ التَّزْوِيرُ ، ليس بشيء ، لأنه لا يجوز التزويرُ في الكِتَابِ وَالغُلَامِ وَالْبَعِيرِ ؛ وهذه الأمور إذا انضاف بعضها إلى بعض ، بَعْدَ فِيهَا التَّزْوِيرُ ؛ وقد كان يجب عَلَى كلِّ حالٍ أن يبيحَ عن القِصَّةِ وَعَمَّنْ زَوَّرَ الكِتَابَ ، وَأَنفَذَ الرِّسُولَ ، ولا ينام عن ذلك ؛ حتى يَعْرِفَ من أين دُهِىَ ؟ وكيف تَمَّتْ الحيلةُ عَلَيْهِ ، فيحترِزَ من مثلها ، ولا يفضى عن ذلك إغضاء سائرِهِ ، خائف من بحثه وكشفه .

فأما قوله : إنه وإن غلبَ عَلَى الظَّنِّ أن مروان كتب الكتاب ، فإنَّ الحُكْمَ بِالظَّنِّ لا يجوزُ ، وتسليمه إلى القوم على ما سأله إياه ظلم ، لأنَّ الحدَّ والأدبَ إذا وجبَ عَلَيْهِ ، فالإمام يُقِيمُهُ دُونَهُمْ ؛ فَتَعَلَّلَ بِمَا لا يَجْدِي ، لأنَّنا لا نعمل إلا على قوله في أنه لم يعلم أنَّ

مروان هو الذي كتب الكتاب ؛ وإلنما خلب على ظنه ! أما كان يستحقّ مروان بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتهديد ! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه ، وقوة الأمارات في أنّه جالب الفتنة وسبب انفرقة أن يبعده عنه ، ويطرّده من داره ، ويسلبه ما كان يخصّه به من إكرامه ! وما في هذه الأمور أظهر من أن ينبه له .

فأما قوله : إنّ الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا ديةً ، سيما قبل وقوع القتل المأمور به ؛ فهب أن ذلك على ما قال ، أما أوجب^(١) الله تعالى على الأمر بقتل المسادين تأديباً ولا تعزيراً ولا طرداً ولا إبعاداً !

وقوله : لم يثبت ذلك ، قد مضى ما فيه ؛ وبين أنه لم يستعمل فيه ما يجب استعماله من البحث والكشف ، وتهديد المتهم وطرّده وإبعاده والتبري من التهمة بما يتبرأ به من مثلها .

فأما قوله : إن قتله ظلم وكذلك حبسه في الدار ، ومنعه من المساء ، وأنه لو استحقّ القتل أو الخلع لا يحلّ أن يمنع الطعام والشراب . وقوله : إن من لم يدفع عن ذلك من الصحابة يجب أن يكون مخطئاً . وقوله : إن قتله لو وجب لم يجز أن يتولاه العوام من الناس ، فيأطل ، لأنّ الذين قتلوه غير منكرين أن يكونوا نعمداً وقتله ؛ وإنما طالبوه بأنّ يخلع نفسه لما ظهر لهم من أحدائه ، ويعتزل عن^(٢) الأمر اعتزالاً يتمكنون معه من إقامة غيره ، فليج وصم على الامتناع ، وأقام على أمر واحد ؛ فقصد القوم بحضره أن يُلجئوه إلى خلع نفسه ، فاعتصم بداره ، واجتمع إليه نفر من أوباش بني أمية ، يدفعون عنه ، ويرمون منّ دنا إلى الدار ، فاتمى الأمر إلى القتال بتدريج ؛ ثم إلى القتل ، ولم يكن القتال ولا القتل مقصودين في الأصل ، وإنما أفضى الأمر إليهما على ترتيب ، وجرى ذلك مجرى

(١) السابق : « يوجب »

(٢) ج : « يعتزل الأمر » .

ظالم غلب إنسانا على رَحْله أو متاعه ، فالواجب على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلص ماله من يده ، ولا يقصدَ إلى إتلافه ولا قتله ، فإن أفضى الأمر إلى ذلك بلا قصد كان معذورا ، وإنما خاف القومُ في التأنى به ، والصبر عليه ، إلى أن يخلع نفسه من كُتْبِهِ التي طارت في الآفاق ، يستنصر عليهم ويستقدم الجيوش إليهم ، ولم يأمنوا أن يَرِدَ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّي ذلك إلى الفتنة الكبرى والبليّة العظمى .

وأما منع الماء والطعام فما فَوِّلَ ذلك إلا تضييقا عليه ، ليخرج ويُجَوِّج إلى الخلع الواجب عليه . وقد يُستعمل في الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرّم من ذوى الجنائيات ، وتعذر إقامة الحدّ عليه لمكان الحرّم . على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منع الماء والطعام ، وأنفذ مَنْ مَكَّنَ مَنْ حَمَلَ ذلك ، لأنّه قد كان في الدار من الحرّم والنِّسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منعه من الطعام والشراب . ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمّع عليه والتضايف فيه حكم منع الطعام والشراب في القُبْحِ والمنكر ، لأنكره أمير المؤمنين عليه السلام ، ومنع منه كما منع من غيره ، فقد روى عنه عليه السلام أنّه لما بلغه أنّ القوم قد منعوا الدار من الماء ، قال : لا أرى ذلك ، إنّ في الدار صبيانا وعِيالا ، لا أرى أنّ يُقتل هؤلاء عطشا بجُرْمِ عثمان . فصرّح بالمعنى الذي ذكرناه ، ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلع ، بل كان مساعدا على ذلك ومشاورا فيه .

فأما قوله : إن قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل تدفّع ؛ فقد بينا أنه لا ينكر أن يكون قتله وقع على ذلك^(١) الوجه ، لأنّه في تمسكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها ، في حكم الظالم لهم ، فدافعته واجبة .

وأما قصة الكتاب الموجود ؛ فلم يَحْكِيهَا على الوجه ؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها .

وأما قوله : إنه قال : إن كنتُ أخطأتُ أو تعمّدتُ ؛ فأبى تائب مستغفر ؛ فقد أجابهُ القوم عن هذا ، وقالوا : هكذا قُلْتَ في المرّة الأولى ؛ وخطبتَ على المنبرِ بالتوبة والاستغفار ؛ ثم وجدنا كتابك بما يقتضى الإصرار على أقبح ما عتبتنا منه ^(١) ؛ فكيف نثق بتوبتك واستغفارك !

فأما قوله : إن القتل على وجه الغيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لا يستحقه ! فقد بينا أنه لم يكن على سبيل الغيلة ؛ وأنه لا يمتنع أن يكون إنما وقع على سبيل المدافعة .

فأما ادعاؤه أنه منع من نصرته ، وأقسم على عبيده بترك القتال ؛ فقد كان ذلك لعمري في ابتداء الأمر ظناً منه أن الأمر ينصلح ؛ والقوم يرجعون عمّا همّوا به ؛ فلما اشتدّ الأمر ، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع ، لم يمنع أحداً من نصرته والحاربة عنه ، وكيف يمنع من ذلك ، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصره ويستصرخه ! والذي يدلّ على أنه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذي ذكرناه دون غيره ، أنه لا خلاف بين أهل الرواية في أن كتبه تفرقت في الآفاق يستنصرُ ويستدعى الجيوش ؛ فكيف يرغب عن نصره الحاضر من يستدعى نصره الغائب !

فأما قوله : إن أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيه ، حتى منعه ابنه محمد ، فقول بعيد مما جاءت به الرواية جدّاً ، لأنه لا إشكال في أن أمير المؤمنين عليه السلام لما واجهه عثمان بأنه يتهمه ويستغسه ، انصرف مغضباً عامداً ، على أنه لا يأتيه أبداً ، قائلاً فيه ما يستحقّه من الأقوال .

فأما قوله في جواب سؤال مَنْ قال إنهم اعتقدوا فيه أنه من المفسدين في الأرض ؛ وأن آية المحاربة تتناوله ، وأنه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه ؛ لأن ذلك يجرى مجرى الحد ؛ فطريف ؛ لأن الإمام يتولى ما يجرى هذا المجرى ؛ إذا كان منصوبا ثابتا ، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولى ما يجرى مجرى الحدود ؛ ومتى لم يكن إمام يقوم بالدفع عن الدين والذب عن الأمة ؛ جاز أن تتولى الأمة ذلك بنفسها .

قال : وما رأيتُ أعجبَ من ادعاء مخالفينا أن أصحابَ الرسول صلى الله عليه وآله كانوا كارهين لما جرى على عثمان ، وأنهم كانوا يعتقدونه منكرًا وظلمًا ، وهذا يجرى عند من تأمله مجرى دفع الضرورات قبل النظر في الأخبار ، وسماع ما ردد من شرح هذه القصة ؛ لأنه معلوم أن ما يكرهه جميع الصحابة أو أكثرهم في دار عزهم ، وبحيث ينفذ أمرهم ونهيمهم لا يجوز أن يتم . ومعلوم أن نفرا من أهل مصر ؛ لا يجوز أن يقدموا المدينة فيغلبوا جميع المسلمين على آرائهم ، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم وسمع ، وهذا ، معلومٌ بطلانه بالبداهة والضرورات ، قبل تصفح الأخبار وتأملها . وقد روى الواقدي عن ابن أبي الزناد ، عن أبي جعفر القاري مولى بني مخزوم ، قال : كان المصريون الذين حصروا عثمان ستائة ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر الكندي ، وعمرو بن الحقي الخزاعي . والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين ، عليهم مالك الأشتر النخعي . والذين قدموا من البصرة مائة رجل ، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدي ، وكان أصحابُ النبي صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يرون أن الأمر يبلغ به القتل ، ولعمري لو قام بعضهم فحنا التراب في وجوه أولئك لا نصرقوا ، وهذه الرواية تضمنت من عدد القوم الوافدين في هذا الباب أكثر مما تضمنته غيرها .

وروى شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : قلت له :

كيف لم يمنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن عثمان؟ فقال: إنما قتل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى عن أبي سعيد الخدري، أنه سُئِلَ عن مقتل عثمان: هل شهده أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: نعم، شهده ثمانمائة.

وكيف يقال: إن القوم كانوا كارهين، وهؤلاء المصريون كانوا يغذون إلى كل واحد منهم، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقد الأمر، لعثمان وجالبه إليه، ومُصَيِّرُهُ في يده، يقول - على مارواه الواقدي، وقد ذُكِرَ له عثمان في مرضه الذي مات فيه: عاجلوه قبل أن يتمادى في مُلكه، فبلغ ذلك عثمان فبعث إلى بئر كان عبد الرحمن يسقى منها نَعْمَهُ، فمنع منها، ووصى عبد الرحمن ألا يصلى عليه عثمان؛ فصلى عليه الزبير - أوسعد بن أبي وقاص - وقد كان حَلَفَ لما تتابعت أحداث عثمان ألا يكلمه أبدا.

وروى الواقدي، قال: لما تُوُفِّي أبو ذر بالربذة^(١) تذاكر أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الرحمن فعل عثمان، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له: هذا عملك! فقال عبد الرحمن: فإذا شئت فخذ سيفك وأخذ سيفي، إنه خالف ما أعطاني.

فأما محمد بن مسلمة؛ فإنه أرسل إليه عثمان يقول له عند قدوم المصريين في الدفعة الثانية: اردد عني، فقال: لا والله لا أكذب الله في سنة مرتين؛ وإنما عني بذلك أنه كان أحد من كلم المصريين في الدفعة الأولى، وضمن لهم عن عثمان الرضا.

وفي رواية الواقدي أن محمد بن مسلمة، كان يموت وعثمان محصور، فيقال له: عثمان مقتول، فيقول: هو قتل نفسه.

(١) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال؛ قريبة من ذات عرق؛ على طريق الحجاز؛ بها قبر أبي ذر الغفاري - واسمه جندب بن جنادة؛ وقد كان خرج إليها مغاضبا لثمان بن عفان رضى الله عنه؛ فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢. معجم البلدان ٤: ٢٢٢.

فأما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وطلحة والزبير وعائشة ، وجميع الصحابة واحدا واحدا ؛ فلو تعاطينا ذكره لطلال به الشرح ؛ ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصلة ، وما صرحوا به من خلمه والإجلاب عليه ؛ فعليه بكتاب الواقدي^(١) ، فقد ذكر هو وغيره من ذلك ما لا زيادة عليه .



الطعن الثاني :

كونه ردّ الحکم بن أبي العاص^(٢) إلى المدينة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله طرّده ، وامتنع أبو بكر من رده ، فصار بذلك مخالفاً للسنة ولسيرة من تقدمه ، مدعياً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، عاملاً بدعواه من غير بينة .

قال قاضي القضاة رحمه الله : وجوابنا عن ذلك أن المروي في الأخبار أنه لما عُوتب في ذلك ذكر أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد ؛ وكذلك روى عنهما ، فكأنهما جعلاً ذلك بمنزلة الحقوق التي تختص ، فلم يقبل فيه خبر الواحد ، وأجرياه مجرى الشهادة ، فلما صار الأمر إليه حكم بعلمه ؛ لأن للحاكم أن يحكم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخنا ، ولا يفصلان بين حدّ وحق ، ولا بين أن يكون العلم قبل الولاية أو حال الولاية ؛ ويقولان : إنه أقوى من البيّنة والإقرار .

وقال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى : إنّه لا وجه يقطع به على كذب روايته في إذن

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ؛ نقل ابن النديم أنه خلف بعد وفاته ستمائة قطر كتباً ؛ كل قطر منها حل رحلين ؛ وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ؛ وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار . ثم أورد أسماء كتبه ؛ منها كتاب التاريخ الكبير . توفي سنة ٢٠٧ . الفهرست ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) هو الحکم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي ، عم عثمان بن عفان ؛ وانظر ترجمته وأخباره في آمد الغابة ٣ : ٣٤ .

النبي صلى الله عليه وآله في رده ، ولا بدّ من تجويز كونه صادقا ؛ وفي تجويز ذلك كونه معذورا .

فإن قيل : الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة ، وقد كانت التهمة في ردّ الحكم قوية لقرابته !

قيل : الواجب على غيره ألا يتهمه ؛ إذا كان لقله وجه يصحّ عليه ؛ لأنه قد نصب منصباً يقتضى زوال التهمة عنه ، وتخل أفعاله على الصحة ، ومتى طرقتنا عليه التهمة أدى إلى بطلان كثير من الأحكام . وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط رحمه الله تعالى : إنه لو لم يكن في رده إذن من رسول الله صلى الله عليه وآله لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد ؛ لأن المنفى إذا كان صلاحاً في الحال ؛ فلا يمتنع أن يتغير حكمه ، باختلاف الأوقات وتغير حال المنفى ؛ وإذا كان لأبي بكر أن يستردّ عمر من جيش أسامة للحاجة إليه - وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بنفوذه - من حيث تغيرت الحال ، فغير ممتنع مثله في الحكم .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا ، فقال : أما دعواه أن عثمان ادعى أن رسول الله صلى الله عليه وآله أذن في ردّ الحكم ، فشيء لم يُسمع إلا من قاضى القضاة ، ولا يُدرى من أين نقله ، ولا في أى كتاب وجدته ! والذي رواه الناس كلهم خلاف ذلك ؛ روى الواقدي من طرق مختلفة وغيره أن الحكم بن أبي العاص لما قدم المدينة بعد الفتح ، أخرجه النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف ، وقال : لا تساكني في بلد أبدا ، فجاءه عثمان فكأّمه فأبى ، ثم كان من أبي بكر مثل ذلك ، ثم كان من عمر مثل ذلك ، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه ، فمشى في ذلك على والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن بن عوف

وعمار بن ياسر؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له : إنك قد أدخلت هؤلاء القوم - يعنون الحكم ومن معه - وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أخرجهم؛ وإنا نذكرك الله والإسلام ومعادك؛ فإن لك معاداً ومنقلباً، وقد أبت ذلك الولاة قبلك، ولم يطمع أحد أن يكلمها فيهم؛ وهذا شيء يخاف الله فيه عليك . فقال عثمان : إن قرابتهم منى ما تعلمون؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيثُ كلمته أطمعني في أن يأذن لهم، وإنما أخرجهم لكلمة بلغته عن الحكم؛ ولم يضرهم مكانهم شيئاً وفي الناس من هو شرّ منهم . فقال عليّ عليه السلام: لأجدُ شرّاً منه؛ ولا منهم، ثم قال : هل تعلم عمر يقول : والله ليحملنّ بني أبي مُعيط على رقاب الناس ! والله إن فعل ليقتلنّه ، فقال عثمان : ما كان منكم أحد ليكون بينه وبينه من القرابة ما بيني وبينه ، وينال من المقدرة ما نلتُ إلا قد كان سيدخله، وفي الناس من هو شرّ منه . قال : فغضب عليّ عليه السلام ، وقال : والله لتأتينا بشرّ من هذا إن سلّمت ، وسترى يا عثمان غيباً ما تفعل ! ثم خرجوا من عنده .

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب " المغنى " ، لأنّ الرجل لما احتفل ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أطمعه في رده ، ثم صرّح بأنّ رعايته فيه القرابة هي الموجبة لرده ومخالفة الرسول عليه السلام . وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لما كلم أبا بكر وعمر في ردّ الحكم أغظاه وزبراه ، وقال له عمر : يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وتأمرنى أن أدخله ! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غير عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والله لئن أشقّ بائنتين كما تشقّ الأبله^(١) أحبّ إليّ من أن أخالف لرسول الله أمراً ، وإياك يا ابن عفان أن تعاودنى فيه بعد اليوم ، وما رأينا

(١) الأبله : خوس النمل ؛ والمثل : د السال بنى وبينك شق الأبله ؛ مثل يضرب في المساواة والامارة في الأمر .

عثمان قال في جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبي بكر وعمر ؛ إن عندى عهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، لأستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً ، وكيف تطيب نفس مُسلم موقر لرسول الله صلى الله عليه وآله معظم له ، أن يأتى إلى عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، مصرّح بعداوته والوقعية فيه ؛ حتى بلغ به الأمرُ إلى أن كان يحكى مشيئته ، طرده رسول الله ، وأبعده ولعنه ؛ حتى صار مشهوراً بأنه طريدُ رسول الله صلى الله عليه وآله - فيكرمه ويردّه إلى حيث أخرج منه ، ويصلّه بالمال العظيم ؛ إمام من مال المسلمين أو من ماله ! إن هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمل والتعلّل بالتأويل الباطل !

فأما قولُ صاحب " المغنى " : إن أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنه شاهد واحد ، وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التي تخصّ ، فأول ما فيه أنه لم يشهد عندها بشيء واحد في باب الحكم على مارواه جميع الناس ؛ ثم ليس هذا من باب الذى يحتاج فيه إلى الشاهدين ، بل هو بمنزلة كل ما يقبلُ فيه أخبارُ الآحاد . وكيف يجوز أن يجزى أبو بكر وعمر تجزى الحقوق ما ليس منها . وقوله : لا بدّ من تجويز كونه صادقاً في روايته ؛ لأنّ القطع على كذب روايته لا سبيل إليه ليس بشيء ؛ لأننا قد بينّا أنه لم يرو عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذنا ، إنما ادعى أنه أطمعه في ذلك . وإذا جوزنا كونه صادقاً في هذه الرواية ؛ بل قطعنا على صدقه لم يكن معذوراً .

فأما قوله : الواجبُ على غيره ألا يتهمه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه ؛ لانتصابه منصباً يزيّل التهمة ؛ فأول ما فيه أن الحاكم لا يجوز أن يحكم بعلمه مع التهمة ، والتهمة قد تكون لها أمارات وعلامات ؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتهم في العادة ، كان مؤثراً ؛ وما لم يكن كذلك فلا تأثير له ، والحكم هو عمّ عثمان ، وقرينه ونسيبه ، ومن

قد تكلم في رده مرة بعد أخرى ، ولو الِ بعد والِ ؛ وهذه كلها أسباب التهمة ، فقد كان يجب أن يتجنب الحكم بعلمه في هذا الباب خاصة ، لتطرق التهمة إليه .

فأما ما حكاه عن أبي الحسين الخياط من أن الرسول صلى الله عليه وآله لو لم يأذن في رده لجاز أن يرده إذا أذاه اجتهاده إلى ذلك ؛ لأن الأحوال قد تتغير ، فظاهر البطلان ؛ لأن الرسول عليه السلام إذا حظر شيئاً أو أباحه لم يكن لأحد أن يجتهد في إباحة المحظور أو حظر المباح ، ومن يجوز الاجتهاد في الشريعة لا يقدم على مثل هذا ؛ لأنه إنما يجوز عندهم فيما لانص فيه . ولو سوغنا الاجتهاد في مخالفة ماتناوله النص لم يؤمن أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى تحليل الحمر وإسقاط الصلاة ، بأن تتغير الحال ، وهذا هدم للشريعة . فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام في الأمرين واحد .



الطعن الثالث :

أنه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي عدة المسلمين ، نحو ما روي أنه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوجهم بناته أربعمائة ألف دينار ، وأعطى مروان مائة ألف عند فتح إفريقية ، ويروي خمس إفريقية وغير ذلك ، وهذا بخلاف سيرة من تقدمه في القسمة على الناس بقدر الاستحقاق ، وإيثار الأبعد على الأقارب .

قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أن من الظاهر المشهور أن عثمان كان عظيم اليسار ، كثير المال ، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهل بيته من ماله ، وإذا احتمل ذلك وجب حمله على الصحة .

وقد قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى : إن الذي روي من دفعه إلى ثلاثة نفر من قريش زوجهم بناته ؛ إلى كل واحد منهم مائة ألف دينار ، إنما هو من ماله ، ولا رواية

تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال ، ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكون أعطاهم من بيت المال ليردّ عَوْضه من ماله ، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك ، كما له أن يُقرض غيره .

وقال شيخنا أبو عليّ أيضا : إن مارُويَ من دفعه خمس إفريقيا لَمَّا فُتحت إلى مروان ؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجهٍ يجب قبوله ؛ وإنما يرويه مَنْ يقصد التشنيع . وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن ابن أبي سَرح لما غزا البحر ، ومعه مروان في الجيش ، ففتح الله عليهم ، وغنموا غنيمةً عظيمةً ، فاشترى مروان من ابن أبي سَرح الخمس بمائة ألف ، وأعطاه أكثرها . ثم قدّم على عثمان بشيرا بالفتح ، وقد كانت قلوب المساهين تعلقت بأمر ذلك الجيش ؛ فرأى عثمان أن يهبّ له ما بقى عليه من المال ، وللإمام فعلٌ مثل ذلك ، ترغيبا في مثل هذه الأمور .

قال : وهذا الصنّع كان منه في السنّة الأولى من إمامته ، ولم يبرأ أحد منه فيها ، فلا وجهَ للتعلّق بذلك .

وذكر أبو الحسين الخياط أيضا فيما أعطاه أقاربه أنّه وسلّمهم لحاجتهم ، فلا يمتنع مثله في الإمام إذا رآه صلاحا . وذكر في إقطاعه القطائع لبني أمية ، أنّ الأئمة قد تحصّل في أيديهم الضياع ، لأمالك لها ، ويعلمون أنّها لا بدّ فيها ممن يقوم بإصلاحها وعمارتها ، ويؤدّي عنها ما يجب من الحقّ ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به ، وله أيضا أن يهدّ بعضها على بعض بحسب ما يعلم من الصلاح والتألف ، وطريقُ ذلك الاجتهاد .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما قوله : يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله ، فالرواية بخلاف ذلك ، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطى من بيت المال

صلةً لرحمه ، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضرب من العذر ، ولا قال : إن هذه العطايا من مالي ، فلا اعتراض لأحد فيها .

روى الواقدي بإسناده عن المسور بن عتبة ، قال : سمعتُ عثمان يقول : إن أبا بكرٍ وعمر كانا يتأولان في هذا المال طلاق أنفسهما وذوي أرحامهما ، وإني تأولتُ فيه صلةً رحمي .

وروى عنه أيضا أنه كان بحضرته زياد بن عبيد ، مولى الحارث بن كلاب التقي ، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البصرة ، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصَّحاف ، فبكي زياد ، فقال : لا تبك ، فإنَّ عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى أهلي وولدي وقرابتي ابتغاء وجه الله .

وقد روى هذا المعنى عنه من عدة طرق بألفاظ مختلفة .

وروى الواقدي أيضا بإسناده ، قال : قدِمْتُ إبلًا من إبل الصدقة على عثمان ، فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص .

وروى أيضا أنه وتى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاة ، فبلغت ثلثمائة ألف ألف ، فوهبها له حين أتاه بها .

وروى أبو مخنف والواقدي أن الناس أنكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف ، وكلمه علي والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن في ذلك ، فقال : إن له قرابةً ورَحِمًا ، قالوا : فما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذو ورحم ، فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما ، وأنا احتسبُ في إعطاء قرابتي ، قالوا : فهدِيهُمَا والله أحبُّ إلينا من هديك .

وروى أبو مخنف أن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، قدم على عثمان من مكة ، ومعه ناس ، فأمر لعبد الله بثلثمائة ألف ، والكل واحد من القوم بمائة ألف

وَصَكَ^(١) بذلك على عبد الله بن الأرقم - وكان خازن بيت المال - فاستكثره وردَّ الصكَّ به . ويقال إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتابا ، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفعَ المال إلى القوم ، فقال له عثمان : إنما أنت خازن لنا ، فما حملك على ما فعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أراي خازنَ المسلمين ، وإنما خازنك غلامك ، والله لا ألي لك بيتَ المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر ، ويقال : بل ألقاها إلى عثمان ، فرفعها إلى نائل مولاه .

وروى الواقدي أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل ثلثمائة ألف درهم ، فلما دخل بها عليه ، قال له : يا أبا محمد ، إن أمير المؤمنين أرسل إليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك ذو رحم أهل حاجة ففرِّقْ هذا المال فيهم ، واستعنْ به على عيالك ، فقال عبد الله بن الأرقم : مالي إليه حاجة ، مالي إليه حاجة ، وما عملت لأنْ يُثيبني عثمان ، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قدرُ عملي أن أعطى ثلثمائة ألف ، ولئن كان من مال عثمان ما أحبُّ أن أرزاه^(٢) من ماله شيئا . وما في هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه وينبّه عليه .

فأما قوله : ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكون ذلك على طريقتي القرض ؛ فليس بشيء ؛ لأن الروايات أولا تخالف ما ذكره ، وقد كان يجبُ لما نقم عليه وجوه الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال ، أن يقول لهم : هذا على سبيل القرض ، وأنا أردت عَوْضه ، ولا يقول ما تقدم ذكره ، من أنني أصلُ به رَحِمِي ؛ على أنه ليس للإمام أن يقترض من بيت مال المسلمين إلا ما ينصرف في مصلحة لهم مهمة ؛ يعودُ عليهم نفعها ، أو في سدِّ خلة وفاقه لا يتمكنون من القيام بالأمر معها ؛ فأما أن يُقرض المال ليتسع به ،

(١) صك : كتب ، والصك : الكتاب .

(٢) ما أحب أن أرزاه ، أي ما أحب أن أصيب منه شيئا .

وَيُمرِّحُ فِيهِ مَتَرَفِي بَنِي أُمِيَّةٍ وَفُسَّاقِهِمْ فَلَا أَحَدًا يَمِيزُ ذَلِكَ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ حَاكِيًا عَنِ أَبِي عَلِيٍّ ، أَنَّ دَفْعَهُ خُمْسَ إِفْرِيْقِيَّةٍ إِلَى مَرْوَانَ لَيْسَ بِمَحْفُوظٍ وَلَا مَنْقُولٍ ؛ فَبَاطِلٌ ، لِأَنَّ الْعِلْمَ بِذَلِكَ يَجْرِي بِمَجْرَى الْعِلْمِ بِسَائِرِ مَا تَقَدَّمَ ، وَمَنْ قَرَأَ الْأَخْبَارَ عِلْمَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ لَا يَعْتَرِضُ فِيهِ شَكٌّ ، كَمَا يَعْلَمُ نَظَائِرُهُ .

رَوَى الْوَاقِدِيُّ عَنِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، عَنِ نَافِعِ مَوْلَى الزُّبَيْرِ ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، قَالَ : أَعْرَازَنَا عُمَانُ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ إِفْرِيْقِيَّةً ، فَأَصَابَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرِّحٍ غَنَائِمَ جَلِيلَةً ، فَأَعْطَى عُمَانُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ تِلْكَ الْغَنَائِمَ . وَهَذَا كَمَا تَرَى يَتَضَمَّنُ الزِّيَادَةَ عَلَى إِعْطَاءِ الْخُمْسِ ، وَيَتَجَاوِزُهُ إِلَى إِعْطَاءِ الْأَصْلِ .

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنِ أُمِّ بَكْرٍ بِنْتِ الْمُسَوَّرِ ، قَالَتْ : لَمَّا بَنَى مَرْوَانُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ ، دَعَا النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ ، وَكَانَ الْمُسَوَّرُ مِمَّنْ دَعَاهُ ، فَقَالَ مَرْوَانُ وَهُوَ يَحْدِثُهُمْ : وَاللَّهِ مَا أَنْفَقْتُ فِي دَارِي هَذِهِ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ دِرْهَمًا فَمَا فَوْقَهُ ، فَقَالَ الْمُسَوَّرُ : لَوْ أَكَلْتُ طَعَامَكَ وَسَكَتَ ، كَانَ خَيْرًا لَكَ . لَقَدْ غَزَوْتُ مَعَنَا إِفْرِيْقِيَّةً ، وَإِنَّكَ لِأَقْلُنَا مَا لَا وَرَقِيْقًا وَأَعْوَانًا ، وَأَخْفْنَا ثَقَلًا ، فَأَعْطَاكَ ابْنُ عَمَّتِكَ خُمْسَ إِفْرِيْقِيَّةٍ ، وَعَمَلْتَ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، فَأَخَذْتَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ .

وَرَوَى السُّكَّابِيُّ عَنِ أَبِيهِ ، عَنِ أَبِي مَخْنَفٍ أَنَّ مَرْوَانَ ابْتَاعَ خُمْسَ إِفْرِيْقِيَّةٍ بِمِائَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ ، وَكَلَّمَ عُمَانَ ، فَوَهَّبَهُ لَهُ ، فَأَنْكَرَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَى عُمَانَ ، وَهَذَا بَعِيْنُهُ هُوَ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ أَبُو الْحُسَيْنِ الْخَلِيْطُ وَاعْتَذَرَ عَنْهُ بِأَنَّ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ تَعَلَّقَتْ بِأَمْرِ ذَلِكَ الْجَيْشِ ، فَرَأَى عُمَانُ أَنَّ يَهْبَ لِمَرْوَانَ ثَمَنٌ مَا ابْتَاعَهُ مِنَ الْخُمْسِ لَمَّا جَاءَهُ بِشِيرًا بِالْفَتْحِ عَلَى سَبِيلِ التَّرْغِيْبِ ، وَهَذَا الْاِعْتِذَارُ لَيْسَ بِشَيْءٍ ، لِأَنَّ الَّذِي رَوِيْنَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْبَابِ خَالَ مِنَ الْبَشَارَةِ ، وَإِنَّمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ سَأَلَهُ تَرَكَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَتَرَكَه وَابْتَدَأَ هُوَ بِصَلْتِهِ ، وَلَوْ أَنِّي بِشِيرًا بِالْفَتْحِ كَمَا ادَّعَوْا ، لَمَا جَازَ أَنْ يَتَرَكَ عَلَيْهِ خُمْسَ الْغَنِيْمَةِ الْعَائِدِ نَفْعُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،

لأنّ تلك البشارة لا تبلغُ إلى أن يستحقّ البشير بها مائتي ألف درهم ، ولا اجتهادَ في مثل هذا ، ولا فرق بين من جَوَزَ أن يؤديَ الاجتهادَ إلى مثله، ومن جَوَزَ أن يؤديَ الاجتهادَ إلى دفع أهل الغنيمة إلى البشير بها ، ومن ارتكب ذلك ألزم جواز أن يؤديَ الاجتهادَ إلى إعطاء هذا البشير جميعَ أموال المسلمين في الشرق والغرب .

فأما قوله : إنه وصلَ بنى عمّه لحاجتهم، ورأى في ذلك صلاحا ، فقد بينا أن صلّاته لهم كانت أكثرَ مما تقتضيه الخلة والحاجة ، وأنه كان يصلُ فيهم الميسيرَ ، ثم الصلاحُ الذي زعم أنه رآه ، لا يخلو إماما أن يكون عائداً على المسلمين ، أو على أقاربه . فإن كان على المسلمين معلومٌ ضرورةً أنه لا صلاحَ لأحد من المسلمين في إعطاء مروان مائتي ألف دينار ، والحكم بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وابن أسيد ثلثمائة ألف درهم ؛ إلى غير ما ذكرنا ، بل على المسلمين في ذلك غاية الضرر . وإن أراد الصّلاحَ الراجع إلى الأقارب فليس له أن يصلحَ أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين ، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين .

وأما قوله : إن القطائعَ التي أمةُ بني أمية ؛ إنما أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين ؛ لأنّ تلك الضياع كانت خرابا لا عامر لها ، فسلبها إلى من يعمرها ويؤديَ الحقَّ عنه ؛ فأول ما فيه أنه لو كان الأمر على ما ذكره ، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصّلة والمعونة لأقاربه لما خفيَ ذلك على الحاضرين ، ولكانوا لا يعدّون ذلك من مثالبه ، ولا يواقفونه عليه في جملة ما واقفوه عليه من أحداثه . ثم كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابه بخلاف ما روى من جوابه ؛ لأنه كان يجب أن يقول لهم : وأيّ منفعة في هذه القطائع عائدة على قرابتي حتى تعدّوا ذلك من جملة صلّاتي لهم ؛ وإبصالي المنافع إليهم ! وإنما جعلتهم فيها بمنزلة الأكرّة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم ، وما كان

يجب أن يقول ما تقدمت روايته ؛ من أنى محتسب في إعطاء قرابتي ، وإن ذلك على سبيل الصلة لرحمى ! إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذى ذكره .



الطعن الرابع :

أنه حمى الحِمَى عن المسلمين ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم سواء فى الماء والكلام .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنه لم يحرم الكلاً لنفسه ، ولا استأثر به ، لكنّه حماه لإبل الصدقة التى منفعتها تعود على المسلمين . وقد روى عنه هذا الكلام بعينه ، وأنه قال : إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وليس فى الاعتذار ما يزيد عن ذلك .



اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما أولاً فالمروى بخلاف ما ذكر ، لأنّ الواقديّ روى بإسناده ، قال : كان عثمان يحمى الرّبذة والشرف^(١) والبقيع ، فكان لا يدخل الحِمَى بعيرٌ له ولا فرس ، ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان يحمى الشرف لإبله وكانت ألف بعير ، وإبل الحکم بن أبى العاص ، ويحمى الرّبذة لإبل الصدقة ، ويحمى البقيع لخميل المسلمين وخيله وخيل بني أمية .

قال : على أنه لو كان إنما حماه لإبل الصدقة لم يكن بذلك مصيباً ؛ لأنّ الله تعالى ورسوله أباحا الكلاً ، وجملاه مشتركاً ، فليس لأحدٍ أن يغير هذه الإباحة ، ولو كان

(١) فومعجم البلدان قال الأصمعي : « الشرف : كبدنجد ؛ وكانت من منازل بني آكل المرار من كندة اللؤلؤ فيها اليوم حمى ضرية ، وفيه الرّبذة ؛ وهى الحِمَى الأيمن . »

في هذا الفعل مُصيباً ، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أن يستغفر الله منه
ويعتذر ، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب .

الطعن الخامس :

أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها ، وذلك مما لا يحل في الدين .
قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أنه إنما جاز له ذلك لعله بحاجة المقاتلة ،
واستغناء أهل الصدقة ، ففعل ذلك على سبيل الإقراض ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه
 وآله مثله ، وللإمام في مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرى هذا المجرب ؛ لأنَّ عند الحاجة
ربما يجوز له أن يقرض من الناس ، فأن يجوز له أن يتناول من مال في يده ، ليردَّ عوضه
من المال الآخر أولى .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إنَّ المال الذي جعل الله تعالى
له جهة مخصوصة ، لا يجوز أن يعدل به عن جهته بالاجتهاد ، ولو كانت المصلحة في ذلك
موقوفة على الحاجة لشرطها الله تعالى في هذا الحكم ، لأنه سبحانه أعلم بالمصالح واختلافها
مينا ، ولما لا يجعل لأهل الصدقة منها اقتسط مطلقا .

وأما قوله : إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم فعل مثله ، فهي دعوى مجردة من برهان ،
وقد كان يجب أن يروى ما ذكر في ذلك . وأما ما ذكره من الاقتراض ، فأين كان عثمان
عن هذا العذر لما وُوقِف عليه !

الطعن السادس :

أنه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضلاعه .

قال قاضي القضاة : قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى : لم يثبت عندنا ولا صحح عندنا ما يقال من طعن عبد الله عليه ، وإكفاره له ، والذي يصح من ذلك أن عبد الله كره منه جمعه الناس على قراءة زيد بن ثابت وإحراقه المصاحف ، وثقل ذلك عليه كما يثقل على الواحد منا تقديم غيره عليه .

وقد قيل : إن بعض موالى عمان ضربه لَمَّا سمع منه الواقعة في عمان ، ولو صح أنه أمر بضربه لم يكن بأن يكون طعنًا في عمان ، بأولى من أن يكون طعنًا في ابن مسعود ؛ لأن للإمام تأديب غيره ، وليس لغيره الواقعة فيه إلا بعد البيان . وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن ابن مسعود إنما عابه لعزله إياه ؛ وقد روى أن عمان اعتذر إليه فلم يقبل عذره ، ولما أحضر إليه عطاءه في مرضه ، قال ابن مسعود : منعتني إياه إذ كان ينفعني ، وجئتني به عند الموت ، لا أقبله . وأنه وسط أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وآله ليزيل ما في نفسه فلم يجب . وهذا يوجب ذم ابن مسعود إذ لم يقبل الندم ، ويوجب براءة عمان من هذا العيب ، لو صح ما رووه من ضربه .



اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : المعلوم المروي خلاف ما ذكره أبو علي ، ولا يختلف أهل النقل في طعن ابن مسعود على عمان ، وقوله فيه أشد الأقوال وأعظمها ، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدعى فيه الضرورة ، وقد روى كل من روى السيرة من أصحاب الحديث علم اختلاف طرقتهم أن ابن مسعود كان يقول : ليتني وعمان برملي عالج^(١) يحوطلي وأحشو عليه ، حتى يموت الأعمج مني ومنه !

وروا أنه كان يطعن عليه ، فيقال له : ألا خرجت عليه ، ليخرج معك ! فيقول : لأن أراول جبلا راسيا أحب إلى من أن أراول ملكا مؤجلا .

(١) عالج : رمل بين فيد والقريات ، ينزلها بعض طي ، متصلة بالشمالية . مرصد الاطلاع ٢ : ٩١١ .

وكان يقول كل يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: «إِنَّ أَصْدَقَ الْقَوْلِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحَدَّثٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» . وإنما كان يقول ذلك معرّضاً بعثمان ، حتى غضب الوليد ابن عُقْبَةَ من استمرار تعريضه ، ونهاه عن خطته هذه ، فأبى أن ينتهي ، فكتب إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان يستقدمه عليه .

وروى أنه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعجاً عن الكوفة ، خرج الناس معه يشيعونه ، وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، ارجع ، فوالله لا نوصله إليك أبداً ؛ فإننا لا نأمنه عليك ، فقال : أمر سيكون ، ولا أحب أن أكون أوّل مَنْ فتحة .

وقد روى عنه أيضاً من طرق لا تحصى كثرة أنه كان يقول : ما يزنُ عثمانُ عندَ الله جناح ذباب . وتعاطى ما روى عنه في هذا الباب يطول ، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه ، وإنه بلغ من إضرار عبد الله على مظاهرته بالعداوة أن قال لما حضره الموت : مَنْ يَتَقَبَّلُ مِنِّي وَصِيَّةً أَوْصِيَهُ بِهَا عَلَيَّ مَا فِيهَا ! فسكت القوم ، وعرفوا الذي يريد ، فأعادها ، فقال عمار بن ياسر رحمه الله تعالى : أنا أقبلها ، فقال ابن مسعود : ألا بصليّ عليّ عثمان ، قال : ذلك لك ، فيقال : إنه لما دُفِن ، جاء عثمان منكراً لذلك ، فقال له قائلاً : إن عماراً وليّ الأمر ، فقال لعمار : ما حملك عليّ أن لم تؤذني ؟ فقال : عهد إلىّ ألا أؤذنك ، فوقف على قبره وأثنى عليه ، ثم انصرف وهو يقول : رفعتم والله أيديكم عن خير من بقي ، فتمثل الزبير بقول الشاعر :

لَا أَلْفَيْنَكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي^(١)

ولما مرّ ابنُ مسعود مرضه الذي مات فيه ، أتاه عثمان عائداً ، فقال : ما تشكي ؟ فقال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا أدعوك طيبياً ! قال :

(١) . لعبيد بن الأبرص ، ديوانه ، ٤٨

الطبيبُ أمرضني ، قال : أفلا أمر لك بمطائِك ؟ قال : منعتني وأنا محتاج إليه ، وتمطينيه وأنا مستغنٍ عنه ! قال : يكونُ لولدك ، قال : رزقُهم على الله تعالى ، قال : استغفِر لي يا أبا عبد الرحمن ، قال : أسألُ الله أن يأخذَ لي منك حَقِّي .

قال : وصاحبُ ” المغني ” قد حكى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذي حكاه من كلامه ، وقال : هذا يوجب ذمَّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر . وهذا منه طَريف ؛ لأنَّ مذهبه لا يقتضى قبولَ كلِّ عذر ظاهر ، وإنما يجب قبولُ العذر الصادق ، الذي يغلب في الظن أن الباطن فيه كالظاهر ، فمن أين لصاحب ” المغني ” أن اعتذار عثمان إلى ابن مسعود كان مستوفيا للشرائط التي يجب معها القبول ! وإذا جاز ما ذكرناه لم يكن على ابن مسعود لوم في الامتناع من قبول عُدْرته .

فاما قوله : إن عثمان لم يضربه ، وإنما ضربه بعضُ مواليه لما سمع وقيعته فيه ، فالأمر بخلاف ذلك ، وكلَّ مَنْ قرأ الاخبار علم أن عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنف الوجوه ، وبأثره جرى ما جرى عليه ، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كسر ضلعه ، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول : إنِّي لم آمر بذلك ، ولا رضيته من فاعله ، وقد أنكرت عليه فعله .

وفي علمنا بأن ذلك لم يكن . دليل على ما قلنا . وقد روى الواقدي بإسناده وغيره أن ابن مسعود لما استقدم المدينة ، دخلها ليلة جمعة ، فلما علم عثمان بدخوله ، قال : أيها الناس ، إنه قد طرقكم الليلة ، دويبة من تمشي على طعامه يقيء ويسلح . فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولكنني صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وصاحبُه يوم أحد وصاحبُه يوم بيعة الرضوان ، وصاحبُه يوم الخندق ، وصاحبُه يوم حُنين . قال : وصاحت عائشة : يا عثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال عثمان : اسكتي ؛ ثم قال لعبد الله بن زَمعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العزّمي بن قصي : أخرجه إخراجا عنيفا ، فأخذه

ابن زمة ، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد ، فضرب به الأرض ، فكسر ضلعاً من أضلاعه فقال ابن مسعود: قتلتني ابن زمة الكافر بأمر عثمان ! وفي رواية أخرى إن ابن زمة الذي فعل به ما فعل كان مولى لعثمان أسود مُسَدِّمًا^(١) طوالاً. وفي رواية أخرى: إن فاعل ذلك بِمُحْمُوم مولى عثمان. وفي رواية، إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدك الله، ألا تخبر جني من مسجد خليلي صلى الله عليه وآله .

قال الراوى : فكأنني أنظر إلى مُحْمُوشة^(٢) ساقى عبد الله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أخرج من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لساقا ابن أم عبد أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد» .

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطاً في دفينه أبأذّر. وهذه قصة أخرى؛ وذلك أن أبأذّر رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرّبة، وليس معه إلا امرأته وغلامه عهد إليهما أن غسّلاني ثم كفناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأقول ركب يمزون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه، فأعينونا على دفنّه ، فلما مات فعلوا ذلك ، وأقبل ابن مسعود في ركب من العراق معتمرين ، فلم يرعهم إلا الجنّاة على قارعة الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها ، فقام إليهم العبد ، فقال : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعينونا على دفنّه ، فانهل ابن مسعود باكياً ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه ، قال له : « تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك » ، ثم نزل هو وأصحابه ، فواروه .

قال : فأما قوله إن ذلك ليس بأن يكون طعنًا في عثمان بأولى من أن يكرن طعننا في ابن مسعود ، فواضح البطلان ، وإنما كان طعنًا في عثمان دون ابن مسعود ؛ لأنه لا خلاف

(١) السدم : الأهوج .

(٢) المحوشة : دقة الساقين .

بين الأمة في طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وثنائه عليه ، وأنه مات على الجُملة المحمودة منه ، وفي جميع هذا خلاف بين المسلمين
في عثمان .

فأما قوله : إن ابن مسعود كره جمعَ عثمان النَّاس على قراءة زيد ، وإحراقه
المصاحف ؛ فلا شك أن عبد الله كره ذلك ، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وآله ، وتكلموا فيه ، وقد ذكر الرواة كلام كل واحد منهم في ذلك مفصلاً ، وما
كره عبد الله من ذلك إلا مكروهاً ، وهو الذي يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في حقه : « مَنْ
سرّه أن يقرأ القرآن غَضًا كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » . وروى عن ابن عباس
رحمه الله تعالى أنه قال : « قراءة ابن أم عبد هي القراءة الأخيرة » ؛ إن رسول الله صلى الله
عليه كان يُعرض عليه القرآن في كل سنة من شهر رمضان ، فلما كان العام
الذي توفى فيه عُرض عليه دفتين ، فشهد عبد الله ما نسخ منه ، وما صحّ ففى
القراءة الأخيرة .

وروى عن الأعمش ، قال : قال ابن مسعود : لقد أخذت القرآن من رسول الله
صلى الله عليه ، سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لغلام في الكتاب ، له ذؤابة .

فأما حكايته عن أبي الحسين الخياط أن ابن مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه ،
فعبد الله عند كل من عرفه بخلاف هذه الصورة ، وأنه لم يكن ممن يخرج على عثمان ويطعن
في إمامته بأمر يعود إلى منفعة الدنيا ، وإن كان عزله بما لا شبهة فيه في دين ولا أمانة عيباً
لاشك فيه .

الطبعة السابع :

أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة ، وأحرق المصاحف ، وأبطل مالا شك أنه نزل من القرآن ؛ وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه ، ولو كان ذلك مما بسوغ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه ، ولفعله أبو بكر وعمر .

قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أن الوجهَ في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصيل القرآن وضبطه ، وقطع المنازعة والاختلاف فيه . وقولهم : لو كان ذلك واجباً لفعله الرسول صلى الله عليه وآله غير لازم ؛ لأن الإمام إذا فعله صار كأن الرسول صلى الله عليه وآله فعله ، ولأن الأحوال في ذلك تختلف ، وقد روى أن عمر كان عزم على ذلك فمات دونه . وليس لأحد أن يقول : إن إحراقه المصاحف استخفافاً بالدين ، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صل الله عليه وآله أن يخرّب المسجد الذي بُني ضراباً وكفراً ، فغير ممتنع إحراق المصاحف .

*** .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه ؛ لأنهم يروون أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شافٍ كافٍ » ، فهذا الاختلاف عندهم في القرآن مباحٌ مسند عن الرسول صلى الله عليه وآله ، فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسع في الحروف ماهومباح ! فلو كان في القراءة الواحدة تحصيل القرآن كما ادعى ؛ لما أباح النبي صلى الله عليه وآله في الأصل إلا القراءة الواحدة ، لأنه أعلم بوجوده المصالح من جميع أمته ، من حيث كان مؤيداً بالوحي ، موفقاً في كل ما يأتي ويذّر . وليس له أن يقول : حدث من الاختلاف في أيام عثمان ما لم يكن في أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، ولا ما أباحه ؛ وذلك لأن الأمر

لو كان على هذا لوجب أن ينهى عن القراءة الحادثة ، والأمر المبتدع ، ولا يحمله ما أحدث من القراءة على تحريم المتقدم بلا شبهة .

وقوله : إن الإمام إذا فعل ذلك ؛ فكأن الرسول صلى الله عليه وآله فعله تعلل بالباطل ؛ وكيف يكون كما ادعى ، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً في أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، فلو كان سبب الانتشار الزيادة في القرآن ، وفي قطعه تحصين له ، لكان عليه السلام بالنهي عن هذا الاختلاف أولى من غيره ؛ اللهم إلا أن يقال : حدث اختلاف لم يكن ؛ فقد قلنا فيه ما كفى .

وأما قوله : إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه ؛ فما سمعناه إلا منه ؛ ولو فعل ذلك أى فاعل كان لكان مُنكراً .

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين ، بحمله إياه على تخريب مسجد الضرار ، فبين الأمرين بؤنٌ بعيد ؛ لأنّ البنیان إنما يكون مسجداً وبيتاً لله تعالى بنية الباني وقصده ، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنیان بأن يكون مسجداً أولى من بعض ، ولما كان قصد الباني لذلك الموضع غير القربة والعبادة ، بل خلافها وضدّها من الفساد والمكيدة . لم يكن في الحقيقة مسجداً ، وإن سمي بذلك مجازاً على ظاهر الأمر ، فهدمه لأحرج فيه ، وليس كذلك ما بين الدفتين ؛ لأنه كلام الله تعالى الموقر المعظم ، الذي يجب صيانتُه عن البذلة والاستخفاف ، فأى نسبة بين الأمرين !



الطعمه الثامن :

أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضرب ، حتى حدث به فتق ، ولهذا صار أحد من ظاهر المتظلمين من أهل الأمصار على قتله ، وكان يقول : قتلناه كافراً .

قال قاضي القضاة: وقد أجابنا شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى عن ذلك ، فقال: إن ضرب عمار غير ثابت ، ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه ؛ لأن للإمام تأديب مَنْ يستحق التأديب . ومما يبعد صحة ذلك أن عمارا لا يجوز أن يكفره ، ولما يقع منه ما يستوجب به الكفر ! لأن الذي يكفر به الكافر معلوم ؛ ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيره من الصحابة أولى بذلك ، ولوجب أن يجتمعوا على خلعه ، ولوجب ألا يكون قتله مباحا لهم ، بل كان يجب أن يقيموا إماما ليقتله على ما قدمناه . وليس لأحد أن يقول : إنما كُفّر عمار من حيث وثب على الخلافة ، ولم يكن لها أهلا ، لأننا قد بينا القول في ذلك ؛ ولأنه كان منصوبا لأبي بكر وعمر على ماتقدم ، وقد بينا أن صحة إمامتها تقتضي صحة إمامة عثمان .

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن علي عليهما السلام في أمر عثمان فقال عمار : قتل عثمان كافرا ، وقال : الحسن عليه السلام: قتل مؤمنا ؛ وتعلق ببعضهما ببعض ، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال : ماذا تريد من ابن أخيك ؟ فقال : إني قلت كذا ، وقال كذا ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتكفر بربّ كان يؤمن به عثمان ! فسكت عمار ؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نقم عليه ضربه عمارا احتج لنفسه ، فقال : جاءني سعد وعمار ، فأرسلا إليّ أن اثنا ، فإننا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتها ، فأرسلت إليهما : إني مشغول ، فانصرفا ، فوعدكما يوم كذا ، فانصرف سعد وأبي عمار أن ينصرف ، فأعدت الرسول إليه فأبى أن ينصرف ، فتناوله بغير أمرى ؛ ووالله ما أمرتُ به ولا رضيت ؛ وهما أنا فليقتصّ مني .

قال : وهذا من أنصف قول وأعدله .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما الدفع لضرب عمار ، فهو

كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً، وكلُّ من قرأ الأخبار، وتصفح السير، يعلم من هذا الأمر ما لا يتنبه عنه مكابرةٌ ولا مدافعةٌ؛ وهذا الفعل—أعني ضربَ عمار— لم تختلف الرواية فيه؛ وإنما اختلفوا في سببه، فروى عباس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف، في إسناده أنه كان في بيت المال بالمدينة سَفَطٌ^(١) فيه حَلْيٌ وجوهر، فأخذ منه عثمان ماحلي به بعض أهله، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك، وكلموه فيه بكلِّ كلامٍ شديد؛ حتى أغضبوه، فخطب فقال: لناخذن حاجتنا من هذا الشيء؛ وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام! فقال له عليٌّ عليه السلام: إذنُ تمنع من ذلك، ويحال بينك وبينه! فقال عمار: أشهد الله أن أنفي أولُّ راغم من ذلك؛ فقال عثمان أعلى يابن ياسر تجترى! خذوه، فأخذ، ودخل عثمان، فدعا به فضر به حتى غشى عليه، ثم أخرج لِحْمَلٍ حتى أتى به منزلَ أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توضحاً وصلَّى، وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أودينا في الله تعالى! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة الخزومي—وكان عمار حليفاً لبني مخزوم: يا عثمان، أما على فانتقيته، وأما نحن فاجترأت علينا، وضربت أخانا حتى أشفيت^(٢) به على التلف؛ أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم الشأن! فقال عثمان: وإنك لها هنا يابن القسرية— قال: فإنهما قسريتان، وكانت أم هشام وجدته قسريتين من بحيلة— فشمته عثمان، وأمر به فأخرج، فأتى به أم سامة رضي الله تعالى عنها، فإذا هي قد غَضِبَتْ لعمار، وبلغ عائشة رضي الله تعالى عنها ما صنَّع بعمار، فغضبت أيضاً، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله، ونعلا من نعاله، وثوبا من ثيابه، وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبُل بعد!

(١) السفط: وعاء كالجوالق.

(٢) أشفيت به، أي جعلته مشرفاً على الهلاك.

وروى آخرون أن السببَ في ذلك أن عثمان مرَّ بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل :
عبدالله بن مسعود ، فغضب على عمار لكتمانه إياه موته ، إذ كان المتوَّلى للصلاة عليه ، والقيام
بشأنه ، فعندها وطىُّ عثمان عماراً حتى أصابه الفتق .

وروى آخرون أن المقداد وعماراً وطلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وآله كتبوا كتاباً عدّوا فيه أحداثَ عثمان ، وخوّفوه به ، وأعلموه أنهم مؤابوه
إن لم يقام ، فأخذ عمار الكتاب ، فأناه به ، فقرأ منه صدراً ، ثم قال له : أعلىّ تقدم من
بينهم ! فقال : لأتى أنصحهم لك ، قال : كذبت يا بن سُمَيّة ! فقال : أنا والله ابن سُمَيّة ،
وابن ياسر ! فأمر عثمان غلماناً له ، فمدّوا بيديه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه - وهى في
الخفين - على مذاكيره ، فأصابه الفتق ، وكان ضعيفاً كبيراً فغشى عليه .

قال : فضربُ عمار على ما ترى غير مختلف فيه بين الرواة ، وإنما اختلفوا في سببه ،
والخبرُ الذى رواه صاحب " المغنى " : وحكاه عن أبى الحسين الخياط ما نعرفه ، وكتبُ
السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره ، وقد كان يجب أن يُضيفه إلى الموضع الذى أخذ منه ، فإن
قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة . ولو كان صحيحاً لكان يجب أن يقول بدل قوله :
« ها أنا فليقتصّ منى » إذا كان ما أمرَ بذلك ، ولا رضى عنه ، وإنما ضرب به الغلام الجانى :
« فليقتصّ منه » ، فإنه أولى وأعدل .

وبعد ؛ فلا تنافى بين الروایتين لو كان ما رواه معروف ، لأنه يجوز أن يكون غلامه
ضربه في حال ، وضربه هو في حال أخرى ، والروايات إذا لم تتعارض لم يجز إسقاط
شئ منها .

فأما قوله : إن عماراً لا يجوز أن يكفّره ، ولم يقع منه ما يوجب الكفر ؛ فإن تكفير
عمار وغير عمار له معروف ، وقد^(١) جاءت به الروايات ، وقد روى من طرق مختلفة وبأسانيد
كثيرة أن عماراً كان يقول : ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرابع ، وأنا شرّ

الأربعة ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ ، وأنا أشهد أنه قد حَكَمَ بغير ما أنزل الله .

وروى عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له : بأى شيء كفرتم (٢) عثمان ؟ فقال : بثلاث : جعل المال دولة بين الأغنياء ، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة من حارب الله ورسوله ، وعمل بغير كتاب الله .

وروى عن حذيفة أنه كان يقول : ما في عثمان بحمد الله أشك ، لكنى أشك في قاتله ، لا أدري أ كافر قتل كافراً ، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله ؛ وهو أفضل المؤمنين إيماناً !

فأما ما رواه من منازعة الحسن عليه السلام عمّاراً في ذلك ، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فهو أولاً غير دافع لكون عمار مكفراً له ، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام . ثم إن كان الخبر صحيحاً فالوجه فيه أن عماراً كان يعلم من لحن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وعُدوله عن أن يقضى بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقية ، فأمسك عمار متابعاً (٣) لغرضه .

فأما قوله : لا يجوز أن يكفره من حيث وثب على الخلافة ، لأنه كان مصوّباً بالأبي بكر وعمر لما تقدم من كلامه في ذلك ؛ فإننا لا نسلم له أن عماراً كان مصوّباً لهما ، وما تقدم من كلامه قد تقدم كلامنا عليه .

فأما قوله عن أبي عليّ : إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله فيه لم يكن طعناً ، لأن للإمام تأديب من يستحق ذلك ، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب " المغنى " ، أو من حكى كلامه من أبي عليّ وغيره ، من أن يعتذر - من ضرب عمار ووقّده حتى لحقه من الغشي ما ترك له الصلاة ، ووطنه بالأقدام امتهاناً واستخفافاً - بشيء من العذر ،

(١) - سورة المائدة : ٤٤ .

(٢) : ١ . « كفرتم » .

(٣) الشافى : « لما نعلم غرضه » .

فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن رُوِيَ أن النبي صلى الله عليه وآله قال فيه :
« عمار جِلْدَةٌ ما بين العين والأَنْفِ ومتى تُنْكَأُ الجِلْدَةُ بدم الأنفِ » . وروى أنه قال عليه
السلام : « ما لهم ولعمار ! يدعونهم إلى الجنة ويدعونَه إلى النار » . وروى العوام بن حوشب
عن سلمة بن كهيل عن علقمة عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال :
« مَنْ عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله » ؛ وأى كلام غليظٍ سمعه عثمان
من عمار يستحق به سبيُّ المكروه العظيم الذى يجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى فى الحدود !
وإنما كان عمار وغيره أثبتوا عليه أهدأه ، ويعاتبه أحياناً على ما يظهر من سبيِّ أفعاله .
وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين : إما أن ينزع عمّا يوافق عليه من تلك الأفعال ، أو يبين
من عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر ؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه
زجره عن ذلك بوَعظٍ أو غيره ، ولا يُقدم على ما يفعله الجبايرة والأكاسرة من شفاء الغيظ
بغير ما أنزل الله تعالى وحكَّم به .



الطعن التاسع :

إقدامه على أبى ذرٍّ مع تقدّمه فى الإسلام ، حتى سيّره إلى الرّبذة ونفاه ، وقيل :
إنه ضربه .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إن شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال :
إنّ الناس اختلفوا فى أمر أبى ذرٍّ رحمه الله تعالى . وروى أنه قيل لأبى ذرٍّ : عثمانُ أنزلَكَ
الرّبذة ؟ فقال : لا ؛ بل اخترتُ لنفسي ذلك . .

وروى أنّ معاوية كتب بشكوه وهو بالشام ، فكتب عثمانُ إليه أن صرَّ إلى المدينة ،
فلما صار إليها قال : ما أخرجَكَ إلى الشام ؟ قال : لأننى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه -

وآله يقول: «إذا بلغت عمارة المدينة موضع كذا فاخرج عنها»؛ فلذلك خرجتُ ، فقال :
فأى البلاد أحب إليك بعد الشام ؟ قال : الرّبذة ، فقال : صرّ إليها .

قال : وإذا تكافأت الأخبار لم يكن لهم في ذلك حجة ، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخْرِجه إلى الرّبذة لصالح يرجع إلى الدين ، فلا يكون ظُلماً لأبي ذرّ ؛ بل يكون إشفاقاً عليه ، وخوفاً من أن يناله من بعض أهل المدينة مكروه ، فقد رُوِيَ أنه كان يُفَلِظ في القول ويخشن الكلام ، فيقول : لم يبق أصحابُ محمد على ما عهد ، ويُنفّر^(١) بهذا القول ؛ فرأى إخراجَه أصلح لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين . وقد رُوِيَ أن عمر أخرج عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خاف ناحيته ، وقد ندب الله سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين ، وإلى القول اللين للكافرين ، وبين للرسول صلى الله عليه وآله أنه لو استعمل القضاة لانفضوا من حوله ، فلما رأى عثمان من خُسونة كلام أبي ذرّ ، وما كان يُورده مما يخشى منه التفتير فَعَلَ ما فَعَلَ .

قال : وقد رُوِيَ عن زيد بن وهب ، قال : قلتُ لأبي ذرّ رحمه الله تعالى ، وهو بالرّبذة : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : أخبرك ؛ إني كنتُ بالشام في أيام معاوية ، وقد ذكرت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٢) ، فقال معاوية : هذه في أهل الكتاب ، فقلت : هي فيهم وفينا . فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك ، فكتب إلى أن أقدم عليّ ، فقدمت عليه ، فانتال الناسُ إلى كأنهم لم يعرفوني ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيرني وقال : انزل حيث شئت ، فنزلت الرّبذة .

(١) ينفرها : يصيح .

(٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدم، من أن إخراج أبي ذرّ إلى الرّبذة كان باختياره ، وروى في ذلك خبراً ، قال : وأقل ما في ذلك أن تختلف الأخبار فتطرح ، ويرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال :

أما قول أبي عليّ إنّ الأخبار في سبب خروج أبي ذرّ إلى الرّبذة متكافئة ، فعاذ الله أن تتكافأ في ذلك ! بل المعروف والظاهر أنّه نفاه أولاً إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكاه معاوية ، ثم نفاه من المدينة إلى الرّبذة وقد روى جميع أهل السيرة على اختلاف طرقهم وأسانيدهم أنّ عثمان لما أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث ابن الحكم بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، جعل أبو ذرّ يقول : بشر السكّانزين بعذاب أليم ، ويتلأ قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فرفع ذلك مروان إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذرّ نائلاً مولاه : أن انتهِ عما يبلغني عنك ، فقال : أبنهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعيب من ترك أمر الله ! فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان ، أحبّ إليّ وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضاه ! فأغضب عثمان ذلك ، وأحفظه فتصاير .

وقال يوماً : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال ، فإذا أيسر قضى ! فقال كعبُ الأحبار : لا بأس بذلك ، فقال له أبو ذرّ : يابن اليهوديين ، أنعلمنا ديننا ! فقال عثمان : قد كثرت أذاك لي وتولمك بأصحابي ، الحق بالشام . فأخرجه إليها ، فكان أبو ذرّ ينكر على معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية ثلثمائة دينار ؛ فقال أبو ذرّ : إن كانت هذه

من عطائي الذي حرمتمونه عني هذا قبلتها ، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها ،
وردها عليه .

وبني معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذرّ : يا معاوية ، إن كانت هذه من مال الله
فهي الخيانة ، وإن كانت من مالك فهو الإسراف .

وكان أبو ذرّ رحمه الله تعالى يقول : والله لقد حدثت أعمالاً ما عرفتها ، والله ما هي
في كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرى حقاً يظفأ وباطلاً يُحيا ؛ وصادقاً مكذباً ، وأثراً
بغير بُقْي ، وصالحاً مستأثراً عليه ؛ فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية : إن أبا ذرّ
لمفسدٌ عايكم الشام ، فتدارك أهله إن كانت لكم حاجة فيه . فكتب معاوية إلى عثمان فيه ،
فكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد ؛ فاحل جُنْدباً^(١) إلى علي أغلظ مَرَكب وأوعره .
فوجه به مع مَنْ سار به الليل والنهار ؛ وحمله على شارف^(٢) ليس عليها إلا قَتَب^(٣) ، حتى
قدم به المدينة ، وقد سقط لحمٌ فَخَذِيه من الجهد ؛ فلما قدم أبو ذرّ المدينة ؛ بعث إليه عثمان
أن الحق بأى أرضٍ شئت فقال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : فبيت المقدس ؟ قال : لا ، قال :
فأحدُ المصرين^(٤) ؟ قال : لا ؛ ولكنتي مسيرك إلى الرّبذة ، فسيره إليها ، فلم يزل بها
حتى مات .

وفي رواية الواقدي أن أبا ذرّ لما دخل على عثمان ، قال له : لا أنعم الله بك عينا
يا جُنَيْدُ ! فقال أبو ذرّ : أنا جُنَيْدُ ، وسَماني رسول الله صلى الله عليه عبد الله ،
فاخترتُ اسمَ رسول الله الذي سَماني به على اسمي ؛ فقال عثمان : أنت الذي تزعمُ أنا تقول
إن يدَ الله مغولة ؛ وإن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذرّ : لو كنتم لا تزعمون ، لأنفتم

(١) جندب اسم أبي ذرّ الفهري .

(٢) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .

(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) المصران : هما الكوفة والبصرة .

مالَ الله على عباده ؛ ولكنتي أشهدُ لسمعت رسول الله صلى الله عليه : يقول : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ الله دُولاً ، وعبادَ الله خَوَلاً ، ودينَ الله دَخَلاً ، فقال عثمان لمن حضره : أسمعتموها من نبي الله ؟ فقالوا : ماسمعناه ، فقال عثمان : ويحك يا أبا ذرٍّ ! أتكذب على رسول الله ! فقال أبو ذرٍّ لمن حضر : أما تظنون أنني صدقت ! قالوا : لا والله ما ندرى ، فقال عثمان : ادعوا لي علياً ، فدعيت ، فلما جاء قال عثمان لأبي ذرٍّ : اقضُصْ عليه حديثك في بني أبي العاص ، فحدثته ، فقال عثمان لعليٍّ : هل سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال عليٌّ عليه السلام : لا ، وقد صدق أبو ذرٍّ ، قال عثمان : بم^(١) عرفتَ صدقه ؟ قال : لأنني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يقول : « ما أظلمت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرٍّ » ، فقال جميعٌ من حضر من أصحاب النبي صلى الله عليه : لقد صدق أبو ذرٍّ ، فقال أبو ذرٍّ : أحدثكم أنني سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه ثم تهموتني ! ما كنت أظن أني أعيشُ من أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه !

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده عن صهبان بن مولى الأسلميين ، قال : رأيتُ أبا ذرٍّ يوم دُخِلَ به على عثمان ، فقال له : أنت الذي فعلت وفعلت ! فقال له أبو ذرٍّ : نصحتك فاستغششتني ، ونصحتُ صاحبك فاستغشني ؛ فقال عثمان : كذبت ؛ ولكنتك تريد الفتنة وتجبها ، قد أنفَلتَ^(٢) الشامَ علينا ، فقال له أبو ذرٍّ : اتبعْ سنةَ صاحبك ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان : مالك وذلك لا أم لك ! قال أبو ذرٍّ : والله ما وجدتُ لي عذراً إلا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ؛ فغضب عثمان وقال : أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذاب ، إما أن أضربه أو أحبسَه أو أقتله ؛ فإنه قد فرّق جماعة المسلمين ، أو أنفيَه من أرض الإسلام ؛ فتكلّم عليٌّ عليه السلام - وكان حاضراً وقال : أشيرُ عليك

(١) الشاق : « كيف » .

(٢) أنفَلت الشام ؛ أي أفدت أهله ؛ وأصله في الأديم ؛ يقال : أنفل الأديم ؛ إذا أسدده في الدباغ .

وفي الشاق : « قلبت » .

بما قاله مؤمن آل فرعون : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ ^(١) ، قال : فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ ، لا أحبّ ذكره ، وأجابه عليه السلام بمثله ، قال : ثمّ إن عثمان حَظَرَ على الناس أن يقاعدوا أبا ذرّ ، أو يكلموه ؛ فكثّر كذلك أياماً ، ثم أمر أن يؤتى به ، فلما أتى به وقف بين يديه ، قال : ويحك يا عثمان ! أما رأيت رسول الله صلى الله عليه ، ورأيت أبا بكر وعمر ! هل رأيت هذا هديهم ! إنك لتبَطِّشُ بي بَطْشَ جبار ؛ فقال : اخرج عَنَّا من بلادنا ، فقال أبو ذرّ : ما أبغض إلى جوارك ! فإلى أين أخرج ؟ قال : حيث شئت ، قال : فأخرج إلى الشام أرض الجهاد ؟ قال : إنما جلبتُك من الشام لما قد أفسدتها فأردك إليها ! قال : فأخرج إلى العراق ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : تقدّم على قوم أهل شُبَّهٍ وطعن في الأئمة ، قال : فأخرج إلى مصر ؟ قال : لا ، قال : فإلى أين أخرج ؟ قال : حيث شئت ، قال أبو ذرّ : فهو إذن التعرّب ^(٢) بعد الهجرة ، أأخرج إلى نجد ؟ فقال عثمان : الشرف الأبعدُ أقصَى فأقصَى ، امض على وجهك هذا ، ولا تعدونّ الرّبذة .

فخرج إليها .

وروى الواقدي عن مالك بن أبي الرجال ، عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤليّ ، قال : كنتُ أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خروجه ، فنزلت الرّبذة ، فقلت له : ألا تخبرني ! أخرجت من المدينة طائفاً أم أخرجت مكرهاً ؟ فقال : كنت في ثغر من ثغور المسلمين ، أغني عنهم ، فأخرجت إلى مدينة الرسول عليه السلام ، فقلت : أصحابي ودارُ هجرتي ، فأخرجت منها إلى ماترى ، ثم قال : بينا أنا ذات ليلة نائم في المسجد إذ مرّ بي رسول الله صلى الله عليه ، فضر بني برجله وقال : لا أراك نائماً في المسجد ، فقلت : بأبي أنت

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) التعرّب : الإقامة بالبادية .

وأُمِّي ! غلبتني عيني ، فتمتُ فيه ، فقال : كيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ فقلت : إذن ألحق
بالشام ، فإنها أرض مقدسة ، وأرض بقية الإسلام ، وأرض الجهاد ؛ فقال : فكيف تصنع
إذا أخرجت منها ؟ فقلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟
قلت : آخذ سيفي فأضرب به ، فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلك على خيرٍ من
ذلك ، أنسقَ معهم حيث ساقوك ، وتسمعُ وتطيعُ » ، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع ؛
والله ليلقيني الله عثمان وهو آثم في جنبي .

وكان يقول بالربذة : ماترك الحق لي صديقا . وكان يقول فيها : ردّني عثمانُ بعد
الهجرة أعرابيا .

والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها . وما يحملُ
نفسه على ادعاء أن أبا ذرّ خرج مختارا إلى الربذة إلا مكابرة . ولسنا نفيكر أن
يكون ما أورده صاحب الكتاب " المغني " من أنه خرج مختارا قد روي ، إلا أنه من
الشاذّ النادر . وبإزاء هذه الرواية الفذّة كلّ الروايات التي تتضمن خلافا : ومن تصفح
الأخبار علم أنها غير متكافئة على ما ظنّ صاحب المغني ؛ وكيف يجوز خروجه عن
اختيار ؛ وإنما أشخص من الشام على الوجه الذي أشخص عليه ؛ من خشونة المركب ،
وقبح السّير به للموجدة عليه . ثم لما قدّم مُنِع الناس من كلامه ، وأغلاظ له في القول ؛ وكلّ
هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الربذة باختياره ! وكيف يظنّ عاقل أن أبا ذرّ يختار
الربذة منزلا مع جدبها وقحطها وبعدها عن الخيرات ؛ ولم تكن بمنزل مثله !

فأما قوله : إنه أشفق عليه من أن يناله بعض أهل المدينة بمكروه من حيث كان
يُعِلِّظ لهم القول ، فليس بشيء ؛ لأنه لم يكن في أهل المدينة إلا من كان راضيا بقوله ، عاتبا
بمثل عتبه ؛ إلا أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما في نفسه ، ومخفٍ ما عنده ؛ وما في أهل المدينة إلا

من رثي لأبي ذرٍّ مما حدّث عليه ، ومن استغفله . ومن رجع إلى كتب السيرة عرف ما ذكرناه .

فأما قوله : إن عمر أخرج من المدينة نصر بن حجاج ، فإبعد ما بين الأمرين ! وما كنا نظن أن أحداً يسوّى بين أبي ذرٍّ وهو وجهُ الصحابة وعينهم ، ومن أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله مدّحه من صدق اللّهجة بما لم يمدح به أحداً ، وبين نصر بن الحجاج الحدّث الذي كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه ؛ ولا حظ له في فضل ولا دين ! على أن عمر قد ذمّ بإخراجه نصر بن الحجاج من غير ذنب كان منه ، فإذا كان من أخرج نصر بن حجاج مذموماً ، فكيف من أخرج أبا ذرٍّ !

فأما قوله : إن الله تعالى والرسول قد ندبا إلى خفض الجناح ، ولين القول للؤمن والكافر ، فهو كما قال ؛ إلا أن هذا أدب كان ينبغي أن يتأدّب به عثمان في أبي ذرٍّ ، ولا يقابله بالتكذيب ، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صدّقه ؛ ولا يسمّمه مكروه الكلام ؛ فإنما نصح له ، وأهدى إليه عيوبه ، وعاتبه على ما لوزع عنه لكان خيراً له في الدنيا والآخرة .



الطعن العاشر :

تعظيمه الحدّ الواجب على مُبيد الله بن عمَرَ بن الخطاب ؛ فإنه قتل الهرمزان^(١) مسلماً فلم يقده به ؛ وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يطلبه لذلك .

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك : إن شيخنا أبا عليّ رحمه الله تعالى قال : إنّه لم يكن للهرمزان وليّ يطلب بدمه ، والإمام وليّ من لا وليّ له ، وللولى أن يعفو كما له أن يقتل ؛ وقيل روى أنه سأل المسلمين أن يعفوا عنه ، فأجابوا عنه إلى ذلك .

(١) الهرمزان - هو الكبير من ملوك العجم .

قال : وإنما أراد عثمانُ بالعمو عنه ما يعودُ إلى عزِّ الدين ، لأنه خاف أن يبلغ العدوّ قتلَهُ ؛ فيقال : قَتَلُوا إمامهم وقتلوا ولَدَه ، ولا يعرفون الحال في ذلك فيكون فيه شماتة ؛ وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن عامَّة المهاجرين أجمعوا على أنه لا يُقَاد بالهرْمزان ، وقالوا لعثمان : هذا دم سُنِّكَ في غير ولايتك ، وليس له ولي يطلب به ، وأمرُهُ إلى الإمام ، فاقبل منه الدية ، فذلك صلاح للمسلمين .

قال . ولم يثبت أن أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يطلبه ليقْتلَه بالهرْمزان ، لأنه لا يجوز قتلُ مَنْ عفا عنه وليُّ المقتول ؛ وإنما كان يطلبه ليضعَ من قدره ، وبصغر من شأنه .

قال : ويجوز أن يكون ماروي عن عليّ عليه السلام من أنه قال : لو كنتُ بدَل عثمان لقتلته ، يعني أنه كان يرى ذلك أقوى في الاجتهاد ، وأقرب إلى التشدد في دين الله سبحانه .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، قال :

أما قوله : لم يكن للهرْمزان وليّ يطلب بدمه ، فالإمام يكون وليّه ، وإنه أن يعفو عنه ، كماله أن يقتصّ ؛ فليس بمعتد ، لأنّ الهرْمزان رجلٌ من أهل فارس ، ولم يكن له وليّ حاضر يطلب بدمه ، وقد كان الواجب أن يبذل الإنصاف لأوليائه ويؤمنوا متى حضروا ، حتى إنه لو كان له وليّ يريد المطالبة حضر وطالب . ثم لو لم يكن له وليّ لم يكن عثمان وليّ دمه ، لأنه قُتِل في أيام عمر ، فصار عمر وليّ دمه ، وقد أوصى عمر على ما جاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيد الله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهرْمزان وجفينة^(١) ، أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلام الخيرة بن شعبة بقتله ، وكانت وصيته بذلك إلى أهل الشورى ، فقال : أيُّكم وليّ هذا الأمر فليفعل كذا وكذا مما ذكرناه ، فلما مات عمر ، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء

(٢) جفينة ؛ كان نصرانيا من أهل الحيرة وكان ظنرا لسعد بن أبي وقاص ؛ أقدمه إلى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم ؛ وإعلم بالمدينة الكتاب . تاريخ الطبري ٥ : ٤٢ .

الوصية في عبيد الله بن عمر فدافع عن ذلك وعلّهم ؛ ولو كان هو وليّ الدم على ما ذكرنا لم يكن له أن يعفو وأن يُبطل حدّاً من حدود الله تعالى ، وأى شمانة للعدو في إقامة حدّ من حدود الله تعالى ! وإنما الشمانة كلّها من أعداء الإسلام في تعطيل الحدود . وأى حرج في الجمع بين قتل الإمام وابنه ، حتى يقال : كره أن ينتشر الخبر بأنّ الإمام وابنه قتلا ، وإنما قتل أحدهما ظلماً ، والآخر عدلاً ، أو أحدهما بغير أمر الله ، والآخر بأمره سبحانه ! وقد زوى زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى عثمان ؛ بعد ما استخلف ، فكلمه في عبيد الله ولم يكلمه أحد غيره ؛ فقال : أقتل هذا الفاسق الخبيث الذي قتل أميراً مسلماً ؛ فقال عثمان : قتلوا أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! وإنما هو رجلٌ من أهل الأرض ؛ فلما أتى عليه مرّ عبيد الله على عليّ عليه السلام ، فقال له : إيه يافاسق ! أما والله لئن ظفرتُ بك يوماً من الدهر لأضربنّ عنقك ؛ فلذلك خرج مع معاوية عليه .

وروى القناد ، عن الحسن بن عيسى بن زيد ، عن أبيه ، أنّ المسلمين لما قال عثمان : إني قد عفوت عن عبيد الله بن عمر ، قالوا : ليس لك أن تعفو عنه ، قال : بلى إنه ليس جفينة والهزمران قرابة من أهل الإسلام ؛ وأنا وليّ أمر المسلمين ، وأنا أولى بهما ، وقد عفوت . فقال عليّ عليه السلام : إنه ليس كما تقول ، إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين ؛ إنه قتلها في إبرة غيرك ، وقد حَكَم الوالي الذي قتلها في إمارته بقتله ؛ ولو كان قتلها في إمارتك لم يكن لك العفو عنه ، فاتق الله ؛ فإنّ الله سائلك عن هذا ! فلما رأى عثمان أنّ المسلمين قد أبوا إلا قتل عبيد الله ، أمره فارتحل إلى الكوفة ، وأقطعه بها داراً وأرضاً ؛ وهي التي يقال لها : كويّفة^(١) ابن عمر ، فعظم ذلك عند المسلمين وأكبروه ؛ وكثر كلامهم فيه .

(١) الكويّفة ، ذكرها ياقوت ، فقال : « كويّفة ابن عمر منسوبة إلى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ؛ نزلها حين قتل بنت أبي أولؤة والهزمران وجفينة العبادي . معجم البلدان ٧ : ٣٠٤ .

وروى عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال :
مأمسى عثمان يوم ولّى حتى نَقَمُوا عليه في أمر عبيد الله بن عمر ؛ حيث لم يقتله بالهرمزان -
فأما قوله : إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتله ؛ بل ليضع من قدره ؛ فهو
بخلاف ما صرح به عليه السلام من أنه إن تمكن ليضربن عنقه .

وبعد ؛ فإن ولّى الدم إذا عَفَا عنه على ما ادَّعَوْا لم يكن لأحد أن يستخفّ به ،
ولا يضع من قدره ، كما ليس له أن يقتله .

وأما قوله : إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوز أن يتوعده مع عفو الإمام عنه ؛ فإنما
يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثراً ؛ وقد بينّا أنه غير مؤثر .

وأما قوله : يجوز أن يكون عليه السلام رأى أن قتله أقوى في الاجتهاد ، وأقربُ إلى
التشدد في دين الله ؛ فلا شك أنه كذلك ، وهذا بناء منه على أن كل مجتهد مصيب ؛
وقد بينّا أن الأمر بخلاف ذلك ؛ وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى قتله ،
فهو الذي لا يسوغُ خلافه .



الطعن الحادى عشر :

وهو إجمالى ؛ قالوا : وجدنا أحوال الصحابة دالّة على تصديقهم المطاعين فيه ،
وبراءتهم منه ؛ والدليل على ذلك أنهم تركوه بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفنوه ولا أنكروا
على من أجلب عليه من أهل الأمصار ؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه ؛ ولكنهم أعانوا عليه ،
ولم يمنعوا من حصره ولا من منع الماء عنه ؛ ولا من قتله ، مع تمكنهم من خلاف ذلك ؛
وهذا من أقوى الدلائل على ما قلناه ؛ ولو لم يدل على أمره عندهم إلا ما روى عن علي عليه
السلام أنه قال : الله قتله وأنا معه ؛ وأنه كان في أصحابه عايه السلام من يصرح بأنه قتل

عثمان ؛ ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم ؛ وكان أهلُ الشام يصرِّحون بأن مع أمير المؤمنين قتلةَ عثمان ، ويحملون ذلك من أوكد الشبه ، ولا ينكر ذلك عليهم ؛ مع أننا نعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضد هو وأصحابه على المنع عنه لما وقع في حقه ما وقع ؛ فصار كفه وكف غيره عن ذلك من أدلِّ الدلائل على أنهم صدقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث ؛ وأنهم لم يقبلوا منه ما جعله عذرا .

وأجاب قاضي القضاة عن هذا ، فقال :

أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت ، ولو صحَّ لكان طعنا على مَنْ لزمه القيامُ به ؛ وقد قال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : إنه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمر المؤمنين عليه السلام خوفاً على الإسلام من الفتنة ، فيؤخروا دفنه .

قال : وبعيدٌ مع حضورِ قريش وقبائل العرب وسائر بني أمية ومواليهم أن يُترك عثمان ولا يُدفن هذه المدة ؛ وبعيدٌ أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدم بدفنه ؛ ولو مات في جواره يهودي أو نصراني ولم يكن له مَنْ يواريه ماترکه أمير المؤمنين ألا يدفن ؛ فكيف يجوز مثل ذلك في عثمان ؛ وقد روي أنه دفن في تلك الليلة ؛ وهذا هو الأولى .

فأما التعلق بأن الصحابة لم تنكر على القوم ، ولا دفعت عنه ، فقد سبق القول في ذلك ؛ والصحيحُ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرأ من قتل عثمان ، ولعن قتلته في البرّ والبحر ، والسهل والجبل ؛ وإنما كان يجري من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز ؛ لأننا نعلم أن جميع مَنْ كان يقول : نحن قتلناه لم يقتله ؛ لأن في الخبر أن العدد الكثير كانوا يصرِّحون بذلك ؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة ؛ وإنما كانوا يقصدون بهذا القول ؛ أي احسبوا أننا قتلناه فما لكم ! وذلك أن الإمام هو الذي يقوم بأمر القود ، وليس للخارج عليه أن يطالب بذلك ؛ ولم يكن لأمر المؤمنين عليه السلام أن يقتل قتلته لو عرفهم بيينة أو إقرار ، وميزم من غيرهم إلا عندَ مطالبة وتلى الدم ؛ والذين كانوا أولياء

الدم لم يكونوا يطالبونه ، ولا كانت صفتهم صفة مَنْ يطالب ؛ لأنهم كانوا كلهم أو بعضهم يدعون أنّ عليا عليه السلام ليس بإمام ، ولا يحلّ لولى الدم مع هذا الاعتقاد أن يطالب بالقوّد ؛ فلذلك لم يقتلهم عليه السلام ؛ هذا لو صحّ أنه كان يميّزهم ؛ فكيف وذلك غير صحيح .

فأما ما رُوِيَ عنه من قوله عليه السلام : « قتل الله وأنا معه » ! فإن صحّ فعناه مستقيم ؛ يريد أنّ الله أماته وسُميتمنى وسأر العباد .

ثم قال سائلا نفسه : كيف يقول ذلك وعثمان مات مقتولا من جهة المسكّنين ! وأجاب بأنّه وإن قُتِل ، فالإماتة من قبَل الله تعالى ؛ ويجوز أن يكون ماناله من الجراح لا يوجبُ انتفاء الحياة لامحالة ، فإذا مات صحّت الإمامة على طريق الحقيقة .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال .

أما تضعيفه أن يكونَ عثمانُ تركَ بعد القتل ثلاثة أيام لم يُدفن ؛ فليس بحجّة ؛ لأنّ ذلك قد رواه جماعةُ الرواة ؛ وليس يخالف في مثله أحدٌ يعرفُ بالرواية ؛ وقد ذكر ذلك الواقديّ وغيره ؛ وروى أنّ أهلَ المدينة منَعُوا الصلاةَ عليه ؛ حتى حُجِل بين المغرب والعتمة ، ولم يشهد جنازته غير مرّوان وثلاثة من مواليه ؛ ولما أحسّوا بذلك رمّوه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذّكر ؛ ولم يقع التمسكُ من دفنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دفنه ، وأمر أهله بتولّي ذلك منه .

فأما قوله : إنّ ذلك إن صحّ كان طعنا على مَنْ لزمه القيامُ بأمره ؛ فليس الأمرُ على ما ظنه ؛ بل يكون طعنا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنع أهل المدينة - وفيها وجوهُ الصحابة - من دفنه والصلاة عليه إلا لاعتقادٍ قبيح ؛ أو لأنّه أكثرهم وجمهورهم يعتقد ذلك ؛ وهذا طعن لا شبهة فيه ؛ واستبعاد صاحب "الغنى" لذلك ؛ مع ظهور الرواية به

لا يلتفت إليه؛ فأما أمير المؤمنين عليه السلام واستبعاد صاحب "المنفى" منه ألا يتقدم بدفنه؛ فقد بينا أنه تقدم بذلك بعد مما كسوة ومراوضة. وأعجب من كل شيء قول صاحب "المنفى": "إنهم أخرجوا دفنه تشاغلا بالبيعة لأمر المؤمنين عليه السلام. وأى شغل في البيعة لأمر المؤمنين يمنع من دفنه، والدفن فرض على الكفاية، لو قام به البعض وتشاغل الباقون بالبيعة لجازا وليس الدفن ولا البيعة أيضا مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها. فأما قوله: إنه قد روي أن عثمان دُفن تلك الليلة، فما تُعرف هذه الرواية؛ وقد كان يجب أن يُسندها ويُزوّها إلى راويها، أو الكتاب الذي أخذها منه؛ فالذي ظهر في الرواية هو ما ذكرناه.

فأما إحالته على ما تقدم في معنى الإنكار من الصحابة على القوم المجلبين على عثمان؛ فقد سبق القول في ذلك.

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قتل عثمان، ولعنته قتلته في البر والبحر، والسهل والجبل؛ فلا شك في أنه عليه السلام كان بريئا من قتله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ما قتلت عثمان، ولا مالت في قتله؛ والمالأة هي المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام في أنه ما قتل ولا وازر على القتل.

فأما لعنه قتلته^(١) فضعيف في الرواية، وإن كان قد روي؛ فأظهر منه ما رواه الواقدي، عن الحكم بن الصلت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيت عليا عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله حين قتل عثمان، وهو يقول: ما أحببت قتلته ولا كرهته، ولا أمرت به، ولا نهيت عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عفان بن جرير بن بشير، عن أبي جلدة، أنه سمع عليا

(١) ج، ا، ح: «قتله عثمان».

عليه السلام ، يقول وهو يخطب ، فذكر عثمان ، وقال : والله الذي لا إله إلا هو ؛ ما قتلته ولا مالاتُ على قتله ولا ساءني^(١) .

وروى ابن بشير ، عن عبيدة السلماني ، قال : سمعت علياً عليه السلام يقول : مَنْ كَانَ سَائِلِي عَنْ دَمِ عُمَانَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَهُ . وَقَدْ رُوِيَ هَذَا اللَّفْظُ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ .

وقد روى شعبة عن أبي حمزة الضبي ، قال : قلتُ لابن عباس : إنَّ أبي أخبرني أنه سمع علياً ، يقول : أَلَا مَنْ كَانَ سَائِلِي عَنْ دَمِ عُمَانَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَهُ - فقال : صدق أبوك ؛ هل تدري ما معنى قوله ! إنما عني : الله قتله وأنا مع الله . قال : فإن قيل : كيف يصحّ الجمع بين معاني هذه الأخبار !

قلنا : لا تنافيَ بينها ، لأنه عليه السلام تبرأ من مباشرة قتله والموازرة عليه ، ثم قال : ما أمرتُ بذلك ولا نهيتُ عنه ؛ يريد أن قاتليه لم يرجعوا إليّ ، ولم يكن مني قول في ذلك بأمر ولا نهى .

فأما قوله : الله قتله وأنا معه ، فيجوز أن يكون المراد به : الله حَكَمَ بقتله وأوجبه وأنا كذلك ؛ لأنَّ من المعلوم أن الله تعالى لم يقتله على الحقيقة ، فإضافة القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الحُكم والرضا ؛ وليس يمتنع أن يكونَ مما حَكَمَ اللهُ تعالى به ، ما لم يتولّه بنفسه ، ولا آزر عليه ، ولا شايح فيه .

فإن قال قائل : هذا ينافي ما روي عنه من قوله : « ما أحببت قتله ، ولا كرهته » ، وكيف يكون من حُكم الله وحكمه أن يُقتل وهو لا يحب قتله !

قلنا : يجوز أن يريد بقوله : « ما أحببت قتله ولا كرهته » أن ذلك لم يكن مني على سبيل التفصيل ، ولا خطر لي ببال ؛ وإن كان على سبيل الأجلّة يجب قتل مَنْ غلب المسلمين

(١) كذا في ١ ، ج ، والشاق ، وفي ب : « ولا سأل » .

على أمورهم ، وطالبوهم بأن يعتزل ، لأنه ^(١) «مستولٍ عليهم بغير حق» فامتنع من ذلك ، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله ، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهي عنه . ويجوز أن يريد أنني ما أحببتُ قتله ؛ إن كانوا تعمّدوا القتل ؛ ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود . ويريد بقوله : « ما كرهته » أتى لم أكرهه على كل حال ، ومن كل وجه .

فأما لعنه قتلته فقد بينا أنه ليس بظاهر ظهور ما ذكرناه ؛ وإن صحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المحظور من تعمدٍ له ، وقصدٍ إليه وغير ذلك ؛ على أن المتولّى للقتل على ما صحّت به الرواية كنانة بن بشير التّجّبيّ وسُودان بن حمران المراديّ ؛ وما منهما من كان غرضه صحيحاً في القتل ، ولا له أن يقدم عليه ، فهو ملعون به . فأما محمد بن أبي بكر ؛ فما قولى قتلته ؛ وإنما روي أنه لما جثا بين يديه قابضاً على لحيته ، قال له : يا بن أخي ؛ دغّ لحيتي ؛ فإن أباك لو كان حياً لم يقعدني هذا المقعد ؛ فقال محمد : إن أبي لو كان حياً ثم يراك تفعل ما تفعل لأنكره عليك ، ثم وجاء ^(٢) بجماعة قدّاح كانت في يده فخزت في جلده ولم تقطع ، وبادره من ذكرناه في قتله بما كان فيه قتله .

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام : « قتل الله وأنا معه » ؛ على أن المراد به ؛ الله أماته وسيميتني ؛ فبعيد من الصواب ؛ لأن لفظة « أنا » لاتكون كناية عن المفعول ؛ وإنما تكون كناية عن الفاعل ؛ ولو أراد ما ذكره لكان يقول : « وإياي معه » ؛ وليس له أن يقول : إننا نجعل قوله : « وأنا معه » مبتدأ محذوف الخبر ، ويكون تقدير الكلام : « وأنا معه مقتول » ؛ وذلك لأن هذا ترك للظاهر وإحالة على ما ليس فيه ؛ والكلام إذا أمكن حملهُ على معنى يستقلّ ظاهره به من غير تقدير وحذف ، كان أولى مما يتعلق بمحذوف ؛ على أنهم إذا جعلوه مبتدأ وقدّروا خبراً لم يكونوا بأن يقدرُوا ما يوافق مذهبهم بأولى من تقدير خلافه ، ويجعل بدلاً من لفظة « المقتول » المحذوفة لفظة « معين » أو « ظهير » .

(١-١) ب : « لأنه مستول عليه بحق » وما أثبتته من ا ، ج وكتاب الشاف .

(٢) وجاء ؛ ضربه .

وإذا تكافأ القولان في التقدير وتعارضاً سَقَطَا ، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر ؛ على أن عثمان مضي مقتولا ، فكيف يقال : إن الله تعالى أماته ، ولما قتل كافٍ في انتفاء الحياة ؛ وليس يحتاج معه إلى ناف للحياة يسمى موتا .

وقول صاحب " المغنى " يجوز أن يكون ماناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة ؛ ليس بشيء ؛ لأن المروى أنه ضُرب على رأسه بعمود عظيم من حديد ، وأن أحدَ قتلته قال : جلست على صدره فوجأته تسع طعنات ، علمت أنه مات في ثلاث ، ووجأته السَّتَ الأخر لما كان في نفسى عليه من الخنق .

وبعد : فإذا كان جائزا ، فن أين علمه أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول : إن الله أماته ، وإن الحياة لم تَنْتَفِ بما فعله القاتلون ^(١) ، وإنما انتفت بشيء زاد على فعلهم من قبل الله تعالى تما ^(٢) لا يعلمه على سبيل التفصيل إلا علامُ الغيوب سبحانه .

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين ؛ إجمالاً وتفصيلاً :

أما الوجهُ الإجمالي ، فهو أننا لا نُنكر أن عثمانَ أَحَدَثَ أَحْدَانًا أَنْكَرَهَا كَثِيرٌ من المسلمين ، ولكننا ندعى مع ذلك أنها لم تبلغْ درجةَ الفِسْقِ ، ولا أَحْبَطَتْ ثوابه ، وأنها من الصفاتِ التي وقعتْ مكفرة ^(٣) ؛ وذلك لأننا قد علمنا أنه مغفور له ، وأنه من أهل الجنة لثلاثة أوجه :

أحدها : أنه من أهل بدر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن الله أطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . ولا يقال : إن عثمانَ لم يشهدْ بدرًا ؛ لأننا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدْها ، ولكنه تخلف على رُقيّة ابنة رسول الله

(١) الشافى : « التلثة » ، وفي ب : « القاتلون » تحريف .

(٢) كذا في ١ ، ج والشافى ، وفي ب : « نيا » .

(٣) الصفات المكفرة : التي يعصى أفعالها .

صلى الله عليه وآله بالمدينة لمرضها ، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله بسنمه وأجره باتفاق سائر الناس .

وثانيها : أنه من أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾^(١) . ولا يقال : إنه لم يشهد البيعة تحت الشجرة ، لأننا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدا ، ولكنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله أرسله إلى أهل مكة ، ولأجله كانت بيعة الرضوان ، حيث أُرْجِفَ^(٢) بأن قریشا قتلتم عثمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن كانوا قتلوه ؛ لأضرمنا عليهم نارا » ؛ ثم جلس تحت الشجرة ، وباع الناس على الموت ، ثم قال : « إن كان عثمان حيا فانا أبايع عنه » ، فصيح بشماله على يمينه ، وقال : « شمالي خير من يمين عثمان » . روى ذلك جميع أرباب أهل السيرة متفقا عليه .

وثالثها : أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجنة .

وإذا كانت الوجوه الثلاثة دالة على أنه مغفور له ، وأن الله تعالى قد رضى عنه ؛ وهو من أهل الجنة ، بطل أن يكون فاسقا ؛ لأن الفاسق يخرج عندنا من الإيمان ، ويحبط^(٣) ثوابه ، ويحكم له بالنار ولا يغفر له ، ولا يرضى عنه ، ولا يرمى الجنة ولا يدخلها ، فانتقضت هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أن يحكم بأن كل ما وقع منه فهو من باب الصفات المبكرة ، توفيقاً بين هذه الوجوه ، وبين روايات الأحداث المذكورة .

وأما الوجه التفصيلي فهو مذکور في كتب أصحابنا المطولة في الإمامة ؛ فليطأ من مظانه ، فإنهم قد استقصوا في الجواب عن هذه المسئلة استقصاء لا مزيد عليه .

(١) سورة الفتح ١٨

(٢) يقال : أُرْجِفَ القوم ؛ إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتى على أن يوقعوا الناس في الاضطراب .

(٣) ب ، ج : « ينحبط » وما أنبتة عن أ .

[يبعة جرير بن عبد الله البجليّ لعلّى]

فأما خبر جرير بن عبد الله البجليّ ، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية ، فنحن نذكره نقلا من " كتاب صفين " لنصر بن مزاحم بن بشار المنقرى ؛ ونذكر حال أمير المؤمنين عليه السلام ، منذ قدم الكوفة بعد وقعة الجمل ، ومراسلته معاوية وغيره ، ومراسلة معاوية له وغيره ، وما كان من ذلك في مبدأ حالتها إلى أن سار على عليه السلام إلى صفين .

قال نصر : حدثني ^(١) محمد بن عبيد الله عن الجرجاني ، قال : لما قدم على عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمر الجمل ، كاتب العمال ، فكتب إلى جرير بن عبد الله البجليّ مع زحر بن قيس الجعفيّ - وكان جرير عاملا لعثمان على ثغر همدان ^(٢) :

أما بعد ، فإِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ^(٣) . وإني أخبرك عن نبي ^(٤) من سرنا إليه من جُوع طلحة والزبير ، عند نكبتهم بيّتي ^(٥) ، وما صنعوا بعاملي عثمان ابن حنيفة . وأنى نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ؛ حتى إذا كنت بالذيّيب ^(٦) ، بعثت إلى أهل الكوفة الحسن بن عليّ ، وعبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس ابن عباد ، فاستنفرتهم فأجابوا ، فسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة ، فأعذرت في

(١) وقعة صفين للمنقرى ص ١٩ وما بعدها .

(٢) همدان أو همدان ؛ بالإجماع والإهمال . مدينة بلاد الجبال من فارس .

(٣) سورة الرعد ١١

(٤) ب : « أنباء » .

(٥) كتاب صفين : « بيعتهم » .

(٦) المذيب : ماء عن عين القادسية لبني تميم ، بينه وبين القادسية أربعة أميال (مراد الاطلاع) .

الدعاء ، وأقَلْتُ العَثْرَةَ ، وناشدتهم عَهْدَ بيعتهم ؛ فأبوا إلا قتالي ، فاستعنتُ اللهُ عليهم ، فقتِلَ مَنْ قَتَلَ ، وولوا مدبرين إلى مصرم ، وسألوني ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقَبِلتُ العافية . ، ورفعتُ السيف ، واستعملت عليهم عبدَ اللهِ بن العباس ، وسرتُ إلى الكوفة ؛ وقد بعثت إليك زحر بن قيس ، فأسأله عما بدا لك . والسلام .

قال : فلما قرأ جريرُ الكتاب ، قام فقال : أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ وهو المأمون على الدين والدنيا ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما نَحَمَدُ اللهُ عليه ، وقد باعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جُعِلَ هذا الأمر شورى بين المسلمين ، كان أحقهم بها . ألا وإن البقاء في الجماعة ، والفناء في الفرقة ، وإن عليًا حاملُكم على الحق ما استقمتم ؛ فإن ملتم أقام منكم . فقال الناس : سماعاً وطاعة ، رضينا رضينا .

فكتب جرير إلى عليّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة .

قال نصر : وكان مع عليّ رجل من طيبي ؛ ابن أخت لجرير ، فحَمَلَ زحر بن قيس شعرا له إلى خاله جرير ؛ وهو :

جَرِيرَ بنَ عبدِ اللهِ لا تَرُدُّ الهدى	بايع عليًا إنني لك ناصحُ
فإن عليًا خيرٌ من وطىء الخِصَا	سوى أحمدٍ ، والوت غادٍ ورائحُ
ودعُ عنك قولَ الناكثين فإنما	أولاك - بأعمرٍ - كلابٌ نوابجُ ^(١)
وبايع إذا بايعته بنصيحةٍ	ولا يكُ منها في ضميرك قَادِحُ
فإنك إن تطلبُ بها الدينَ تُعْطَهُ	وإن تطلب الدنيا فإنك رابجُ ^(٢)

(١) أبو عمرو ، كنية جرير بن عبد الله الجلي .

(٢) وقعة صفين : « فيمك رابع » .

وإن قلتَ عثمان بن عفان حَقَّهُ على عظيمٍ والشُّكُورُ مُنَاصِحُ
 فحقَّ عليّ إذ وَلِيكَ كَحَقِّهِ وشكركَ ما أُولِيْتَ فِي النَّاسِ صَالِحُ
 وإن قلتَ لا أرضى عليًّا إمامنا فدعْ عنكَ بجرًّا ضلَّ فيه السَّوَاحِجُ
 أبى الله إلا أنه خَيْرُ دَهْرِهِ وأفضلُ مَنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ الأَبَاطِحُ^(١)

قال نصر: ثم إن جريراً أقام في أهل همدان خطيباً، فقال: الحمد لله الذى اختار لنفسه الحمد، وتولاه دون خلقه؛ لا شريك له فى الحمد، ولا نظير له فى المجد، ولا إله إلا الله وحده، الدائم القائم، إله السماء والأرض؛ رأسه أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالنور الواضح، والحق الناطق؛ داعياً إلى الخير، وقائداً إلى الهدى، ثم قال: أيها الناس؛ إن علياً قد كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول، ولكن لا بد من ردّ الكلام. إن الناس بايعوا علياً بالمدينة عن غير محاباة له ببيعتهم، لعلمه بكتاب الله وسنن الحق؛ وإن طلحة والزبير نقضا بيعته على غير محاباة حدثت^(٢)، وألبا عليه الناس، ثم لم يرضيا حتى نَصَبَا له الحرب، وأخرجا أمّ المؤمنين، فلقيهما فأعذر فى الدعاء، وأحسن فى البقية، وحلّ الناس على ما يعرفون، فهذا عيان ما غاب عنكم؛ وإن سألتهم الزيادة زدناكم، ولا قوة إلا بالله، ثم قال:

أَتَانَا كِتَابُ عَلِيٍّ فَلَمْ نَرُدَّ الْكِتَابَ بِأَرْضِ الْعَجَمِ
 وَلَمْ نَعْصِ مَا فِيهِ لِمَا آتَى وَلَمَّا نَدَمْنَا وَلَمَّا نَلَمْنَا
 وَنَحْنُ وَلاَةٌ عَلَى تَفَرُّنَا نَضِيمُ الْعَزِيزَ وَنَحْمِي الدَّمَمِ
 نُسَاقِيهِمُ الْمَوْتَ عِنْدَ اللِّقَاءِ بَكَاسِ الْمَنَايَا وَنَشْفِي الْقَرَمِ

(١) يريد بهم قريش البصاح؛ وهم الذين ينزلون بين أخشي مكة؛ والأخشيان جبلان بها.

(٢) ب: «على غير حدث».

فصلى الإله على أحمد رسول الملوك تمام النعم (١)
 رسول الملوك ومن بعده خليفتنا القائم المدعم
 علياً عنيت وصى النبي نجالد عنه غواة الأمم
 له الفضل والسبق والمكرمات وبيت النبوة لا يهتضم

قال نصر: فسر الناس بخطبة جرير وشعره .

وقال ابن الأوزار القسري في جرير يمدحه بذلك :

لعمرو أبيك والأبناء تنمي لقد جلى بخطبه جرير
 وقال مقالة جدعت رجالاً من الحيين خطبهم كبير
 بدا بك قبل أمته على ومحك إن رددت الحق رير (٢)
 أذاك بأمره زحر بن قيس وزحر بالتى حدثت خير
 فكنت لما أذاك به سميماً وكدت إليه من فرح تطير
 فأت بما سعدت به ولى وأنت لما تعد له نصير
 وأحرزت الثواب ورب حاد حدا بالركب ليس له بعير (٣)

[بيعة الأشعث لعل]

قال نصر: (٤) وكتب علي عليه السلام إلى الأشعث - وكان عامل عثمان على أذربيجان -

(١) لم يذكر هذا البيت في كتاب صفين ، وذكر موضعه :

طحنهم طحنةً بالقنا وضرب سيوفٍ تطير اللم
 مضميناً يقيناً على ديننا ودين النبي مجلى الظلم
 أمين الإله وبرهانه خليفةتنا القائم المدعم

(٢) يقال : منح رير ؛ إذا كان فاسداً .

(٣) بعده في كتاب صفين :

ليهنك ما سبقت به رجالاً من العلياء والفضل الكبير

(٤) وقمة صفين ٢٤ .

يدعوه إلى البيعة والطاعة ، وكتب جرير بن عبد الله البجليّ إلى الأشعث ، يحضه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقبول كتابه : أما بعد ؛ فإنّي أتتني بيعة عليّ ، فقبلتها ولم أجد إلى دفعها سبيلا ؛ لأنّي نظرتُ فيما غابَ عنيّ من أمر عثمان ، فلم أجدّه يلزمني ، وقد شهد المهاجرون والأنصار ؛ فكان أوفقُ أمرهم فيه الوقوف ؛ فأقبلُ بيعته ؛ فإنك لاتنقلب إلى خير منه ؛ واعلم أنّ بيعةَ عليّ خيرٌ من مصارع أهل البصرة . والسلام .

قال نصر : فقبل الأشعثُ البيعة ، وسمع وأطاع ، وأقبل جريرٌ سائرا من نفر همدان ؛ حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه ، ودخل فيما دخل فيه الناس من^(١) طاعته ولزوم أمره .

[دعوة عليّ معاوية إلى البيعة والطاعة ورد معاوية عليه]

قال نصر :^(٢) فلما أراد عليّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولا ، قال له جرير : ابغني يا أمير المؤمنين إليه ؛ فإنه لم يزل لي مُستخِصا^(٣) ووُدّا^(٤) ، آتية^(٥) فأدعوه ؛ على أن يسلم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ، وعاملا من عمالك ، ما عمل بطاعة الله ، واتبع ما في كتاب الله ، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك ؛ فجلهم ترمي وأهل بلادى ، وقد رجوت ألا يعصوني .

فقال له الأشتر : لاتبعته ولا تصدّقه ؛ فوالله إني لأظنّ هواه هوام ، ونيتته نيتهم .

فقال له علي عليه السلام : دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا . فبعثه على عليه السلام ، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه : إن حولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الرأي والدين من قد رأيت ، وقد اخترتُك عليهم لقول رسول الله فيك :

(١) ب : « في » .

(٢) وقعة صفين للفقير ٣٢ وما بعدها .

(٣) كذا في الأصول ، وفي صفين : « مستخصا » .

(٤) ودا ، بضم الواو ؛ أي ذاود ؛ على حذف المضاف

(٥) كتاب صفين . « نأية »

« إنك من خير ذى يَمَن »^(١) ، أنت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبذ^(٢) إليه ، وأعلمه أتى لا أرضى به أميرا ، وأن العامة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشام ، ونزل بمعاوية ، فلما دخل عليه حمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد يا معاوية ، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهلُ الحرَمين ، وأهلُ المضرين ، وأهلُ الحجاز ، وأهلُ اليمن ، وأهلُ مِصر ، وأهلُ العَرُوض - والعَرُوضُ عُمان - وأهلُ البحرين واليمامة ؛ فلم يبق إلا هذه الحصون التى أنت فيها ، لوسال عليها سيل من أوديته غرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . ودفع إليه كتاب على عليه السلام ، وفيه :

أما بعد ؛ فإن بيعتى بالمدينة لزمته وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بُويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرُدّ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا على رجل فسموه^(٣) إماما ، كان ذلك لله رضا ؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قائلوه على اتباع سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، ويُصليه جهنم وساءت مصيرا . وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى ، فكان نقضهما كرتيهما ، فجاهدتهما على ذلك ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحبّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك . وقد أكرت فى قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك

(١) أى من خير أهل اليمن .

(٢) فانبذ إليه ؛ فى اللسان : المناذبة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ؛ ثم أرادوا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منها إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

(٣) ب : « وسموه » .

وإيَّام على كتاب الله؛ فأما تلك التي تُريدها مُخدعة الصبيّ عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ قرش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء^(١) الذين لا يحلّ لهم الخِلافة ، ولا تعرّض فيهم الشورى . وقد أرسلتُ إليك [وإلى من قبلك]^(٢) جرير بن عبد الله البجليّ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله .

* * *

فلما قرأ الكتاب، قام جرير فخطب، فقال :

الحمد لله المحمود بالعوائد ، المأمول منه الزوائد ، المرتجى منه الثواب ، المستعان على النوائب ؛ أحمده وأستعينه في الأمور التي تحيّر دونها الأبواب، [وتضمحل عندها الأسباب]^(٣) ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلّ شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بعد فترةٍ من الرسل الماضية ، والقرون الخالية، [والأبدان البالية ، والجبلة الطاغية]^(٣) ، فبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وأدى الحقّ الذي استودعه الله، وأمره بأدائه إلى أمته. صلى الله عليه وآله ، من رسول ومبتعث ومنتجب^(٣) وعلى آله .

أيها الناس ؛ إن أمرَ عثمان قد أعيان من شهده ، فكيف بمن غاب عنه ! وإنّ الناسَ بايعوا عليًّا غير واطر ولا موتور ؛ وكان طلحة والزبير يمتن بايعاه ثم نكنا بيعته على غير حدّث ، ألا وإنّ هذا الدين لا يحتمل الفتن؛ [ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن]^(٣) ، وقد كانتُ بالبصرة أمس روعة ملحمة أن يشفعَ البلاء بمثلها ، فلا بقاء للناس .

(١) الطلقاء : جمع طليق ؛ وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ولم يسترقهم .

(٢) تكلمة من كتاب صفين .

(٣) المنتجب : المصطفى المختار .

وقد بايعت الأمة^(١) عليًا ، ولو ملكنا والله الأمور^(٢) ، لم نختار لها غيره . فادخل يامعاوية فيما دخل فيه الناس .

فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزني ؛ فإن هذا قول لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئ ما في يديه ؛ ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضا .
ثم قعد .

قال نصر : فقال معاوية : أنظر وتنظر ؛ وأستطلع رأي أهل الشام .
فضت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادى : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، ثم قال :

الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركانًا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة ؛ جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلهم أرض الشام^(٣) ، ورضيتهم لها ، ورضيها لهم ، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناحتهم خلفاءه ، والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرّماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفي سبيل الخيرات أعلاما ؛ يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الائتنام ، وتباعد بعد القرب . اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة^(٤) دماننا ، وإخافة سُبُلنا . وقد علم الله أننا لا نريد لهم^(٥) حجابا ، ولا نهيتك لهم حجابا ، ولا نوطهم زلقا ؛ غير أن الله الحميد كسانا

(١) صفين : « العامة » .

(٢) صفين : « أمورنا » .

(٣) صفين : « فأحلها أهل الشام » .

(٤) صفين : « هراقة دماننا » ، وها بمعنى .

(٥) صفين : « لم نرد بهم حجابا » .

من الكرامة ثوبان نزرعه طوعاً؛ ماجاوب الصّدَى ، وسقط الندى ، وعرف الهدى؛ حملهم على ذلك البغى والحسد؛ فستعين الله عليهم . أيها الناس، قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم؛ وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاية ^(١) قطّ ، وأنى ولى عثمان؛ وقد قتل مظلوماً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ^(٢) ، وأنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان ، وبأبعوه على ذلك ، وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم؛ حتى يذركوا بئاره أو تلتحق أرواحهم بالله .

قال نصر : فلما أمسى معاوية اغتم بما هو فيه ، وجنّه الليل وعنده أهل بيته ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَأَعْتَرَّتْنِي وَسَاوِسِي	لَاتِ أَنْى بِاللَّتْرَاهَاتِ الْبَسَابِسِ ^(٣)
أَتَانِي جَرِيرٌ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ	بِتِلْكَ الَّتِي فِيهَا اجْتِدَاعُ الْمَغَاطِسِ
أَكَايِدُهُ وَالسَيْفُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ	وَلَسْتُ لِأَثْوَابِ الدُّنْيَا بِبَلَابِسِ
إِنْ الشَّامُ أَعْطَتْ طَاعَةً يَمْنِيَّةً	تَوَاصَفَهَا أَشْيَاخُهَا فِي الْمَجَالِسِ
فَإِنْ يَفْعَلُوا أَضْدِمُوا عَلَيَا بِجَنَّةٍ	تَفْتُ عَلَيْهِ كُلَّ رَطْبٍ وَيَابَسِ
وَإِنِّي لِأَرْجُو خَيْرَ مَا نَالَ نَائِلٌ	وَمَا أَنَا مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقِ بِبَابِسِ

قلت : الجبهة هاهنا : الخيل ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله : « ليس في الجبهة صدقة » ،

أى زكاة .

(١) على الخزاية؛ أى حملهم على أمر يستحيا منه .

(٢) سورة الإسراء ٣٣ .

(٣) البسابس : الأمور الباطلة . والآيات والخبر فى الكامل : ١٨٤ (طبع أوروبا) .

(٤) الكامل : « بياس » .

قال نصر : فاستحنته ^(١) جرير بالبيعة ، فقال : يا جرير ؛ إنها ليست بحلسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبلغني ربي [حتى أنظر] ^(٢) ، ودعا ثقاته ^(٣) ؛ فأشار عليه أخوه بعمر بن العاص ، وقال له : إنه من قد عرفت ، وقد اعتزل عثمان في حياته ؛ وهو لأمر أشد اعتزالا إلا أن يثمن له دينه ^(٤) .

وقد ذكرنا فيما تقدم خبر استدعائه عمراً ، وما شرط له من ولاية مصر ، واستقدامه شرحبيل بن السمط رئيس اليمينية وشيخها والمقدم عليها ، وتدسيس الرجال إليه يفرونه بعلي عليه السلام ، ويشهدون عنده أنه قتل عثمان ، حتى ملثوا صدره وقلبه حقداً وترّة وإحنة طي علي عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته ^(٥) .

قال نصر : فحدثني محمد بن عبيد الله عن الجرجاني ، قال :

^(٥) جاء شرحبيل إلى حصين بن نمير ، فقال : ابعث إلى جرير فليأتنا ، فبعث حصين

ابن نمير إلى جرير : أن زُرنا فعندنا شرحبيل ، فاجتمعا عند حصين ، فتكلم شرحبيل ،

(١) وقعة صفين ٢٤٩

(٢) من كتاب وقعة صفين

(٣-٣) وقعة صفين : « فقال له عتبة بن أبي سفيان - وكان نظيره - : اجتمعن علي هذا الأمر بعمر بن العاص ، وأثمن له دينه ؛ فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته ؛ وهو لأمر أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة . »

(٤) الجزء الثاني في من ٦١ وما بعدها .

(٥) صدر هذا الخبر كما ورد في كتاب وقعة صفين ٥٢ : « لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ، ودخل على معاوية ؛ فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا شرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعوننا إلى بيعة علي ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسي عليك ؛ وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا ، وأكره ما كرهوا ؛ فقال شرحبيل : أخرج فأنظر ؛ فخرج فلقية هؤلاء النفر الموطون له ؛ فسكلمهم يخبره بأن علياً قتل عثمان بن عفان . فخرج مفضباً إلى معاوية فقال : يا معاوية ؛ أباي الناس إلا أن أباي قتل عثمان ؛ ووالله لئن بايعت لنخرجنك من الشام أو لنقتلك . قال معاوية : ما كنت لأخالف عليكم ؛ وما أنا إلا رجل أهل الشام . قال : فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذا . قال : فمرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق ؛ وأن الشام كله مع شرحبيل ؛ فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير . . . » ؛ وقد نقله المؤلف مختصراً فيما سبق في الجزء الثاني من ٥٢-٥٣ .

فقال : يا جرير أتيتنا بأمر مُلَقَّف (١) لِتُلَقِّينَا فِي لَهَوَاتِ الْأَسَدِ ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَخْلِطَ الشَّامَ بِالْعِرَاقِ ، وَأَطْرَيْتَ (٢) عَلِيًّا ، وَهُوَ قَاتِلُ عُمَانَ ، وَاللَّهِ سَأَلْتُكَ عَمَّا قَلْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ جَرِيرٌ وَقَالَ : يَا شَرْحَبِيلَ ، أَمَا قَوْلُكَ : إِنِّي جِئْتُ بِأَمْرِ مُلَقَّفٍ ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ مُلَقَّفًا وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، وَقُوتِلَ عَلَى رَدِّهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ ! وَأَمَا قَوْلُكَ : إِنِّي أَلَقِيكَ فِي لَهَوَاتِ الْأَسَدِ ، فَنَفِي لَهَوَاتِهَا أَلَقَيْتَ نَفْسَكَ .

وَأَمَا خَلَطُ أَهْلِ الشَّامِ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَخَاطَبُهُمَا عَلَى حَقِّهِ ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَتِهِمَا عَلَى بَاطِلٍ .

وَأَمَا قَوْلُكَ : إِنِّي قَتَلْتُ عَلِيًّا قَتَلَ عُمَانَ ، فَوَاللَّهِ مَا فِي يَدَيْكَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْقَذْفُ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ؛ وَلَكِنَّكَ مِلْتَ إِلَى الدُّنْيَا ؛ وَشَيْءٌ كَانَ فِي نَفْسِكَ عَلَى زَمَانِ سَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَاصٍ !

فَبَلَغَ مَا قَالَاهُ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، فَبَعَثَ إِلَى جَرِيرٍ فَرَزَجَهُ . قَالَ نَصْرٌ : وَكُتِبَ إِلَى شَرْحَبِيلَ كِتَابٌ لَا يَرِفُ كَاتِبَهُ (٣) . فِيهِ :

شَرْحَبِيلُ يَا بَنَ السَّمْطِ لَا تَتَّبِعْ نُمُوِي
وَلَا تَكُ كَالْمُجْرِمِي إِلَى شَرِّ غَايَةٍ
وَقُلْ لَابْنَ حَرْبٍ مَالِكِ الْيَوْمِ خَلَّةٌ
شَرْحَبِيلُ إِنَّ الْحَقَّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ
وَأَرْوِدُ وَلَا تَفْرِطْ بِشَيْءٍ نَخَافُهُ
فَاللَّكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدِّينِ مِنْ بَدَلٍ
فَقَدْ خُرِقَ السَّرْبَالُ وَاسْتَنَوَقَ الْجَلْدُ
تُرُومُ بِهَا مَارُمْتَ وَأَقَطَعَ لَهُ الْأَمْلُ (٤)
فَكُنْ فِيهِ مَأْمُونِ الْأَدِيمِ مِنَ النَّغْلِ
عَلَيْكَ ، وَلَا تَمَجَّلْ فَلَ خَيْرٍ فِي الْعَجَلِ

(١) ملقف : غير محكم .

(٢) صفين : « أطرات » ، وهما بمعنى : « مدحت »

(٣) وقمة صفين : « وكتب جرير إلى شرحبيل » .

(٤) وقمة صفين : « مالك اليوم حرمة . . . واقطع » .

وقال ابنُ هَندٍ في عليّ عَضِيهَةً
 وَمَا مِنْ عَلِيٍّ فِي ابْنِ عَفَّانٍ سَقَطَةٌ
 وَمَا كَانَ إِلَّا لَازِمًا قَمَرًا بَيْتِيهِ
 فَمَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَ هَذَا فَحَسْبُهُ
 وَصَى رَسُولَ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ
 وَكَانَ فِي صَدْرِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَجَلٌ (١)
 بِقَوْلِهِ ، وَلَا مَالَ عَلَيْهِ وَلَا قَتْلٌ (٢)
 إِلَى أَنْ أَتَى عُمَانَ فِي دَارِهِ الْأَجَلَ
 مِنَ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ بَعْضُ الَّذِي احْتَمَلَ
 وَمَنْ بَاسِمِهِ فِي فَضْلِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ (٣)

قال نصر: فلما قرأ شَرَحْبِيلُ الكتابَ ذُعِرَ وفكَّرَ ، وقال : هذه نصيحةٌ لي في ديني ،
 ولا والله لا أمجّل في هذا الأمر بشيء ، [وفي نفسى منه حاجة] (٤) ، وكاد (٥) يحولُ عن نصر
 معاوية ويتوقف (٥) ، فللق (٦) له معاوية الرجالَ يدخلون إليه ويخرجون ، ويهطمون عنده قتلاً
 عثمان ، ويرمّون به عليّاً ، ويقيمون الشهادةَ الباطلة ، والكتبَ المختلقة ؛ حتى أعادوا
 رأيه ، وشحذوا عزمه (٧) .

(١) العضية : الإفك والبهتان .

(٢) مالا عليه ، أصله : « مالا » بالهمز ؛ والمالأة : المعاونة . وفي صفين : « ولا جلب عليه » .

(٣) في صفين :

* من الزورِ والبُهْتانِ قولُ الَّذِي احْتَمَلَ *

(٤) من كتاب وقعة صفين .

(٥-٥) في وقعة صفين : « واستتر له القوم » .

(٦) كذا في ج ، وفي ا ، ب ، « فلقوله » تصحيف ، وفي صفين : « فلف » .

(٧) بقية الخير فيما نقل عن كتاب وقعة صفين : « وبلغ ذلك قومه ، فبعث ابن أخت له من بارق - وكان

يرى رأى علي بن أبي طالب - فبايعه بمد ، وكان بمن لحق من أهل الشام ، وكان ناسكاً ، فقال :

لعمري أبي الأشقي ابن هَندٍ لقد رمى
 وَلَقَفَ قَوْمًا يَسْتَحِبُّونَ ذِيولَهُمْ
 فَأَلْفَى يَمَانِيًّا ضَعِيفًا نَحَاةُ
 فَطَاطَا لَهَا لَمَّا رَمَوْهُ بِثِقَلِهَا
 شَرَحْبِيلَ بِالسَّهْمِ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ
 جَمِيعًا وَأَوْلَى النَّاسِ بِالذَّنْبِ فَأَعْلَهُ
 إِلَى كُلِّ مَا يَهْوُونَ تُحْدَى رَوَاحِلُهُ
 وَلَا يَرْزُقُ التَّقْوَى مِنَ اللَّهِ خَازِلُهُ =

(٦ - نهج - ٣)

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد بإسناده قال : ^(١) بعث معاوية إلى شُرْحَبِيلِ ابن السَّمُط :

إنه قد كان من إجابتك إلى الحق ، وما وقع فيه أجرُك على الله ، وقبَله عنك صلحاء الناس ما علمت ؛ وإن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يتم إلا برضا العامة ، فسر في مدائن الشام ، ونادِ فيهم بأن علياً قتلَ عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه . فسار شُرْحَبِيلُ ، فبدأ بأهلِ حِمص ، فقام فيهم خطيباً - وكان مأموناً في أهل الشام ناسكاً متألهاً ، فقال :

أيها الناسُ ، إن علياً قتلَ عثمان ، فغضب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ، فلقبهم فهزم الجمع ، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض ، فلم يبق إلا الشام ؛ وهو واضح سيفه على عاتقه ، ثم خائض غمرات ^(٢) الموت ، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً ، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية ، فجدوا وانهضوا .

فأجابه الناس كلهم إلا نُسَكا من أهلِ حِمص ؛ فإنهم قالوا له : بيوتنا قبورنا ومساجدنا ، وأنت أعلم بما ترى .

قال : وجعل شُرْحَبِيلُ يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها ، لا يأتي على قوم إلا قبلوا

= لِيَأْكُلَ دِينًا لِابْنِ هِنْدٍ بِدِينِهِ أَلَا وَابْنُ هِنْدٍ قَبْلَ ذَلِكَ آكِلُهُ
وَقَالُوا عَلِيٌّ فِي ابْنِ عَفَانَ خَدْعَةٌ وَدَبَّتْ إِلَيْهِ بِالشَّنَانِ غَوَائِلُهُ
وَالَّذِي أَرَسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ لَقَدْ كَفَّتْ عَنْهُ كَفُّهُ وَوَسَائِلُهُ
وَمَا كَانَ إِلَّا مِنْ صَحَابِ مُحَمَّدٍ وَكَلِمَتُهُمْ تَغْلِي عَلَيْهِ مَرَاجِلُهُ

فلما بلغ شُرْحَبِيلُ هذا القول قال : هذا بيت الشيطان ؛ الآن امتحن الله قلوبنا ؛ والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتني ؛ فهرب الفتى إلى الكوفة - وكان أصله منها - وكاد أهل الشام أن يرتابوا .

(١) في صفين : « محمد بن عبيد الله وعمر بن سعد بإسناده ، قال » .

(٢) صفين : « غبار الموت » .

مأتام به ، فبعث إليه النجاشي بن الحارث^(١) - وكان له صديقا :

شُرْحَبِيلُ مَالِدِ بْنِ فَارِقَةَ دِينَنَا^(٢) وَلَكِنْ لِبَغْضِ الْمَالِكِيِّ جَرِيرِ
 وَشَحْنَاءِ دَبَّتْ بَيْنَ سَعْدٍ وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحْتَ كَالْحَادِي بَغِيرِ بَعِيرِ
 [وَمَا أَنْتَ ، إِذْ كَانَتْ بِحِيلَةٍ عَاتِبَتْ قَرِيبًا فَيَا اللَّهَ بُغْدَ نَصِيرِ]^(٣)
 أَتَفْصِلُ أَمْرًا غَبَّتْ عَنْهُ بِشَبْهَةٍ وَقَدْ حَارَ فِيهِ عَقْلُ كُلِّ بَصِيرِ
 بِقَوْلِ رِجَالٍ لَمْ يَكُونُوا أُمَّةً وَلَا لِتِي لَقَوَّكَهَا بِحُضُورِ
 [وَمَا قَوْلُ قَوْمٍ غَائِبِينَ تَقَاذِفُوا مِنْ الْغَيْبِ مَا دَلَّاهُمْ بِغُرُورِ]^(٤)
 وَتَرَكْ أَنْ النَّاسَ أَعْطَوْا عَهْدَهُمْ عَلِيًّا عَلَى أَنْسٍ بِهِ وَسُرُورِ
 إِذَا قِيلَ هَاتُوا وَاحِدًا يَتَقَدَّى بِهِ^(٥) نَظِيرًا لَهُ لَمْ يُفْصِحُوا بِنَظِيرِ
 لَعَلَّكَ أَنْ تَشْقَى الْغَدَاةَ بِحَرْبِهِ فَلَيْسَ الَّذِي قَدْ جِئْتَهُ بِصَفِيرِ

* * *

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن نُمَيْرِ بْنِ وَعَلَةَ، عن الشَّعْبِيِّ، أن شُرْحَبِيلَ بْنَ السَّمُطِ
 ابْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ جَبَلَةَ [السَّكَنْدِيُّ]^(٣) دخل على معاوية ، فقال له: أنت عاملُ أميرِ المؤمنين
 وابنِ عمِّه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنتَ رجلاً تُجاهِدُ علياً وقتلةَ عثمان حتى ندرِكَ ثأرنا
 أو تذهب أرواحنا استعملناك علينا ؛ وإلا عزَّلناك واستعملنا غيرَكَ ممن نريد ، ثم جاهدنا
 معه حتى ندرِكَ بدمِ عثمان أو نهلك .

فقال جرير بن عبد الله - وكان حاضرا : مهلاً يا شُرْحَبِيلُ ؛ فإن الله قد حَقَّنَ الدَّمَاءَ ،
 ولمَّ الشَّعْثَ ، وجمَع أمرَ الأمة ، ودنا من هذه الأمة . يكون ؛ فإياك أن تُفْسِدَ بينَ الناسِ ،

(١) في حواشي صفين : « والمعروف في شعرائهم النجاشي الحارثي ؛ واسمه قيس بن عمرو بن مالك ؛
 من بني الحارث بن كعب ؛ وهو من حده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لشره بالحق » .
 (٢) وقمة صفين : « أمرنا » .
 (٣) من كتاب وقمة صفين .
 (٤) وقمة صفين : « تقتدوناه » .

وَأَمْسِكْ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ قَبْلَ أَنْ يَشِيعَ وَيُظْهِرَ عَنْكَ قَوْلٌ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَسْرَهُ أَبَدًا . ثُمَّ قَامَ فَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَقَالَ النَّاسُ : صَدَقَ صَدِيقُ الْقَوْلِ مَا قَال ، وَالرَّأْيُ مَا رَأَى . فَأَيْسَ جَرِيرٍ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ مَعَاوِيَةَ وَمِنْ عَوَامِ أَهْلِ الشَّامِ .

قال نصر : ^(١) وحدثني محمد بن عبيد الله ، عن الجرجاني ، قال : كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك في منزله ، فقال له : يا جرير ؛ إني قد رأيت رأياً ، قال : هاته ، قال : اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية ، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة ، وأسلم له هذا الأمر ؛ وأكتب إليه بالخلافة . فقال جرير : اكتب ما أردت أكتب معك ^(٢) .

فكتب معاوية بذلك إلى علي ، فكتب علي عليه السلام إلى جرير : أما بعد ، فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب ، وأراد أن يرينك ويُبطنك ، حتى يذوق أهل الشام ؛ وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن أستعمل معاوية على الشام ، وأنا حينئذ بالمدينة ، فأبيت ذلك عليه ، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلّين عَصُداً ، فإن بآمك الرجل ؛ وإلا فأقبل . والسلام .

قال نصر : وفشا كتاب معاوية في العرب ، فبعث إليه ^(٣) الوليد بن عُقبة :

معاويَ إنَّ الشَّامَ شامُكَ فاعتصمِ بشامِكَ لا تُدْخِلْ عَلَيْكَ الْأَفَاعِيَا
وحامٍ عليها بالصَّوَارِمِ وَالْقَنَا ولاتكُ موهونَ الذَّرَاعِينَ وَإِنِّيَا ^(٤)
وإنَّ عليا ناظرٌ ما تجيبه فأهدِ له حرباً تُشِيبُ النَّوَاصِيَا

(١) وقعة صفين ٨٠

(٢) صفين : « اكتب بما أردت وأكتب معك »

(٣) كلمة « إليه » ساقطة من أ .

(٤) صفين : « باقتابل . . . محشوش الذراعين » .

وإلا فسلم إن في السلم راحةً
وإن كتابا يابن حرب كتبته
سألت عليًا فيه مألن تناله
وسوف ترى منه التي ليس بعدها
أمثل عليّ تعتريه بخدعة
لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
على طمع ، يزجى إليك الدواهيا
ولو نلته لم يبق إلا لياليا
بقاء ، فلا تكثر عليك الأمانيا
وقد كان ما جرّبت من قبل كافيا !

قال: وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية أيضا يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب

جواب جرير :

معاوي إن الملك قد جب غاربه
أناك كتاب من عليّ بخطة
فلا ترج عند الواترين مودة
وحاربه إن حاربت حرب ابن حرة
فإن عليًا غير صاحب ذيله
[ولا قابل ما لا يريد وهذه
فلا تدعن الملك والأمر مقبل
فإن كنت تنوى أن تجيب كتابه
وإن كنت تنوى أن ترد كتابه
فألق إلى الحى اليمانيين كلمة
تقول : أمير المؤمنين أصابه
أفانين منهم قائل ومحرّض
وأنت بما في كفك اليوم صاحبه
هى الفصل فاختر سلّمه أو تحاربه
ولا تأمن اليوم الذى أنت راهبه
وإلا فسلم لا تدب عقاربه (١)
على خدعة ماسوغ الماء شاربته
يقوم بها يوماً عليه نوادبه (٢)
وتطلب ما أعيت عليه مذاهبه
فقبّح ممليه وقبّح كاتبه
وأنت بأمر لا محالة رآكبه
تنال بها الأمر الذى أنت طالبه
عدو وما لاهم عليه أقاربه
بلا ترّة كانت ، وآخر سالبه

(١) ب : « حراين حرة » ، والصواب ما أثبتته من ا ، ج وكتاب صفين .

(٢) من كتاب صفين .

وكنْتُ أَمِيرًا قَبْلُ بِالشَّامِ فِيكُمْ فحسبي وإياكم من الحقِّ واجِبُهُ
 فحيثوا ، وَمَنْ أَرَسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ تُدَافِعُ بَحْرًا لَا تُرَدُّ غَوَارِبُهُ (١)
 فَأَقْلِلْ وَأَكْثِرْ مَا لَهَا الْيَوْمَ صَاحِبُ سِوَاكَ فَصَرِّحْ لَسْتُ مِنْ تَوَارِبُهُ

قال نصر : وخرج جرير يوما يتجسس الأخبار ؛ فإذا هو بسلام يتغنى على قعود له ،

وهو يقول :

حُكَيْمٌ وَعَمَّارُ الشَّجَا وَمُحَمَّدٌ كَذَا اشْتَرَا الْمَكْشُوحَ جَرَّوَا الدَّوَاهِيَا (٢)
 وَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلزُّبَيْرِ مَجَاجَةٌ وصاحبه الأذنى أناروا الدواهيا (٣)
 فَأَمَّا عَلِيٌّ فَاسْتَجَارَ بَيْتَهُ فلا أمرٌ فيها ولم يكُ ناهيا
 فَقُلْتُ فِي جَمِيعِ النَّاسِ مَا شِئْتُ بَعْدَهُ فلو قلتَ أخطأ الناسُ لم تكُ خاطيَا
 وَإِنْ قُلْتُ عَمُّ الْقَوْمِ فِيهِ بِفِتْنَةٍ فحسبُكَ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ كَافِيَا
 فَقَوْلًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَخُصًّا الرِّجَالَ الْأَقْرَبِينَ الْأَدَانِيَا
 أَيْقَتَلُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بَيْنَكُمْ عَلَيَّ غَيْرِ شَيْءٍ لَيْسَ إِلَّا تَعَامِيَا
 فَلَا نَوْمَ حَتَّى نَسْتَبِيحَ حَرِيمَكُمْ وَنُخْضِبَ مِنْ أَهْلِ الشَّنَانِ الْعَوَالِيَا

فقال جرير : يا بن أخي ، مَنْ أَنْتَ ؟ فقال : غلام من قريش ، وأصلي من ثَقِيف ،

أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شريق ، قتل أبي مع عثمان يوم الدار . فعجب جريرُ

(١) كذا في ج ، وصفين ، وفي أ ، ب : « تحيوا » ، والغوارب : أعلى الموج .

(٢) حكيم بن جبلة بن حصن العبدي ، كان عمًا ، بعثه إلى السند ؛ ثم نزل البصرة ، وقتل بها يوم الجمل . وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر الصديق ؛ والأشتر : مالك بن الحارث . والمكشوح المرادى ، واسمه هيرة بن هلال ، ونسبه في بجليه .

(٣) صفين : « أشاب النواصيا » .

من شعره وقوله ، وكتب بذلك إلى عليّ عليه السلام ، فقال عليّ : والله ما أخطأ الغلام شيئاً .

قال نصر : ^(١) وفي حديث صالح بن صدقة ، قال : أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى أتتهم الناس ، وقال عليّ عليه السلام : قد وقتُ لجرير وقتاً لا يُقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً ، وأبطأ كلّي عليّ حتى أيس منه .

قال : وفي حديث محمد وصالح بن صدقة ، قالا : فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك :

إذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل ؛ ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزية ^(٢) أو سلم مُحظية ، فإن اختارَ الحرب فابذ إليه ، وإن اختار السلم فخذ بيئته . والسلام .

قال : فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية ، فأقرأه الكتاب ، وقال له : يا معاوية ؛ إنه لا يطبع على قلب إلا بذنب ، ولا يُسرح صدرٌ إلا بتوبة ، ولا أظنّ قلبك إلا مطبوعاً عليه ، أراك قد وقفت بين الحقّ والباطل ، كأنك تنتظر شيئاً في يد غيرك .

فقال معاوية : ألقاك بالفصل ^(٣) في أول مجلس إن شاء الله .

فلما بايع معاوية أهلَ الشام بعد أن ذاقهم ، قال : يا جرير الحق بصاحبك ، وكتب إليه بالحرب ، وكتب في أسفل الكتاب شعره . بن جَعِيل :

أرأى الشامَ تَكْرَهُ أهلَ العِراقِ وَأهلَ العِراقِ هُمُ كارهُونا

(١) وقمة صفين ٦١

(٢) صفين : ٥ مجلة ،

(٣) صفين : ٥ بالفصل

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب " الكامل " ،^(١) : إن عليًا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية ، قال : والله يا أمير المؤمنين ما أدخرك من نصرتي شيئاً ، وما أطمع لك في معاوية . فقال عليّ عليه السلام : إنما قصدى حُجّة [عليه] .^(٢) فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيعة ، فقال له جرير : إن المنافق لا يصلّي حتى لا يجد من الصلاة بُدّاً . فقال معاوية : إنها ليست بخدعة الصبي عن اللبّ ، فأبلغني ريقى^(٣) ، إنه أمر له ما بعده .

قال : وكتب مع جرير إلى عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه إليه : من معاوية ابن صخر إلى عليّ بن أبي طالب ؛ أما بعد : فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ؛ ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعتك الجاهلُ ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ؛ حتى تدفع إليهم قتلّة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، واعمري^(٤) ليس حُججك عليّ كحججك على طلحة ، والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أباعك ، وما حججتك على أهل الشام كحججتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يُطعك أهل الشام . فأمّا شرفك في الإسلام ، وقرابتك من النبي صلى الله عليه وموضعتك من قریش ، فلست أدفعه .

(١) الكامل ٣ : ٢٠٩ وما بعدها - بشرح الرصني ؛ مع تصرف في الخبر .

(٢) من كتاب الكامل .

(٣) أي أنظرني بمقدار ما أبلغ ريق

(٤) - (٤) الكامل : « ما حججتك على كحججتك على طلحة . . . » .

ثم كتب في آخر الكتاب شعراً كتب بن جعيل الذي أوله :
أَرَى الشَّامَ تَكَرَّهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهِونَا

قال أبو العباس المبرّد^(١) رحمه الله تعالى : ^(٢) فكتب إليه عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه هذا :

من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب^(٣) :

أما بعد ؛ فإنه أتاني منك كتابٌ أمرىُّ ليس له بصَرٌّ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابهُ ؛ وقاده الضلال فاتبعهُ ، زعمتَ أنك إنما أفسدَ عليكَ بِنِعْتِي خَطِيئَتِي في عُمانَ ، ولعمري ما كنتُ إلا رجلاً من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرتُ كما أصدروا ؛ وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالعمى . وبعد ، فما أنتَ وعُمانُ ! إنما أنتَ رجلٌ من بني أمية ، وبنو عُمانِ أوّلَى بمطالبةِ دمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى على ذلك ، فادخلُ فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القومَ إلى . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير ، وبين أهل الشام وأهل البصرة ، فلعمري ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء ؛ لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النظر . وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه ، وموضعي من قریش ، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته .

قال : ثم دعا النجاشيُّ أحدَ بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنَّ ابنَ جُعيلٍ شاعرٌ أهل الشام ، وأنتَ شاعرٌ أهل العراق ، فأجب الرجل . فقال : يا أمير المؤمنين ، أسمعني قوله ، قال : إذن أسمعك شعراً شاعر ، ثم أسمعهُ ، فقال النجاشيُّ يحييه :

(١) في السكامل ٣ : ٢٢٤ - بشرح الرصني ؛ وذكره المنقري في كتاب صفين ٦٤ - ٦٥
(٢-٣) في السكامل : « فكتب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه جواب هذه الرسالة :
بسم الله الرحمن الرحيم من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر . »

دَعَا يَا مُعَاوَى مَا لَنْ يَكُونَا فَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مَا تَحذَرُونَا
 أَنَا كُمْ عَلَىٰ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا (١)
 عَلَىٰ كُلِّ جَرْدَاءٍ خَيْفَانَةٌ وَأَشْعَثَ نَهْدٍ بِسُرِّ الْعِيُونَا (٢)
 عَلَيْهَا فَوَارِسٌ مُخَشِيَةٌ كَأَسَدِ الْعَرَبِينَ حَمِينِ الْعَرَبِينَا
 يَرَوْنَ الطَّعَانَ خِلَالَ الْعَجَاجِ وَضَرَبَ الْفَوَارِسِ فِي النَّقْعِ دِينَا (٣)
 هُمْ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمْعَ الرُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشِرِ النَّا كَثِينَا
 وَأَلَا يَمِينًا عَلَىٰ خَلْفَةٍ لِنَهْدِي إِلَى الشَّامِ حَرْبًا زَبُونَا (٤)
 تُشِيبُ النَّوَاهِدَ قَبْلَ الشَّيْبِ وَتُنَدِّي الْحَوَامِلُ مِنْهَا الْجَنِينَا (٥)
 فَإِنْ تَكَرَّهُوا الْمُلْكَ مُلْكَ الْعِرَاقِ فَقَدْ رَضِيَ الْقَوْمُ مَا تَكَرَّرْهُونَا
 فَقُلْ لِلْمُضَلَّلِ مِنْ وَاثِلٍ وَمَنْ جَعَلَ الْفَتْحَ يَوْمًا سَمِينَا
 جَعَلْتُمْ عَلَيْنَا وَأَشْيَاءَهُ نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ أَمَا تَسْتَحُونَا!
 إِلَى أَفْضَلِ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَصِنُو الرَّسُولِ مِنَ الْعَالَمِينَا
 وَصَهْرِ الرَّسُولِ وَمَنْ مِثْلُهُ إِذَا كَانَ يَوْمٌ يُشِيبُ الْقُرُونَا!

قلت : أبيات كعب بن جُعيل ؛ خيرٌ من هذه الأبيات ، وأخبت مقصدا وأدهى وأحسن .

وزاد نصر بن مزاحم في هذه الرسالة بعد قوله : « ولا ليضربهم بالعمى » :
 « وما ألبت (٦) فتلذمني خطيئة الأمر ، ولا قتلت فيجب على القصاص . وأما قولك إنَّ

(١) لم يذكر المبرد في الكامل سوى هذين البيتين ، وقاء : « وبعد هذا ما تمسك عنه » .

(٢) الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . والخيفانة : الحقيفة الوثابة . والنهد من الخيل : الجسيم المشرف

(٣) النقع : التراب .

(٤) صفين : « وقالوا » . والإيلاء : الحلف

(٥) صفين : « تشيب النواهد » .

(٦) ما ألبت ، أى ما حرضت . وفي صفين : « وما أمرت »

أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز ، فهات رجالاً من أهل الشام يقبل في الشورى ،
أو تحل له الخلافة ، فإن زعمت ذلك كذبتك المهاجرون والأنصار ؛ وإلا أتيتك به من
قريش الحجاز . وأما ولوعك بي في أمر عثمان ، فما قلت ذلك عن حق العيان ،
ولا يقين الخبر^(١) .

وهذه الزيادة التي ذكرها نصر بن مزاحم ، تقتضي أنه كان في كتاب معاوية إليه
عليه السلام أن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز ؛ وما وجدنا هذا الكلام
في كتابه .

[أخبار متفرقة]

وروى نصر بن مزاحم ، قال : لما^(٢) قُتِلَ عثمانُ ضَرَبَت الرِّكابان إلى الشام بقتله ،
فبينما معاوية يوماً إذا أقبل رجل متلفف ، فكشف عن وجهه ، وقال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ،
أتعرفني ؟ قال : نعم ؛ أنت الحجاج بن خزيمة بن الصمة ، فأين تريد ؟ قال : إليك القربان ،
أنعى ابن عفان ، ثم قال :

إن بني عمك عبد المطلب هم قتلوا شيخكم غير كذب
وأنت أولى الناس بالوثب فنب واغضب معاوي للإله واحتسب
وسير بنا سير الجرير الملتب وانهض بأهل الشام ترشد وتصب
ثم اهز الصعدة للشاس الشغب^(٣)

قال : يعني عليا عليه السلام .

قلت : الملتب المستقيم المطرد ، يقال : هذا قياس متلب ، أي مستمر مطرد .

(١) الخبر : العلم

(٢) وقعة صفين ٨٦ ، ٨٧

(٣) الصعدة ، بالفتح : القناة المستوية .

ويقال : مكان شأس ، أى غليظ صلب . والشَّغْب : الهاجج للشرِّ ، ومن رواه : « للشاسى » بالياء فأصله « الشاصى » بالصاد ؛ وهو المرتفع ، يقال : شصا السحابُ إذا ارتفع ، فأبدل الصاد سينا ، ومراده هنا نسبة علىّ عليه انسلام إلى التيه والترفع عن الناس .

قال نصر : فقال له معاوية : أفيك مَهَزَّ ، فقال : نعم ، فقال : أخبر الناس ، فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين - ولم يخاطب معاوية بـ « أمير المؤمنين » قبلها - إني كنتُ فيمنُ خرج مع يزيد بن أسدِ القسرى ، مغينا لعثمان ، فقدمتُ أنا وزفر بن الحارث ، فلقينا رجلا زعم أنه ممن قتل عثمان ، فقتلناه ؛ وإني أخبرك يا أمير المؤمنين ، أنك لتقوى علىّ بدون ما يقوى به عليك ؛ لأنّ معك قوما لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ وإن مع علىّ قوما يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ؛ فقليلٌ ممن معك خيرٌ من كثيرٍ ممن معه . واعلم أنه لا يرضى علىّ إلا بالرضا ، وأن رضاه سَخَطُك ، ولستَ وعلىّ سواء ؛ علىّ لا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق .

قال نصر : فضاقت معاوية صدرا بما أتاه ، وندم على خذلان عثمان ^(١) وقال :

أَنَا فِي أَمْرٍ فِيهِ لِلنَّفْسِ غَمَّةٌ	وَفِيهِ بَكَاءٌ لِلْعُمُومِ طَوِيلُ
وَفِيهِ فَنَاءٌ شَامِلٌ وَخَزَايَةٌ	وَفِيهِ اجْتِدَاعٌ لِلْأَنْوْفِ أَصِيلُ
مِصَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَهَذِهِ	تَكَادُ لَهَا صَمٌّ الْجِبَالِ تَزُولُ
فَللَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ هَالِكِ	أَصِيبَ بِلَا ذَنْبٍ زِدَاكَ جَلِيلُ !
تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ	فَرِيقَانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وَخَذُولُ
دَعَاهُمْ فَصَمُّوا عَنْهُ عِنْدَ دُعَائِهِ	وَذَاكَ عَلَى مَا فِي النَّفُوسِ دَلِيلُ
نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَبِيعِي الْيَهُوَى	وَقَصْرِي فِيهِ حَسْرَةٌ وَعَوِيلُ ^(٢)

(١) وقعة صفين : « وقال معاوية حين أتاه قتل عثمان » .

(٢) قصرى فيه ؛ أى حسى .

سَأْبِي أَبَا عَمْرٍو بِكُلِّ مُتَقَفٍ^(١) وَبَيْضٍ لَهَا فِي الدَّارِ عَيْنَ صَلِيلٍ^(١)
تَرَكَتْكَ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ شَجَاكَ فَمَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ أَقُولُ!
فَلَسْتُ مُقِيماً مَا حَيَّيْتُ بِبِلْدَةٍ أَجْرَ بِهَا ذَلِيلِي وَأَنْتَ قَتِيلُ
فَلَا نَوْمَ حَتَّى تُشَجَّرَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَبُشْفَى مِنَ الْقَوْمِ الْغَوَاةِ غَلِيلٍ^(٢)
وَنَطَحَنَهُمْ طَحْنَ الرَّحَا بِثِفَالِهَا وَذَلِكَ بِمَا أَسَدَوْا إِلَيْكَ قَلِيلٍ^(٣)
فَأَمَّا الَّتِي فِيهَا مَوْدَةٌ بَيْنَنَا فَلَيْسَ إِلَيْهِ مَا حَيَّيْتُ سَبِيلُ
سَأْلُ لِحِجْهَا حَرْبًا عَوَانًا مُلْحَةً وَإِنِّي بِهَا مِنْ عَامِنًا لَكَفِيلُ

قال نصر: وافتخر الحجاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية

بإمرة المؤمنين .

قال نصر: ^(٤) وحدثنا صالح بن صدقة ، عن ابن إسحاق ، عن خالد الخزازي وغيره من
لا يُتَبَّهَمُ ، أن عثمان لما قُتِلَ وَأَتِي معاوية بكتاب على عليه السلام بعزله عن الشام ، صعد المنبر ونادى
في الناس أن يحضروا ، فحضروا ، فخطبهم . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال :
يا أهل الشام ، قد علمت أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان ، وقد قتل
وأنا ابن عمه ووليّه ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا ﴾ ^(٥)
وأنا أحب أن تعلموني ما في نفوسكم من قتل خليفتم .

(١) وقعة صفين : « سأبني » ، وسأبني ، أي سأطاب نأره ؛ وأبو عمرو كنية عثمان .

(٢) شجر الخيل : تصفن .

(٣) الثفال : جلد يبسط فيوضع فوقه الرحا ليسقط عليه الدقيق . وفي اللسان : « وفي حديث علي :
وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها » ، هو من ذلك : والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب ؛ إذا كانت مثقلة ،
ولا تنفل إلا عند الطحن » .

(٤) وقعة صفين ٩١

(٥) سورة الإسراء ٣٣

فقام مُرّة بن كعب^(١)؛ وفي المسجد يومئذ أربعائة رجلٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أو نحوها، فقال: والله لقد قتتُ مقامى هذا، وإنى لأعلمُ أن فيكم مَنْ هو أقدم حجةً لرسول الله صلى الله عليه منى؛ ولكنى شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله نصفَ النهار في يوم شديد الحرِّ، وهو يقول: «لَتَكُونَنَّ فِتْنَةٌ حَاضِرَةٌ»، فمرَّ رجلٌ مُقَنَّعٌ، فقال رسول الله: وهذا [المقنّع]^(٢) يومئذٍ على الهدى، فقمتُ فأخذتُ بمنكبه، وحسرتُ عن رأسه؛ فإذا عثمان، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه، وقلتُ: هذا يارسول الله فقال: نعم . فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة ثم الأمر شورى .

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل في "كتاب صفين" عن أبي بكر بن عبد الله المهذلي أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطنه في الطلب بدم عثمان، ويحرضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

ألا أبلغ معاوية بن سَيبٍ فإنك من أخی ثقةٍ مُلیمٍ^(٣)
 قطعت الدهر كالسديم المعنى تهدرُ في دمشقٍ ولا تريمٍ^(٤)

(١) وقعة صفين: «كعب بن مرة السلمي» .

(٢) من صفين .

(٣) من أبيات، في الضبري ٥: ٢٣٦، واللسان ١٥: ٣٦، ٣٧ . ومليم، من قولهم: ألام الرجل؛ إذا أتى ما يلام عليه .

(٤) السديم: الفحل غير الكريم يكره أهله أن يضرب في إبلهم؛ فيقيد ولا يسرح في الإبل رغبة عنه؛ فهو يصول ويهدر، أي يصيح . والمعنى، أصله: «المعنى» من العنة؛ فأبدلت إحدى النونين ياء؛ كما قالوا: تظنى، وأصله: «تظنن»، وفي اللؤلؤ: «كالمهدر في العنة» . وانظر بجمع الأمثال للبيداني

١٤١: ٢، وجمهرة الأمثال للعسكري ٢: ١٥٣

فإنك والكتابُ إلى عليّ كدافعة وقد حلّم الأديم^(١)

لك الويلات أقحمها عليهم فخير الطالبي الترة الغشوم^(٢)

قال : فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حجر :

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى مِنْ أُنَاتِنَا وَلَوْ زَبَنْتَهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرِمِ^(٣)

وروى ابن ديزيل ، قال : لما عزم على عليه السلام على المسير إلى الشام ، دعا رجلاً ، فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق ، فإذا دخل أناخ راحلته بباب المسجد ، ولا يُلقَى من ثياب سفره شيئاً ؛ فإن الناس إذا رأوا عليه آثار الغربة سألوه ، فليقل لهم : تركتُ علياً قد نهد^(٤) إليكم بأهل العراق . فانظر ما يكون من أمرهم .

ف فعل الرجل ذلك ، فاجتمع الناس وسألوه ، فقال لهم ، فكثروا عليه يسألونه فأرسل

(١) الحلم ، بالتحريك : أن يفسد الجلد في العمل ويقع فيه دود فينتقب ؛ تقول منه حلم ، بالكسر ، والحلمة : دودة تقع في الجلد فتأكله ؛ فإذا دبغ وهي موضع الأكل ، فبق رقيقاً ؛ تقول منه : حلم الأديم ؛ ومعنى البيت : أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فساده كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به . كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٢) في اللسان بعد هذا البيت :

قَوْمُكَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ تَرَدُّوا فَهَمَّ صَرَغِي كَانَهُمُ الْهَشِيمُ

فَلَوْ كُنْتَ الْمَصَابَ وَكَانَ حَيًّا تَجَرَّدَ لَا أَلْفَ وَلَا سَتُومُ

يَهْنِيكَ الْإِمَارَةَ كُلَّ رَكْبٍ مِنْ الْآفَاقِ سِيرَهُمُ الرَّسِيمُ

وزاد الطبري بعد البيت الثاني من زيادات اللسان :

وَلَا نِكْلٌ عَنِ الْأَوْتَارِ حَتَّى يَبِيءَ بِهَا وَلَا بَرْمٌ جَثُومُ

وذكر الضبي في الفاخر ٣٠ بعض هذه الأبيات ونسبها إلى مروان بن الحكم

(٣) دهوانه ٢٧ ، ومقاييس اللغة ٢ : ٣٨٠ ، ٤ : ٢٤٤ ؛ ولم يترمم ؛ أي ما حرك فاه بالكلام ؛

كذا فسره ابن فارس واستشهد بالبيت . وانظر اللسان ١٥ : ١٤٧ .

(٤) يقال : نهد امدوه ؛ إذا أسرع لقتاله .

إليه معاوية بالأعور السلمي يسأله ، فاتاه فسأله ، فقال له ، فأتى معاوية فأخبره ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، وقال لهم إن عليا قد نهّد إليكم في أهل العراق ، فما ترون ؟ فضرب الناس بأذقانهم على صدورهم ؛ لا يتكلمون ، فقام ذو الكلاع الحميري ، فقال : عليك أم رأى ، وعلينا أم فعال ؛ وهي لغة خمير^(١) .

فنزل ، ونادى في الناس بالخروج إلى معسكرهم ، وعاد إلى علي عليه السلام ، فأخبره . فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، فأخبرهم أنه قدّم عليه رسول كان بعثه إلى الشام ، وأخبره أن معاوية قد نهّد إلى العراق في أهل الشام ، فما الرأي ؟

قال : فاضرب أهل المسجد ؛ هذا يقول : الرأي كذا ، وهذا يقول : الرأي كذا ، وكثر اللفظ واللجب ، فلم يفهم على عليه السلام من كلامهم شيئا ، ولم يدّر المصيب من الخطى ، فنزل عن المنبر ، وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب بها ابن أكلة الأكباد^(٢) - يعني معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عتبة بن مكرم ، عن يونس بن بكير ، عن الأعمش ، قال : كان أبو مرثم صديقا لعلي عليه السلام ، فسمع بما كان فيه على عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه ، فجاءه فلم يرعُ عليا عليه السلام ؛ إلا وهو قائم على رأسه بالعراق ، فقال له : أبا مرثم ، ماجاء بك نحوى ؟ قال : ماجاء بي غيرك ؛ عهدى بك لو وليت أمر الأمة كفتيهم ، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف ، فقال : يا أبا مرثم ؛ إني مُنبتُ بشرار خلق الله ، أريدكم على الأمر الذي هو الرأي ، فلا يتبعوني .

(١) وهي لغة نقلت عن طيء أيضا ؛ وعليها ورد الحديث : « ليس من امر امصيام في امسفر » . معنى

اللييب لابن هشام ١ : ٤٨

(٢) آكلة الأكباد ؛ هي هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبي سفيان وأم معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر ، عن زيد بن الحباب ، عن علاء بن جرير العنبري ، عن الحكم بن عمير الثمالي - وكانت أمه بنت أبي سفيان بن حرب - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ذات يوم : كيف بك يا أبا بكر إذا وليت ؟ قال : لا يكون ذلك أبدا ، قال : فكيف بك يا عمر إذا وليت ؟ (١) فقال : آكل حَجْرًا ، لقد لقيت إذن شرا ، قال : فكيف بك يا عثمان إذا وليت ؟ قال : آكلُ وأطعمُ وأقسّمُ ولا أظلمُ ، قال : « فكيف بك يا علي إذا وليت ؟ قال : آكل القوتَ وأحى الجُمرة ، وأقسّمُ التمرة ، وأخفي الصور ، قال : أي العورة ، فقال صلى الله عليه وآله : « أما إنكم كلُّكم سَلبي ، وسيرى الله أعمالكم » ، ثم قال : يا معاوية ، كيف بك إذا وليت ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : « أنت رأس الحطيم ، ومفتاح الظلم ، حصبا وحقبا ، تتخذ الحسن قبيحا ، والسيئة حسنة ، يربو فيها الصَّغير ، ويهرم فيها الكبير ؛ أجلك يسير ، وظلمك عظيم » .

وروى ابن ديزيل أيضا عن عمر بن عون ، عن هشيم ، عن أبي فلج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عبد الله بن مسعود : كيف أتم إذا لقيتكم فتنة يهرم فيها الكبير ، ويربو فيها الصغير ، تجرى بين الناس ، ويتخذونها سنة ، فإذا غُيِّرَت قيل : هذا مُنْكَر .

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا الحسن بن الربيع البجلي ، عن أبي إسحاق الفزاري عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، في قوله تعالى : ﴿ فَأَيُّمَا نِذَاهِبٍ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُزِيبَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٢) . قال : أكرم الله تعالى نبيّه عليه السلام أن يريه في أمته ما يكره رفعه إليه ، وبقيت النعمة .

(١-١) في ١ ، ج : « فقال حجرا » ، وفي حاشية ج : « يحتمل أن يكون بسكون الجيم ، بمعنى المنع » .

(٢) سورة الزخرف ٤١ ، ٤٢ .

قال ابن ديزيل : وحدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو^(١) بن محمد ، قال : أخبرنا أسباط ، عن السدي ، عن أبي النهال ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سألتُ ربِّي لأمتي ثلاث خلال ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألتُه أن لا تكفر أمتي صفة واحدة فأعطانيها ، وسألتُه ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها ، وسألتُه ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » .

قال ابن ديزيل : وحدثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسي ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن عمار بن زريق ، عن عمار الدهني ، عن سالم بن أبي الجندب ، قال : جاء رجلٌ إلى عبد الله بن مسعود ، فقال : إن الله تعالى قد آمننا أن يظلمنا ، ولم يؤمننا أن يفتننا ، أرايت إذا أنزلت فتنة ، كيف أصنع ؟ فقال : عليك كتاب الله تعالى ، قال : أرايت إن جاء قومٌ كلهم يدعو إلى كتاب الله تعالى ! فقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق » ، يعني عمارا .

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا^(٢) ، قال : حدثنا علي بن القاسم ، عن سعيد بن طارق ، عن عثمان بن القاسم ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا أدلكم على ما إن نساء تم عليه لم تهلكوا ؛ إن وليكم الله ، وإن إمامكم علي بن أبي طالب ، فناصحوه وصدقوه ، فإن جبريل أخبرني بذلك » .

فإن قلت : هذا نص صريح في الإمامة ، فما الذي تصنع المعتزلة بذلك ؟

قلت : يجوز أن يريد أنه إمامهم في الفتاوى والأحكام الشرعية ، لا في الخلافة .

وأیضا فإننا قد شرحنا من قول شیوخنا البغدادیین ما محصله : أن الإمامة كانت لعلی

(٢) ب : « زكريا بن يحيى » .

(١) ب : « عمر » .

عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، وإن أقرّها في غيره وسكتَ عنها تولّينا ذلك الغير ، وقلنا بصحة خلافته ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازع الأئمة الثلاثة ، ولا جرّد السيف ، ولا استنجد بالناس عليهم ؛ فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه ؛ فلذلك تولّيناهم ، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح ، ولو حاربهم وجرّد السيف عليهم ، واستصرخ العرب على حربهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة ، من التفسيق والتضليل .

قال ابن ديزيل : وحدّثنا عمرو بن الربيع ، قال : حدثنا السريّ بن شيبان ، عن عبد الكريم ، أنّ عمر بن الخطاب ، قال لما طعن : يا أصحاب محمد تناصحوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .

قلت : إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمفيد أحد الإمامية ، قال في بعض كتبه : إنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة ، وإطاعتهما فيها ، لأنّ معاوية كان عامله ، وأميره على الشام ، وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر ، وخاف أن يضعف عثمان عنها ، وأنّ تصير إلى عليّ عليه السلام ، فألقى هذه الكلمة إلى الناس لتنتقل إليهما - وهما بمصر والشام - فيتغلبا على هذين الإقليمين ، إن أفضت إلى عليّ عليه السلام .

وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يُوجبها الشنآن والحَنق ، وعمر كان أتقى لله من أن يخطر له هذا ، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيرا من الأمور المستقبلية ؛ كما قال عبد الله بن عباس في وصفه : والله ما كان أوس بن حجر عني أحدا سواه بقوله :

الأمي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعاً (١)

وروى ابن ديزيل ، عن عَفَّان بن مسلم ، عن وهب بن خالد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث ، عن مُرَّة بن كعب ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فتنة فقرَّبها ، فرَّ رجل قد تقنَّع بثوبه ، فقال عليه السلام : « هذا وأصحابه يومئذ على الحقّ » ، فممت إليه فأخذت بمنكبه ، فقلت : هو هذا ! فقال : نعم ، فإذا هو عثمان ابن عفان .

قلت : هذا الحديث قد رواه كثير من محقِّق أصحاب الحديث ، ورواه محمد بن إسماعيل البخارى في " تاريخه الكبير " بعدة روايات . وليس لقائل أن يقول : فهذا الحديث إذا صحتموه كان حُجَّةً للسُّفْيانية ؛ لأننا نقول : الخبرُ يتضمَّن أن عثمانَ وأصحابه على الحقّ ، وهذا مذهبنا ، لأننا نذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنه وناصريه يوم الدار على الحقّ ؛ وأن القوم الذين قتلوه لم يكونوا على الحقّ ؛ فأما معاويةُ وأهل الشام الذين حاربوا عليّاً عليه السلام بصِفِّين فليسوا بداخلين في الخبر ؛ ولا في ألفاظ الخبر لفظ عموم يتعلَّق به ، ألا ترى أنه ليس فيه كلٌّ مَنْ أظهر الانتصار لعثمان في حياته وبعد وفاته ؛ فهو على الحقّ ، وإنما خلاصته أنه ستقوم فتنة ، يكون عثمان فيها وأصحابه على الحقّ ، ونحن لا نأبى ذلك ، بل هو مذهبنا .

وروى نصر بن مزاحم في كتاب " صفين " قال : (١) لما قدِمَ عبيدُ الله بن عمر ابن الخطاب على معاوية بالشام ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : إن الله قد أحيَّا لك عمر بن الخطاب بالشَّام بقدم عبيدالله بن عمر ، وقد رأيتُ أن أقيمه خطيباً يشهد علىّ على قتله عثمان ، وينالُ منه .

فقال : الرأى ما رأيتَ ، فبعث إليه ، فاتاه ، فقال له معاوية : يا بن أخي ، إن لك

اسمَ أبيك فانظر بملء عينيك ، وانطق بملء فيك ، فأنت للمؤمن المصدق ، فاصعد المنبر واشتم عليًا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان .

فقال : أيها الأمير ، أما شتمه ؛ فإن أباه أبو طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول في حسبه ! وأما بأسه فهو الشجاع المطرق ، وأما أيامه فما قد عرفت ؛ ولكني ملزّمه دمَ عثمان . فقال عمرو بن العاص : قد وأبيك إذن نكأت الترحمة .

فلما خرج عبيد الله بن عمر ، قال معاوية : أما والله لولا قتله الهُرْمِزَان ، وخافته عليًا على نفسه ما أتانا أبدا . ألا ترى إلى تقرّظه عليًا ! فقال عمرو : يا معاوية ، إن لم تغلب فاخُلب ، قال : وخرج حديثهما إلى عبيد الله ، فلما قام خطيبًا تكلم بحاجته ، فلما انتهى إلى أمرِ عليّ أمسك ولم يقل شيئًا ، فلما نزل بعث إليه معاوية : يا بن أخي ؛ إنك بين عي وخيانة ، فبعث إليه : إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس محتملوها عني فتركتها .

قال : فهجره معاوية واستخف به ، وفسقه ، فقال عبيد الله :

مُعَاوِيٌّ لَمْ أَحْرَضْ بِمُخْطَبَةِ خَاطِبٍ وَلَمْ أَلْكُ عِيًّا فِي لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ (١)
وَلَكِنِّي زَاوَلْتُ نَفْسًا أَبِيَّةً عَلَى قَذْفِ شَيْخٍ بِالْعِرَاقِ بَيْنَ غَائِبٍ
وَقَذْفِ عَلِيٍّ بَابِنِ عَفَّانَ جَهْرَةً كِذَابٍ ، وَمَا طَبِّي سَجَايَا الْمُكَاذِبِ (٢)
وَلَكِنِّه قَدْ قَرَّبَ انْقَوْمَ جُهْدِهِ وَدَبُّوا حَوَالِيَهُ دَيْبَ الْعَقَارِبِ
فَمَا قَالَ أَحْسَنْتُمْ وَلَا قَدْ أَسَانُمُ وَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ الْمَوَائِبِ

(١) لم أحرص : لم أكل ولم أعي .

(٢) رواية كتاب صغين :

فَمَا ابْنِ عَفَانَ فَاشْهَدُ أَنَّهُ أَصِيبَ بَرِيئًا لَابِسًا ثَوْبَ تَائِبٍ (١)
وَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلزَّيْبِ مَجَاجَةٌ وَطَلْحَةُ فِيهَا جَاهِدٌ غَيْرُ لَاعِبٍ
وَقَدْ أَظْهَرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَوْبَةً فَيَالَيْتَ شِعْرِي مَا مَأْمَا فِي الْعَوَاقِبِ !
قال : فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه ، وقال : حسبي هذا منك .

وروى نصر ، عن عبيد الله بن موسى ، قال : سمعتُ سُفْيَانَ بنَ سَعِيدِ المعروفِ
بِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، يقول : مَا أَشْكَ أَنْ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِ بَابِعَا عَلِيًّا ، وَمَا نَقَمَا عَلَيْهِ جَوْرًا
فِي حُكْمٍ وَلَا اسْتِثْنَاءَ بِنْيَاءٍ ؛ وَمَا قَاتَلَ عَلِيًّا أَحَدًا إِلَّا وَعَلَى أُولَى بِالْحَقِّ مِنْهُ .
وروى نصر بن مُزَاحِمٍ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدِمَ مِنَ الْبَصْرَةِ فِي غُرَّةِ شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ
سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَأَقَامَ بِهَا سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، تَجْرَى الْكُتُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
مَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ ، حَتَّى سَارَ إِلَى الشَّامِ .

قال نصر : (٢) وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْكَنُودِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَدِمَ الْكُوفَةَ بَعْدَ وَقْعَةِ
الْجَلِّ ؛ لِثَلَاثِي عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ .

قال نصر : فَدَخَلَ الْكُوفَةَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهِمْ ، فَاسْتَقْبَلَهُ
أَهْلُ الْكُوفَةِ ، وَفِيهِمْ قُرَاؤُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَدَعَوْا لَهُ بِالْبَرَكَاتِ ، وَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَيْنَ تَنْزَلُ ؟ أَتَنْزِلُ الْقَصْرَ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي أَنْزَلُ الرَّحْبَةَ ، فَتَزَلُمَا وَأَقْبَلُ حَتَّى دَخَلْتُ
الْمَسْجِدَ الْأَعْظَمَ ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبِرَ فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

(١) بعده في كتاب صفين :

حَرَامٌ عَلَى أَهْلِهِ نَتَفُّ شِعْرِهِ فَكَيْفَ وَقَدْ جَاوَزَهُ ضَرْبَةَ لَأَزِبِ

(٢) وقعة صفين ٥ - ٨

أما بعد ، يا أهل الكوفة ؛ فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا وتميروا ، دعوتكم إلى الحق فأجبتكم ، وبدأتم بالمنكر فغيرتم ؛ ألا إن فضلكم فيما بينكم وبين الله ، فأما الأحكام والقسم ، فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه . ألا إن أخوف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتباعُ الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ؛ ولكل واحد منهما بنون ؛ فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ؛ الحمد لله الذي نصر وليه ، وخذل عدوه ، وأعز الصادق المحق ، وأذل الناكث المبطل .

عليكم بتقوى الله وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلين المدعين القابلين إلينا ؛ يتفضلون بتفضلنا ، ويحادوننا أمرنا وينازعوننا حقنا ، ويُباعدوننا عنه ، فقد ذاقوا وبأل ما اجترحوا ، فسوف يلقون غيًّا ، ألا إنه قد قعدَ عن نصرتي رجال منكم ؛ وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ ؛ فاهجرُوهم وأسمعوهم ما بكرهون ، حتى يُعتبوا ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة .

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعيّ - وكان صاحبَ شرطته - فقال : والله إني لأرى الهُجرَ وسماع المكره لهم قليلا ، والله لو أمرتنا لنقتلهم . فقال علي عليه السلام : سبحان الله يامالٍ ! جرتُ اللدَى ، وعدوتُ الحدّ ، فأغرقت^(١) في النزع . فقال : يا أمير المؤمنين ، لبعض القسم أبلغُ في أمرٍ ينوبك من مهادنة الأعدى ؛ فقال علي عليه السلام : ليس هكذا قضى الله ، يامالٍ ، قال سبحانه : ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾^(٢) فما بالُ ذِكْرِ القسمِ !

(١) ج : « وأغرقت » .

(٢) سورة المائدة ٤٥

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ (١) ، والإسراف في القتل أن تقتل غيرَ قاتلك ، فقد نهى الله عنه ، وذلك هو الغشم .

فقام إليه أبو بريدة بن عوف الأزدي - وكان ممن تخلف عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيت القتلى حول عائشة وطلحة والزبير ، علام قتلوا - أو قال : بم قتلوا ؟ فقال علي عليه السلام : قتلوا بما قتلوا شيعتي وعمالي ، وقتلوا أخا ريعة العبدى رضى الله عنه في عصابة من المسلمين ، قالوا : إنا لا ننكث كما نكنتم ، ولا نغدر كما غدرتم . فوثبوا عليهم ، فقتلهم ، فسألهم أن يدفعوا إلى قتلة إخواني أقتلهم بهم ، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم ، فأبوا علي ، وقتلوني - وفي أعناقهم بيعتي ، ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي - فقتلتهم ، أفى شك أنت من ذلك ! فقال : قد كنت في شك ، فأما الآن فقد عرفت ، واستبان لي خطأ القوم ، وإنك المهتدي المصيب .

قال نصر : وكان أشياخ الحى يذكرون أنه كان عثمانيا ، وقد شهد على ذلك صفيين مع علي عليه السلام ، ولكنّه بعد ما رجع كان يكتب معاوية ، فلما ظهر معاوية أقطعه قطعة بالفلوجة (٢) ، وكان عليه كريما .

قال : ثم إن عليا عليه السلام تهيأ لينزل ، وقام رجال ليتكلموا ، فلما رأوه نزل ، جلسوا وسكتوا .

قال : ونزل علي عليه السلام بالكوفة على جمعة بن هبيرة الخزومي .

قلت : جمعة ابن أخت أم هانى بنت أبي طالب ، كانت تحت هبيرة بن أبي وهب الخزومي ، فأولدها جمعة ، وكان شريفا .

(١) سورة الإسراء ٣٣

(٢) في مراصد الاطلاع : الفلوجة الكبرى والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة . قرب عين التمر . قلت : والمشهور هي هذه التي على شاطئ الفرات ، عندها فم نهر الملك من الجانب الصغرى .

قال نصر: ولما ^(١) قدم على عليه السلام إلى الكوفة نزل على باب المسجد ، فدخل فصلى ، ثم تحول فجلس إليه الناس ، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة ، فقال قائل : استأثر الله به ، فقال على عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خلقه ؛ إنما أراد الله جل ذكره بالموت إعزاز نفسه ؛ وإذلال خلقه ، وقرأ : ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ^(٢) . قال نصر : فلما لحقه عليه السلام ثقله ، قالوا : أنزل القصر ؟ فقال : قصر الخبال ؟ لا تنزلوا فيه ^(٣) .

قال نصر : ودخل ^(٤) سليمان بن صرد الخزاعي على على عليه السلام ؛ مرجعه ^(٥) من البصرة ، فعاتبه وعذله ، وقال له : ارتبت وتربصت وراوغت ؛ وقد كنت من أوثق الناس في نفسي ، وأسرعهم فيما أظن إلى نصرتي ؛ فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ؛ وما زهدك في نصرتهم !

فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبنني بما مضى منها ، واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي ؛ فقد بقيت أمور تعرف فيها عدوك من وليك .

فسكت عنه ، وجلس سليمان قليلا ، ثم نهض ، فخرج إلى الحسن بن على عليه السلام ؛ وهو قاعد في باب المسجد ، فقال : ألا أعجبك من أمير المؤمنين ، وما لقيت منه من التوبيخ والتبكيت ! فقال الحسن : إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته ، فقال : لقد وثبت أمور سيشرع فيها القنا ، وتنتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى أشباهي ، فلا

(١) كتاب صفين ٨

(٢) سورة البقرة ٢٨

(٣) صفين : « لا تنزلوا فيه » .

(٤) وقعة صفين ٩

(٥) وقعة صفين : « بعد رجعت » .

تَسْتَفِشُوا عَنِّي^(١) ، وَلَا تَتَّهَمُوا نَصِيحِي .

فقال الحسن : رحمك الله ما أنتَ عندنا بِظَنِينٍ^(٢) .

قال نصر : ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدي ، فسلم عليه ، فقال : وعليك السلام ؛ وإن كنتَ من المتربصين ! قال : حاش لله يأمر المؤمنين ! فإني لست من أولئك . فقال : لعل الله فعل ذلك .

قال نصر : وحدثنا^(٣) عمر بن سعد ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن نَخْفٍ ، قال : دخلتُ مع أبي عليّ عليه السلام ، مقدمه^(٤) من البصرة ، وهو عام بلغتُ الحُلُمُ ؛ فإذا بين يديه رجال يؤنبهم ، ويقول لهم : ما أبطأ بكم عنّي ، وأنتم أشرافُ قومكم ! والله إن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة ؛ إنكم لبُور^(٥) ، وإن كان من شكٍ في فضلي ومظاهرة عليّ إنكم لعدوّ .

فقالوا : حاش لله يأمر المؤمنين ! نحن سلّمك وحرّب عدوك : ثم اعتذر القوم ؛ فمنهم من ذكر عذرا ، ومنهم من اعتلّ بمرض ؛ ومنهم من ذكر غيبة ؛ فنظرت إليهم فعرفتهم ؛ فإذا عبد^(٦) الله المعتمّ العبسي ؛ وحنظلة بن الربيع التيمي ؛ وكلاهما كانت له صحبة ؛ وإذا أبو بُرْدَة بن عوف الأزدي ؛ وإذا غريب بن شُرْحبيل الهمداني .

قال : ونظر عليّ عليه السلام إلى أبي ، فقال : ولكن نخف بن مسلم وقومه لم يتخلفوا ، ولم يكن مثلهم كمثل القوم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِطَنَّ فَإِنْ

(١) لا تستفشوا عني ؛ أي لا اتظنوا عتابي لكم غشا .

(٢) الظنين : المتهم ؛ وأصله : « مظنون »

(٣) وقمة صفيين ١٠

(٤) وقمة صفيين : « حين قدم »

(٥) لبور ؛ أي هالكون ، جمع بلفظ المفرد .

(٦) في الأصول : « عبيد الله » صوابه من صفيين .

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ
فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١﴾ .

قال نصر: ثم إن عليا عليه السلام مكث بالكوفة، فقال الشنّي في ذلك، [شنّ بن
عبد القيس] (٢) :

قُلْ لِهَذَا الْإِمَامِ قَدْ خَبَتِ الْحَرْبُ بُوِّ وَتَمَّتْ بِذَلِكَ النَّعْمَاءُ
وَفَرَّغْنَا مِنْ حَرْبٍ مِّنْ نَّقْضِ الْعَهْدِ وَبِالشَّامِ حَيَّةٌ صَمَاءُ
تَنْفُكُ السَّمَّ مَا لِمَنْ نَهَشْتَهُ - فَارْمَهَا قَبْلَ أَنْ تَعْصُ - شِفَاهُ (٣)
إِنَّهُ وَالَّذِي يَحْجُجُ لَهُ النَّاسُ وَمِنْ دُونِ بَيْتِهِ الْبَيْدَاءُ
لَضَعِيفُ النَّخَاعِ إِنْ رُمِيَ الْيَوْمَ مَ بَخِيلٍ كَأَنَّهَا أَشْلَاهُ (٤)
تَتَبَارَى بِكُلِّ أَمْسِيدٍ كَالْفَحْدِ لِي بِكَفِيهِ صَفْدَةٌ سَمْرَاهُ (٥)
إِنْ تَذَرُهُ فَمَا مَعَاوِيَةُ الدَّاءُ رَ بِمَعْطِيكَ مَا أَرَاكَ تَشَاهُ
وَلَنْيَلُ السَّمَاءَ أَقْرَبُ مِنْ ذَا لِكِ وَنَجْمُ الْعَيْوُقِ وَالْعَوَاهُ (٦)
فَاعْدُ بِالْحَدِّ وَالْحَدِيدِ إِلَيْهِمْ لَيْسَ وَاللَّهِ غَيْرُ ذَلِكَ دَوَاهُ

(١) سورة النساء ٧٢ ، ٧٣

(٢) تكملة من كتاب وقعة صفين ؛ وهو الأعرور الشنّي، واسمه بصر بن منقذ ، أحد بني شنّ بن أفضى

ابن عبد القيس . المؤلف والمختلف للأمدى ٣٨

(٣) في اللسان : « قيل للحية التي لا تجيب الرائق صماء ؛ لأن الرقيق لا تنفعها » .

(٤) بعده في كتاب صفين :

جَانِحَاتٍ تَحْتِ الْعَبَاجِ سَخَالًا مُجْهَضَاتٍ تَحَالَهَا الْأَسْلَاهُ

(٥) الصعدة : القناة المستوية التي لا تحتاج إلى التنفيف .

(٦) العيوق : نجم أحمر مضى في طرف الحجر الأيمن ، يتلو التريا لا يتقدما . والعواه : منزل للقر

قال نصر: وأتمّ علىّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة ، فلما كانت الجمعة خطب الناس ، فقال :

الحمدُ لله الذي أحده ^(١) وأستعينه وأستهديه ، وأعوذُ بالله من الضلالة ؛ مَنْ يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، وَمَنْ يَضِلَّ فلا هاديَ له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، انتخبه لأمره ، واختصه بنبوته ، أكرمُ خلقه عليه ، وأحبههم إليه ، فبلغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، وأدى الذي عليه .

أوصيكم بتقوى الله ، فإنّ تقوى الله خيرُ ما تَوَاصى به عبادُ الله ، وأقرُّهُ إلى رضوان الله ، وخيرُهُ في عواقب الأمور عند الله ، ويتقوى الله أمرتُمْ ، وللإحسان والطاعةِ خلقتم ؛ فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، فإنه حذرٌ بأسا شديدا ، واخشوا خشية ليست بتعذير ^(٢) واعملوا في غير رياء ولا شُمعة ؛ فإنه من عمل لغير الله وَكَلِه اللهُ إلى ما عمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولى الله أجره ؛ أشفقوا من عذاب الله ؛ فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئا من أمركم سُدى ؛ قد سمى آثاركم ، وعلم أعمالكم ، وكتب آجالكم ؛ فلا تفتروا بالدنيا ، فإنها غرارة لأهلها ، مغرور من اغتربها ، وإلى فناء ما هي ، وإن الآخرة هي دارُ الحيوان لو كانوا يعلمون .

أسأل الله منازلَ الشهداء ، ومرافقةَ الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله .
قال نصر: ثم ^(٣) استعمل علىّ عليه السلام العمال وفرّقيهم في البلاد ؛ وكتب إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجليّ ماتقدم ذكره .

(١) صفين : « إن الحمد لله أحده » .

(٢) التعذير هنا : الإجمال والتقصير .

(٣) كتاب صفين ١٤ ؛ وفيه : « ثم إن عليا أقام بالكوفة واستعمل المال » .

قال نصر: ^(١) وقال معاوية لعمر بن العاص ، أيام كان جريراً عنده ينتظر جوابه : إنني قد رأيت أن نُنقِي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا ، نذكر فيه أمرَ عثمان ؛ فإما أن ندرِك به حاجتنا ، أو نكفّ القومَ عنا ، فقال له عمرو : إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : رجلٍ راضٍ بعليٍّ فلا يزيدُه كتابك إلا بصيرةً فيه ، أو رجلٍ يهوى عثمان ؛ فلن يزيدَه كتابك على ما هو عليه ، أو رجلٍ معتزٍ ، فليست في نفسه بأوثقَ من عليٍّ .
قال : عليٌّ ذاك ، فكتبنا :

أما بعد ؛ فإنه مهما غابَ عَنَّا من الأمور فلم يغب عَنَّا أن علينا قتل عثمان ؛ والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه ؛ وإِنما نطلب قتلته ؛ حتى يُدفعوا إلينا ، فنقتلهم بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، فإن دفعهم عليٌّ إلينا كَفَفْنَا عنه ؛ وجعلناها شورى بين المسلمين ، على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . فأما الخلافة فلسنا نطلبها ، فأعينونا على أمرنا هذا ، وانهبوا من ناحيتكم ؛ فإنَّ أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمرٍ واحد هاب عليٌّ ما هو فيه ، والسلام .

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعدُ ، فلعمري لقد أخطأنا موضع النُصرة وتناوَلتُماها من مكان بعيد ؛ وما زاد الله من شكِّ في هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً ، وما أتموا المشورة ، وما أتموا والخلافة ! أما أنت يا معاوية فطَلِّق ، وأما أنت يا عمرو فظنِّين ^(٢) ، ألا فكفنا أنفسكما ، فليس لكم فينا وليٌّ ولا نصير . وانسلام .

قال نصر : وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر :

(١) كتاب صفين ٧٠ ، ٧١

(٢) كتاب صفين : « فظنون » ، والظنين والظنون بمعنى التهم .

مُعَاوِيَ إِنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ وَاضِحٌ
وليس بما رَبَّضْتَ أَنْتَ وَلَا عَمْرُو
نصبتَ ابنَ عفانٍ لنا اليومَ خُدْعَةً
كما نُصِبَ الشَّيْخَانَ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ (١)
- يعني طلحة والزبير رحمهما الله -

فَهَذَا كَهَذَاكَ الْبَلَاءُ حَذَوْنَا عَلَيْهِ
سواءَ كَرَّ قَرَأَقٍ يُغْرَى بِهِ السَّقْرُ (٢)
رَمَيْتُمْ عَلِيًّا بِالَّذِي لَا يَضِيرُهُ
وإنَّ عَظُمْتَ فِيهِ الْمَكِيدَةُ وَالْمَكْرُ (٣)
وَمَا ذُنُوبُهُ إِنْ نَالَ عُمَانَ مَعْشَرُ
أَتَوْهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ تَجْمَعُهُمْ مِصْرُ
فَنَارَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ بَيْعَةَ
عَلَانِيَةً مَا كَانَ فِيهَا لِمِ قَسْرُ
وَبَايَعَهُ الشَّيْخَانُ ثُمَّ تَحْمَلًا
إِلَى الْعُمُرَةِ الْعُظْمَى وَبَاطِنُهَا الْفَدْرُ
فَكَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا اقْتِصَاصُهُ
يَطُولُ ؛ فَيَا لَلَّهِ مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ ! (٤)
وَمَا أَتَمَّا وَالنَّصْرُ مِنَّا وَأَتَمَّا
بَعِيثًا حُرُوبٌ مَا يَبُوحُ لَهَا جَرُّ (٥)
وَمَا أَتَمَّا اللَّهُ دَرُّ أَيُّكُمْ
وَذِكْرُ كَمَا الشُّورَى وَقَدْ وَضَحَ الْفَجْرُ (٦)

قال نصر^(٧): وقام عدى بن خاتم الطائي إلى علي عليه السلام ، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندى رجلاً لا يوازي^(٨) به رجل ، وهو يريد أن يزور ابن عمه حابس بن سعد الطائي بالشام ، فلو أمرناه أن يلتقى معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام ، فقال علي

(١) كتاب صفين : « إذ زخرف الأمر » .

(٢) الرقراق : ما يترأى للمسافر من رمال الصحراء كأنها الماء .

(٣) كتاب صفين : « لا يضره »

(٤) اقتصاصه : قصه وحكايته ، وفي صفين : « رجيع فيا لله ما أحدث الدهر »

(٥) يبوح الجمر : ينطق .

(٦) صفين : « وقد فلج الفجر » .

(٧) صفين ٧١ - ٧٤

(٨) صفين : « لا يجارى به » .

عليه السلام: نعم، فأمره عدى بذلك^(١) - وكان اسمُ الرجل خُفّافَ بن عبد الله .
 فقدم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام، وحابس سيد طيّبٍ بها، فحدث خُفّاف حابساً
 أنه شهد عثمان بالمدينة ، وسار مع عليّ إلى الكوفة ، وكان خُفّاف لسان وهيئة وشِعْرٍ ،
 فعدا حابس بخُفّاف إلى معاوية ، فقال : إنّ هذا ابنُ عمّ لي ، قدم الكوفة مع عليّ ،
 وشهد عثمان بالمدينة، وهو ثقة . فقال له معاوية : هات ، حدثنا عن عثمان ، فقال : نعم حصره
 المكشوح [وحُكِمَ فيه حُكيم ، ووليه عمار ، وتجرد في أمره ثلاثة نفر : عدى بن
 حاتم]^(٢) والأشتر النخعيّ ، وعمرو بن الحمق ، وجدّ في أمره رجُلان وطلحة
 والزبير ، وأبرأ الناس منه عليّ . قال : ثمّ مه ، قال : ثمّ تهافّت الناس على عليّ بالبيعة تهافّت
 الفَراش ، حتى ضاعت النعل^(٣) وسقط الرّداء ، ووُطِيءَ الشّيخ . ولم يذكر عثمان ولم يُذكر
 له ، ثمّ تهيأ للمسير ، وخفّ معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد
 ابن مالك، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسleme ، فلم يستكره أحداً ، واستغنى بمن خفّ معه
 عَمَن ثَقُل . ثمّ سار حتى أتى جبل طيبٍ ، فأتته منّا جماعة كان ضار با بهم الناس ؛ حتى
 إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجالا إلى
 الكوفة يدعونهم ؛ فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة ، فإذا هي في كفه ، ثمّ قدم الكوفة
 فحَمِلَ إليه الصبيّ ، ودبّت إليه العجوز ، وخرجت إليه العرُوس فرحاً به وشوقاً إليه ؛
 وتركته وليس له همة إلا الشام .

فدُعِر معاوية من قوله ، وقال حابس : أيها الأمير ، لقد أسمعني شعرا غير به حالي في
 عثمان ، وعظّم به عليا عندي .

(١) صفين : « فره بذلك » .

(٢) ما بين العلامتين تسكّمة من كتاب صفين .

(٣) صفين : « حتى ضلت النعل » .

فقال معاوية : أسمعنيه يا خُفَاف ، فانشده شعرا أوله :

قُلْتُ وَاللَّيْلُ سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَلِجَنبِي عَنِ الْفِرَاشِ تَجَافِي

— يذكر فيه حال عثمان وقتله ، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره ^(١) ، بحسبها ، ومن جملة :

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ بِهِ الدَّهْرُ كَمَا مَرَّ ذَاهِبُ الْأَسْلَافِ ^(٢)

إِنِّي وَالَّذِي يَجُجُّ لَهُ النَّاسُ سٌ عَلَى لُحَقِّ الْبُطُونِ عِجَافٍ ^(٣)

تَتَبَارَى مِثْلَ الْقَيْسِيِّ مِنَ النَّبْعِ بِشُعْثٍ مِثْلِ السَّهَامِ نِخَافٍ ^(٤)

ارْهَبَ الْيَوْمَ إِنْ أَنَا كَمَ عَلَى صَيْحَةٍ مِثْلَ صَيْحَةِ الْأَحْقَافِ

إِنَّهُ اللَّيْثُ غَادِيًا وَشُجَاعٌ مُطْرِقٌ نَافِثٌ بِسِمِّ زُعَافٍ ^(٥)

وَاضِعُ السَّيْفِ فَوْقَ عَاتِقِهِ الْأَيْمَنِ يَفْرِي بِهِ شُثُونُ الْقِحَافِ ^(٦)

سَوَّمَ الْخَيْلَ ثُمَّ قَالَ لِقَوْمٍ بَايَعُوا إِلَى الطَّعْمَانِ خِفَافٍ ^(٧)

اسْتَعَدُّوا لِلْحَرْبِ طَاغِيَةَ الشَّامِ فَلَبَّوهُ كَالْيَدَيْنِ اللَّطِيفِ

ثُمَّ قَالُوا أَنْتَ الْجَنَاحُ لَكَ الرَّيْشُ الْقُدَامِيُّ وَنَحْنُ مِنْهُ الْخَوَافِيُّ ^(٨)

فَانظُرْ الْيَوْمَ قَبْلَ بَادِرَةِ الْقَوْمِ بِسَلْمٍ تَهْمٌ أَمْ بِخِلَافٍ ^(٩)

قال : فانكسر معاوية ، وقال : يا حابس ، إني لأظنّ هذا عينا لعلّي ، أخرجك عنك

ثلاثا يُفسد علينا أهل الشام .

(١) أى عن ذكر ما أورده .

(٢) القصيدة كاملة في كتاب صفين ٧٣ - ٧٥ .

(٣) اللحق : جمع لاحق ؛ واللاحق من الخيل الضامر

(٤) صفين : « مثل الرصاف » .

(٥) الشجاع هنا : الحية .

(٦) القحاف : عظام الجناجم . والشئون : مجتمع قبائل الرأس . وفي صفين : « بذرى » .

(٧) سوم الخيل : أعلمها بعلامه .

(٨) القدامي : الريشات التي تكون في مقدمة الجناح ، الواحدة قادمة . والخوافي : ريشات إذا ضم

الطائر جناحيه خفيت . وفي اللؤلؤ : « ليس القوامم كالخوافي » .

(٩) صفين : « نادية القوم » .

قال نصر : وحدّثنا عطية بن غنّى^(١) ، عن زياد بن رستم ، قال :^(٢) كتب معاوية إلى عبد الله بن عمر خاصة ، وإلى سعد بن أبي وقاص ، وإلى محمد بن مسلمة ، دون كتابه إلى أهل المدينة ، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبّ إلىّ أن يجتمعَ عليه الناس^(٣) بعد قتل عثمان منك ، ثم ذكرتُ خذلك إياه ، وطعنك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ؛ وقد هَوَّنَ ذلك عليّ خلافتك عليّ ، ومحا عنك بعضَ ما كان منك ، فأعِنَّا -رحمك الله- على حقِّ هذا الخليفة المظلوم ؛ فإنني لست أريد الإمارة عليك ، ولكني أريدُ هالك ؛ فإن آييتَ كانت شورى بين المسلمين^(٤) .

فأجابه عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنّ الرأي الذي أطمعت فيّ ، هو الذي صيرك إلى ما صيرك إليه . أتركُ عليّنا في المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين ، وأتبعك ! وأما زعمك أنّي طعنتُ عليّ ، فلعمري ما أنا كعليّ في الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ونكايته في المشركين]^(٥) ؛ ولكنني عهد إلىّ في هذا الأمر عهدٌ ، ففرغت فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هُدًى ففضلُ تركته ، وإن كان ضلالاً فشرُّ نجوت منه ، فأغنِ عَنَّا نفسك ، والسلام^(٦) .

(١) كذا في ١ ، وصفين ، وفي ب : « غناء » ، وفي ج : « مفي » .

(٢) كتاب صفين ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) صفين : « الأمة » .

(٤) في كتاب صفين ذكر آياتنا مطلقها :

أَلَا قُلْ لِعَبْدِ اللَّهِ وَأَخْصَصْ مُحَمَّدًا وَفَارِسَنَا الْمُأْمُونَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ

(٥) تكملة من كتاب صفين .

(٦) في كتاب صفين : « ثم قال لابن أبي غزيرة : أجب الرجل - وكات أبوه ناسكا ، وكان من أشعر قريش فقاء » ... وذكر آياتنا مطلقها :

مُعَاوِي لَا تَرَجُو الَّذِي لَسْتَ نَائِلًا وَحَاوِلْ نَصِيرًا غَيْرَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ

قال : وكان كتاب معاوية إلى سعد :

أما بعد ؛ فإن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ؛ الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير ؛ وهما شريكان في الأمر ونظيرك في الإسلام ، وخفت لذلك أم المؤمنين ، فلا تكهرن ما رضوا ، ولا تردن ما قبلوا ، فإننا نردّها شورى بين المسلمين ^(١) .

فأجابه سعد :

أما بعد ؛ فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة من قريش ؛ فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا بإجماعنا ^(٢) عليه ؛ إلا إن عليا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ؛ وهذا أمر قد كرهت أوله ، وكرهت آخره ؛ فأما طلحة والزبير فلوزما بيوتهما لكان خيرا لهما ، والله يغفر لأمة المؤمنين ما أتت ! والسلام ^(٣) .

قال : وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فإنني لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ^(٤) ؛ ولكنني أردت أن أذكرك النعمة التي خرجت منها ، والشك الذي صرت إليه ؛ إنك فارس الأنصار ، وعدة المهاجرين ؛ وقد ادعيت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن تمضي عليه ؛ وهو أنه نهاك عن قتال أهل القبلة ^(٥) ، أفلا نهيت أهل القبلة ^(٥) عن قتال بعضهم بعضا !

(١) في كتاب صفين : « وقال شعرا » ؛ وذكر أبياتا أولها :

أَلَا يَا سَعْدُ قَدْ أَظْهَرْتَ شُكَّا وَشَكُّ الْمَرْءِ فِي الْأَحْدَاثِ دَاه

(٢) كتاب صفين : « بإجماعنا » .

(٣) في كتاب صفين : « ثم أجابه في الشعر » ، وذكر أبياتا أولها :

مَعَاوِيَ دَاوُكَ الدَّاءِ الْعِيَاءِ فَلَيْسَ لِمَا تَجِي بِهِ دَوَاه

(٤) كتاب صفين : « متابعتك » .

(٥) كتاب صفين : « الصلاة » .

فقد كان عليك أن تكره لهم ما كره رسول الله صلى الله عليه ، ألم تر عثمان وأهل الدار من أهل القبلة^(١) !

فأما قومك فقد عصوا الله ، وخذلوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة . والسلام .

قال : فكتب إليه محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فقد اعتزلَ هذا الأمرَ مَنْ ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه مثل الذى فى يدي ؛ قد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرتُ سيفي ، وجلست فى بيتي ، واتهمت الرأى على الدين ؛ إذ لم يصح لي معروف أمر به ، ولا منكر أنهى عنه . وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا ؛ ولا اتبعت إلا الهوى ، وإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا ، والسلام^(٢) .

[مفارقة جرير بن عبد الله البجلي لعلي]

قد أتينا على ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليه السلام ، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة ، وما جرى بينه وبين معاوية من المراسلات ، وما جرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجد والاستصراخ ؛ وما أجابوه به ؛ ونحن نذكر الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عودته إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بمالأة معاوية عليهم ، ومفارقتة جنبه أمير المؤمنين .

قال نصر بن مزاحم^(٣) : حدثنا صالح بن صدقة ، بإسناده ، قال : قال لما رجع جرير

(١) كتاب صفين : « الصلاة » .

(٢) تنمة الرسالة كما فى كتاب صفين : « فأخرجني الله من نعمة ، ولا صيرني إلى شك ؛ إن كنت أبصرت خلاف ما تحبني به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك » .

(٣) كتاب صفين ٦٦ - ٦٨ .

إلى عليّ عليه السلام ، كثر قول الناس في التّهمة لجرير في أمر معاوية ، فاجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أما والله يا أمير المؤمنين ، أن لو كنت أرسلتني إلى معاوية ، لكنتُ خيراً لك من هذا الذي أرخى خِنَاقه ، وأقام عنده ؛ حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتحه ، ولا باباً يخاف أمره إلا سدّه .

فقال جرير : لو كنتَ والله أتيتهم لقتلوك - وخوفه بعمره ، وذى الكلاع ، وحوشب - وقال : إنهم يزعمون أنك من قَتلة عثمان .

فقال الأشتر : والله لو أتيتهم يا جرير لم يُعيني جوابها ، ولم يثقل عليّ تحمّلها ، ولملت معاوية على خُطة أمجله فيها عن الفِكر .

قال : فانتبهتِهم إذن . قال : الآن وقد أفسدتهم ووقع بينهم الشر !

وروى نصر ، عن نُمير بن وعله ، عن الشعبي قال : ^(١) اجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً ، وأخبرتكَ بمداوته وغشّه ! وأقبل الأشتر يشتمه ، ويقول : يا أبا بجميلة ، إنَّ عثمان اشترى منك دينك بهمدان ، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشي فوق الأرض ؛ إنما أتيتهم لتتخذَ عندهم يداً بمسيرِك إليهم ، ثم رجعتَ إلينا من عندهم ، تهدّنا بهم ، وأنت والله منهم ، ولا أرى سعيك إلا لهم ؛ لئن أطاعني فيك أميرُ المؤمنين ليحبسَنك وأشباهك في حبسٍ لا تخرجون منه حتى تَسدَّتِمْ هذه الأمور ، ويُهلك الله الظالمين .

قال جرير : وددت والله أن لو كنتَ مكاني ، بُعثتَ إذن والله لم ترجع .

قال : فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله ، فارقَ عليًّا عابيه السلام ، فلحقَ بقرِّ قيساً^(١) ولحق به ناس من قنسر^(٢) من قومه ، فلم يشهد صفين من قنسر غير تسعة عشر رجلاً ؛ ولكن شهدها من أحسن^(٣) سبعمائة رجل .

قال نصر : وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمره وحوشب [وذى الكلاع]^(٤) :

لعمرك يا جريرُ لقول عمرو	وصاحبه معاوى بالشام
وذى كلعٍ وحوشب ذى ظلمٍ	أخفُ علىَّ من ريشِ النعام ^(٥)
إذا اجتمعوا على فحلٍّ عنهم	وعن بازٍ مخالِبُه دوامى
ولستُ بخائفٍ ماخوفونى	وكيف أخاف أحلام النيام!
وهمهمُ الذى حاموا عليه	من الدنيا، وهى من أمامى ^(٦)
فإن أسلمَ أعمهمُ بحربٍ	يشيب لهُولها رأسُ الغلام
وإن أهلك فقد قدمتُ أمراً	أفوز بفلجِه يومَ الخِصام ^(٧)
وقد زادوا على وأوعدوني	ومن ذامات من خوفِ الكلام!

[نسب جرير وبعض أخباره]

وذكر ابن قتيبة فى " المعارف " ،^(٨) أن جريراً قدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) قرقيسياً : بلد بالحلبور عند مصبه .

(٢) قنسر : رهط جرير بن عبد الله البجلي

(٣) أحسن : بطن فى بجميلة .

(٤) من كتاب صفين .

(٥) صفين : « من زف النعام » . وانزف : صفار ريش النعام .

(٦) صفين : « ما أسامى »

(٧) الفلج : الفوز والانتصار .

(٨) المعارف ١٢٧

سنة عشرٍ من الهجرة في شهر رمضان ، فبايعه وأسلم ، وكان جريرٌ صبيحَ الوجه جميلاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كَأَنَّ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةَ مَلَكٍ » ؛ وكان عمر يقول : جرير يوسف هذه الأمة وكان طوالاً يَتَقَلُّ في ذِرْوَةِ البعير من طولهِ ، وكانت نعلهُ ذراعاً ، وكان يَحْضِبُ لحيته بالزعفران من الليل وَيَغْسِلُهَا إذا أصبح ؛ فتخرجُ مثلَ لونِ التَّبرِ . واعتزل علياً عليه السلام ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشرارة سنة أربع وخمسين في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة^(١) .

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبي في "جَمَهْرَةَ الْأَنْسَابِ" ، فقال : هو جرير بن عبد الله ، ابن جابر ، بن مالك ؛ بن نصر ، بن ثعلب . بن جُشَم ، بن عُوفٍ ، بن حرب ؛ بن علي ، ابن مالك ، بن سعد ، بن بدير ، بن قَسْر - واسمه ملك - عبقر ، بن أنمار ، بن أراش ، ابن عمرو ، بن الغوث ، بن نَبْت ؛ بن زيد ، بن كَهْلان .

ويذكر أهل السِّيَر أن علياً عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممن خرج معه ، حيث فارق علياً عليه السلام ؛ منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القسري ، كان ختنه على ابنته وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبي أراكة قديماً ، ولعله اليوم نسي ذلك الاسم .

ومن كلامه عليه السلام لما هرب مصفد بن هبيرة الشيباني إلى معاوية ، ولله
 قد ابتاع سبي بني ناهية منه عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال
 غاس به وهرب إلى الشام ، فقال :

الأضل :

قَبِّحَ اللَّهُ مَصْفَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى
 أَسْكَنَهُ ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَتَهُ ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَبْسُورَهُ ، وَأَنْتَظَرُنَا
 بِمَالِهِ وَفُورِهِ .

الشنخ :

خاس به يخيس ويخوس ؛ أى غدر به ، وخاس فلان بالعهده ؛ أى نكث .
 وقبح الله فلانا ؛ أى نحاه عن الخير ، فهو مقبوح .
 والتبكيث ، كالقترب والتعنيف . والوفور . مصدر وفر المال ، أى تم ، ويحى ، متعديا .
 ويروى : « موفوره » ، والموفور : التام ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

يَأْمَنُ مَدْحَنَاهُ فَأَكْذَبْنَا بِفَعَالِهِ وَأَثَابْنَا خَجَلًا
 بُرْدًا قَشِيًّا مِنْ مَدَائِحِنَا سُرِبَلْتِ فَارْدُدْهُ لِنَسْمَلَا^(١)
 إِنَّ التَّجَارِبَ تَهْتِكُ الْمُسْتَوْرَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَتَبْهَرُ الرِّجَالَ

[نسب بني ناجية]

فأما القول في نسب بني ناجية ؛ فإنهم ينسبون أنفسهم إلى سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وقريش تدفعهم عن هذا النسب ، ويسمونها بني ناجية - وهي أمهم - وهي امرأة سامة بن لؤي بن غالب ، ويقولون : إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مغاضبا لأخيه كعب بن لؤي في مِمْاطة^(١) كانت بينهما ، فطأطأت ناقته رأسها لتأخذ العُشب ، فعَلِق بِمِشْفَرِهَا أُنْفَى ، ثم عطفت على قَتَبِهَا فحَكَّتْهُ بِهِ ، فذَبَّ الْأُنْفَى عَلَى الْقَتَبِ ؛ حتى نهش ساق سامة فقتله ، فقال أخوه كعب بن لؤي يرثيه^(٢) :

عَيْنُ جُودِي لِسَامَةَ بْنِ لُؤَيٍّ عَنَقْتُ سَاقَ سَامَةَ الْعَلَاقَةَ^(٣)
رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتَهَا ابْنَ لُؤَيٍّ حَذَرَ الْمَوْتِ لَمْ تَكُنْ مُهْرَاقَةَ

قالوا : وكانت معه امرأته ناجية ، فلما مات تزوجت رجلا في البحرين ، فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير ، فلما ترعرع طمعت أمه أن تلحقه بقريش ، فأخبرته أنه ابن سامة بن لؤي بن غالب ، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه ، فأخبر كعب ابن لؤي أنه ابن أخيه سامة ، فعرف كعب أمه ناجية ، فظن أنه صادق في دعواه ، فقبله ومكث عنده مدة ؛ حتى قدم مكة ركب من البحرين ؛ فأرأوا الحارث ، فسألوا عليه ، وحادثوه ، فسألهم كعب بن لؤي : من أين يعرفونه ؟ فقالوا : هذا ابن رجل من بلدنا يُعْرَفُ بِفُلَانٍ ، وشرحواله خبره ، فنفاه كعب عن مكة ونفى أمه ، فرجعا إلى البحرين ، فكانا هناك ، وتزوج الحارث ، فأعقب هذا العقب .

(١) المِمْاطة : المخاصمة والمنازعة .

(٢) ويروى أن قائلة هذا الشعر امرأة أزدية كان سامة نزل بزوجهما ، في خبر ذكره صاحب اللسان ١٢ : ١٩٥ .

(٣) المِمْاطة : المنية .

وقال هؤلاء: إنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «عَمَى سَامَةٌ يُعَقَّبُ»^(١).
 وزعم ابنُ الكلبي أن سامةَ بنَ لؤيَ ولَدَ غالبَ بنَ سامةَ ، والحارثَ بنَ سامةَ ،
 - وأمَ غالبَ بنَ سامةَ ناجيةَ - ثم هَلَكَ سامةَ ، فخلفَ عليها ابْنُه الحارثُ بنَ سامةَ ، نكاحَ
 مَمْتٍ^(٢) ، ثم هلكَ ابنا سامةَ ولم يُعَقِّبا ؛ وإن قوماً من بني ناجيةَ بنَ جَرَمَ بنَ رَبَّانَ بنِ
 عِلافَ ، ادَّعوا أَنهم بنو سامةَ بنِ لؤيَ ، وأنَّ أمهم ناجيةَ هذه ، ونسبوا هذا النسبَ ،
 واتتموا إلى الحارثِ بنِ سامةَ ، وهم الذين باعهم علىَّ عليه السلامَ على مَصْفَلَةَ بنِ هُبَيْرَةَ . وهذا هو
 قول الميثمِ بنِ عدي . كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهاني في " كتاب الأغاني الكبير " ،^(٣).

ووجدتُ أنا في " جمهرة النسب " ، لابن الكلبي كلاماً قد صرحَ فيه بأن سامةَ بنَ لؤيَ
 أعقبَ ، فقال: ولَدَ سامةَ بنَ لؤيَ الحارثُ ، وأمُه هند بنتُ تَيْمٍ ، وغالبُ بنُ سامةَ ، وأمُه ناجيةَ
 بنتُ جَرَمَ بنِ رَبَّانَ ، من قُضاعةَ ، فهلكَ غالبُ بعد أبيه ؛ وهو ابنُ اثنتي عشرة سنة ،
 فولدَ الحارثُ بنَ سامةَ لؤياً وعبيدةَ وربيعَةَ وسعداً ، وأمهم سلمى بنتُ تَيْمٍ بنِ شَيْبانَ
 ابنِ محاربِ بنِ فِهْرٍ وعبدِ البَيْتِ ، وأمُه ناجيةَ بنتُ جَرَمَ ، خلفَ عليها الحارثُ بعد أبيه بنكاحِ
 مَمْتٍ ، فيهم الذين قتلهم علىَّ عليه السلامَ .

قال أبو الفرج الأصفهاني : أما الزبير بن بَسْكَارَ ، فإنه أدخلهم في قريش ؛ وهم قريش
 العازبة ، قال : وإنما سُمِّوا العازبة ؛ لأنهم عَزَبُوا عن قومهم فَنَسَبُوا إلى أمهم ناجيةَ
 بنتِ جَرَمَ بنِ رَبَّانَ بنِ عِلافَ ، وهو أولُ من اتخذَ الرَّحالَ العِلافِيَّةَ ، فنسبتُ إليه ،

(١) بقية الخبر كما في الأغاني : « وكان بنو ناجية ارتدوا عن الإسلام ، ولما ولي على بن أبي طالب رضى
 عنه الخلافة دعاهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الردة ، فسبواهم واسترقهم ، فاشترى مصقلة
 ابن هبيرة منه ، وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقي على نفسه ، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله إلى معاوية ،
 فصاروا أحراراً ، ولزمه الثمن ، فشعت على بن أبي طالب شيئاً من داره ، وقيل بل هدها . فلم يدخل
 مصقلة الكوفة حتى قتل على بن أبي طالب رضى الله عنه . »

(٢) نكاح المقت: أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها؛ وكان يفعل في الجاهلية وحرمه الإسلام.

(٣) الأغاني ١٠ : ٢٠٥ - ٢٠٧ (طبعة الدار)

واسم ناجية ليلي ؛ وإنما سميت ناجية ، لأنها سارت مع سامة في مفازة ، فمطشت ، فاستسقت ، فقال لها : الماء بين يديك ، وهو يُرِيها السراب ؛ حتى أتت إلى الماء فشربت ، فسميت ناجية .

قال أبو الفرج : ولزبير بن بكار في إدخالهم في قریش مذهب ؛ وهو مخالفة أمير المؤمنين عليه السلام ، وميله إليهم ، لإجماعهم على بُغضه عليه السلام ، حسب المشهور المأثور من مذهب الزبير في ذلك .

[نسب عليّ بن الجهم وطائفة من أخباره وشعره]

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤيّ عليّ بن الجهم الشاعر ، وهو عليّ بن الجهم بن بدر ابن جهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كراز بن كعب بن جابر بن مالك ابن عتبة ^(١) بن الحارث بن عبد البيت بن سامة بن لؤي بن غالب .

هكذا ينسب نفسه ، وكان مبغضاً لعلّي عليه السلام ، ينحونحو مروان بن أبي حفصة في هجاء الطالبين وذمّ الشيعة ، وهو التائل :

وَرَأْفِضَةَ تَقُولُ بِشَعْبِ رَضْوَى إِمَامٌ ، خَابَ ذَلِكَ مِنْ إِمَامٍ ^(٢) !
إِمَامٌ مِنْ لَهُ عَشْرُونَ أَلْفًا مِنْ الْأَتْرَاكِ مُشْرَعَةَ السَّهَامِ !

وقد هجاه أبو عبادة البحرى ، فقال فيه :

إِذَا مَا حُصِّلَتْ عَلِيًّا قُرَيْشٍ فَلَا فِي الْعَيْرِ أَنْتَ وَلَا النَّفِيرِ ^(٣)
وَلَوْ أَعْطَاكَ رَبُّكَ مَا تَمَّتِي لَزَادَ الْخَلْقَ لِقَى فِي عِظَمِ الْأَيُورِ

(١) في الأغاني : « عينية »

(٢) الأغاني ١٠ : ٢٠٥

(٣) ديوانه ٢ : ٣٤ ، والأغاني ١٠ : ٢٠٦

وما الجهمُ بنُ بدرٍ حينَ يُعزَى من الأمارتمَ ولا البُدورِ (١)
عَلَامَ هجوتَ مجتهداً عَلِيًّا بما لَفَّقْتَ مِن كَذِبٍ وَزُورِ!
أَمَّاكَ فِي اسْتِكَ الْوَجَعَاءِ شُغْلُ يَكْفُكَ عَن أَذَى أَهْلِ الْقُبُورِ!

وسمع أبو العيناء عليّ بن الجهم يوماً يطعن على أمير المؤمنين ، فقال له : أنا أدري لم تطعن على أمير المؤمنين! فقال : أتغني قصة بيعه أهلي من مصلقة بن هُبيرة ؟ قال : لا، أنت أوضع من ذلك ؛ ولسكنه عليه السلام قتلَ الفاعلِ مِنْ قومِ لوط ، والمفعول به ، وأنت أسفلهما .

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه التوكل (٢) :

ألم ترَ مُظهِرِينَ عَلِيَّ عَتَبًا (٣) وَهُمْ بِالْأَمْسِ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ
فَلَمَّا أَنْ بُلَيْتُ غَدَاؤَ وَرَاحُوا (٤) عَلِيَّ أَشَدَّ أَسْبَابِ الْبَلَاءِ
أبت أخطارهم أن ينصروني بِمَالٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ ثَرَاءِ (٥)
وَخَافُوا أَنْ يُقَالَ لَهُمْ خَذَلْتُمْ صَدِيقًا فَادْعُوا قِدَمَ الْجَفَاءِ
تظافرت الروافضُ والنصارى وَأَهْلُ الْإِعْتِزَالِ عَلَيَّ هَجَائِي

(١) الديوان والأغاني : « وما رغثاؤك » وفي حواشي الأغاني : « الرغشاء ، أصلها عصب أو عرق في الثدي يدر اللبن ؛ واستعملها البحترى هنا في الأب »
(٢) من قصيدة طويلة في ديوانه ٨١ - ٨٥ ؛ وفي الأغاني ١٠ : ٢٠٦ - ٢٠٨ : « كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبه عند التوكل ، فحسبه التوكل ، فقال علي بن الجهم في حبسه عدة فصائد كتب بها إلى التوكل ، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان . فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ؛ أولها قوله :

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ وَوَسَّلْنَا لِأَسْبَابِ الْقَضَاءِ

ثم أورد القصيدة .

(٣) الأغاني : عيا ، ، والديوان : « غشا » .

(٤) الديوان : « بليت بنكية فعدوا وراحوا » .

(٥) الديوان : « براه » ، وقال في شرحه : الرأه : الرأي .

وَعَابُونِي وَمَا ذَنَّبِي إِلَيْهِمْ سِوَى عَمِّي بِأَوْلَادِ الزَّانَاءِ
يعني بالروافض نجاح بن مسلمة^(١) ، والنصارى بختيشوع^(٢) ، وأهل الاعتزال
على^(٣) بن يحيى بن المنجم^(٤) .

قال أبو الفرج :^(٥) وكان عليُّ بنُ الجهم من الحشوية^(٦) ، شديد النصب^(٧)
عدواً للتوحيد والعدل ؛ فلما سخط المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد ، وكفاه ، شمت به
عليُّ بن الجهم ، فهجاه ، وقال فيه^(٨) :

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ دَعْوَةٌ بَعَثْتُ عَلَيْكَ جَنَادًا وَحَدِيدًا^(٩)
مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا - بِالْجَهْلِ مِنْكَ - الْعَدْلَ وَالتَّوْحِيدَا
أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَلَيْتَهُ وَرَمَيْتَهُ بِأَبِي الْوَلِيدِ وَلِيدَا

- (١) نجاح بن مسلمة ؛ كان على ديوان التوقيع والتبعية على العمال في عهد المتوكل ؛ فكان جميع العمال
يتقوناه ؛ وكان المتوكل ربما ناداه ؛ وتوفي منكوباً سنة ٢٤٥ . تاريخ الطبري ١١ : ٥٧ .
(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر الطبيب
(٣) علي بن يحيى بن أبي بصير المنجم ، نديم المتوكل وأحد خواصه المتقدمين عنده ؛ توفي سنة ٢٧٥ .
ابن خلكان ١ : ٣٥٦ .
(٤) في طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٢٠ : « وإنما عني بالروافض الظاهريين ؛ وبأهل الاعتزال بنى دؤاد ،
وبالنصارى بختيشوع بن جبريل ؛ فإنه كان يهاديه » .
(٥) الأغاني ١٠ : ٢١٧ .
(٦) الحشوية : فرقة من المرجئة يقولون : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ وعندما أن تارك النفل كترك
الغرض . تفسير القرطبي ٤ : ١٦٢ .
(٧) النواصب : قوم يتدينون ببيعة علي .
(٨) ذكر صاحب الأغاني في هذا الخبر أنه لما حبس علي بن الجهم مدح أحمد بن أبي دؤاد عدة مدائح ،
ويسأله أن يقوم بأمره ؛ منها قوله :

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادٍ إِنَّمَا تَدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ
أَبْلَغُ أَسِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ خَوْضُ الرَّدَى وَمَخَافُ لَا تَنْفَدُ
أَنْتُمْ بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَوْلَى بِمَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ

فلم يفعل وقعد عنه ؛ فلما نفى المتوكل أحمد بن أبي دؤاد شمت به علي بن الجهم ، وهجاه بهذه الأبيات
(٩) ديوانه ١٢٥ ، ١٢٦ .

- أبو الوليد بن أحمد بن أبي دؤاد ، وكان قد رتبته قاضياً (١) -

لَا مُحْكَمًا جَدًّا وَلَا مُسْتَطْرَقًا كَهَلًا وَلَا مُسْتَحْدَثًا مَحْمُودًا (٢)
 شَرِهًا إِذَا ذُكِرَ الْمَكَارِمُ وَالْعَلَا ذَكَرَ الْقَلَايَا مُبْدِنًا وَمَعِيدًا (٣)
 وَيُودُّ لَوْ مُسِيخَتْ رِبِيعَةٌ كُلُّهَا وَبُنُو إِيَادٍ صَحْفَةٌ وَثَرِيدَا
 وَإِذَا تَرَبَّعَ فِي الْمَجَالِسِ خِلْتَهُ ضُبْعًا وَخِلْتَ بَنِي أَبِيهِ قُرُودَا
 وَإِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا شَبَهْتَهُ شَرِقًا تَعَجَّلَ شُرْبُهُ مَرْدُودَا
 لَا أَصْبَحَتْ بِالْخَيْرِ عَيْنٌ أَبْصَرَتْ تِلْكَ الْمَنَاخِرَ وَالثَّنَائِيَا الشُّودَا
 وقال يهجوهُ لما فُلج (٤) :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خَيْالِكَ لَامِعًا فَوْقَ الْفِرَاشِ مُمَهَّدًا بُوَسَادٍ
 فَرِحْتَ بِمَصْرَعِكَ الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادٍ
 كَمْ مَجْلِسٍ لَللَّهِ قَدْ عَطَلْتَهُ كَيْ لَا يَحْدُثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
 وَلَكُمْ مَصَابِيحٌ لَنَا أَطْفَأْتَهَا حَتَّى نَحِيدَ عَنِ الطَّرِيقِ الْهَادِي (٥)
 وَلَكُمْ كَرِيمَةٌ مَفْشَرٍ أَرْمَلْتَهَا وَمُحَدَّثٍ أَوْثَقَتْ فِي الْأَقْيَادِ
 إِنَّ الْأَسَارَى فِي الشُّجُونِ تَفَرَّجُوا لَمَّا أَتَاكَ مَوَاكِبُ الْعُودِ
 وَغَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّيِّبُ فَلَمْ يَجِدْ لِدَوَاءِ دَائِكَ حِيلَةَ الْمُرَادِ
 فَذُقِ الْهُوَانَ مَعْجَلًا وَمَوْجَلًا وَاللَّهِ رَبُّ الْعَرْشِ بِالْمِرْصَادِ
 لِأَزَالِ فَالِجُكَ الَّذِي بَكَ دَائِمًا وَفُجِعْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ

(١) وكان يتولى المظالم سرا بسامراء ، وعزله المتوكل سنة ٢٣٧
 (٢) الديوان والأغانى : « لا محكمًا جزلا » ، والجزل هنا : الجيد الرأى .
 (٣) القلايا : القليات ؛ مفردة قليلة .
 (٤) ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩ ، والأغانى ١٠ : ٢٢٩
 (٥) الأغانى : « حتى يزول عن الطريق الهادى » .

ورى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني" في ترجمة مروان بن أبي حفصة الأصغر أن علي بن الجهم خطب امرأة من قريش ، فلم يزوجه ، وبلغ المتوكل ذلك ، فسأل عن السب ، فحدث بقصة بنى سامة بن لؤي ، وأن أبا بكر وعمر لم يَدْخِلاه في قريش ، وأن عثمان أدخلهم فيها ، وأن علياً عليه السلام أخرجهم منها ، فارتدوا ، وأنه قتل من ارتد منهم ، وسبى بقيتهم ، فباعهم من مصقلة بن هبيرة ، فضحك المتوكل ، وبعث إلى علي بن الجهم فأحضره ، وأخبره بما قال القوم ، وكان فيهم مروان بن أبي حفصة المكتنى أبا السمط وهو مروان الأصغر ، وكان المتوكل يغريه بعلي بن الجهم ، ويضعه على هجائه وثلبه ، فيضحك منهما ، فقال مروان :

إِنَّ جَهْمًا حِينَ تَنْسُبُهُ لَيْسَ مِنْ مُجْمٍ وَلَا عَرَبٍ
لَجَّ فِي شَتْمِي بِالسَّبِّ سَارِقٌ لِلشُّعْرِ وَالنَّسَبِ
مِنْ أَناسٍ يَدْعُونَ أَبَا مَالَهُ فِي النَّاسِ مِنْ عَقَبِ

فغضب علي بن الجهم ، ولم يجبه ؛ لأنه كان يستحقره ، فأوماً إليه المتوكل أن يزيد ، فقال :

أَأْتُمُّ يَا بَنَ جَهْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَدْ باعوكُمُ تَمَنُّ تَرْيِدُ
أَتَرْجُو أَنْ تَكَاثُرَ نَا جِهَارًا بِأَصْلِكُمْ وَقَدْ بَاعَ الْجُدُودُ
فلم يجبه ابن الجهم ، فقال فيه أيضا :

عَلَى تَعَرَّضْتَ لِي ضَلَّةً لَجْهَكَ بِالشُّعْرِ يَامَانِقُ
تَرُومُ قُرَيْشًا وَأَنْسَابَهَا وَأَنْتَ لَأَنْسَابِهَا سَارِقُ
فإن كان سامةُ جدَّكم فَأَمَّاكُ مِنِّي إِذَا طَالِقُ

[نسب مصقلة بن هبيرة]

فَأَمَّا نَسَبُ مَصْقَلَةَ بِنِ هُبَيْرَةَ ، فَإِنَّ ابْنَ الْكَلْبِيِّ ، قَدْ ذَكَرَهُ فِي " جَمْعِ هِبَيْرَةَ النَّسَبِ " ،
فَقَالَ : هُوَ مَصْقَلَةُ بِنِ هُبَيْرَةَ بِنِ شَيْبَلِ بِنِ تَيْرِي بِنِ أَمْرِ الْقَيْسِ بِنِ رَبِيعَةَ بِنِ مَالِكِ بِنِ
ثَعْلَبَةَ بِنِ شَيْبَانَ بِنِ ثَعْلَبَةَ بِنِ عُكَّابَةَ بِنِ صَعْبِ بِنِ عَلِيِّ بِنِ بَكْرِ بِنِ وَاثِلِ بِنِ قَاسِطِ بِنِ
هِنَبِ بِنِ أَفْصَى بِنِ دُعْمَى ، بِنِ جَدِيدَةَ بِنِ أَسَدِ بِنِ رَبِيعَةَ بِنِ نَزَارِ بِنِ مَعْدَانَ بِنِ عَدْنَانَ .

[خبر بني ناجية مع علي]

وَأَمَّا خَبَرُ بَنِي نَاجِيَةَ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَدْ ذَكَرَهُ إِبْرَاهِيمُ بِنِ هَلَالِ الثَّقَفِيِّ
فِي كِتَابِ " الْغَارَاتِ " ، قَالَ :

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ بِنِ عُمَانَ ، عَنِ نَصْرِ بِنِ مِرْزَاحِمٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بِنِ سَعْدٍ ،
عَنْ حَدِيثِهِ مَنْ أَدْرَكَ أَمْرَ بَنِي نَاجِيَةَ ، قَالَ : لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عَلِيًّا بَعْدَ الْهَزِيمَةِ ، دَخَلُوا
فِي الطَّاعَةِ غَيْرَ بَنِي نَاجِيَةَ ، فَإِنَّهُمْ عَسَّكَرُوا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنْ
أَصْحَابِهِ ، فِي خَيْلٍ لِيَقَاتِلَهُمْ ، فَأَتَاهُمْ ، فَقَالَ : مَا بَالُكُمْ عَسَّكَرْتُمْ ، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ فِي الطَّاعَةِ
غَيْرَكُمْ ! فَاقْتَرَفُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ قَالُوا : كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا ، وَدَخَلْنَا فِيمَا دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ
مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَنَحْنُ نَبَايِعُ كَمَا بَايَعَ النَّاسُ ؛ فَأَمَرَهُمْ فَاعْتَزَلُوا . وَفِرْقَةٌ قَالُوا : كُنَّا نَصَارَى فَلَمْ نَسْلَمْ ،
وَخَرَجْنَا مَعَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا خَرَجُوا ، قَهَرْنَا وَأَخْرَجُونَا كَرَاهًا ، فَخَرَجْنَا مَعَهُمْ فَهَزَمُوا ،
فَنَحْنُ نَدْخُلُ فِيمَا دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ ، وَنُعْطِيكُمُ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطِينَاهُمْ ؛ فَقَالَ : اعْتَزَلُوا فَاعْتَزَلُوا .
وَفِرْقَةٌ قَالُوا : كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا فَلَمْ يُعْجِبْنَا الْإِسْلَامُ ، فَرَجَعْنَا إِلَى النِّصْرَانِيَّةِ ، فَنَحْنُ نُعْطِيكُمُ
الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطَاكُمْ النِّصَارَى . فَقَالَ لَهُمْ : تَوَبُّوا وَارْجِعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَبَوْا ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ
وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ فَقَدَّمَ بِهِمْ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

[قصة الخريّتين بن راشد الناجي وخروجه على عليّ]

قال ابن هلال الثقفيّ : وروى محمد بن عبدالله بن عثمان، عن أبي سيف ، عن الحارث بن كعب الأزديّ ، عن عمّه عبد الله بن قُعين الأزديّ، قال : كان ^(١) الخريّتين بن راشد الناجيّ ، أحد بني ناجية ، قد شهد مع علي عليه السلام صفين ، فجاؤا إلى عليّ عليه السلام بعد انقضاء صفين ، وبعد تحكيم الحكمين في ثلاثين من أصحابه ، يمشى بينهم حتى قام بين يديه ، فقال : لا والله لا أطيعُ أمرَك ، ولا أصلى خَلْفَك ، وإني غدا لمفارق لك ؛ فقال له : ثَكَلْتَك أَمَك ! إذا تنقض عهدك ، وتنعص ربك ، ولا تضرّ إلا نفسك ، أخبرني لم تفعل ذلك ؟ قال ؛ لأنك حكمت في الكتاب ، وضعفت عن الحق إذ جدّ الجدّ ، وركنت إلى القوم الذين ظالموا أنفسهم ، فأنا عليك رادّ ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .

فقال له عليّ عليه السلام : وَيْحَكَ ! هلمّ إلى أدارسك وأناظرك في الشئ ، وأفانحك أمورا من الحق أنا أعلم بها منك ؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر ، وتبصر ما أنت الآن عنه عمّ وبه جاهل ! فقال الخريّتين : فإني غادٍ عليك غدا . فقال عليّ عليه السلام : اغدُ ولا يستهويبتك الشيطان ، ولا يتفحّمَن بك رأىُ السوء ، ولا يستخفّنك الجهلاء الذين لا يعلمون ؛ فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مِنّي لأهدينك سبيل الرشاد .

فخرج الخريّتين من عنده مُنصرفا إلى أهله .

قال عبد الله بن قُعين : فعمّلت في أثره مُسرّعا ، وكان لي من بني عمّه صديق ، فأردت أن ألقى ابن عمّه في ذلك ، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين ، وأمر ابن عمّه أن يشتدّ بلسانه عليه ، وأن يأمره بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته ، ويخبره أن ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة .

قال : فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله - وقد سبقني - فقامت عند باب دار فيها رجال من أصحابه ، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام ، فوالله ما رجّع

(١) وانظر الخبر أيضاً في تاريخ الطبري ٦: ٦٥ وما بعدها .

لا ندم على ما قال لأمير المؤمنين وما ردّ عليه ، ولكنه قال لهم : يا هؤلاء ، إني قد رأيت أن أفارق هذا الرجل ، وقد فارقتك على أن أرجع إليه من غد ، ولا أرى إلا المفارقة؛ فقال له أكثر أصحابه : لا تفعل حتى تأتيه ، فإن أنك بأمر تعرفه قبلت منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه ، قال لهم : نعم ما رأيتم . قال : فاستأذنت عليهم فأذنوا لي ، فأقبلت على ابن عمه - وهو مدرك بن الريان الناجي ، وكان من كبار العرب - فقلت له : إن لك عليّ حقاً لإحسانك ووّدك، وحقّ المسلم على المسلم^(١) ، إن ابن عمك كان منه ما قد ذكرك ، فأخلى به فأردد عليه رأيه وعظّم عليه ما أتى ؛ واعلم أيّ خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته . فقال : جزاك الله خيراً من أخ ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام فني ذلك هلاكه ، وإن اختار مناصحته والإقامة معه فني ذلك حظه ورُشده .

قال : فأردت الرجوع إلى عليّ عليه السلام ، لأعلمه الذي كان ؛ ثم اطمانت إلى قول صاحبي ، فرجعت إلى منزلي ، فبت ثم أصبحت ، فلما ارتفع النهار أتيت أمير المؤمنين عليه السلام ، فجلست عنده ساعة ، وأنا أريد أن أحدثه بالذي كان عليّ خلوة ، فأطلت الجلوس ، ولا يزداد الناس إلا كثرة ، فدنوت منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إلى برأسه ، فأخبرته بما سمعته من الحرّيت ، وما قلت لابن عمه وما ردّ عليّ . فقال عليه السلام : دعه ؛ فإن قبل الحقّ ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فلم لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟ فقال :. إنّا لو فعلنا هذا بكلّ من يُتهم من الناس ملأنا السجون منهم ، ولا أراني يسعني الوثوب بالناس . والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهِروا لي الخلاف .

قال : فسكتُ عنه وتنحييت ، فجلستُ مع أسحابي هنيئة ، فقال لي عليه السلام :

(١) في الضمى : « بعد حق المسلم على المسلم » .

اذنُ مِنِّي ، فدنوت ، فقال لي مُسرّاً : اذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل ؛ فإنه قلَّ يومٌ لم يكن يأتي في هذه الساعة ، فأتيتُ إلى منزله ، فإذا ليس في منزله منهم ديار ، فدُرْتُ على أبواب دور أخرى ، كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا محيب . فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال لي حين رآني : أفضنوا فأقاموا أم جبنوا فضعوا ؟ قلت : لا بل ظعنوا ، فقال : أبعدهم الله كما بعثت ثمود ! أما والله لو قد أشرعت لهم ، الأسنّة ، وضّبت على هامهم السيوف ، لقد ندموا ، إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم ، وهو غدا متبري منهم ، ومُخلٍ عنهم . فقام إليه زياد بن خصفة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لو لم يكن من مَضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدّم علينا ، فإنهم قلّموا يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا ، وقلّموا ينقصون من عددنا بخروجهم منا ، ولكننا نخاف أن يُفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدّمون عليهم من أهل طاعتك ؛ فائذن لي في اتباعهم حتى أردّم عليك إن شاء الله .

فقال له عليه السلام : فاخرج في آثارهم راشداً . فلما ذهب ليخرج قال له : وهل تدري أين توجه القوم ! قال : لا والله ؛ ولكنني أخرج فأسأل وأتبع الأثر ، فقال : اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبي موسى ثم لاتبرحه ؛ حتى يأتيك أمري ؛ فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ؛ فإن عمالي ستكتب إليّ بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين ؛ فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إليّ من حولي من عمالي فيهم . فكتب نسخة واحدة وأخرجها إلى العمال :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من قرى عليه كتابي هذا من العمال ، أما بعد ، فإن رجالاً لنا عندهم تبعه ، خرجوا هراً با نظمتهم خرجوا نحو بلاد البصرة ، فاسأل عنهم أهل بلادك ، واجعل عليهم العميون في كل ناحية من أرضك ، ثم اكتب إليّ بما انتهى إليك عنهم . والسلام .

فخرج زياد بن خَصَفَةَ حَتَّى آتَى دَارَهُ ، وَجَمَعَ أَصْحَابَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
يَا مَعْشَرَ بَكْرَ بْنِ وَاثِلٍ ؛ إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَدَبْتَنِي لِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ مُهِمٌّ لَهُ ، وَأَمْرَانِي بِالْإِنْكَشَافِ
فِيهِ بِالْعَشِيرَةِ ؛ حَتَّى آتَى أَمْرَهُ ؛ وَأَتَمَّ شِيعَتَهُ وَأَنْصَارَهُ ، وَأَوْثَقَ حَتَّى مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي
نَفْسِهِ ، فَاتَدَبَّرُوا مَعِيَ السَّاعَةَ ، وَتَجَلَّوْا ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِائَةٌ وَثَلَاثُونَ
رَجُلًا ، فَقَالَ : اكْتَفِينَا لَا نَزِيدُ أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ ؛ فَخَرَجَ حَتَّى قَطَعَ الْجَسْرَ ،
ثُمَّ آتَى دِيرَ أَبِي مُوسَى فَتَزَلَّهُ ، فَأَقَامَ بِهِ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ ذَلِكَ ، يَنْتَظِرُ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قال إبراهيم بن هلال : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ ابْنِ أَبِي سَيْفٍ ، عَنْ أَبِي
الصَّلَاتِ التَّمِيمِيِّ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَالِ التَّمِيمِيِّ ، قَالَ : إِنِّي لَعِنْدَ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِذَا فَيَجُجُ (١) قَدْ جَاءَهُ يَسْعَى بِكِتَابٍ مِنْ قَرظَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ
أَحَدَ عَمَالِهِ ، فِيهِ :

لَعَبَدَ اللَّهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَرظَةَ بْنِ كَعْبٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ
اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ أَمَا بَعْدُ :

فإني أخبرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَّ خِيْلًا مَرَّتْ مِنْ قَبْلِ الْكُوفَةِ مُتَوَجِّهَةً [نَحْوَ نَهْرٍ] (٢) وَأَنَّ رَجُلًا
مِنْ دَهَاقِينَ أَسْفَلَ الْفَرَاتِ قَدْ أَسْلَمَ وَصَلَّى ، يُقَالُ لَهُ : زَاذَانُ فَرُوحٍ ؛ أَقْبَلَ مِنْ عِنْدِ أَخْوَالِهِ ،
فَلَقَوْهُ ، فَقَالُوا لَهُ : أَمْسَلِمَ أَنْتَ أَمْ كَافِرٌ ؟ قَالَ : بَلِ مُسْلِمٌ ، قَالُوا : فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ ؟ قَالَ : أَقُولُ
فِيهِ خَيْرًا ؛ أَقُولُ : إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَيِّدُ الْبَشَرِ وَوَصِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالُوا : كَفَرْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ! ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَيْهِ عَصَابَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَطَّعُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ ،
وَأَخَذُوا مَعَهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَهُودِيًّا ، فَقَالُوا لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ قَالَ : يَهُودِيٌّ ، فَقَالُوا :

(١) الفيجج : رسول السلطان على رجله ؛ فارسي معرب « بيك » . تاج العروس ٢ : ٨٩ .

(٢) تكملة من تاريخ الطبري . ونفر : بلدة على نهر النرس

خَلُّوا سَبِيلَ هَذَا ، لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا ذَلِكَ الذَّمَّى ، فَأَخْبَرَنَا الْخَبْرَ ، وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهُمْ ، فَلَمْ يَخْبِرْنِي أَحَدٌ عَنْهُمْ بِشَيْءٍ ، فَلِيَكْتُبَ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ بِرَأْيِ أُنْتِهِ إِلَيْهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَكْتُبَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ الْعَصَابَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِعَمَلِكَ ، فَقَتَلْتَ الْبَرَّ الْمُسْلِمَ ، وَأَمِنْ عِنْدَهُمُ الْخَالَفُ الْمَشْرُكُ ؛ وَإِنْ أَوْلَيْتَ قَوْمَ اسْتِهْوَامِ الشَّيْطَانِ فَضُلُومًا ، كَالَّذِينَ حَسَبُوا أَلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ، فَاسْمَعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ تَحْشُرُ أَعْمَالَهُمْ ، فَالْزِمْ عَمَلَكَ ، وَأَقْبِلْ عَلَى خِرَاجِكَ ؛ فَإِنَّكَ كَمَا ذَكَرْتَ فِي طَاعَتِكَ وَنَصِيحَتِكَ ، وَالسَّلَامُ .

قَالَ : فَكْتُبَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى زِيَادِ بْنِ خَصْفَةَ ، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَالِ التَّيْمِيِّ ،

كِتَابًا نَسَخْتَهُ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَنْزِلَ دَيْرَ أَبِي مُوسَى حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي ؛ وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلِمْتُ أَيْنَ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ أَخَذُوا نَحْوَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى السَّوَادِ ، فَاتَّبَعْتُ آثَارَهُمْ وَوَسَّلْتُ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ مُسْلِمًا مُصَلِّيًّا ، فَإِذَا أَنْتَ لَحَقْتَ بِهِمْ فَارْجِعْهُمْ إِلَيَّ ، فَإِنَّ أَبَوًا فَنَاجِزَهُمْ ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ فَارَقُوا الْحَقَّ ، وَسَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَأَخَافُوا السَّبِيلَ ، وَالسَّلَامُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَالٍ : فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ شَابٌّ ، فَضَيِّقْتُ بِهِ

غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا أَمْضَى مَعِ زِيَادِ بْنِ خَصْفَةَ إِلَى عَدُوِّكَ ، إِذَا دَفَعْتُ إِلَيْهِ كِتَابَكَ ! فَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي أَفْعَلْ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْ أَعْوَانِي عَلَى الْحَقِّ وَأَنْصَارِي عَلَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَحَبَّ أَنْ لِي بِمَقَالَتِهِ

تلك حُمْرَ النَّعَمِ ، فقلت له : يا أميرَ المؤمنين ، أنا والله كذلك مِن أولئك ؛ أنا والله حيث تحب .

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب ، وأنا على فرس رائع كريم ، وعلى السلاح ، فقال لي زياد : يا ابن أخي ، والله ما لي عنك من غنى ، وإني أحبُّ أن تكونَ معي في وجهي هذا ، فقلت : إني قد استأذنتُ أمير المؤمنين في ذلك فأذن لي ، فسُرَّ بذلك ، ثم خرجنا حتى أتينا الموضعَ الذي كانوا فيه ، فسألنا عنهم ، فقيل : أخذوا نحو المدائن فلحقناهم ؛ وهم نزول بالمدائن ، وقد أقاموا بها يوماً وليلة ، وقد استراحوا وعلفوا خيولهم ، فهم جامون مريحون ، وأتيناهم وقد تقطعنا ولغينا ونصبنا ؛ فلما رأونا وثبوا على خيولهم ، فاستووا عليها ، فجئنا حتى اتهمنا إليهم . فنادى الحرّيت بن راشد : يا عميان القلوب والأبصار ، أمع الله وكتابه أتم أم مع القوم الظالمين ! فقال له زياد بن خصفة : بل مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه آثر عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تنفى لآثر الله عليها ، أيها العمى الأبصار ، الصمّ الأسماع !

فقال الحرّيت : فأخبرونا ما تريدون ؟ فقال له زياد - وكان مجرّبا رقيقا : قد ترى ما بنا من النصب واللغوب ، والذي جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية على رؤوس أصحابك ؛ ولكن تنزلون ونزل ، ثم نخلوا جميعا ، فنذاكر أمرنا وننظر فيه ؛ فإن رأيت فيما جئنا له حظا لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك ، لم أردّه عليك .

فقال الحرّيت : انزل ، فنزل ، فأقبل إلينا زياد ، فقال : انزلوا على هذا الماء ، فأقبلنا حتى اتهمنا إلى الماء ، فنزلنا به ، فما هو إلا أن نزلنا فنفترقنا ، فتحلّقنا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة ، تضع كلُّ حلقة طعامها بين أيديها ، لتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب .

وقال لنا زياد : علقوا على خيولكم ، فعلقنا عليها مخاليتها ، ووقف زياد في خمسة فوارس ؛ أحدهم عبد الله بن وال بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحوا ، فنزلوا وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى نفرنا وتحلقنا ، قال : سبحان الله أتم أصحاب حرب ! والله لو أن هؤلاء جاءوكم الساعة على هذه الحالة ما أرادوا من غرتكم أفضل من أعمالكم التي أتم عليها ؛ تجلوا ، قوموا إلى خيولكم . فأسرعنا فمنا من يتوضأ ، ومنا من يشرب ، ومنا من يسقي فرسه ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زيادا ، وإن في يده لعرقا^(١) ينهسه قهس منه نهستين أو ثلاثة ، ثم أتى بإداوة فيها ماء ، فشرب ثم ألقى العرق من يده ، وقال : يا هؤلاء ؛ إنا قد لقينا العدو ، وإن القوم لفي عدتكم ، ولقد حزرتهم ، فإظن أحد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر ؛ فإني أرى أمرهم سيصير إلى القتال ؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجز الفريقين .

ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم بعنان فرسه ، فإذا دنوت منهم وكلت صاحبهم ، فإن تابعى على ما أريد ؛ وإلا فإذا دعوتكم فاستوتوا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معاً غير متفرقين . ثم استقدم أماننا وأنا معه ، فسمعت رجلاً من القوم يقول : جاءكم القوم ، وهم كاللون مغيون ، وأتم جامون^(٢) مريمون^(٣) ؛ فتركتهموم حتى نزلوا فأكلوا وشربوا ، وأراحوا دوابهم ! هذا والله سوء الرأي !

قال : ودعا زياد أصحابهم الخريت ، فقال له : اعتزل ننظر في أمرنا ، فأقبل إليه في خمسة نفر ؛ فقلت لزياد : أذعوك ثلاثة نفر من أصحابنا ؛ حتى نلقاهم في عددهم ؟ فقال : ادع من أحببت ، فدعوت له ثلاثة فكنا خمسة وهم خمسة .

فقال له زياد : ما الذي نعتت على أمير المؤمنين وعلينا ، حتى فارقتنا ! فقال : لم أرض

(١) المرق : العظم بلحمه ، ويقال . نهش اللحم ، أى أخذه بمقدم أسنانه .

(٢) جم ، من الجمام وهو الراحة .

(٣) مريمين ؛ من قولهم : أراح فلان : إذا رجعت إليه نفسه بهد الإعياء .

صاحبكم إماما ، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة ، فرأيتُ أنْ اعتزِلَ ، وأكونَ مع مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس ؛ فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضًا ، كنت مع الناس . فقال زياد : ويحك ! وهل يجتمع الناس على رجل يُداني عليًّا عالمًا بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام ! فقال الخِزْرِيّ : هو ما أقول لك ، فقال : فقيم قتلتم الرجل المسلم ؟ فقال الخِزْرِيّ : ما أنا قتلته ، قتلته طائفة من أصحابي ، قال : فادفنههم إلينا ، قال : ما إلى ذلك من سبيل ، قال : أو هكذا أنت فاعل ! قال : هو ما نسمع .

قال : فدعونا أصحابنا ، ودعا الخِزْرِيّ أصحابه ، ثم اقتتلنا ؛ فوالله ما رأيت قتالا مثله منذ خلقني الله ، لقد تطاعنا بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انمخت ، وعُقرت ^(١) عامة خيلنا وخييلهم ، وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتل مِنّا رجلان : مولى لزياد كانت معه رايته ، يدعى سويدا ، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكر ، وضُرِعَ منهم خمسة نفر ، وحال الليلُ بيننا وبينهم ؛ وقد والله كرهونا وكرهناهم ، وهرّونا وهرّرناهم ^(٢) ، وقد جرح زياد وجُرِحَتْ ؛ ثم أنا بتنا في جانب وتنحّوا ، فكثروا ساعة من الليل ثم مضوا ، فذهبوا وأصبحنا ، فوجدناهم قد ذهبوا ؛ فوالله ما كرهنا ذلك ؛ ففضينا حتى أتينا البصرة ، وبلغنا أنهم أتوا الأهواز ^(٣) ، فزولوا في جانب منها ، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة ، لم يكن لهم من القوة ما ينهضون معهم حين نهضوا ؛ فاتبعوهم من بعد لحوقهم بالأهواز ، فأقاموا معهم .

* * *

قال : وكتب زياد بن خصفة إلى عليّ عليه السلام :

أما بعد فإننا لقينا عدو الله التاجي وأصحابه بالمدائن ؛ فدعوناهم إلى الهدى والحق وكلمة

(١) عقرت الدابة ؛ إذا قطعت قوائمها بالسيوف .

(٢) هرونا وهرّرناهم ؛ أى أى كرهونا وكرهناهم .

(٣) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .

السواء ؛ فتولوا عن الحق وأخذتهم العزة بالأثم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن السبيل ؛ فقصدونا وصمدنا صمدهم ، فاقتتلنا قتالا شديدا ما بين قائم الظهر إلى أن دلكت^(١) الشمس ، واستشهد منا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر ، وخلصوا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح - ثم إن القوم لما أدركوا الليل خرجوا من تحتهم متنكرين إلى أرض الأهواز ؛ وقد بلغنى أنهم نزلوا من الأهواز جانبا ، ونحن بالبصرة نداوي جراحنا ، ونتظر أمرك رحمك الله ؛ والسلام .

فلما أتاه الكتاب ، قرأه على الناس ، فقام إليه معقل بن قيس الرياحي ، فقال : أصلحك الله يا أمير المؤمنين ! إنما كان ينبغي أن يكون مكان كل رجل من هؤلاء الذين بعثتهم في طلبهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحقوهم استأصلوا شأقتهم^(٢) ، وقطعوا دابرهم ؛ فأما أن تلقاهم بأعدادهم ؛ فلعمري ليصبرن لهم فإنهم قوم عرب ، والعدة تصبر للعدة ، فيقاتلون كل القتال .

قال : فقال عليه السلام له : تجهز يا معقل إليهم ، وندب معه ألفين من أهل السكوفة ، فيهم يزيد بن معقل ، وكتب إلى عبد الله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى :
أما بعد ، فابعث رجلا من قبلك صليبا شجاعا ، معروفا بالصلاح في ألقى رجل من أهل البصرة ، فليتبّع معقل بن قيس ؛ فإذا خرج من أرض البصرة ، فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلا ؛ فإذا لقيه فعقل أمير الفريقين ، فليسمع منه وليطعمه ولا يخالفه ؛ ومُرّ زياد بن خصفة ، فليقبل إلينا ، نعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله ! والسلام .

(١) دلكت الشمس : اصفرت وجنعت للغييب .
(٢) الشأفة في الأصل : فرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فنذهب ؛ وإذا قطعت مات صاحبها ؛ وقولهم استأصل الله شأنه ؛ أي أذهب كما تذهب الفرحة ، ومعناه أزاله من أصله .

قال : وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفَةَ :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت به الناجيَ وأصحابه ، الذين طَبِعَ اللهُ على قلوبهم ، وزَيْنَ لهم الشيطانُ أعمالهم ؛ فهم حَيَارَى عَمُونَ ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ؛ ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر ؛ فأما أنت وأصحابك فله سعيكم وعليه جزاؤكم . وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خَيْرُ له من الدنيا التي يُقبل الجاهلون بأنفسهم عليها ، فَمَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ . وأما عدوكم الذين لقيتم فحسبهم خروجهم من الهدى ، وارتكاسهم في الضلالة ، وردهم الحق ، وجاحهم في التيه ، فذرهم وما يفترون ، ودعهم في طغيانهم يعمهون ، فاسمع بهم وأبصر ؛ فكانتكم بهم عن قليل ، بين أسير وقَتِيل ! فَأَقْبِلِ إِلَيْنَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مَا جُورِينَ ، فقد أظعتم وسمعتم ، وأحستم البلاء ، والسلام .

قال : ونزل الناجي جانبا من الأهواز ، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها ؛ فتمن أراد كسر الخراج ، ومن اللصوص ، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه .

قال إبراهيم بن هلال : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني ابن أبي سيف ، عن الحارث بن كعب ، عن عبد الله بن قعين ، قال : كنت أنا وأخي كعب بن قعين في ذلك الجيش ، مع معقل بن قيس ، فلما أراد الخروج ، أتى أمير المؤمنين عليه السلام يودعه ، فقال : يا معقل بن قيس ؛ اتق الله ما استطعت ؛ فإنه وصية الله للمؤمنين ؛ لا تبغ على أهل القبلة ، ولا تظلم أهل الذمة ولا تتكبر ؛ فإن الله لا يحب المتكبرين . فقال معقل : الله المستعان ، فقال : خير مستعان .

ثم قام فخرج ، وخرجنا معه ؛ حتى نزل الأهواز ، فأقننا ننتظر بمَثَ البصرة ، فأبطأ علينا ، فقام مَعْقِل ، فقال : أيُّها الناس ؛ إنا قد انتظرنا أهلَ البصرة ، وقد أبطئوا علينا ، وليس بنا بحمد الله قِلَّةٌ ولا وَحْشَةٌ إلى الناس ، فسيروا بنا إلى هذا العدوِّ القليلِ الذَّلِيلِ ؛ فإني أرجو أن ينصرَكم الله ويُهْلِكهم . فقام إليه أخى كعب بن قُعَيْن فقال : أصبتَ إن شاء الله رأينا رأيك ، وإني لأرجو أن ينصرنا الله عليهم ؛ وإن كانت الأخرى ؛ فإن في الموت على الحقِّ لتعزيةً عن الدنيا . فقال : سيروا على بركة الله ، فسيرنا ، فوالله مازال مَعْقِل ابن قيس لى ولأخى مُكْرِمًا موادًّا ، ما يعدلُ بنا أحدًا من الجند ، ولا يزال يقول لأخى : كيف قلت : إن في الموتِ على الحقِّ لتعزيةً عن الدنيا ! صدقت والله وأحسنت ، ووفقت . وفقك الله ! قال : فوالله ما سيرنا يوما ؛ وإذا بفتيج^(١) يشتدّ بصحيفة في يده .

من عبد الله ابن عباس إلى مَعْقِل بن قيس ، أما بعد ؛ فإن أدركك رسولى بالمكان الذى كنتَ مقيا به ، أو أدركك وقد شَخَصَتْ منه ؛ فلا تبرحنَّ من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وأنت فيه ؛ حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك ؛ فقد وجهت إليك خالد بن معدان الطائى ؛ وهو من أهل الدِّين والصلاح والنجدة ، فاسمع منه واعرف ذلك له إن شاء الله . والسلام .

قال : فقرأه مَعْقِل ابن قيس على أصحابه ، فسرُّوا به ، وحمدوا الله ، وقد كان ذلك الوجه هالِكهم ، وأقننا حتى قدِم علينا خالد بن معدان الطائى ، وجاءنا حتى دخلَ على صاحبنا ، فسلمَ عليه بالإمرة ، واجتمعنا جميعا فى عسكر واحد ، ثم خرجنا إلى الناجى وأصحابه ؛ فأخذوا يرتفعون نحو جبالِ رَامَهْرُمُز ، يريدون قلعة حصينة ، وجاءنا أهلُ البلد ، فأخبرونا بذلك ، فخرجنا فى آثارهم فلحقناهم ، وقد دنوا من الجبل ، فصفقنا لهم ، ثم أقبلنا نحوهم ، فجعل مَعْقِل على ميمينته يزيد بن المَعْقِل الأزديّ ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبىّ ، ووقف

(١) انظر الحاشية ١ ص ١٣١ من هذا الجزء .

الخريّيت بن راشد الناجي بمن معه من العرب ، فكانوا ميمنة ، وجعل أهل البلد والعلوج^(١) ومن أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة .

قال : وسار فينا معقل يحرّضنا ، ويقول : يا عباد الله ، لا تبدهوا القوم ، وغضوا الأبصار ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب ، وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم ؛ إنما تقاتلون مارقة مرقت ، وعلوجا^(١) منعوا الخراج ، ولصوصا وأكرادا ، فانتظروني ! فإذا حلت فشدوا شدة رجل واحد .

قال : فرّ في الصف يكلمهم ، يقول هذه المقالة ؛ حتى إذا مرّ بالناس كلهم أقبل فوقف وسط الصف في القلب ، ونظرنا إليه ما يصنع ، فحرك رأسه تحريكين ، ثم حمل في الثالثة ، وحملنا معه جميعا ؛ فوالله ما صبروا لنا ساعة حتى ولّوا وانهمزوا ، وقتلنا سبعين عربياً من بني ناجية ، ومن بعض من اتبعه من العرب ، ونحو ثلثمائة من العلوج والأكراد .

قال كعب : ونظرت ؛ فإذا صديق مدرك بن الزيان قتيلا ، وخرج الخريّيت منهزما ، حتى لحق بسيف^(٢) من أسياف البحر ، وبها جماعة من قومه كثير ، فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف عليّ عليه السلام ، ويزين لهم فراقه ، ويخبرهم أن الهدى في حربه ومخالفته ؛ حتى اتبعه منهم ناس كثير .

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفتح ، وكنت أنا الذي قدّم بالكتاب عليه ، وكان في الكتاب :

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين ، من معقل بن قيس . سلام عليك ؛ فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فإنّا لعينا المارقين ، وقد استظهروا علينا بالمشركين ،

(١) العلوج : كفار العجم ؛ واحده علج .

(٢) السيف ، بالسكر : ساحل البحر .

فقتلنا منهم ناساً كثيراً ، ولم نعدُ فيهم سيرتك ، فلم نقتلْ منهم مُدبراً ولا أسيراً ؛ ولم نذُقْ (١) منهم على جريح ، وقد نصرَك اللهُ والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فلما قدمتُ بالكتاب على عَلِيٍّ عليه السلام ، قرأه على أصحابه ، واستشارهم في الرأي ، فاجتمع رأيُ عامتهم على قول واحد . قالوا : نرى أن تكتبَ إلى معقل بن قيس ؛ يتبع آثارهم ، ولا يزال في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفيتهم من أرض الإسلام ؛ فإنه لأننا من أن يُفسدوا عليك الناس .

قال : فردّني إليه ، وكتب معي :

أما بعد ؛ فالحمد لله على تأييده أوليائه ، وخذله أعدائه ، جزاك اللهُ والمسلمين خيراً ؛ فقد أحستهم البلاء ، وقضيتهم ما عليكم ، فاسأل عن أخي بنى ناجية ، فإن بَلَغَكَ أنه استقر في بلد من البلدان . فسرّ إليه حتى تقتله ، أو تنفيه ، فإنه لم يزل للمسلمين عدواً ، وللفاسقين . وليا ، والسلام .

قال : فسأل معقل عن مسيره والمكان الذي انتهى إليه ، فنبّئُ بمكانه بسيف البحر بفارس ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليٍّ عليه السلام ، وأفسد من قبله من عبد القيس ، ومنّ والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صيفين ، ومنعوها في ذلك العام أيضاً ، فسار إليهم معقل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة ، فأخذوا على أرض فارس ، حتى اتهموا إلى أسياف البحر ؛ فلما سمع الخريّتُ بن راشد بمسيره ، أقبل عليٌّ من كان معه من أصحابه ، يمين يرى رأيَ الخوارج ، فأسرَّ إليهم : أتى أرى رأيكم ، وأنّ عليّاً ما كان ينبغي له أن يُحكّم الرجال في دين الله ، وقال لمن يرى رأيَ عثمان وأصحابه : إننا على رأيكم ، وإنّ عثمان قُتلَ مظلوماً معقولا ؛ وقال لمن منع الصدقة :

(١) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

شُدُّوا أَيْدِيَكُمْ عَلَى صَدَقَاتِكُمْ ، ثُمَّ صَلُّوا بِهَا أَرْحَامَكُمْ ، وَعُودُوا إِنْ شِئْتُمْ عَلَى فُقَرَائِكُمْ ؛ فَأَرْضَى كُلَّ طَائِفَةٍ بِضَرْبٍ مِنَ الْقَوْلِ ؛ وَكَانَ فِيهِمْ نَصَارَى كَثِيرٌ ، وَقَدْ كَانُوا أَسْلَمُوا ؛ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ الْاِخْتِلَافَ ، قَالُوا : وَاللَّهِ لَدِينِنَا الَّذِي خَرَجْنَا مِنْهُ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْ دِينِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَنْهَاهُمْ دِينُهُمْ عَنِ سَفْكِ الدَّمَاءِ ، وَإِخَافَةِ السُّبُلِ ، فَرَجَعُوا إِلَى دِينِهِمْ .

فَلَقِيَ الْخَرِيتَ أَوْلَثَكَ ، فَقَالَ : وَيَسْخَرُونَ مِنْكُمْ ! إِنَّهُ لَا يَنْجِيكُمْ مِنَ الْقَتْلِ إِلَّا الصَّبْرُ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَلِقَاتِلِهِمْ ، أَتَدْرُونَ مَا حُكْمُ عَلِيٍّ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّصَارَى ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ ! لَا وَاللَّهِ لَا يَسْمَعُ لَهُ قَوْلًا ، وَلَا يَرَى لَهُ عِذْرًا ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ تَوْبَةً ، وَلَا يَدْعُوهُ إِلَيْهَا ؛ وَإِنْ حَكَمَهُ فِيهِ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُهُ سَاعَةً يُسْتَمَكِّنُ مِنْهُ ؛ فَازَالَ حَتَّى خَدَعَهُمْ ، وَجَاءَهُمْ مَنْ كَانَ مِنْ بَنِي نَاجِيَةٍ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ؛ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ وَكَانَ مُنْكَرًا دَاهِيًا .

قال : فلما رجع معقل ، قرأ على أصحابه كتابا من علي عليه السلام فيه :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ قَرِئَ عَلَيْهِ كِتَابِي هَذَا ؛ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَارِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمُرْتَدِينَ . سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ، وَابْعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَافِيَا بِعَهْدِ اللَّهِ ؛ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْخَائِنِينَ ؛ أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ؛ وَأَنْ أَعْمَلَ فِيكُمْ بِالْحَقِّ وَبِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، فَمَنْ رَجَعَ مِنْكُمْ إِلَى رَحْلِهِ ، وَكَفَّ يَدَهُ ، وَاعْتَزَلَ هَذَا الْمَارِقَ ^(١) الْهَالِكَ الْحَارِبَ ؛ الَّذِي حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فُسَادًا ، فَلَهُ الْأَمَانُ عَلَيَّ مَالَهُ وَدَمِهِ . وَمَنْ تَابَعَهُ عَلَيَّ حَرَبِنَا ، وَخَرَجَ مِنْ طَاعَتِنَا ، اسْتَعَنَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَنَاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًا ، وَالسَّلَامُ .

قال : فأخرج معقل راية أمان فنصبها ، وقال : مَنْ أَتَاهَا مِنَ النَّاسِ فَهُوَ آمِنٌ إِلَّا الْخَرِيتَ وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ نَابَذُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَتَفَرَّقَ عَنِ الْخَرِيتِ كُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِ ، وَعَبَّأَ مَعْقِلُ بْنُ قَيْسٍ أَصْحَابَهُ ، ثُمَّ زَحَفَ بِهِمْ نَحْوَهُ ، وَقَدْ حَضَرَ مَعَ الْخَرِيتِ جَمِيعٌ

قومه ! مسلمهم ونصرانيهم ؛ ومانعي الصدقة منهم ، فجعل مسلميهم يَمَنَّة ، والنصارى ومانعي الصدقة بَسْرَةَ ، وجعل يقول لقومه : امنعوا اليوم حريمكم ، وقاتلوا عن نساءكم وأولادكم ، والله اثن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسلبنكم .

فقال له رجل من قومه : هذا والله ما جرته علينا يدك ولسانك ، فقال لهم : قاتلوا ، فقد سبقَ السيفُ العذل .

قال : وسار معقل بن قيس يجرّض أصحابه فيما بين الميمنة والميسرة ، ويقول : أيها الناس ، ما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ! إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا ، إني شهيد لمن قتل منكم بالجنة ، ومن عاش بإذن الله يُقرّ عينه بالفتح والغنيمة ؛ ففعل ذلك حتى مرّ بالناس أجمعين ، ثم وقف في القلب برايته ، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزدي ، وهو في الميمنة ؛ أن أحمل عليهم ، فحمل ، فقتلوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان فيه من الميمنة ، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبي ، وهو في الميسرة : أن أحمل عليهم ؛ فحمل فقتلوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان في الميسرة ، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته : إذا حملت فاحملوا جميعا ؛ ثم أجرى فرسه وضربها ، وحمل أصحابه ، فصبروا لهم ساعة .

ثم إن النعمان بن صهبان الراسبيّ بصّر بالخرّيت ، فحمل عليه ، فصرعه عن فرسه ، ثم نزل إليه وقد جرّحه ، فاختلفا بينهما ضربتين ، فقتله النعمان وقتل معه في المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقيون في الأرض يمينا وشمالا ، وبعث معقل الخليل إلى رحاهم ، فسبي^(١) من أدرك فيها رجالا ونساء وصبيانا ، ثم نظر فيهم ، فعنّ كان مسلما خلاه وأخذ

(١) السبي : الأسر .

بيعته ، وخلق سبيل عياله ، ومن كان ارتد عن الإسلام عرض عليه الرجوع إلى الإسلام وإلا القتل ؛ فأسلموا ، فخلق سبيلهم ، وسبيل عيالاتهم ؛ إلا شيخا منهم نصرانيا يقال له : الرمخش بن منصور ؛ فإنه قال : والله ما ظلت مصيبا مذعقت ؛ إلا في خروجي من ديني ؛ دين الصدق ، إلى دينكم دين سوء ؛ لا والله لا أدع ديني ولا أقرب دينكم ما حييت .

فقدّمه معقل فضرب عنقه ، وجمع الناس : فقال : أدوا ما عليكم في هذه السنين من الصدقة ، فأخذ من المسلمين عقالين ، وعمد إلى النصارى وعيالاتهم فاحتملهم معه ، وأقبل لمسلمون الذين كانوا معهم ؛ يشيعونهم ، فأمر معقل بردهم ؛ فلما ذهبوا لينصرفوا ، تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضهم إلى بعض .

قال : فلقد رحمتهم رحمة مارحمتها أحدا قبلهم ولا بعدهم ، وكتب معقل إلى علي عليه السلام :

أما بعد ؛ فإني أخبر أمير المؤمنين عن جنده وعن عدوه ؛ إننا دفعنا إلى عدونا بأسياف البحر ، فوجدنا بها قبائل ذات حدّ وعدد ؛ وقد جمعوا لنا ، فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة ، وإلى حكم الكتاب والسنة ؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ورفعنا لهم راية أمان ؛ فالت إلينا طائفة منهم ، وثبتت طائفة أخرى ، فقبلنا أمر التي أقبلت ، وصمدنا إلى التي أدبرت ، فضرب الله وجوههم ، ونصرنا عليهم ؛ فأما من كان مسلما ؛ فإننا مننا عليه ، وأخذنا بيعته لأمر المؤمنين ، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم ؛ وأما من ارتد فعرضنا عليهم الرجوع إلى الإسلام ؛ وإلا قتلناهم ؛ فرجعوا إلى الإسلام ؛ غير رجل واحد قتلناه ؛ وأما النصارى ؛ فإننا سبيناهم وأقبلنا بهم ؛ ليكونوا نكالا لمن بعدهم من أهل لدمة ، كي لا يمنعوا الجزية ، ولا يجترأوا على قتال أهل القبلة ؛ وهم للصغار والدلة

أهل^١. رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وعليك الصلاة والسلام ، وأوجب لك جنات النعيم ، والسلام :

قال : ثم أقبل بالأسارى حتى مرّ على مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ ، وهو عامل لعلّ عليه السلام على أردشير خُرّة^(١) وهم خمسمائة إنسان ، فبكى إليه النساء والصبيان ، وتصاح الرجال : يا أبا الفضل ، يا حامل النّقل^(٢) ، يا مأوى الضعيف ، وفكّك العصاة ، امنن علينا فاشترنا وأعتقنا ؛ فقال مصقلة : أقسم بالله لأتصدقنّ عليهم ؛ إن الله يجزى المتصدقين . فبلغ قوله معقل بن قيس ، فقال : والله لو أعلمه قالها توجعاً لهم ، وإزراء علىّ لضربت عنقه ؛ وإن كان في ذلك فناء بني تميم وبكر بن وائل .

ثم إن مصقلة بعث ذهل بن الحارث الذهليّ إلى معقل ، فقال : بغي نصارى ناجية ، فقال : أبيعكم بألف ألف درهم ؛ فأبى عليه ، فلم يزل يُراوده حتى باعه إياهم بمخسمائة ألف درهم ، ودفعمهم إليه ، وقال : مجّجّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال مصقلة : أنا باعث الآن يصدر منه ، ثم أتبعك بصدرٍ آخر ، ثم كذلك حتى لا يبقى منه شيء . وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فأخبره بما كان من الأمر ، فقال له : أحسنّت وأصبت وووّقت . وانتظر علىّ عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال ، فأبطأ به ، وبلغ عليا عليه السلام أنّ مصقلة خلى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه في فكّك أنفسهم بشيء ، فقال : ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة ، ولا أراكم إلا سترونه عن قريب مُبلدحاً^(٣) ، ثم كتب إليه :

(١) أردشير خُرّة ، بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وياء ساكنة وراء ، وحاء معجمة مضمومة ، وراء مفتوحة مشددة وحاء : من كور فارس (مراصد الأطلاع).

(٢) النقل . متاع الإنسان وحشمه .

(٣) المبلدح : الملقى على الأرض من الضرب .

أما بعد ؛ فإن من أعظم الخيانة خيانة ^(١) الأمة ، وأعظم الفسّ على أهل المِصرِ غِشّ الإمام ، وعندك من حقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إلى حين يأتيك رسولى ؛ وإلا فأقبل إلى حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى قد تقدّمت إلى رسولى ألا يدعك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك ؛ إلا أن تبعث بالمال ، والسلام .

وكان الرسول أبو حرّة الحنفيّ ، فقال له أبو حرّة : إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخص معى إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البصرة ، وكان العمال يحملون المال من كور البصرة إلى ابن عباس ؛ فيكون ابن عباس هو الذى يبعث به إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أقبل من البصرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة ، فأقره أياما لم يذكر له شيئا ، ثم سأله المال ، فأدى إليه مائتى ألف درهم ، وعجز عن الباقي .

قال : فروى ابن أبى سيف ، عن أبى الصلت ، عن ذهل بن الحارث ، قال : دعانى مصقلة إلى رحله ، فقدّم عشاء فطعمنا منه ، ثم قال : والله إن أمير المؤمنين عليه السلام يسألنى هذا المال ، والله ما أقدر عليه ، فقلت له : لو شئت لم يمض عليك جماعة حتى تجمع هذا المال ، فقال : ما كنت لأحملها قومى ، ولا أطلب فيها إلى أحد .

ثم قال : والله لو أن ابن هند مطايبى بها ، أو ابن عفان ، لتركها لى ؛ ألم ترى إلى عثمان كيف أعطى الأشعث مائة ألف درهم من خراج أذربيجان فى كل سنة ! فقلت : إن هذا لا يرى ذلك الرأى ، وما هو بتارك لك شيئا . فسكت ساعة ، وسكت عنه ؛ فما مكث ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية .

فبلغ ذلك عليا عليه السلام فقال : ماله ترحه الله ! فعل فعل السيّد وفرّ فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ؛ أما إنه لو أقام فمعجز ما زدنا على حبسه ، فإن وجدنا له شيئا أخذناه ،

(١) كلمة « خيانة » ساقطة من ١ ، ب ؛ ثابتة فى ج والطبرى .

وإن لم نجد له مالا تركناه . ثم سار على عليه السلام إلى داره فهدمها .
 وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيباني شيعتاً لعل عليه السلام ، مناصحاً ، فكتب إليه مصقلة
 من الشام مع رجل من نصارى تفلب ، يقال له خلوان .
 أما بعد ؛ فإني كُلتُ معاوية فيك ، فوعدك الكرامة ، ومناك الإمارة ، فأقبل
 ساعة تلقى رسولي ، والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرّح به إلى على عليه السلام ، فأخذ كتابه فقرأه
 ثم قدمه فقطع يده ، فمات وكتب نعيم إلى مصقلة شعراً لم يردده عليه ^(١) .

لاترمين هَدَاكَ اللهُ معترضا	بالظنّ منك فإلى وُحُلوانا
ذَاكَ الحَرِيصُ عَلَى مَا نَالَ مِنْ طَمَعٍ	وَهُوَ البَعِيدُ فَلَا يُورِثُكَ أَحْزَانَا ^(٢)
مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى إِسْرَالِهِ سَفَهًا	تَرْجُو سِقَاطَ امْرِئٍ لَمْ يُبْلَفْ وَسَنَانَا
عَرَضْتَهُ لِعَلِيٍّ إِنَّهُ أَسَدٌ	يَمْشِي العَرَضَةَ مِنْ آسَادِ خَفَانَا ^(٣)
قَدْ كُنْتَ فِي خَيْرِ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبَعٍ	تَحْمِي العِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا ^(٤)
حَتَّى تَقَعَّحْتَ أَمْرًا كُنْتَ تَكْرَهُهُ	لِلرَّكِيْبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا
لَوْ كُنْتَ أَدَيْتَ مَا لَ اللهُ مُصْطَبِرًا	لِلْحَقِّ زَكَيْتَ أَحْيَانًا وَمَوْتَانًا ^(٥)
لَكِنْ لِحَقَّتْ بِأَهْلِ الشَّامِ مَلْتَمِسًا	فَضَلَ ابْنَ هَنْدٍ فَذَلِكَ الرَّأْيُ أَشْجَانًا
فَالْيَوْمَ تَقْرَعُ سِنَّ العَجْزِ مِنْ نَدَمٍ ^(٦)	مَاذَا تَقُولُ وَقَدْ كَانَ الذِي كَانَ!
أَصْبَحْتَ تَبْفِضُكَ الأَحْيَاءَ قَاطِبَةً	لَمْ يَرْفَعِ اللهُ بِالعَضِيَانِ إِنْسَانًا ^(٧)

(١) الأبيات في تاريخ الطبري ٧٦:٦ .

(٢) الطبري : « فلا يمزنك إذ خاننا » .

(٣) العرضنة : البغي في المعنى من النشاط . وخفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٤) الطبري : « قد كنت في منظر عن ذا ومستمع » .

(٥) رواية الطبري :

لَوْ كُنْتَ أَدَيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُصْطَبِرًا لِلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانًا وَمَوْتَانًا

(٦) الطبري : « سن النرم » .

(٧) الطبري : « بالفضاء لإنسانا » .

فلما بلغ الكتاب إليه علم أن النصراني قد هلك ، ولم يلبث التغلبيون إلا قليلا حتى
بأنهم هلاكٌ صاحبهم ، فأتوا مصقلة ، فقالوا : أنت أهلكنا صاحبنا ؛ فإما أن تجيئنا به ،
وإما أن تديبه ، فقال : أما أن أجيء به ، فليست أستطيع ذلك ؛ وأما أن أديبه
فنع ، فوَداه .

قال إبراهيم : وحدثني بن أبي سيف ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال :
قيل لعلّي عليه السلام حين هرب مصقلة : اردد الذين سبوا ولم تستوف أثمانهم في الرقّ ،
فقال : ليس ذلك في القضاء بحق ؛ قد عتقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم ، وصار مالي دينا على
الذي اشتراهم .

وروى إبراهيم أيضا ، عن إبراهيم بن ميمون ، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التمار ،
عن عمار الدُهني ، قال : لما هرب مصقلة قال أصحابُ علي عليه السلام له : يا أمير المؤمنين
فينا ! قال : إنه قد صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه .

وقال ظبيان بن عمار ، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية شعرا :

هَلَّا صَبَرْتُ لِلْقِرَاعِ نَاجِيَا وَالمَرْهَفَاتِ تَخْتَلِي الهَوَادِيَا^(١)
وَالطَّنْفُ فِي نُحُورِكُمْ تَوَالِيَا وَصَائِبَاتُ الأَسْهَمِ القَوَاضِيَا

وقال ظبيان أيضا :

الأفَاصِرُ وَاللَطْنُ وَالضَّرْبُ نَاجِيَا وَللمَرْهَفَاتِ يَخْتَلِينِ الهَوَادِيَا
فَقَدْ صَبَرَ بِالنَّاسِ خِزْيَا عَلَيْنَا وَصَيْرَكُم مِّنْ بَعْدِ عِزِّ تَوَالِيَا

(١) تختلي : تجز ، والهوادى هنا : الأعناق .

مَمَّا لَكُمْ بِالتَّخِيلِ جُرْدًا عَوَالِيًّا أَخُو ثِقَةٍ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ غَازِيَا
فَصَبَّحَكُمْ فِي رَحْلِكُمْ وَخِيُولِكُمْ بِضَرْبٍ يُرَى مِنْهُ الْمَدَجُّ هَاوِيَا
فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ بَعْدِ عِزِّ وَكَثْرَةٍ عبيدَ العصا لا تمنعون الذراريَا

قال إبراهيم بن هلال : وروى عبد الرحمن بن حبيب ، عن أبيه ، أنه لما بلغ عليا عليه السلام مصابُ بنى ناجية ، وقتلُ صاحبهم ، قال : هوتُ أمه ! ما كان أنقصَ عقله واجراه ! إنه جاءني مرة فقال : إن في أصحابك رجالًا قد خشيت أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت إني لا آخذُ على التهمة ، ولا أعاقب على الظن ، ولا أقاتل إلا مَنْ خالفني وناصبني ، وأظهر العداوة لي : ثم لست مقاتله حتى أدعوه ، وأعذر إليه ؛ فإن تاب ورجع قبلنا منه ، وإن أبي إلا الاعتزام على حربنا استعنا بالله عليه ، وناجزناه . فكف عني ما شاء الله ، ثم جاءني مرة أخرى ، فقال لي : إني قد خشيتُ أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي ، إني سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلها أو توثقها ، فلا يزالان بمحبسك أبدا . فقلت له : إني مستشيرُك فيهما ، فإذا تأمرني به ؟ قال : إني أمرُك أن تدعوا بهما فتضرب رقابهما ، فعلت أنه لا ورعَ له ولا عقل . فقلت له : والله ما أظن لك ورعا ولا عقلا ، لقد كان ينبغى لك أن تعلم أني لا أقتل مَنْ لم يقاتلني ، ولم يظهر لي عداوته للذي كنت أعلمتُكّه من رأيي ، حيث جئتني في المرة الأولى ؛ ولقد كان ينبغى لك - لو أردتُ قتلهم - أن تقول لي : اتق الله ! بم تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينادوك ولم يخرجوا من طاعتك !

فأما ما يقوله الفقهاء في مثل هذا السبّي ، فقيل أن نذكر ذلك نقول : إن الرواية قد

اختلفت في المرتدين من بنى ناجية ، فالرواية الأولى التي رواها محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، تتضمن أن الأمير الذي من قبل علي عليه السلام قتل مقاتلة المرتدين منهم بعد امتناعهم من العود إلى الإسلام ، وسبى ذراريهم ، فقدم بها علي عليه السلام ؛ فعلى هذه الرواية يكون الدين اشتراهم مصقلة ذراري أهل الردة .

والرواية الثانية التي رواها محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، تتضمن أن معقل بن قيس ، الأمير من قبل علي عليه السلام لم يقتل من المرتدين من بنى ناجية إلا رجلا واحدا ، وأما الباقيون فرجعوا إلى الإسلام ، والاسترقاق إنما كان للنصارى الذين ساعدوا في الحرب وشهروا السيف على جيش الإمام ؛ وليسوا مرتدين ؛ بل نصارى في الأصل ، وهم الذين اشتراهم مصقلة .

فإن كانت الرواية الأولى هي الصحيحة ففيها إشكال ؛ لأن المرتدين لا يجوز عند الفقهاء استرقاقهم ، ولا أعرف خلافا في هذه المسألة ، ولا أظن الامامية أيضا تخالف فيها ؛ وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أن المرأة المرتدة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقها وسائر الفقهاء على خلافه ؛ ولم يختلفوا في أن الذكور البالغين من المرتدين لا يجوز استرقاقهم ، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدين من بنى ناجية على هذه الرواية ؛ على أني أرى أن الرواية المذكورة لم يصرح فيها باسترقاقهم ، ولا بأنهم بيعوا على مصقلة ، لأن لفظ الراوي : « فأبوا ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم فقدم بهم علي عليه السلام » ؛ وليس في الرواية ذكر استرقاقهم ولا بيعهم على مصقلة ؛ بل فيها ما ينافي ببيعهم على مصقلة ، وهو قوله « فقدم بهم علي عليه السلام » فإن مصقلة ابتاع السبي من الطريق في أزد شير خره قبل قدومه على علي عليه السلام ؛ ولفظ الخبر : « فقدم بهم علي عليه السلام » .

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال : إذ كان قد قدم بهم علي عليه

السلام ، فصقلة من اشترى ، ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوما في الجملة ، فإن الخبر بذلك مشهور جدا يكاد يكون متواترا .

فإن قيل : فما قولكم فيما إذا ارتد البالغون من الرجال والنساء ، ثم أولدوا ذرية صغارا بعد الردة ؛ هل يجوز استرقاق الأولاد ؟ فإن كان يجوز ، فهلا حلتكم الخبر عليه !
قيل : إذا ارتد الزوجان فحملت منه في حال الردة وأنت بولد كان محكوماً بكفره ؛ لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه ؟ فيه للشافعي قولان ؛ وأما أبو حنيفة فقال : إن ولد في دار الإسلام لم يجز استرقاقه ، وإن وُلِدَ في دار الحرب جاز استرقاقه فإن كان استرقاق هؤلاء الذرية موافقا لأحد قولي الشافعي ، فلهذه ذلك .

وأما الرواية الثانية ، فإن كانت هي الصحيحة ؛ وهو الأولى فالفقه في المسألة أن الذمى إذا حارب المسلمين ، فقد نقضَ عهده ، فصار كالمشركين الذين في دار الحرب ، فإذا ظفر به الإمام جازاً استرقاقه وبيعه ؛ وكذلك إذا امتنع من أداء الجزية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء في أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم ، ويجوز استرقاقهم أم لا ؛ وهي أن يزنيَ الذمى بمسلمة ، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلماً عن دينه ، أو يقطع الطريق على المسلمين ، أو يؤدي للكفار عينا ، أو يدلّ على عورات المسلمين ، أو يقتل مسلماً .

فأصحاب الشافعي يقولون : إن شرط عليهم في عقد الذمة الكفّ عن ذلك ، فهل ينتقض عهدهم بفعله ؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك في عقد الذمة ، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوي من أصحاب أبي حنيفة : ينتقض عهدهم بذلك ، سواء شورتوا عن

الكفّ عنه في عقد الذّمة ، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بنى ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدهم بحرب المسلمين ، فأبيحت دماؤهم ،
وجاز للإمام قتلهم وجزاه استرقاقهم كالمشركين الأصليين في دار الحرب ؛ وأما استرقاق
أبي بكر بن أبي قحافة لأهل الرّدة وسبّيه ذراريهم ؛ فإن صح كان مخالفا لما يقول
الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدين ، إلا أن يقولوا إنه لم يَسبِ المرتدين ، وإنما سبّ
مَنْ ساعدهم وأعانهم في الحرب من المشركين الأصليين .
وفي هذا الموضع نظر .



ومنه خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا مَحْلُوقٍ مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ ،
وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ . الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .
وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنَى لَهَا الْفَنَاءُ ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا أَلْجَاءُ ، وَهِيَ حُلُوةٌ خَضْرَاءُ ، وَقَدْ
مَجَلَّتْ لِلطَّلَابِ ، وَالتَّبَسَّتْ بِقَلْبِ النَّاطِرِ ؛ فَارْتَجِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِمَحْضَرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ ،
وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ .

الشيخ :

مُنَى لَهَا الْفَنَاءُ ، أَى قُدْر . وَالْجَلَاءُ ، بفتح الجيم : الخروج عن الوطن ، قال سبحانه :
{ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ } (١) .

وحلوة خضرة : مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ
خَضْرَاءُ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

وَالْكَفَافُ مِنَ الرِّزْقِ : قُدْرُ الْقُوَّةِ ؛ وَهُوَ مَا كَفَّ عَنْ النَّاسِ ؛ أَى أَغْنَى .
وَالْبَلَاغُ وَالْبُلْغَةُ مِنَ الْعَيْشِ : مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ .

واعلم أن هذا الفصل يشتملُ على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أحدهما حمد الله والثناء عليه إلى قوله : « ولا تُفقدُ له نعمة » ، والفصل الثاني ذكر الدنيا إلى آخر الكلام . وأحدهما غيرُ مختلط بالآخر . ولا منسوقٍ عليه ؛ ولكن الرضى رحمة الله تعالى يلتقط كلام أمير المؤمنين عليه السلام التقاطا ، ولا يقفُ مع الكلام المتوالى ؛ لأنَّ غرضه ذكرُ فصاحته عليه السلام لا غير ، ولو أتى بحطبه كليهما على وجهها لكانت أضعاف كتابه الذى جمعه .

[فصل بلاغىّ في الموازنة والسجع]

فأما الفصل الأول ، فشمتملُ من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة ، وذلك « غير مقنوط » فإنه وازنه في الفقرة الثانية بقوله : « ولا مخلوّ » . ألا ترى أن كل واحد منهما على وزن « مفعول » ، ثم قال في الفقرة الثالثة : « ولا مأْيوس » ، فجاء بها على وزن « مفعول » أيضا ؛ ولم يمكنه في الفقرة الرابعة ما أمكنه في الأولى ، فقال : « ولا مستنكف » فجاء به على وزن « مستفعل » ؛ وهو وإن كان خارجا عن الوزن ؛ فإنه غير خارج عن المفعولية ؛ لأن « مستفعل » « مفعول » في الحقيقة ، كقولك : زيد مستحسن ؛ ألا ترى أن « مستحسننا » من استحسنته ، فهو أيضا غير خارج عن المفعولية .

ثم وازن عليه السلام بين قوله : « لا تبرح » وقوله : « لا تفقد » ، وبين « رحمة » و « نعمة » ؛ فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطلاوة والصنعة ما لا تجده عليه لو قال : « الحمد لله غير مخلوّ من نعمته ، ولا مبعّد من رحمته » لأن « مبعّد » بورن « مفعول » ، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول ، بل هو بناء آخر .

وكذلك لو قال : « لا تزول منه رحمة » ؛ فإن « تزول » ليست في المائلة والموازنة

لـ « تفقد » كـ « تبرح » ألا ترى أنها معتلة ؛ وتلك صحيحة ! وكذلك لو قال : « لا تبرح منه رحمة ولا يفقد له إنعام » فإن « إنعاما » ليس في وزن « رحمة » ، والموازنة مطلوبة في الكلام الذي يقصد فيه الفصاحة ، لأجل الاعتدال الذي هو مطلوب الطبع في جميع الأشياء . والموازنة أعم من السجع ، لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردتها على حرف واحد ؛ نحو القريب ، والغريب ، والنسيب ؛ وما أشبه ذلك . وأما الموازنة فنحو القريب ، والشديد ، والجليل ؛ وما كان هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحدا ، وكل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ؛ ومثال الموازنة في الكتاب العزيز : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١) ؛ وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ تَوَزُّؤُهُمْ أَرْبَابًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ ^(٢) فهذه الموازنة .

ومما جاء من المثال في الشعر قوله :

بأشدهم بأساً على أعدائهم وأعزهم فقداً على الأضحابِ

فقوله : « وأعزهم » بإزاء « أشدهم » ، وقوله : « فقداً » بإزاء « بأساً » .

والموازنة كثيرة في الكلام وهي في كتاب الله تعالى أكثر .

[نبذ من كلام الحكماء في مدح القناعة وذم الطمع]

فأما الفصل الثاني فيشتمل على التحذير من الدنيا ، وعلى الأمر بالقناعة ، والرضا بالكفاف ؛ فأما التحذير من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا ؛ وأما القناعة فقد ورد فيها شيء كثير .

(١) سورة الصافات ١١٧ ، ١١٨ ،

(٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأخوين من الأنصار: « لا تَيَاسَا من رَوْحِ اللَّهِ ما تَهَزَّهَزَتْ رُءُوسُكُمْ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ يُولَدُ لا قِشْرَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَكْسُوهُ اللَّهُ وَيَرْزُقُهُ . »
وعنه صلى الله عليه وسلم - وَيُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا ينفد . »

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم « كفى بالقناعة عِزًّا ؛ وبطيب النفس نعيمًا . »
ومن كلام عيسى عليه السلام : اتَّخِذُوا البيوتَ منازلَ ، والمساجدَ مساكنَ ، وكلُوا من بَقْلِ البريةِ ، واشربوا من الماءِ القراحِ ، واخرجوا من الدنيا بسلام . لعمرى انقطعتم إلى غير الله فما ضيِّعكم ، أفتخافون الضَّيْعَةَ إذا انقطعتم إليه !
وفي بعض الكتب الإلهية القديمة : يقول الله تعالى : يابنَ آدَمَ ، اتخاف أن أقتلك بطاعتي هَزَلًا ، وأنت تتفتق بمعصيتي سِمْنًا !

قال أبو وائل : ذهبتُ أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي ، فجلسنا عنده ، فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه نهي عن التكلف لتكلفت لكم ، ثم جاء بجنز وملح ساذج لا أضرار عليه ، فقال صاحبي : لو كان لنا في ملحنا هذا سَعْتَرٌ^(١) ! فبعث سلمان بمطهرته ، فرفهنا على سعتر ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنَعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قنَعْتَ بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة .

عباد بن منصور ، لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفاقه من عمرو بن عُبيد وأفصح ؛ ولكنه كان أصبرهم عن الدينار والدرهم ، فساد أهل البصرة .

قال خالد بن صفوان لعمر بن عبيد : لم لا تأخذ مِنِّي ؟ فقال : لا يأخذُ أحدٌ من أحدٍ إلا ذلَّ له ؛ وأنا أكره أن أذلَّ لغير الله .

(١) السعتر : نبات طيب الرائحة حريف زهره ابيض إلى الغبرة .

كان معاشُ عمرو بن عبِيد من دارِ وِريثِها ؛ كان يأخذ أجرَها في كلِّ شهرٍ ديناراً واحداً فيتبلَّغ به .

الخليل بن أحمد ، كان الناس يكتسبون الرغائب بعلمه ، وهو بين أخصاص البصرة ، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلبها .

وهب بن منبه : أرملتُ مرّةً حتى كدت أقنط ؛ فأتاني آتٍ في المنام ومعه شبه لوزة ، فقال : افضض ، ففضضتها ؛ فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر : لا ينبغي لمن عقّل عن الله أمره ، وعرف الله عدله ، أن يستبطئ الله في رزقه ؛ فقنعت وصبرت ؛ ثم أعطاني الله فأكثر .

قيل للحسن عليه السلام : إن أبا ذرٍّ كان يقول : الفقرُ أحبُّ إلى من الغنى ، والسقمُ أحبُّ إلى من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرٍّ ، أما أنا فأقول : من اتكّل إلى حُسن الاختيار من الله لم يتمنّ أنه في غير الحال التي اختارها الله له ؛ لعمرى يا ابن آدم ، الطير لا تأكل رَعْدًا ، ولا تخبأ لعد ؛ وأنت تأكل رعداً ، وتخبأ لعد ؛ فالطيرُ أحسنُ ظناً منك بالله عزّاً وجلّاً .

حبّس عمر بن عبد العزيز الغدّاء عن مسلّمة ، حتى برّح به الجوع ، ثم دعا بسويق فسقاه ، فلما فرغ منه لم يقدر على الأكل ، فقال : يا مسلّمة ، إذا كفك من الدنيا ما رأيت ، فعلام التهافت في النار !

عبد الواحد بن زيد : ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدّم الصبر إلا الرضا والقناعة ، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا ؛ وهو رأس المحبة .

قال ابن شبرمة في محمد بن واسع : لو أنّ إنساناً اكتفى بالتراب لا كتفى به .

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل لعبادي المتسخطين لرزقي ، إياكم أن أغضب فأبسط عليكم الدنيا .

كان لبعض الملوك نديم ، فَسَكِرَ ، ففاتته الصلاة ، فجاءت جارية له بجَمْرَة نار ، فوضعتها على رجله ، فاتبه مذعورا ، فقالت : إنك لم تصبر على نار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة ، وقعد يبيع البقل ، فدخل عليه الفُضَيْلُ وابن عُيَيْنَةَ ؛ فإذا تحت رأسه لبنة ، وليس تحت جنبه حصير ، فقالا له : إنا رَوَيْنَا أَنَّهُ لم يدعْ أحدٌ شيئا لله إلا عَوَّضَهُ خيرا منه ، فما عَوَّضَكَ ؟ قال : القناعة والرضا بما أنا فيه .

أصاب داود الطائى ضائقة شديدة ، فجاء حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، فقال داود : هي لعمري من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه ، ولو كنتُ قابلاً من أحدٍ شيئا لقبلتها إعظاماً للميت ، وإيجاباً للحى ، ولكنى أحبُّ أن أعيشَ في عزِّ القناعة .

سفيان الثوري : ما أكلتُ طعاماً أحدٍ قطَّ إلا هُنت عليه .

مسعر بن كدام : مَنْ صَبَرَ على الخُلِّ والبَقْلِ لم يُسْتَعْبَدْ .

فضيل : أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله ، ألا تراه كيف يصنع بعبيده ، ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها تطعمه مرّة خبيصاً ^(١) ومرّة صَبِراً ، تريد بذلك ما هو أصلح له .

المسيح عليه السلام : أنا الذي كبت الدنيا على وجهها ، وقدرتها بقدرها ، ليس لي ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، وسادى الحجر ، وفراشى المدر ، وسراجى القمر .

أمير المؤمنين عليه السلام أكل تمرَ دَقْلٍ ^(٢) ، ثم شرب عليه ماء ، ومسح بطنه ، وقال : من أدخلته بطنه النار ، فأبعده الله ، ثم أنشد :

فإنك إن أعطيتَ بطنكَ سُوءَ لهُ
وفَرَجَكَ نالاً مُنتَهَى الدَّمِّ أَجْمَعَا ^(٣)

(١) الخبيص : التمر المعمول من السمن والعسل .

(٢) الدقل : أردأ التمر

(٣) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ١٧ (طبع بيروت) .

في الحديث الصحيح المرفوع : « إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا ، فَأَجْلُوا في الطَّلَبِ » .

من كَلَامِ الحُكَمَاءِ ، من ظَفَرَ بِالقِنَاعَةِ فَقَدِ ظَفَرَ بِالكِيميَاءِ الأَعْظَمِ .

الحسن : الحريص الراجب ، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أَجَلِهِ ، مستكملٌ أَكْلَهُ ؛ غير مُزْدَادٍ وَلَا مُنْتَقَصٍ مِمَّا قَدَّرَ لَهُ ، فعَلَامُ التَّحَقُّمِ في النَّارِ !

ابن مسعود ، رَفَعَهُ : « إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ بِأَكْثَرِ مِنْ أَحَدٍ ؛ قَدْ كَتَبَ النِّصِيبَ والأَجَلَ ، وَقُسِمَتِ المَعِيشَةُ والعَمَلُ ؛ والنَّاسُ يَجْرُونَ مِنْهُمَا إِلَى مَنْتَهَى مَعْلُومٍ » .

المسيح عليه السلام : انظروا إلى طير السماء تغدو وتروح ، ليس معها شيء ، من أرزاقها ، لا تحرث ولا تحصد ؛ والله يرزقها ، فإن زعمتم أنكم أوسع بطونا من الطير ؛ فهذه الوحوش من البقر والحمر ، لا تحرث ولا تحصد ؛ والله يرزقها .

سويد بن غفلة : كَانَ إِذَا قِيلَ لَهُ : قَدْ وَلى فُلَانٌ ، يَقُولُ : حَسْبِي كَسْرَتِي وَمِلْحِي .

وفد عروة ^(١) بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته ، فقال له :

ألسنت القائل :

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَن الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيُعِينِنِي تَطَلُّبُهُ وَلَوْ قَمَدْتُ أَتَانِي لَا يُعِينِنِي

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق ! ثم اشتغل عنه ، فخرج وقعد على ناقته ونصّها راجعا إلى الحجاز ، فذكره هشام في الليل ، فسأل عنه فقيل : إنه رَجَعَ إلى الحجاز ، فتذمّر ونَدِمَ ، وقال : رجل قال حِكْمَةً ، ووفد كَلَىٰ مستجديا ، فجهته ،

ورددته ! ثم وجه إليه بالنبي درهم ، فجاء الرسول وهو بالمدينة ، فدفعها إليه ، فقال له : قل
لأمير المؤمنين ، كيف رأيت ! سميت فأكدت ، وقعت في منزلي فأتاني رزقي .
عمر بن الخطاب : تعلم أن الطمع فقر ؛ وأن اليأس غنى ، ومن يئس من شيء
استغنى عنه .

أهدى لرسول الله صلى الله عليه وآله طائران ، فأكل أحدهما عشية ، فلما أصبح
طلب غداء ، فأتته بعض أزواجه بالطائر الآخر ، فقال : « ألم أنك أن ترفعي شيئاً لعداء ، فإن
من خلق الغد خلق رزقه » .

وفي الحديث المرفوع : « قد أفلح من رزق كفاً وقنع الله بما آتاه » .

من حكمة سليمان عليه السلام : قد جربنا لين العيش وشدة ، فوجدنا
أهناؤنا أدناؤنا .

وهب ، في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ^(١) قال : القناعة .

بعض حكماء الشعراء :

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا أَعْسَرْتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الدَّهْرِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَظُنُّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَإِنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ بِسَارٍ وَقِيلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلِ
وَلَوْ أَنَّ الْعُقُولَ تَجَرَّتْ رِزْقًا لَكَانَ الْمَالُ عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ

عائشة ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن أردت اللّحوق بي فيكفيك من

الدنيا زاد الراكب ، ولا تخلقي ثوبا حتى ترّقعية ؛ وإياك ومجالسة الأغنياء » .

يقال : إن جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمفاتيح خزائن الدنيا ، فقال : « لاحتاجة لي فيها ، بل جوعتان وشبعة » .

وُجِدَ مكتوبا على صخرة عادية ^(١) : يابن آدم ، لست ببالغ أملك ، ولا سابق أجلك ، ولا مغلوب على رزقك ، ولا مرزوق ما ليس لك ، فعلام تقتل نفسك !

الحسين بن الضحاك :

يَارَوْحُ مَنْ عَظُمَتْ قَنَاعَتُهُ حَسَمَ الطَّامِعَ مِنْ غَدٍ وَغَدٍ
مَنْ لَمْ يَسْكُنْ لِلَّهِ مُتَهِمًا لَمْ يُنْسِ مُتَحَاجًا إِلَى أَحَدٍ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أندري لم رزقتُ الأحق ؟ قال : لا ، قال : ليعلم العاقلُ أن طلبَ الرزق ليس بالاحتيال .

قَنَطُ ^(٢) يوسف بن يعقوب عليه السلام في الجب لجوعٍ اعتراه ، فأوحى إليه : انظر إلى حائط البئر ، فتَظَرَّ فانفجر الحائط عن ذرة على صخرة ، معها طعامها ، فقيل له : أتراني لا أغفلُ عن هذه الذرة ؛ وأغفلُ عنك ، وأنت نبي ابن نبي !

دخل على عليه السلام المسجد ، وقال لرجل : أُنْسِكُ على بغاتي ، فخلع لجامها ، وذهب به ، فخرج على عليه السلام بعدما قضى صلاته ، ويده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُظْلًا ، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمين ؛ ليشتري بهما لجاما ، فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق ؛ قد باعه الرجل بدرهمين ؛ فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه ؛ فقال على عليه السلام : « إن العبدَ ليحرمُ نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ؛ ولا يزداد على ما قدر له » .

(١) عادية ، أى قديمة ؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة .

(٢) قنط قنوطا ؛ أى ينس .

سليمان بن المهاجر البجلي .

كسوتُ جميلَ الصبرِ وجهي فصانهُ بهِ اللهُ عن غشيانِ كُلِّ بَخِيلِ
فلمْ يتبذّني البخيلُ ولمْ أقمُ على بابهِ يوماً مقامَ ذليلِ
وإن قليلاً يسترُ الوجهَ أن يرى إلى الناسِ مبذولاً لغيرِ قليلِ

وقف بعض الملوك على سُقراط وهو في المشرفة ، فقال له : سل حاجتك ، قال : حاجتي أن تزيل عني ظلك ، فقد منعتني الرفق بالشمس ؛ فأحضر له ذهباً وكسوة ديباج ، فقال : إنه لاجابة لسقراط إلى حجارة الأرض ولعاب الدود ؛ إنما حاجته إلى أمر يصحبه حينما توجه .

صلى معروف الكرخي خلف إمام ؛ فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً : من أين تأكل ؟ قال : اصبر على حتى أعيد ماصليته خلفك ؛ قال : لأن من شك في الرزق شك في الرازق ، قال الشاعر :

وَلَا تُهْلِكَنَّ النَّفْسَ وَجِدًّا وَحَسْرَةً عَلَى الشَّيْءِ أَسَدَاهُ لَغَيْرِكَ قَادِرُهُ^(١)
وَلَا تَيَأْسِنْ مِنْ صَالِحٍ أَنْ تَنَالَهُ وَإِنْ كَانَ نَصًّا بَيْنَ أَيْدٍ تَبَادِرُهُ
فإِنَّكَ لَا تُعْطَى أَمْرًا حَظًّا نَفْسِهِ وَلَا تَمْنَعُ الشَّقَّ الَّذِي الْغَيْثُ نَاصِرُهُ

قال عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب عليه السلام : قد مللت الناس ، وأحبيت أن ألق الحق بصاحبي ، فقال : إن سرك اللحوق بهما فقصر أملك ، وكل دون الشعم ، واخسف النمل^(٢) وكن كغيش^(٣) الإزار ، مرقوع القميص ، تلحق بهما .

(١) : ١ : « سدها لغيرك » ؛ أي أعطاه .

(٢) خسف النمل : خرزها بالخصف .

(٣) يقال : كش إزاره ؛ إذ قصره وشمره .

وقال بعض شعراء العجم :

غَلَا السَّعْرُ فِي بَغْدَادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ وَإِنِّي فِي الْحَالَتَيْنِ بِاللَّهِ وَاسْتَقِي
فَلَسْتُ أَخَافُ الضِّيقَ وَاللَّهَ وَاسِعٌ غِنَاهُ ، وَلَا الْحِرْمَانَ وَاللَّهَ رَازِقُ

قيل لعلي عليه السلام : لو سُدَّ على رجلٍ باب بيت وتُرك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ قال : من حيث كان يأتيه أجله .

قال بعض الشعراء :

صَبَرْتُ النَّفْسَ لَا أَجْزَعُ ع مِنْ حَادِثَةِ الدَّهْرِ
رَأَيْتُ الرِّزْقَ لَا يُكْسَبُ بِالْعُرْفِ وَلَا النُّكْرِ
وَلَا بِالسَّلْفِ الْأَمْثَلِ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالذِّكْرِ
وَلَا بِالسُّمْرِ اللَّذَنِ وَلَا بِالْحُذَمِ الْبُئْرِ (١)
وَلَا بِالْعَقْلِ وَالِدِّينِ وَلَا الْجَاهِ وَلَا الْقَدْرِ
وَلَا يُدْرِكُ بِالطَّيْشِ وَلَا الْجَهْلِ وَلَا الْهَذْرِ
وَلَكِنْ قِسْمٌ تَجْرِي بِمَا نَدْرِي وَلَا نَدْرِي

جاء فتح بن شخرف إلى منزله بعد العشاء ، فلم يجد عندهم ما يتعشى به ، ولا وجد دهنًا للسراج وهم في الظلمة ، فجلس ليله يبكي من الفرح ، ويقول : بأى يد قد كانت منى ، بأى طاعة تنعم على بأن أترك على مثل هذه الحال !

لقى هَرَم بن حَيَّان أويسا القرني ، فقال : السلام عليك يا أويس بن عامر ! فقال :
وعليك السلام يا هَرَم بن حيان ، فقال هَرَم : أما إنني عرفتُك بالصَّفة ، فكيف عرفتني ؟
قال : إن أرواح المؤمنين لتشام كما تشام الخليل ، فيعرف بعضها بعضا . قال : أوصني ،

(١) الدر : جمع أسمر؛ وهو الرمح اللين . والحزم : جمع الحاذم ؛ أى القاطع .

قال : عليك بسيف البحر ، قال : فمن أين المعاش ؟ قال : أف لك ! خالطت الشك
الموعظة ، أتفر إلى الله بدينك وتهمه في رزقك !

منصور الفقيه :

المَوْتُ أَسْهَلُ عِنْدِي بَيْنَ الْقَنَا وَالْأَسِنَّةِ
وَالخَلِيلُ تَجْرِي سِرَاعاً مَقْطَعَاتِ الْأَعْنَةِ
مِنْ أَنْ يَكُونَ لِنَذْلِ عَلَيَّ فَضْلٌ وَمِنَّةٌ

أعرابي :

أَتِيَأْسُ أَنْ يَقَارِكَ النَّجَاحُ فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدْرُ الْمُتَاحُ^(١)

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصني ، قال : « إِيَّاكَ وَالطَّمَعُ ؛ فَإِنَّهُ فَقْرٌ
حَاضِرٌ ، وَعَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » .

حكيم : أَحْسَنُ الْأَحْوَالِ حَالُ يَنْفِطُكَ بِهَامَنْ دُونَكَ ، وَلَا يَحْقِرُكَ لَهَا مَنْ فَوْقَكَ .

أبو العلاء المعري :

فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى الْعَيْشَ فَابْغِ تَوْشِطاً فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ
تَوَقَّى الْبَدُورُ النَّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيُدْرِكُهَا النَّقْصَانُ ، وَهِيَ كَوَامِلُ

خالد بن صفوان : كُنْ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ حَالاً ، أَقَلَّ مَا تَكُونُ
فِي الْبَاطِنِ مَا لَا ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ مَنْ كَرُمَتْ عِنْدَ الْحَاجَةِ خَلَّتْهُ^(٢) ، وَاللَّيْمُ مَنْ لُوِّمَتْ عِنْدَ
الْفَاقَةِ طَعْمَتُهُ .

(١) التناح : المهيأ .

(٢) الخلة : الحاجة .

شعر :

وَ كَمْ مَلِكٍ جَانِبُهُ مِنْ كَرَاهَةٍ لِإِغْلَاقِ بَابٍ أَوْ لِتَشْدِيدِ حَاجِبٍ
وَلِي فِي غَنَى نَفْسِي مَرَادٌ وَمَذْهَبٌ إِذَا أُبْهِمَتْ دُونِي وَجُوهُ الْمَذَاهِبِ (١)

بعض الحكماء : ينبغي للعاقل أن يكون في دنياه كالدعوى إلى الوليمة، إن أتته صحفة تناولها،

وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها .



(١) أبهم الأمر ؟ إذا اشتبه .

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على السير إلى الشام :

الأضل :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ
فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ . اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ،
وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَضَجَبًا ، وَالْمُسْتَضَجَبُ
لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا .

قال الرضى رحمه الله :

وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد قفاه
أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام ، وتممه بأحسن تمام ، من قوله : «ولا يجمعهما غيرك» ،
إلى آخر الفصل .

الشنخ :

وَعَثَاءُ السَّفَرِ : مشقته ، وأصل الوعث المكان السهل الكثير الدهس ، تغييب
فيه الأقدام ، ويشق على من يمشى فيه . أوعث القوم ، أى وقعوا فى الوعث . والكآبة :
الحزن . والمنقلب ، مصدر ، من انقلب منقلبا ، أى رجع ، وسوء المنظر قبح المرأى .

وصدر الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله في المسانيد الصحيحة ،
وختمه أمير المؤمنين عليه السلام ، وتممه بقوله : « ولا يجمعهما غيرك » ؛ وهو الصحيح ؛
لأن من يستصحب لا يكون مستخلفا ؛ فإنه مستحيل أن يكون الشيء الواحد في المكانين
مقيا وسائرا ؛ وإنما تصح هذه القضية في الأجسام ؛ لأن الجسم الواحد لا يكون في جنتين
في وقت واحد ؛ فأما ما ليس بجسم وهو الباري سبحانه ؛ فإنه في كل مكان ؛ لا على معنى
أن ذاته ليست مكانية ؛ وإنما المراد علمه وإحاطته ونفوذ حكمه وقضائه وقدره ؛ فقد صدق
عليه السلام أنه المستخلف وأنه المستصحب ؛ وأن الأمرين مجتمعان له جل اسمه .

وهذا الدعاء دعا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وضع رجله في الركاب ، من منزله
بالكوفة متوجها إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه ؛ ذكره نصر بن مزاحم في كتاب
” صفين ^(١) “ ، وذكره غيره أيضا من رواة السيرة .

[أدعية على عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية]

قال نصر : لما وضع على عليه السلام رجله في ركاب دابته يوم خرج من الكوفة إلى
صفين ، قال : بسم الله ؛ فلما جلس على ظهرها ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا
وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٢) اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر...
إلى آخر الفصل . وزاد فيه نصر : « وَمِنَ الْخَيْرَةِ بَعْدَ الْيَقِينِ » . قال : ثم خرج أمامه الحرّ
ابن سهم بن طريف ، وهو يرتجز ويقول :

يَافِرَسِي سِيرِي وَأُمِّي الشَّامَا وَقَطَعِي الْخَزُونَ وَالْأَعْلَامَا ^(٣)
وَنَابِذِي مَنْ خَالَفَ الْإِمَامَا إِنِّي لِأَزْجُو إِنْ لَقِينَا الْعَامَا

(١) كتاب صفين ١٤٩ .

(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤ .

(٣) صفين : « وأقطعي » ، والخزون : جمع حزن ، وهو ضد السهل من الأرض .

جَمَعَ بَنِي أُمَيَّةَ الطَّغَمَاً^(١) أَنْ تَقْتُلَ العَاصِيَ وَالهَمَامَا
* وَأَنْ تُزِيلَ مِنْ رِجَالِ هَامَا *

قال : وقال حبيبُ بن مالك ، وهو على شُرْطَةَ عليّ عليه السلام ، وهو آخِذٌ بِعِنَانِ دَابَّتِهِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْتَ مَخْرُجٌ بِالْمُسْلِمِينَ فَيُصِيبُوا أَجْرَ الجِهَادِ بِالْقِتَالِ ، وَتَخْلُفُنِي بِالكُوفَةِ لِخِشْرِ الرِّجَالِ ! فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُمْ لَنْ يُصِيبُوا مِنَ الأَجْرِ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ شَرِيكَهُمْ فِيهِ ؛ وَأَنْتَ هَاهُنَا أَعْظَمُ غَنَاءَ عَنْهُمْ مِنْكَ لَوْ كُنْتَ مَعَهُمْ . فَخَرَجَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى إِذَا حَازَى الكُوفَةَ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ^(٢) .

قال : وَحَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ ، عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عَنْ آبَائِهِ : أَنَّ^(٣) عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ وَهُوَ يَرِيدُ صِفِّينَ ؛ حَتَّى إِذَا قَطَعَ النَّهْرَ ، أَمَرَ مُنَادِيَهُ ، فَنَادَى بِالصَّلَاةِ ؛ فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ؛ حَتَّى إِذَا قَضَى الصَّلَاةَ ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ أَلَا مَنْ كَانَ مُشِيْعًا أَوْ مَقِيمًا فَلَيْتِمَ الصَّلَاةَ ؛ فَإِنَا قَوْمٌ سَفَرٌ . أَلَا وَمَنْ صَحَبَنَا فَلَا يَصُومَنَّ المَفْرُوضَ ، وَالصَّلَاةَ المَفْرُوضَةَ رَكَعَتَانِ .

قال نصر : ثُمَّ^(٤) خَرَجَ حَتَّى نَزَلَ دَيْرَ أَبِي مُوسَى ، وَهُوَ مِنَ الكُوفَةِ عَلَى فَرَسَيْنِ ، فَصَلَّى بِهِ العَصْرَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ذِي الطَّوْلِ وَالنَّعْمِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ذِي القُدْرَةِ وَالإِفْضَالِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ الرِّضَا بِقَضَائِهِ ، وَالعَمَلَ بِطَاعَتِهِ ، وَالإِنَابَةَ إِلَى أَمْرِهِ ؛ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ .

قال نصر : ثُمَّ^(٤) خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى نَزَلَ عَلَى شَاطِئِ نَرَسٍ^(٥) بَيْنَ مَوْضِعِ حَمَامِ أَبِي بُرْدَةَ وَحَمَامِ عَمْرِ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ المَقْرَبِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُؤَلِّجُ

(١) الطغام : أوغاد الناس .

(٢) كتاب صفين : « حتى إذا جاز حد الكوفة » .

(٣) كتاب صفين ١٥٠

(٤) كتاب صفين ١٥١ .

(٥) نرس ، بالفتح ثم السكون وآخره سين مهملة : نهر حفره نرسی بن بهرام بنواحي الكوفة ؛ مأخذه من الفرات ، وعليه عدة قرى . (مراسد الاطلاع) .

اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ ، وَيُوجِ التَّهَار فِي اللَّيْلِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا وَقَبَ لَيْلٍ وَغَسَقَ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا
لَا ح نَجْم وَخَفَق .

ثم أقام حتى صلى الغداة ، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبَيْن^(١) ، وفيها نخل طُوال إلى
جانب البَيْعة من وراء النهر ؛ فلما رآها ، قال : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ . ثم
أفحم دابته النهر ، فعبر إلى تلك البيعة فنزلها ، ومكث قَدْرَ الغداء .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن مُحَمَّد بن سَلِيم قال : إني^(٢) لأنظر إلى
أبي وهو يسير عليا عليه السلام ، وعلى يقول له : إن بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها ، فحرك
دابتك لعلنا نصلي العصر خارجا منها . فحرك دابته ، وحرك الناس دوابهم في إثره ؛ فلما
جاز جسر الفرات^(٣) ، نزل فصلي بالناس العصر .

قال : حدثني عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة الثقفي ، عن أبيه ، عن عبد خير ، قال :
كنت مع عليّ أسير في أرض بابل ، قال وحضرت الصلاة صلاة العصر ، قال : فجعلنا
لأناتى مكانا إلا رأينا أفيح من الآخر ؛ قال : حتى أتينا على مكان أحسن مارأينا ؛ وقد
كادت الشمس أن تغيب . قال : فنزل عليّ عليه السلام ، فنزلت معه . قال : فدعا الله ،
فرجعت الشمس كقذارها من صلاة العصر ، قال : فصليت العصر ، ثم غابت الشمس ، ثم
خرج حتى أتى دير كعب ، ثم خرج منه فبات بساباط ، فاتاه دهاقينها يعرضون عليه
النزل^(٤) والطعام ، فقال : لا ، ليس ذلك لنا عليكم ، فلما أصبح وهو يُظلم سابات^(٥) ،

(١) قَيْن ، بالضم ثم الكسر والتشديد ؛ قال صاحب مراصد الاطلاع : « ولاية بالعراق » .

(٢) صفين ١٥١ ، والسند هناك : نصر : عمر ، عن رجل - يعني أبانخف ، عن ع ابن مخنف .

(٣) صفين : « جسر الصراة » ؛ والصراة من أنهار الفرات .

(٤) النزل : طعام الضيف .

(٥) مظلم سابات ؛ موضع مضاف إلى سابات التي بقرب المدائن ؛ قليل الضوء : مراصد الاطلاع ١٢٨٦

قرأ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١).

قال نصر وبلغ عمرو بن العاص مسيره فقال:

لَا تَحْسَبْنِي يَا عَلِيَّ غَافِلًا لِأُورِدَنَّ السُّكُوفَةَ الْقَنَابِلَا (٢)

* بِجَمْعِي الْعَامِّ وَجَمْعِي قَابِلًا *

قال: فبلغ ذلك عليًا عليه السلام، فقال:

لَأُورِدَنَّ الْعَاصِيَّ بِنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي
مُسْتَحْقِقِينَ حَلَقَ الدَّلَاصِ (٣) قَدْ جَمَبُوا الْخَيْلَ مَعَ الْقِلَاصِ (٤)

* أَسُودَ غَيْلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ *

[كلام على حين نزل بكر بلاء]

قال نصر: وحدثنا منصور بن سلام التميمي، قال: حدثنا حيان التميمي، عن أبي

عبيدة، عن هرثمة بن سليم، قال (٥): غزونا مع علي عليه السلام صيفين، فلما نزل
بكر بلاء صلى بنا، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واهالك ياترربة (٦)؛
ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب.

قال: فلما رجع هرثمة من غزاته (٧) إلى امرأته جرداء بنت سمير - وكانت من شيعة

على عليه السلام - حدثها هرثمة فيما حدثت، فقال لها: ألا أعجبك من صديقك أبي حسن!

(١) سورة الشعراء ١٢٨

(٢) القنابل: جماعات الخيل والناس.

(٣) مستحقين: حاملين، والدلاص: الدروع اللينة.

(٤) يقال: جنب الرجل الفرس إذا قاده إلى جنبه. والقلاص: جمع قلوب؛ وهي الشابة من الإبل؛ بمنزلة الجارية من النساء.

(٥) كتاب صيفين ١٥٧

(٦) صيفين: « واهالك أيتها التربة ».

(٧) صيفين: « من غزوته ».

قال : لما نزلنا كَرَبْلَاءَ ، وقد أخذ حَفَنَةً مِنْ تَرَبْتِهَا فَشَمَّهَا ، وقال : « واهالك أيتها التربة !
لِيُحْشَرَنَّ مِنْكَ قَوْمٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، وما علمه بالغيب ؟ فقالت المرأة له : دَعْنَا
مِنْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؛ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ إِلَّا حَقًّا .

قال : فلما بَعَثَ عُبيد الله بن زياد البعث الذي بَعَثَهُ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كُنْتُ
فِي الْخَلِيلِ الَّتِي بَعَثَ إِلَيْهِمْ ؛ فلما انتهيت إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ ، عَرَفْتُ الْمَنْزِلَ الَّذِي
نَزَلْنَا فِيهِ مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالبُقْعَةَ الَّتِي رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ تَرَبْتِهَا وَالْقَوْلَ الَّذِي قَالَه ،
فَكَرِهْتُ مُسِيرِي ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى فَرَسِي حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ،
وَحَدَّثْتُهُ بِالَّذِي سَمِعْتُ مِنْ أَبِيهِ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ ؛ فقال الْحُسَيْنُ : أَمَعْنَا أَمْ عَلَيْنَا ؟ فقلت :
يَا بِنَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا مَعَكَ وَلَا عَلَيْكَ ؛ تَرَكْتُ وُلْدِي وَعِيَالِي ^(١) أَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ ابْنِ زِيَادٍ ،
فقال الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَوَلِّ هَرَبًا حَتَّى لَا تَرَى مَقْتَلَنَا ^(٢) ؛ فوالَّذِي نَفْسُ حُسَيْنٍ ^(٣)
بِيَدِهِ لَا يَرَى الْيَوْمَ مَقْتَلَنَا أَحَدٌ ثُمَّ لَا يَمِينُنَا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

قال : فَأَقْبَلْتُ فِي الْأَرْضِ أَشَدَّ هَرَبًا ، حَتَّى خَفِيَ عَلَيَّ مَقْتَلُهُمْ .

قال نصر : وَحَدَّثَنَا مُصْعَبٌ ، قال : حَدَّثَنَا الْأَجْلَحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنْدِيُّ عَنْ
أَبِي جُحَيْفَةَ ، قال : جاء ^(٤) عُرْوَةُ الْبَارِقِيُّ إِلَى سَعْدِ بْنِ وَهَبٍ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ : حَدِيثُ
حَدَّثْتَنَاهُ ^(٥) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، قال : نَعَمْ بَعَثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمٍ إِلَى عَلِيٍّ ، عِنْدَ
تَوَجُّهِهِ إِلَى صِفِّينَ ، فَأَتَيْتُهُ بِكَرْبَلَاءَ ، فَوَجَدْتُهُ يُشِيرُ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ : هَاهُنَا ، هَاهُنَا ! فَقَالَ لَهُ

(١) صفين : « تركت أهلي وولدي » .

(٢) صفين : « حتى لا ترى لنا مقتلا » .

(٣) : « فوالذي نفس محمد » .

(٤) صفين ١٥٨

(٥) صفين : « حدثني » .

رجل : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ثَقَل لآل محمد ينزل هاهنا فويل لهم منكم ! وويل لكم منهم ! فقال له الرجل : ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار .

قال نصر : وقد روى هذا الكلام على وجه آخر ، أنه عليه السلام قال : « فويل لكم منهم ، وويل لكم عليهم » ؛ فقال الرجل : أما « ويل لنا منهم » ، فقد عرفناه ؛ فويل لنا عليهم ، ما معناه ؟ فقال : تَرَوْنَهُمْ يُقْتَلُونَ لَا تَسْتَطِيعُونَ نُصْرَتَهُمْ .

* * *

قال نصر : وحدثنا سعيد بن حكيم العبسي ، عن الحسن بن كثير ، عن أبيه ، أن^(١) عليا عليه السلام أتى كربة بلاء ، فوقف بها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، هذه كربة بلاء ، فقال : « ذات كربة وبلاء » ؛ ثم أوما بيده إلى مكان ، فقال : هاهنا موضع رحلهم ، ومُنَاخ ركبهم ؛ ثم أوما بيده إلى مكان آخر ، فقال : هاهنا مَرَأقُ دمائهم ، ثم مضى إلى ساباط .

[كلامه لأصحابه وكتبه إلى عماله]

وينبغي أن نذكر هاهنا ابتداء عزمه على مفارقة الكوفة، والمسير إلى الشام وما خاطب به أصحابه ، وما خاطبوه به ، وما كاتب به العمال وكاتبوه جوابا عن كتبه ؛ وجميع ذلك منقول من كتاب نصر بن مزاحم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال :^(٢) لما أراد علي عليه السلام المسير إلى الشام ، دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ؛ ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد ؛ فإنكم ميامين

(١) صفين ١٥٨

(٢) صفين ١٠٣

الرأى ، مَرَّاجِحِ الحِلْمِ ، مبارَكُو الأمرِ ، ومقاويل بالحقّ ؛ وقد عَزَمْنَا عَلَى المسيرِ إلى عَدَوْنَا وعدوكم ؛ فأشيروا علينا برأيكم .

قام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين ؛ فأنا بالقومِ جِدَّ خَبِيرٍ ؛ هم لك ولأشياعك أعداء ؛ وهم لمن يَطْلُبُ حَرْثَ الدنيا أولياء ؛ وهم مقاتلوك ومجادلوك^(١) لا يُبِقون جَهْدًا ، مشاحّةً على الدنيا ، وَضَنًّا بما فى أيديهم منها ؛ ليس لهم إزبة غيرها ؛ إلا ما يَخْدعون به الجُهال من طلب دم ابن عفان ؛ كذبوا ليس لدمه ينفرون ، ولكنّ الدنيا يطلبون ؛ انهض بنا إليهم ؛ فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال ؛ وإن أبوا إلا الشقاق ؛ فذاك ظنى بهم^(٢) ؛ والله ما أراهم يُبايعون ، وقد بَقِيَ فيهم أحدٌ ممن يطاع إذا نَهَى ؛ ويسمع إذا أمر .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود أن^(٣) عمار بن ياسر قام فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن استطعت ألا تُقيمَ يوما واحدا فافعل ، اشخص بنا قبل استعمارِ نارِ الفَجْرَةِ ، واجتماعِ رأيهم على الصدرد والفرقة ، وادْعُهُم إلى حَظِّهم ورشدهم ؛ فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ؛ وإن أبوا إلا حر بنا ، فوالله إن سَفَكَ دمايهم ، والجِدَّ فى جهادهم ، لقرُبة عند الله وكرامةً منه .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، انكَمِش^(٤) بنا إلى عدونا ولا تعرّج^(٥) ؛ فوالله لجهادهم أحبُّ إلى من جهاد الترك

(١) صفين : « مجاهدوك » .

(٢) صفين : « فذلك الظن بهم » .

(٣) كتاب صفين ١٠٤

(٤) الانكماش : الجِد في السير .

(٥) صفين : « لا تعرج »

والروم ؛ لإدهانهم^(١) في دين الله ، واستذلّاهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسوه وضربوه وحرّموه وسيّروه ، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين - قال :
يعنى رقيق .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزَيْمَةُ بن ثابت ، وأبو أيوب ؛ وغيرها : لم تقدّمتَ أشياخَ قومك وبدأتهم بالكلام يا قيس ! فقال : أما إني عارف بفضلكم ، معظمٌ لشأنكم ؛ ولكّني وجدتُ في نفسي الضغنُ الذي في صدوركم جاش حين ذكرتِ الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض : ليقمُ رجلٌ منكم فليُجبِ أميرَ المؤمنين عن جماعتكم ، فقام سهل بن حنيف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن سلّم لمن سلّمنا ، وحرّبت لمن حاربت ، ورأينا رأيك ، ونحن^(٢) يمينك ، وقد رأينا أن تقوم [بهذا الأمر]^(٣) في أهل الكوفة فتأمرهم بالشخص ، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل ، فإنهم أهلُ البلد ، وهم الناس ؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذي تُريد وتطلب ؛ فأما نحن فليس عليك خلاف مِنّا ، متى دعوتنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك .

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد ، عن أبي مخنف ، عن زكريا بن الحارث ، عن أبي خُشَيْب ، عن مَعْبُد ، قال : قام^(٤) على عليه السلام خطيباً على المنبر ، فكنتُ تحت المنبر ، أسمع تخر يرضه الناس ، وأمره لهم بالمسير إلى صَفِين لقتال أهل الشام ، فسمعتُهُ يقول :

(١) الإدهان النفس والحديعة .

(٢) صفين : « ونحن كف يمينك » .

(٣) من صفين

(٤) صفين ١٠٥

سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والشنن ، سيروا إلى بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار . فقام رجل من بني فزارة ، فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة ، فقتلتهم ! بلاء ، ها الله إذا لا نفعل ذلك .

فقام الأشتر ، فقال : مَنْ هذا المارق ! (١)

فهرب الفزاري ، واشتد الناس على إثره ، فلحق في مكانٍ من السوق تُباع فيه البراذين ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتل ؛ فأتى على عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، قُتل الرجل ، قال : وَمَنْ قَتَلَهُ ؟ قالوا : قتلته همدان ومعهم شوب من الناس ، فقال : قتل عمي ، لا يدري مَنْ قتله ، ديته من بيت مال المسلمين ؛ فقال بعض بني تيم اللات بن ثعلبة (٢) :

أعوذُ بربي أن تكونَ مِنِّي
كما ماتَ في سوقِ البراذينِ أربدُ
تعاوَرَه همدانُ خفقَ نعالُهُم
إذا رُفِعَتْ عنه يدٌ وُضِعَتْ يدُ

فقام الأشتر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يهدئك ما رأيت ، ولا يؤسّنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن ؛ إن جميع مَنْ ترى من الناس شيعتك ، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبون البقاء بعدك ، فإن شئت فسِر بنا إلى عدوك ، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطى البقاء مَنْ أحبه ، وإنا لعلّى بيّنة من ربنا ؛ وإن أنفستنا لن تموت حتى يأتي أجلاها ، وكيف لا نقاتل قوماً ، هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خلافتهم بغير من الدنيا يسير !

(١) صفين : « من لهذا أيها الناس » .

(٢) صفين : « فقال : علاقة النيمي » .

قال على عليه السلام : الطريق مُشْتَرَك ، والناس في الحقّ سواء ، ومَنْ اجتهد رأيه في نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه . ثم نزل فدخل منزله .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثني أبو زهير العبسي ، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتّم العبسي ، وحنظلة بن الربيع التميمي ؛ لما أمر^(١) على عليه السلام بالسير إلى الشام دَخَلَا عليه في رجال كثير من عَطْفَانِ وبنو تميم ، فقال له حنظلة : يا أمير المؤمنين ؛ إنا قد مشينا إليك في نصيحة فاقبلها ، ورأينا لك رأيا فلا تردّه علينا ، فإنّا نظرنا لك ولن معك ؛ أقمّ وكاتب هذا الرجل ، ولا تعجلْ إلى قتال أهل الشام ؛ فإنّا والله ما ندرى ولا تدرى لِمَنْ تكون القلبة إذا التقيتم ؛ ولا على مَنْ تكون الدّبرة !

وقال ابن المعتّم مثل^(٢) قوله ، وتكلم القوم الذين دخلوا معها بمثل كلامهما ، فحمد على عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال :

أما بعدُ فإن الله وارثُ العباد والبلاد ، وربّ السموات السبع ، والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتي الملك مَنْ يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ مَنْ يشاء ، ويذلّ مَنْ يشاء . أما الدّبرة ، فإنّها على الضالّين العاصين ، ظفروا أو ظفّر بهم ؛ وإيمُ الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرًا .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرياحي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن هؤلاء والله ما آثروك بنصّح ، ولا دخلوا عليك إلا بفسّ ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدو .

وقال له مالك بن حبيب : إنه بلغني يا أمير المؤمنين أنّ حنظلة هذا يكتب معاوية ، فادفعه إلينا نجسّه حتى تنقضي غزاتك ، وتنصرف .

(١) صفين ١٠٧

(٢) صفين : « وقام المعتّم فتكلم »

وقام من بنى عبس قائد بن بكير وعياش بن ربيعة العبسيان ، فقالا : يا أمير المؤمنين ؛ إن صاحبنا عبد الله بن المَعَمِّ قد بلغنا أنه يكتب معاوية ، فاحبسْه أو مكِّننا من حبسه ؛ حتى تنقضى غزاتك ثم تنصرف .

فقالا : هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عدوكم .
قال لهما على عليه السلام : الله بينى وبينكم ، وإليه أكلُكم ، وبه أستظهرُ عليكم ، اذهبوا حيث شئتم .

قال نصر : وبعث على عليه السلام إلى حَنْظَلَةَ بن الربيع المعروف بحَنْظَلَةَ الكاتب ، - وهو من الصحابة - فقال له : يا حَنْظَلَةَ ، أنت علىّ أم لى ؟ فقال : لا لك ولا عليك ؛ قال : فما تريد ؛ قال اشخص إلى الرها ^(١) ، فإنه فرج من الفروج ، اصمد له حتى ينتضى هذا الأمر .

فغضب من قوله خيار بن عمرو بن تميم وهم رهطه ؛ فقال : إنكم والله لا تعرفونى من دينى ، دعونى فأنا أعلم منكم . فقالوا : والله إن لم تخرج مع هذا الرجل لاندعُ فلانة تخرج معك - لأم ولده - ولا ولدها ، ولئن أردت ذلك لنقتلتك .

فأعانه ناس من قومه واخترطوا سيوفهم . فقال : أجلبونى حتى أنظر ، ودخل منزله وأغلق بابه ؛ حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية ، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير ، وهرب ابن المَعَمِّ أيضا ، حتى أتى معاوية فى أحد عشر رجلا من قومه .

وأما حَنْظَلَةَ فخرج إلى معاوية فى ثلاثة وعشرين رجلا من قومه ؛ لكنهما لم يقاتلا مع معاوية ، واعتزلا الفريقين جميعا .

(١) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام .

وقال : وأمر على عليه السلام يهدم دار حنظلة ، فهدمت ، هدمها عرب يفهم شبت بن ربيعي وبكر بن تميم ؛ فقال حنظلة بهجوما :

أياراكباً إتما عرَضتَ فبلغنْ مُغْلَفَلَةً عَنِّي سَرَاةَ بنِي عَمْرُو
أوصيكمُ باللهِ والبرِّ والتقى ولا تنظروا في النَّائِبَاتِ إلى بَكْرِ
ولا شَبْتِ ذِي المَنْخَرَيْنِ كَأَنه أَرَبٌ جِمالٍ قَد رَغَا لَيْلَةَ النَّفْرِ (١)

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبي سفيان :

أبلغ معاوية بن حَرَبِ خُطَّةً ولكل سائِلَةٍ تَسِيلُ قَرارُ
لَا تَقْبَلَنَّ دَنِيَّةً تَرْضَوْنَهَا (٢) في الأمرِ حَتَّى تُنْقَلَ الأَنْصارُ
وَكَما تَبَوَّأ دِماؤُهُم بِدِمائِكُمْ وَكَما تُهَدِّمُ بالِدْيَارِ دِيارُ
وتُرى نِساؤُهُم بِجِلْنِ حَواسِرِأ ولهنَّ من تِكلِ الرِجالِ جُوارِ (٣)

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن أبي الجاهد ، عن المحل بن خليفة ، قال : قام عدى بن حاتم الطائي بين يدي على عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :
(٤) يا أمير المؤمنين ، ما قلت إلا بعلم ، ولا دعوت إلا إلى حق ، ولا أمرت إلا برشد ؛ ولكن إذا رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستديمتهم حتى تأتيتهم كتبك ، ويقدم عليهم رُسُلك ، فعلت . فإن يقبلوا يُصيبوا رُشدَهم (٥) ، والعافية أوسع لنا ولهم ؛ وإن يتأدوا في

(١) الأرب : الكثير شعر الوجه والمنون ، وفي صفين :

* أَرَبٌ جِمالٍ في مَلاحِيَةِ صُفْرِ *
* * *

(٢) صفين : « تطونها »

(٣) صفين : « ولهن من تكل الرجال خوار » .

(٤) صفين ١١٠

(٥) صفين : « فإن يقبلوا يصبوا ويرشدوا »

الشُّقَاق ، ولا ينزعوا عن النِّعَى فسرُّ إليهم . وقد قدّمنا إليهم بالعدر ^(١) ، ودَعَوْنَاهُمْ إِلَى مَافِي أَيْدِينَا مِنَ الْحَقِّ ؛ فَوَاللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ أَبَدٌ ، وَعَلَى اللَّهِ أَهْوَنُ ؛ مِنْ قَوْمٍ قَاتَلْنَاهُمْ أَمْسَ بِنَاحِيَةِ الْبَصْرَةِ لَمَّا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ فَتَرَكُوهُ ، نَاوَجْنَاهُمْ بُرَاكَاءَ الْقِتَالِ ^(٢) ؛ حَتَّى بَلَّغْنَا مِنْهُمْ مَا نَحِبُ ، وَبَلَّغَ اللَّهُ مِنْهُمْ رِضَاهُ .

فَقَامَ زَيْدُ بْنُ حُصَيْنِ الطَّائِي وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْبِرَانِسِ ^(٣) الْمُجْتَهِدِينَ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ حَتَّى يَرْضَى ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبَّنَا ، أَمَا بَعْدُ : فَوَاللَّهِ إِنْ كُنَّا فِي شَكٍّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَنَا ، وَلَا تَصْلَحُ لَنَا النَّيَّةُ فِي قِتَالِهِمْ حَتَّى نَسْتَدِيمَهُمْ وَنَسْتَأْنِيَهُمْ . مَا الْأَعْمَالُ إِلَّا فِي تَبَابٍ ، وَلَا السَّعْيُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ^(٤) ؛ إِنَّا وَاللَّهِ مَا ارْتَبْنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ فَيَمُنُ يَتَّبِعُونَهُ ^(٥) ، فَكَيْفَ بِأَتْبَاعِهِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ ، الْقَلِيلِ مِنَ الْإِسْلَامِ حَظَّهُمْ ، أَعْوَانِ الظُّلْمَةِ وَأَصْحَابِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ ؛ لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَلَا الْأَنْصَارِ ، وَلَا التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ طَيْيٍّ فَقَالَ : يَا زَيْدُ بْنُ حُصَيْنِ ، أَكَلَامَ سَيِّدِنَا عَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ تَهَجَّنَ ^(٦) ! فَقَالَ : زَيْدٌ مَا أَنْتُمْ بِأَعْرَفَ بِحَقِّ عَدِيِّ مَنِّي ، وَلَكِنِّي لَا أَدْعُ الْقَوْلَ بِالْحَقِّ وَإِنْ سَخِطَ النَّاسُ .

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين ^(٧) قال : دخل أبو زينب

(١) صفين : « العذر »

(٢) البراكاء : الابتراك في الحرب ؛ وهو أن يجثو القوم على ركبهم . ، ويقال وجن به ، أى ضرب به الأرض ، وفي صفين : « ناوخنهم »

(٣) جمع برنس ؛ وهو قلنسوة طويلة كانت يلبسها في صدر الإسلام النساك والزهاد .

(٤) سورة الضحى . . .

(٥) صفين : « يبتغون دمه » .

(٦) في صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فقال عدى بن حاتم : الطريق مشترك ، والناس في الحق سواء ؛ فمن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فقد قضى الذي عليه » .

(٧) صفين ١١٢ : « الحارث بن حصيرة »

ابن عوف ، عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لئن كُنَّا عَلَى الْحَقِّ ، لَأَنْتَ أَهْدَانَا سَبِيلًا ، وَأَعْظَمْنَا فِي الْخَيْرِ نَصِيبًا ؛ وَلئن كُنَّا عَلَى ضَلَالٍ ، إِنَّكَ لَأَتَقَلُّنَا ظَهْرًا وَأَعْظَمْنَا وَزْرًا ؛ قَدْ أَمَرْتَنَا بِالْمَسِيرِ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ ، وَقَدْ قَطَعْنَا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوَلَايَةِ ، وَأَظْهَرْنَا لَهُمُ الْعِدَاوَةَ ؛ نَرِيدُ بِذَلِكَ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ طَاعَتِكَ ؛ أَلَيْسَ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ عَدُوُّنَا هُوَ الْحَوْبُ الْكَبِيرُ !

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَلِيَّ شَهِدْتَ أَنَّكَ إِنِّ مَضَيْتَ مَعَنَا نَاصِرًا لِدَعْوَتِنَا ، صَحِيحُ النِّيَّةِ فِي نَصْرِنَا ، قَدْ قَطَعْتَ مِنْهُمْ الْوَلَايَةَ ، وَأَظْهَرْتَ لَهُمُ الْعِدَاوَةَ كَمَا زَعَمْتَ ؛ فَإِنَّكَ وَلِيُّ اللَّهِ ، تَسْبِيحٌ ^(١) فِي رِضْوَانِهِ ، وَتَرْكُضٌ فِي طَاعَتِهِ ، فَابْشِرْ يَا زَيْنَبُ .

وَقَالَ لَهُ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ : اثْبُتْ يَا زَيْنَبُ ، وَلَا تَشْكُ فِي الْأَحْزَابِ ، أَعْدَاءُ ^(٢) اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

فَقَالَ أَبُو زَيْنَبٍ : مَا أَحَبَّ أَنْ لِي شَاهِدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ شَهِدُوا لِي عَمَّا سَأَلْتَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي أَهْمَنِي ، مَكَانِكَا .

قَالَ وَخَرَجَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وَهُوَ يَقُولُ :

سِيرُوا إِلَى الْأَحْزَابِ أَعْدَاءَ النَّبِيِّ سِيرُوا وَافْخِرُوا النَّاسُ أَتْبَاعُ عَلِيٍّ
هَذَا أَوْانٌ طَلَبَ سَلَّ الْمَشْرِفِيُّ وَقودُنَا الْخَيْلُ وَهَزُّ السَّمْهَرِيِّ

* * *

قَالَ نَصْرٌ : وَحَدَّثَنَا عَمْرُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنْ أَبِي رَوْحٍ ، قَالَ : ^(٣) دَخَلَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ الْأَرْحَبِيُّ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ نَحْنُ أَوْلُو جِهَازٍ وَعِدَّةٌ وَأَكْثَرُ

(١) صفين : « تسبيح »

(٢) صفين : « عدو الله ورسوله » .

(٣) صفين ١١٣

الناس أهل قوّة ، ومنّ ليس به ضَعْفٌ ^(١) ولا عِلّة ، فرُ منادِيكَ ؛ فلينادِ الناسِ يخرجوا إلى معسكرهم بالنّخيلة ؛ فإنّ أخا الحرب ليس بالسّوم ولا النّوم ، ولا منّ إذا أمكنته الفرص أجّلتها ، واستشار فيها ؛ ولا منّ يؤخّر عمل الحرب في اليوم لغدٍ وبعده غدٍ .

فقال زياد بن النضر : لقد نصح لك يزيدُ بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال ما يعرف ، فتوكل على الله ، وثق به ، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً ؛ فإن يرد الله بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك ^(٢) إلى منّ ليس له مثلُ سابقتكِ وقدميك ^(٣) ؛ وإلا يُنيبوا ويقبلوا وأبوا إلا حر بنا نجد حربهم علينا هيّنا ؛ ونرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم ثمّ بالأمس .

ثم قام عبدُ الله بن بدّيل بن ورّقاء الخزاعيّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ القوم لو كانوا الله يريدون ، والله يعملون ، ما خالفونا ؛ ولكنّ القوم إنّما يقاتلوننا فراراً من الأُسوة وحبّاً للأثرة ، وضناً بسطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحن في نفوسهم ، وعداوة يحدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وأخوانهم ^(٤) .

ثم التفت إلى الناس ، فقال : كيف يُبايع معاوية عليا ، وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاء الوليد ، وجدّه عُتبة في موقفٍ واحد ؛ والله ما أظنهم يفعلون ، ولن يستقيموا لكم دون أن تُقصفَ فيهم قنأ المران ^(٤) ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتنثر حواجهم بعمد الحديد ، وتكون أمورٌ جمّة بين الفريقين .

(١) صفين : « ومن ليس بمضعف » .

(٢-٢) صفين : « إلى من ليس مثلك في السابقة مع النبي صلى الله عليه وآله والقدم في الإسلام »

(٣) صفين : « وإخوانهم » .

(٤) صفين : « تقصد » ، وهى بمعنى « تقصف » والمران : الرماح الصلبة اللدنة .

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين^(١) عن عبد الله بن شريك، قال: خرج حُجْر بن عدِيٍّ وعمرو بن الحَمِقِ، يُظهريان البراءة من أهل الشام؛ فأرسل عليّ عليه السلام إليهما أن كُفَا عَمَّا يَبْلُغُنِي عَنْكُمَا، فأتياه، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا محقّين! قال: بلى؛ قالا: أوليسوا مُبْطِلِينَ؟ قال: بلى؛ قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟ قال: كرهتُ لكم أن تكونوا لِعَتَانِينَ شَتَامِينَ تَشْتَمُونَ وتُتَبَرَّأُونَ؛ ولكن لو وصفتُم مساوِيَ أعمالهم فقلتُم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصوبَ في القول، وأبلغَ في العذر؛ وقلتُم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءهم ودماءنا، وأصلِح ذات بينهم وبيننا، واهدِهِم من ضلالتهم حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جَهَلَهُ، ويرعوي عن الفئ والعُدوان منهم من لهج به - لكان أحبَّ إلى وخيراً لكم.

فقالا: يا أمير المؤمنين، نقبلُ عِظَتَكَ، وتنادبُ بأدبِكَ.

قال نصر: وقال له عمرو بن الحَمِقِ يومئذ: والله يا أمير المؤمنين إني ما أحببتك ولا بابتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة مالٍ تُؤتينيهِ، ولا التماسِ سلطانٍ ترفع ذكرى به؛ ولكنني أحببتك بخصال خمس: إنك ابنُ عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ووصيُّه، وأبو الذرية التي بقيت؛ فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأسبقُ الناس إلى الإسلام، وأعظمُ المهاجرين سَهْمًا في الجهاد؛ فلو أني كُفِّتُ نقلَ الجبالِ الرَواسِي، ونزحَ البحور الطوامي؛ حتى يأتي عليّ يومٍ في أمرٍ أقوِّى به وليك، وأهينُ عدوك؛ ما رأيت أني قد أديت فيه كلَّ الذي يحقُّ عليّ من حَقِّكَ.

فقال عليّ عليه السلام: اللهم نوِّر قلبه بالتقى، واهدِهِ إلى صراطك المستقيم^(٢)،

(١) صفين ١: ٥ : « حصيرة » .

(٢) صفين : « إلى صراط مستقيم » .

لَيْتَ أَنْ فِي جُنْدِي مِائَةٌ مِثْلَكَ . فَقَالَ حُجْرٌ : إِذَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، صَحَّ جَنْدُكَ ،
وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَفْشِكُ .

قال نصر : وقام حُجْرُ بن عدى ، فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، نحن بنو الحَرْبِ وأهلُها
الذين نُلَقِّحُها ونُنْتَجِبُها ، قد ضارستنا وضارسناها ؛ ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذات عدد ورأى
مجرَّب ، وبأس محمود ، وأزمتنا منقاداً لك بالسمع والطاعة ، فإن شرقت شرقتنا ، وإن
غرَّبت غرَّبت بنا ، وما أمرتنا به من أمرٍ فعلنا . فقال على عليه السلام : أكل قومك يرى
مثل رأيك ، قال : ما رأيتُ منهم إلا حُسناً ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن
الإجابة . فقال له على عليه السلام خيراً .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، قال : ^(١) كتب على عليه السلام إلى عماله حينئذ
يستفزهم ، فكتب إلى مخنف بن سليم :

سلامٌ عليك ؛ فإنى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد ، فإنَّ جهادَ مَنْ
صَدَفَ عن الحقِّ رغبةً عنه ، وهبَ فى نَعاسِ العَمى والضلالِ ؛ اختياراً له فرِضةً على
العارفين ؛ إنَّ اللهَ يَرْضَى عَمَّنْ أَرْضاهُ ، وَيَسْخَطُ عَلَى مَنْ عَصاهُ ؛ وإنا قد هممنا بالسَّ
إلى هؤلاء القوم الذين سَمِعُوا فى عبادِ الله بغير ما أنزل اللهُ ، واستأثروا بالقيءِ ، وعطَّلوا
الحدودَ ، وأماتوا الحقَّ ، وأظهروا فى الأرض الفسادَ ، واتخذوا الفاسقين وليجَّةً من دون
المؤمنين ؛ فإذا ولىَّ اللهُ أعظمَ أحدائهم أبغضوه وأقصوه وحرَّموه ، وإذا ظالم ساعدهم على
ظلمهم أحبوه ، وأدنَّوه وبرَّوه ؛ فقد أصروا على الظلم ، وأجمعوا على الخلاف : وقديماً
ما صدَّوا عن الحقِّ ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين . فإذا أتيتَ بكتابى هذا ،
فاستخلفِ على عَمَلِكِ أوثقَ أصحابك فى نفسك ، وأقبلِ إلينا ، لعلك تنقَى معنا هذا العدو

المحلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع الحقّ ، وتباين المبتل ؛ فإنه لا غنّاء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .
وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مَخْنَفَ على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع ، واستعمل على هَمْدَانَ سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع عليّ عليه السلام صفين .
قال نصر : وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى عليّ عليه السلام يذكر له اختلافَ أهل البصرة ، فكتب إليه عليّ عليه السلام : [من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس]^(١) :

أما بعدُ ؛ فقد قدِمَ عليّ رسولك ، وقرأتُ كتابك ، تذكُرُ فيه حالَ أهل البصرة واختلافهم بعد انصرافي عنهم ، وسأخبرك عن القوم ؛ وهم بين مقيمٍ لرغبة يرجوها ، أو خائفٍ من عقوبة يخشاها ، فأزغب راغبهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والإحسان إليه ؛ واحلُّ عُقْدَةَ الخوف عن قلوبهم ، وانتهِ إلى أمرى ولا تعدّه ، وأحسنِ إلى هذا الحى من ربيعة وكلّ من قبلك فأحسن إليه ما استطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعماله كلهم بنحو ما كتب به إلى مَخْنَفَ بن سليم ، وأقام ينتظرم .

قال : فحدثنا عمر بن سعد ، عن أبي رَوْقٍ ، قال^(٢) : قال زياد بن النضر الحارثي لعبدالله ابن بُدَيْل : إن يومنا اليوم عَصَبَصَبٌ^(٣) ما يبصر عليه إلا كل مشيِّع^(٤) القلب ، الصادق

(١) من صفين

(٢) صفين ١٢٤

(٣) العصبب : الشديد ، وفي صفين : « عصبب »

(٤) المشيِّع القلب : القوى الجاد الشجاع

النِّية ، رابط الجأش^(١) ؛ وإيم الله ما أظنّ ذلك اليوم يبقى منهم ؛ ولا منا إلا الرّذال^(٢) .
فقال عبد الله بن بُدَيْل : أنا والله أظنّ ذلك . فبلغ كلامهما عليّاً عليه السلام ، فقال
لهما : ليكنّ هذا الكلام مخزوناً في صدوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع ؛ إن الله
كتبَ القتلَ على قومٍ ، والموتَ على آخرين ، وكلُّ آتية منيته كما كتب الله له ،
فطوبى للمجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته !

قال نصر : فلما سمع هاشم بن عُتْبَةَ ما قالاه ، أتى علياً عليه السلام ، فقال : سر بنا
يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم ، القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ،
وعَمِلُوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلُّوا حرامه ، وحرّموا حلاله ، واستهوى بهم^(٣)
الشیطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانى ؛ حتى أزاعهم ، عن الهدى ، وقصد بهم
قصد الرّدى ، وحبّ إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ؛ كرغبنا في الآخرة
وانتجاز موعده ربنا ؛ وأنت يا أمير المؤمنين أقربُ الناس من رسول الله صلى الله عليه
رحمًا ، وأفضلُ الناس سابقه وقدمًا ؛ وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ؛
ولسكن كُتِبَ عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطاً لك
بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحةٌ لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنضرك كلّى من خالفك ،
وتولى الأمر دونك جدلّةً ، والله ما أحبّ أن لي ما على الأرض فما أقلت ، ولا ما تحت
السماء فما أظلت ؛ وأنى واليتُ عدواً لك ؛ وعاديتُ ولياً لك !

فقال عليه السلام : اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك ، والموافقة لنيبك .

قال نصر : ثم إن علياً عليه السلام ضَعِدَ المنبر فخطب الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، فبدأ
بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

(١) الجأش : القلب ؛ وفلان رابط الجأش ؛ أى شجاع لا يضطرب قلبه خوفاً .

(٢) الرذال ، والرذيل : ما اتقى جیده وبقي أخسه وأدونه .

(٣) صفين : • واستولاهم •

إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فأنصبوا أنفسكم في أداء حَقِّه ، وتنجَّزُوا موعوده ، واعلموا أن الله يعلم أمرَاس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ؛ ثم جعل الطاعة حظَّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفریط العجزة ^(١) ، وقد حُمِلت أمر أسودها وأحمرها ، ولا قوة إلا بالله ! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول مائيس له وما لا يدركه معاوية وجنده ، الفئة الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويُبرق لهم بيارق تسويغه ، ويدلِّيمهم بغروره ؛ وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ؛ فاستغفروا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ؛ واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته ، والمعرور من آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرَفَنَ أحداً منكم تقاعس عني ، وقال : في غيري كفاية ؛ فإن الذود إلى الذود إبل ، ومن لا يذُدُّ عن حوضه يتهدم ! ثم إنى أمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وأن لا تغتابوا مسلماً ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

قال نصر : ثم قام ابنه الحسن بن علي عليهما السلام ، فقال :

الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له .

ثم قال : إن مما عَظَّم الله عليكم من حَقِّه ، وأسبغ عليكم من نِعْمه ما لا يحصى ذكره ؛ ولا يؤدِّي شكره ، ولا يبلغه قولٌ ولا صفة ؛ ونحن إنما غضبنا لله ولكم ؛ إنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتدَّ أمرهم ، واستحكمت عُقدتهم . فاحتشدوا في قتل عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تخاذلوا ، فإن الخذلان يقطعُ نياط القلوب ؛ وإن الإقدام على الأستة نحوه وعِصمة ؛ لم يتمنع ^(٢) قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

(١) صفين : « الفجرة » ؟

(٢) صفين : « لم يتمنع » ، والتمنع والامتناع : العز والقوة .

والصِّلْحُ تَأْخُذُ مِنْهُ مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعٌ^(١)

ثم قام الحسين بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : يا أهل الكوفة ، أتم الأحيّة الكرماء ، والشّعار دون الدّثار ، جدّوا في إطفاء مادّثر بينكم ، وتسهيّل^(٢) ماتوعر عليكم ، ألا إنّ الحرب شرّها . ذرّيع وطعمها فظيع ؛ فمن أخذها أهبتها ، واستعدت لها عدتها ، ولم يألَمْ كلُّومها قبل حلولها ، فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمنٌ ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه ، نسأل الله بقوته أن يدعكم بالفَيْثَة^(٣) ثم نزل .

قال نصر : فأجاب علياً عليه السلام إلى السير جُلّ الناس ؛ إلا أنّ أصحاب عبد الله بن مسعود أتوه ، فيهم عبّيدة السّمانيّ وأصحابه ، فقالوا : له إنا نخرج معكم ، ولا نترك عسكركم ونعسكر على حدّة ، حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام ؛ فمن رأيناه أراد مالا يحلّ له أو بدأ لنا منه بغيٌّ كُنّا عليه . فقال لهم على عليه السلام : مرّحبا وأهلا ؛ هذا هو الفقه في الدين ، والعلم بالسنة ، من لم يرض بهذا فهو خائن جبار^(٤) .

وأناه آخرون من أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ منهم الربيع بن خنيم ؛ وهم يومئذ أربعائة رجل ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنّا قد شككنا في هذا القتال ؛ على معرفتنا بفضلك ، ولا غناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمّن يقاتلُ العدو ؛ فولّنا بعض هذه الثغور نكمن^(٥) ثم نقاتل عن أهله ؛ فوجه على عليه السلام بالربيع بن خنيم على ثغر الرمي ، فكان أول لواء عقده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خنيم .

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمي ، الخزانة : ٢ : ٨٢

(٢) صفين : « إسهاال »

(٣) صفين : بألفته «

(٤) صفين : الجهاد

(٥) صفين : « جائر »

(٥) صفين : « تكون به »

قال نصر : وحدثني عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ؛ أن ^(١) عليا عليه السلام لم يبرح النخيلة ، حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة . قال : وكان كتاب علي عليه السلام إلى ابن عباس :

أما بعدُ ، فاشخصْ إلى بَنِّ قِبَلِكَ من المسلمين والمؤمنين ، وذكّرهم بلائى عندهم ، وعَفَوِي عنهم في الحرب ، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل ، والسلام .

قال : فلما وصل كتابه إلى ابن عباس بالبصرة ، قام في الناس ، فقرأ عليهم الكتاب ، وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أيها الناس ، استعدّوا للشُّخُوصِ إلى إمامكم ، وانفروا خِفَافًا وثِقَالًا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ؛ فإنكم تقاتلون المحلِّين القاسطين ؛ الذين لا يقرءون القرآن ، ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يدِينون دينَ الحق ؛ مع أمير المؤمنين ، وابن عمِّ رسول الله ، الأمرِ المعروف ، والناهي عن المنكر ، والصادع بالحق ، والقيّم بالهدى ، والحاكم بحكم الكتاب الذي لا يرثى في الحكم ، ولا يُدهن البُجَّار ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم .

فقام إليه الأحنفُ بن قيس ، فقال : نعم والله لنجيبَنَّك ، ولنخرجنَّ معك على العُسر واليسر ، والرضا والكُره ، نحتسب في ذلك الأجر ، ونأملُ به من الله العظيم حسنَ الثواب . وقام خالد العمر السدوسي ، فقال : سمعنا وأطعنا ؛ فمضى استنفرتَنَا نَفَرْنَا ، ومتى دعوتنا أجبتنا .

وقام عمرو بن مرحوم العبدى ، فقال : وفقَّ الله أمير المؤمنين ، وجمع له أمرَ المسلمين ،

ولعن الملحّين القاسطين ، لا يقرءون القرآن ؛ نحن والله عليهم حنقون ، ولهم في الله مفارقون ؛
فمَتَى أردتْنَا صحبتك خيَلْنَا (١) ورجألنا إن شاء الله .

قال : وأجابَ الناسُ إلى السير ، ونَشطوا وخَفُوا ؛ فاستعمل ابنُ عباسٍ على البَصْرَةَ
أبا الأسود الدُّؤليّ ، وخرج حتى قدم على عليّ عليه السلام بالنُّخَيْلَةِ ،

[كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية وجوابه عليه]

قال نصر : وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية :

من محمد (٢) بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر ، سلامٌ على أهل طاعة الله
يَمَن هو سِلْمٌ (٣) لأهل ولاية الله . أما بعد ؛ فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانهِ وقدرته ، خَلَقَ
خَلْقًا بلا عَيْبٍ ولا ضَعْفٍ في قوته ؛ لا حاجة به إلى خَلْقِهِمْ ، ولكنه خَلَقَهُمْ عبيداً ،
وجعل منهم شقياً وسعيداً ، وغويّاً ورشيداً ، ثم اختارهم على عِلْمِهِ ، فاصطفى وانتخب
منهم محمداً صلى الله عليه وآله ، فاخْتَصَّهُ برسالته ، واختاره لوحيه ، واثمنه على أمره ،
وبعثه رسولا مصدقاً لما بين يديه من الكتب ، وُدليلاً على الشرائع ؛ فدعا إلى سبيل أمره
بالْحِكْمَةِ والموعظة الحسنة ؛ فكان أوَّلَ مَنْ أَجابَ وأَنابَ ، وصدَّقَ [ووافق] (٤) فأسلم
وسلّم ، أخوه وابنُ عمِّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فصدّقه بالغيب المكتوم ، وآثره
على كلِّ حَمِيمٍ ، ووقاه كلَّ هَوولٍ ، وواساه بنفسه في كلِّ خوفٍ ؛ فخارب حَرَبَهُ ، وسالم
سِلْمَهُ ؛ فلم يبرحُ مبتدِلاً لنفسه في ساعات الأزل (٥) ، ومقامات الرّؤع ؛ حتى برز سابقاً

(١) صفين : « ورجلنا »

(٢) في صفين : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبي بكر .

(٣) صفين : « مسلم »

(٤) من صفين

(٥) الأزل : الشدة والضيق .

لا نظيره في جهاده ، ولا مقاربه له في فعله ؛ وقد رأيتك تساميه وأنت أنت ؛ وهو هو السابق المبرز في كل خير ؛ أول الناس إسلاما ، وأصدق الناس نية ، وأطيب الناس ذرية ، وأفضل الناس زوجة ، وخير الناس ابن عم . وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تنزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله العوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ؛ وتجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتحالفان في ذلك القبائل ؛ على هذامات أبوك ، وعلى ذلك خلفته ، والشاهد عليك بذلك من يأوى ويلجأ إليك ؛ من بقية الأحزاب ورءوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ والشاهد لعلّي مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ، ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ؛ فهم معه كتائب وعصائب ؛ يجالدون حوله بأسياهم ، ويهرقون دماءهم دونه ؛ يرون الفضل في اتباعه ، والشقاق والعصيان في خلافه ؛ فكيف يالك الويل ! تعدل نفسك بعلّي ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأبو ولده ، وأول الناس له اتباعا ، وآخرهم به عهدا ، يخبره بسرّه ، ويشرّكه في أمره ؛ وأنت عدوّه ؛ وابن عدوّه ، ما استطعت بباطلك ولמידدك ابن العاص في غوايتك ؛ فكأن أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وهى ، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنك إنما تكايد ربك الذي قد أمّنت كيدك ، وأيسّنت من روحه ، وهو لك بالمرصاد ؛ وأنت منه في غرور بالله ، وبأهل بيت رسوله عنك الفناء! والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبي سفيان، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر ، سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد ؛ فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه ، وما أصفى به نبيه ، مع كلام ألقته ووضعتّه ؛ لرأيك فيه تضييف ، ولأبيك فيه تعنيف ؛ ذكرت حقّ

ابن أبي طالب وقديم سابقته ، وقرابته من نبي الله ونصرتة له ، ومواساته إياه ؛ في كل خوف وهول ؛ واحتجاجك على ، وفرك بفضل غيرك ؛ لافضلك . فاحمد إلهما صرف ذلك الفضل عنك ، وجعله لغيرك ؛ فقد كُنّا وأبوك معنا في حياة نبينا ؛ نرى حق ابن أبي طالب لازما لنا ، وفضله مبرزا علينا ؛ فلما اختار الله لنبية ما عنده ، وأتم له ما وعدّه ، وأظهر دعوتّه ، وأفاج حُجّته ، قبضه الله إليه ، فكان أبوك وفاروقه ، أول من ابتزّه وخالفه ؛ على ذلك اتفقوا واتسقا^(١) ؛ ثم دعواهُ إلى أنفسهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهما به المموم ؛ وأرادا به العظيم ؛ فبايعهما وسلم لهما ، لا يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما ؛ حتى قبضا وانقضى أمرهما . ثم أقاما بعدها ثالهما عثمان بن عفان ، يهتدي بهديهما ، ويسير بسيرتهما ، فعبتّه أنت وصاحبك ، حتى طمع فيه الأفاصي من أهل المعاصي ، وبطننا له وظهرت^(٢) ، وكشفتماله عداوتكما وغلّكما ، حتى بلغتما منه مناكما ؛ فخذ حذرَك يا ابن أبي بكر ، فستري وبال أمرك ، وقس شبرك بفترك ، تقصُر عن أن تساوي أو توازي من يزن الجبال حله ، ولا تلين على قسر قناته ، ولا يدرك ذو مدى أناته ، أبوك مهمله مهاده ، وبني مُلكه وشاده ؛ فإن يكن ما نحن فيه صوابا فأبوك أوله ، وإن يكن جوراً فأبوك أسه^(٣) ونحن شركاؤه ، فبهديه أخذنا ، وبفعله اقتدينا ؛ رأينا أباك فعل مافعل ، فاحتدينا مثاله ، واقتدينا بفعله ، فعب أباك بما بدالك ، أودع ، والسلام على من أناب ورجع من غوايته وناب .

قال: وأمر على عليه السلام الحارث الأعور أن ينادي في الناس : اخرجوا إلى معسكركم

(١) صفين : « وانشقا »

(٢) صفين : « أظهرت »

(٣) صفين : « أسه » .

بالتَّخِيلَةِ ، فنَادَى الحَارِثُ فِي النَّاسِ بِذَلِكَ ، وَبَعَثَ إِلَى مَالِكِ بْنِ حَبِيبِ الْيَرْبُوعِيِّ صَاحِبِ شَرْطَتِهِ ، بِأَمْرِهِ أَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْكَرِ ، وَدَعَا عُقْبَةَ بْنَ عَمْرِو الْأَنْصَارِيَّ ، فَاسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْكُوفَةِ - وَكَانَ أَصْفَرَ أَصْحَابِ الْعُقْبَةِ السَّبْعِينَ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَخَرَجَ النَّاسُ مَعَهُ .

قال نصر: ودعا على عليه السلام زياد بن النَّضْر ، وشريح بن هاني - وكانا على مَذْحِجِ الْأَشْعَرِيِّينَ - فقال : يا زياد ، اتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ مُنْمَسِيٍّ وَمُصْبِحٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ ؛ وَلَا تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَزَعْهَا عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تَحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَّتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعًا وَازْعًا مِنَ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ؛ فَإِنِّي قَدْ وَلَيْتُكَ هَذَا الْجُنْدَ ، فَلَا تَسْتَطِيلَنَّ عَلَيْهِمْ ؛ إِنْ خَيْرَ كَمَ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ؛ تَعَلَّمْ مِنْ عَالِمِهِمْ ؛ وَعَلَّمْ جَاهِلِيهِمْ ، وَاحْلَمْ عَنْ سَفِيهِهِمْ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا تَدْرَكَ الْخَيْرَ بِالْحِلْمِ وَكَفَّ الْأَذَى وَالْجَهْلَ (١) .

قال زياد : أَوْصَيْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَافِظًا لَوْصِيَّتِكَ مُؤَدِيًا لِأَرْبَابِكَ ، يَرَى الرُّشْدَ فِي نَفَازِ أَمْرِكَ ، وَالنَّعْيَ فِي تَضْيِيعِ عَهْدِكَ .

فأمرها أن يأخذًا في طريق واحد ولا يختلفا ، وبعثهما في اثني عشر ألفا على مقدمته ، وكلُّ واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش ؛ فأخذ شريح يعتزلُ بمن معه من أصحابه على حدة ، ولا يقرب زيادا ، فكتب زياد إلى علي عليه السلام مع مَوْالِي له . يقال له شوذب :

لعبد الله علي - أمير المؤمنين ؛ من زياد بن النَّضْر .

سلام عليك ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدَ ؛ فَإِنَّكَ وَلَيْتَنِي أَمْرَ

الناس ؛ وإن شَرِيحاً لا يرى بي عليه طاعة ولا حقا ؛ وذلك من فعله بي استخفاف بأمرك ،
وترك لمهدك ، والسلام .

وكتب شريح بن هاني إلى علي عليه السلام :

لعبد الله علي أمير المؤمنين من شريح بن هاني ، سلام عليك ؛ فإني أحمد الله إليك
الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإن زياد بن النضر حين أشركته في أمرك ، ووليته جنداً
من جنودك ، طغى واستكبر ، ومال به العُجب والخيلاء والزَّهو إلى ما لا يَرْضَى الله تعالى به
من القول والفعل ؛ فإن رأى أمير المؤمنين عليه السلام أن يعزله عَنَّا ويبعث مكانه مَنْ
يحبّ فليفعل ؛ فإننا له كارهون ، والسلام .

فكتب علي عليه السلام إليهما :

من عبد الله علي^(١) أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هاني سلام عليكما ،
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإني قد ولّيتُ مقدمتي زيادَ
ابن النضر ، وأمرته عليها ، وشريح بن هاني عَلى طائفة منها أمير ؛ فإن اتهمى جمعكما إلى بأس
فزياد بن النضر عَلى الناس كلهم ؛ وإن افترقتما ، فكلُّ واحدٍ منكما أميرُ الطائفة التي
وليناها أمرها ؛ واعلمنا أن مقدمة القوم عُيونهم ، وعيونُ المقدمة طلائعهم ؛ فإذا أتما خَرَجْتُمَا
من بلادكما فلا تسأما من توجّيه الطلائع ؛ ومن نقضِ الشَّعاب^(٢) والشَّجر والخمر^(٣)
في كلِّ جانب ؛ كي لا يفتركا عدو ، أو يكون لهم كمين ، ولا تسيرنَّ الكتائب والقبايل
من لدن الصُّباح إلى المساء إلا على تعبئة ، فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه ، كنتم قد تقدمتم
في التعبئة ، فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكرُكم في قبيل الأشراف أو سفاح^(٤)

(١) صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

(٢) يقال : نقض المكان ينفسه ؛ إذا نظر جميع ما فيه حتى يعلم منه ؛ ومنه قول زهير :

وتنفض عنها غيب كلِّ خميلةٍ وتخشى رماة الغوث من كلِّ مرصدٍ

والشعاب : جمع شعبة ؛ وهي ما انشعب وتفرع من الوادي .

(٣) الخمر : ما وارى الإنسان من شجر ونحوه .

(٤) الأشراف : جمع شرف ؛ وهي الأماكن العالية . وسفاح الجبال أسافلها .

الجبال وأثناء النهار؛ كما يكون ذلك لكم رِذَاءً وتكون مقاتلتكم من وَجْهِ واحد أو اثنين؛ واجعلوا رقباء كما^(١) في صياصي الجبال، وبأعلى الأشراف، ومناكب الأنهار يروون لكم، كي لا^(٢) يأتيتكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن. وإياكم والتفرق؛ فإذا نزلتم فانزلوا جميعا، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا؛ فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحتموا عسكركم بالرمح والترسة، ولتكن رماطكم من وراء تراسيكم ورماحكم يلونهم. وما أقمتم فلكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تُدنى لكم غرّة، فسا قوم يحفون عسكرهم برماحهم وترستهم^(٣) من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون. واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نومًا حتى تُصبحا إلا غرارا أو مضمضة^(٤). ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنهيا إلى عدوكما؛ وليكن كل يوم عندى خبركما ورسولٌ من قبيلكما. فإني - ولا شيء إلا ما شاء الله - حثتُ السَّير في أثركما، عليكم في جربكما^(٥) بالثوذة، وإياكما والعجالة؛ إلا أن تمكنا فرصة بعد الإعذار والحجة؛ وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما؛ إلا أن تُبدآ، أو يأتيتكما أمرى، إن شاء الله.

قال نصر: ^(٦) وكتبَ عليّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد

- وكان قد قسم عسكره أسباعًا، فجعل على كل سبعٍ أميرًا، فجعل سعد بن مسعود

الثقفي على قيس وعبد القيس، ومعل بن قيس اليربوعي على تميم وضبة والرباب وقريش

(١) صفين: رقباءكم.

(٢) كذا في ١، وفي ب، ج بحذف «كي».

(٣) الترسة: جمع ترس؛ وهو صفحة من الفولاذ مستديرة، ويجمع على تراس أيضا.

(٤) الفرار: القليل من النوم. وقوله: «مضمضة»؛ لما جعل للنوم ذوقا أمرهم ألا يتالوا منه إلا بالسنتهم ولا يسيفوه؛ فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع؛ كذا فسره صاحب اللسان (١٠٠٩)؛ وأورد كلام الإمام.

(٥) صفين: «حربكما»

(٦) صفين ١٣٢، ١٤٠، ١٤١

وكنانة وأسد، ومخنف بن سليم على الأزد وبجيلة وخشم والأنصار وخزاعة، وحُجْر ابن عدى السكندى على كِنْدَةَ وحَضْرَموت وقُضاعة، وزِياد بن النَّضْر على مَذْحِج والأشعريين، وسعيد بن مُرّة الهمداني على همدان ومن معهم من حمير، وعدى بن حاتم الطائي على طيء؛ تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج، وتختلف الراجحان: راية مَذْحِج مع زياد بن النضر، وراية طيء مع عدى بن حاتم؛ هذه عساكر الكوفة.

وأما عساكر البصرة فخالد بن معمر السدوسي على بكر بن وائل، وعمرو بن مرجوم العبدي على عبد القيس، وابن شيان الأزدي^(١) على الأزد، والأحنف على تميم وضبة والرباب، وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية -

أما بعد، فإني أبرأ إليكم من معرة الجنود^(٢) [إلا من جوعه إلى شعبة، ومن فقر إلى غنى، أو عمى إلى هدى؛ فإن ذلك عليهم]^(٣). فأغربوا^(٤) الناس عن الظلم والعدوان، وخذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عبداً فإرد بها علينا وعليكم دعاءنا؛ فإنه تعالى يقول: ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾^(٥). وإن الله إذا مَقَّت قوماً من السماء هلكوا في الأرض، فلا تألوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة؛ وابلوا في سبيله ما استوجب عليكم؛ فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا؛ ولا قوة إلا بالله.

(١) في صفين: صبرة بن شيان.

(٢) نسب صاحب اللسان هذا القول إلى عمر بن الخطاب، وقال: «وأما معرة الجيش التي تدرأ منها عمر رضى الله عنه؛ فهي وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد، وإصابتهم إياهم في حریمهم وأهوالهم وزروعهم بما يؤذن لهم فيه»؛ وفي صفين: «معرة الجيش».

(٣) تكملة من كتاب صفين.

(٤) أغربوا الناس، أى نحوهم، وفي صفين «فأغربوا الناس».

(٥) سورة الفرقان ٧٧

قال : وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذى لهم وعليهم :

أما بعد ؛ فإن الله جعلكم فى الحقّ جميعا سواء ؛ أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى ، وجعل الوالى منكم ، بمنزلة الولد من الوالد ، و [بمنزلة] ^(١) الوالد من الولد ، [الذى لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به ، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم] ^(٢) . فحقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم ، والكفّ عن فيئكم ؛ فإذا فعل معكم ذلك ، وجبت عليكم طاعته فيما وافق الحقّ ، ونصرته والدفع عن سلطان الله ، فإنكم وزعّة الله فى الأرض ، فكونوا له أعوانا ، ولدينه أنصارا ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحبّ المفسدين .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ ابن نُبّاتة ، قال : قال علىّ عليه السلام : ما يقول الناس فى هذه القبر ؟ - بالنخيلة ، وبالنخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله - فقال الحسن بن علىّ عليهما السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه ، جاء فمات هاهنا ، فقال : كذبوا ؛ لأننا أعلم به منهم ! هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بكر يعقوب ؛ ثم قال : أهاهنا أحد من مهرة ^(٣) ؟ فأتى بشيخ [كبير] ^(١) ، فقال : أين منزلك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل ؟ قال : أنا قريب منه ، قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبر ساحر ، قال : كذبوا ، ذلك قبر هود النّبىّ عليه السلام وهذا قبر يهودا بن يعقوب . ثم قال

(١) تكملة من كتاب صفين

(٢) مهرة : حى من اليمن

عليه السلام : يُحْشَرُ من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غُرَّةِ الشمس ، يدخلون الجنة بغير حساب .

قال نصر : فلما نزل على عليه السلام النخيلة متوجّهاً إلى الشام ، وبلغ معاويةً خبره ، وهو يومئذ بدمشق ، قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان مختضباً بالدم ، وحول المنبر سبعون ألف شيخ ، يبكون حوله لا تجفّ دموعهم على عثمان ، خطبهم ، وقال :

يا أهل الشام ، قد كنتم تكذّبونني في عليّ ، وقد استبان لكم أمره ؛ والله ما قتل خليفتكم غيره ، وهو أمرٌ بقتله ، وألب الناس عليه ، وآرى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم . يا أهل الشام ، الله الله في دم عثمان ! فأنأ وليه وأحقّ من طلب بدمه ؛ وقد جعل الله لوليّ المقتول ظلماً سلطاناً ، فانصروا خليفتكم المظلوم ، فقد صنع القوم به ما تعلمون ، قتلوه ظلماً وبغياً ؛ وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله .

ثم نزل .

قال نصر : فأعطوه الطاعة وانقادوا له ، وجمع إليه أطرافه ، واستعدّ للقاء عليّ عليه السلام .



ومن كلامه عليه السلام في ذكر الكوفة:

الأصل:

كَأَنِّي بِكَ يَا كُوفَةَ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْمُكَاطِيَّ ، تُفَرِّكِينَ بِالنَّوَازِلِ ،
وَتُرِّكِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سُوءًا إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ ،
أَوْ رَمَاهُ ^(١) بِقَاتِلٍ .

الشَّيْخُ :

عكاظ : اسم سوق للعرب بناحية مكة ، كانوا يجتمعون بها في كل سنة ، يقيمون
شعرا ويتبايعون ويتناشدون شعرا ويتفاخرون ، قال أبو ذؤيب :

إِذَا بُنِيَ الْقَيْسَابُ عَلَى عُكَاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الْأُلُوفُ ^(٢)

فلما جاء الإسلام هدم ذلك ؛ وأكثر ما كان يُباع الأديم بها ، فنسب إليها . والأديم
واحد والجمع أدم ، كما قالوا : أفيق للجلد الذي لم تزل دباغته ، وجمعه أفيق . وقد يجمع أديم
على آدمة ، كما قالوا : رغيف وأرغفة .

والزلازل هاهنا : الأمور المزعجة ، والخطوب المحركة .

(١) مخطوطة النهج : « ورماه »

(٢) ديوان المهذلين ١ : ٩٨ ؛ وفي شرحه : « على عكاظ ، يريد بعكاظ ، ويقال : فلان نازل على
فلان ، وعلى ضربة ، أي بها ، قام البيع . يريد قامت السوق » .

وقوله عليه السلام : « تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ » ، استعارة لما ينالها من العسف والخبط .

وقوله : « تُعْرَكِينَ » ؛ من عَرَكَتِ الْقَوْمَ الْحَرْبَ إِذَا مَارَسْتَهُمْ حَتَّى أَنْعَبْتَهُمْ .

[فصل في ذكر فضل الكوفة]

وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شيء كثير ، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام : نعمت المدرة .

وقوله عليه السلام : إنه يُحْشَرُ مِنْ ظَهْرِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ .

وقوله عليه السلام : هذه مَدِينَتُنَا وَمَحَلَّتُنَا ، وَمَقَرَّةٌ شِيعَتِنَا .

وقول جعفر بن محمد عليه السلام : اللَّهُمَّ ارْزُمِ مِنْ رَمَاهَا ، وَعَادِرِ مَنْ عَادَاهَا .

وقوله عليه السلام : تَرَبَّةٌ تَحْمِيْنَا وَتُحِبُّهَا .

فَأَمَّا مَا هَمَّ بِهِ الْمَلُوكُ وَأَرَبَابُ السُّلْطَانِ فِيهَا مِنَ السُّوءِ ، وَدِفَاعَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهَا ؛ فَكَثِيرٌ .

قال المنصور لجعفر بن محمد عليهما السلام : إني قد همتُ أن أبعثَ إلى الكوفة

مَنْ يَنْقُضُ مَنَازِلَهَا ، وَيُجَمِّرُ^(١) نَخْلَهَا ، وَيَسْتَصْفِي أَمْوَالَهَا ، وَيَقْتُلُ أَهْلَ الرِّيبَةِ مِنْهَا ،

فَأَشِيرَ عَلَيَّ . فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ الْمَرْءَ لِيَقْتَدِيَ بِسَلْفِهِ ، وَلَكَ أَسْلَافٌ ثَلَاثَةٌ :

سَلِيمَانَ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَأَيُّوبَ ابْتَلِيَ فَصَبَرَ ، وَيُوسُفَ قَدَّرَ فَغَفَرَ ؛ فَاقْتَدِ بِأَيِّهِمْ شِئْتَ . فَصَمْتَ

قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ غَفَرْتَ .

(١) جر النخلة ؛ أى قطع جارها .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في كتاب "المنتظم" أن زياداً لما حصَبَهُ أهل الكوفة ، وهو يخطب على المنبر ، قطع أيدي ثمانين منهم ، وهم أن يجزب دورهم ، ويُجمَر نخلهم ، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة ، يعرضهم على البراءة من علي عليه السلام ؛ وعلم أنهم سيمنعون ، فيحتج بذلك على استئصالهم ، وإخراب بلدهم .

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصاري : فإني لَمَعَ نفرٍ من قومي ، والناس يومئذ في أمر عظيم ؛ إذ هَوَمَت تهويمَةٌ ^(١) ، فرأيت شيئاً أقبل ، طويل العنق ، مثل عنق البعير أهدر أهدهل ^(٢) ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا النقاد ذو الرقبة ، بُعِثت إلى صاحب هذا القصر ، فاستيقظت فرعاً ، فقلت لأصحابي : هل رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : لا ؛ فأخبرتهم ، وخرج علينا خارج من القصر ، فقال : انصرفوا ، فإن الأمير يقول لكم : إني عنكم اليوم مشغول ؛ وإذا بالطاعون قد ضربه ، فكان يقول : إني لأجد في النصف من جسدي حر النار حتى مات ، فقال عبد الرحمن بن السائب :

مَا كَانَ مُنْتَهِيًّا عَمَّا أَرَادَ بِنَا حَتَّى تَنَاوَلَهُ النَّقَادُ ذُو الرِّقَبَةِ
فَأَثَبَتِ الشَّقَّ مِنْهُ ضَرْبَةً عَظُمَتْ كَمَا تَنَاوَلُ ظُلْمًا صَاحِبَ الرَّحْبَةِ ^(٣)

قلت : قد يظن ظان أن قوله : « صاحب الرحبة » يمكن أن يحتج به من قال : إن قبر أمير المؤمنين عليه السلام في رَحْبَةِ المسجد بالكوفة ؛ ولا حجة في ذلك ، لأن أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه في رَحْبَةِ المسجد ، يحكم بين الناس . فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار .

(١) التهويم : هز الرأس من العاس .

(٢) يقال : هدر البعير ؛ صوت في غير شقشقة ؛ والجلل الأهدل : السرخى المشفر .

ومن خطبة له عليه السلام عند السير إلى الشام :

الأصل :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ كَلَّمَا وَقَبَ لَيْلٍ وَغَسَقَ ، وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ كَلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ ، وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ
مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ ، وَلَا مُكَافٍ الْإِفْضَالِ . أَمَا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمِي ، وَأَمَرْتُهُمْ
بِلِزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ ؛ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النَّطْفَةَ إِلَى
شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ ، مُوْطِنِينَ أَكْنَافَ دَجَلَةَ ، فَأَنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ ، وَأَجْعَلَهُمْ
مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ أَلَيْكُمْ .

قال الرضى رحمه الله :

يعنى عليه السلام بالمِلْطَاطِ هاهنا السَّمْتَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِلِزُومِهِ ؛ وَهُوَ شَاطِئُ الْفُرَاتِ ،
وَيُقَالُ ذَلِكَ أَيْضًا لِشَاطِئِ الْبَحْرِ ، وَأَصْلُهُ مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ . وَيَعْنَى بِالنَّطْفَةِ مَاءُ
الْفُرَاتِ ، وَهُوَ مِنْ غَرِيبِ الْعِبَارَاتِ وَمَجِيبِهَا .

الشيخ :

وقب الليل ؛ أى دخل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ (١)
وغسق ، أى أظلم . وخفق النجم ، أى غاب .

ومقدّمة الجيش ، بكسر الدال : أوله ؛ وما يتقدّم منه على جمهور العسكر ؛ ومقدّمة الإنسان ، بفتح الدال : صدره .

والمِلطاط : حافة الوادى وشَفِيرُهُ وساحل البحر ، قال رؤبة :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالْمِلطاطِ *

قال الأصمعيّ : يعنى به ساحل البحر ، وقول ابن مسعود : هذا المِلطاط طريق بقيّة لمؤمنين ، هُرّابا من الدّجال - يعنى به شاطئ الفرات .

فأما قول الرضى رحمه الله تعالى : « المِلطاط : السّمت الذى أمرم بلزومه وهو شاطئ الفرات ، ويقال ذلك لشاطئ البحر » ، فلا معنى له ؛ لأنه لا فرق بين شاطئ الفرات وشاطئ البحر ، وكلاهما أمر واحد ، وكان الواجب أن يقول : المِلطاط : السمت فى الأرض ، ويقال أيضاً لشاطئ البحر .

والشُرذمة : نفر قليلون .

وموطنين أكناف دجلة ، أى قد جعلوا أكنافها وطناً ، وأطننت البقعة .

والأكناف : الجوانب ؛ واحدها كَنَفٌ . والأمداد : جمع مَدَد ، وهو ما يُمدّ به

لجيش تقوية له .

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة ومتوجّهاً إلى صيفين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين ؛ ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وزادوا فيها : « وقد أمرت على المصر عتبة بن عمرو ، ولم آلكم ولا نفسى ؛ فإياكم والتخلّف والتربص ؛ فإنى قد خلّفت مالك بن حبيب اليربوعى ، وأمرته ألا يترك متخلّفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً ، إن شاء الله » (١)

وروى نصر بن مزاحم عوض قوله : « فأنهضهم معكم إلى عدوكم » فأنهضهم معكم إلى عدو الله .»

قال نصر : فقام إليه معقل بن قيس الرياحي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ والله ما يتخلف عنك إلا ظنين ، ولا يتربص بك إلا منافق ، فمر مالك بن حبيب فليضرب أعناق المتخلفين . فقال : قد أمرته بأمرى ، وليس بمقصر إن شاء الله .

[أخبار عليّ في جيشه وهو في طريقه إلى صفين]

قال نصر بن مزاحم : ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بهرسيبر^(١) ؛ وإدا رجل من أصحابه يقال له حرّ بن سهم بن طريف ، من بني ربيعة بن مالك ، ينظر إلى آثار كسرى ؛ ويتمثل بقول الأسود بن يعفر :

جرت الرياحُ على محلّ ديارهم فكاننا كانوا على ميعاد^(٢)

فقال له عليه السلام : ألا قلت : ﴿ كَمْ تَرَ كُؤًا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾^(٣) ؛ إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورثين ، ولم يشكروا النعمة ، فسلبوا دنياهم بالمعصية . إياكم وكفّر النعم ، لا تحلّ بكم النعم ، انزلوا بهذه الفجوة^(٤) .

(١) بهرسيبر : بلد قرب المدائن .

(٢) من قصيدة له في المفضليات ٢١٦ - ٢٢٠ .

(٣) سورة ادخان ٢٥ - ٢٩ .

(٤) الفجوة : المكان المنسج في الأرض ؛ وفي صفين « النجوة » ؛ وهو المكان المرتفع .

قال نصر : وحدَّثنا عمر بن سعد ، عن مسلم الأعمور عن حَبَّة العرنى ، قال : أمر على عليه السلام الحارث الأعمور ؛ فصاح في أهل المدائن : مَنْ كان من المقاتلة فليواف أمير المؤمنين عليه السلام صلاةَ العصر . فوافوه في تلك الساعة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ؛ فإنى قد تعجَّبت من تخلفكم عن دَعوتكم ، وانقطاعكم عن أهل مِصركم في هذه المبائِن ؛ الظالم أهلها ، المالك أكثر ساكنيها ، لا معروف يأمرون به ، ولا منكر ينهون عنه .

قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إننا كنا ننتظر أمرَك ، مرُّنا بما أحببت ؛ فسارَ وخلفَ عليهم عدى بن حاتم ، فأقام عليهم ثلاثاً ثم خرج في ثمانمائة رجل منهم ، وخلف ابنه زياد بعده ، فلحقه في أربعمائة رجل منهم .

وجاء على عليه السلام حتى مرَّ بالأخبار ، فاستقبله بنو خشنوشك^(١) ؛ دهاقينها .

— قال نصر : الكلمة^(٢) فارسية ، أصلها « خش » أى الطيب .—

قال : فلما استقبلوه ، نزلوا عن خيولهم ، ثم جاءوا يشتدون معه ، وبين يديه ومعهم برازين ، قد أوقفوها في طريقه ، فقال : ماهذه الدواب التي معكم ؟ وما أردتم بهذا الذى صنعتم ؟ قالوا : أما هذا الذى صنعنا ، فهو خلقٌ مِنّا نعظم به الأمراء ؛ وأما هذه البرازين فهديّة لك ، وقد صنعنا للمسلمين طعاما ، وهى لنا لدوابكم علفا كثيرا .

فقال عليه السلام : أما هذا الذى زعمتم أنه فيكم خلقٌ تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء ؛ وإتكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا

(١) فى الأصول « خشوش » ، وما أثبتته من كتاب صفين .

(٢) العبارة كما فى كتاب صفين : « قال سليمان : خش : طيب . نوشك : راض ، يعنى بنى الطيب بالراضى بالفارسية » .

له . وأما داو بكم هذه ؛ فإن أحببتم أن آخذها منكم ، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذي صنعتم لنا ؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بئمن . قالوا : يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ، قال : إذا لا تقوموه قيمته ، نحن نكتفي بما هو دونه . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ فإن لنا من العرب موالٍ ومعارف ؛ أتمنعنا أن نهدي لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا ؛ فقال : كلُّ العرب لكم موالٍ ، وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم ، وإن غصبكم أحد فأعلمونا . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنا نحب أن نقبل هديتنا وكرامتنا . قال . ويحكم ! فنحن أغنى منكم . وتركهم وسار .

قال نصر : وحدثنا عبد العزيز بن سياه ، قال : حدثنا حبيب بن أبي ثابت ، قال : حدثنا [أبو] ^(١) سعيد التيمي المعروف بـ *بقيص* ، قال : كنا مع *علي* عليه السلام في مسيره إلى الشام ؛ حتى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد ، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء ، فانطلق بنا *علي* عليه السلام حتى أتى [بنا] ^(١) إلى صخرة *ضرس* ^(٢) في الأرض ؛ كأنها رُبضةٌ عنز ^(٣) ؛ فأمرنا فاقبلناها ، فخرج لنا من تحتها ماء ، فشرِب الناس منه ، وارتووا . ثم أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضى قليلا ، قال عليه السلام : أمينكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلقوا إليه ، فانطلق مِننا رجالٌ ركبانا ومشاة ، فاقطعنا الطريق إليه ؛ حتى انتهينا إلى المسكان الذي نرى أنه فيه ، فطلبناه ، فلم نقدر على شيء ، حتى إذا عيَل علينا انطلقنا إلى دِيرٍ قريب

(١) من صفين والقاموس .

(٢) الضرس : الأكمة الحشنة .

(٣) الرِبضة ، بضم الراء ويقال بكسرهما ؛ مقدار جثة العنز إذا ربضت ؛ وفي الأثر : « جاء بتريد كأنه رِبضة أرنب ؛ أي جثتها . راجع اللسان .

مِنَّا ، فسألناهم : أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا : ليس قُرْبَنَا ماء ، فقلنا : بلى إنا شربنا منه ، قالوا : أنتم شربتم منه ! قلنا : نعم ، فقال صاحب الدَّيْرِ : والله ما بُنِيَ هذا الدير إلا بذلك الماء ، وما استخرجه إلا نبيّ أو وصى نبيّ .

قال نصر : ثم مضى عليه السلام ؛ حتى نزل بأرضِ الجزيرة ، فاستقبله بنو تَغْلِبِ والدَّيْرِ بن قاسط بَجَزُور^(١) ، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبي : يا يزيد ، قال : كَبَيْك يا أمير المؤمنين ! قال : هؤلاء قومك ؛ من طعامهم فاطم ، ومن شرابهم فاشرب . قال : ثم سار حتى أتى الرِّقَّة - وجلّ أهلها عثمانية ، فرآوا من الكوفة إلى معاوية - فأغلقوا أبوابها دونه ، وتحصنوا ، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسدى فى طاعة معاوية ، وقد كان فارق عليا عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد ، ثم كاتب معاوية ، وأقام بالرِّقَّة حتى لحق به منهم سبعمائة رجل .

قال نصر : فروى حَبَّة أن عليا عليه السلام لما نزل على الرِّقَّة ، نزل بموضع يقال له البليخ على جانب الفرات ، فنزل راهب هناك من صَوْمَعَتِهِ ، فقال لعلى عليه السلام : إن عندنا كتابا توارثناه عن آبائنا ، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم ، أعرضه عليك ؟ قال : نعم ، فقرأ الراهب الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . الذى قضى فيما قضى ، وسَطَّر فيما كتب^(٢) : أنه باعثُ فى الأميين رسولا منهم ؛ يعلمهم الكتابَ والحكمة ، ويدلّهم على سبيل الله ، لا فظُّ ولا غليظ ؛ ولا صَخَابٌ فى الأسواق ولا يجزى بالنسيئة السيئة ، بل يعفُو ويصفح ، أمته الحمدون الذين يحمّدون الله على كلِّ نَشْرٍ^(٣) ، وفى كلِّ صَعُودٍ وهَبُوطٍ ، تذلّ ألسنتهم

(١) الجزور : الناقة التى تنحر ؛ وفى صفين : « بالجزيرة »

(٢) صفين : « فيما سطر » .

(٣) النَشْرُ : المكان المرتفع ، كالنشاز .

بالتكبير والتهليل ، والتسبيح ؛ وينصره الله على من ناواه ؛ فإذا توفاه الله ، اختلفت أمته من بعده ؛ ثم اجتمعت ، فلبثت ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمرّ رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضى بالحق ولا يرگس^(١) الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرماد في يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمان^(٢) ، يخاف الله في السرّ ، وينصح له في العلانية ، لا يخاف في الله لومة لائم ؛ فمن أدرك ذلك النبي من أهل هذه البلاد فأمن به كان ثوابه رضوانى والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره ؛ فإنّ القتل معه شهادة .

ثم قال له : أنا مصاحبك ، فلا أفارقك حتى بصيبنى ما أصابك . فبكى عليه السلام ، ثم قال : الحمد لله الذى لم أكنّ عنده منسيا ، الحمد لله الذى ذكرنى عنده فى كتّاب الأبرار . فضى الراهب معه ، فكان فيما ذكروا يتندى مع أمير المؤمنين ويتعشى ، حتى أصيب يوم صفين ؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم ، قال عليه السلام : اطلبوه ، فلما وجدوه صلى عليه ودفنه . وقال : هذا منّا أهل البيت ، واستغفر له مرارا .

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم فى كتاب " صفين " ،^(٣) عن عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور ، عن حبة العزنى . ورواه أيضا إبراهيم بن ديزيل الهمداني ، بهذا الإسناد عن حبة أيضا فى كتاب صفين .

وروى ابن ديزيل فى هذا الكتاب ، قال : حدثنى يحيى بن سليمان ، قال : حدثنى يحيى بن عبد الملك بن حميد بن عتيبة ؛ عن أبيه ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن أبيه ومحمد

(٢) الرگس : رد الشيء مقلوبا ، وفى صفين : « ولا يرتشى فى الحكم » .

(٣) صفين : « الظماء »

(٤) كتاب صفين لنصر ١٦٤ - ١٦٥

ابن فضيل ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن أبي سعيد الخدري ، رحمه الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانقطع شنع^(١) نعله ، فألقاها إلى علي عليه السلام يصلحها ، ثم قال : « إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلتُ على تنزيله » ، فقال أبو بكر الصديق : أنا هو يا رسول الله ! فقال : لا ، فقال عمر بن الخطاب : أنا هو يا رسول الله ! قال : « لا ، ولكنه ذاكم خاصف النعل » - ويدُ علي عليه السلام على نعل النبي صلى الله عليه وآله يصلحها .

قال أبو سعيد : فأُتيتُ عليا عليه السلام فبشرته بذلك فلم يحفل به ، كأنه شيء قد كان علمه من قبل .

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب أيضاً ، عن يحيى بن سليمان ، عن ابن فضيل ، عن إبراهيم الهجري ، عن أبي صادق ، قال : قدم علينا أبو أيوب الأنصاري العراقي ، فأهدت له الأزدر جُزرا^(٢) ، فبعثوها معي ، فدخلت إليه فسلمت عليه ، وقلت له : يا أبا أيوب ، قد كرمك الله عز وجل بصحبة نبيه صلى الله عليه وآله ، ونزوله عليك ، فإني أراك تستقبل الناس بسيفك ، تقاتلهم هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة ! قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلينا أن نقاتل مع علي الناكثين ، فقد قاتلناهم ، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين ؛ فهذا وجهنا إليهم - يعني معاوية وأصحابه - وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين ، ولم أرهم بعد .

وروى ابن ديزيل أيضاً في هذا الكتاب ، عن يحيى ، عن يعقوب بن عبيد الحنفى ، عن إسماعيل السدي ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو

(١) الشنع : قبال النمل ؛ وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها

(٢) الجزر : جمع الجزور ؛ وهو ما يذبح من الإبل

في الحَجْرَةِ يُوحَى إليه ، ونحن ننتظره حتى اشتدَّ الحرُّ ، فجاء علي بن أبي طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السلام ؛ فقعدا في ظل حائط ينتظرونه ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ، رآهم فأناهم وَوَقَّعْنَا نحن مكاننا ، ثم جاء إلينا وهو يظلم بثوبه ، ممسكا بطرف الثوب ، وعلى ممسكٍ بطرفه الآخر ؛ وهو يقول : « اللهم إني أحبهم ، فأحبهم ؛ اللهم إني سلم لمن سالمهم ، وحرب لمن حاربهم » . قال : فقال ذلك ثلاث مرات .

قال إبراهيم في الكتاب المذكور : وحدثنا يحيى بن سليمان ، قال : حدثنا ابن فضيل ، قال : حدثنا الحسن بن الحكم النَّخَعِيُّ ، عن رباح بن الحارث النَّخَعِيِّ ، قال : كنت جالسا عند علي عليه السلام ، إذ قدِمَ عليه قوم متلثمون ، فقالوا : السلام عليك يا مولانا ، فقال لهم : أَوَلَسْتُمْ قوماً عَرَبًا ! قالوا : بلى ، ولكننا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خُمٍّ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ » ، قال : فلقد رأيتُ عليا عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذهُ ، ثم قال : اشهدوا .

ثم إنَّ القومَ مضوا إلى رحالهم فتبعتهم ، فقلت لرجل منهم : مَنْ القوم ؟ قالوا : نحن رَهْطٌ من الأنصار ، وذلك - يعنون رجلا منهم - أبو أيوب ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فأثبتته فصالحته .

قال نصر : وحدثني عمر بن سعد ، عن نعيم بن وعلة ، عن أبي الوَدَّاعِ ، أنَّ (١) عليا عليه السلام بعث من المدائن مَعْقِلَ بن قيس الرياحي ، في ثلاثة آلاف ، وقال له : خذْ كَلِي

الموصل ، ثم نصيبين ، ثم القنى بالرقّة ، فإني موافياها . وسكنّ الناس وأمنّهم ، ولا تقاتل إلا من قاتلك ، وسير البرّدين^(١) ، وغوّز بالناس^(٢) . أقم الليل ، ورفّه في السير ، ولا تسير أول الليل ؛ فإن الله جعله سكنا ، أرخ فيه بدنك وجندك وظهرك ، فإذا كان السحر أوحين يتبلج^(٣) الفجر ، فسر .

فسار حتى أتى الحديثة - وهي إذ ذاك منزل الناس - وإنما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان - فإذا بكبشين ينتطحان ، ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له شداد بن أبي ربيعة^(٤) - قتل بعد ذلك مع الحرورية - فأخذ يقول : إيه ، إيه ! فقال معقل : ما تقول ؟ فجاء رجلان نحو الكبشين ، فأخذ كل واحد منهما كبشا وانصرفا ، فقال الخثعمي لمعقل : لا تغلبون ولا تغلبون ، فقال معقل : من أين علمت ؟ قال : أما أبصرت الكبشين ، أحدهما مشرق والآخر مغرب ، التقيا فاقتبلا وانتطحا ، فلم يزل كل واحد من مصاحبه منتصفا ، حتى أتى كل واحد منهما صاحبه فانطلق به ! فقال معقل : أو يكون خيرا مما تقول يا أخا خثعم ! ثم مضى حتى وافى علياً عليه السلام بالرقّة .

قال نصر : وقالت طائفة من أصحاب عليّ عليه السلام له : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومن قبله من قومك ؛ فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عظماً ، فكتب إليهم عليه السلام : [بسم الله الرحمن الرحيم]^(٥) ، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قریش :

(١) البردان : الغداة والعشى

(٢) غور بالناس ، أى أنزل بهم في الغائرة ؛ وهي القائلة ؛ أو نصف النهار .

(٣) صفين : « ينطح » ، وفي ب : « ينبلج » .

(٤) كذا في صفين ، أ ، ج ، وفي ب : « شرار بن شداد بن أبي ربيعة » .

(٥) من صفين .

سلام عليكم ، فإني أحد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله عبداً آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا في الدين ، وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم ، وأنتم في ذلك الزمان أعداء للرسول ، تكذبون^(١) بالكتاب ، مجمعون على حرب المسلمين ، من تقفتم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه ؛ حتى أراد الله تعالى إعزاز دينه ، وإظهار أمره ، فدخلت العرب في الدين أفواجا ، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً ، فكنتم فيمن دخل في هذا الدين ؛ إما رغبة وإما رهبة ؛ على حين فاز أهل السبق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضيلهم . ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ، ولا فضائلهم في الإسلام ؛ أن ينازعهم الأمر الذي هم أهل وأولى به ، فيجور^(٢) ويظلم ، ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره ، ويعدو طوره ، ويشتقي نفسه بالتماس ما ليس بأهله ؛ فإن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً ، أقربها من الرسول ، وأعلمها بالكتاب ، وأفقهها في الدين ، أولها إسلاماً ، وأفضلها جهاداً ، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاماً ؛ فاتقوا الله الذي إليه ترجعون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

واعلموا أن خيار عباد الله الذين يعملون بما يعملون، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم ؛ فإن للعالم بعلمه فضلاً ، وإن الجاهل لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلاً ؛ ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وحقن دماء هذه الأمة ؛ فإن قبلتم أصبتم رُشدكم ، واهتديتم لحظكم ، وإن أبيتم إلا الفرقة وشقّ عصا هذه الأمة ؛ لم تزدادوا من الله إلا بعداً ، ولا يزداد الربّ عليكم إلا سخطاً . والسلام .

فكتب إليه معاوية جواب هذا الكتاب ، سطرًا واحدًا ؛ وهو : أما بعد ؛ فإنه :

(١) : « مكذبون »

(٢) ب وصفين : « محبوب » .

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسِ عِتَابٍ غَيْرُ طَعْنِ الْكَلْبِيِّ وَضَرْبِ الرَّقَابِ
فقال على عليه السلام لما أتاه ، هذا الجواب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

* * *

قال نصر : وقال على عليه السلام لأهل الرقة : جَسُرُوا لِي جِسْرًا أُعْبَرُ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا
الْمَكَانِ إِلَى الشَّامِ ؛ فَأَبَوْا ، وَقَدْ كَانُوا ضَمُّوا السُّفْنَ إِلَيْهِمْ ؛ فَهَضَّ مِنْ عِنْدِهِمْ لِيُعْبَرَ
عَلَى جِسْرِ مَنبِيجَ ، وَخَلَّفَ عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرُ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ هَذَا الْحَصْنِ ؛ إِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ
إِنْ مَضَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ تَجْسُرُوا لَهُ عِنْدَ مَدِينَتِكُمْ حَتَّى يَعْبرَ مِنْهَا ؛ لِأَجْرِ دَنْ فِيكُمْ
السَّيْفِ ، فَلَا تَقْتُلَنَّ مَقَاتِلَكُمْ ، وَلَا تُخْرِبَنَّ أَرْضَكُمْ ، وَلَا تَأْخُذَنَّ أَمْوَالَكُمْ .

فلقى بعضهم بعضا ، فقالوا : إِنَّ الْأَشْتَرَ يَبْنِي بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا خَلَفَهُ عَلَى عِنْدَنَا
لِيَأْتِينَا بِشَرٍّ ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ : إِنَّا نَاصِبُونَ لَكُمْ جِسْرًا ، فَأَقْبَلُوا . فَأَرْسَلَ الْأَشْتَرُ إِلَى عَلَى عَلَيْهِ
السَّلَامِ ، فَجَاءَ ، وَنَصَبُوا لَهُ الْجِسْرَ ، فَعَبَّرَ الْأَنْقَالَ وَالرِّجَالَ ، وَأَمَرَ الْأَشْتَرَ فَوَقَفَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ
فَارِسٍ ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا عَبَّرَ ، ثُمَّ عَبَّرَ آخِرَ النَّاسِ رِجْلًا .

قال نصر : وَازْدَحَمَتِ الْخَيْلُ حِينَ عَبَّرَتْ ، فَسَقَطَتْ قَلَنْسُوءَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَصِينِ ،
فَنَزَلَ فَأَخَذَهَا ، وَرَكِبَ ، ثُمَّ سَقَطَتْ قَلَنْسُوءَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحِجَااجِ ، فَنَزَلَ فَأَخَذَهَا ، ثُمَّ رَكِبَ
فَقَالَ لِصَاحِبِهِ :

فَإِنْ يَكُ ظَنُّ الزَّاجِرِ الطَّيْرِ صَادِقًا كَمَا زَعَمُوا ، أَقْتُلْ وَشِيكًا وَتَقْتُلْ
فقال عبد الله بن أبي الحصين : مَا شِئْتُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا ذَكَرْتَ ، فَقَتَلَا مَعًا
يَوْمَ صَفِينِ (٢) .

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) والخبْر أيضا في تاريخ الطبري ٥ : ٢٣٦ - ٢٣٧ .

قال نصر : فلما قطع علىّ عليه السلام الفُرات ، دعا زياد بن النضر وشريح بن هانيّ فسرّحهما أمامه نحو معاوية ، على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة ، في اثني عشر ألفا ، وقد كانا حيث سرّحهما من الكوفة مقدّمة له أخذًا على شاطي الفرات من قِبَلِ البَرِّ ، مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات ^(١) ، فبلغهما أخذُ علىّ عليه السلام طريقَ الجزيرة ، وعلما أنّ معاوية قد أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقباله ، فقالا : والله ما هذا برأى ، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر ، ومالنا خيرٌ في أن نلقى جموعَ الشام في قلة من العدد ، منقطعين عن المدد . فذهبوا ليعبروا من عانات ، فنعمهم أهلها ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عَبَرُوا من هَيْت ، ولاحقوا عليا عليه السلام بقرية دون قرقيسيا ، فلما لحقوا عليا عليه السلام حَجَب ، وقال : مقدّمتي تأتي من ورأى ! فقام له زياد وشريح ، وأخبراه بالرأى الذي رأيا . فقال : قد أصبتما رُشدًا ، فلما عَبَرُوا الفرات ، قدّمها أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى معاوية ، لقيهما أبو الأعور السلميّ في جنود من أهل الشام ، وهو على مقدّمة معاوية ، فدعواه إلى الدخول في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ، فبعثوا إلى علي عليه السلام : إنّا قد لقينا أبا الأعور السلميّ بسور الروم في جند من أهل الشام ، فدعونا وأصحابه إلى الدخول في طاعتك ، فأبى علينا ، فرنا بأمرك .

فأرسل علي عليه السلام إلى الأشتر ، فقال : يامال ، إن زيادا وشريحا أرسلنا إلى يعلما نبيّ ؛ أنهما لقيّا أبا الأعور السلميّ في جند من أهل الشام بسور الروم ، وتبّأني الرسول أنه تركهم متواقفين ؛ فالنّجاء النّجاء إلى أصحابك ؛ فإذا أتيتهم ، فأنت عليهم ؛ وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدءوك ، والقيهم واسمع منهم ، ولا يجرمّك شتائهم على قتالهم قِبَلِ

(١) عانات : من قرى الفرات.

دعائهم ؛ والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعل على ميمتك زيادا ، وعلى ميسرتك شريحا ، وقف من أصحابك وسطاً ، ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب ، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب الناس ؛ حتى أقدم عليك ؛ فإني حثيث السير إليك إن شاء الله .

قال : وكتب على عليه السلام إليهما - وكان الرسول الخارث بن جهمان الجعفي - :
أما بعد ؛ فإني قد أمرت عليكما مالكا ، فاسمعا له وأطيعا أمره ؛ وهو من لا يخاف رفقته ولا سقاطه^(١) ، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ، ولا إسرأه إلى ماالبطء عنه أمثل ؛ وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما ، ألا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم ، ويؤذر إليهم إن شاء الله .

قال : فخرج الأشتر حتى قدم على القوم ، فاتبع مأموره به على عليه السلام ، وكف عن القتال ، فلم يزلوا متواقفين ؛ حتى إذا كان عند المساء ، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له ، واضطربوا ساعة . ثم إن أهل الشام انصرفوا ، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عُدتها وعددها ، فخرج إليهم أبو الأعور السلمي ، فاقتلوا يومهم ذلك ، تحمل الخيل على الخيل ، والرجال على الرجال ، وصبر بعضهم لبعض ؛ ثم انصرفوا . وبكر عليهم الأشتر ، فقتل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التثوخي ، قتله ظبيان بن عمارة التميمي ، وماهو يومئذ إلا فتى حديث السن . وإن كان الشامي لفارس أهل الشام ، وأخذ الأشتر يقول :
ويحكم أروني أبا الأعور !

ثم إن أبا الأعور دعا الناس ، فرجعوا نحوه ، فوقف على تل من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة ، وجاء الأشتر حتى صف أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أول مرة ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي . انطلق إلى أبي الأعور ، فادعه إلى المبارزة ،

(١) الرهق : الطيش والتزق . والسقاط : الخسأ .

فقال : إلى مبارزتي أم إلى مبارزتك ؟ فقال : أولو أمرتك بمبارزته فعلت ؟ قال : نعم ؛
والذي لا إله إلا هو ؛ لو أمرتني أن أعتريض صفهم بسيفي لقطعت حتى أضربه بالسيف .
فقال : يابن أخي ، أطل الله بقاءك ! قد والله ازددت فيك رغبة ، لا ، ما أمرتك بمبارزته ،
إنما أمرتك أن تدعوه لمبارزتي ؛ فإنه لا يبارز - إن كان ذلك من شأنه - إلا ذوى الأسنان
والكفاءة والشرف ، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف ؛ وليكنك حديث
السنن ، وليس يبارز الأحداث ؛ فاذهب فادعه إلى مبارزتي .

فأتاهم فقال : أنا رسول فأمّوني ، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور (١) .

قال نصر : فحدثني عمر بن سعد ، عن أبي زهير العبسي ، عن صالح بن سنان ، عن
أبيه ، قال : قتلت له : إن الأشر يدعوك إلى المبارزة ، قال : فسكت عنى طويلا ، ثم قال :
إن خفة الأشر وسوء رأيه وهوانه ؛ دعاه إلى إجلاء عمال عثمان ، وافترائه عليه ، يقبح
محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته . ومن خفة الأشر وسوء رأيه أنه سار إلى عثمان
في داره وقراره ، فقتله فيمن قتله ، وأصبح متبعا بدمه ، لاجحة لى في مبارزته .

قلت : إنك قد تكلمت فاسمع حتى أجيبك ، فقال : لاجحة لى في جوابك
ولا الاستماع منك ، اذهب عنى ؛ وصاح بي أصحابه فانصرفت عنه ، ولو سمع لأسمعته عذر
صاحبي وحبته .

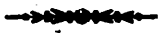
فرجعت إلى الأشر ، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة ، فقال : لنفسه نظره .

قال : فتواقفنا ، فإذا هم قد انصرفوا . قال : وصبحنا على عليه السلام غدوة سائرنا نحو
معاوية ، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وسعة المنزل ، وشريعة الماء مكانا

(١) الرهق : الجهل ، والسقاط : الخطأ .

(٢) والخبر أيضا في الطبرى ٥ : ٢٣٩

أفصح ؛ وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية ، واسمه سفيان بن عمرو ، وقد جعل على ساقته
بُسْر بن أرطاة العامريّ ، وعلى الخليل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ودفع اللواء إلى
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهريّ ، وعلى رجالته
من الميمنة يزيد بن زحر الضبيّ ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلى الرّجاله من
الميسرة حابس بن سعيد الطائيّ ، وعلى خيل دمشق الضّحّاك بن قيس الفهريّ ؛ وعلى رِجَاله
أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرُز البجليّ ، وعلى أهل حِمص ذا التّكّلاع ، وعلى أهل
فلسطين مسّلمة بن مخلد ، وكان وصول على عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من
سنة سبع وثلاثين .



ومن فطنته عليه السلام :

الأصل :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَّنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ ، وَدَاَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ البَصِيرِ ؛ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ .
سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بِأَعْدَاهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ .
لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ ، عَلَى إِفْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشْبَهُونَ بِهِ وَالْجَا حِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا !

التَّيْنِخُ :

بطنتُ سِرِّ فلان ، أى أخفيته .

والأعلام : جمع علم ، وهو المنارُ يهتدى به ؛ ثم جعل لكلِّ ما دل على شيء ؛ فقيل لمعجزات الأنبياء أعلام ، لدالاتها على نبوتهم . وقوله عليه السلام « أعلام الظهور » ، أى الأدلة الظاهرة الواضحة .

وقوله فيما بعد : « أعلام الوجود » أى الأدلة الموجودة ، والدلالة هو الوجود نفسه ، وسيأتى شرح ذلك .

وقوله : « وامتنع على عين البصير » ، يقول : إنه سبحانه ليس بمبرئى بالعين ؛ ومع

ذَلِكَ فَلَا يُمْكِنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ بِعَيْنِهِ أَنْ يَنْكَرَهُ ؛ لِدَلَالَةِ كُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ، بَلْ لِدَلَالَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ .

ثم قال : « ولا قلب من أثبتته ببصره » ، أى لا سبيل لمن أثبت وجوده أن يحيطَ علما بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته ؛ أو أراد أنه لا تعلم حقيقة ذاته ؛ كما قاله قوم من المحققين .

وقد روى هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا فى الخطبة : « فلا قلب من لم يره ينكره ، ولا عين من أثبتته تبصره » ، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه .

وقوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه بأعده » ، أى ليس علوه ولا قر به كما نعقله من العلوّ والقرب المكائنين ، بل هو علو وقرب خارج من ذلك ، فليس علوه يقتضى بعده بالمكان عن الأجسام ، ولا قر به يقتضى مساواته إياها فى الحاجة إلى المكان والجهة .

والباء فى « به » متعلقة بـ « ساوأم » ، معناه : ولا قر به ساوأم به فى الحاجة إلى المكان ؛ أى لم يقتض قر به مماثلته ومساواته إياهم فى ذلك .

[فصول فى العلم الإلهى]

وهذا الفصل يشتمل على عدة مباحث من العلم الإلهى :

أولها : كونه تعالى عالما بالأمر الخفية .

والثانى : كونه تعالى مدلولا عليه بالأمر الظاهرة ؛ يعنى أفعاله .

والثالث : أن هويته تعالى غير معلومة للبشر .

والرابع : نفي تشبيهه بشيء من مخلوقاته .

والخامس : بيان أن الجاحد لإثباته مكابر بلسانه ، وعارف به بقلبه .

ونحن نذكر القول في جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال ، ونحيل في البرهان على الحق من ذلك وبطلان شبهة المخالفين فيه ، على ما هو مذکور في كتبنا الكلامية ، إذ ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك ، وإن كنا قد لا نخلى بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجزة ، وتلويح إلى الشبهة لطيف ؛ فنقول أما :

الفصل الأول

وهو الكلام في كونه تعالى عالما بالأمر الخفية

فاعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « بَطَّنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ » وهذا القدر من الكلام يقتضى كونه تعالى عالما ، يعلم الأمور الخفية الباطنة ؛ وهذا منقسم قسمين :

أحدهما : أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة .

والثاني : أن يعلم الأمور الخفية المستقبلية .

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين ، فنحمله عليهما معاً . فقد خالف في كل واحدة من المسألتين قوم ؛ فمن الناس من نفى كونه عالما بالمستقبلات ، ومن الناس من نفى كونه عالما بالأمر الحاضرة ؛ سواء كانت خفية أو ظاهرة ؛ وهذا يقتضينا^(١) أن نشرح أقوال العقلاء في هذه المسائل ، فنقول : إنَّ الناس فيها على أقوال :

القول الأول : قول جمهور المتكلمين ، وهو أن الباري سبحانه يعلم كل معلوم :

الماضي والحاضر والمستقبل ؛ ظاهرها وباطنها ، ومحسوسها وغير محسوسها ؛ فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر ، وما سيكون وما لم يكن ، إن لو كان كيف كان يكون ، كقوله

(١) ب : « يقتضى » ..

تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ^(١) ، فهذا علم بأمرٍ مقدرٍ على تقدير وقوع أصله الذي قد علم أنه لا يكون .

القول الثاني : قولٌ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبلية ، وشبههوه بكونه مدركا ، قالوا : كما أنه لا يدرك المستقبلات ، فكذلك لا يعلم المستقبلات . وهو قول هشام ابن الحكم ^(٢) .

القول الثالث : قولٌ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة ؛ وهذا القول نقيض القول الثاني ؛ وشبههوه بكونه قادرا ، قالوا : كما أنه لا يقدر على الموجود ، فكذلك لا يعلم الموجود ؛ ونسب ابن الراوندي هذا القول إلى معمر بن عباد ^(٣) ، أحد شيوخنا ، وأصحابنا يكذبونه في ذلك ، ويدفعون الحكاية عنه .

القول الرابع : قولٌ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم نفسه خاصة ، ويعلم كل ما عدا ذاته ، ونسب ابن الراوندي هذه المقالة إلى معمر أيضا ، وقال : إنه يقول : إن العالم غير المعلوم ، والشئ لا يكون غير نفسه ؛ وأصحابنا يكذبون ابن الراوندي في هذه الحكاية ، وينزّهون معمرًا عنها .

القول الخامس : قولٌ مَنْ قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يزل عالما بشئ أصلا ؛ وإنما أحدث لنفسه عالما ، علم به الأشياء ، وهو قول جهم بن صفوان ^(٤) .

القول السادس : قولٌ مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كل المعلومات على تفصيلها ؛ وإنما يعلم ذلك إجمالا وهؤلاء يسمون المسترسلية ؛ لأنهم يقولون : يسترسل علمه على المعلومات

(١) سورة الأنعام ٢٨
(٢) هو هشام بن الحكم ؛ من متكلمي الشيعة ، وصاحب المقالة في التشبيه ؛ وإليه نسب الهشامية ؛ إحدى الفرق الغالية ؛ ذكره الشهرستاني وبسط آراءه في الملل والنحل ١ : ١٦٤ - ١٦٦
(٣) معمر بن عباد السلمي القدرى ؛ وانظر آراءه في الملل والنحل للشهرستاني ١ : ٦٥ - ٦٧
(٤) جهم بن صفوان ؛ وإليه نسب الفرقة الجهمية ؛ من الجبرية ؛ ظهرت بدعته بترمد ، وقتله سالم بن أخوز المازني بمرود ؛ في آخر ملك بني أمية الشهرستاني ١ : ٧٩ - ٨١ .

إجمالاً لا تفصيلاً؛ وهو مذهب الجويني^(١) من متكلمي الأشعرية .

القول السابع : قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة مالم يفيض القولُ به إلى محال ؛ وزعموا أن القول بأنه يعلم كل شيء يفيض إلى محال ؛ وهو أن يعلم ويعلم أنه يعلم ، وهم جرا إلى مالا نهاية له ؛ وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع ، وفروع الفروع ولوازمها ، ولوازم لوازمها إلى مالا نهاية له . قالوا : ومحال اجتماع كل هذه العلوم غير المتناهية في الوجود ، وهذا مذهب أبي البركات البغدادي صاحب المعبر^(٢) .

القول الثامن : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيات الجزئية ؛ وإنما يعلم الكلّيات التي لا يجوز عليها التغيير ؛ كالعلم بأن كل إنسان حيوان ؛ ويعلم نفسه أيضاً ؛ وهذا مذهب أرسطو وناصرى قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره .

القول التاسع : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً ؛ لا كلياً ولا جزئياً ؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصية ذاته فقط من غير أن يعلمه ؛ كما أن المغناطيس يجذب الحديد لقوة فيه من غير أن يعلم بالجذب ؛ وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة .

فهذا تفصيل المذاهب في هذه المسألة .

واعلم أن حجة المتكلمين على كونه عالماً بكل شيء ؛ إنما تتضح بعد إثبات حدوث العالم ، وأنه فعله بالاختيار ؛ فحينئذ لا بدّ من كونه عالماً ؛ لأنه لو لم يكن عالماً بشيء أصلاً لما صحّ أن يحدث العالم على طريق الاختيار ؛ لأنّ الإحداث على طريق الاختيار ؛ إنما يكون بالعرض والداعي ، وذلك يقتضى كونه عالماً ، فإذا ثبت أنه عالم بشيء أفسدوا حينئذ أن يكون عالماً بمعنى اقتضى له العالمية ، أو بأمر خارج عن ذاته ؛ مختاراً كان أو غير مختار ؛

(١) هو الإمام أبو العباس عبد الملك بن يوسف الجويني ، إمام الحرمين ، التوفى سنة ٤٧٨ هـ .
(ابن خلكان) .

(٢) كتاب المعبر في الحكمة ، طبع في حيدرآباد ؛ لأبي البركات علي بن مسكان البغدادي ، توفى سنة ٥٦٠ هـ .
أخبار العلماء للقفطي ٣٤٣ .

فحينئذ ثبت^(١) لهم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لالشيء أزيد منها؛ فإذا كان لهم ذلك وَجَبَ أن يكون عالما بكل معلوم؛ لأنّ الأمر الذي أوجب كونه عالما بأمر ما؛ هو ذاته يوجب كونه عالما بغيره من الأمور؛ لأنّ نسبة ذاته إلى الكلّ نسبة واحدة .
فأما الجواب عن شبهة المخالفين فذكر في المواضع المختصة بذلك، فليطلب من كتبنا الكلامية .

الفصل الثاني

في تفسير قوله عليه السلام : « ودلّت عليه أعلام الظهور »

فنقول : إنّ الذي يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين ؛ وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور : أحدهما الوجود والثاني الموجود .
أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهي طريقة المدققين من الفلاسفة ، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك ، وأنه زائد على ماهيات الممكنات ، وأنّ وجودَ الباري لا يصحّ أن يكون زائداً على ماهيته ، فتكون ماهيته وجوداً ؛ ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود ؛ فلم يبقَ إلّا أن تكون ماهيته هي الوجود نفسه ، وأثبتوا وجوبَ ذلك الوجود ، واستحالة تطرّق العدم إليه بوجه ما ، فلم يفتقروا في إثبات الباري إلى تأمل أمرٍ غير نفس الوجود .

وأما الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه ؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله ، وهي طريقة المتكلمين . قالوا : كلّ ما لم يُعلَمْ بالبديهة ولا بالحسّ ؛ فإنما يُعلمُ بآثاره الصادرة عنه ؛ والباري تعالى كذلك ؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعاله ، فاستدلّوا عليه بالعالم ، وقالوا تارة : العالم محدث وكلّ محدث له محدث . وقالوا تارة أخرى : العالم ممكن ، فله مؤثر .

(١) ج : • يثبت • .

وقال : ابن سينا : إن الطريقة الأولى وهي الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعلى وأشرف ، لأنه لم يحتاج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته ، واستنبط آية من الكتاب العزيز في هذا المعنى ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

قال ابن سينا : أقول : إن هذا حُكْمٌ لقوم - يعني المتمكلمين وغيرهم ؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله ؛ وتمام الآية : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

قال : هذا حُكْمُ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ يستشهدون به لا عليه ؛ يعني الذين استدلوا عليه بنفس الوجود ، ولم يفترخوا إلى التعلق بأفعاله في إثبات ربو بيته .

الفصل الثالث

في أن هويته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام : « وامتنعَ عَلَى عَيْنِ البصير » ، وقوله : « ولا قلب من أثبتته يبصره » ، وقوله : « ولم يُطْلِعِ العقولَ على تحديد صفته » ؛ فنقول : إن جمهور المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله ، ولم يتحاشوا من القول بأنه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلمه نحن منها .

وذهب ضرار^(٢) بن عمرو : أن الله تعالى ماهيةً لا يعلمها إلا هو ؛ وهذا هو مذهب

(١) سورة فصلت ٥٣

(٢) هو ضرار ابن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ؛ كان في بدء أمره تلميذا لواصل ابن عطاء المعتزلي ؛ ثم خالفه في خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١

الفلاسفة . وقد حُكِيَ عن أبي حنيفة وأصحابه أيضا ؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل .

الفصل الرابع

في نفي التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام : « بعد وقرب » ، أى في حال واحدة ، وذلك يقتضى نفي كونه تعالى جسما ؟ وكذلك قوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه باعدّه ، ولا قرُبه ساواهم في المكان به » ، فنقول : إنّ مذهب جمهور المتكلمين نفي التشبيه ، وهذا القول يتنوع أنواعا :

النوع الأول : نفي كونه تعالى جسما مركبا ، أو جوهرًا فردا غير مركب ، والمراد بالجوهر هاهنا الجرم والحجم . وهو قول المعتزلة وأكثر محققي المتكلمين من سائر الفرق ، وإليه ذهبت الفلاسفة أيضا .

وقال قوم من مستضعفي المتكلمين خلاف ذلك ، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام ، واختلفت الحكاية عنه ، فروى عنه أنه قال : إنه يشترُ نفسه سبعة أشبار ، وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة السبيكة . وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة البلّورة الصافية المستوية الاستدارة من حيث أُنبتَها رأيتها على هيئة واحدة ، وروى عنه أيضا قال : إنه ذو صورة . وأصحابه من الشيعة يدفعون اليوم هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنه لم يزد على قوله : إنه جسم لا كأجسام ، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته .

وصدقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه نورا ، تقول الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ (١) .

وحكى عن محمد بن النعمان الأحول ، المعروف بشيطان الطاق ، وهشام بن سالم المعروف
بألبواليقي ، وأبي مالك بن الحضرمي ، أنه نورٌ على صورة الإنسان ؛ وأنكروا مع ذلك
أن يكون جسماً ؛ وهذه مناقضة ظاهرة .

وحكى عن علي بن ميثم مثله . وقد حكى عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم .

وحكى عن مقاتل بن سليمان ، وداود الجواربي ، ونعيم بن حماد المصري ، أنه في
صورة الإنسان ، وأنه لحم ودم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين ؛
وهو مع ذلك لا يشبه غيره ، ولا يشبه غيره ، وافقهم على ذلك جماعة من العامة
ومن لا نظر له .

وحكى عن داود الجواربي أنه قال : أعفوني من الفرج واللحية وسلوني عما وراء
ذلك . وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من فيه إلى صدره ، وما سوى ذلك مُصَمَّةٌ .

وحكى أبو عيسى الوراق أن هشام بن سالم الجواليقي كان يقول : إن له وفرة سوداء .
وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالموانسة والخلوة والمجالسة والمحادثة .

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٢) ،
فقال : يُقْعَدُ مَعَهُ عَلَى سُرِيرِهِ وَيُعْلَفُهُ بِيَدِهِ .

وقال بعضهم : سألت معاذاً العنبري ، فقلت : أله وجه ؟ فقال : نعم ؛ حتى عدت

(١) سورة النور ٣٥

(٢) سورة القمر ٥٥

جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن ؛ واستحييت أن أذكر الفرج ؛ فأومأت يدي إلى فرجى ، فقال : نعم ، فقلت : أذكر أم أتى ؟ فقال : ذكر .

ويقال : إن ابن خزيمة أشكل عليه القول في أنه : أذكر أم أتى ، فقال له بعض أصحابه : إن هذا مذكور في القرآن ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ (١) ، فقال : أفدت وأجدت ؛ وأودعه كتابه .

ودخل إنسان على معاذ بن معاذ يوم عيد ، وبين يديه لحم في طَبِيخٍ سِكَبَاجٍ ، فسأله عن الباري تعالى في جملة ما سأله ، فقال : هو والله مثل هذا الذى بين يدي ، لحم ودم .
وشهد بعض المعتزلة عند معاذ بن معاذ ، فقال له : لقد هممتُ أن أسقطك ؛ لولا أنى سمعتك تلعن حماد بن سلمة ، فقال : أما حماد فلم ألعنه ، ولكنى ألعن من يقول : إنه سبحانه ينزل ليلة عرفة من السماء إلى الأرض على جبل أحر في هودج من ذهب ؛ فإن كان حماد يروى هذا أو يقوله ، فعليه لعنة الله . فقال : أخرجه فأخرج .

وقال بعضهم : خرجنا يوم عيد إلى المصلى ، فإذا جماعة بين يدي أمير (٢) ، والطبول تضرب والأعلام تخفق . فقال واحد من خلفنا : اللهم لا طَبْلَ إلا طَبْلُكَ ! فقيل له : لا تقل هكذا ، فليس لله تعالى طبل ، فبكى ، وقال : أرايتم هو يجيء وحده ولا يضرب بين يديه طبل ، ولا ينصب على رأسه علم ، فإذا هو دون الأمير !
وروى بعضهم أنه تعالى أجرى خيلا ، فخلق نفسه من مثلها .

وروى قوم منهم أنه نظر في المرآة فرأى صورته نفسه ، فخلق آدم عليها .
وروا أنه يضحك حتى تبدو نواجذه .

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) ب « أمير المؤمنين » ، والأجود ما أثبتته عن ا ، ج .

ورروا أنه أمرد جَمَدَ قَطَطٌ^(١) ، في رجليه نعلان من ذهب ، وأنه في روضة خضراء على كرسي تحمله الملائكة .

ورروا أنه يضع رجلاً على رجل ، ويستلقي فإنها جلسة الرب .
ورروا أنه خلق الملائكة من زَغَبِ ذراعيه ، وأنه اشتكى عينه فصادته الملائكة ، وأنه يتصور بصورة آدم ، ويحاسب الناس في القيامة ؛ وله حُجَاب من الملائكة يحبونه .

ورروا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « رأيت ربي في أحسن صورة ، فسألته عما يختلف فيه الملائكة الأعلى ، فوضع يده بين كتفي ، فوجدت برزخها ، فعلت ما اختلفوا فيه » .

ورروا أنه ينزل إلى السماء الدنيا في نصف شعبان . وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب . وأنه يأتي الناس يوم القيامة ، فيقول : أنا ربكم ، فقولون : نعوذ بالله منك ؛ فيقول لهم : أفتعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون : بيننا وبينه علامة فيكشف لهم عن ساقه ، وقد تحول في الصورة التي يعرفونها ، فيخرون له سجدا .
ورروا أنه يأتي في غمام ، فوقه هواء ، وتحت هواء .

وكان بطبرستان قاص من المشبهة ، يقص على الناس ، فقال يوما في قصصه : إن يوم القيامة تجيء فاطمة بنت محمد ، معها قيص الحسين ابنها تلمس القصاص من يزيد ابن معاوية ، فإذا رآها الله تعالى من بعيد ، دعا يزيد وهو بين يديه ، فقال له : ادخل تحت قوائم العرش ؛ لا تظفر بك فاطمة ، فيدخل^(٢) ويختبئ ، وتحضر فاطمة ، فتتظلم وتبكي ، فيقول سبحانه : انظري يا فاطمة إلى قدمي ، ويخرجه إليها ، وبه جرح من سهم نمرود ،

(١) قطط : قصير .

(٢) ب : « فيدخل يزيد » ، وما أثبتته عن أ ، ج

فيقول : هذا جرح نمرود في قدمي ؛ وقد عفوت عنه ، أفلا تعفين أنت عن يزيد ! فتقول :
هي : اشهد ياربّ أني قد عفوت عنه .

وذهب بعض متكلّمي المجسّمة إلى أنّ الباريّ تعالى مرّكب من أعضاء على
حروف المعجم .

وقال بعضهم : إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرّد ، في رجليه نعلان من ذهب ،
وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير .

وقال بعضهم : إنه في صورة غلام أمرّد صبيح الوجه ، عليه كساء أسود ، ملتجف به .
وسمعت أنا في عصرى هذا من قال في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ
حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ ^(١) : إنهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم ، فقال له آخر على سبيل
التهكم به : يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به ! فغضب وقال : هذا إلحاد .

وروا أنّ النار تزفر وتغنيظ تغنيظا شديدا ، فلا تسكن حتى يصع قدمه فيها ، فتقول :
قَطُّ قَطُّ ، أى حسبي حسبي . ويرفعون هذا الخبر مسندا . وقد ذكر شبيهه به في الصّحاح .
وروى في الكتب الصّحاح أيضا : « أنّ الله خلق آدم على صورته » . وقيل : إن في
التوراة نحو ذلك في السّفر الأول .

واعلم أنّ أهل التوحيد يتأولون ما يحتمل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة
غير مسبّعة ، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعون ببطلانه ؛ وبأنه موضوع ؛ وللاستقصاء
في هذا المعنى موضع غير هذا الموضع .

وحكى أبو إسحاق النّظام ومحمد بن عيسى برغوث أنّ قوما قالوا : إنه تعالى الفضاء
نفسه ، وليس بجسم ؛ لأنّ الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء .

وقال برغوث : وطائفة منهم يقولون : هو الفضاء نفسه ، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه ؛ وليس بذي غاية ولا نهاية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾^(١) .

فأما من قال : إنه جسم لا كالأجسام ؛ على معنى أنه بخلاف العرّض الذي يستحيل أن يُتوّم منه فعل ، ونفوا عنه معنى الجسيميّة ، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شيء لا كالأشياء ، وذات لا كالذوات ؛ فأمرهم سهل ؛ لأنّ خلافهم في العبارة ، وهم : على ابن منصور، والسكّك ، ويونس بن عبد الرحمن، والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قداماء رجال الشيعة . وقد قال بهذا القول ابن كرام وأصحابه ؛ قالوا : معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم ، أنه قائم بذاته لا بغيره .

والمتعصبون لهشام بن الحكم من الشيعة في وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتجسيم المعنوي ؛ وإنما قال : إنه جسم لا كالأجسام ، بالمعنى الذي ذكرناه عن يونس والسكّك وغيرهما ، وإن كان الحسن بن موسى الثوبختي - هو من فضلاء الشيعة - وقد روى عنه التجسيم المخصّص في كتاب " الآراء والديانات " .

النوع الثاني : نفي الأعضاء والجوارح عنه سبحانه ؛ فالذي يذهب إليه المعتزلة وسائر المحقّقين من المتكلمين نفي ذلك عنه ، وقد تأولوا ما ورد في القرآن العزيز من ذلك ، من نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾^(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَيَّ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾^(٣) وغير ذلك ، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة في اللغة العربية .

وأطلقت الكرامية عليه سبحانه لفظ اليدين والوجه ، وقالوا : لا تتجاوز الإطلاق ،

(١) سورة الحج ٧٨

(٢) سورة ص ٧٥ :

(٣) سورة الزمر ٤٦

ولا نفس ذلك ولا تتأوله ؛ وإنما تقتصر على إطلاق ما يزيد به النص .
وأثبت الأشعريّ الـدين صفة قائمة بالبارى سبحانه ؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم .
وقالت المجسّمة : إنّ الله تعالى يدين ؛ هما عضوان له ، وكذلك الوجه والعين ، وأثبتوا
له رِجلين قد فضّلنا عن عرشه ، وساقين يكشف عنهما يوم القيامة ، وقدّمَا يضعُها في جهنم
فتمتلي ؛ وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظا ، وحقيقة لا مجازا .
فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً ، وإنما كان يقول بترك
التأويل فقط ، ويطلق ما أطلقه الكتاب والسنة ، ولا يخوض في تأويله ؛ ويقف على
قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) ، وأكثر المحصلين من أصحابه على
هذا القول .

النوع الثالث : نفي الجهة عنه سبحانه ؛ فالذي يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحققين
من المتكلمين أنه سبحانه ليس في جهةٍ ولا مكان؛ وأنّ ذلك من توابع الجسّمية أو العرضية
اللاحقة بالجسّمية ، فإذا انتفى عنه كونه جسماً وكونه عرضاً لم يكن في جهة أصلاً ؛ وإلى هذا
القول يذهب الفلاسفة .

وذهبت الكرامية والحشوية ^(٢) إلى أن الله تعالى في جهة فوق ، وإليه ذهب هشام
ابن الحكم ، وعليّ بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وهشام بن سالم الجواليقي ،
وكثير من أهل الحديث .

وذهب محمد بن الهيصم ، متكلم الكرامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة
بنفسها عن سائر الموجودات ، لا تحلّ شيئاً حلول الأراض ، ولا تمازج شيئاً ممازجة الأجسام

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) الكرامية : أصحاب محمد بن كرام ؛ والحشوية طائفة من المشبهة ؛ سموا بذلك لأنهم لا يتعاشون من

لظهار الحشو . راجع شفاء الليل ١٠٥

بل هو مبينٌ للمخلوقين ؛ إلا أنه في جهة فَوْق ، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهى . هكذا يحكى المتكلمون عنه ، ولم أره في شئ من تصانيفه . وأحالوا ذلك ؛ لأنّ ما لا يتناهى لا يكون محصوراً بين حاصرين ؛ وأنا أستبعد عنه هذه الحكاية ؛ لأنه كان أذكى من أن يذهب عليه فساد هذا القول . وحقيقةُ مذهبِ مثبتى المكان أنه سبحانه متمكن على العرش ، كما يتمكن الملك على سريره ، فقيل لبعض هؤلاء : أهو أكبر من العرش ، أم أصغر ، أم مساوٍ له ؟ فقال : بل أكبر من العرش ، فقيل له : فكيف يحمله ؟ فقال : كما تحمِلُ رجلا الكرسيّ جسمَ الكرسيّ وجسمه أكبر من رجليه . ومنهم من يحمله مساوياً للعرش في المقدار ، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضلُ عن العرش ؛ وقد سمعت أنا من قال منهم : إنه مستوي على عرشه ، كما أنا مستوي على هذه الدّكة ^(١) ورجلاه على الكرسيّ الذي وسع السموات والأرض ، والكرسيّ تحت العرش ، كما يجمل اليوم الناس تحت أسرّتهم كراسيّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها .

وقال هؤلاء كلهم : إنه تعالى ينزل ويصعد حقيقة لا مجازاً ، وإنه يتحرك وينزل ؛ فن ذلك نزوله إلى السماء الدنيا . كما ورد في الخبر ؛ ومن ذلك إتيانه ومجيئه ، كما نطق به الكتاب العزيز في قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ^(٣) .

وأطلق ابن الهيضم عليه هذه الألفاظ اتباعاً لما ورد في الكتاب والسنة ، وقال : لا أقول بمعانيها ، ولا أعتقد حركته الحقيقية ؛ وإنما أرسلها إرسالاً كما وردت . وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة .

وقال ابن الهيضم في كتاب " المقالات " : إن أكثر الحشوية يُجيز عليه تعالى العدوّ والهرولة .

(١) الدكة « بناءً يسطح أعلاه للجلوس عليه »

(١) سورة البقرة ٢١٠

(٢) سورة الفجر ٢٢

وقال قوم منهم : إنه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان ، ويدور في السُّكَّك .
وقال بعض الأشعرين : إن سائلاً سأل السكَّك فقال : إذا أجزتَ عليه
الحركة ، فهلا أجزتَ عليه أن يطفر ! فقال لا يجوز عليه الطفر ، لأن الطفر إنما يكون
فراراً من ضدّه ، أو اتصالاً بشكل . فقال له : فالحركة أيضاً كذلك ! فلم يأت بفرق .
فأما القول بأنّه تعالى في كلّ مكان ؛ فإنّ المعتزلة يقولون ذلك ، وتريد^(١) به أنّه
وإن لم يكن في مكان أصلاً ، فإنه عالم بما في كلّ مكان ، ومدبرٌ لما في كلّ مكان ،
وكانه موجود في جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع .

وقال قوم من قدماء الفلاسفة : إنّ الباري تعالى روح شديد في غاية اللطافة ، وفي غاية
القوة ، ينفذُ في كلّ العالم . وهؤلاء يطلقون عليه أنّه في كلّ مكان حقيقة لا تأويلاً ؛ ومن
هؤلاء من أوضح هذا القول ؛ وقال : إنه تعالى سارٍ في هذا العالم سرّياً نفس الواحد منّا
في بدنه ، فكما أنّ كلّ بدن مناه نفس سارية فيه تدبره ، كذلك الباري سبحانه هو
نفس العالم ، وسارٍ في كلّ جزء من العالم ؛ فهو إذاً في كلّ مكان بهذا الاعتبار ، لأنّ
النفس في كلّ جزء من البدن .

وحكى الحسن بن موسى النوبختي عن أهل الرِّواق من الفلاسفة ؛ أنّ الجوهرَ الإلهيَّ
سبحانه رُوح نارى عقلى ؛ ليس له صورة ، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأى صورة شاء ،
ويتشبه بالكلِّ ، وينفذ في الكلِّ بذاته وقوته ؛ لا بعمله وتديبره .

النوع الرابع : نفى كونه عَرَضاً حالاً في الحلِّ ؛ فالذى تذهب إليه المعتزلة وأكثَر
المسلمين والفلاسفة نفى ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده ، وكونِ كلّ
حالٍ في الأجسام ممكناً بل حادثاً .

(١) ب : « فإنّ المعتزلة يقولون ذلك ويريدون .. » .

وذهبت الحُلُولية من أهل الملة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ في بعض الأجسام دون بعض؛ كما يشاء سبحانه، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغلاة في أمير المؤمنين. ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه؛ واتبهم على هذه المقالة قومٌ من المتصوفة كالحلاجية والبسطامية وغيرهم.

وذهبت النسطورية^(١) من النصارى إلى حلول الكَلِمة في بدن عيسى عليه السلام؛ كحلول السّواد في الجِسم.

فأما اليعقوبية^(٢) من النصارى، فلا تثبت الحلول؛ وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهي والجوهر الجسماني؛ وهو أشدُّ بعداً من الحلول.

النوع الخامس: في نفي كونه تعالى محلاً لشيء؛ ذهب المعتزلة وأكثر أهل الملة والفلاسفة إلى نفي ذلك؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه.

وذهبت الكرامية إلى أن الحوادث تحلّ في ذاته، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالاً في ذاته؛ وهو الإحداث، فحدث ذلك الجسم مقارناً لذلك المعنى أو عقبيه، قالوا: وذلك المعنى هو قول «كن» وهو المسمى خَلْقاً، والخلق غير المخلوق؛ قال الله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٣)، قالوا: لكنّه قد أشهدنا ذاتها، فدلّ على أن خلقها غيرها.

(١) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم؛ ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل برأيه. وانظر الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٠٥ - ٢٠٦.
 (٢) اليعقوبية أصحاب يعقوب؛ قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً؛ فصار الإله هو المسيح. . . . الشهرستاني ١: ٢٠٦ - ٢٠٨.
 (٣) سورة الكهف ٥١.

وصرح ابن الهيثم في كتاب " المقالات " بقيام الحوادث بذات البارى فقال : إنه تعالى إذا أمرَ أونهى ، أو أراد شيئاً كان أمرُه ونهيُه وإراداته كائنة بعد أن لم تكن ؛ وهى قائمة به ، لأنّ قوله منه يسمع ، وكذلك إرادته منه توجد .

قال : وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلاً على حدوثه ، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقبُ الأضداد التى لا يصحّ أن يتعطلّ منها ، والبارى تعالى لا تتعاقب عليه الأضداد .

وذهب أبو البركات البغدائى صاحب "المعتبر" إلى أن الحوادث تقوم بذات البارى سبحانه ؛ وأنه لا يصحّ إثبات الإلهية إلا بذلك . وقال : إن المتكلمين ينزهونه عن ذلك ، والتنزيه عن هذا التنزيه ، هو الواجب .

وذهب أصحابنا وأكثرت المتكلمين إلى أنّ ذلك لا يصحّ فى حق واجب الوجود ، وأنه دليل على إمكان ذاته ؛ بل على حدوثها . وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات - يعنون الأحوال لا المعانى - ؛ نحو كونه مدركا بعد أن لم يكن . وكقول أبى الحسين : إنه يتجدّد له عالمية بما وجد ؛ وكان من قبل علماً بأنه سيوجد ؛ وإحدى هاتين الصفتين غير الأخرى .

وقالوا : إن الصفات والأحوال قيل^(١) مفرد عن المعانى ، والمحال إنما هو حلول المعانى فى ذاته لا تجدد الصفات لذاته ؛ ولل كلام فى هذا الباب موضع هو أليق به .

النوع السادس : فى نفى اتحاده تعالى بغيره ؛ ذهب أكثر العقلاء إلى استحالة ذلك ؛ وذهبت العقويّة من النصارى إل أن الكلمة اتحدت بعبسى ، فصارت جوهراً من جوهرين : أحدهما إلهى ، والآخر جسمانى . وقد أجاز الاتحاد فى نفس الأمر لافى ذات

(١) قيل ، أى قول .

البارى قومٌ من قدماء الفلاسفة ، منهم فرغوريوس . وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أن النفس إنما تمقل المعقولات ؛ لاتحادها بالجواهر المفارق المفيض للنفوس على الأبدان ؛ وهو المسمى بالعقل الفعّال .

النوع السابع : فى نفى الأعراض الجسمانية عنه من التعب والاستراحة ، والألم واللذة ، والغمّ والسرور ؛ ونحو ذلك .

وذهبت المعتزلةُ وأكثر العقلاء من أهل الملة وغيرهم إلى نفى ذلك ؛ والقول باستحالته عليه سبحانه .

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللذة عليه ؛ وقالوا : إنه يلتذ بإدراك ذاته وكأله ؛ لأن إدراك الكمال هو اللذة أو سبب اللذة ؛ وهو تعالى أكمل الموجودات ، وإدراكه أكل الإدراكات ؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالي^(١) من الأشعرية .

وحكى ابن الراوندى عن الجاحظ أن أحد قدماء المعتزلة - ويعرف بأبى شعيب - كان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ ، والفيرة والأسف ؛ ويذكر فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « لأحد أغيرُ من الله ، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها » . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾^(٢) ، وقال مقال المتحسر^(٣) على الشيء : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾^(٤) ، وحكى عنه أيضاً أنه يجوّز عليه أن يتعب ويستريح ؛ ويحتج بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُتُوبٍ ﴾^(٥) .

(١) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي صاحب الإحياء .

(٢) سورة الزخرف ٥٥

(٣) كذا فى ا ، ج ، وف ب ا « حكاية عن التحسر » .

(٤) سورة يس ٣٠

(٥) سورة ق ٣٨

وهذه الألفاظ كلها عند أصحابنا متأولة محمولة على محامل صحيحة ؛ تشتمل على شرحها الكتب المبسطة .

النوع الثامن : في أنه تعالى ليس بمتلّون . لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلّون ؛ وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتجسيم إلى أنه نور ؛ فإذا أبصرته العيون ، وأدركته أبصرت شخصا نورانيا مضيئا ؛ لم يزيدوا على ذلك ، ولم يصرحوا بإثبات اللون بهذه العبارة ؛ وإن كان كل مضيء ملونا .

النوع التاسع : في أنه تعالى لا يشتهي ولا ينفّر . ذهب شيوخنا المتكلمون إلى أنه سبحانه لا يصحّ عليه الشهوة والنفرة ؛ لأنهما إنما يصحّان على ما يقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء والنمو ، والبارى سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك ؛ وما عرفت لأحد من الناس خلافا في ذلك ؛ اللهم إلا أن يطلق هاتان اللفظتان على مسمى الإرادة والكراهية ؛ على سبيل المجاز .

النوع العاشر : في أنّ الباري تعالى غير متناهي الذات . قالت المعتزلة : لما كان الباري تعالى ليس بجسم ولا جسماني ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادير ؛ يقال : هذا الجسم متناهٍ ، أي ذو طرفٍ .

قلنا : إن ذات الباري تعالى غير متناهية ؛ لاعلى معنى أن امتداد ذاته غير متناهٍ ؛ فإنه سبحانه ليس بذى امتدادٍ ، بل بمعنى أن الموضوع الذي يصدق عليه النهاية ليس بمتحقق في حقه سبحانه ؛ فقلنا : إن ذاته غير متناهية ؛ كما يقول المهندس : إن النقطة غير متناهية ؛ لاعلى معنى أن لها امتدادا غير متناهٍ ، فإنها ليست بمتددة أصلا ؛ بل على معنى أن الأمر

الذي تصدق عليه النهاية - وهو الامتداد - لا يصدق عليها ؛ فإذا صدق عليها أنها غير متناهية . وهذا قولُ الفلاسفة وأكثَر المحققين .

وقالت الكرامية : البارئ تعالى ذاتٌ واحدةٌ منفردة عن العالم قائمة بنفسها ، مباينة للموجودات ، متناهية في ذاتها ؛ وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها ، ونصرّم بقائها .

وأطلق هشام بن الحكم وأصحابه عليه تعالى القول بأنه متناهي الذات ؛ غير متناهي القدرة .

وقال الجاحظ : إن قوماً زعموا أنه تعالى ذاهبٌ في الجهات الست ، التي لانهاية لها .

النوع الحادى عشر : فى أنه تعالى لا تصح رؤيته . قالت المعتزلة : رؤية البارئ تعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ؛ وإنما يصح أن يرى المقابل ذو الجهة .

وقالت الكرامية والحنابلة والأشعرية : تصح رؤيته ويرى فى الآخرة ؛ يراه المؤمنون ؛ ثم اختلفوا ، فقالت الكرامية والحنابلة : يرى فى جهة فوق ، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبى^(١) أنهم أجازوا رؤيته فى الدنيا ، وملاسته ومصاحته ؛ وزعموا أن الخالصين يعانقونه متى شاءوا ، ويسمون الحبية .

وحكى شيخنا أبو الحسين فى " التصفح " عن أيوب السجستاني من المرجئة ، أن البارئ تعالى تصح رؤيته ولسه .

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى ، وأن الناس كلهم كافرهم ومؤمنهم يرونه ؛ ولكن لا يعرفونه .

(١) كذا فى ١ ، وفى الحاشية نقلا عن القاموس : أحمد بن عبد الله الجبى ، ويقال : الجباني ، ليعه الجباب ، عدت ، وفى ب : « انجمى » .

وقال مَنْ ترفع عن هذه الطبقة منهم : لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء ؛ وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء .

وقال كثير من هؤلاء : إن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج . ورووا عن كعب الأخبار أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليه السلام .

وروا عن المبارك بن فضالة أن الحسن كان يحلف بالله : قد رأى محمداً ربه . وتعلق كثير منهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رآه نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ^(١) ، وقالوا : كلمه موسى عليه السلام مرتين ، وراه محمد صلى الله عليه وآله مرتين .

وأنكر ابن الهيضم مع اعتقاده أقوال الكرامية ذلك ، وقال : إن محمداً صلى الله عليه وآله لم يره ، ولكنه سوف يراه في الآخرة .

قال : وإلى هذا القول ذهب عائشة وأبو ذر وقتادة ؛ وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود .

واختلف من قال : إنه يرى في الآخرة ؛ هل يجوز أن يراه الكافر ؟ فقال أكثرهم : إن الكفار لا يرونه ؛ لأن رؤيته كرامة ، والكافر لا كرامة له . وقالت السالمية وبعض الحشوية : إن الكفار يرونه يوم القيامة ؛ وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة ؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيضم .

فأما الأشعري وأصحابه ؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه يرى كما يرى الواحد منا ، بل قالوا : يرى ؛ وليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ولا وراء ؛ ولا يرى كله ولا بعضه ؛ ولا هو في مقابلة الرأي ، ولا منحرفاً عنه ؛ ولا تصح الإشارة إليه إذا رُئي ،

وهو^(١) مع ذلك يرى ويبصر. وأجازوا أيضا عليه أن تُسمع ذاته ، وأن تشمّ وتذاق وتحسّ ، لاعلى طريق الاتصال ، بل تتعلق هذه الإدراكات كلها بذاته تعلقاً عارياً عن الاتصال .

وأنكرت الكرامية ذلك ولم يُحيزوا عليه إلا إدراك البصر وحدّه ، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في ” التصفّح “ ، وألزمهم أحد أمرين ؛ إما نفي الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات ، كما يقوله الأشعرية .

وذهب ضرار بن عمرو ، إلى أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة بحاسة سادسة لابهذا البصر . وقيل ذلك عن جماعة غيره .

وقال قوم : يجوز أن يحوّل الله تعالى قوّة القلب إلى العين ، فيعلم الله تعالى بها ، فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنه بقوّة القلب ، ورؤية باعتبار أنه قد وقع بالمعنى الحالّ في العين .

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله عليه السلام بنفي التشبيه عليها ؛ وسيأتي من كلامه عليه السلام في نفي التشبيه ما هو أشدّ تصريحاً من الألفاظ التي نحن في شرحها .

الفصل الخامس

في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام : « فهو الذي تشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذى الوجود » .

لاشبهة في أنّ العلم بانتقار المتغيّر إلى المتغيّر ضروريّ ؛ والعلم بأنّ المتغيّر ليس هو المتغيّر

(١) ب : « ومع ذلك » .

إما أن يكون ضروريا أو قريبا من الضروري ، فإذا قد شهدت أعلام الوجود على أن الجاحد لإثبات الصانع ؛ إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه ؛ لأنّ العقلاء لا يجحدون الأوليات بقلوبهم ، وإن كانوا بألسنتهم ؛ ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفي الصانع سبحانه .

وأما القائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة ، وأنّ الطبيعة هي المديرّة له ، والقائلون بتصادم الأجزاء في الخلاء الذي لانهاية له ؛ حتى حصل منها هذا العالم . والقائلون بأنّ أصل العالم وأساس بنيته هو التور والظلمة ، والقائلون بأنّ مبادئ العالم هي الأعداد المجردة ، والقائلون بالهَيُولَى القديمة ؛ التي منها حدث العالم ، والقائلون بعشق النفس للهَيُولَى ؛ حتى تكونت منها هذه الأجسام ؛ فكلّ هؤلاء أثبتوا الصانع ، وإنما اختلفوا في ماهيته وكيفية فعله .

وقال قاضى القضاة : إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفي الصانع للعالم بالكلية ؛ ولكن قوما من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة ؛ لم يذهب أحد إليها ؛ وهى أنّ العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ؛ وإنما هو هكذا مازال ، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر .

قال : وأخذ ابن الراوندىّ هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب ” التاج “ قال : فأما الفلاسفة القدماء والمتأخرون ، فلم ينفوا الصانع ؛ وإنما نفوا كونه فاعلا بالاختيار ؛ وتلك مسألة أخرى . قال : والقول بنفي الصانع قريب من القول بالسفسطة ؛ بل هو هو بعينه ؛ لأنّ من شكّ في المحسوس أعذر ممن قال : لن المتحركات تتحرك من غير محرك حرّ كها .

وقول قاضى القضاة هذا ، هو محض كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينه ؛ وليس قول الجاحظ هو هذا ؛ لأنّ الجاحظ يذهب إلى أنّ جميع المعارف والعلوم الإلهية ضرورية ؛ ونحن ما دعينا في هذا المقام إلا أنّ العلم بإثبات الصانع فقط هو الضرورى ؛ فأين أحدُ القولين من الآخر !

ومن فطنة له عليه السلام :

الأضل :

إنما بدئه وقوع الفتن أهوالاً تُتَّبَع ، وأحكامٌ تُبْتَدَع ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ
وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا ؛ عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْخَلْقِ
لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ ؛ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ
الْمُعَانِدِينَ ؛ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، فَيُمَزَّجَانِ ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوِلِي
الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى .

الشيخ :

المرتاد : الطالب . والضغث من الحشيش : القبضة منه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَخَذَ

بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ ^(١) .

يقول عليه السلام : إن المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتن الناس بها ، أصلها
اتباع الأهواء ، وابتداع ^(٢) الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب ، وتحمل العصبية والهوى
على تولي أقوام قالوا بها ، على غير وثيقة من الدين . ومستند وقوع هذه الشبهات امتزاج
الحق بالباطل في النظر الذي هو الطريق إلى استعلام الجهولات ؛ فلو أن النظر تخلص
مقدماته وترتيب قضاياه من قضايا باطلة ، لكان الواقع عنه هو العلم المحض ، وانقطع عنه
ألسن المخالفين ؛ وكذلك لو كان النظر تخلص مقدماته من قضايا صحيحة ، بل كان كله مبنيًا

(٢) سورة م ٤٤

(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « اتباع » .

على الفساد ، لظهر فساده لطلبة الحق ؛ وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضايه الصادقة بالقضايا الكاذبة .

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ الباري تعالى ذاتٌ موجودة ، وكلّ موجود يصحّ أن يُرَى ؛ فأحدى المقدمتين حقّ ، والأخرى باطل ، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس .

ومثال ما يكون المقدّمتان جميعا باطلتين ، قول قوم من الباطنية : الباري لا موجود ولا معدوم ؛ وكلّ ما لا يكون موجودا ولا معدوما يصحّ أن يكون حيا قادرا ، فالباري تعالى يصحّ أن يكون حيا قادرا ؛ فهاتان المقدمتان جميعا باطلتان . لا جرّم أن هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء !

ومثال ما تكون مقدّماته حقا كلّها : العالم متغيّر ، وكلّ متغيّر ممكن ؛ فالعالم ممكن ؛ فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء .

فإن قيل : فما معنى قوله عليه السلام : « فهناك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنی » ، أليس هذا إشعاراً بقول المجبرة وتلويحاً به !
قيل : لا إشعار في ذلك بالجبر ، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج في النظر الحقّ بالباطل ، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفسادة ، تمكّن الشيطان من الإضلال والإغواء ، ووسوس إلى المكلف ، وخيّل له النتيجة الباطلة ، وأماله إليها ، وزينها عنده ؛ بخلاف ما إذا كانت المقدمات حقا كلّها ؛ فإنه لا يقدر الشيطان على أن يخيل له ما يخالف العقل الصريح ولا يكون له مجال في تزوين الباطل عنده ؛ ألا ترى أنّ الأوليات لا سبيل للإنسان إلى جحدها وإنكارها ، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك !

ومعنى قوله : « على أوليائه » ، أى إلى مَنْ عنده استعداد للجهل ، وتمرن على اتباع الهوى ، وزهد فى تحقيق الأمور العقلية على وجهها ، تقليداً للأسلاف ، ومحبةً لاتباع المذهب المألوف ؛ فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضله ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؛ وهم الذين يتبعون محض العقل ، ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق^(١) ؛ يجهدون فى البحث عن مقدمات أنظارهم ؛ وليس فى هذا الكلام تصريح بالجبر ؛ ولا إشعار به على وجه من الوجوه ؛ وهذا واضح .

وحل الراوندى قوله عليه السلام : « فلو أن الباطل خَلص ... » إلى آخره ، على أن المراد به نفي القياس فى الشرع ، قال : لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق ، فيمتزج المجهول بالمعلوم ، فيلتبس ويظنُّ لامتزاج بعضه ببعض حقاً ، وهذا غير مستقيم ؛ لأن لفظ الخطبة أن الحق يمتزج بالباطل ، وأصحاب القياس لا يسلّمون أن استخراج العلة من الحكم المعلوم باطل ؛ بل يقولون إنه حق ؛ وإن الدليل الدالّ على ورود العبارة بالقياس ، قد آمنهم من كونه باطلاً .

واعلم أن هذا الكلام الذى قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته ، وإن لم تفسره على ما قدمناه من التفسير ؛ فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة ، من أهل الملة الإسلامية وغيرها ؛ إنما ضلّ أكثرهم بتقليد الأسلاف ؛ ومن يحسنُ الظن فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب ؛ وإنما قلّدهم الأتباع ؛ لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم ، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها ، وإقبالهم على العبادة ، وتمسكهم بالدّين ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وشدّتهم فى ذات الله ، وجهادهم فى سبيله ، وقوتهم فى

مذاهبهم، وصلابتهم في عقائدهم ؛ فاعتقد الأتباع والخلف والقرون التي جاءت بعدهم أنّ هؤلاء يجب اتباعهم ، وتحريم مخالفتهم ، وأنّ الحق معهم ، وأنّ مخالفتهم مبتدع ضالّ ، فقلدوهم في جميع ما نقل إليهم عنهم ، ووقع الضلال والغلط بذلك ؛ لأنّ الباطل استتر وانفمر بما مزجه من الحقّ الغالب الظاهر المشاهد عيانا ، أو الحكم الظاهر : ولولاه لما تروج الباطل ، ولا كان له قبول أصلا .



(٥١)

ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام
على سريفة الفرات بصفين وضوهم من الماء :

الأضلُّ:

قَدِ اسْتَطَعْمُوكُمْ الْقِتَالَ ، فَأَقْرُوا عَلَى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ ، أَوْرَوْوا السُّيُوفَ
مِنَ الدِّمَاءِ تَرَوْوا مِنْ الْمَاءِ ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ
قَاهِرِينَ .

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادِمَةٌ مِنَ النُّوَاةِ ، وَعَمَسَ عَلَيْهِمُ الْخَبْرَ ، حَتَّى جَمَلُوا نُحُورَهُمْ
أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ .

الْبُنْحُ:

استطعموكم القتال ، كلمة مجازية ، ومعناها طلبوا القتال منكم ؛ كأنه جعل القتال شيئاً
يُستطعم ، أى يُطلب أكله ، وفي الحديث : « إذا استطعمكم الإمام فأطعموه » ، يعنى
إمام الصلاة ، أى إذا أرتجح فاستفتحكم ، فافتحوا عليه .

وتقول : فلان يستطعمنى الحديث ؛ أى يستدعيه منى ويطلبه .

واللغة ، بالتخفيف : جماعة قليلة .

وعمس عليهم الخبر ؛ يجوز بالتشديد ، ويجوز بالتخفيف ، والتشديد يعطى الكثرة
ويفيدها ؛ ومعناه : أبهم عليهم الخبر ، وجعله مظلماً . ليلٌ عماس ، أى مظلم ، وقد عمس الليل نفسه

بالكسر ؛ إذا أظلم وعمته غيره ، وعمت عليه عسا ، إذا أريته أنك لا تعرف الأمر وأنت به عارف .

والأغراض : جمع غرض وهو الهدف .

وقوله : « فأقروا على مذلة وتأخير محلة » ، أى اثبتوا على الذل وتأخر المرتبة والمنزلة ، أو قاضوا كذا وكذا .

ونحو قوله عليه السلام : « فالموت فى حياتكم مقهورين » قول أبى نصر بن نباتة :
والحسينُ الذى رأى الموت فى العِزِّ حياة والعيش فى الذلِّ قتلا
وقال التهامي :

وَمَنْ فَاتَهُ نَيْلُ الْعَلَا بِمُلُومِهِ وَأَقْلَامِهِ فَلْيَنْفِهَا بِحُسَامِهِ (١)
فوتُ الفتى فى العِزِّ مثلُ حياتِهِ وَعِيشَتُهُ فى الذَّلِّ مثلُ حِمَامِهِ

[الأشعار الواردة فى الإباء والأنف من احتمال الضيم]

والأشعار فى الإباء والأنف من احتمال الضيم والذل والتعريض على الحرب كثيرة ؛
ونحن نذكر منها هاهنا طرقاتاً ؛ فمن ذلك قول عمرو بن برة الهمداني :

وَكَيفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلَّ مَالِهِ حُسَامٌ كُلُّونَ الْمَلْحِ أَيْضُ حَارِمٍ (٢)
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَأْخُذُونَهَا مِرَاعِمَةً مَا دَامَ لِلسَّيْفِ قَائِمٌ
وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمُنْعَ بِالْقَنَا يَعْشُ مَا جَدَّ أَوْ تَحْتَرِمُهُ الْخَوَارِمُ (٣)

(١) ديوانه ٣٣

(٢) من أبيات له فى الأغاني ٢١ : ١١٣ - ١١٤

(٣) الأغاني : « المحارم » .

ومثله :

ومن يطلب المال المنع بالقنا
وقال حرب بن مسعر :

عظفت عليه المهر عطفة بأسل
فأوجرتته لدن الكعوب متقفا
وقال الحارث بن الأرقم :

وما ضاق صدرى بأسلئمتي بسخطكم
تروك لدار الخسف والضيم منكر
إذا سامني السلطان ذلاً أيتته
وقال العباس بن مرداس السلمى :

و لكنني في الحاديات صليب
بصير بفعل المكرمات أريب
ولم أعط خنفاً ما أقام عيب
وقال وهب بن الحارث :

أن يقبلوا الخسف من ملك وإن عظما
لا كان منا غداة الروع منهزما
لا تحبسنى كأقوام عبت بهم
لا تعلقنى قذاة لست فاعلها
قد علمت بأنى غير مهتضم
وقال المسيب بن علس :

لن يأنفوا الذل حتى تأنف الحمر
واحذر شبأتى فقديماً ينفع الحذر
حتى يلوح يبطن الراحة الشعر
دأبلغ ضبيعة أن البلا

دأبلغ ضبيعة أن البلا

وقد يقعدُ القومُ في دراهمُ إذا لم يُضامُوا وإن أُجذبُوا
وَيَرْتَحِلُ القومُ عِنْدَ الهوا نَ عَنْ دارِهِمْ بَعْدَما أَخْصَبُوا
وَقَدْ كَانَ سَامَةً فِي قَوْمِهِ لَهُ مَطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسَامُوهُ خَسْفًا فَلَمْ يَرْضَهُ وَفِي الأَرْضِ عَنْ ضَمِيمِهِمْ مَهْرَبُ
وقال آخر :

إن الهوانَ حَمَارُ القومِ بَعْرِفُهُ والحِرُّ يَنْكِرُهُ والرَّسَلَةُ الأَجْدُ^(١)
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الأَذْلَانَ عَيْدُ الحَيِّ وَالْوَيْدُ^(٢)
هَذَا عَلَى الخَسْفِ مَشْدُودٌ بِرُمْتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَأْوِي لَهُ أَحَدُ^(٣)
فإن أقمتمُ عَلَى ضَمِيمٍ يُرَادُ بِكُمْ فإن رَحِمْنِي لَهُ وَالِ وَمُعْتَمِدُ
وفي البلادِ إذا ماخفتُ بادرَةَ مكروهَةً عن ولاةِ السَّوءِ مُفْتَقِدُ
وقال بعضُ بني أسد :

إني امرؤٌ من بني خزيمة لا أطمُ خَسْفًا لِناعِبِ نَعْبَا
لستُ بمعطيِّ ظلامَةٍ أبدا عُجْمًا ولا أَتَقِي بها عَرَبًا

دخل مويك السدوسي إلى البصرة يتبع إبلا ، فأخذ عامل الصدقة بعضها ، فخرج إلى
البادية ، وقال :

ناقُ إني أرى المُقامَ على الضَّيْمِ عَظِيمًا فِي قُبَّةِ الإِسْلامِ
قد أَرَانِي وَليِّ مِنَ العَامِلِ النَّصِّ فُبِحْدِ السَّنَانِ أَوْ بِالْحُسَامِ

(١) للمتلس ، معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . الرسالة : الناقة السهلة السير . والأجد :
الموثقة الخلق

(٢) العير ، بفتح العين : الحمار ، وغلب على الوحشي ؛ والمراد به هنا الأهل .

(٣) الرمة : القطعة من الحبل ، وأوى له ، أى رفق .

وقال يزيد بن المقرغ الحميري :

لاذعرتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصَّبِّ ح مُفِيداً وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدَا (١)
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ المَحَافَةِ ضَبًّا والنَّايَا يَرُودَنِي أَنْ أَحِيدَا (٢)

وقال آخر :

لا تَحْسِبْنِي يَا أَمَا مة عاجزاً دَنَساً ثِيَابُهُ
إِنِّي إِذَا خَفْتُ المَوَا نَ مُشِيعٌ ذُلُّ رِكَابُهُ (٣)

مثله قول عنزة :

ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شِئْتُ مُشَابِعِي لِي وَأَحْفِزُهُ بِرَأْيِ مُبْرَمٍ (٤)

وقال آخر :

أَخْشِيَةَ المَوْتِ دَرٌّ دَرٌّ كُمْ أَعْطَيْتُمُ القَوْمَ فَوْقَ مَا سَأَلُوا !
إِنَّا لَعَمْرُؤُ الإِلهِ نَأْتِي الَّذِي قَالُوا وَلَمَّا تُقْصِفِ الأَسْلُ
تَقْبَلُ ضِيَاءً وَنَحْنُ نَعْرِفُهُ مَادَامَ مِنَّا بِظَهْرِهَا رَجُلُ

وقال آخر :

وَرُبَّ يَوْمٍ حَبَسْتُ النَفْسَ مُكْرَهَةً فِيهِ لَا كَبِتَ أَعْدَاءُ أَحَاشِيهَا
أَبِي وَأَنْفُ مِنْ أَشْيَاءِ آخِذُهَا رَثَ القُوَى ، وَضَعِيفُ القَوْمِ يُعْطِيهَا

مثله للشداخ :

أَبِينَا فَلَا نُعْطِي مَلِيكاً ظَلَامَةً وَلَا سُوقَةَ إِلا الوَشِيحِ المَقُومَا (٥)

(١) السوام : الإبل الراحية .

(٢) يرصدني ، يراقبني .

(٣) المشيع : الشجاع .

(٤) من اللقطة ٢٠٥ - بشرح التبريزي . ذلل : جمع ذلول ؛ وهو من الإبل وغيرها ضد الصمب ؛ والمشايع

الشجاع ؛ مثل المشيع ؛ كأن قلبه لا يخذله فهو يشيعه . وأحفزه : أذفمه . والبرم : المحكم .

(٥) يعنى بالوشيح الريح .

وإلا حُساماً يَبْهَرُ العَيْنَ لَمَحُهُ كصاعقةٍ في عارضٍ قد تَبَسَّماً

[أباة الضيم وأخبارهم]

سيد أهل الإباء ، الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف ، اختياراً له على
الدينية ، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ؛ عُرِضَ عليه الأمان
وأصحابه ، فأنف من الدلّ ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوعٍ من الهوان ؛ إن لم يقتله^(١) ،
فاختار الموت على ذلك .

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوي البصري ، ، يقول : كأن أبيات أبي
تمام في محمد بن حُميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين عليه السلام :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهلاً فَرَدَّهُ إِلَيْهِ الحِفاظُ المُرُّ والحَلْقُ الوَعْرُ

وَنَفْسٌ تَعافُ الضَّيْمَ حَتَّى كَانَتْ هُوَ الكَفْرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونَهُ الكَفْرُ

فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ وَقَالَ لَهَا : مِنْ تَحْتِ أَحْمَصُكَ الحَشْرُ

تَرَدَّى ثِيَابَ المَوْتِ حُمْراً فَأَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلا وَهَى مِنْ سُنْدِسٍ خَضْرُ

لما قرأ أصحاب مصعب عنه ، وتخلّف في نفر يسير من أصحابه ، كسر جفن

سيفه ، وأنشد :

فَإِنَّ الأَوَّلَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هاشمٍ تَأَسَّؤاً فَسَنُّوا لِلِكِرَامِ التَّأْسِياً^(٢)

فلم أصحابه أنه قد استقتل .

ومن كلام الحسين عليه السلام يوم الطف المنقول عنه ، نقله عنه زين العابدين علي

ابنه عليه السلام : « ألا وإنّ الدعى ابن الدعى ، قد خيّرنا بين اثنتين : السّلة^(٣) »

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « مع أنه لم يقتله » .

(٢) لسليمان بن قتيبة . اللسان ٨ : ٣٧ ؛ والطف : من ضاحية الكوفة ؛ كان فيها مقتل الحسين عليه السلام .

(٣) السل : انتزاعك الشيء وإخراجك إياه في رفق ؛ وعند السّلة : أي عند استلال السيوف .

أَو الذَّلَّةُ ، وَهِي هَاتِ مَنَا الذَّلَّةُ ! يَا بِي اللهُ ذَلِكَ لَنَا وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَحُجُورٌ طَابَتْ ، وَحُجُزٌ طَهَّرَتْ ^(١) ، وَأَنْوْفٌ حَمِيَّةٌ ، وَنَفُوسٌ أَيْبَةٌ .

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم : « إِنْ أَمْرًا أَمَكْنَ عَدُوًّا مِنْ نَفْسِهِ ، يَمْرُقُ لِحْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، لِعَظِيمِ عَجْزِهِ ، ضَعِيفِ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحَ صَدْرِهِ . فَكُنْ أَنْتَ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَدُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالمَشْرِيقِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ المَاهِمِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ » .

وقال العباس بن مرداس السلمي :

مقال امرئٍ يُهدى إليك نصيحة ^(٢) إذا معشرٌ جادوا بعرضك فأنخل ^(٣)
وإن بؤهوك منزلا غير طائل ^(٣) غليظاً فلا تنزل به وتموّل
ولا تطعمن ما يعلفونك إنهم ^(٤) أتوك على قرباهم بالمثل ^(٤)
أراك إذا قد صرت للقوم ناضحاً ^(٥) يقال له بالعرب أدبر وأقبل ^(٥)
فخذها فليست للعزيز بخطّة ^(٥) وفيها مقامٌ لامرئٍ متذلّل ^(٥)

(١) الحجز : جمع حجرة ، حيث يثنى طرف الإزار ، كناية عن العفة

(٢) من أبيات في الحماسة ٢ : ١١ - بشرح التبريزي ، مطلعها :

أَلَا ابْلِغْ أَبَا سَلَمَى رَسُولًا يَرُوعُهُ وَلَوْ حَلَّ ذَا سِدْرٍ وَأَهْلِي بَعَسَجَلِ

(٣) الحماسة : « مركا غير طائل » .

(٤) قال التبريزي : التمثل : هو السم الذي قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ . . . أي سقوك

السم وإن كانوا أقرباءك فلا تفر بهم وكن ذا أفة » . وبمده في رواية التبريزي :

أبعد الإزار مجسداً لك شاهداً أتيت به في الدار لم يتزبل

(٥) الناضح : البعير الذي يستقى عاياه الماء ، قال التبريزي : « يقول : أبعد الإزار مخضوباً بالهم أتيت

به في الدار شاهداً تصالحهم ! فإن فعلت ذلك صرت كالناضح للقوم اتقاداً لهم » .

وله أيضا :

فحارب فإن مولاك حاردا نصره
ففي السيف مولى نصره لا يجارده^(١)

وقال مالك بن حريم الهمداني :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ
فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالِ هَمْدَانَ ظَالِمٌ!^(٢)
مَتَى تَجْمَعِ الْقَلْبَ الذِّكْيَ وَصَارِمًا
وَأَنفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ

وقال رشيد بن رُمَيْض العنزي :^(٣)

باتوا نياما وابنُ هند لم ينم
بَاتَ يُقَاسِمُهَا غُلَامٌ كَالزَّلَمِ^(٤)
خَدَلَجُ السَّاقِبِينَ خَفَّاقُ الْقَدَمِ^(٥)
قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمِ^(٦)
ليسَ براعي إبلٍ وَلَا غَنَمِ
وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمِ^(٧)

* مَنْ يَلْقَنِي يُودِ كَمَا أُوْدَتِ إِرَمُ *

وقال آخر :

وَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَبِ
وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سَلَمًا^(٨)
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي
عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا

- (١) ديوان الحماسة ٢ : ١٥ - بشرح التبريزي : وحاردا نصره ؛ أى امتنع ؛ والمحارداة فى الأصل قلة اللين ، واستعير هنا
(٢) من قصيدة له فى الأغاني ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ ، وحريم ، ضبطه البكري فى اللآلى ٧٤٨ ؛ بالماء والراء المهملتين ، الحاء مفتوحة ، وازاء مكسورة ، وقال : « ومن روى حريم ، بالزى فقد صحف » .
(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٣٣ - بشرح التبريزي ؛ من وصف غارة .
(٤) الزلم : القدح ؛ يقاسمها ، أى يعانى القارة كيف يوقمها ويدبرها .
(٥) خدلج الساقين : ممتنهما . خفاق القدم : سربح الخطو ؛ ضراب بها للأرض .
(٦) قد لفها ، أى الإبل ؛ وجعل القمل لليل على الحجاز . والحطم : الذى لا يبق من السير شيئا ؛ والمعنى أنه جمعها برجل متناهى القوة ، عنيف السوق .
(٧) الوضم : كل ما قطع عليه النجم .
(٨) للحصين بن حمام المري ، المفضليات ٦٥ مع اختلاف فى الرواية .

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب ؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته ؛
لأسباب ليس هذا موضع ذكرها ، فلما أفضت إليه الخلافة ، وخلصه يزيد بن المهلب ،
ونزع يده من طاعته ، وعلم أنه إن ظفر به قتله وناله من الهوان ما يقتل دونه ، فدخل
البصرة ومَلَكَهَا عَنوةً ، وحبس عدى بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها ، فسرح
إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً ، يشتل على ثمانين ألفاً من أهل الشام والجزيرة ،
وبعث مع الجيش أخاه مسلمة بن عبد الملك ، وكان أعرف الناس بقيادة الجيوش وتديبها ،
وأيمن الناس نقيبةً في الحرب ، وضم إليه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فسار
يزيد بن المهلب من البصرة ، فقدم واسطاً ، فأقام بها أياماً ، ثم سار عنها فنزل العقر^(١) ،
واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً ، وقدم مسلمة بجيوش الشام ، فلما تراءى
العسكران ، وشبت الحرب ، أمر مسلمة قائداً من قواده أن يحرق الجسور التي كان عقدها
يزيد بن المهلب فأحرقها ، فلما رأى أهل العراق الدخان قد علا انهزموا ، فقبل ليزيد
ابن المهلب : قد انهزم الناس ، قال : ومم انهزموا ؟ هل كان قتال ينهزم الناس من مثله ؟
فقبل له : إن مسلمة أحرق الجسور فلم يثبتوا ، فقال : قبحهم الله ! بقى دُخْنٌ عليه فطار !
ثم وقف ومعه أصحابه ، فقال : اضربوا وجوه المهزيمين ، ففعلوا ذلك حتى كثروا عليه ،
واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : دعوهم قبحهم الله ! غنم عداء في نواحيها الذئب . وكان
يزيد يتحدثُه نفسه بالفرار ، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي بواسطة ،
فقال له :

فِئْسَ مَلِكًا أَوْ مُتْ كَرِيمًا فَإِنْ تَمَّتْ وَسَيْفِكَ مَشْهُورٌ بِكَفِّكَ تُفْذَرُ

فقال : ماشرت ، فقال :

(١) قال ابن خلكان : هي عقر بابل ؛ وهي عند السكوفة بالقرب من كربلاء ؛ الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه .

إن بنى مروان قد بادَ ملكُهُمْ فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعُرِ
 فقال : أما هذا فمضى . فلما رأى يزيد انهزام أصحابه ، نزل عن فرسه ، وكسر جَنْفَ
 سيفه واستقتل ، فأتاه آت فقال : إن أخاك حبيباً قد قُتِل ، فزاده ذلك بصيرة في توطينه
 نفسه على القتل ؛ وقال : لاخير في العيش بعد حبيب ! والله لقد كنت أبغضُ الحياةَ بعد
 الهزيمة ؛ وقد ازددتُ لها بغضا ؛ امضوا قُدُماً . فلم أصحابه أنه مستميت ، فتسلل عنه مَنْ
 يكره القتال ، وبقيَ معه جماعة خشية ، فهو يتقدم كلما مرَّ بخيلٍ كَشَفَهَا ، وهو يقصد مسلة
 ابن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما دنا منه ، أدنى مسلةً فرسه ليركب ، وحالت خيولُ أهل
 الشام بينهما ، وعطفت على يزيد بن المهلب ؛ فجالدهم بالسيف مصلاً^(١) ؛ حتى قتل وحل
 رأسه إلى مسلة ، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب ؛ وكان أخوهما الفضل بن المهلب ؛ يقاتل
 أهل الشام في جهة أخرى ، ولا يعلمُ بقتل أخويه يزيد ومحمد ؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن
 المهلب ، وقال له : ما صنع وقد قتل يزيد ومحمد ، وقبلهما قتل حبيب ، وقد انهزم الناس !
 وقد روى أنه لم يأت به بالخبرِ على وجهه ، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل ، فقال
 له : إن الأمير قد انحدر إلى واسط ، فاقصصْ أثره ، فأنحدر المفضل حينئذ ، فلما علم بقتل
 إخوته ، حلف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبداً ، وكانت عين المفضل قد أصيبت من قبل
 في حرب الخوارج ، فقال : فضحني عبد الملك فضحه الله ! ما عذرى إذا رآني الناس
 فقالوا : شيخ أعور مهزوم ، ألا صدقني فقتلت ! ثم قال :

وَلَا خَيْرَ فِي طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالنَّارِ وَلَا فِي لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدِ

فلما اجتمع مَنْ بقي من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة ، أخرجوا عدى بن أروطة
 أمير البصرة من الحبس ، فقتلوه وحملوا عيالهم في السفن البحرية ، ولججوا في البحر ؛ فبعث
 إليهم مسلة بن عبد الملك بعثا عليه قائد من قواده ، فأدركهم في قنذابيل^(٢) ، فخار بهم

(١) مصلاً ، أي مجرداً من غمده .

(٢) قنذابيل : مدينة بالسند .

وحاربوه ، وتقدّم بنو المهلب بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وهم : المفضل بن المهلب ، وزيايد بن المهلب ، ومروان بن المهلب ، وعبد الملك بن المهلب ، ومعاوية بن يزيد ابن المهلب ، والمنهال بن أبي عيينة بن المهلب ، وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب ؛ وحملت رهوسهم إلى مسلة بن عبد الملك ؛ وفي أذن كل واحد منهم رقعة فيها اسمه ، واستؤسر الباقون في الوقعة ، فحلبوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام ؛ وهم أحد عشر رجلا ، فلما دخلوا عليه قام كثير بن أبي جمعة ، فأنشد :

حَلِيمٌ إِذَا مَا نَالَ عَاقِبَ مُجْمِلًا أَشَدَّ الْعَقَابِ أَوْ عَفَا لَمْ يُثْرَبِ
فَفُوقًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحِسْبَةً فَمَا تَأْتِيهِ مِنْ صَالِحٍ لَكَ يَكْتَبِ
أَسَاءُوا فَإِنْ تَصَفَحْ فَإِنَّكَ قَادِرٌ وَأَفْضَلُ حِلْمِ حِسْبَةٍ حِلْمِ مَغْضَبِ

فقال يزيد : أطت^(١) بك الرحم يا أبا صخر ! لولا أنهم قدّحوا في الملك لعفوت عنهم ؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، وبقي منهم صبي صغير ، فقال : اقتلوني فلست بصغير ، فقال يزيد بن عبد الملك : انظروا هل أنبت ! فقال : أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمت ووطئت النساء فاقتلوني ؛ فلا خير في العيش بعد أهلى ! فأمر به فقتل .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبورا - وهم أحد عشر مهلبياً : المعارك وعبد الله والمغيرة والمفضل والمنجاب ؛ بنو يزيد بن المهلب ، ودريد والحجاج وغسان وشيبب والفصل ؛ بنو المفضل بن المهلب لصلبه ، والفصل بن قبيصة بن المهلب . قال : ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب . وعمر بن يزيد بن المهلب ، وعثمان بن المفضل بن المهلب ، فإنهم لحقوا برتبيل^(٢) ، ثم أومنوا بعد ذلك .

(١) أطت بك الرحم : رقت وحننت :

(٢) رتبيل : من ملوك الترك .

وقال الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

ألا لله بادرَةَ الطَّلابِ وَعَزَمُ لَا يُرَوِّعُ بِالْعِتَابِ (١)
وكلّ مشتمر البرّدين يهوى هوى المصلتات إلى الرقابِ
أعاتبه على بُعدِ التناي فيعدّني على قرُبِ الإيابِ
رأيت العجزَ يخضعُ لليالي ويرضى عن نوابها الغضابِ
وآمل أن تطاوعني الليالي وينشب في المنى ظفري ونابى
ولولا صولة الأقدارِ دُوني هجّمتُ على العُلا من كلِّ بابِ

وقال أيضا :

لا يبدّ الهمومَ إلا غلامٌ يركبُ الهولَ والحسامُ رديفُ (٢)
ما يذلّ الزمانُ بالفقرِ حُرّاً كيفما كان فالشريفُ شريفُ

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

ولست أضلُّ في طرُقِ العُلى ونارُ العزِّ عاليةُ الشعاعِ (٣)
ودونَ المجدِ رأى مُستطيلٌ وباعٌ غيرُ محبوبِ الدّراعِ
ويُعجّبني البعادُ كأنّ قلمي يحدث عن عدى بن الرّفاعِ
فردّ نهى العلاء بلا رقيبِ وشمّر في الأمورِ بلا نزاعِ
ولا تفرُّركَ قعقعةُ الأعدى فذاك الصّخرُ خرّ من اليفاعِ
ونحنُ أحقُّ بالدُّنيا ولكن تخيّرتِ القطوفَ كلّي الوساعِ (٤)

(١) ديوانه لوحة ٧٧ ، من قصيدة يفخر ويمدح آل البيت ويذكر قبورهم ويتشوقها .

(٢) ديوانه، لوحة ١٨٩

(٣) ديوانه ، لوحة ٣٦ من قصيدة يمدح فيها أباه وبهنته .

(٤) القطوف : الدابة البطيئة السير : والفرس الوساع : الجواد ذو السعة في خطوه .

وقال حارثة بن بدر الغداني :

أهاتُ وأقصَى ثم ينتصحوَنِي وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي نَصِيحَتَهُ قَسْرًا!
رَأَيْتُ أَكْفَ الْمُصَلِّتَيْنِ عَلَيْكُمْ مِلاءٌ وَكَفَى مِنْ عَطَائِكُمْ صِفْرًا
مَتَى تَسْأَلُونِي مَا عَلَىَّ وَتَمْنَعُوا الَّذِي لِي ، لَا أَسْطِيعُ فِي ذَلِكَ صَبْرًا

وقال بعض الخوارج :

تُعَيِّرُنِي بِالْحَرْبِ عِرْسِي وَمَا دَرْتُ تُعَيِّرُنِي بِالْحَرْبِ عِرْسِي وَمَا دَرْتُ
لِحَالِ اللَّهِ قَوْمًا يَقْمُدُونَ وَعِنْدَهُمْ سِوْفٌ وَلَمْ يَعْصِبْ بِأَيْدِيهِمْ قَدًا

وقال الأعشى :

رَأَيْتُ مَنَايَا الْقَوْمِ يَسْعَى ذَلِيلَهَا (١) أَبْلَمُوتُ خَشْتَنِي عِبَادٌ وَإِنَّمَا
بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسَ غَوْلَهَا وَمَا مَوْتُهُ إِذَا مَاتَهَا غَيْرَ عَاجِزٍ

وقال آخر :

وَضِيمٌ وَلَا تَسْمَعُ بِهِ هَامَتِي بَعْدِي فَلَا أَسْمَعُ فِيكُمْ بِأَمْرِ مَعِيْمَةٍ
مِنَ الضَّيْمِ ، أَوْ يَمْدُوعِي الْأَسَدِ الْوَرْدِ فَإِنَّ السَّنَانَ يَرْكَبُ الْمَرْءَ حَادَهُ

ومثله :

عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ (٢) إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَحَاكَ وَجَدْتَهُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنِ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ وَيَزِرُ كَبُّ حَدِّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تُضَيِّمَهُ

(١) ديوانه ١٢٥

(٢) لمن بن أوس ، ديوانه ٥٩

وقال آخر :

كَرِهُوا الْمَوْتَ فَاسْتَبِيحَ حَمَاهُمْ وَأَقَامُوا فِعْلَ اللَّيْمِ الذَّلِيلِ
أَمِنَ الْمَوْتَ تَهْرَبُونَ فَإِنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الذَّلِيلِ غَيْرِ جَمِيلِ
وقال بشامة بن الغدير :

وإن التي سامكم قومكم هم جعلوها عليكم عدولا (١)
أخزى الحياة وكزه المات فكلاً أراه طعاماً وبيلاً!
فإن لم يكن غير إحداهما فسيروا إلى الموت سيراً جميلاً
ولا تقعدوا وبكم منة كفى بالحوادث للمرء غولاً

قال يزيد بن المهلب في حرب جرجان لأخيه أبي عيينة : ما أحسن منظر رأيت
في هذه الحرب ؟ قال : سيف بن أبي سبرة وبيضته - وكان عبد الله بن أبي سبرة حمل
على غلام تركي قد أفرج الناس له ، وصدوا عنه لباسه وشجاعته ، فتضاربا ضراً بقتين ،
فقتله ابن أبي سبرة بعد أن ضربه التركي في رأسه ، فنشب سيفه في بيضة ابن أبي سبرة ،
فعاد إلى الصف وسيفه مصبوغ بدم التركي وسيف التركي ناشب في بيضته كجزء منها يلمع -
فقال الناس : هذا كوكب الذنب ، وعجبوا من منظره .

وقال هذبة بن خشرم :

وإني إذا ما الموت لم يك دونه
ولكنني أعطى الحفيظة حقها
قدى الشبر أحمى الأنف أن أناخراً (٢)
فأعرف معروفاً وأنكر منكرًا

وقال آخر :

إني أنا المرء لا يبغي على تررة
ولا يقرب على ضمير إذا غشما

(١) مختارات ابن السجري ١٦ ، الفضليات ٥٩

(٢) قدى الشبر : قدره ، والبيت في اللسان (٢٠ : ٣٢) .

أنتى المنيةَ خوفاً أن يقال فتى أمسى - وقد ثبت الصَّفان - منهزماً
وقال آخر :

قَوْضُ خِيَامِكَ وَالْتِمَسُ بَلَدًا تَنَأَى عَنِ الْغَاشِيكِ بِالظَّمِّ
أَوْشِدَ شِدَّةَ بَيْنِهِسِ فَهَسَى أَنْ يَتَّقُوكَ بِصَفْحَةِ السَّلْمِ (١)

استنصر سبيع بن الخطيم التيمي من بنى تيم اللات بن ثعلبة زيد الفوارس الضبي
فنصره ، قال :

تَبَّهْتُ زَيْدًا فَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى وَكَلٍ رَثَّ السَّلَاحِ وَلَا فِي الْحَيِّ مَغْمُورِ
سَأَلْتُ عَلَيْهِ شَعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَبْصَارَهُ بِوَجْهِهِ كَالذَّنَابِيرِ
وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نُحْلِي مُحَمَّدًا وَلِمَا نَطَاعِينَ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ (٢)
وَنَنْصُرُهُ حَتَّى نَصْرَعَّ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنِ أَبْنَانِنَا وَالْحَلَائِلِ

لما برز عليّ وحمزة وعبيدة عليهم السلام يوم بدر إلى عتبة وشيبة والوليد ، قتل عليّ
عليه السلام الوليد ، وقتل حمزة شيبة ، على اختلاف في رواية ذلك : هل كان شيبة قرنه أم
عتبة ؟ وتجالد عبيدة وعتبة بسيفهما ، فجرح عبيدة عتبة في رأسه ، وقطع عتبة ساق عبيدة ،
فكرّ عليّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما ، فاستنقذهما من عتبة ، وخطاه بسيفهما حتى
قتلاه واحتملا صاحبهما ، فوضعا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في القرّيش ،
وهو يوجد بنفسه ، وإنّ مَخَّ سَاقِهِ لَيْسِيلٌ ، فقال : يا رسول الله ، لو كان أبو طالب حيا لعلم
أنى أولى منه بقوله :

(١) اليهس : الشجاع .

(٢) ديوانه • (طبعة الجف) .

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نُخْلِ مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِينَ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَتَنْصُرُهُ حَتَّى نَصْرَعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنِ أَبْنَانِنَا وَالْحَلَالِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ! اللهم إن
تهلك هذه العصاة لاتعبد في الأرض » .

لما قدم جيش الحرّة إلى المدينة ، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المرّي ، أباح المدينة
ثلاثاً ، واستعرض أهلها بالسيف جزراً ، كما يجزُرُ القصاب الغنم ؛ حتى ساخت الأقدام
في الدّم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية
على كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين ؛ على أنه عبد قنّ لأمير المؤمنين يزيد بن
معاوية ؛ هكذا كانت صورة المبايعّة يوم الحرّة ، إلا على بن الحسين بن عليّ عليهم السلام ،
فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره ، وأخذ بيعته على أنه أخو أمير المؤمنين يزيد بن
معاوية وابن عمه ، دفعا له عمّا بايع عليه غيره ، وكان ذلك بوصاة من يزيد بن معاوية له ،
فهرب عليّ بن عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كِنْدَةَ ، فحمّوه من مُسلم بن
عقبة ، وقالوا : لا يبايع ابنُ أختنا إلا على ما يبايع عليه ابنُ عمه عليّ بن الحسين ، فأبى مسلم
ابن عقبة ذلك ، وقال : إني لأفعل ما فعلت إلا بوصاة أمير المؤمنين ، ولولا ذلك لقتلته ،
فإن أهل هذا البيت أجدرُّ بالقتل ، أو لأخذت بيعته على ما أخذت عليه بيعة غيره . وسقّر
الشفراء بينه وبينهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يبايع ويقول : أنا أبايع لأمير المؤمنين
يزيد بن معاوية ، وألتزم طاعته ، ولا يقول غير ذلك ؛ فقال عليّ بن عبد الله بن العباس :

أبى العباسُ رأسُ بني قصىِ وأخوالي الملوِكُ بنو وليعهِ
هُمُ منَعوا ذِمَارِي يومِ جاءت كتابُ مُسرفٍ وبنو اللّكيعهِ

أراد بي التي لا عزّ فيها فحالت دونه أيدٍ مَنيعه
مسرف كناية عن مُسلم ، وأم عليّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرَح بن
معدى كُرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن كندة .
قال الحصين بن الحمام :

وَلَسْتُ بِمِبتاعِ الحِياةِ بِسَبِّهِ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ سُلَمًا^(١)
تَأخَّرْتُ أَسْتَبِقِ الحِياةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حِياةً مِثْلَ أَنْ أُنْقَدَمَا
فَلَسْنَا عَلَى الأَعقابِ تَدْمَى كلوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَاءُ
نَفَقْنَا هَامًا مِنْ رِجالِ أَعْزَةِ عَلَيْنَا ، وَهُمْ كَانُوا أَعْقَى وَأَظْلَمًا
أَبِي لابنِ سَلْمَى أَنَّهُ غَيْرُ خالِدِ مُلاقِي المَنايا أَيَّ ضَرْبٍ تَيْمَمًا
ابن سلمى يعنى نفسه، وسلمى أمه .

وقال الطرمّاح بن حكيم :

وَمَا مُنِمَّتْ دارٌ وَلَا عَزَّ أَهلُها مِنْ النَّاسِ إِلَّا بِالقَناءِ وَالقَنابِلِ^(٢)
وقال آخر :

وإن التي حدثتها في أنوفِنَا وأَعناقِنَا مِنَ الإِباءِ كَما هِيا
وقال آخر :

فإن تَكُنِ الأَيامُ فِينا تَبَدَّلَتْ بِيؤسَى ونَعْمَى والحِواثِ تُفَعَّلُ^(٣)
فَما لِيذَتْ مِنّا قَناءَ صَليبَةٍ وَلَا ذَلَّلْتنا لَتي لَيسَ تَجْمَلُ
وَلَكِنْ رَحَلْناها نُفوسا كَريمَةً تَحْمَلُ ما لا يَسْتَطاعُ فَجَحيلُ

(١) الفضليات ٦٩

(٢) ديوانه ١٥٩

(٣) لإبراهيم بن كنيف النهاني ، ديوان الحماسة ١ - ٣٥١ - بفرح التبريزي .

وقال آخر :

إذا جانبُ أعيالك فاعمدِ لجانبِ فإنك لاقِ في البلادِ معولاً^(١)

وقال أبو النشاش :

إذا المرءُ لم يسرَّحْ سواما ولم يبرِّحْ سواماً ولم تعطفْ عليه أقاربه^(٢)

فللموتِ خيرٌ للفتى من قعودِهِ عديماً ومن مولى تدبُّ عقاربه

ولم أرَ مثلَ الهمِّ ضاجمه الفتى ولا كسوادِ الليلِ أخفقَ طالبه

فيسُ معدِّماً أو متُّ كرماً فإننى أرى الموتَ لا ينجو من الموتِ هاربة

وفد يحيى بن عروة بن الزبير على عبد الملك ، فجلس يوماً على بابهِ ينتظر إذنه ، فجرى ذكرُ عبد الله بن الزبير ، فقال منه حاجب عبد الملك ، فلطم يحيى وجهه حتى أدنى أنفه ، فدخل على عبد الملك ودمه يجري من أنفه ، فقال : مَنْ ضربك ؟ قال : يحيى ابن عروة ، قال : أدخله - وكان عبد الملك متكئاً فجلس - فلما دخل قال : ما حملك على ما صنعت بحاجبي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن عمي عبد الله كان أحسنَ جواراً لعمتك منك لنا ، والله إن كان ليوصي أهلَ ناحيته ألا يُسمعوها قدعاً^(٣) ، ولا يذكروكم عندها إلا بخير ؛ وإن كان ليقولُ لها : مَنْ سبَّ أهلك فقد سبَّ أهله ، فأنا والله الممَّ المخول ، تفرقت العرب بين عمي وخالى ، فكنت كما قال الأول :

يداهُ أصابتْ هذه حَتَفَ هذه فلم تجدِ الأخرى عليها مُقدِّماً

فرجع عبد الملك إلى متكئهِ ، ولم يزل يُعرفُ منه الزيادةُ في إكرامِ يحيى بعدها .

(١) لجابر بن ثعلب الطائي ، ديوان الحماسة ١ : ٢٩٣ - بشرح التبريزي .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٠٢ - بشرح التبريزي .

(٣) القذع : الفحش .

وأم يحيى هذه هي ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان .

وقال سعيد بن عمر الحرشي أمير خراسان :

فَلَسْتُ لِعَامِرٍ إِنْ لَمْ تَرَوْنِي أَمَامَ الْخَيْلِ أُطَعْنُ بِالْعَوَالِي (١)
وَأَضْرِبُ هَامَةَ الْجَبَّارِ مِنْهُمْ بِمَاضِي الْغَرْبِ حُودِثَ بِالصَّقَالِ (٢)
فَمَا أَنَا فِي الْحُرُوبِ بِمُسْتَكِينٍ وَلَا أَخْشَى مِصَاوِلَةَ الرِّجَالِ
أَبِي لِي وَالِدِي مِنْ كُلِّ ذِمٍّ وَخَالِي حِينَ يُذَكِّرُ خَيْرُ خَالِ

قال عبد الله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مُصْعَب : أما بعد ؛ فإنه أتانا من العراق خبرٌ أفرحنا وأحزننا ، أتانا خبرٌ قتل المصعب ؛ فأما الذي أحزننا فلوعةٌ يجدها الحميم عند فراق حميمه ؛ ثم يرعوى بعدها ذو الألب إلى حسن الصبر وكرم العزاء .
وأما الذي أفرحنا ، فإن ذلك كان له شهادة ، وكان لنا وله خيرة ؛ إنا والله ما نموت حجباً (٣) كما يموت آل أبي العاص ؛ ما نموت إلا قتلاً ؛ قعصاً (٤) بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ؛ فإن يهلك المصعب ؛ فإن في آل الزبير نخلقاً .

وخطب مرة أخرى فذكره فقال : لوددت والله أن الأرض قاءتني عنده حين لفظ غصته وقصى نخبه .

شعر :

خُذِيهِ فَجُرِّيهِ ضُبَاعَ وَأَبْشِرِي بِلَحْمِ امْرِئٍ لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ

(١) العوالي : جم عالية ؛ وهي أعلى القناة .

(٢) غرب السيف : حده ؛ ويقال : حاد السيف ؛ إذا جلاه ؛ وصقال السيف : جلاؤه .

(٣) الحجب : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بضنه سمناً وربما قتله ذلك ؛ وفي اللسان (٣ : ٤٨) .
جسد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يمرض بيني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالنخمة » . وفي ج : « جنحاً » .

(٤) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصاً ؛ أي أصابته ضربة أورمية فات مكانه .

وقال الشدّاح بن يعمر الكِنَانيّ :

قَاتِلُوا الْقَوْمَ يَا خُزَاعُ وَلَا يَدْخُلُكُمْ مِنْ قِتَالِهِمْ فَشَلُّ (١)
الْقَوْمُ أَمْثَالَكُمْ لَهُمْ شَعْرٌ فِي الرَّأْسِ لَا يُنْشَرُونَ إِنْ قُتِلُوا

وقال يحيى بن منصور الحنفيّ :

وَمَا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَّا فَحَالَفْنَا السُّيُوفَ عَلَى الدَّهْرِ (٢)
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَبْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَتْرِ

قيل لرجل شهيد يوم الطّف مع عمر بن سعد : ويحك ! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال : عَضَضْتُ بِالْجُنْدَلِ ؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لعلبت ما فعلنا ، ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطمُ الفرسان يمينا وشمالا ، وتُلقي أنفسها على الموت ؛ لا تقبل الأمان ، ولا ترغب في المال ، ولا يحول حائل بينها وبين الوُرود على حياض المنية ، أو الاستيلاء على الملك ؛ فلو كَفَفْنَا عنها رويدا لَأَتَتْ على نفوس العسكر بحذافيرها ؛ فما كنا فاعلين لا أمّ لك !

السخاء من باب الشجاعة ، والشجاعة من باب السخاء ؛ لأنّ الشجاعة إنفاق العمر وبذله فكانت سخاء ، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عدّيل المهجة ؛ فكان شجاعة .

أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ أَلُ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ نَفْسًا (٣)

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ١ : ١٨٩ - بشرح التبريزي والفشل : الجين والضعف .

(٢) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٣١٠

(٣) ديوانه ٢ : ٢٦٧

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصرى رحمه الله تعالى : أنجد في النصوص ما يدل على تفضيل على عليه السلام ؛ بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه ؛ فإن ذلك أمر مفروغ منه ؟ فذكر حديث الطائر المشوى^(١) ؛ وأن المحبة من الله تعالى إرادة الثواب ، فقيل له : قد سبقك الشيخ أبو على رحمه الله تعالى إلى هذا ؛ فهل تجد غير ذلك ؟ قال : نعم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا ﴾ ، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص ، فكل من زاد ثباته ؛ زادت المحبة له ؛ ومعلوم أن علياً عليه السلام ما فرّ في زحف قط ، وفر غيره في غير موطن .

وقال أبو تمام :

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ^(٢)
 بِيضُ الصَّفَاحِ لَأَسْوَدُ الصَّحَافِ فِي مُتَوْنِهِنَّ جِلَاءِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ^(٣)
 وَاللِّمُّ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةً بَيْنَ الْخَمْسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ^(٤)

وقال أبو الطيب المتنبي :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي الْجِدُّ لِلسِّيفِ لَيْسَ الْجِدُّ لِلْقَلَمِ^(٥)

(١) يشير إلى ما رواه الترمذى في باب المناقب (١٣ : ١٧٠) ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : « كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم اننى بأحب خلقك إليك ؛ يأكل معى هذا الطير . جاء على فأكل معه . وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٧ »

(٢) ديوانه ١ : ٤٥ ؛ من قصيدة يمدح بها المنتصم بالله ؛ ويذكر فتح عمورية ، وكان المنجمون قد حكموا أن المنتصم لا يفتح عمورية ؛ وراسلته الروم بأنا نجد فى كتبنا أنه لا يفتح مدينتنا إلا وقت إدارك التين والنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهر يمتنع من المقام فيها التاج والبرد ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة ؛ وهى الحديدية العريضة ؛ ويقال للسيف العريض كذلك .

(٤) يرد على المنجمين ما حكموا به ؛ لأن الظفر كان قبل حكمهم . ويعنى بشهب الأرماع أسقتها ، ويعنى بالسبعة الشهب الطوالع التى أرفعها زحل وأدناها القمر .

(٥) ديوانه ٣ : ٥٩ .

اَكْتُبُ بِنَاءً بَدَأَ بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ
فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْعَدَمِ
أَسْمَعْتَنِي وَدَوَّأِي مَا أَشْرْتُ بِهِ
فَإِنْ غَفَلْتُ فِدَائِي قِلَّةُ الْفَهْمِ
مَنْ اقْتَضَى بِسُورَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ
أَجَابَ كُلَّ سَوَالٍ عَنِ «هَلِ» بِلَمْ-

قال عطف بن محمد الأوسى :

أَمْكَابِدَ الزَّفَرَاتِ مُؤَصَّدَةٌ
تَلْتَذُ خَوْفَ الْقَطْعِ بِالسَّلْلِ
صَرَفَ هُمُومِكَ تَنْتَدِبُ هِمًّا
فَالسُّكْرُ يُعَقِبُ نَشْوَةَ الثَّمَلِ
وَلِلَّيْلَةِ الْمِيْلَادِ مَفْرَحَةٌ
تَنْسَى الْحَوَامِلَ أَشْهُرَ الْحَبْلِ
سِرٌّ فِي الْبِلَادِ تَخُوضُهَا بُلُجًا
فَالدَّرَّ لَيْسَ يُصَابُ فِي الْوَشَلِ (١)
وَاجْعَلْ لَصَبُوتِكَ الظُّبَا سَكْنًا
وَالدَّوْرَ أَكْوَارًا عَلَى الْإِبْلِ
وَالعَيْشُ وَالوَطَنُ الْمَهْدُ فِي
غَرْبِ الْحُسَامِ وَغَارِبِ الْجَمْلِ
وَاشْدُدْ عَلَيَّكَ وَخُذْ إِلَيْكَ وَدَعْ
ضَعَةَ الْحُمُولِ وَقَتْرَةَ الْكَسَلِ
وَإِزْمِ الْعُدَاةَ بِكُلِّ صَائِبَةٍ
مَا الرَّيْمِيُّ مَوْقُوفًا عَلَى ثُعَلِ (٢)
لَا تَحْسَبِ النِّكَبَاتِ مَنْقَصَةً
قَدْ يُسْتَجَادُ السَّيْفُ بِالْفَلْلِ

وقال عروة بن الورد :

حَلَا اللهُ صُحُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ
مُصَانِفِي الْمَشَاشِ آفَاءَ كُلِّ مَجْزَرِ (٣)

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) ثعل : أبو حوى من طيء ؛ اشتهروا بالرمى .

(٣) ديوانه ٥٣ (ضمن دواوين الشعراء الخمسة) . الصلوك : الفقير ، والمصانق : من المصافة ؛ وهى

الاختيار والملازمة ، والمشاش : العظم الممكن مضغه ، والمجزر : موضع نحر الإبل .

يَمُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ (١)
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا (٢)
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْمَعُنَهُ (٣)
وَلَكِنْ ضَعُفُوا صَفِيحَةً وَجْهَهُ
مُطَّلًا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ
وَإِنْ قَعَدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا
أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مَيْسَرٍ (١)
يَحْتِ الْحَصَا مِنْ جَنْبِهِ الْمُتَقَمَّرِ (٢)
وَيُمْسِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ (٣)
كَضَوْءِ شِهَابِ الْقَاسِ الْمُتَنَوِّرِ
بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمَشْمَرِ (٤)
تَشَوَّفَ أَهْلَ الْغَائِبِ الْمُتَنْظِرِ (٥)
حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَفْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرُ

وقال آخر:

ولست بمولى سؤءةٍ أدعى لها
وسيان عِنْدِي أَنْ أَمُوتَ وَأَنْ أَرَى
وَلَنْ يَجِدَ النَّاسُ الصَّدِيقَ وَلَا الْعِدَى
وَإِنْ نَجَارِي يَابْنَ غَنَمٍ مُخَالَفٍ
وَلَسْتُ بِهَيَّابٍ لِمَنْ لَا بِهَا بَنِي
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُجِيبِكْ إِلَّا تَكَرُّهَا
فَإِنْ لَسَوَاتِ الْأُمُورِ مَوَالِيَا (٦)
كَبَعْضِ رِجَالِ بُوطِنُونَ الْحَازِبَا
أَدِيمِي إِذَا عَدَّوَا أَدِيمِي وَاهِيَا
نَجَارَ لثَامٍ فَابْنِي مِنْ وَرَائِيَا (٧)
وَلَسْتُ أَرَى لِلْمَرْءِ مَالًا يَرَى لِيَا
عِرَاضَ الْعُلُوقِ لِمَ يَكُنْ ذَلِكَ بَاقِيَا (٨)

- (١) الميسر : الذي قد نتج إبله فكثرت خيره ؟ يقول : من صفات ذلك الصعلوك أنه إذا أصاب القرى في كل ليلة من صديق غني ؟ عد ذلك لنفسه غني وخيرا .
(٢) يحتمل الحصا : يفركه ؟ والمعاس : الذي يأتي عليه الصباح وهو ناعس لحواله وانحطاط همته .
(٣) البعير الطليح : المعبي ؟ وكذلك المحسر
(٤) أطل على أعدائه : أوفى عليهم . والمنيج والسفيح والرغد : قذاح لأنصباء لها ، وإنما يكثر بها القذاح فهي تجال أبدا ، وتزجر حالا بعد حال ؟ فشبها الصعلوك به (من شرح التبريزي)
(٥) الديوان : « فإن بعدوا يأمنون اقترابه » .
(٦) لطفرة الجذيمي ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٣٨٩ ، مع اختلاف الرواية وترتيب الآيات
(٧) النجار : الأصل .
(٨) العلوق : الناقة التي ترأى ولدها وتلمسه حتى يأنس بها ؟ فإذا أراد ارتضاع اللبن منها ضربته وطردته .

نهار بن تَوْسعة في يزيد بن المهلب :

وَمَا كُنَّا نُوَمِّلُ مِنْ أَمِيرٍ كَمَا كُنَّا نُوَمِّلُ مِنْ يَزِيدٍ
فَأَخْطَا ظَنُّنَا فِيهِ وَقَدِمَا زَهَدْنَا فِي مَعَاشِرَةِ الزَّهِيدِ
إِذَا لَمْ يَعْطِنَا نَصْفًا أَمِيرًا مَشِينَا نَحْوَهُ مَشَى الْأَسْوَدِ

كان هُدْبَةُ اليشكري - وهو ابن عم شوذب الخارجي اليشكري - شجاعاً مقداماً ، وكان ابنُ عمه بِسْطَامُ الملقب شوذباً الخارج في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً فخاربه ، فانكشفت الخوارج ، وثبت هُدْبَةُ وأبى الفرار ، فقاتل حتى قُتِل ، فقال أيوب بن خولة يرثيه :

فِيَا هُدْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُدْبَ لِلنَّدَايِ وَيَا هُدْبَ لِلخَصْمِ الْأَلْدِ يُحَارِبُهُ (١)
وَيَا هُدْبَ كَمْ مِنْ مُلْحَمٍ قَدْ أَحْبَبْتَهُ وَقَدْ أَسْلَمْتَهُ لِلرَّمَاكِ كِتَابِيَهُ (٢)
تَزَوَّدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعًا وَمِغْفَرًا وَعَضْبًا حُسَامًا لَمْ تَحْنُكَ مَضَارِبُهُ (٣)
وَأَجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّرَاةِ كَأَنَّهُ إِذَا انْقَضَى وَافَى الرَّيْشِ حُجْنٌ نَحَّالِبُهُ (٤)

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تردُّ إلى أبي مسلم بخراسان : إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم بالعربية إلا وقتلته فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تهنمه

(١) الأبيات مع ذكر الخبر مفصلاً في تاريخ الطبري ٧ : ١٤٣

(٢) الملحم : الذي أسر وظفره أعداؤه ؛ وفي ج : « ملجم » تصحيف .

(٣) الطبري : « تزود . . . لم تحنه » .

(٤) أجرد ؟ من وصف الفرس ، والجرد قصر شعر الجلد فيه ، وهو من الأوصاف المحمودة . السراة :

الظهر ، ومحبوك السراة ، أي شديد الخلق . حجن مغالبه ، يريد صقرا ، والحجن . الاعوجاج .

فاقتله ؛ وعليك بمضّر ؛ فإنهم العدو القريب الدار ، فأبّد خضراءهم^(١) ولا تدع على الأرض منهم ديارا .

قال المتنبي :

لَا يَسْلُمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ^(٢)

وله :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ
وَبِالنَّاسِ رَوَى رُحْمَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ^(٣)
وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَدَيْهِمْ بَأْسٌ

وقال المتنبي أيضا :

رِدِّي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَأَطْرِحِي
إِنْ لَمْ أَذْرِكِ عَلَى الْأَرْمَاحِ سَائِلَةً
حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ^(٤)
فَلَا دُعَيْتُ ابْنَ أُمَّ الْمَجْدِ وَالكَرَمِ

ومن أباة الضيم قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان وما وراء النهر ؛ لم يصنع أحدٌ صنيعه في فتح بلاد الترك ، وكان^(٥) الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهد بعده ، ويجعله في ابنه عبد العزيز بن الوليد ، فأجابه إلى ذلك قتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء ، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك ، وقام سليمان بالأمر بعده - وكان

(١) في الأساس : أباد الله خضراءهم ؛ أي شجرتهم التي تفرعوا منها .

(٢) ديوانه ٤ : ١٢٥

(٣) ديوانه ٤ : ١١٢

(٤) ديوانه ٤ : ٤٣

(٥) انظر تاريخ الطبري ٨ : ١٠٣ وما بعدها .

قتيبة أشدّ الناس في أمر سليمان وخلعه عن العهد - علم أنه سيعزله عن خراسان ويوليها يزيد بن المهلب ، لودّ كان بينه وبين سليمان ، فكتب قتيبة إليه كتابا يهنته بالخلافة ، ويدكر بلاءه وطاعته لعبد الملك وللوليد بعده ، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خراسان ، وكتب إليه كتابا آخر يدكره فيه بفتوحه وآثاره ، ونكايته في الترك ، وعظم قدره عند ملوكهم ، وهيبة العجم والعرب له وعظم صيته فيهم ، ويذم آل المهلب ، ويحلف له بالله : لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنه ، وليملائها عليه خيلا ورجالا ، وكتب كتابا ثالثا فيه خلع سليمان ، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به ، وقال له : ادفع الكتاب الأول إليه ، فإن كان يزيد بن المهلب حاضرا عنده ، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني ، فإن قرأه وألقاه إليه أيضا فادفع إليه الثالث ؛ وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد ؛ فاحتبس الكتابين الآخرين معك .

فقدّم الرسول على سليمان ، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأه وألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتاب الثاني ، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضا ، فدفع إليه الكتاب الثالث ، فقرأه وتغيّر لونه وطواه ، وأمسكه بيده ، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ، ثم أحضره ليلا ، ودفع إليه جائزته ، وأعطاه عهد قتيبة على خراسان ، وكان ذلك مكيدة من سليمان يسكنه ليطمئن ثم يعزله ، وبعث مع رسوله رسولا ، فلما كان بحلوان بلغه خلع قتيبة سليمان بن عبد الملك ، فرجع رسول سليمان إليه ، فلما اختلفت العرب على قتيبة حين أبدى صفحته لسليمان ، وخلع ربة الطاعة ، بايعوا وكيع بن أبي سود التيمي على إمارة خراسان ، وكانت أمراء القبائل قد تنكرت لقتيبة لإذلاله إياهم ، واستهانتهم بهم واستطالته عليهم ، وكرهوا إمارته ، فكانت بيعة وكيع في أوّل الأمر

سراً ، ثم ظهر لقتيبة أمره ، فأرسل إليه يدعوه ، فوجده قد طلاً رِجْلَهُ بِمَغْرَةٍ (١) وعلق في عنقه خَرَزَاءً ، وعنده رجلان يَرْتَقِيَانِ رِجْلَهُ ، فقال للرسول : قد ترى ما برجلي ! فرجع وأخبر قتيبة ، فأعاده إليه ، فقال : قل له ليأتيني محمولا ، قال : لا أستطيع . فقال قتيبة لصاحب شرطته : انطلق إلى وكيع فأتني به ؛ فإن أبي فاضرب عنقه ، وأتني برأسه ، ووجهه معه خيلا ، فقال وكيع لصاحب الشرطة : البث قليلا تلحق الكتائب ، وقام فلبس سلاحه ، ونادى في الناس فأتوه ، فخرَج فتلقاه رجل ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بني أسد ، فقال : ما اسمك ؟ فقال ضِرْغام ، فقال : لمن منن ؟ قال : ابن ليث ، فتيمن به وأعطاه رايته ، وأتاه الناس أرسالا من كل وجه ، فتقدم بهم ، وهو يقول :

قَرَمٌ إِذَا حُمِّلَ مَكْرُوهَةً شَدَّ الشَّرَاسِيْفَ لَهَا وَالْحَزِيْمَ (٢)

واجتمع إلى قتيبة أهله وثقاته ، وأكثرُ العرب ألسنتهم له وقلوبهم عليه ، فأمر قتيبة رجلا فنادى : أين بنو عامر ؟ وقد كان قتيبة جفاهم في أيام سُلْطَانِهِ - فقال له مجنفر (٣) ابن جزء الكلابي : نادهم حيث وضعتهم ، فقال قتيبة : أنشدكم الله والرحم - وذلك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان - فقال مجنفر : أنت قطعتهما ، قال : فلكم العُتْبِي ، فقال مجنفر : لا أقالنا الله إذا ! فقال قتيبة :

يَأْنَفْسُ صَبْرًا عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْمَمِّ إِذْ لَمْ أَجِدْ لِفُضُولِ الْعَيْشِ أَقْرَانًا

ثم دعا (٤) ببرذون له مُدْرَبٌ (٥) ليركبه ، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيأ . فلما رأى ذلك

(١) المغرة : طين أحمر .

(٢) البيت في اللسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة . القرم : السيد . والشراسيف : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . والحزيم : موضع الحزام من الصدر والظهر كله .

(٣) في الطبري : « محسن » .

(٤) في الطبري : « ودعا بعامة ، وكانت أمه بعثت بها إليه ، فاعتم بها ، كان يعتم بها في الشدائد ، ودعا ببرذون . . . » .

(٥) المدرب : المؤدب الذي ألف الركوب وعود المشي .

عاد إلى سريره فجلس ، وقال : دعوه ؛ فإن هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيان النَّبَطِيّ - وهو يومئذ أمير الموالى ، وعدتهم سبعة آلاف ، وكان واجدا على قتيبة - فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة : احمل يا حيان ، فقال : لم يأنِ بعد ، فقال له : ناولني قوسك ، فقال حيان : ليس هذا بيوم قوس . ثم قال حيان لابنه : إذا رأيتني قد حولت قلنسوتي ، ومضيت نحو عسكر وكيع فإلِّ بِن معك من العجم إلى ، فلما حول حيان قلنسوته ومضى نحو عسكر وكيع ، مالت الموالى معه بأسرها ، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس ، فرماه رجلٌ من بني ضَبَّة فأصاب رأسه ، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فوضعه على مصلاه ، وجلس عند رأسه ساعة ، وتهايج الناس ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم ، فرماه الغوزاء وأهلُ السوق فقتلوه ، وأشير على قتيبة بالانصراف ، فقال : الموتُ أهونُ من الفرار ، وأحرق وكيع موضعا كانت فيه إبل قتيبة ودوابه ، وزحفَ بِن معه حتى دنا منه ، فقاتل دونه رجل من أهله قتالا شديدا ، فقال له قتيبة : انجُ بنفسك ، فإن مثلك يُضنُّ به عن القتل ، قال : بثما جزيتك به أيها الأمير إذا ، وقد أطعمتني الجرذوق ، وألبستني الثمرق^(١) . وتقدّم الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة ، فأشار عليه نُصْحَاوَةٌ بالهرب ، فقال : إذا لست ، لمسلم بن عمرو ! ثم خرج إليهم بسيفه يجالدهم ، فجرح جراحات كثيرة ، حتى ارتث^(٢) وسقط ، فأكبوا عليه ، فاحتزوا رأسه ، وقتل معه من أخوته عبد الرحمن ، وعبد الله وصالح ، والحصين ، وعبد الكريم ، ومسلم ؛ وقتل معه جماعة من أهله وعدة من قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلا .

وصعد وكيع بن أبي سود المنبر وأشد : « مَنْ يَنْكِ الْعَيْرَ يَنْكِ نَيْبًا »^(٣)

(١) الجرذوق : الرغيف ، معرب فارسيته : « كرده » . الجواليق والتمرق : الميتره .

(٢) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من المعركة جريما وبه رمق .

(٣) مثل ، قاله خضر بن شبل الخثعمي ، في خبر ذكره صاحب مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٥ .

إِنَّ قَتِيْبَةَ أَرَادَ قَتْلِي ، وَأَنَا قَتَّالُ الْأَقْرَانِ ، ثُمَّ أُنْشِدُ :

قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي مِنْ غَلَوَتَيْنِ وَمِنْ أَلْمِثَيْنِ
حَتَّى إِذَا شَبْتُ وَشَبُّوْنِي خَلَوْا عِنَانِي ثُمَّ سَيَّبُونِي ^(١)
حَذْرًا مِنِّي وَتَسَكَّبُونِي فَأَتَيْتُ زَائِمًا لَعْنُ يَرْمِينِي

ثُمَّ قَالَ : أَنَا أَبُو مَطْرَفٍ ، يَكْرَهُهَا مَرَارًا ، ثُمَّ قَالَ :

أَنَا ابْنُ خَنْدِفٍ تَنْمِينِي قِبَائِلَهَا لِلصَّالِحَاتِ وَعَمِّي قَيْسُ عَيْلَانَا
ثُمَّ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ، وَقَالَ : إِنِّي لِأَقْتَانٍ ثُمَّ لِأَقْتَانٍ وَلَا صَلْبِينَ ثُمَّ لِأَصْلَابِينَ ؛ إِنْ مَرَّ زُبَانُكُمْ ^(٢)
هَذَا ابْنُ الزَّانِيَةِ ، قَدْ أَغْلَى أَسْعَارَكُمْ ؛ وَاللَّهِ لَنْ لَمْ يَصِرَ الْقَفِيزُ ^(٣) بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمٍ لِأَصْلَبْتِهِ ،
صَلُّوا عَلَيَّ نَبِيِّكُمْ .

ثُمَّ نَزَلَ وَطَلَبَ رَأْسَ قَتِيْبَةَ وَخَاتَمَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنْ الْأَزْدُ أَخَذَتْهُ ؛ فَخَرَجَ مُشْهَرًا ^(٤) ،
وَقَالَ : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أُوْتِيَ بِالرَّأْسِ ، أَوْ يَذْهَبَ رَأْسِي مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ
الْحَصِينُ بْنُ الْمَنْذَرِ : يَا أَبَا مَطْرَفٍ فَإِنَّكَ تَوْتَى بِهِ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْأَزْدِ ، فَأَخَذَ الرَّأْسَ وَأَتَاهُ
بِهِ ، فَسَيَّرَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ وَمَعَهُ رِءُوسُ إِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ ، وَعِنْدَهُ الْهَذِيلُ
ابْنُ زُقَيْرٍ بْنِ الْحَارِثِ الْكَلَابِيِّ ، فَقَالَ : أَسَاءَ كَهَذَا يَاهُذِيلُ ؟ قَالَ : لَوْ سَاءَ نِي لِسَاءِ نَاسَا كَثِيرًا .
فَقَالَ سُلَيْمَانُ : مَا أَرَدْتَ هَذَا كُلَّهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ سُلَيْمَانُ ذَلِكَ لِلْهُذِيلِ ، لِأَنَّ قَيْسَ عَيْلَانَ تَجْمَعُ
كِلَابًا وَبَاهِلَةً ، قَالُوا : مَا وَلِيَ خُرَّاسَانَ أَحَدٌ كَقَتِيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ ؛ وَلَوْ كَانَتْ بَاهِلَةٌ فِي الدَّنَاءَةِ
وَالضَّمَّةِ وَاللُّؤْمِ إِلَى أَقْصَى غَايَةٍ ، لَسَكَانَ لَهَا بِقَتِيْبَةَ الْفَخْرَ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ .

(١) أصله في الدابة ؛ يقال : سيب الدابة ؛ إذا تركها تذهب حيث شاءت ، وفي تاريخ الطبري :

حَتَّى إِذَا شَبْتُ وَشَبُّوْنِي خَلَوْا عِنَانِي وَتَسَكَّبُونِي

وانظر أمالي الفراء ١ : ٢٨٦

(٢) المرزبة : رياسة الفرس ، وهو مرزبانهم .

(٣) الطبري : « والله ليصيرن القفيز في السوق غدا بأربعة » .

(٤) أي سيفه .

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان مِنَّا ثم مات لجلعناه في تابوت ، فكنا نستفتح به إذا غزونا .

وقال الأصمبهد^(١) : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب ، لقد جئتم شيئا إذا ! فقيل له : أيهما كان أعظم عندكم وأهيب ، قال : لو كان قتيبة بأقصى حُجْرَةٍ^(٢) في المغرب ، مكبلا بالحديد والقيود ، ويزيد معنا في بلدنا وإل علينا ، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم .

وقال عبد الرحمن بن جمانه الباهلي يرثي قتيبة :

كَانَ أَبَا حَفْصٍ قُتَيْبَةٌ لَمْ يَسِرْ بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَعْلُ مِنْبَرًا
وَلَمْ تَخْفِقِ الرِّايَاتُ وَالْجَيْشُ حَوْلَهُ صُفُوفًا وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرًا
دَعَتْهُ الْمَنِيَا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلَى الْجَنَاتِ عَفَا مُطَهَّرًا
فَمَا رَزَى الْإِسْلَامُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ بِمِثْلِ أَبِي حَفْصٍ ، فَبَكَّيْهِ عَبْهَرًا
عَبْهَرًا أُمَّ وَلَدَهُ .

وفي الحديث الصحيح : « إن من خير الناس رجلاً ممسكا بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هَيْعَةً^(٣) طار إليها . »

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك ، فإذا لقيت العدو ، فاحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تغسل الشهداء من دماهم ؛ فإن دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

(١) الأصمبهد في الديلم كالأمير في العرب .

(٢) الحجرة : الناحية .

(٣) الهية : الصوت أو الصياح .

عر : لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم ؛ يريد : ما نزعتم القوس ونزوتم
على الخيل .

بعض الحوارج :

وَمَنْ يَخْشَ أَظْفَارَ الْمَنَائِيَا فإِنْتَا لِسِنَا لَهْنَ السَابِغَاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وَإِنْ كَرِيهَ الْمَوْتَ عَذْبٌ مَذَاقُهُ إِذَا مَا مَرَجْنَاهُ بِطِيبٍ مِنَ الذِّكْرِ

حض منصور بن عمار في قصصه على الغزو والجهاد ، فطرحته في المجلس صرة فيها
شئ ، ففتحت فإذا فيها ضفيرا امرأة ، وقد كتبت : رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد ،
ووالله إني لا أملك لنفسي مالا ، ولا أملك سوى ضفيري هاتين ، وقد أقيمتها إليك ،
فتالله إلا جعلتهما قيد فرس غازي في سبيل الله ، فلعل الله أن يرحمني بذلك .
فارتج المجلس بالبكاء والضجيج .

بعض شعراء العجم :

وَإِسْوَةٌ لَامِرِي شَيْبَتُهُ فِي عُنفوانٍ وَمَاؤُهُ خَضِلُ !
رَاضٍ بِبِزْرِ الْمَعَاشِ مُضْطَهَدٌ عَلَى تَرَاثِ الْآبَاءِ يَتَّكِلُ
لَا حَفَظَ اللَّهُ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ وَلَا رَعَاهُ مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ
كَلَّا وَرَبِّي حَتَّى تَكُونَ قَتَى قَد نَهَكَتُهُ الْأَسْفَارُ وَالرَّحْلُ
مُشْمَرًا يَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ أَوْ يُضْرَبُ يَوْمًا بِهَيْلِكَهِ الْمَثَلُ
حَتَّى مَتَى تَتَّبِعُ الرَّجَالَ وَلَا تَتَّبِعُ يَوْمًا ، لَأَمَّاكَ الْهَيْلُ !

عبد الله بن ثعلبة الأزدي :

فَلَنْ عَمَرْتُ لِأَشْفِينِ النَّفْسِ مِنْ تَلِكِ الْمَسَاعِي
وَلَأَعْلِنَنَّ . الْبَطْنَ أَنْ الزَّادَ لَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
أَمَّا النَّهَارُ فَقَدْ أَرَى قَوْمِي بِمَرْقَبَةٍ يَفَاعُ (١)
فِي قَرَّةٍ هَلَكٍ وَشَوْ كِ مِثْلِ أَنْيَابِ الْأَفَاعِي (٢)
تَرِدُ السَّبَاعُ مَعِي فَتَحْسُبُنِي السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ

مجير الجراد أبو حنبل حارثة بن مر الطائي ، أجاد جراداً نزل به ومنع من صيده ،
حتى طار من أرضه ؛ فسمي مجير الجراد .

وقال هلال بن معاوية الطائي :

وَبِالْجَلْبِينِ لَنَا مَعْقِلٌ صَعَدْنَا إِلَيْهِ بِضُمِّ الصَّعَادِ
مَلَكْنَاهُ فِي أُولِيَّاتِ الزَّمَا نِ مِنْ قَبْلِ نُوحٍ وَمِنْ قَبْلِ عَادِ
وَمِنَّا ابْنُ مُرِّ أَبُو حَنْبَلٍ أَجَارَ مِنَ النَّاسِ رَجُلَ الْجَرَادِ
وَزَيْدٌ لَنَا وَلَنَا حَاتِمٌ غِيَاثُ الْوَرَى فِي السَّنِينِ الشَّدَادِ

وقال يحيى بن منصور الحنفي :

وَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَّا فَحَالَفْنَا السُّيُوفَ كُلِّي الدَّهْرِ (٣)
فَأَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ كُلِّي وَتَرِ

(١) اليفاع : التل .

(٢) ما يصيب الإنسان من البرد .

(٣) ديوان الحماسة ٣٢٦ - بشرح الرزوقي .

وقال آخر :

أَرِقَ لِأَرْحَامِ أَرَاهَا قَرِيبَةً لِحَارِ بْنِ كَعْبٍ لَا لِحَرِيمٍ وَرَاسِبٍ^(١)
وَإِنَّا نَرَى أَقْدَامَنَا فِي نَعَالِهِمْ وَأَنْفَنَا بَيْنَ اللَّحَى وَالْحَوَاجِبِ
وَإِقْدَامَنَا يَوْمَ الْوَعَى وَإِبَاءَنَا إِذَا مَا أَبَيْنَا لَا نُدِرُّ لِعَاصِبِ

حاصرت التّرك مدينة بردعة من أعمال أذربيجان في أيام هشام بن عبد الملك حصارا شديدا ، واستضعفتها وكادت تملكها ، وتوجه إليها لمعاوتها سعيد الحرشي ، من قبل هشام بن عبد الملك في جيوش كثيفة ، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا ، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بردعة سراً يعرفهم وصوله ، ويأمرهم بالصبر خوفاً ألا يدركهم ، فسار الرجل ولقيه قومٌ من الترك ، فأخذوه وسألوه عن حاله ، فكتّمهم فعذبوه ، فأخبرهم وصدقهم . فقالوا : إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك ، وإلا قتلناك ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : أنت عارف بأصحابك ببردعة وهم يعرفونك ، فإذا وصلت تحت الشور فنادهم إنه ليس خلقي مدد ، ولا من يكشف ما بكم ، وإنما بعثت جاسوساً . فأجابهم إلى ذلك ، فلما صارت تحت سورها ، وقف حيث يسمع أهلها كلامه ، وقال لهم : أنعرفوني ؟ قالوا : نعم ، أنت فلان ابن فلان ، قال : فإن سعيداً الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف ؛ وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد ، وهو مصبحكم أو ممسيكم ، فرفع أهل بردعة أصواتهم بالتكبير ، وقتلت الترك ذلك الرجل ، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين .

وقال الراجز :

مَنْ كَانَ يَنْوِي أَهْلَهُ فَلَا رَجَعَ فَرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعَ

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٢٨ بشرح الرزوقي ، ونسبها إلى بعض بني عيس .

أشرف معاوية يوما فرأى عسكر علي عليه السلام يصفين فهاله ، فقال : مَنْ طلب
عظيما خاطر بعظيمته .

وقال الكحلبة :

إذا المرء لم يَفْشِ المكاره أوشكت حبالُ الهويبي بالفتى أن تَقَطَّعا^(١)

ومن شعر الحماسة :

أقولُ لها وقد طارت شعاعاً من الأبطالِ ونحك لا تراعي^(٢)
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجلِ الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلودِ بمُستطاع
ولا ثوبُ البقاء بثوبِ عزٍّ فيطوى عن أخى الخنع اليراع^(٣)
سبيلُ الموتِ غاية كلِّ حى فداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لا يُعْتَبِطُ بسأمٍ ويهزم وتُسَلِّهُ المنون إلى انقطاع
وما للمرء خَيْرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاع

ومنه أيضا :

وفي الشَّرِّ نجاةٌ حين لا يُنْجِيكَ إحسانُ^(٤)

ومنه أيضا :

ولم نَدْرِ إن جِضنا عن الموت جِيْضَةً كَمِ العمرُ باقي والمدى مُتَطَوِّلُ^(٥)

(١) الفضليات ٣٢

(٢) لقطرى بن الفجاءة . ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٩٦

(٣) أخو الخنع : الذليل . واليراع : الرجل الجبان ؛ كأنه لا قلب له ؛ تشبيها له بالقصبة الجوفاء .

(٤) للفند الزمانى ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٢٦

(٥) لجعفر بن عليّة الحارثي ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٤٨ . جِضنا : عدلنا وانحرفنا .

ومنه أيضا :

وَلَا يَكْشِفُ الْقَمَاءُ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ
يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُنَّمٌ يَزُورُهَا (١)

ومنه أيضا :

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَ كُمْ
وَلَا ابْنَ نَفْسِي يَزِدْهَا وَعِيدَكُمْ
لِشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ (٢)

ومنه أيضا :

سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِبًا
عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبًا (٣)

وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وَأَجْعَلُ هَذْمَهَا
لِعِرْضِي مِنْ بَاقِي الْمَذْمَةِ حَاجِبًا

وَبَصْرُفِي عَيْنِي تِلَادِي إِذَا انْتَنَتُ
يَمِينِي بِإِدْرَاكِ الَّذِي كُنْتُ طَالِبًا

فَإِنْ تَهْدَمُوا بِالْقَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا
تَرَاثُ كَرِيمٍ لَا يُبَالِي الْعَوَاقِبَا

أَخِي عَزَمَاتٍ لَا يُطِيعُ عَلَى الَّذِي
يَهْمُ بِهِ مِنْ مُفْطَعِ الْأَمْرِ عَاتِبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزَمَهُ
وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا

فِيَا أَرْزَامِ رَشَّحُوا بِي مُقَدَّمَا
إِلَى الْمَوْتِ خَوَاضَا إِلَيْهِ السَّبَابَا

إِذَا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ

وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا
وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

ومنه أيضا :

هُمَا خُطْبَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنَّةٌ
وَأَمَّا دَمٌ ، وَالْقَتْلُ بِالْحَرِّ أَجْدَرُ (٤)

(١) لجعفر بن حلبة أيضا ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٥٠

(٢) له أيضا ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٥٤

(٣) لعمد بن ناش ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٧٠

(٤) لتأبط شرأ ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ٧٨

ومنه أيضا :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَّاتَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
 إِذَا مَارَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ ^(١)
 يَقْصُرُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا
 وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
 وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيْدٌ حَتْفَ أَنفِهِ
 وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ
 تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَّاءِ نَفُوسُنَا
 وَلَيْسَتْ كَلَى غَيْرِ الشُّيُوفِ تَسِيلُ

ومنه أيضا :

لَا يَزَكِّنُ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْجَامِ
 يَوْمَ الْوَعْيِ مُتَخَوِّفًا لِلْحَمَامِ ^(٢)
 فَلَقَدْ أُرَانِي لِلرَّمَّاحِ دَرِيْثَةً
 مِنْ عَنِّ يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي
 حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحْدَرُ مِنْ دَمِي
 أَكْنَافَ سَرَجِي أَوْ عِنَانَ الْجَامِي
 ثُمَّ انصرفتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أَصَبْ
 جَذَعَ الْبَصِيرَةَ قَارِحَ الْإِقْدَامِ

ومنه أيضا :

وَإِنِّي لَدَى الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ
 بِإِقْدَامِ نَفْسِي لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا ^(٣)
 مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لِاتْلَفَ حَيَاةٌ
 لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا

كتب عبد الحميد بن يحيى عن مروان بن الحكم إلى أبي مسلم كتاباً ، حَمَلِ عَلَى جَمَلٍ
 لِعِظْمِهِ وَكَثْرَتِهِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الطُّوْلِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَقَدْ حَمَلِ عَلَى جَمَلٍ تَعْظِيماً
 لِأَمْرِهِ ، وَقَالَ لِمَرْوَانَ بْنِ الْحَكْمِ : إِنْ قَرَأَهُ خَالِي أُنَجِّبَ ^(٤) قَلْبَهُ ، وَإِنْ قَرَأَهُ فِي مَلَأٍ مِنْ

(١) للسموئل ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١١١

(٢) لقطري بن الفجاءة ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١٣٠

(٣) لقيس بن الحطيم ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١ : ١٨١

(٤) نخب : جين

أصحابه ثبّطهم وخذلهم ، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرّقه بالنار ولم يقرأه ، وكتب على بياض كان على رأسه وأعادته إلى مروان :

مَحَا السِّيفُ أَسْطَارَ الْبِلَاغَةِ وَانْتَحَتْ (١) إِلَيْكَ لِيُوثَ الْغَابَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (١)

فَإِنْ تَقَدَّمُوا نَعْمَلْ سَيْوَفًا شَحِيدَةً يَهُونَ عَلَيْهَا الْعَتَبُ مِنْ كُلِّ عَاتِبٍ (٢)

ويقال : إن أول الكتاب كان : لو أراد الله بالنملة صلاحا ، لما أثبت لها جناحا .

وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار ، وهو أول كتاب صدر عن أبي مسلم إلى نصر ،

وذلك حين لبس السواد ، وأعلن بالدعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة :

أما بعد فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواما فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ

نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُتَمِرِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا

أَسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ

يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (٣)

فلما ورد الكتاب إلى نصر تعاظمه أمره ، وكسّر له إحدى عينيّه ، وقال : إن لهذا

الكتاب لأخوات ، وكتب إلى مروان يستصرّخه ، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده

فقطدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبدشمس .

الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

سَأْمِضِي لِئْتِي لِأَعْيَبَ فِيهَا وَإِنْ لَمْ أَسْتَفِذْ إِلَّا عَنَاءً (٤)

(١) انتحت : قصدت .

(٢) شحيدة : منونة .

(٣) سورة فاطر ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) ديوانه لوجه ٧٥-٧٦ .

وأطلبُ غايةً إن طوّحتَ بي أصابتَ بي الحِمَامَ أو العَلَاءَ
 نَمَّا بِي مِنْ أِبَاءِ الضِّمِّ أَبِ (١) أفاضَ علىّ تلكَ الكِبرِيَاءَ
 وَمِنَّا كُلِّ أَغْلَبَ مُسْتَمِيتِ إذا أنتَ لَدَدْتَهُ بِالذَّلِّ قَاءَ (٢)
 إِذَا مَاضِيَمَ نَمْرَ صَفْحَتَيْهِ وَقَامَ عَلَى بَرَائِنِهِ إِبَاءَ (٣)
 وَنَابِي أَنْ يُنَالَ النِّصْفَ مِنَّا وَأَنْ نُعْطَى مِقَارِعَنَا السَّوَاءَ
 وَلَوْ كَانَ الْعِدَاءُ يَسُوعُ فِينَا لَمَا تُنْمَنَا الْوَرَى إِلَّا الْعَتْدَاءَ

وله :

سَيْطِطُكَ المِهْنَدُ مَا نَى وَيُطِيطُكَ المُنْقَفُ مَا نَشَاءَ (٤)
 وما ينجى من الغمّراتِ إلا طِعَانٌ أو ضِرَابٌ أو رِمَاءُ

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنيّة واختاروا عليها المنية ، عبد الله بن الزبير ، تفرّق عنه لما خار به الحجاج بمكة ، وحضره في الحرم - عامة أصحابه ، وخرج كثير منهم إلى الحجاج في الأمان ؛ حتى حمزة وخبيب ابناه ، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكانت قد كُفّت بصرها ، وهي عجوز كبيرة ، فقال لها : خذاني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلا من ليس عندهم الدفّع أكثر من ساعة ، والقوم يُعطونني من الدنيا ما سألتُ ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتل أكثر أصحابك فلا تمكّن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكت

(١) الديوان : « تام » .

(٢) الأغلب : الشجاع ، وأصله في الأسد .

(٣) الصفحتان : جانبا العنق ، ونمرها : جعلها يشبهان صفحة النمر

(٤) ديوانه لوحة ١٧٦

نفسك ، وأهلك من قتل معك ، وإن كنت قاتلت على الحق ، فما وهم أصحابك إلا ضمفت ، فليس هذا فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . وكم خلوك في الدنيا !
القتلُ أحسن .

فدنا عبد الله منها فقَبِلَ رأسها ، وقال : هذا والله رأيت ، والله ماركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عز وجل أن تُسَاحِلَ محارمهُ ، ولكنني أحببتُ أن أعلم رأيك ، فقد زِدْتَنِي بصيرة ، فانظري يا أماء ، إني مقتول يومى هذا ، فلا يشتدُّ جَزَعُكَ ، وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمدْ إتيان منكراً ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجرُ في حكم الله ، ولم يظلم مسلماً ولا معاهداً ، ولا بلغنى ظلم عن عامل من عمالي فرضيتُ به بل أنكرته ، ولم يكن شيء عندي آثر من رضا الله ، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسى ، أنت أعلم بى ؛ ولكني أقوله تعزيةً لأُمى لتسلو عني .
فقلت : إني لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً إن تقدمتني ؛ فأخرج لأنظرُ إلى ماذا يصير أمرك ؟ فقال : جزاك الله خيراً يا أمى ، فلا تدعى الدعاء لى حياً وميتاً .
قلت : لا أدعه أبداً ، فمن قتل على باطلٍ فقد قتل على حق ، ثم قالت : اللهم ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب فى الظلماء ، وذلك الصوم فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى ؛ اللهم إني قد أسلمتُ لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت فيه ، فأثبني عليه ثواب الصابرين .

وقد روى فى قصة عبد الله مع أمه أسماء رواية أخرى ، أنه لما دخل عليها وعليه الدرع والمِغفر - وهى عمياء لا تبصر - وقف فسلم - وقف فسلم - ثم دنا فتناول يدها فقبلها ، قالت : هذا وداع فلا تبعد ، فقال : نعم ، إنما جئتُ مودعاً ، إني لأرى هذا اليوم آخرَ أيامى من الدنيا ، واعلمى يا أمى أنى إذا قتلتُ فإنما أنا لحم لا يضرثنى ما صنع بى ، فقالت : صدقت يا بنى ! أقيم على بصيرتك ، ولا تمكّن ابن أبى عقيل منك ، ادن منى لأودعك ، فدنا منها فقبلته

وعانقته ، فوجدت مسَّ الدَّرْع ، فقالت : ما هذا صنع من يريد ما تريد ؟ فقال : إنما لبسته لأشدَّ منك ، قالت : إنه لا يشدُّ مني ، ثم انصرف عنها ، وهو يقول :

إني إذا أعرفُ يَوْمِي أصبرُ إذ بعضهم يعرف ثم ينكِرُ

وأقام أهلُ الشام على كل باب من أبواب مكة رجالاً وقائداً ، فكان لأهلِ حِمْص الباب الذي يواجه باب الكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بني شَيْبَةَ ، ولأهلِ الأردنَّ باب الصفا ، ولأهلِ فلسطين باب جُحَح ، ولأهلِ قِنْسَرِينَ باب بني سَهْم . وخرج ابنُ الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحمل هاهنا ، وكأنه أسد لا يقدم عليه الرجال ، وأرسلتُ إليه زوجته : أأخرج فأقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جَرُّ الدِّيُولِ ٥

فلما كان الليل ، قام يصلي إلى قريب السَّحَر ثم أغنى محتبياً بمحائل سيفه ، ثم قام فتوضأ وصلى ، وقرأ ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، ثم قال بعد انقضاء صلاته : مَنْ كَانَ عَنِّي سائلاً فإني في الرَّعِيلِ الأول ، ثم أنشد :

وَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مَرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلْمًا (١)

ثم حمل حتى بلغ الحجون ، فرمى بأجرة ، فأصابت وجهه فدَمِي ، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ، أنشد :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقَطَّرَ الدَّمَا (١)

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم ، واعتوروه بأسيا فمهم حتى سقط : وجاء الحجاج

فوقف عليه وهو ميت ، ومعه طارق بن عمرو ، فقال : ما ولدت النساء أذكرك من هذا !
وبعث برأسه إلى المدينة ، فنُصب بها ثم حمل إلى عبد الملك .

أبو الطيب المتنبي :

أطاعينُ خيلاً من فوارسها الدهرُ وحيداً وما قولِي كذاً ومعِي الصبرُ! (١)
وأشجعُ مِنِّي كلُّ يومِ سلامتي وما ثَبَّتتْ إلا وفي نفسها أمرُ
تَمَرَّستُ بالآفاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأبى كأنَّ لي سيوى مُهَجَّتِي أو كان لي عِنْدَهَا وترُ (٢)
ذَرَّ النَّفْسَ تَأْخُذُ حَظَّهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ففترِقُ جارانِ دارُهما عُمُرُ
ولا تَحْسِبَنَّ المَجْدَ زِقاً وَقِينَةً فالجدُّ إلا السِّيفُ والفتكَةُ البِكرُ (٣)
وتَضْرِبُ هَامَاتِ الملوِكِ وأنْ تُرَى لَكَ الهَبواتُ السُّودُ والعسكرُ المَجْرُ (٤)
وترَكَّكَ في الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تداوَلَ تَمَعَ المرءُ أنْمَلُهُ العَشْرُ

وقال ابن حيوس :

ولستُ كَمَنُ أَخْنَى عَليهِ زمانه فظلَّ عَلَى أَحْدائِهِ يَتَعَبُّ (٥)
تَلَذُّهُ الشُّكوى وإنْ لم يُفِدْ بِهَا صلاحاً كما يَلْتذُّ بِالْحِكِّ أَجْرَبُ
ولكنني أَحْيى ذِمَارِي بعزيمةٍ تنوبُ منابَ السِّيفِ والسِّيفُ مقضِبُ (٦)

(١) ديوانه ١ : ١٤٨

(٢) في الديوان : « إقدام الآتي » ، والآتي : السبل الذي لا يردده شيء .

(٣) انقينة : اللقينة . والزق : طرف الحجر . والفتكة البكر : التي لم يسبق إليها .

(٤) الهبوات : جمع هبوة ؛ وهي النيرة العظيمة . والمجر : الجيش العظيم .

(٥) ديوانه ١ : ٣٥٠ .

(٦) للفضب : السيف القاطع .

وليس الفتى من لم تسم جسمه الطبا ويخطم فيه من قنا الخط أ كمْب (١)
وله أيضا :

أخفق المترف الجنوح إلى الخفضِ وفاز المخاطرُ المقدامُ (٢)
وإذا ما الشيوف لم تشهد الحر بَ فسيانِ صارمٌ و كهامُ

ومن تَقِيلَ مذاهبَ الأسلافِ في إباء الضيم وكرهية الذلِّ ، واختار القتلَ على ذلك
وأن يموتَ كريما ؛ أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ،
أمه أم ولد ، وكان السبُّ في خروجه وخلعه طاعةَ بني مروان ، أنه كان يخاصم عبد الله بن
حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في صدقاتِ عليّ عليه السلام ، وهذا
يخاصم عن بني حسين ، وهذا عن بني حسن ؛ فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن
الحارث بن الحكم أمير المدينة ، فأغلظ كلُّ واحد منهما لصاحبه ، فسُرَّ خالد بن عبد الملك
بذلك ، وأعجبه سببهما ، وقال لهما حين سكتا : أغدوا عليّ ، فليستُ بآبن عبد الملك إن
لم أفصلُ بينكما غدا ، فباتت المدينة تغلي كالمرجل ، فمن قائل يقول : قال زيد كذا ،
وقائل يقول قال عبد الله كذا ، فلما كان الغد جلس خالد في المسجد ، وجمع الناس ؛ فمن
بين شامتٍ ومغموم ، ودعا بهما وهو يحبُّ أن يتشامتا ، فذهب عبدُ الله يتكلم ، فقال زيد :
لا تعجل يا أبا محمد ، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا ، ثم أقبل على خالد ،
فقال له : أجمعتَ ذريةَ رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر
ولا عمر ، فقال خالد : أما لهذا السفية أحدٌ يكلمه !

فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم ، فقال : يابن أبي تراب ، ويابن

(١) الديوان : « تسم جسمه » .

(٢) ديوانه ٢ : ٥٦٦ .

حسين السفيه ! أما ترعى عليك لوالٍ حقا ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطاني ، فإننا لانجيب مثلك ، فقال الأنصاري : ولم ترغبُ عنى ! فوالله إنى لخيرُ منك ، وأبى خير من أهلك ، وأمى خير من أمك ! فتضحك زيد ، وقال : يامعشر قريش ؛ هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ! فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبت أيها القحطاني ، والله لهمو خيرُ منك نفسا وأبا وأما ومحتدأ ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفاً من الحصى ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالتنا على هذا من صبر ، وقام .

فقام زيد أيضا ، وشخص من فوره إلى هشام ابن عبد الملك ، فجعل هشام لا يأذن له وزيد يرفع إليه القصص ، وكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها : ارجع إلى أرضك ، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبدا ، ثم أذن له بعد حبسٍ طويل وهشام في عليّة له ، فرقى زيد إليها ، وقد أمر هشام خادما له أن يتبعه حيث لا يراه زيد ، ويسمع ما يقول . فصعد زيد - وكان بادنا - فوقف في بعضِ الدرجة ، فسمعه الخادم ، وهو يقول : ما أحبّ الحياة إلا من ذلّ ! فأخبر الخادم هشاما بذلك ، فلما قعد زيد بين يدي هشام وحدثه حلف له على شيء ، فقال هشام : لأصدقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه . قال له هشام : إنّه بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك ! لأنك ابنُ أمة ، فقال زيد : إن لك جوابا ، قال : تكلم ، قال : إنه ليس أحد أولى بالله ، ولا أرفع درجة عنده من نبيّ ابتهته ؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم ، وهو ابن أمة ، قد اختاره الله لنبوته ، وأخرج منه خير البشر ، فقال هشام : فما يصنعُ أخوك البقرة ! فغضب زيد ، حتى كاد يخرج من إهابه ، ثم قال : سمّا رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر ، وتسميه أنت البقرة ! لشدّما اختلفنا ! لتخالفنا في الآخرة ، كما خالفنا في الدنيا ، فيرد الجنة ، وترد النار .

فقال هشام : خذوا بيد هذا الأحمق المائت ، فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احمِلوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتني إليه لا أجمع أنا وأنت حَيِّين ، ولِمَيوتنَّ الأعمج مِنَّا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسيرونه حتى طردوه عن حدود الشام ، فلما فارقه عدل إلى العراق ، ودخل الكوفة ، وباع لنفسه ، فأعطاه البيعة أكثر أهلها ، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي ، فكان بينهما من الحرب ما هو مذكور في كتب التواريخ . وخذل أهل الكوفة زيदा ، وتحلف معه تمن تابعه نفر يسير ، وأبلى بنفسه بلاء حسناً وجهادا عظيماً ، حتى أتاه سهم غرب^(١) ، فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فثبت في دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام .

عَنف محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام زيدياً لما خرج ، وحذره القتل ، وقال له : إن أهل العراق خذلوا أباك علياً وحسنا وحسينا عليهم السلام ؛ وإنك مقتول ، وإنهم خاذلوك ، فلم يُثنِ ذلك عزمه وتمثل :

أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعزِلِ ^(٢)	بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْحُتُوفُ كَأَنِّي
لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِذَلِكَ الْمَنهَلِ	فَأَجِبْتُهَا إِنْ الْمَنِيَّةُ مَنهَلٌ
مِثْلِي ، إِذَا نَزَلُوا بِضَيْقِ الْمَنزِلِ ^(٣)	إِنْ الْمَنِيَّةُ لَوْ تَمَثَّلَتْ مُثَلَّتْ
أَنِي أَمْرٌ سَامُوتٌ إِنْ لَمْ أَقْتَلِ ^(٤)	فَأَقْنِي حَيَاءَكَ لِأَبَالِكَ وَأَعْلَى

(١) سهم غرب ، على الإضافة : لا يدري راميه
 (٢) لعنرة ، ديوانه ٤٢ ، (من مجموعة العقد الثمين) .
 (٣) في الديوان : « ضنك المنزل »
 (٤) اقنى حياءك : الزميه

العلوى البصرى صاحب الزنج يقول :

وَإِذَا تَنَازَعْنِي أَقُولُ لَهَا قَرِي
مَوْتُ الْمَلُوكِ عَلَى صُعُودِ الْمُنْبَرِ
مَا قَدْ قَضَى سَيَاكُونُ فَاصْطَبِرِي لَهُ
وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقَدَّرْ

وقال أيضاً :

إِنِّي وَقَوْمِي فِي أَنْسَابِ قَوْمِهِمْ
كَمَسْجِدِ الْخَلِيفِ فِي بُحْبُوحَةِ الْخَلِيفِ
مَا عَلَّقَ السِّيفُ مِنْ بَابِنِ عَاشِرَةٍ
إِلَّا وَعِزَّتُهُ أَمْضَى مِنَ السِّيفِ

بعض الطالبين :

وَإِنَّا لَتُصْبِحُ أَسِيفَنَا
إِذَا مَا أَنْتُضِينَ لِيَوْمِ سَفُوكِ
مَتَابِرُهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ وَأَعْمَادُهُنَّ رَعُوسُ الْمَلُوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه :

وَهُمُ الْأَسْوَدُ لَدَى الْعَرَبِينَ بَسَالَةً
يَمْتَضُونَ قَدَ كَسْرٍ وَالْجُفُونَ إِلَى الْعَا
فَكَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهُمْ أَحْبَابُهُمْ
يَرِدُونَ حَوْمَاتِ الْجَمَامِ وَإِنَّهَا
وَلَقَدْ مَضَوْا وَأَنَا الْحَبِيبُ إِلَيْهِمْ
قَدَّرَ يَخْلُقَنِي وَيُنْضِيهِمْ بِهِ
وَمِنْ الْخُشُوعِ كَأَنَّهُمْ أَجْبَارُ
مُتَبَسِّمِينَ وَفِيهِمْ اسْتِبْشَارُ
فَرَحًا إِذَا خَطَرَ الْقَنَاءَ الْخَطَّارُ
تَأَلَّهُ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ لَصِفَارُ
وَهُمْ لَدَى أَحَبَّةٍ أَبْرَارُ
يَاهُفَ كَيْفَ يَفُوتَنِي الْمَقْدَارُ !

وفي الحديث المرفوع « خُلِقَانِ يَجْتَمِعَانِ اللَّهُ : الشجاعة والسخاء » .

كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علي عليه السلام

ويقول : كان أشجعهم وأسخام ، ومنه برى القول بالفضل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة ، وفي كثير من البصريين .

دخل النضر بن راشد العبدى على امرأته في حرب الترك بخراسان في ولاية الجنيد ابن عبد الرحمن المرى في خلافة هشام بن عبد الملك ، والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف تكونين إذا أتيتى بي في ليد قتيلاً مضرّاً بالدماء ؟ فشقت جيبها ، ودعت بالويل ، فقال : حسبك ! لو أعولت على كل أنثى لعصبتها شوقاً إلى الجنة . ثم خرج تقاتل حتى قُتل وحمل إلى امرأته في ليد ودمه يقطر من خلاله .

قال أبو الطيب المتنبي :

إذا غامرت في شرفٍ مرؤمٍ فلا تقنع بما دُونَ النجومِ (١)
فطم الموت في أمرٍ حقيرٍ كطم الموت في أمرٍ عظيمٍ
يرى الجبناء أن الجبن حزمٌ وتلك خديمة الطبع اللثيم
وكل شجاعة في المرء تُفني ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وقال :

إذا لم تجد ما يبتز العمرَ قاعداً فقم وأطلب الشىء الذى يبتز العمرَ (٢)

وقال :

أهم بشىء والليانى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارِدُ (٣)
وحيداً من الخلان في كل بلدةٍ إذا عظم المطلوب قلّ المساعدُ

(١) ديوانه ٤ : ١١٩

(٢) ديوانه ٢ : ١١٤

(٣) ديوانه ١ : ٢٧٠

قيل لأبي مسلم في أيام صباه : نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع ،
أو تنتظر نزول الوحي ! قال : لا ، ولكن لي همة عالية ، ونفس تتطلع إلى معالي الأمور ،
مع عيش كعيش الهمج والرعاع ، وحال متناهية في الاتضاع . قيل : فما الذي يشفي علتك ،
ويُرَوِّى غُلتك ؟ قال : الملك ، قيل : فاطلب الملك ، قال : إن الملك لا يطلب هكذا .
قيل : فما تصنع وأنت تذوب حسراً ، وتموت كماً ؟ قال : سأجعل بعض عقلي جهلاً ،
وأطلب به ما لا يطلب إلا بالجهل ، وأحرس بالباقي ما لا يحرس إلا بالعقل ، فأعيش بين
تدبيرِ ضِدِّين ، فإن الخمول أخو المُدِّيم ، والشهرة أخت الكون .

قال ابن حيوس :

أَمْوَانُهُمْ بِالذِّكْرِ كَالْأَحْيَاءِ	وَلِحَيْبِهِمْ فَضْلٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ (١)
نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ الْمَرْوَةِ وَامْتَطَوْا	بِالْبَاسِ ظَهَرَ الْعِزَّةَ الْقَعَسَاءِ
وَالْعِزَّةَ لَا يَنْبَغِي لغير مَعْوَدٍ	أَنْ يَكْشِفَ الْغَمَاءَ بِالْغَمَاءِ
لَا تَحْسَبِ الضَّرَاءَ ضَرَاءً إِذَا	أَفْضَتْ بِصَاحِبِهَا إِلَى السَّرَاءِ

وقال :

وهي الرياسة لا تبوحُ بسرِّها	إِلَّا لِأَرْوَعٍ لَا يُبَاحُ ذِمَارُهُ (٢)
يَحْمِي حِمَاهُ قَلْبُهُ وَلسَانُهُ	وَتَذُودُهُ عَنْهُ يَمِينُهُ وَيسَارُهُ
لَا الْعِذْلَ نَاهِيَهُ ، وَلَا الْحِرْصَ الَّذِي	أَمَرَ النَّفُوسَ بِسُحْحِهَا أَمَارُهُ
فَلْيَعْلَمْ السَّاعِي لِيَبْلُغَ ذَا الْمَدَى	إِنَّ الطَّرِيقَ كَثِيرَةٌ أَخْطَارُهُ

(١) ديوانه ١٢٠ : ١٩ -

(٢) ديوانه ١ : ٢٩٨ - ٢٩٩

كان ثابت بن قُطَنَة في خيل عبد الله بن بسطام في فتح شكند من بلاد الترك في أيام هشام بن عبد الملك ، فاشتدَّت شوكةُ الترك ، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خلق ، فقال ثابت : والله لا ينظرُ إلىَّ بنو أميةَ غداً مشدوداً في الحديد ، أطلبُ الفداء ؛ اللهم إن كنتُ ضيفُ ابنِ بسطامِ البارحة ، فاجعني ضيفك الليلة ، ثم حمل وحمل معه جماعة ، فكسرتهم الترك ، فرجع أصحابه وثبت هو ، فرمى برذونه فشبَّه ، وضربه فأقدم ، فصرع ثابت وارتث ، فقال : اللهم إنك استجبتَ دعوتي ، وأنا الآن ضيفك ، فاجعلْ قرأى الجنة . فنزل تركي فأجهز عليه .

قال يزيد بن المهلب لابنه خالد ، وقد أمره على جيش في حرب جرجان : يا بني ، إن غلبتَ على الحياة فلا تُفَلِّبنَّ على الموت ، وإياك أن أراك غداً عندي مهزوما !
عن النبي صلى الله عليه وآله : « الخيرُ في السَّيفِ ، والخيرُ مع السيف ، والخيرُ بالسيف » ، كما يقال : المنيةُ ولا الدنية ، والنارُ ولا العار ، والسيفُ ولا الخيف .
قال سيفُ بن ذى يزنٍ لأنوشِروان حين أعانه بوهرز الديلمي ومن معه : أيها الملك ، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفاً ؟ فقال : يا أعرابي ، كثيرُ الخطبِ يكفيه قليلُ النار .

لما حبسَ مروان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السَّفاح ، وأخوه أبو جعفر ، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام ، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علي بن عبد الله بن العباس ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، من الحميمية من أرض السَّراة ، يطلبون الكوفة ، وتمدَّ كان داود بن علي بن عبد الله بن العباس وابنه موسى بن داود بالعراق ، فخرجا يطلبان انشام ، فملقاهما أبو العباس وأهلُ بيته بدومة الجندل ، فسألهم داودُ عن

خروجهم ، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة ليظهرُوا بها ، ويدْعُوا إلى البيعة لأبي العباس ، فقال : يا أبا العباس ، يظهر أمرك الآن بالكوفة ، ومروان بن محمد شيخ بنى أمية بحرّان مُطِلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة شيخ العرب بالعراق في فرسان العرب ، فقال : يا عمّ مَنْ أَحَبَّ الحِياةَ ذلّ ، ثم تمثّل بقول الأعشى :

فما مِيتة إن مِتُّها غَيْرُ عَاجِزٍ بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفْسَ غُولُها^(١)

فقال داود لابنه موسى : صدقَ ابن عمك ، ارجع بنا معه ، فإما أن نهلك أو نموت كراما .

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحَمِيمة يريدون الكوفة : إن ثلاثة عشر رجلا خرجوا من ديارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا ، لعظيمة همّهم ، كبيرة نفوسهم ، شديدة قلوبهم .

أبو الطيب المتنبّي :

وإذا كانتِ النَّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَّتْ في مُرَادِها الأَجْسامُ^(٢)

وله :

إلى أيّ حينِ أنتِ في زِي مُحْرَمٍ وَحَتّى متى في شِقْوَةٍ وإلى كَمِ!^(٣)
وإلا تَمُتْ تحتِ الشُّيُوفِ مَكْرَمًا تَمُتْ وتقاى الذُّلَّ غَيرَ مُكْرَمٍ
فِئبِ وإثما باللهِ وَثِبَةَ ما جِدِ يَرى الموتَ في المِيجاجِ النَّحْلِ في الفَمِ

(١) ديوانه ١١٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٤٥

(٣) ديوانه ٤ : ٣٣

وقال آخر :

إِنْ تَقْتُلُونِي فَأَجَالُ الرَّجَالِ كَمَا حَدَّثْتُ قَتْلُ مَا بِالْقَتْلِ مِنْ عَارِ
وَإِنْ سَلِمْتُ لَوْ قَتَلَ بَعْدَهُ فَعَسَى وَكُلَّ شَيْءٍ إِلَى حَادٍ وَمِقْدَارِ

خطب الحجاج ، فشكا سوء طاعة أهل العراق ، فقام إليه جامع الحاربي ، فقال :
أيها الأمير ، دَعْ ما يباعدهم منك ، إلى ما يقربهم إليك ، والتمس العافية ممن دونك تُعْطَاهَا
مَنْ فَوْقَكَ ، فلو أُحْبِطُكَ لأطاعوك ؛ إنهم ما شنوك بنسبك ولا لبأسك ، ولكن لا يقاعك
بعدَ وعيدِكَ ، ووعيدِكَ بعدَ وَعْدِكَ .

فقال الحجاج : ما أراني أرْدَ بنى اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف ، فقال جامع :
أيها الأمير ، إنَّ السيف إذا لاقى السيفَ ذهب الخييار ، فقال الحجاج : الخييار يومئذ لله ،
فقال : أجل ، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله ، فقال : يا هناء ، أيها فإنك من مُحَارِبِ ،
فقال جامع :

وَلِلْحَرْبِ مُسْمِينًا فَكُنَّا مُحَارِبًا إِذَا مَا أَلْقَيْنَا أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَسْمَرًا

ومن الشعر الجيد في تحسين الإباء والحمية والتَّحْرِيزِ على النهوض والحرب وطلب
الملك والرياسة ، قصيدةُ عمارة اليمينيِّ شاعر المصريين في فخر الدين تورانشاه بن أيوب ،
التي يعرِّيه فيها بالنهوض إلى اليمن ، والاستيلاء على مُلْكِهَا ، وصادفت هذه القصيدة
محلًا قابلاً ، وملك تورانشاه اليمن بما هزَّت هذه القصيدة من عطفه ، وحركت من
عزمه ، وأولها :

الْعِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى الْعِلْمِ
 وَخَيْرٌ خَيْلِكَ إِنْ غَامَرْتَ فِي شَرَفِ
 إِنْ الْمَعَالِي عَرُوسٌ غَيْرُ وَاصِلَةٍ
 تَرَى مَسَامِيحَ فَخْرِ الدِّينِ تَسْمَعُ مَا
 فَإِنْ أَصَبْتُ فِي حِطِّ الْمَصِيبِ وَإِنْ
 كَمْ تَتْرِكُ الْبَيْضُ فِي الْأَجْفَانِ ظَامِئَةً
 وَمَقَلَّةُ الْمَجْدِ نَحْوِ الْعِزْمِ شَاخِصَةً
 فَعَمَّكَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ سَوَّامَهَا
 وَاخْلُقْ لِنَفْسِكَ أَمْرًا لَا تَضَافُ بِهِ
 وَانَّهُ الْمَشِيرِينَ إِنْ لَجَّتْ نَصِيحَتُهُمْ
 وَاعِزِّمْ وَوَصِّمْ فَتَطَالَتْ وَقَدْ سَمَّجَتْ
 فَرَبِّ أَمْرِ يَهَابُ النَّاسُ غَايَتَهُ
 فَكَيْفَ إِنْ نَهَضْتَ فِيمَا هَمَّتْ بِهِ
 لَا يَدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا كُلُّ مُقْتَحِمٍ
 لَا يَنْقُضُ الْخَطْوَةَ الْأُولَى بِثَانِيَةٍ
 كَأَنَّ السَّيْفَ أَفْتَاهُ بِقَتْلِهِمْ
 وَلَمْ يَرَاغُوا لِعُمَانَ وَلَا عَمْرٍ
 فَمَا تَرُومُ سِوَى فَنَاحِ صَوَارِمِهِ
 حَتَّى كَأَنَّ لِسَانَ السَّيْفِ فِي يَدِهِ

وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَفْنِي عَنِ الْقَلَمِ (١)
 عَزَمٌ يَفْرَقُ بَيْنَ السَّاقِ وَالْقَدَمِ
 مَا لَمْ تَخْلُقْ رِدَائِيهَا بِنَضْحِ دَمٍ
 أَمْلَاهُ خَاطِرُ أَفْكَارِي عَلَى قَلَمِي
 أَخْطَأْتُ قَصْدَكَ فَاعْذِرْ نِي وَلَا تَلُمْ
 إِلَى الْمَوَارِدِ فِي الْأَعْنَاقِ وَالْقِيَمِ
 فَاتْرِكْ قَعُودَكَ عَنِ إِدْرَاكِهَا وَقُمْ
 مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى مِصْرٍ بِلَا سَامِ
 إِلَى سِوَاكَ، وَأَوْرِ النَّارَ فِي الْعِلْمِ
 أَوْلَا، فَانْعَمِ عَلَى الْعُمَيَّانِ بِالْوَصْمِ
 قَضِيَةٌ لَفْظَتُهَا أَلْسُنُ الْأُمَمِ
 وَالْأَمْرُ أَهْوَنُ فِيهِ مِنْ يَدِ لِقَمِ
 أَسْدُ تَسِيرٍ مِنَ الْخَطَى فِي أَجْمِ
 فِي مَوْجٍ مُلْتَطِمٍ أَوْ فَوْجٍ مُضْطَرِمِ
 وَلَا يَنْفَكُ فِي الْعُقْبَى مِنَ النَّدَمِ
 فِي فَتْحِ مَكَّةَ حَلَّ الْقَتْلِ فِي الْحَرَمِ
 وَلَا الْحُسَيْنِ ذِمَامَ الْأَشْهُرِ الْحَرِيمِ
 يُضْحَكُنْ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَابِسَ الْبُهَمِ
 يَرُوي الشَّرِيعَةَ عَنِ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

هذا ابن تومرتَ قد كانتَ بدايته فيما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى إلى أن صار طالعهُ من الكواكب بالأنفاس والكظم
وكان أولُ هذا الدين من رجل سعى إلى أن دَعَوْهُ سَيِّدَ الأُممِ

- كذب ، لم يظهر الدين الحنيف المقدس على الأديان بسعى البشر ؛ بل بالتأييد الإلهي ،

والسر الرباني ، صلوات الله وسلامه على القائم به ، والمتحمل له -

والبدرُ بيدُ وهلالاً ثم يكشفُ بالـ أنوارِ ماسترته شَمَلَةُ الظلمِ
والغيثُ فهو كما قد قيل أوله قَطْرُهُ وبدء خراب السد بالعرَمِ
تَنمو قوى الشىء بالتدرِج إن رزقت لَطَى ويقوى شرارُ النار بالضرَمِ
حاسبٌ ضميرك عن رأى أذاك وَقُلْ نصيحة وَرَدَّتْ من غيرِ مُهَمِّمِ
أقسمت ما أنتَ مِمَّنْ جَلَّ همتُه مَراقٍ من نعم أورقٍ منِ نِعَمِ
وإنما أنتَ مرجوٌّ لواحدةٍ بنى بها الدهرُ مجداً غيرَ مُنْهَدِمِ
كأنتى بالليالى وهى هاتِفَةٌ قد صمَّ سمع رجال دُونِها وعمي
وبالعلا كلاً لا فتك قائلة أهلاً بِمُنْشِرِ آمالى من الرَّمَمِ

ومن أباة الضمِّم الذين اختاروا القتلَ على الأسر ، والموت على الدنيا ، مُصْعَب بن الزبير ، كان أميرَ العراقيين من قِبَل عبد الله بن الزبير ، وكان قد كَسَرَ جيوش عبد الملك مِراراً ، وأعياءُ أمره ؛ فخرج إليه من الشام بنفسه ، فليَمَ فى ذلك ، وقيل له : إنك تفرّج بنفسك وخلافتك ، فقال : إنه لا يقوم لحرِبِ مُصْعَبِ غيرى ؛ هذا أمرٌ يحتاج إلى أن يقوم به شجاع ذو رأى ، وربما بعثت شجاعاً ولا رأى له ، أو ذا رأىٍ ولا شجاعة عنده ، وأنا بصير بالحرِبِ ، شجاع بالسيف ؛ فلما أجمع على الخروج إلى حربِ مُصْعَبِ ، جاءته

امراته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فالترمته ، وبكت لفراقه ، وبكى جواربها حولها ،
فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبي جُمة^(١) ! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول :

إِذَا هَمَّ بِالْأَعْدَاءِ لَمْ يَثْنِ عَزْمَهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا
نَهْتَهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا عَرَّاهَا قَطِينُهَا

فسار عبدُ الملك حتى إذا كان بمسكن من أرض العراق ، وقد دنا منه عسكر
مصعب ، تقاعد بمصعب أصحابه وقواده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى : الحق بمكة فانج
بنفسك ، وأخبر عمك عبد الله بما صنع أهلُ العراق بي ، ودعني فإني مقتول ، فقال :
لا تتحدث نساء قريش أتى فررت عنك ، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار ،
ولا عار في القتل ، ثم قاتل دونه حتى قُتل . وخف من يحامى عن مصعب من أهل
العراق ، وأيقن بالقتل ، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان ، فأعطاه الأمان وولاية
العراقين أبدا مادام حيا ، وأتى ألف درهم صلة ، فأبى ، وقال : إن مثلي لا ينصرف عن هذا
المكان إلا غالباً أو مقتولاً ، فشد عليه أهل الشام ورموه بالنبل فأثخنوه ، وطعنه زائدة
ابن قيس بن قدامة السعدي ، ونادى : يا لثارات المختار ! فوقع إلى الأرض ، فنزل إليه
عبد الملك بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه ، وحمله إلى عبد الملك .

لما حُجِلَ رأسُ مصعب إلى عبد الملك ، بكى وقال : لقد كان أحب الناس إليّ وأشدّهم
مودّة لي ، ولكن الملك عقيم .

كتب مصعب إلى سَكينة بنت الحسين عليه السلام ، وكانت زوجته لما شخص إلى
حرب عبد الملك وهي بالكوفة بعد ليال من فراقها :

وكان عزيزاً أن أبيتَ وبيننا حِجَابٌ فَقَدْ أَصَبَحَتْ مِنِّي عَلَى عَشْرِ

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمة.

وأبكاها والله للعين فاعلمى إذا ازددت مثلها فصرت على شهر
وانكى لقاى منها اليوم اتنى أخاف بالآ نلتقى آخر الدهر
ثم أرسل إليها وأشخصها ، فشهدت معه حرب عبد الملك ، فدخل عليها يوم قتل ،
وقد نزع ثيابه ثم لبس غلالة ، وتوشح بثوب واحد ، وهو محتضن سيفه ، فعلت أنه غير
راجع ، فصاحت : واحزنه عليك يا مصعب ! فالتفت إليها ، وقال : إن كل هذا فى
قلبك ! قالت : وما أخفى أكثر ! قال : لو كنت أعلم هذا لكان لى ولك شأن ، ثم
خرج فلم يرجع .

فقال عبد الملك يوما لجلسائه: من أشجع الناس؟ فقالوا: قطرى ، شبيب ، فلان، وفلان،
قال عبد الملك : بل رجل جمع بين سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وأمة الحميد
بنت عبد الله بن عامر بن كرز ، وقلابة ابنة ريان بن أنيف الكلبي سيد العرب ، وولى
المراقين خمس سنين ، فأصاب كذا وكذا ألف درهم ، وأعطى الأمان على ذلك كله وعلى
ولايته وماله فأبى ، ومشى بسيفه إلى الموت حتى قتل . ذاك مصعب ابن الزبير ، لا من
قطع الجسور مرة هاهنا ومرة هاهنا !

سئل سالم بن عبد الله بن عمر ، أمى ابني الزبير أشجع؟ فقال : كلاهما جاء الموت ،
وهو ينظر إليه .

لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك أنشد :

لقد أزدى الفوارس يوم حسي غلاماً غير مَناع المتاع^(١)
ولا فرح بخير إن أتاه ولا هلع من الحدّان لآع
ولا وقافة والخيل تردي ولا خال كأنبوب اليراع

(١) من أبيات نسبها ابن الشجرى فى أماليه ٨٥ إلى طقبل الفنوى .

كان ابن ظبيان ، يقول : ما نَدِمْتُ على شيء نَدِمَى على ألا أكونَ لما حَلَّتْ إلى عبد الملك رأسَ مصعب فسَجَدَ قَتْلُهُ في سَجْدَتِهِ ، فأكون قد قتلْت مَلِكِي العرب في يوم واحد .

قال رجل لعبد الله بن ظبيان : بماذا تحتج عند الله عز وجل غداً ، وقد قتلْت مصعباً؟ قال : إن تُرَكْتُ أحتج كنت أخطب من صعصعة بن صوحان ! كان مصعب ليما خرج إلى حرب عبد الملك سألت عن الحسين بن علي عليه السلام ، وكيف كان قتله ؟ فجعل عروة ابن المغيرة يحدث عن ذلك ، فقال متمثلاً بقول سليمان بن قتة :

وإنَّ الأوَّلَى بِالطَّفِّ من آلِ هاشمٍ تأسَّوْا فَسَنُّوْا لِلْكَرَامِ التَّاسِيًّا (١)
قال عروة : فعلت أن مصعباً لا يفرّ .

لما كان يوم السَّبْخَةِ ، وعسكر الحجاج بإزاء شبيب ، قال له الناس : أيها الأمير ، لو تنحيت عن هذه السبخة ، فإنها منتنة الريح ! قال : ما تنحوني - والله - إليه أنتن ؛ وهل ترك مصعب لكريم مفرّاً ! ثم أنشد قول الكاحبة .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَفْسَحْ الْكَرْيَةَ أُوشَكَّتْ حِبَالُ الْهُؤُنَى بِالْهُؤَى أَنْ تَقَطَّعَا (٢)

وروى أبو الفرج في كتاب " الأغاني " ، (٣) خطبة عبد الله بن الزبير في قتل مصعب برواية هي أنتم مما ذكرناه نحن فيما تقدم ، قال : لما أتى خبرُ المصعب إلى مكة ، أضرَب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياماً ؛ حتى تحدث به جميعُ أهل مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَلِيّاً لا يتكلم ، فنظر الناس إليه ؛ وإن السكّابة على وجهه لبادية ؛ وإن

(١) اللسان ١٨ : ٣٧

(٢) الفضليات ٣٢

(٣) لأغاني ١٧ : ١٦٦ ، تاريخ الضربى ٧ : ١٩٠ ، عيون الأخبار ٢ : ٢٤٠ مع اختلاف في الروايات

جبينه ليرشح عرفاً، فقال واحد لآخر : ماله لا يتكلم ؟ أترأه يهابُ النطق ! فوالله إنه لخطيب !
فما ترأه يهاب ؟ قال : أراه يريد أن يذكر قتل المُصعب سيّد العرب ، فهو يقطع بذلك .
فابتدأ فقال : الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ملك الدنيا والآخرة ، يعزّ مَنْ يشاء ،
ويذلّ مَنْ يشاء ؛ ألا إنه لا يذلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفرداً ضعيفاً ، ولا يعزّ مَنْ
كان الباطل معه ؛ وإن كان ذا عددٍ وكثرة . ثم قال : أتانا خبرٌ من العراق ، بلد الصدر
والشقاق ، فسأنا وسرّنا ! أتانا أن مُصعباً قتل رحمه الله ؛ فأما الذي أحزننا من ذلك
فإن لفرّاقِ الحميم لَذعةً ولوعةً ، يجدها حَمِيمُهُ عند المصيبة ، ثم يرعوى ذو الرأى والدين إلى
جميل الصبر . وأما الذي سرّنا منه ؛ فإن قتله كان له شهادة ؛ وإن الله جاعلٌ لنا وله في
ذلك الخيرة . ألا إن أهلَ العراق باعوه بأقلِّ الأثمان وأخسرها ، وأسلموه لإسلام النعم
المخطمة ^(١) فقتل ؛ وإن قُتِلَ لقد قُتِلَ أبوه وعمه وأخوه ^(٢) ، وكانوا الخيارَ الصالحين ؛
وإنّا والله مانموت حتف آنا ، مانموت إلا قتلاً قتلاً ، وقمصاً ^(٣) قمصاً ، بين قصد ^(٤)
الرماح ، وتحت ظلالِ السيوف ؛ ليس كما تموت بنو مرّوان ؛ والله ماقتل منهم رجل في
جاهلية ولا إسلام ؛ وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد
مُلْكُهُ ، فإن تقبل الدنيا على لا آخذها أخذ الثيم البطر ، وإن تدبر عني لا أبكي عليها
بكاء الخرف ^(٥) المهتر . ثم نزل .

(١) المخطمة ، من قولهم خضم البعير بالحطام إذا جمعه على أفقه ، والحطام : ما وضم على أنف البعير ليقطعه .
(٢) قتل أبوه عبد الله بن الزبير يوم الجمل ، قتله عمرو بن جرهموز في صلته بوادي الساع . وعمه
عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتل يوم اليرموك وأخوه المنذر بن الزبير قتل يوم الحرة .
(٣) القمص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قمصاً ؛ أي أصابته ضربة أو رمية فمات في مكانه .
(٤) القمصدة : القطعة مما يكسر ، وجمعه قصد .
(٥) الخرف : من فسد عقله من الكبر ، وكذلك المهتر .

وقال الطرِّمَاح بن حَكِيم ، وكان يرى رأى الخوارج :

وَإِنِّي لَمُقْتَادٌ جَوَادِي فَقَازِفٌ ۖ بِهِ وَبِنَفْسِي الْيَوْمَ إِحْدَى الْمُتَالِفِ (١)
لَأَكْسِبَ مَا لَا أَوْأُوبُ إِلَى غَنِيِّ مِنَ اللَّهِ يَكْفِينِي عَذَابَ الْخِلَائِفِ (٢)
فِيَارِبَ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ عَلَى شَرْجَعٍ يُغْلَى بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ (٣)
وَإَكُنْ قَبْرِي بَطْنُ شَبْرٍ مَقِيلُهُ بِجَوِّ السَّمَاءِ فِي قُصُورٍ عَوَاكِفِ
وَأُمْسِي شَهِيدًا ثَاوِيًا فِي عِصَابَةِ يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَانِفِ
فَوَارِسُ أَشْتَاتٍ يُوَلِّفُ بَيْنَهُمْ هُدَى اللَّهِ نَزَّالُونَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ

قال ابن شُبْرُمة : مررت يوماً في بعض شوارع الكوفة ، فإذا بنعشٍ حوله رجال ،
وعليه مُطَرَفٌ خَزٌّ أَخْضَرٌ ، فسألت عنه فقبل : الطرمَاح ، فعلمت أن الله تعالى لم يستجب له .

وقال محمد بن هاني :

وَلَمْ أَجِدِ الْإِنْسَانَ إِلَّا ابْنَ سَعْفِيهِ ۖ فَمَنْ كَانَ أَسْعَى كَانَ بِالْمَجْدِ أَجْدَرًا (٤)
وَبِالْهَمَّةِ الْعُلِيَاءِ تَرَفَّى إِلَى الْعَمَلَا ۖ فَمَنْ كَانَ أَعْلَى هِمَّةً كَانَ أَظْهَرًا
وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّمًا ۖ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخُّرًا

الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

وَمَنْ أَخَّرَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ عَاجِزًا ۖ وَمَنْ قَدَّمَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ سَيِّدًا (٥)

(١) ديوانه ١٥٥ والقود : نقيض السوق ؛ فهو من أمنم .

(٢) الخلائف : جمع خليفة ؛ وهو السلطان .

(٣) الشرجع : النعش . وفي الديوان : « إذا العرش إن حانت »

(٤) ديوانه ٣٦٢

(٥) ديوانه ١٢٧ (طبعة نخبة الأخبار) .

وله رحمه الله :

مَأْمُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِي مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ (١)
وإباء محلق بي عن الضئيم كما زاع طائرٌ وحشيٌّ

أبو الطيب المتنبي :

تَقُولِينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ مَا أَحْبَبْتُهُ تَجِدِي مِثْلِي (٢)
مُحِبًّا كُنِّي بِالْبَيْضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وَبِالْحُسْنِ فِي أَجْسَامِنَ عَنِ الصَّقْلِ (٣)
وَبِالسُّمْرِ عَنِ سُمْرِ الْقَنَا غَيْرَ أَنِّي جَنَاهَا أَحْبَبْتُ وَأَطْرَافَهَا رُسُلِي
عَدِمْتُ فَوَادًا لَمْ يَبْتَ فِيهِ فَضْلَةٌ لَعِيرِ ثَنَائَا الْغُرِّ وَالْحَدَقِ النَّجْلِ
تُرِيدِينَ إِدْرَاكَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بَدُّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ
ابن الهبارية : الهمم العلية ، والمهج الأبية ، تقرب المتية ، منك أو الأمنية .

أبو تمام :

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِي إِذَا مَا يَطْفَنَ بِهِ إِلَى خَلْقٍ وَسَاعٍ (٤)
يُنِيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ فَجٍّ يَهِيمُ بِهَا عَدِيٌّ بْنُ الرَّقَاعِ (٥)
يَجُوضُ مَعَ السَّبَاعِ الْمَاءَ حَتَّى لَتَحْسِبُهُ السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ

(١) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ مع اختلاف في الرواية .

(٣) البيض : النساء . والمرهفات : السيوف .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٣٦

(٥) يشير إلى ما ذكره عدى بن الرقاع في حمار وأمان :

يَتَنَازَعَانِ مِنَ الْغُبَارِ مِلَاءَةً فِي الْأَرْضِ مَنشُوهَا ، هَا نَسَجَاهَا
تَطْوِي إِذَا فَرَعَا بِلَادَا حَزَنَةَ وَإِذَا أَصَابَا سَهْلَةً نَشَرَاهَا

فَلَبَّ الْعَزْمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْمًا بَأْنَ تَسْطِيعَ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ
فَلَمْ تَرْكَبْ كَنَاجِيَةَ الْمَهَارَى وَلَمْ تُرَكِّبْ هُمُومَكَ كَالزَّمَامِ
وله أيضا :

إِنْ خَيْرًا مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ الصَّفْحِ عَنِ النَّأْيَاتِ وَالْإِغْمَاضِ ^(١)
غُرْبَةً تُتَقَدَّى بِغُرْبَةِ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ وَالْحَارِثِ بْنِ مِضَاضٍ ^(٢)
غَرَضِي نَكَبْتَيْنِ مَا فَتَلَا رَأَى يَا خَفَافًا عَلَيْهِ نَكْتُ انْتِقَاضِ
مَنْ أَبَنَّ الْبُيُوتَ أَصْبَحَ فِي نَوَى بَمِنْ الْعَيْشِ لَيْسَ بِالْفَضْفَاضِ ^(٣)
صَلَتَانِ أَعْدَاؤُهُ حَيْثُ حَلُّوا فِي حَدِيثٍ مِنْ ذِكْرِهِ مُسْتَفَاضِ ^(٤)
وَالْفَتَى مَنْ تَعَرَّفَتْهُ اللَّيَالِي وَالْفِيَا فِي ، كَالْحَيَّةِ النَّضْنَاضِ ^(٥)
كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِي فَتَكَّةٌ مِثْلُ فَتَكَةِ الْبِرَاضِ ^(٦)
وله أيضا :

إِنْ تَرَيْنِي تَرَى حُسَامًا صَقِيلًا مَشْرِفِيًا مِنْ الشُّيُوفِ الْحِدَادِ ^(٧)
ثَانِي اللَّيْلِ ثَالِثَ الْبَيْدِ وَالسَّيِّ رِ نَدِيمِ النَّجُومِ تَرِبَ الشَّهَادِ
أخذ هذا اللفظ أبو عبادة البحتري فقال :
يَانْدِيمِي بِالسَّوَاجِرِ مِنْ شَمْسِ بْنِ عَمْرٍو وَبِحَبْرِ بْنِ عَمْرٍو ^(٨)

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٩

(٢) قيس بن زهير العبسي ؛ بعد حربه ذبيان تنقل في البلاد ؛ وفي آخر عمره لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابني بدر قتله . والحارث بن مضاض الجرهمي ، كان رئيسا بمكة أيام كان بها قومه ، ويقال : إن خزاعة أجلتهم عنها ؛ وهو القاتل .

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونَ إِلَى الصَّفَا أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

(٣) يقال : أبى بالموضع إذا أقام به .

(٤) الصلتان : الماضي في أمره .

(٥) الحية النضناض : التي لا تستقر في مكان .

(٦) البراض بن قيس الكنانى ، قتل عروة الرحال في غير حرب ، فجر ذلك حرب الفجار بين قيس وكنانة .

(٧) ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفي الديوان : « ود بن معن » .

اطلبنا ثالثاً سوى فإني رابعُ العيس والدُّجى والبيدِ
لستُ بالعاجز الضعيف ولا القا ثل يوماً إن الغنى بالحدود
وإذا استصعبت مقادةُ امرٍ سهَّلتهُ أيدي المهاري القودِ

قال الرضى رحمه الله تعالى :

ولم أرَ كالرجاءِ اليومَ شيئاً تَذِلُّ لَهُ الجاجمُ والرقابُ (١)
وَبَعْضُ العُدمِ مَأْتِرَةٌ وَفَخْرٌ وَبَعْضُ المَالِ مَنْقَصَةٌ وَعَابُ
بَنَانِي والعِنَابُ إِذَا نَبَتَ بِي رُبَا أرضِ ، وَرَجُلِي والرُّكَّابُ
وَقَدْ عَرَفْتُ تَوَقُّفِي اللَّيَالِي كَمَا عَرَفْتُ تَوَقُّفِي العِقَابُ (٢)
لأَمْنَعِ جَانِبًا وَأُفِيدَ عِزًّا وَعِزُّ المَوْتِ مَاعِزُ الجَنَابُ
إِذَا هَوُلُ دَعَاكَ فَلَا تَهَيَّبُهُ فَلَـمَ يَبْقَ الَّذِينَ أَبَوْا وَهَابُوا
كَلِيبُ عَافِصَتُهُ يَدٌ وَأُودَى عُنَيْبَةُ يَوْمَ أَقْصَعَهُ ذُؤَابُ (٣)
سِوَا مَنْ أَقْلُ التُّرْبِ مِنَّا وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَهُ التُّرَابُ
وَإِنَّ مُزَايِلَ العَيْشِ اعْتِبَاطًا مُسَاوٍ لِلَّذِينَ بَقُوا وَشَابُوا
وَأَوْلُنَا العَنَاءُ إِذَا طَلَعْنَا إِلَى الدُّنْيَا ، وَآخِرُنَا الذَّهَابُ
إِلَى كَمْ ذَا التَّرْدُدِ فِي الأَمَانِي وَكَمْ يُلَوِي بِنَاطِرِي السَّرَابُ !
وَلَا نَقَعُ يُبَارُ وَلَا قَتَامُ وَلَا طَعْنُ يُسْبُ وَلَا ضِرَابُ

(١) ديوانه لوحة ٧٩

(٢) التوقل : الصمود . والعقاب : جمع عقبة ؟ وهي المرتقى الصعب في الجبل ونحوه .

(٣) عافصته : صرغته ، وكليب هو كليب وائل ، وأراد باليد جساس بن مرة الذي قتله . وأودى :

هلك . وعنيبة هو ابن الحارث بن شهاب ؛ كان فارس بنى تميم ، قتله ذؤاب بن ربيعة الأسدي . وأقصمه : قتله قتلا سريماً .

وَلَا خَيْلٌ مُعَقَّدَةٌ النَّوَاصِي يَمْوجُ عَلَى شَكَايِمِهَا اللَّعَابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُتَهَبِ الْحَوَاشِي يُصِيبُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يُصَابُ
سَأَخْطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فِعْلًا إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أَوْ خِطَابُ
وَأَخْذُهَا وَإِنْ رَغِمَتْ أَنْفُ مِغَالِبَةً وَإِنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

قعد سليمان بن عبد الملك يَغْرِضُ وَيَغْرِضُ ، فأقبل فتى من بنى عبس وَاسِمَ ، فأعجبه ، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابن مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ، فأعرض عنه ، وجعل يَغْرِضُ لمن دونه ، فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا عدمتَ اسمك ، ولا شقِّي اسمٌ يوافق اسمك ! فأغرض ، فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضربتَ به قطعت ، وإن أمرتني أطعت ، وسهمتُ في كنانتك ، أشتدَّ إن أرسيت ، وأنفذُ حيث وجهت . فقال له سليمان ، وهو يروزه ^(١) ويختبره : ما قولك يا فتى ، لو لقيتَ عدوا ؟ قال : أقول : حسبى الله ونعم الوكيل . قال سليمان : أكنت مكتفياً بهذا لو لقيتَ عدوك دُونَ ضرب شديد ! قال الفتى : إنما سألتني يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل فأخبرتكَ ، ولو سألتني : ما أنت فاعل لأنباتك ؛ إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيف حتى يتعقف ؛ ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصف ، ولعلمتُ إن أَلِمْتَ فإنهم يألمون ، ولرجوت من الله ما لا يرجون . فأعجب سليمان به وألحقه في العطاء بالأشراف ، وتمثل :

إِذَا مَا أَتَى اللَّهُ الْفَتَى ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَهْلِهِ كَلًّا فَقَدْ كَمَلَ الْفَتَى

(١) يروزه : يختبره ويحجر به .

السراحت قوله : « ثم لم يكن على أهله كلاً » ، يقال في المثل : « لا تكن كلاً على
أهلك ، فهلك » .

عدى بن زيد :

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا وَهَلْ بِالْمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارٌ^(١)

الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْحَمَامُ فَإِنِّي وَأَلْبَسُهَا حَمْرًا تَضْفُو ذُبُولَهَا
فَمِنْ قَبْلُ مَا اخْتَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ عَيْشَهُ فَطَارَ ذَمِيمًا قَدْ تَقَلَّدَ عَارَهَا
وَجَاءَهُمْ يُجْرِي الْبَرِيدُ بِرَأْسِهِ وَقَدْ حَاصَ مِنْ خَوْفِ الرَّدَى كُلِّ حَيْصَةٍ
وَهَذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ نَافَرَتْ فَقَالَ وَقَدْ عَنَ الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى :
وَمَا عَمْرَاتُ الْمَوْتِ إِلَّا انْفِمَاسَةٌ
سَأُكْرِمُ نَفْسِي عَنْ مَقَالِ اللَّوْائِمِ^(٢) مِنْ الدَّمِ بَعْدًا عَنْ لِيَاسِ الْمَلَاوِمِ
عَلَى شَرَفِ عَالٍ رَفِيعِ الدَّعَائِمِ بِشَرِّ جَنَاحِ يَوْمِ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ^(٣)
وَلَمْ يُغْنِ إِيغَالٌ بِهِ فِي الْمَزَائِمِ وَجَاءَهُمْ يُجْرِي الْبَرِيدُ بِرَأْسِهِ
فَلَمْ يَنْجُ وَالْأَقْدَارُ ضَرْبَةٌ لَازِمِ^(٤) بِهِ النَّلُّ أَعْرَاقُ الْجُدُودِ الْأَكَارِمِ^(٥)
لِحَا اللَّهِ أَحْزَى ذِكْرِهِ فِي الْمَوَاسِمِ وَلَا ذِي الْمَنَايَا غَيْرُ تَهْوِيمِ نَأْمِ

(١) شعراء النصرانية ٤٠٦

(٢) ديوانه لوحة ١١٠

(٣) وقعة دير الجماجم ، كانت بين الحجاج الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، انتهت بمقتل ابن الأشعث سنة ٨٣

(٤) حاس ، أى حاد وذهب بعيدا .

(٥) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، من أمراء الدولة الأموية وقوادها ، قتله يزيد بن عبد الملك في

خبر مشهور سنة ١٠٢

رَأَى أَنْ هَذَا السَّيْفَ أَهْوَنُ مَحْمَلًا
 وَمَا قَلَدَ الْبَيْضَ الْمَبَاتِيرَ عُنُقَهُ
 فَعَافَ الدُّنْيَا وَامْتَطَى الْمَوْتَ شَانِحًا
 وَقَدْ حَلَقَتْ خَوْفَ الْهَوَانِ بِمُضْعَبٍ
 عَلَى حِينِ أَعْطَوْهُ الْأَمَانَ فَعَافَهُ
 وَفِي خِدْرِهِ غَرَاهُ مِنْ آلِ طَلْحَةَ
 تُحِبُّ أَبَامُ الْحِيَاءِ وَإِنَّمَا
 فَفَارَقَهَا وَالْمَلِكَ لَمَّا رَأَاهَا
 وَلَمَّا الْأَحَ الْخَوْفَ زَانَ مِنْ الرَّدَى
 وَغَادَرَهَا شَنْعَاءَ إِنْ ذُكِرَتْ لَهُ
 كَذَاكَ مُنِي بَعْدَ الْفِرَارِ أُمِّيَّةً
 وَسَلَّ لَهُ سَلَّ الْحَسَامِ ابْنُ مَعْمَرٍ
 يُرَدِّدُ ذِكْرِي كُلَّ تَجْدٍ وَغَائِرٍ
 وَهَدَدَتِي الْأَعْدَاءَ فِي الْمَهْدِ لَمْ يَحْنِ
 وَعِنْدِي يَوْمٌ لَوْ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ
 عَلَى الْعِزِّ مَتٌ لَا مِيتَةَ مُسْتَكِينَةً
 وَخَاطِرِي عَلَى الْجُلِيِّ خِطَارَ ابْنِ حُرَّاقٍ

من العارِ يَبْقَى وَشَمُهُ فِي الْخَاطِمِ
 سِوَى الْخَوْفِ مِنْ تَقْلِيدِهَا بِالْأَدَامِ
 بَمَارِنِ عِزٍّ لَا يَذُلُّ لِحَاظِمِ
 قِوَادِمُ مَآبِءِ كِرَامِ الْقَادِمِ
 وَخَيْرٌ فَاخْتَارَ الرَّدَى غَيْرَ نَادِمِ
 عِلَاقَةُ قَلْبٍ لِلنَّدِيمِ الْمُخَالِمِ (١)
 لِأَعْذَابٍ مِنْ طَعْمِ الْخُلُودِ لَطَائِمِ
 يَجْرَانِ إِذْ لَالِ النَّفُوسِ الْكِرَامِ
 حَذَاهُ الْمَخَازِي رُمُحُ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
 مِنَ الْعَارِ طَاطَا رَأْسَ خَزْيَانَ وَاجِمِ
 بِشِقْشِقَةٍ لَوْ نَاءَ مِنْ آلِ دَارِمِ
 فَكَّرَ عَلَى أَعْقَابِ نَابِ بَصَارِمِ
 وَأَلْجَمَ خَوْفِي كُلَّ بَايِعٍ وَظَالِمِ
 نَهْوِضِي وَلَمْ تُقَطِّعْ عَقُودُ تَمَامِي
 بَدَا لِهَمَّا لِاسْتَضْفَرَا يَوْمَ وَاقِمِ
 تُزِيلُ عَنِ الدُّنْيَا بِشَمِّ الْمَرَاغِمِ
 وَإِنْ زَا حَمَّ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فَرَاغِمِ

(١) هي عائشة بنت طلحة؛ كانت زوجا لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ ولما هلك تزوجها مصعب بن الزبير؛ فقتل عنها، والحلابة: المصادقة والمنازلة.

ومن أباة الضيم ومؤثرى الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم ، ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام . لما أحاطت عساكر عيسى ابن موسى بمحمد وهو بالمدينة ، قيل له : انج بنفسك ، فإن لك خيلاً مضرة^(١) ونجائب سابقة^(٢) ، فاقعد عليها ، والتحق بمكة أو باليمن . قال : إني إذا لعبد ! وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه ، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل ، أشير عليه بالاستتار ، فقال : إذنْ يستعرض عيسى أهل المدينة بالسيف ، فيكون لهم كيوم الحرّة ، لا والله لا أحفظُ نفسي بهلاك أهل المدينة ، بل أجعل دمي دون دمائهم . فبذل له عيسى الأمان على نفسه وأهله وأمواله ، فأبى ونهّد^(٣) إلى الناس بسيفه ، لا يقاربه أحد إلا قتله ، لا والله ما يبقى شيئاً ؛ وإن أشبه خلق الله به فيما ذكر هو حمزة بن عبد المطلب . ورعى بالسهم ، ودّهته الخيل ، فوقف إلى ناحية جدارٍ ، وتحاماه الناس فوجد الموت ، فتحامل على سيفه فنكسره ؛ فالزبيدية تزعم أنه كان سيفَ رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار .

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب " مقاتل الطالبين " ، أن محمداً عليه السلام ، قال لأخته ذلك اليوم : إني في هذا اليوم على قتال هؤلاء ، فإن زالت الشمس ، وأمطرت السماء فإني مقتول ، وإن زالت الشمس ولم تُمطر السماء ، وهبت الرياح ، فإني أخضر بالقوم ، فأججى التناير ، وهيتي هذه الكتب - يعني كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق - فإن زالت الشمس ، ومطرت السماء فاطرحي هذه " كتب في التناير ، فإن قدرتم على بدني

(١) ضم الحبل ؛ إذا ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن ؛ ثم قلل ماءها وعلفها مدة ؛ ثم ركضها في الميدان حتى تهزل ؛ ومدة التضبير عند العرب أربعون يوماً .

(٢) الخيل السوابق : المحلية في الجرى .

(٣) يقال نهّد لعدوه ؛ إذ رزق قتاله وصمدله .

فخذوه ، وإن لم تقدروا على رأسي فخذوا سائر بدني فأتوا به ظلة بنى بليّة (١) على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها ؛ فاحفروا لى حفيرة ، وادفنوني فيها . فطرت السماء وقت الزوال ؛ وقتل محمد عليه السلام ؛ وكان عندهم مشهوراً أن آية قتل النفس الزكية أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عائكة ، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت ؛ فلما مطرت السماء ذلك اليوم ، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عائكة ، وأخذ جسده ، فحفر له حفيرة فى الموضع الذى حدّه لهم ، فوقعوا على صخرة فأخرجوها ، فإذا فيها مكتوب : « هذا قبر الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام » ، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام : رحم الله أخى ، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن فى هذا الموضع (٢) .

وروى أبو الفرج ، قال : قدّم على المنصور قادم ، فقال : هرب محمد ! فقال له : كذبت ! إنا أهل البيت لا نفرّ .

وأما إبراهيم عليه السلام ، فروى أبو الفرج عن المفضل بن أحمد الضبي ، قال (٣) : كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندى بالبصرة ، وكنت أخرج وأتركه ، فقال لى : إذا خرجت ضاق صدرى ، فأخرج إلى شئنا من كتبك أتفرج به ، فأخرجت إليه كتباً من الشعر ، فاختار منها القصائد السبعين التى صدرت بها كتاب " الفضليات " ، ثم أتممت عليها باقى الكتاب .

فلما خرج خرجت معه ؛ فلما صار بالمرّبد ، مرّ بد سليمان بن على ، وقف عليهم ، وأنتمهم واستسقى ماء ، فأتى به فشرّب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه ،

(١) مقاتل الطالبين : « بنى نبية » .

(٢) مقاتل الطالبين ٢٧١ - ٢٧٢

(٣) ورد الخبر مختصراً فى مقاتل الطالبين ٣٣٨ - ٣٣٩ .

وقال : هؤلاء والله مِنّا ، ونحن منهم ؛ لحنا ودنا ؛ ولكن آباءهم نَزَوْا على أمرنا ، وابتزوا حقوقنا ؛ وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مَهَلًا بَنِي عَمَّنَا ظَلَمْتَنَا إِنَّ بِنَا سَوْرَةَ مِنَ الْغَلَقِ (١)
لِثَلْكُم تَحْمِلُ السُّيُوفَ وَلَا تُفَمِّرُ أَحْسَابُنَا مِنَ الرَّقَقِ
إِنِّي لِأَنْبِي إِذَا اتَّمَيْتُ إِلَى عَزِيٍّ عَزِيْرٍ وَمَعَشِرٍ صُدْفِ
بِيضٍ سِيَّاطٍ كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ تُكْحَلُ يَوْمَ الْهِيَاجِ بِالْغَلَقِ

فقلت له : ما أجودَ هذه الأبيات وأغلبها ! فلينَ هي ؟ فقال : هذه يقولها ضرار ابن الخطاب الفهري يومَ عبر الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وتمثل بها علي بن أبي طالب يوم صفين والحسين يوم الطفّ ، وزيد بن علي يوم السَّبْحَةِ ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان ؛ فتطيرتُ له من تمثله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل . ثم سرنا إلى باخرمى ، فلما قرب منها أتاه نعيُ أخيه محمد ، فتغيّر لونه وجرّض بريقه ، ثم أجش باكيا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن محمداً خرج يطلب مرضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك المتبع المطاع ؛ فاغفر له وارحمه ، وارض عنه ، واجمل ما نقلته إليه من الآخرة خيرا مما نقلته عنه من الدنيا ؛ ثم انفجر باكيا ثم تمثل :

أَبَا الْمُنَازِلِ يَا خَيْرَ الْفَوَارِسِ مَنْ يُفَجِّعُ بِمَثَلِكُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ فُجِّعًا (٢)
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ خَشِيتُهُمْ أَوْ آوَيْتُ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِهِمْ فَرَعَا
لَمْ يَقْتُلُوكَ وَلَمْ أُسَلِّمْ أَخِي لَهُمْ حَتَّى نَعِيشَ جَمِيعًا ، أَوْ نَمُوتَ مَعَا

قال المفضل : فجعلتُ أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جرّعه ، فقال : إني والله في هذا ، كما قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ :

(١) من أبيات في حماسة ابن الكجري ١٦ ، والأغانى ١٠ : ٥ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات وعددها وروايتها .
(٢) الأبيات لرأسع بن خشمم يرثى هذبة ، الأغانى ٢١ : ١٧٧ .

يقولُ ألا تَبْكِي أَخَاكَ وَقَدْ أَرَى مكانَ البُكَاءِ، لكن بُنيتُ على الصَّبْرِ^(١)
لمقتلِ عبدِ اللهِ والهالكِ الَّذِي على الشرفِ الأعلى قتيلِ أبي بكرِ
وعبدِ يعقوبِ أو نديميَ مالكِ وجلَّ مصاباً جثوُّ قَبْرِ على قَبْرِ
فإِنا ترينَا لا تزالِ دماؤنا لدى واترِ يَسْعَى بها آخرَ الدهرِ
فإِنا للحمِّ السَّيفِ غَيْرَ نَكِيرِ ونُحِمُهُ طوراً، وليس بذي نُكْرِ
يُفَارِ علينا واترينِ فيسْتَفِي بِنَا إن أصبنا أو نُفِيرُ على وَتْرِ
بذاك قَمَمْنَا الدهرِ شطرينِ بيننا فا ينقضي إلا ونحنُ على شَطْرِ

قال المفضل : ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد ، فتمثل إبراهيم عليه

السلام قوله :

إن يقتلونِي لا تُصِبْ أرماحهم ثأرى ويسعى القوم سَعِيًا جَاهِدَا
نبئت أن بني جَذيمة أجمعت أمرا تدبره لتقتلَ خالدَا
أرمى الطريق وإن رُصِدْتُ بضيقه وأنازلُ البطلَ الكميَّ الحاردا

فقلت له : مَنْ يقول هذا الشعر يا ابن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر

ابن كلاب يوم شِعْب^(٢) جيلة ؛ وهذا اليوم الذي لقيت فيه قيس تميما . قال : وأقبلت عساكر
أبي جعفر ، فظمن رجلا وطعنه آخر ، فقلت له : أتُبَاشِرُ القتالَ بنفسك ! وإنما العسكر
منوط بك ! فقال : إليك يا أخا بني ضَبَّة ، فإني لسكما قال عُويف القوافي :

أَلَمْتُ سَعَادُ وإلمامها أحاديثِ نفسٍ وأحلامها
مُحَجَّبَةٌ من بِنِي مالك تطاولُ في المجدِ أعلامها

(١) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ٢ : ٣٠٩ مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات .

(٢) لعامر وحلفائهم من عيس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما . الأغاني ١٠ : ٣٣ (سأسى) .

وإِن لَنَا أَصْلَ جُرْثُومَةٍ تَرُدُّ الْحَوَاثَ أَيُّهَا
تَرُدُّ الْكُتَيْبَةَ مَفْلُوءَةً بِهَا أَقْنَهَا وَبِهَا ذَامُهَا

والتحمت الحرب واشتدت ، فقال : يا مفضل ، احكني بشيء ، فذكرت أبياتا لعوف

القوافي لما كان ذكره هو من شعره ، فأشدته :

أَلَا أَيُّهَا النَّاهِي فَزَارَةَ بَعْدَمَا أَجَدَّتْ لَسِيرٍ ، إِنَّمَا أَنْتَ ظَالِمٌ
أَبِي كُلِّ حُرٍّ أَنْ يَبِيْتُ بَوْتَرِهِ وَتَمْنَعُ مِنْهُ النَّوْمَ إِذْ أَنْتَ نَائِمٌ
أَقُولُ لِفَتَيَانِ كِرَامٍ تَرَوَّحُوا عَلَى الْجُرْدِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَاكِمِ
قَفُوا وَقْفَةً مِنْ يَحْيٍ لَا يَنْحَزُّ بَعْدَهَا وَمَنْ يُنْحَرَمُ لَا تَتَّبِعُهُ اللَّوَامُ
وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمْ لَتَسْلَمَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ سَالِمٌ

فقال : أعد ، وتبينت من وجهه أنه يستقتل ، فاتميت وقلت : أو غير ذلك ؟ فقال :

لا ، بل أعد الأبيات ، فأعدتها ، فتمطى في ركبته فقطعهما ، وحمل فغاب عني ؛ وأتاه سهم عائر فقتله ؛ وكان آخر عهدي به عليه السلام .

قلت : في هذا الخبر ما يحتاج إلى تفسير ؛ أما قوله :

* إِنْ بِنَا سَوْرَةَ مِنَ الْغَلَقِ *

فالغلق الضجر وضيق الصدر والحدّة ، يقال : احتد فلان فنشب في حدّته وغلق .

والسّورة : الوثوب ، يقال : إن لغضبه لسورة ، وإنه لسوّار ، أي وثّاب معربد . وسورة
الشراب : وثوبه في الرأس ؛ وكذلك سورة السم ، وسورة السلطان : سطوته واعتداؤه .

وأما قوله : « لِمَثَلِكُمْ نَحْمَلُ السُّيُوفَ » ؛ فعناه أن غيركم ليس بكف : لنا لنحمل له

السُّيُوفَ وإنما نحملها لكم ، لأنكم أكفأؤنا ، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة ؛ وإن

كانت أحسابنا واحدة ، وهي شريفة لامغمز فيها .

والزَّقُّ ، بفتح الراء : الضعف ؛ ومنه قول الشاعر :

* لم تلق في عظمها وهناً ولا رَقَقاً *

وقوله :

* تُكحَل يوم الهِمَاج بالملقِ *

فالمَلَقُ الدم ؛ يريد أن عيونهم حُمِر لشدة الغيظ والغضب ؛ فكانها كُحِلت بالدم .

وقوله : « لكن بنيت على الصبر » ، أي خلقت وبنيت بنية تقتضى الصبر . والشرف الأعلى : العالى ، وبنو أبى بكر بن كلاب ، من قيس عيلان ، ثم أحد بنى عامر بن صعصعة .
وأما قوله :

* إن يَقتُلونى لا تُصب أرامحهم *

فمعناه أنهم إن قتلونى ثم حاولوا أن يصيبوا رجلا آخر مثلى يصلح أن يكون لى نظيراً ؛ وأن يجعل دمه بواء لدمى ، وسعوا فى ذلك سعياً جاهداً ، فإنهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه .
وقوله : « أرمى الطريق ... » البيت ، يقول : أسلك الطريق الضيق ، ولو جمل علىّ فيه الرصد لقتلى .

والحارث : المنفرد فى شجاعته ، الذى لا مثل له .

[غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة علىّ عليه بعد ذلك]

فأما حديث الماء وغلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات بصفين ، فنحن نذكره من كتاب " صفين " لنصر بن مزاحم .

قال نصر : كان ^(١) أبو الأعور السلمى على مقدمة معاوية ، وكان قد نأوش مقدمة

(١) س ١٧٥ وما بعدها .

على عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشة ليست بالعظيمة ؛ وقد ذكرنا ذلك فيما سبق من هذا الكتاب وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً ، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين ^(١) إلى جانب صفين ، وساق الأشر يتبعه ، فوجده غالباً على الماء ؛ وكان في أربعة آلاف من مستبصري ^(٢) أهل العراق ، فصدّموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء ، فأقبل معاوية في جميع القليل ، بقضه وقضيضه ، فلما رآهم الأشر انحاز إلى على عليه السلام ، وغلب معاوية وأهل الشام على الماء ، وحالوا بين أهل العراق وبينه ؛ وأقبل على عليه السلام في جموعه ، فطلب موضعاً لمسكره ، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم ؛ وهم أكثر من مائة ألف فارس ، فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس على عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهم ، ومعاوية بعد لم ينزل ، فناوشهم أهل الشام القتال ، فاقتتلوا هويّاً .

قال نصر : فحدثني عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن الأصمغ بن نباتة : فكتب معاوية إلى على عليه السلام : عافانا الله وإياك .

ما أحسن العدلَ والإنصافَ مِنْ عَمَلٍ وَأَقْبَحَ الطَّيْشِ ثُمَّ النَّفْسِ فِي الرَّجُلِ
وكتب بعده :

ارْبِطْ حِمَارَكَ لَا تَنْزِعْ سَوْبَتَهُ إِذَا يَرُدُّ وَقَيْدُ الْعَيْرِ مَسْكُوبٌ ^(٤)
ليست ترى السيدُ زيداً في نفوسهم كما يراه بنو كوز ومرهوب
إن تسألوا الحقَّ نعطِ الحقَّ سائله والدرعُ محقبةٌ والسيفُ مقروبُ
أو تأنفون فإننا معشرُ أنفٍ لانطمع الضيف إن السّم مشروب

(١) صفين : « متبصري أهل العراق » .

(٢) قناصرين : موضع بالشام

(٣) الآيات لعبد الله بن عتبة الصبي ؛ في المفضليات ٣٨٢ ؛ مع اختلاف في الرواية .

فأمر على عليه السلام أن يوزع^(١) الناس عن القتال ؛ حتى أخذ أهل الشام مصافهم
ثم قال : أيها الناس ، إن هذا موقفٌ ، مَنْ نَطِفَ^(٢) فيه نَطِيفَ يوم القيامة ، ومن فَلَجَ فيه
فَلَجَ يوم القيامة . ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين :

لقد أتانا كاشراً عن نأبه^(٣) يهبطُ النَّاسَ على اعتزابه^(٤)
* فليأتينا الدهرُ بما أتى به *
قال نصر : وكتب على عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه ، أما بعد :

فإنَّ لِاحْرَبِ عُرَماً شَرَّراً إنَّ عليها قائداً عَشْزَراً^(٥)
يُنْصِفُ مَنْ أَحْجَرَ أَوْ تَمَرّاً عَلَى نَوَاحِيهَا مِرْجاً زَمْجَراً
* إِذَا وَنِينَا سَاعَةً نَفْشُوراً^(٥) *

وكتب بعده :

ألم ترَ قَوْمِي إن دَعَاهُمْ أَخُوهُمْ . أجاؤوا ، وإن يَفْضَبُ على القَوْمِ يَفْضَبُوا
هُمُ حَفِظُوا غَيْبِي كما كُنْتُ حَافِظاً لقَوْمِي أُخْرَى مثلها إن يَغِيْبُوا
بنو الحربِ لم تَعُدْ بِهِمُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأَبَاؤُهُمْ آباءَ صِدْقٍ فَانْجَبُوا
قال : قد جمع النَّاسُ كلَّ من الفريقين إلى معسكرهم ، وذهب شبابٌ من الناس إلى
أن يستقوا فمَنَعَهُمُ أَهْلُ الشَّامِ .

قلت في هذه الألفاظ ما ينبغي أن يشرح .

(١) يوزع الناس : يكفون . وفي صفين : « فوزعوا عن القتال حتّى تأخذ أهل المصاف مصافهم »
(٢) نطف : اتهم بريئة .
(٣) يهبط الناس : يقهرهم .
(٤) العشزرة : الشديد .
(٥) نفشور : تمر ووثب .

قوله : « فاقْتتلوا هَوِيًّا » ، بفتح الهاء ، أى قطعة من الزمان ، وذهب هَوِيٌّ من الليل ، أى فريق منه .

والنَّفْس : كثرة الكلام والدعاوى ، وأصله من نفس الصوف .
والسَّوِيَّة : كساء محشو بثمام ونحوه ، كالبرذعة . وكرَّبَ القَيْدَ ، إذا ضيقه على المقيد ، وقيد مكروب ، أى ضيق ؛ يقول : لاتنزع برذعة حمارك عنه ، واربطه وقيدَه ، وإلا أعيد إليك وقيدَه ضيق . وهذا مثل ضربَه لعلَّ عليه السلام ، يأمره فيه بأن يردَّع جيشه عن التسرُّع والعجلة في الحرب .

وزيد المذكور في الشعر ، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد ابن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ وهو المعروف بزيد الخليل ، وكان فارسهم . وبنو السَّيِّد من ضبة أيضا ؛ وهم بنو السَّيِّد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد ابن طابخة ... إلى آخر النسب ، وبنو السَّيِّد بنو عم زيد الفوارس ؛ لأنه من بنى ذهل ابن مالك ، وهؤلاء بنو السَّيِّد بن مالك ، وبينهم عداوة النسب ؛ يقول : إن بنى السَّيِّد لا يرون زيدا في نفوسهم كما تراه أهله الأذنون منه نسبًا ، وهم بنو كوز وبنو مرهوب ؛ فأما بنو كوز فإنهم بنو كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ، وأما بنو مرهوب ، فإنهم بنو مرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ؛ يقول : نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة ما يعتقده أهله وبنو عمه الأذنون ؛ والمثل لعلَّ عليه السلام ؛ أى نحن لا نرى في علي ما يراه أهل العراق من تعظيمه وتبجيله .
وقوله :

﴿ وَالذَّرْعُ مُخَفَّبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ ﴾

أى والدرع بحالها في حجابها ، وهو ما يشدُّ به في غلافها . والسيف بحاله ، أى في قرابه ،

وهو جَفَنه ؛ يقال : حَقبت الدرعَ وقربت السيفَ ؛ كلاهما ثلاثيان ، يقول : إن سألتَ الحقَ أعطينا كوه من غير حاجة إلى الحرب ؛ بل نجيبكم إليه والدروع بحالها لم تلبس ، والسيوف في أجفانها لم تشهر .

وأما إثبات النون في « تأنفون » فإن الأصوب حذفها لعطف الكلمة على الجزوم قبلها ؛ ولكنه استأنف ولم يعطف ، كأنه قال : أو كنتم تأنفون ؛ يقول : وإن أنفتم وأبيتم إلا الحرب ؛ فإننا أنف مثلكم أيضا ، لا نطعم الضيم ولا نقبله . ثم قال : إن السمَّ مشروب ؛ أي أن السمَّ قد نشربه ولا نشرب الضيم ؛ أي نختار الموت على الضيم والذلة . ويروى :

وإن أنفتم فإننا معشر أنفٌ لا نطعمُ الضيمُ إن الضيمُ مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنمة الضبيّ ؛ من بنى السيد ، ومن جملته :

وقد أروحُ أماماً الحىَ يقدمنى صافى الأديم كَمَيْتِ اللَّوْنِ مَنْسُوبٌ^(١)
مُحَنَّبٌ مِثْلُ شَاةِ الرَّبْلِ مُحْتَفِزٌ بِالْقَضْرَيْنِ عَلَى أَوْلَاهِ مَصْبُوبٌ^(٢)
يَبْدُو مَلْجَمَهُ هَادٍ لَهُ تَلَعٌ كَأَنَّهُ مِنْ جُدُوعِ الْعَيْنِ مَشْدُوبٌ
فَذَاكَ ذُخْرِي إِذَا مَاخِيلِهِمْ رَكَّضَتْ إِلَى الْمَثُوبِ أَوْمَقَاءِ سُرْحُوبٌ^(٣)

فأما قوله عليه السلام : « هذا موقف من نطف فيه نطف يوم القيامة » أى من تلتخ

(١) من هذه القطعة أبيات ، نسبها أبو عبيدة في كتاب الخيل إلى يزيد بن عمرو الحنفي .

(٢) المحنَّب من الخيل : العطف العظام ، وهو مدح في الخيل . والربل : نبت . ويحتفز : يجتهد في مد يديه . والقصريان : ضلعان يلبان الترقوتين وقوله : « على أولاه مصبوب » ، يقول : يجرى على جريه الأول لا يحول عنه ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٧ : ٣٠٣)

(٣) المقاء من الخيل : الواسعة الأرقاع . والسرحوب : الطويلة على وجه الأرض ؛ ورواية البيت في كتاب الخيل .

فذاك عندي إذا ماخيلهم رُكِبَتْ إِلَى الْمَثُوبِ أَوْ شَقَاءِ سُرْحُوبٌ

فيه بعيب من فرار أو نكول عن العدو . يقال : نَطَفَ فلان بالكسر ؛ إذا تَدَنَسَ بعيب .
وَنَطَفُ أيضا إذا فسد ؛ يقول : مَنْ فَسَدَتْ حاله اليوم في هذا الجهاد فَسَدَتْ حاله
غدا عند الله .

قوله : « مَنْ فَلَجَ فِيهِ » بفتح اللام ، أى مَنْ ظَهَرَ وَفَازَ ، وكذلك يكون غدا عند الله ،
يقال ؛ فَلَجَ زَيْدٌ عَلَى خَصْمِهِ ، بِالْفَتْحِ ، يَفْلُجُ ، بضم اللام ؛ أى ظَهَرَتْ حِجَّتُهُ عَلَيْهِ ، وَفِي
الْمَثَلِ : مَنْ يَأْتِ الْحَكْمَ وَحْدَهُ يَفْلُجُ .

قوله : « يَهْمَطُ النَّاسَ » ؛ أى يَقْهَرُهُمْ وَيَجْطِطُهُمْ ، وَأَصْلُهُ الْأَخْذُ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ .
وقوله : « عَلَى اعْتِزَابِهِ » أى عَلَى بَعْدِهِ عَنِ الْإِمَارَةِ وَالْوَلَايَةِ عَلَى النَّاسِ . وَالْعُرَامُ ، بِالضَّمِّ :
الشَّرَاسَةُ وَالهِوَجُ . وَالْعَشْنَزِرُ : الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ .

وأحجر : ظلم الناس حتى أُلْجِئُوا إِلَى أَنْ دَخَلُوا حِجْرَهُمْ أَوْ بَيْوتَهُمْ . وَتَنَمَّرَ ، أى تَنَكَّرَ ،
حتى صار كالتنمر ؛ يقول : هذا القائد الشديد القوي ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنكَّر لهم ،
أى ينصف منه ، فحذف حرف الجر كقوله : ﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ ، أى من قومه . وَالزَّرَجُ ،
بكسر الميم : السريع النفوذ ؛ وأصله الرمح القصير ، كالمزراق .

ورجل زجر ، أى مانع حوزته ؛ والميم زائدة . ومن رواها « زَنَحْرًا » بالخاء ، عَنَى بِهِ
المرتفع العالى الشأن ؛ وجعل الميم زائدة أيضا ، من زَخَرَ الوادى ، أى علا وارتفع .
وَعَشْمَرُ السَّيْلِ : أَقْبَلُ ، وَالغَشْمَرَةُ : إِثْبَاتُ الْأَمْرِ بِغَيْرِ تَثْبِيثٍ ؛ يقول : إِذَا أَبْطَأَنَّ سَاقَهُنَّ
سَوَاقًا عَنِيفًا .

والأبيات البائية لربيعة بن مشروم الطائى .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن

الأحمر ، قال : لما ^(١) قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين ، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويًا بساطًا واسعًا ، وأخذوا الشريعة ؛ فهي في أيديهم ؛ وقد صفت عليها أبو الأعور الخليل والرجالة ، وقدم الرامية معهم أصحاب الرماح والدرق ، وعلى رؤوسهم البيض ، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء ، ففرغنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك ، فدعا صفصعة بن صوحان فقال : أنت معاوية ، وقل له : إنا سيرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كرهت لقتالك ^(٢) قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدمت خيلك ، فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالحرب ؛ ونحن تمن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك ؛ وهذه أخرى قد فعلتموها ، قد حُتّم بين الناس وبين الماء ؛ فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له ؛ وإن كان أحب إليك ، أن ندع ما جئنا له ، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلمنا .

فلما مضى صفصعة برسالتِهِ إلى معاوية ، قال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد ابن عُقبة : امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان ، حَصْرُوه أربعين يوما يمنعونه يرُد الماء ولين الطعام ، اقتلهم عطشًا ، قتلهم الله !

وقال عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ؛ فإنهم لن يمطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .
فأعاد الوليد مقالته .

وقال عبد الله بن سعيد بن أبي سرح - وكان أخا عثمان من الرضاة ! امنعهم الماء إلى الليل ؛ فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم ، امنعهم الماء ، منعهم

(١) كتاب صفين للدقري ١٧٩ ، ١٨٠ ،

(٢) صفين : « وأنا أكره قتالك » .

الله يوم القيامة ! فقال صعصعة بن صوحان : إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجْرَةُ الكفرة ،
شربة الخمر ؛ ضربك وضرب (١) هذا الفاسق - يعني الوليد بن عقبة .

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كّفوا عن الرجل ؛ فإنما هو رسول .
قال عبد الله بن عوف بن أحمر : إن صعصعة لما رجع إلينا حدثنا بما قال معاوية ،
وما كان منه وماردّه عليه . قلنا : وما الذي رده عليك معاوية ؟ قال : لما أردتُ الانصراف
من عنده ، قلت : ماترد عليّ ؟ قال : سيأتيكم رأيي ، قال : فوالله ماراعنا إلا تسوية الرجال
والصفوف والخليل ؛ فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء ؛ فإزدلفنا والله إليهم ، فارتمينا
وأطعنا بالرماح ، واضطر بنا بالسيوف ، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء في أيدينا ؛
فقلنا . لا والله لانسيهم . فأرسل إلينا على عليه السلام : أن خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا
إلى معسكركم ، وخلّوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم .

* * *

وروى نصر بن محمد بن عبد الله ، قال : قام (٢) ذلك اليوم رجل من أهل الشام من
السكون ، يعرف بالشليل بن عمر إلى معاوية ، فقال :

اسمع اليوم ما يقول الشليلُ إن قولي قولٌ له تأويلُ
امنع الماء من صحابِ عليّ أن يذوقوه ، فالذليل ذليلُ
واقتل القوم مثل ما قتل الشيخ صدّي فالقصاصُ أمرٌ جميل (٣)
إننا والذي تُساق له البُدُّ ن هدايا كأنهنّ الفيول (٤)
[لو عليّ وصحبه وردوا الماء لما ذقتموه حتى تقولوا] (٥)

(١) ضربك ، أى مثلك .

(٢) صفين ١٨١

(٣) صفين : « ظلموا والقصاص أمر جميل » .

(٤) صفين : « هدايا لنعرها تأجيل » .

(٥) تكلمة من صفين .

قَدْ رَضِينَا بِأَمْرِكُمْ وَعَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ الرِّضَا جِلَادٌ ثَقِيلٌ
فَامْنَعِ الْقَوْمَ مَاءَكُمْ ، لَيْسَ لِلْقَوْمِ مِ بَقَاءٍ وَإِنْ يَكُنْ قَلِيلٌ

فقال معاوية : أما أنت فتدري ما تقول - وهو الرأي - ولكن عمراً لا يدري . فقال عمرو : خلّ بينهم وبين الماء ؛ فإن علياً لم يكن ليظماً وأنت ريتان ، وفي يده أعتة الخليل ، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنه الشجاع المُنْطَرِقُ [ومعه أهل العراق وأهل الحجاز] ^(١) ، وقد سمعته أنا مرارا وهو يقول : لو استمكنتُ من أربعين رجلاً ^(٢) يعني في الأمر الأول ^(٣) !

وروى نصر ، قال : ^(٤) لما غلب أهل الشام على الفرات ، فرحوا بالغلبة ، وقال معاوية : يا أهل الشام ؛ هذا والله أول الظفر ، لا سقاني الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يُقتلوا بأجمعهم عليه ؛ وتباشر أهل الشام ، فقام إلى معاوية رجلٌ من أهل الشام همداني ، ناسكٌ يتأله ويكثر العبادة ، يعرف بعمري بن أقبال ، وكان صديقاً لعمرو ابن العاص وأخاه له ، فقال : يا معاوية ، سبحان الله ! لأن سبقتُم القومَ إلى الفرات فغلبتُموم عليه ، تمنعونهم الماء ! أما والله لو سبقوك إليه لسقوكم منه . أليس أعظم ما تنالون من القوم أن تمنعومهم الفرات فينزلوا على فُرْضَةٍ أُخْرَى ويجازوكم بما صنعتم ! أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ، ومن لا ذنب له . هذا والله أول الجوز ! لقد شجعتَ الجبان ، ونصرتَ المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك . فأغلظ له معاوية ، وقال لعمرو : اكفني صديقك . فأتاه عمرو فأغلظ له ، فقال الهمداني في ذلك شعرا :

لعمري أبي معاويةَ بن حربٍ وعمريو ، ما لداهما دَوَاهُ !

(١) تكملة من صفين .

(٢-٣) في صفين : « فذكر أمراً ؛ يعني لو أن معي أربعين رجلاً يوم فقس البيت - يعني بيت فاطمة »

(٣) صفين ١٨٢ .

سَوَى طَعْنٍ يَحَارُّ الْعَقْلَ فِيهِ وَضْرِبٍ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ
ولست بتابع دين ابن هندی طَوَالَ الدَّهْرِ مَا أَرَسَى حِرَاهُ
لَقَدْ ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَاعْتَابُ وَقَدْ ذَهَبَ الْوَلَاءُ فَلَا وِلَاءُ
وقولي في حوادث كل خطب^(١) : على عمرو وصاحبه العفاه
ألا لله دَرَكُ يابنِ هندی لَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ فَلَا خَفَاءُ!
أتحمون الفرات على رجالٍ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ
وَفِي الْأَعْنَاقِ أَسْيَافٌ حِدَادُ كَانِ الْقَوْمَ عِنْدَهُمْ نِسَاءُ
أترجو أن يجاوركم على بَلَا مَاءٍ وَلِلْأَحْزَابِ مَاءُ
دعاهم دعوة فأجاب قومٌ كَجُرْبِ الْإِبِلِ خَالَطَهَا الْهِنَاءُ

قال : ثم سار الهمداني في سواد الليل حتى لحق بعلي عليه السلام .

قال : ^(٢) ومكث أصحاب علي عليه السلام بغير ماء ، واغتم علي عليه السلام بما فيه

أهل العراق .

قال نصر : وحدثننا محمد بن عبد الله ، عن الجرجاني ، قال : لما اغتم علي بما فيه أهل

العراق من العطش ، خرج ليلا قبل رايات مذحج ، فإذا رجل ينشد شعرا :

أَيْمَنُنَا الْقَوْمُ مَاءَ الْفُرَاتِ وَفِينَا الرَّمَاحُ وَفِينَا الْحَجَفُ ^(٣)

وَفِينَا الشَّوْازِبُ مِثْلَ الْوَشِيحِ وَفِينَا الزَّعْفُ ^(٤)

(١) صفيين : « كل أمر » .

(٢) صفيين ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) الحجف : جمع حجة ؛ وهي الترس من جلود الإبل يطارق بعضها في بعض .

(٤) الشوازف : الخيل الضامرة ؛ والوشيح في الأصل : شجر الرماح ؛ ويريد به هنا الرماح ؛ شبه بها

الخيل في ضمها . والزعف : الدروع الواسعة .

وَفِينَا عَلِيٌّ لَهُ سُورَةٌ إِذَا خَوْفُهُ الرَّدَى لَمْ يَخَفْ
 وَنَحْنُ الَّذِينَ غَدَاةَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَارَ التَّلْفِ (١)
 فَا بَأْنَا أَسَدَ الْعَرِينِ وَمَا بَأْنَا الْيَوْمَ شَاءَ النَّجَفِ (٢)
 فَا لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ سِوَى الشَّامِ خَضْمٌ فَصُكُّوا الْمَدْفِ (٣)
 وَتُورُوا عَلَيْهِمْ كَبُزْلِ الْجَالِ دُورِينَ الذَّمِيلِ وَفَوْقَ الْقَطْفِ (٤)
 فَإِمَّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الْفِرَاتِ وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْهِ جِيْفِ
 وَإِمَّا تَمُوتُوا عَلَى طَاعَةِ نُحْلِ الْجِنَانِ وَتَجْبُو الشَّرْفِ
 وَإِلَّا فَاتُّمَّ عَيْدُ الْعَصَا وَعَبْدُ الْعَصَا مُسْتَدَلٌّ نَظْفِ (٥)

قال : فحرك ذلك علياً عليه السلام ، ثم مضى إلى رايات كندة ، فإذا إنسانٌ يُنشد

إلى جانب منزل الأشعث ، وهو يقول :

لَئِنْ لَمْ يُجَلِّ الْأَشْعَثُ الْيَوْمَ كَرْبَةً
 مِنْ الْمَوْتِ فِيهَا لِلنَّفُوسِ بَقِيَةٌ (٦)
 فَهَبْنَا أَنَا سَاقِبَلٌ ذَاكَ فَمُوتُوا (٧)
 فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَجْمَعْ لَنَا الْيَوْمَ أَمْرَنَا
 وَتَنْضُ الَّتِي فِيهَا عَلَيْكَ الْمَذَلَّةُ (٨)

(١) يشير إلى وقعة الجمل ، والغار : جمع غمرة ؛ وهي الشدة .

(٢) العرين : مأوى الأسد ، والشاة : جمع شاة ، والنجف : الحلب الجيد حتى ينفذ الضرع ، ويقال : انتجفت الفم ؛ إذا استخرجت أقصى ما في الضرع من لبن ، والبيت من شواهد الكافية ؛ على أن « أسد العرين » ، و « شاء النجف » حالان ؛ إما على تقدير مثل ؛ وإما على تقديرهما بوصف . وانظر خزانة الأدب للبغدادي ١ : ٥٢٨ ، والمسعودي ٢ : ٣٨٥ .

(٣) صكوا : اضربوا ، وفي صفين : « سوى اليوم يوم » .

(٤) الذمیل والقطف : ضربان من السير . والبالزل : البعير الذي انشق نابه بدخوله في التاسعة ، وجمه بزل . وفي صفين : « فدبوا إليهم » .

(٥) عييد العصا ؛ أي أدلاء . والنطف : المييب .

(٦) صفين : « للنفوس تمتت » ، وفي المسعودي ٢ : ٣٨٥ « تفتت » .

(٧) صفين والمسعودي : « كانوا فوتوا » .

(٨) صفين : « وتلق التي فيها عليك التشتت » .

فَمَنْ ذَا الَّذِي تُثَنِّي الْخَنَاصِرُ بِاسْمِهِ سِوَاكَ ؛ وَمَنْ هَذَا إِلَيْهِ التَّلَفْتُ !
 وَهَلْ مِنْ بَقَاءٍ بَعْدَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ نَظَلَّ خَفَوَاتًا وَالْعَدُوَّ يَصُوتُ !^(١)
 هَلُمُّوا إِلَى مَاءِ الْفُرَاتِ وَدُونَهُ صُدُورُ الْعَوَالِي وَالصَّفِيحُ الْمَشْتَتُ
 وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ عَضْبَةٍ يَمْنِيَّةٍ وَكَلَّ امْرِيٍّ مِنْ سِنْحِهِ حِينَ يَنْبُتُ^(٢)

قال : فلما سمع الأشعث قولَ الرجل ، قام فأتى عليا عليه السلام ، فقال :
 يا أميرَ المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماءَ الفرات ، وأنت فينا ، والسيوفُ في أيدينا ! خلَّ عنا
 وعن القوم ، فوالله لا نرجعُ حتى نردهَ أو نموت ؛ ومُرِّ الأشرَّ فَيَعْلُوَ بِخَيْلِهِ ، وَيَقِفَ حَيْثُ
 تَأْمُرُهُ . فقال عليّ عليه السلام : ذلك إليكم .

فرجع الأشعثُ فنادَى في النَّاسِ : مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْمَاءَ أَوْ الْمَوْتَ فَيُعَادُهُ مَوْضِعَ كَذَا ؛
 فَأَبَى نَاهِضٌ . فَأَتَاهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ كِنْدَةَ وَأَفْنَاءَ قَحْطَانَ ، وَاضْعَى سِيوفَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ ،
 فَشَدَّ عَلَيْهِ سِلَاحَهُ^(٣) . وَنَهَضَ بِهِمْ ؛ حَتَّى كَادَ يَخَالِطُ أَهْلَ الشَّامِ ، وَجَعَلَ يُبَلِّغُ رِجْلَهُ ،
 وَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : يَا أَبِي وَأُمِّي أَنْتُمْ تَقْدَمُوا إِلَيْهِمْ قَابَ رُمْحِي^(٤) هَذَا . فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَابَّةً ؛
 حَتَّى خَالَطَ الْقَوْمَ ، وَحَسَرَ عَنْ رَأْسِهِ ، وَنَادَى : أَنَا الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ ! خَلُّوا عَنِ الْمَاءِ .
 فَنَادَى أَبُو الْأَعْوَرِ : أَمَا [وَاللَّهِ]^(٥) حَتَّى لَا تَأْخُذَنَا وَإِيَّاكُمْ السِّيُوفُ فَلَ . فَقَالَ الْأَشْعَثُ :

(١) صفيين : « عطاشا والعدو يصوت » .

(٢) السنخ : الأصل ، وفي صفيين : « من غصنه » .

(٣) صفيين : وشد عليه سلاحه ، وهو يقول :

مِيْعَادُنَا الْيَوْمَ بِيَاضُ الصُّبْحِ هَلْ يَصْلُحُ الزَّادُ بَغَيْرِ مِلْحٍ !
 لَالَا ، وَلَا أَمْرٌ بَغَيْرِ نُصْحِ رَبِّوَا إِلَى الْقَوْمِ بِطَعْنِ سَمْحِ
 مِثْلَ الْعَزَالِي بِطَعَانٍ نَفْحِ لَا صُلْحَ لِلْقَوْمِ ، وَأَيْنَ صُلْحِي !

* حَسْبِي مِنَ الْأَقْحَامِ قَابُ رُمْحِي *

(٤) قاب رمعي : قدر رمحي .

(٥) من صفيين .

قد والله أظنها دَنَبَتْ مِنَّا وَمِنكُمْ . وكان الأشتر قد تعالَى بِخَيْلِهِ حيث أمره عليّ ، فبعث إليه الأشعث : أفتحِمْ الخَيْلَ ؛ فَأَفْحَمَهَا حتَّى وضعت سنابكها في الفرات ، وأخذت أهل الشام السيوف ، فولوا مدبرين .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن ، قال : فنأدى ^(١) الأشعث عمرو بن العاص ، فقال : ويحك يا ابن العاص ! خَلَّ بيننا وبين الماء ، فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف ؛ فقال عمرو : والله لا نخلّي عنه حتَّى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربُّنا : أيننا أصبرُ اليوم . فترجّل الأشعث والأشتر ، وذوُّو البصائر من أصحاب علي عليه السلام ، وترجّل معهما اثنا عشر ألفا ، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومن معهما من أهل الشام ، فأزالوهم عن الماء ، حتَّى غمست خيلُ علي عليه السلام سنابكها في الماء .

قال نصر : فروى ^(٢) عمر بن سعد أن عليا عليه السلام قال ذلك اليوم : هذا يوم نصرتم فيه بالحِمْيَةِ .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : ^(٣) سمعت تيمياً الناجي يقول : سمعت الأشعث يقول : حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفرات ، فقلت له : ويحك يا عمرو ! أما والله إن كنت لأظنّ لك رأيا ؛ فإذا أنت لا عقل لك ، أترانا نخلك والماء ! ترَبَّتْ يداك ! أما علمت أنا معشر عرب ! ثكلتك أمك وهبلك ! لقد رُمّت أمرا عظيما . فقال لي عمرو : أما والله لتعلمنّ اليومَ أنا سننّي بالعهد ، ونُحكِمَ العَقْدَ ، ونلقاكم

(١) صفين ١٨٧

(٢) صفين ١٨٧

(٣) صفين ١٨٩ .

بصبرٍ وجِدِّ . فنادى به الأشتر : يا ابنَ العاص ؛ أما والله لقد نزلنا هذه القُرْضَةَ ، وإنا لنريد القتال على البصائر والدين ، وما قِتَلْنَا سائرَ اليومِ إلا حِمِيَةً .

ثم كَبَّرَ الأشتر وكَبَّرنا معه وحَمَلْنَا ، فما نارَ العُبارِ حتى انهزم أهل الشام .

قالوا : فَذَقِ عَمْرُو بن العاص بعد انقضاء صَفِينِ الأشعث ، فقال له : يا أخا كِنْدَةَ ، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء ، ولكن كنت مقهوراً على ذلك الرأي ، فكابرتك بالتهديد والوعيد ، والحرب خُدْعَةٌ .

قال نصر : ولقد كان من رأى عَمْرُو التَّخْلِيَةَُ بين أهل العراق والماء ، ورجع معاوية بأخْرَةَ إلى قوله بعد اختلاط القوم في الحرب ؛ فإن عَمْرَأَ - فيما روينا - أرسل إلى معاوية : أن خَلَّ بين القوم وبين الماء ، أترى القوم يموتون عطشاً وهم ينظرون إلى الماء ! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسريّ : أن خَلَّ بين القوم وبين الماء يا أبا عبد الله ، فقال يزيد - وكان شديدَ العُمانية : كَلَّا والله لنقتلنهم عطشاً كما قتلوا أمير المؤمنين .

قال : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : خطب على عليه السلام يوم الماء فقال : « أما بعد ؛ فإنَّ القوم قد بَدَّوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغي ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموك القتال حيث منعوكم الماء ، فأقِرِّوا على مذلة وتأخيرهِ مهلة » ، الفصل إلى آخره .

قال نصر : وكان^(١) قد باغَ أهلَ الشام أنْ عليا عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يَقسِمَ بينهم التبر والذهب - وهما الأحران - وأن يَعطِيََ كلاًّ منهم خمسمائة ، كما أعطاهم بالبصرة ، فنادى ذلك اليوم بنادى أهل الشام : يا أهل العراق ؛ لماذا نزلتم بَعَجَاج

من الأرض ! نحن أزدُ شنوءة لا أزدُ عمان ، يا أهلَ العراق :
لا خَمْسَ إلا جندلُ الأحرارِ (١) والخمسُ قد تُجشمكُ الأمرين (٢)

قال نصر : حدثني عمرو بن شمر ، عن إسماعيل السدي ، عن بكر بن تغلب ، قال :
حدثني (٣) من سمع الأشعث يوم الفرات - وقد كان له غناء عظيم من أهل العراق ، وقتل
رجالاً من أهل الشام بيده ، وهو يقول : والله إن كنت لكارهاً قتال أهل الصلاة ،
ولكن معي من هو أقدم متى في الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنة ، فهو الذي
يسخى بنفسه .

(١) لا خمس ، أراد لا خمسمائة . والجندل : المجارة والأحرين : جمع حرة ، وهي المجارة السوداء .
(٢) الأمرين : الشر والأمر العظيم ، وفي اللسان (٥ : ٢٥٢) بعد شرح كلمة « الأحرين » :
أنشد تغلب لزيد بن عنابة التيمي ، وكان زيد المذكور لما عظم البلاء بصفين قد انهزم ولحق بالكوفة ،
وكان على رضى الله عنه قد أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة من بيت مال البصرة ، فلما قدم زيد
على أهله قالت له ابنته : أين خس المائة ؟ فقال :

إِنِّ إِبَاكَ فَرَّ يَوْمَ صِفِّينَ لَمَّا رَأَى عَكًّا وَالْأَشْعَرِيِّينَ
وَقَيْسَ عَيْلَانَ الْمَوَازِينِ وَابْنَ نَمِيرٍ فِي سِرَاةِ الْكَنْدِيِّينَ
وَذَا الْكَلَّاعِ سَيْدَ الْيَمَانِينَ وَحَابِسًا يَسْتَنِّ فِي الطَّائِئِينَ
قَالَ لِنَفْسِ السُّوءِ هَلْ تَفْرِينِ ؟ لَا خَمْسَ إِلَّا جَنْدَلَ الْأَحْرِيِّينَ
وَالْخَمْسُ قَدْ جَشَمْتِكَ الْأَمْرَيْنِ جَزَاءً إِلَى الْكُوفَةِ مِنْ قَنْسَرِيِّينَ

ويروى : « قد تجشمك » ، و « قد يجشمك » . وقال ابن سيده : معنى « لاخسر » ماورد في حديث
صفين أن معاوية زاد أصحابه يوم صفين خمسمائة ، فلما التقوا بعد ذلك قال أصحاب على رضى الله عنه :

* لا خَمْسَ إلا جندلُ الأحرارِ *

أرادوا : لا خمسمائة .

(٣) صفين ١٩١ - ١٩٢

قال نصر: وحمل ^(١) ظَبْيَانُ بنُ مُعَاوَةَ التَّمِيمِي عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

هَلْ لَكَ يَا ظَبْيَانُ مِنْ بَقَاءٍ فِي سَاكِنِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ مَاءٍ !
لَا وَإِلَهُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فَاضْرِبْ وَجُوهَ الْقُدْرِ الْأَعْدَاءِ
بِالسَّيْفِ عِنْدَ حَمْسِ الْهَيْجَاءِ ^(٢) حَتَّى يَجِيئُوكَ إِلَى السَّوَاءِ

قال : فَضَرَبَهُمْ وَاللَّهِ حَتَّى خَلَّوْا لَهُ الْمَاءَ .

قال نصر: ودعا ^(٣) الأَشْتَرُ بِالْحَارِثِ بْنِ هَامِ النَّخَعِيِّ ، ثُمَّ الصَّهْبَانِيَّ ، فَأَعْطَاهُ لَوَاءَهُ ، وَقَالَ لَهُ : يَا حَارِثُ ، لَوْلَا أَنِي أَعْلَمُ أَنَّكَ تَصْبِرُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، لَأَخَذْتُ لَوَائِي مِنْكَ ، وَلَمْ أَحْبُبْكَ بِكَرَامَتِي ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا مَالِكَ لِأَسْرَتِكَ أَوْ لَأَمَوْتِي ، فَاتَّبَعْنِي . ثُمَّ تَقَدَّمَ بِاللَّوَاءِ وَارْتَجَزَ ، فَقَالَ :

يَا أَخَا الْخَيْرَاتِ يَا خَيْرَ النَّخَعِ وَصَاحِبَ النَّصْرِ إِذَا عَمَّ الْفَرْعُ
وَكَاشِفَ الْخَطْبِ إِذَا الْأَمْرُ وَقَعَ مَا أَنْتَ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِالْجُدْعِ ^(٤)
قَدْ جَزَعَ الْقَوْمُ وَعُمُّوا بِالْجَزَعِ وَجُرُّعُوا الْغَيْظَ وَغَضُّوا بِالْجُرْعِ
إِنْ تَسَقْنَا الْمَاءَ فَلَيْسَتْ بِالْبِدْعِ أَوْ نَعْمَطِشَ الْيَوْمَ فَجُنْدٌ مُقْتَطَعٌ

* مَا شِئْتَ خُذْ مِنْهَا وَمَا شِئْتَ فَدَعْ *

فقال الأَشْتَرُ : اذْنُ مَنِي يَا حَارِثُ ؛ فَدَنَا مِنْهُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : لَا يَتَّبِعُ رَأْسَهُ الْيَوْمَ إِلَّا خَيْرٌ . ثُمَّ صَاحَ الْأَشْتَرُ فِي أَصْحَابِهِ : فَدَتِكُمْ نَفْسِي أَشَدَّ وَأَشَدُّ الْحَرَجِ الرَّاجِي لِلْفَرَجِ ، فَإِذَا نَالْتُمْ الرِّمَاحَ فَاتَّوُوا فِيهَا ، فَإِذَا عَضْتُمْ السِّيُوفَ فَلْيَعْضَنَّ الرَّجُلُ عَلَى نَوَاجِذِهِ ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ لَشْتُونَ ^(٥) الرَّأْسِ ؛ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِأَمِكُمْ .

(١) صفين ١٩٢ ، وتاريخ الطبري ٥ : ٢٤٠

(٢) الحمس : الشدة في القتال ، وفي صفين والطبري : « حمس الوغاء » .

(٣) صفين ١٩٣ ، والمسعودي ٢ : ٣٨٦

(٤) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة ؛ كأنهم جعلوا الأولى بكرا . والجذع : الصغير السن .

(٥) الشتون هنا : جمع شأن ؛ وهو موصل قبائل الرأس .

قال : وكان الأشرتيومئذ على فرس له مَحذوف^(١) أذم ، كأنه حَلَكَ الغراب ، وقتل بيده من أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة : صالح بن فيروز العكي ، ومالك بن أدم السلمي ، ورياح بن عتيك الغساني ، والأجلح بن منصور الكندي - وكان فارس أهل الشام - وإبراهيم بن وضاح الجحفي ، وزامل بن عبيد الحزامي ، ومحمد ابن روضة الجحفي .

قال نصر : فأول قتيل قتله الأشرتي بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز ، ارتجز على الأشرتي وقال له :

يا صاحبَ الطرفِ الحصانِ الأذمِ - أقدمِ إذا شئت علينا أقدمِ
أنا ابنُ ذي العزِّ وذِي التَّكرَمِ سيّدُ عكِّ كلِّ عكِّ فاعلمِ -

قال : وكان صالح مشهوراً بالشدّة والبأس ، فارتجز عليه الأشرتي ، فقال له :

أنا ابنُ خيرٍ مذحجٍ مركباً وخيرُها نفساً وأماً وأباً
آليتُ لأرجعُ حتى أضرباً بسيفي المصقولِ ضرباً مُعجِباً

ثم شدّ عليه فقتله ، فخرج إليه مالك بن أدم السلمي - وهو من مشهوريههم أيضاً ، فحمل على الأشرتي بالرمح ، فلما رهقه^(٢) التوى الأشرتي على فرسه ومارّ انسان^(٣) فأخطأه ، ثم استوى على فرسه ، وشدّ على الشامي فقتله طعنًا بالرمح ، ثم قتل بعده رياح بن عقيل^(٤) ، وإبراهيم بن وضاح ، ثم برز إليه زامل بن عقيل - وكان فارساً - فطعن الأشرتي في موضع الجوشن^(٥) فصرعه عن فرسه ، ولم يصب مقتلاً ، وشدّ عليه الأشرتي بالسيف راجلاً فكشف قوائم فرسه ، وارتجز عليه فقال :

(١) المحذوف : المقطوع الذنب .

(٢) رهقه : غشيه .

(٣) مارّ السنان : اضطرب .

(٤) صفيين : رياح بن عتيك .

(٥) الجوشن : الصدر .

لَا بُدَّ مِنْ قَتْلِي أَوْ مِنْ قَتْلِكَ قَتَلْتُ مِنْكُمْ أَرْبَعًا مِنْ قَبْلِكَ (١)
* كَلَّمَهُمْ كَانُوا حُمَاةً مِثْلَكَ *

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان ، فقتله ، ثم خرج إليه محمد بن روضة ، فقال وهو
يضرب في عرض العراق ضرباً منكراً :

يَا كِنِي الكُوفَةَ يَا أَهْلَ الفَتَنِ يَا قَاتِلِي عُثْمَانَ ذَاكَ المُوْتَمِنِ
أور . قَلْبِي قَتَلَهُ طُولَ الحَزَنِ أَضْرِبُكُمْ وَلَا أَرَى أَبَا حَسَنِ !
فشدَّ عليه الأشر فقتله ، وقال :

لَا يَبْعِدُ اللهُ سِوَى عُثْمَانَ وَأَنْزَلَ اللهُ بِكُمْ هَوَانَا
* وَلَا يَسَلِّي عَنْكُمْ الأَحْزَانَا (٢) *

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكندي ، وكان من شجعان العرب وفرسانها ، وهو
على فرس له اسمه لاحق ، فلما استقبله الأشر ، كره لقاءه واستحيا أن يرجع عنه ، فتضاربا
بسيفهما ، فسبقه الأشر بالضربة فقتله ، فقالت أخته برثية :

أَلَا فَابِكِي أَخَاتِي فَقَدْ وَاللَّهِ أَبَكِينَا
بِقَتْلِ المَاجِدِ القَمَقَمَا م لَا مِثْلَ لَهُ فِينَا (٣)
أَنَا الْيَوْمَ مَقْتَلُهُ فَقَدْ جُرَّتْ نَوَاصِينَا
كَرِيمٌ مَاجِدُ الجَدَيْنِ يَشْفِي مِنْ أَعَادِينَا
شَفَانَا اللهُ مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ فَقَدْ أَبَادُونَا
أَمَّا يَخْشُونَ رَبَّهُمْ وَلَمْ يَرْعُوا لَهُ دِينَا !

(١) صفين : « قتل خمسة »

(٢) بقية الرجز كما في صفين :

مُخَالَفٌ قَدْ خَالَفَ الرَّحْمَانَ نَصَرَ تَمُوهُ عَابِدًا شَيْطَانَا

(٣) القمقام : السيد الكثير العطاء .

قال : وبلغ شعرها علياً عليه السلام ، فقال : أما إنهنّ ليس بملكهنّ ما رأيتم من الجزع ، أما إنهم قد أضرّوا بنسائهم ، فتركوهنّ أيّامى حزانى ^(١) بائسات . قاتل الله معاوية ! اللهم حمّله آثامهم وأوزاراً وأثقالاً مع أثقاله ! اللهم لاتعفُ عنه !

قال نصر : وحدثنا ^(٢) عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن الحارث بن آدم ، وعن صعصعة ، قال : أقبل الأشرّ يوم الماء ، فضرب بسيفه جمهوراً أهل الشام حتى كشفهم عن الماء ، وهو يقول :

لَا تَذْكُرُوا مَا قَدْ مَضَى وَفَأَنَّا وَاللَّهِ رَبِّي الْبَاعِثِ الْأُمُوتَانَا
مِنْ بَعْدِ مَا صَارُوا كَذَارِفَاتَا ^(٣) لِأُورِدَنَّ خَيْلِي الْفُرَاتَانَا
* شُعَثَ النَّوَاصِي أَوْ يُقَالُ مَا تَا *

قال : وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث ، فقال له الأشعث : لله أبوك ! ليست النّزع بخيرٍ من كِنْدَة ، قدّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق ؛ فتقدم لواء الأشعث ، وحملت الرجال بعضها على بعض ، وحمل في ذلك اليوم أبو الأعور السّلمى ؛ وحمل الأشرّ عليه ، فلم ينتصف أحدهما من صاحبه ، وحمل شُرْحَبِيل بن السّمط على الأشعث ، فكانا كذلك ، وحمل حَوْشَب ذو ظليم على الأشعث أيضاً ، وانفصلا ولم ينل أحدهما من صاحبه أمراً ، فزالوا كذلك حتى انكشف أهل الشام عن الماء ، وملك أهل العراق المشرّعة .

قال نصر : فحدثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجاني ، قال : قال ^(٤) عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهل العراق الماء : ما ظنّك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم

(١) صفين : « خزاياء » .

(٢) صفين ٢٠١

(٣) صفين : « صدى فراتا » .

(٤) صفين ٢٠٨

أمس ! أترك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ! ما أغى عنك أن تكشف لهم السوءة .
فقال معاوية : دع عنك ماضى ، فما ظنك بعلى ؟ قال : ظنى أنه لا يستحل منك ما استحللت
منه ، وأن الذى جاء له غير الماء . قال : فقال له معاوية قولاً أغضبه ، فقال عمرو :

أمرتُك أمراً فَسَخَّفْتَهُ وخالفنى ابن أبى سَرْحَةَ (١)
وأغضتَ فى الرأىِ إغماضَةً ولم ترَ فى الحربِ كالفُسْحَةَ
فكيفَ رأيتَ كِباشَ العِراقِ ألم ينطحُوا جَمَعاً نَطْحَهُ !
فإن ينطحونا غداً مثلها فكنْ كالزبيرى أو طلْحَةَ
أظنّ لها اليومَ ما بعدَها وميعاد ما بيننا صُبْحَةَ
وإن أخروها لِمَا بَعْدَها فقد قدّموا الخبْطَ والنَّفْحَةَ
وقد شرب القومُ ماءَ الفِراتِ وقلّدك الأشرَ الفِضْحَةَ

قال نصر : فقال أصحاب على عليه السلام له : امنهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك . فقال : لا ، خلوا
بينهم وبينه ، لأفعل ما فعله الجاهلون ، سنعرض عليهم كتاب الله ، وندعوهم إلى الهدى ،
فإن أجابوا وإلا فنى حدّ السيف ما يعنى إن شاء الله .

قال : فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سقاتهم وسقاة أهل الشام وروايهم ، وروايا
أهل الشام يزدحمون على الماء ، ما يؤذى إنسان إنسانا .

(١) يريد عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

ومن خطبة له عليه السلام ، وقد تقدم فحارها برواية ، وتذكر ما ذكره هنا

برواية أخرى ، لتغابر الروایتين :

الأصل :

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنْتْ بِانْقِضَاءِ ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفَهَا وَأَذْبَرَتْ حَدَاءَهَا ،
فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا ، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا ، وَقَدْ أَمَرَ فِيهَا مَا كَانَ حُلُوءًا ،
وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْوًا ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ ، أَوْ جُرْعَةٌ (١) كَجُرْعَةِ
الْمَقْلَةِ ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّديانُ لَمْ يَنْقَعِ .

فَازِمَعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْقُدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ
فِيهَا الْأَمَلُ ، وَلَا يَطْوَانَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا (٢) الْأَمَدُ ، فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَّتُمْ حَنِينَ الْوَالِدِ الْعِجَالِ ،
وَدَعَوْتُمْ بِهَيْدِيلِ الْحَمَامِ ، وَجَارْتُمْ جُورَ الْمُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ ؛ التِمَّاسَ الْقُرْبَةَ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ ، أَوْ غُفْرَانَ سَيِّئَةٍ أَخْصَمَهَا
كُتْبُهُ ، وَحَفِظْتَهَا رُسُلُهُ ؛ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُوا لَكُمْ مِنْ نَوَابِهِ ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ
مِنْ عِقَابِهِ .

وَتَاللَّهِ لَوْ أَنْمَأَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَانًا ، وَسَأَلَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ
مِنْهُ دَمًا ، ثُمَّ عَمَّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا ؛ مَا الدُّنْيَا بِأَقِيَّةٌ ؛ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ - وَلَوْ لَمْ تَبْقُوا
شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ الْعِظَامُ ، وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ .

(*) انظر الخطبة رقم ٢٨ الجزء الثاني ص ٩١

(١) مخطوطة التهج : « وجرعة » .

(٢) كلمة « فيها » ساقطة في مخطوطة التهج

الْبِنْجُ :

تصرّمت: انقطعت وفنيت . وآذنت بانقضاء : أعلمت بذلك، آذنته بكذا أى أعلمته .
وتنكر معروفها : جهل منها ما كان معروفاً .

والخذاء: السريعة الذهاب ، ورجم خذاء : مقطوعة غير موصولة . ومن زواه « جذاء »
بالجيم ، أراد منقطعة الدرّ والخير .

وتحفز بالفناء سكانها : تعجلهم وتسوقهم . وأمرّ الشيء : صار مرّاً . وكدر الماء بكسر
الدال ، ويجوز كدّر بضمها . والمصدر من الأول كدراً ، ومن الثانى كدورة .

والسّملة، بفتح الميم : البقية من الماء تبقى في الإناء .

والمقّلة ، بفتح الميم وتسكين القاف : حصة القسّم التي تلتقى في الماء ليعرف قدر ما يسقى
كلّ واحد منهم ؛ وذلك عند قلة الماء في المفاوز، قال :

قَدَفُوا سَيِّدَهُمْ فِي وَرْطَةٍ قَدَفَكَ الْمَقْلَةَ وَسَطَ الْمُعْتَرِكِ^(١)

والتمرز : تمصّص الشراب قليلاً قليلاً . والصدّيان : العطشان .

ولم ينقع: لم يرو؛ وهذا يمكن أن يكون لازماً ، ويمكن أن يكون متعدّياً ،
تقول : نقع الرجل بالماء ، أى روى وشفى غليله ، ينقع . ونقع الماء الصدى ينقع ، أى سكنه .

فأزمعوا الرحيل ، أى اعزموا عليه ، يقال : أزمعت الأمر ، ولا يجوز أزمعت على الأمر؛
وأجازته الفراء .

قوله : « المقدور على أهلها الزوال » ، أى المكتوب ، قال :

واعلم بأنّ ذا الجلال قد قدّر في الصحف الأولى الذي كان سطرز

(١) اللسان ١٤ : ١٥٠ ، ونسبه إلى يزيد بن طعمة الحظمي .

أى كتب . والولّه العجبال : النُّوقِ الوالهة الفاقدة أولادها ، الواحدة عَجُول ، والولّه :
ذهاب العقل وفقد التمييز .

وهديل الحمام : صوت نوحه . والجوّار : صوت مرتفع . والمتبتّل : المنقطع عن الدنيا .
وانمات القلب ، أى ذاب .

وقوله : « ولو لم تبقوا شيئاً من جَهْدكم » اعتراض فى الكلام .
وأنعمه ، منصوب لأنه مفعول « جزت » .

وفى هذا الكلام تلويح وإشارة إلىّ مذهب البغداديين من أصحابنا فى أن الثواب على
فعل الطاعة غير واجب ؛ لأنه شكر النعمة ، فلا يقتضى وجوبَ ثواب آخر ؛ وهو قوله عليه
السلام : « لو انماتت قلوبكم انمياثا . . . » ، إلى آخر الفصل .

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك ، بل يقولون : إنّ الثواب واجب على الحكيم
سبحانه ، لأنه قد كلفنا ما يشقّ علينا ، وتكليف المشاقّ كما نزال المشاقّ ، فكما اقتضت
الآلام والمشاقّ النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا ، كذلك
تقتضى التكليفات الشاقة ثواباً مستحقّاً عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها ، قالوا : فأما ما سلف
من نعمه علينا فهو تفضّل منه تعالى ، ولا يجوز فى الحكمة أن يتفضّل الحكيم على غيره بأمر
من الأمور ، ثم يُلزمه أفعالاً شاقةً ويجعلها بإزاء ذلك التفضّل ؛ إلا إذا كان فى تلك الأمور
منافع عائدة على ذلك الحكيم فكان ما سلف من المنافع جارياً مجرى الأجرة ؛ كمن يدفع
درهما إلى إنسان ليخيط له ثوبا ، والبارى تعالى منزّه عن المنافع ؛ ونعمه علينا منزّهة أن تجرى
مجرى الأجرة على تكليفنا المشاقّ .

وأبضا فقد يتساوى اثنان من الناس فى النعم المنعم بها عليهما ، ويختلفان فى التكليف ،

فلو كان التكليف لأجل ماضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها؛ فإن قيل: فعلى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين؛ ولكنه قال: لو عبدتموه بأقصى ما ينتهى الجهد إليه ما وقيتم بشكر أنعمه؛ وهذا حقٌ غيرٌ مختلف فيه، لأنّ نعم البارئ تعالى لا تقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا فى عبادته والخضوع له والإخلاص فى طاعته؛ ولا يقتضى صدق هذه القضية وصحتها صحة مذهب البغداديين فى أنّ الثواب على الله تعالى غيرٌ واجب؛ لأنّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة.

[ما قيل من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

فأما مقاله الناس فى ذمّ الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها، وتنكرها لأهلها، والشكوى منها، والعتاب لها، والموعظة بها، وتصرمها وتقلبها، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بَمِلٍّ فِيهَا حَذَارِ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي (١)
فلا يفرركمُ حُسنُ ابتسامي فقولي مُضحِكٌ والفعل مُبكي

وقال آخر:

تَنَحَّ عَنِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْلُبْنَهَا وَلَا تَخْطُبْنِ قِتَالَةً مِنْ تَنَاكِحِ
فَلَيْسَ بِنِي مَرْجُوًّا بِمَخُوفِهَا، وَمَكْرُوهًا إِمَّا تَأَمَّلْتَ رَاجِحِ
أَقْدَقَ قَالَ فِيهَا الْقَائِلُونَ فَأَكْثَرُوا وَعِنْدِي لَهَا وَصْفٌ لِعَمْرُكُ صَالِحِ
سُلاَفٌ، قُصَّارَاهَا ذُعَافٌ، وَمَرْكَبٌ شَهِيءٌ إِذَا اسْتَلَذْتَهُ فَهُوَ جَامِحِ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُهُ وَلَكِنْ لَهُ أَعْمَالٌ سُوءٌ قَبَائِحِ

(١) لأبي الفرج السامى، معاهد التنصيص ٤ : ٢٤١ .

وقال أبو الطيب :

أَبْدًا نَسْتَرِدُّ مَاتِهِبُ الدُّنْيَا فَيَالَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا (١)
وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْقَدْرِ لَا تَحْفَظُ عَهْدًا وَلَا تَتَمُّ وَصْلًا
كُلُّ دَمْعٍ بِسِيلٍ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِفِكَ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تُحَلَّى
شِيمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا وَلَا أَدْرِي لَذَا أَنْتَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا

وقال آخر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا عَوَارٍ وَالْعَوَارِي مُسْتَرَدَّةٌ (٢)
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ وَرَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةٍ

وقال محمد بن هانيء المغربي :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا ظَالِعِينَ فَمُودِعٌ وَثَاوٍ قَرِيحِ الْجَفْنِ يَبْكِي لِرَاحِلٍ (٣)
فَا الدَّهْرُ إِلَّا كَالزَّمَانِ الَّذِي مَضَى وَلَا نَحْنُ إِلَّا كَالْقُرُونِ الْأَوَائِلِ
نُسَاقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ دَائِمٍ وَنَبْكِي مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ طَائِلِ
فَاعَاجِلٌ نَرَجُوهُ إِلَّا كَأَجَلٍ وَلَا آجَلٌ نَخْشَاهُ إِلَّا كَعَاجِلِ

وقال ابن المظفر المغربي :

دُنْيَاكَ دَارُ غُرُورٍ وَنِعْمَةٌ مُسْتَعَارَةٌ
وَدَارُ أَكْلِ وَشُرْبٍ وَمَكْسَبٍ وَتِجَارَةٍ
وَرَأْسُ مَالِكٍ نَفْسٌ خَفْتُ عَلَيْهَا الْخُسَارَةَ

(١) ديوانه ٣ : ١٣١

(٢) محاضرات لأدباء ٢ : ١٢٦ من غير نسبة .

وَلَا تَبْغَمَا بِأَكْلِ وَطِيبِ عَرَفٍ وَشَارَةِ
فَإِنَّ مُلْكَ سَلِيمًا لَإِنِّي بَشَارَةٌ

وقال أبو العتاهية :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَىٰ مِنَ الْبِرِّ وَالْكَرَمِ
وَلَيْسَ عَلَىٰ عَبْدٍ تَقِيٍّ غَضَاضَةٌ
وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الْفَقْرُ وَالْمَدَمُ (١)
إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَىٰ وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ (٢)

وقال أيضاً :

تَعَلَّقَتْ بِأَمَالٍ طَوَالَ أَيِّ أَمَالٍ
وَأَقْبَلَتْ عَلَى الدُّنْيَا مُلِحًا أَيَّ إِقْبَالٍ
أَيَّ هَذَا تَجَهَّزُ إِفْرَاقِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ
فَلَا بَدَّ مِنَ الْمَوْتِ عَلَى حَالٍ مِنَ الْحَالِ

وقال أيضاً :

سَكَنُ يَبْقَىٰ لَهُ سَكَنُ مَا يَهْدَىٰ يُؤْذِنُ الزَّمَنُ! (٣)
نَحْنُ فِي دَارٍ يُخْبِرُنَا بِيَلَاهَا نَاطِقُ لَسِنُ
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَدْمِ فَرَحُ لَامِرِي فِيهَا وَلَا حَزَنُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفُسُنَا كُنَّا بِالْمَوْتِ مُرْتَهَنُ
كَلَّ نَفْسٍ عِنْدَ مَوْتِهَا حَظُّهَا مِنْ مَالِهَا السَّكْفَنُ
إِنَّ مَالَ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

(١) ديوانه ٢٤٣

(٢) ديوانه ٢١٣

(٣) ديوانه ٢٥٢

وقال أيضاً :

أَلَا إِنَّمَا كُنْنَا بَائِدٌ وَأَيُّ بَنِي آدَمٍ خَالِدٌ ! (١)
 وَبَدْوُهُمْ كَأَنَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَكُلُّهُ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ
 فَوَاعَجَبْنَا كَيْفَ يَعْصِي الْإِ لَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ !
 فِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وقال الرضى الموسوى :

يَا أَمِنَ الْأَيَّامَ بَادِرٌ صَرَفَهَا وَاعْلَمَ بَانَ الطَّالِبِينَ حِثَّ (٢)
 خُذْ مِنْ ثَرَائِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شُرَكَاءُكَ الْأَيَّامُ وَالْوَرَاثُ
 لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعْشَرٌ نَظَرُوا الزَّمَانَ بَعِيثُ فِيهِ فَعَانُوا
 تَحْمُو عَلَى عَيْبِ الْغَنِيِّ يَدُ الْغِنَاءِ وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَتَى بِحَاثُ
 الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّهَوَاتُ أَوْ دُفِعَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ
 مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمَنَّ بَأَنَّهُ مِيرَاثُ
 مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الدُّنْيَا حَاجَةٌ فَلْيَجْنِ سَاحِرَ كَيْدِهَا النَّفَاثُ
 طَلَّقْتُهَا أَلْفًا لِأَحْسِمَ دَاءَهَا وَطَلَّاقُ مَنْ عَزَمَ الطَّلَاقَ ثَلَاثُ
 وَثَبَاتُهَا مَرْهُوبَةٌ ، وَعِدَاتُهَا مَكْدُوبَةٌ ، وَجِبَالُهَا أَنْكَاثُ
 أَمْ الْمَصَائِبُ لَا تَزَالُ تَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ حَوَادِثٍ وَإِنَاثُ
 إِنِّي لِأَعْجَبُ لِلَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِجِبَائِلِ الدُّنْيَا ، وَهُنَّ رِثَاثُ
 كَنَزُوا الْكُنُوزَ وَأَعْقَلُوا شَهْوَاتِهِمْ فَالْأَرْضُ تُشْبَعُ وَالْبَطُونُ غِرَاثُ
 أَثْرَاهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ التَّقَى أَرْوَادُنَا ، وَدِيَارُنَا الْأَجْدَاثُ

(١) ديوانه ٦٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٣ ، وفيه : « يَا أَمِنَ الْأَقْدَارُ »

وقال آخر :

هذه الدنيا إذا صرّفت وجهها لم تنفع الحيل
 وإذا ما أقبلت لعم بصرتة كيف يفتعل
 وإذا ما أدبرت لذكى غاب عنه التسهل والجبل
 فهي كالدولاب دائرة ترزقي طورا وتستغل
 في زمان صار ثعلبه أسداً واستذاب الحمل
 فالذئابى فيه ناصية والنواصى خضع ذلل
 فانسبرى يا نفس واحتملى إن نفس الحر تحتمل

وقال أبو الطيب :

نعدُّ الشرفيّة والعوالى
 ونزّ تبطُ السوابق مقرّبات
 ومن لم يعشق الدنيا قديماً
 نصيبك فى حياتك من حبيب
 رمانى الدهر بالأرزاء حتى
 فوادمى فى غشاء من نبال
 نصيرت إذا أصابتنى سهام
 وهان فما أبالى بالرزايا
 يدفنُ بعضنا بعضاً ويمشى
 أواخرنا على هام الأوالى
 وكم عينى مقبلة النواحى
 كحيل فى الجنادل والرمال

(١) ديوانه ٣ : ٨ . المشرفية : السيوف ، والعوالى : الرماح .
 (٢) المقرّبات من الحيل : الكرام التى تربط لكرامتها على أصحابها .

وَمُنْفِضٍ كَانَ لَا يُفِضِي لِحَطْبٍ وَبَالٍ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْهَزَالِ

وقال أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة في ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة :

مَا زَلَّتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أَدَى مَمْزُوجَةَ الصَّفْوِ بِالْوَانِ الْقَدَى (١)
 الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ لَذَا نِتَاجُ ، وَلَذَا نِتَاجُ
 مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضُ يَخْبُثُ بَعْضُ وَيَطِيبُ بَعْضُ
 لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ
 وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عُدَا بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ جِدَا
 إِنَّكَ لَوْ تَسْتَنَشِقُ الشَّحِيحَا وَجَدْتَهُ أَتَنَنْ شَيْءَ رِيحَا
 حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوْتُ مَا أَكْثَرَ الْقُوْتَ لِمَنْ يَمُوتُ !
 الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكِفَافَا مِنْ أَتَقَى اللَّهُ رَجَا وَخَافَا
 هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمَنِي أَوْ فَذَرِ إِنْ كُنْتَ أُخْطِئْتُ فَمَا أُخْطِئُ الْقَدَرِ
 لِكُلِّ مَا يُوذِي وَإِنْ قَلَّ الْمِ مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ !
 مَا نَتَفَعِ الْمَرْءَ بِمَثَلِ عَقْلِهِ وَخَيْرُ ذُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
 إِنْ الْفَسَادَ ضِدُّهُ الصَّلَاحُ وَرَبِّ جِدِّ جَرُّهُ الْمُرَاحُ
 مَنْ جَعَلَ النَّوَامَ عَيْنًا هَلَكَا مُبْلَغَكَ الشَّرَّ كِبَاغِيهِ لَكَا
 إِنْ الشَّبَابَ وَالْفِرَاحَ وَالْجِدَّةَ مَمْسَدَةً لِلْمَرْءِ أَى مَمْسَدَةً
 يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرَكَهُ قَدْ يُوْهِنُ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
 مَا عَيْشُ مَنْ آفَتْهُ بَقَاةُ نَفْسَ عَيْشًا نَاعِمًا قَنَاهُ

يَارُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجُهْدِهِ قَدْ سَرَّنَا اللَّهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطَّلَعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ وَجَوْهَرُ وَأَوْسَطُ وَأَصْفَرُ وَأَكْبَرُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ أَصْفَرُهُ مَتَّصِلٌ بِأَكْبَرِهِ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلُّهُ مُتَمَزِّجٌ وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ تَفْتَلِجُ
عَجِبْتُ وَاسْتَعْرِفْتُ الشُّكُوتُ حَتَّى كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
إِذَا قَضَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ وَالصَّمْتُ إِنْ ضَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ

وقال أيضاً:

كُلُّ عَلَى الدُّنْيَا لَهُ حِرْصٌ وَالْحَادِثَاتُ لِنَابِهَا قَرَصٌ (١)
وَكَمَّ بِهَا مَنْ وَارَتْهُ فِي جَدَثٍ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ لِنَاظِرٍ شَخْصٌ
يَهْوَى مِنَ الدُّنْيَا زِيَادَتَهَا وَزِيَادَةُ الدُّنْيَا هِيَ النَّقْصُ
لَيْدِ الْمَنِيَّةِ فِي تَلَطُّفِهَا عَنْ ذُخْرِ كُلِّ نَفْسَةٍ فَحْصُ

وقال أيضاً:

أُبَلِّغَ الدَّهْرُ لِي فِي مَوَاعِظِهِ بَلِّ زَادَ فَيَهِنُ لِي مِنَ الْإِبْلَاحِ (٢)
أَمَى عَيْشٍ يَكُونُ أَطِيبَ مِنْ عَيْشِ كِفَافِ قَوْتِ بِقَدْرِ الْبَلَاحِ
غَضَبْتَنِي الْأَيَّامَ أَهْلِي وَمَالِي وَشِبَابِي وَصِحْتِي وَفَرَاغِي
صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهُ وَعَلَى نَفْسِهِ بَغْيُ كُلِّ بَاغِ
رُبُّ ذِي لَقْمَةٍ بَعْرَضَ مِنْهَا حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسَاغِ

(١) ديوانه ١٣٦

(٢) ديوانه ٣٣٥

وقال ابن المعتز:

حَمْدًا لِرَبِّي وَذَمًّا لِلزَّمَانِ فَمَا
كَفَّتْ يَدِي أَمَلِي عَنْ كُلِّ مُطَلَبٍ
أَقْلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَسْرَاتِي !
وَأَغْلَقْتُ بِأَبْهَاتِي مِنْ دُونِ حَاجَاتِي
وله أيضاً :

أَلَسْتَ تَرَى يَا صَاحِبَ مَا عَجَبَ الدَّهْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الْمَوْتَ الْبَقَاءَ الَّذِي أَرَى
فَدَمًّا لَهُ لَكِنَّ لِلخَالِقِ الشُّكْرَا
فِيَا حَبَّذَا مِنِّي لِمَنْ سَكَنَ الْقَبْرَا
وَسُبْحَانَ رَبِّي رَاضِيًا بِقَضَائِهِ
وَكَانَ اتِّقَانِي الشَّرَّ يُغْرِى بِي الشَّرَا
وله :

قُلْ لِدُنْيَا وَقَدْ تَمَكَّنْتِ مِنِّي
وَآخِرَتِي كَيْفَ شِئْتَ خَرَقَ جَهُولِي
فَأَفْعَلِي مَا أَرَدْتِ أَنْ تَفْعَلِي بِي
إِنْ عِنْدِي لَكَ اصْطَبَارَ لَبِيبِ
وقال أبو العلاء المعري :

وَالدَّهْرُ إِزْرَامٌ وَنَقْضٌ وَتَنَةٌ
لَوْ قَالَ لِي صَاحِبُهُ سَمُّهُ
رَبِيقٌ وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَكَأَنَّ (١)
مَاجَزَتْ عَنْ نَاجِيَةٍ أَوْ بَدِيلِ

وقال آخر:

وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ
لَا بَدَأَ أَنْ يُدْبِرَ أَوْ يُقْبِلَا

وقال أبو الطيب :

فَالِي وَلِلدُّنْيَا طَلَابِي نَجْمُهَا
وَمَسْمَعَايَ مِنْهَا فِي شِفَاهِ الْأَرَا قِمِ (٢)

(١) سفت الزند ١٦١

(٢) ديوانه ٤ : ١١١ . الأرقام : الحيات .

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا اسْطَمْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَزَوِّدِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى رِزْيَةٌ مَالٍ ، أَوْ فِرَاقُ حَبِيبِ

الوزير المهدي :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَاشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ (١)
أَلَا رَحِمَ الْمُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرِّ تَصَدَّقَ بِالْمَمَاتِ عَلَى أُخِيهِ

وله :

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ أَحْدَانًا مِنَ الزَّمَنِ يَبْرِيْنِي مِثْلَ بَرِيِّ الْقِدْحِ بِالسَّعَنِ
لَمْ يَبْقَ بِالْعَيْشِ لِي إِلَّا مَرَارَتُهُ إِذَا تَذَوَّقْتُهُ ، وَالْحُلُومِنَهُ فِي
لَا تَحْسَبَنَّ نِعْمًا سَرَّ نَكَّ صُحْبَتُهَا إِلَّا مَفَاتِيحَ أَبْوَابِ مِنَ الْحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَلَا أَيُّهَا الدَّهْرُ الَّذِي قَدْ مَلَّتُهُ سَأَلْتُكَ إِلَّا مَا سَلَّتْ حَيَاتِي
فَقَدْ وَجَلَّ لِلَّهِ حَبَبَتَ جَاهِدًا إِلَيَّ - عَلَى كُرْهِ الْمَمَاتِ - تَمَائِي

وله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَهْدِيكُمْ مَا بَنَى وَبَسَلْبُ مَا أَعْطَى وَيُفْسِدُ مَا أَسَدَى
فَمَنْ سَرَّهُ أَلَا يَرَى مَا يَسُوهُ فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ قَدَا

البحترى :

كَانَ اللَّيَالِي أَعْرِيَتْ حَادِثَاتُهَا بِحُبِّ الَّذِي نَأْبَى ، وَبِقُضِّ الَّذِي نَهْوَى (٢)

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٢

(٢) ديوانه ١ : ١٠

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَرَّ خَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعْدُدْ مُضَرَّتَهَا بَلْوَى
أَبُو بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيُّ :

مَا أَثْقَلَ الدَّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهُ
حَدَّثَنِي عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِبَةِ
لَا تَشْكُرِ الدَّهْرَ لِحَيْرِ سَبَبِهِ
فَاتِهِ لَمْ يَتَعَمَّدْ بِالْهَيْبَةِ
وَأَمَّا أَخْطَا فِيكَ مَذْهَبَهُ
كَالنَّيْلِ قَدْ بَسَقِيَ مَكَانًا أُخْرِبَهُ
وَالسُّمِّ يَسْتَشْفِي بِهِ مَنْ شَرِبَهُ

وقال آخر :

يَسْتَعِي الْفَتَى فِي صَلَاحِ الْعَيْشِ مُجْتَهِدًا وَالدَّهْرُ مَاعَاشٍ فِي إِفْسَادِهِ سَاعِي
آخر :

يَفْرُ الْفَتَى مَرُّ اللَّيَالِي سَلِيمَةً وَهَنْ بِهٍ عَمَّا قَلِيلٍ عَوَائِرُ
آخر :

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَاسٍ حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بَاخِرِينَ
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلِقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

آخر :

قُلْ لِمَنْ أَنْكَرَ حَالًا مُنْكَرَةً وَرَأَى مِنْ دَهْرِهِ مَا حَايِرَةً
لَيْسَ بِالْمُنْكَرِ مَا أَنْكَرْتَهُ كُلُّ مَنْ عَاشَ رَأَى مَا لَمْ يَرَهُ

ابن الرومي :

سَكَنَ الزَّمَانُ وَتَحَتَّ سَكْنَتُهُ دَفَعُ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالْبَطَاشِ (١)

كَأَلْفَمَوَاتٍ تَرَاهُ مُنْبَطِحًا بِالْأَرْضِ ثُمَّ يَثُورُ لِلنَّهْشِ

أبو الطيب :

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ (١)
ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَافَاتُهُ ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وقال آخر :

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ وَأَيُّ حُرِّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ لَمْ يَجْرِ !
عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَا لَوْ أَنَّ أُبْسِرَهُ يُبْتَلَى عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَارِ لَمْ يَدْرِ

آخر :

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَازِرُهُ فِيمَا يَحْدُثُ كَعَبُّ وَابْنُ مَسْعُودٍ
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ تَعْبُ لَهُ غَيْرٌ لَمْ يُبْنِكْ مَيْتٌ ، وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودٍ

آخر :

يَا زَمَانًا أَلْبَسَ الْأَحْرَارَ ذُلًا وَمَهَانَةً
لَسْتَ عِنْدِي بِزَمَانٍ إِنَّمَا أَنْتَ زَمَانَةٌ
أَجُنُونٌ مَا رَاهُ مِنْكَ يَبْدُو أُمَّ بَجَانَةٌ

الرضي الموسوي :

تَأْتِي اللَّيَالِي أَنْ تُدِيمَا بُوْسًا لَخَلْقٍ أَوْ نَعِيمًا (٢)
وَالْمَرَّةُ بِالْإِقْبَالِ يَبْلُغُ وَادِعًا خَطَرًا جَسِيمًا
فَإِذَا انْقَضَى إِقْبَالُهُ رَجَعَ الشَّفِيعُ لَهُ خَصِيمًا

(١) ديوانه ٣ : ٢٨٧

(٢) ديوانه لوحة ٦٤

وَهُوَ الزَّمَانُ إِذَا نَبَأَ
كَالرَّيْحِ تَرْجِعُ عَاصِفًا
سَلَبَ الَّذِي أُعْطِيَ قَدِيمًا
مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأَتْ نَسِيمًا

أبو عثمان الخلابي :

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَكْبَرَهَا
تَزِيدُنِي قَسْوَةَ الْأَيَّامِ طِيبَ ثَنَّا
فَمَا أَعَادَ عَلَيَّ أَحَدَانَهَا الصُّغْرَى
كَأَنَّي الْمِسْكَ بَيْنَ الْفِهْرِ وَالْحَجْرِ

السري الرفاء :

تَنَكَّدَ هَذَا الدَّهْرُ فِيمَا يَرُومُهُ
فَسِيرُ الَّذِي نَزَّجُوهُ سِيرٌ مَقِيدٌ
عَلَى أَنَّهُ فِيمَا نَحَازِرُهُ نَذْبٌ (١)
وَسِيرُ الَّذِي نَخْشَى عَوَائِلَهُ وَثْبٌ

ابن الرومي :

أَلَا إِنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِبُ جَمَّةٌ
إِذَا ذَلَّ فِي الدُّنْيَا الْأَعْيَاءُ وَكَتَسَتْ
هُنَاكَ فَلَا جَادَتْ سَمَاءٌ بِضُورِهَا
أَرَى النَّاسَ مَحْشُوقًا بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ
وَمَا الْخَسْفُ أَنْ يُبْلَغَ أَسْفَلُ بَلَدَةٍ
وَأَعْجَبُهَا أَلَّا يَشِيبَ وَوَلِيدُهَا
أَذَلَّتْهَا عِزًّا وَسَادَ مَسُودُهَا
وَلَا أَمْرَعَتْ أَرْضٌ، وَلَا اخْضَرَ عُودُهَا
عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُقَلِّبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا
أَعَالِيهَا؛ أَوْ أَنْ يَسُودَ عَبِيدُهَا

السري الرفاء :

لَنَا مِنَ الدَّهْرِ خَضَمٌ لَا نَطَالِبُهُ
يَرْتَدُّ عَنْهُ جَرِيحًا مَنْ يُسَالِمُهُ
فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ كَفَّتْ نَوَائِبُهُ (٢) !
فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ يَحَارِبُهُ !
عَلَى هَانَ الَّذِي تَجْنِي عَقَارِبُهُ
وَلَوْ أَمِنْتُ الَّذِي تَجْنِي أَرَاقِمُهُ

(١) ديوانه ٣٦

(٢) ديوانه ٥٤ ، وفيه : « خصم لا تقالبه » .

أبو فراس بن حمدان :

تَصَفَّحْتُ أَحْوَالَ الزَّمَانِ وَلَمْ يَكُنْ
أَكَلَ خَلِيلٍ هَكَذَا غَيْرُ مَنْصِفٍ .
وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بِخَيْلٍ !
إِلَى غَيْرِ شَاكٍ لِلزَّمَانِ وَصُولٌ (١)

ابن الرومي :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ
وَيُخْفِضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفٍ
كَثَلِ الْبَحْرِ يَفْرَقُ فِيهِ حَى
وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ
أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ

ابن نباتة :

وَأَصْفَرُّ عَيْبٍ فِي زَمَانِكَ أَنَّهُ
بِهِ الْعِلْمُ جَهْلٌ ، وَالْعَفَافُ فُسُوقٌ
وَكَيفَ يُسَرَّ الْحَرْءُ فِيهِ بِمَطْلَبٍ
وَمَا فِيهِ شَيْءٌ بِالسَّرُورِ حَقِيقٌ !

أبو العناهيمية :

لِتَجَذِبُنِي يَدُ الدُّنْيَا بِقُوَّتِهَا
لِللَّهِ دُنْيَا أَنَسٍ دَائِبِينَ لَهَا
وَحَتْفُهَا لَوْ دَرَّتْ فِي ذَلِكَ السَّمَنِ
إِلَى الْمُنَايَا ، وَإِنْ نَازَعَتْهَا رَسَنِي (٢)

وله أيضا :

أَنَسَاكَ حَمِيَاكَ الْمَانَا
نَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا (٣)

(١) ديوانه ٣١٥ (ونسر سامي الدهان) .

(٢) ديوانه ٢٨٨

(٣) ديوانه ٥٣

وَوَيْقَتَ بِالدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَانَا
وَعَزَمْتَ وَبِكَ عَلَى الْحَيَاةِ وَطُولِهَا عَزْمًا بِنَانَا
يَأْمَنُ رَأَى أَبَوَيْهِ - فِيمَنْ قَدْ رَأَى - كَأَنَّا فَمَانَا
هل فيهما لك عِزَّةٌ أم خِلْتِ أَنْ لَكَ انْفِلَاتَا!
ومن الذي طلب التَّفَلُّتَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَفَاتَا!
كلُّ نَصَبٍ نُصِبَهُ النِّسْبَةَ أَوْ تَبَيْتَهُ بِنَانَا

وله :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كَلَّمَا كَبُرَتْ لَدَيْهِ (١)
تُهِنُ المَكْرَمِينَ لَهَا بِصُغْرِ تُوْكَرُمُ كُلِّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَفْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَهُ وَخُذْ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

وله :

أَلَمْ تَرَ رَبَّ الدَّهْرِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَهُ عَارِضٌ فِيهِ النِّتْيَةُ تَلْمَعُ (٢)
أَيَا بَانِي الدُّنْيَا لِفَيْزِكَ تَبْتَنِي وَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِفَيْزِكَ تَجْمَعُ
أَرَى المرءَ وَثَابًا عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ وَلِلمرءِ يَوْمًا لَا مَحَالَةَ مَضْرَعُ
يُنَازِلُ مَا لَا يَمْلِكُ المَلِكُ غَيْرُهُ مَتَى تَنْقُضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ بِشَبْعُ!
وَأَيُّ امْرِئٍ فِي غَايَةِ لَيْسَ نَفْسُهُ إِلَى غَايَةِ أُخْرَى سَوَاهَا تَطَّلَعُ!

وله :

سَلِ الأَيَّامَ عَنْ أُمَّرٍ تَقْضَتْ سَتُخْبِرُكَ المَعَالِمُ والرُّسُومُ (٣)

(١) ديوانه ٢٨٨

(٢) ديوانه ١٤٤

(٣) ديوانه ٢٤٦

تَرُومُ الْخُلْدَ فِي دَارِ التَّفَانِي وَكَمْ قَدَرَامَ قَبْلِكَ مَا تَرُومُ!
لَأْمُرٍ مَا تَصْرَمَتِ اللَّيَالِي وَأَمْرٍ مَا تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ
تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ الْمَنَائِبُ تَنْبَهُ لِلْمَنِيَةِ يَا تَوْمُ!
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمَضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

حسبنا الله وحده ، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين .

تم الجزء الثالث

وبلغ الجزء الرابع وأورد في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة	
١١-٤	بقية رد المرتضى على ما أورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان
٦٩-١١	ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان والرد عليها
٧٣-٧٠	بيعة جرير بن عبد الله البجليّ لعلّى
٧٤-٣٠	بيعة الأشعث لعلّى
٩١-٧٤	دعوة على معاوية إلى البيعة والطاعة وردد معاوية عليه
١١٥-٩١	أخبار متفرقة
١١٧-١١٥	مفارقة جرير بن عبد الله البجليّ لمعاوية
١١٨-١١٧	نسب جرير وبعض أخباره
١١٩	٤٤ - ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية
١٢٢-١٢٠	نسب بنى ناجية
١٢٦-١٢٢	نسب على بن الجهم وطائفة من أخباره وشعره
١٢٧	نسب مصقلة بن هبيرة
١٢٧	خبر بنى ناجية مع علىّ
١٥١-١٢٨	قصة الحرث بن راشد الناجي وخروجه على علىّ
١٥٢	٤٥ - من خطبة له عليه السلام في الزهد وتعظيم الله وتصغير أمر الدنيا
١٥٤-١٥٣	فصل بلاغىّ في الموازنة والسجع
١٦٤-١٥٤	نبد من كلام الحكاء في مدح القناعة وذم الطمع
١٦٥	٤٦ - من كلام له عليه السلام عن عزمه على المسير إلى الشام
١٦٩-١٦٦	أدعية علىّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية

صفحة	
١٧١-١٦٩	كلام على حين نزل بكر بلاء
١٨٦-١٧١	كلامه لأصحابه وكتبه إلى عماله
١٩٠-١٨٨	كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية وجوابه عليه
١٩٧	٤٧ - من كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة
١٩٩-١٩٨	فصل في ذكر فضل الكوفة
٢٠٠	٤٨ - من خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام
٢٠٢	أخبار على في جيشه وهو في طريقه إلى صفين
٢١٦-	٤٩ - من خطبة له في تمجيد الله سبحانه وتمجيده
٢١٧	فصول في العلم الإلهي :
٢٢١-٢٢١	الفصل الأول وهو الكلام في كونه تعالى علما بالأمور الخفية
٢٢٢-٢٢١	الفصل الثاني في تفسير قوله عليه السلام : « ودلت عليه أعلام الظهور »
٢٢٣-٢٢٢	الفصل الثالث في أن هويته تعالى غير هوية البشر .
٢٣٨-٢٢٣	الفصل الرابع في نفي التشبيه عنه تعالى
٢٣٩-٢٣٨	الفصل الخامس في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه
٢٤٠	٥٠ - من خطبة له عليه السلام يصف وقوع الفتن
٢٤٤	٥١ - من كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفتين ومنعوم من الماء
٢٤٩-٢٤٥	الأشعار الواردة في الإباء والأنف من احتمال الضيم
٣١٢-٢٤٩	أبابة الضيم وأخبره
٣٣١-٣١٢	غلبة معاوية على الماء بصفتين ثم غلبة على عليه بعد ذلك
	٥٢ - من خطبة له في وصف الدنيا .
	ما قبل من الأشعار في ذم الدنيا
-٣٣٥	

اشدراك وتعليق (*)

الجزء الأول

	الصفحة	السطر
في نسختي ١، ب « يحجم بذكرها » ، والصواب « يحجم » كما في نسخة ج ؛ وججم بالكلام : لم يبينه .	٥	٤
الصواب : « والبأو بالذى حدث لك » ، وتحذف الحاشية رقم (٢) ، وبأى بنفسه ؛ فخر بها ، ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « في طلحة بأواء » .	١٨٥	٢٢
الصواب : « صَفَّق » بالتخفيف ، ويقال : صَفَّقَ على يده ، أى بايعه .	١٨٨	١٣
	١٩٦	٩
	٢٩٤	١٥
تكتب العبارة كما وردت في الأصول هكذا : « يا عبد الله ما - تقول - منع قومكم منكم ؟ » ، وكلمة « تقول » هنا بمعنى الظن ، وفي الطبرى ٦ : ٣١ : « أتدرى ما منع قومكم منكم ؟ » .	١٨٩	١٦
ورد « العوام » من أبناء عبد المطلب من هالة بنت وهيب ، وكذا في جميع الأصول ؛ ويرى السيد مكى السيد جاسم أنها ربما كانت محرفة عن « الغيداق » ، وانظر نسب قریش ١٨ .	١٩٣	١٤
الصواب : « طاز بالزوراء » ، وذكر ياقوت أن الزوراء موضع عند سوق المدينة .	١٩٦	١٣

(*) انظر ما سبق في آخر الجزء الثانى .

الصفحة	السطر	
١٩٩	١٧	في جميع الأصول: « وضم إلى ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين » ، ويرى السيد مكي السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذي وجدوه ، موجه إلى عبد الله ابن أبي سرح ، لا إلى معاوية .
٢٥٤	١٠	في ج : « انجزل » ، أى انقسم نصفين .
٢٦٢	٦	« وكان مُجَنَّفَا » ، أى ألبس التَّجَنَّفَافَ ؛ وهو آلة للحرب توضع على الفرس ، وتحذف الحاشية رقم (١) .
٢٩٦	١٣	تحذف كلمة « فقال » ليستقيم الكلام .
٣٠٧	١	خطبة على بالمدينة .
٣٠٧	١٢	١ : « خشيت الصدور » ، وفي ج : « خشنت » ؛ وهو الأوجه ؛ وخشنت ، أى أوغرت ؛ ومنه قوله عنتره : * وخشنتَ صدرأجيبه لك ناصح *
٣٢٢	٢	الصواب : « والله لا يبخبخ بعدها » ، وفي اللسان (٣ : ٤٨٣) : « والله لا بخبخت بعدها » .
٣٢٣	١٠	« عاقبة محمودة الأثر » يجوز النصب والرفع ، والنصب أفصح .
٣٢٧	١٢	« وإن قيل قاطع » ، يجوز فتح الهمزة وكسرها ؛ انظر التبريزي
		٣٨٠ : ١
٣٢٩	١١	صواب كتابة النص كما في ج : وقال بعض المحدثين : مَنْ اشْتَرَى بِمَالِهِ حُسْنَ الثَّنَا مَا غُنِبْنَا أَفْقَرَهُ سَمَاحُهُ وَذَلِكَ الْفَقْرُ الْغَنَى

السطر	الصفحة
١٢،١١ رواية الديوان للبيت الأول « شامية تزوى » ، أى تقبض .	٣٣٠
وللبيت الثانى : « تذاب منها » ، ويقال : تذابت الريح ، إذا جاءت من هنا ومن هنا .	

الجزء الثانى

١ الأفصح : « مُزَمَّل » ، وازمَل الرجل بثوبه ، أى تلفف .	٢٤
١٤ صواب كتابة البيت :	٣٧
ولسكنَ أمراً كان أبرم بينهم وإن قال قومٌ فلتةٌ غير مُبرم	
٧ « لخيرٌ له » لغة رديئة ، والأفصح : « خير له » .	٤٦
٤ الصواب : « فتربض به معاوية » ، والتربض : القعود عن النصره .	١٥١
١١ صواب العبارة كما فى ج : « ولم تُقدِ من نفسك من ظلمته » ،	١٥٣

تصويبات مطبعية (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٢٤	١١	أحمد بن يحيى بن جابر	١٧٩	٧	تقيده
٤٣	١	بشرح	١٧٩	١٨	الأعيسر
٥٤	٩	انضعوا الرحم	١٨٣	٦	سليمان بن عبد الملك
١٠٤	٨٤٧	بالتولد	١٨٣	١٥	لَعَمَهَا
١٢٠	١٧	الراوندى	١٨٦	٣	يفنيه .
١٤١	١	وأهله	١٩١	٣	غالب أمره
١٤١	٣	ونصرة الله	١٩١	١٢	فأرضوه
١٤٣	٤	لمعاربة	١٩١	١٩	فيوتئها
١٤٦	١٥	لَجَلَج	١٩٢	١١	لا تُرْعُ
١٤٧	١٥	رسول الإمام	١٩٣	١٤	مِسْوَر
٢٤٩	٢	رئيس اليمانية	٢٣٠	٧	كان الزبير
١٤٩	١٤	نَزْرُكٌ بِمِحْفَل	٢٣٣	١٥	ضجيجها
١٦٨	٥	لَيْلَهُ	٢٣٤	٩	مُحْرَج
١٧٠	٣	ظَلُومٌ	٢٣٤	١٣	بعضُ
١٧٤	٦	وَوَقَمٌ	٢٤٩	٩	من بنى جُحج
١٧٥	١٦	ومعتلقاً	٢٥٠	٦	عُرُوض
			٢٥٠	٩	أَغْلَقَتْ

الصواب	سطر	صفحة	الصواب	سطر	صفحة
إلّا شهادة	١١	٣١٦	فأقرعوا	١٠	٢٥٠
الأحنف بن قيس	١٠	٣٢٠	حان	٥	٢٥٤
أنك	٥	٣٢٧	الصبيّ	٩	٢٥٦
ماقاته	١٥	٣٢٩	خطام } ١٥٤٩		
شَقَع ، بالتخفيف	١٧	٣٣٥		١٦	٢٥٦
لا يقام	٩	٣٣٨	فرّق	١٤	٢٥٧
بأخسّ	١٢	٣٣٩	وعظّمهم	٩	٢٥٨
فرسان	٣	٣٤٢	يخصّ	١٠	٢٩٧
أمره أن يقبل	٣	٣٤٦	مجيء من يخلقون	١٤	٣٠٢
المستريح	١٠	٣٤٦	بقيهم	٤	٣٠٦
ملا تعملون	١٢	٣٤٦			

الجزء الثاني

الصفحة	السطر	المصواب	الصفحة	السطر	المصواب
٣	٥	بسر بن أرطاة	٣٩	١٤	ثم حُجِل
٥	١	خرجتُ	٤١	٥	أيقنت
٦	١	لا هتبتُها	٤٤	١١	فَصِيل
٨	١٢	أَضَعْتُ	٥١	١٩	«المقداد بن الأسود»
١٣	٥	فخرج ابنا عبيدالله	٥٨	١	فشكا
١٣	١٤	نُبْتُ	٦٠	٧	سألوه البيعة
١٣	١٤	صبيين	٦١	١٢	ووثقوا له
١٥	١٠	الأجرى	٦٣	٥	ياوردان
١٥	٢١، ١١	البكى	٦٣	١٦	أما على
١٦	١٢	أغذ السير	٦٥	٦	عمر بن سعد
٢٠	١٥	وأغضيت	٦٦	٣	أخذت بها
٢٦	٤	منسوق	٦٧	٤	لم يُحز
٣٢	٣	وأن تشر كنا	٦٧	٥	لم يُحز
٣٤	٣	ما ذكر لي	٦٧	٧	يُنْتَهز
٣٤	٧	أن يثبت	٩٠	١٠	نُعْظِم
٣٤	١٨	وقوعها	٩٥	١٧	مُورَق
٣٥	١١	يُخْرَجُ	١٢١	٩	بغرُبي
٣٦	١٧	في الخبر	١٢١	١٦	عبد الرحمن بن عبيد
٣٧	١٢	واعلم أن			

الصواب	سطر	صفحة	الصواب	سطر	صفحة
فَلَمْ يَبَالِ	١	١٥٣	المُحَدِّثِينَا	٢	١٢٨
فَوَكَّلَ (بالتخفيف)	٢	١٥٣	وَرَفَعِ	٣	١٢٨
أَمَّا إِنَّكُمْ	٤	١٤٣	لَا أُضَيِّقُ	٣	١٣٩
وإن كنت تريد	٧	١٥٦	فتلعب	٥	١٤٧
وَنَدَّعَكَ	١١	١٥٦	بذى رأى	٨	١٤٧



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

دار الحياة الكنائس العربية
بيبي الباني اجليني ويشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

رُوجع هذا الجزء على النسخ الآتية :

- ١ - نسخة شرح ابن أبي الحديد ، المصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة المتحف البريطاني برقم ١٢٦ (المجموعة الأولى) ، وهي التي رمز لها بالحرف (ا) .
 - ٢ - نسخة شرح ابن أبي الحديد المطبوعة في طهران سنة ١٢٧١ هـ وهي التي رمز لها بالحرف (ب) .
 - ٣ - نسخة نهج البلاغة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٤٨٤٠ - أدب ، وهي التي رمز لها بـ « مخطوطة النهج » .
 - ٤ - نسخة شرح ابن أبي الحديد ، المصورة عن النسخة الخطية بمكتبة الظاهرية ، والمحفوظة برقم (٧٩٠٤ - عام) ، والتي رمز لها بالحرف (ج) .
- وقد وُصفت النسخ الثلاث الأولى في مقدمة الجزء الأول ووصفت النسخة الرابعة في مقدمة الجزء الثاني .

والله وليّ التوفيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

{ ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٩
٣٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ }

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

المجلد الرابع

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم .

ومنها ^(١) في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية :

وَمِنْ تَمَامِ الْأَضْحِيَّةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامَةٌ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ
سَلِمَتِ الْأَضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجْرُ رِجْلَهَا إِلَى الْمَنَسِكِ .

قال الرضى رحمه الله :

والمَنَسِكُ هاهنا : المَذْبُحُ .

البَشْرُحُ :

الأضحية : ما يذبح يوم النحر ، وما يجرى مجراه أيام التشريق من النعم . واستشراف
أذنها : انتصابها وارتفاعها ، أذن شرفاء أى منتصبه .

والعضباء : المكسورة القرن ، والتي تجرّ رجلها إلى المنسك كناية عن العرجاء ،
ويجوز المنسك ، بفتح السين وكسرها .

[اختلاف الفقهاء في حكم الأضحية]

وختلف الفقهاء في وجوب الأضحية، فقال أبو حنيفة : هي واجبة على المقيمين من أهل

(١) تمة الخطبة الثانية والحمدين ؛ الجزء السابق ص ٣٣٣ .

الأمصار ، ويعتبر في وجوبها النصاب ، وبه قال مالك والثوري ؛ إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة .

وقال الشافعي : الأضحية سنة مؤكدة ، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد .

واختلفوا في العمياء ؛ هل تجزئ أم لا ، فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك ؛ لأنه قال : إذا سلمت العين سلمت الأضحية ، فيقتضى أنه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحية . ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها .

وحكى عن بعض أهل الظاهر أنه قال : تجزئ العمياء .

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضى الله تعالى عنه ، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف ” بالمفنة “ : إن الصادق عليه السلام سُئِلَ عن الرجل يهدى الهدى أو الأضحية وهي سمينة ، فيصيبها مرض ، أو تفتأ عينها أو تنكسر ، فتبلغ يوم النحر وهي حية : أن تجزئ عنه ؟ فقال : نعم .

فأما الأذن ، فقال أحمد : لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى ذلك . وقال سائر الفقهاء : تجزئ ، إلا أنه مكروه .

وأما العضباء ، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ ، إلا أنه مكروه ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى ذلك ، وكذلك الحكم في الجِلْحَاء ؛ وهي التي لم يخلق لها قرن ، والقَصَاء ، وهي التي انكسر غلاف قرنها ، والشرقاء : وهي التي انثقب أذنهما من الكلى ، والخرقاء ، وهي التي شقت أذنهما طولا .

وقال مالك : إن كانت العضباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ .

وقال أحمد والنخعي : لا تجوز التضحية بالعضباء .

فأما العرجاء التي كنى عنها بقوله: « تجرّ رجلها إلى المنسك » ؛ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزى ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى أنها تجزى . وقد نقل أصحاب الشافعى عنه فى أحد قوليّه : أن الأضحية إذا كانت مريضه مرضا يسيرا أجزاء .

وقال الماوردى من الشافعية فى كتابه المعروف بـ « الحاوى » : إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلقةً أجزاء ، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزى .



ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة:

الأضل :

فَتَدَاكَ عَلَى تَدَاكَ الْإِبِلِ الِهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا ، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا ، وَخُلِعَتْ
مَثَانِيهَا ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِي ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ . وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ
بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ ، فَمَا وَجَدْتَنِي يَسْعُنِي إِلَّا قِتَالَهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ
بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ فَكَانَتْ مُعَاجِلَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَاجِلَةِ الْعِقَابِ ،
وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ .

الشنخ :

تدَاكُوا : ازدحموا . والهِيم : العطاش . ويوم وِرْدِهَا : يوم شربها الماء . والمثاني :
الحبال ، جمع مِثْنَةٌ ومِثْنَةٌ ، بالفتح والكسر ، وهو الحبل .

وجهاد البُغَاة واجب على الإمام ، إذا وجد أنصارا ، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب ،
واستحق العقاب .

فإن قيل : إنه عليه السلام قال : « لم يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى
الله عليه وآله » ؛ فكيف يكون تارك الواجب جاحداً لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله ؟
قيل : إنه في حكم الجاحد ؛ لأنه مخالف وعاصٍ ؛ لاسيما على مذهبنا في أن تارك
الواجب يخلد في النار وإن لم يمحذ النبوة .

[بيعة عليّ وأمر المتخلفين عنها]

اختلف الناس في بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، فالذى عليه أكثر الناس وجهورُ
أر باب السّير أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعين غير مكرهين ، ثم تغيرت عزائمهما ، وفسدت
نياتهما ، وغدرا به .

وقال الزبيريون ، منهم عبد الله بن مصعب ، والزبير بن بكار وشيعتهم ، ومن وافق
قولهم من بنى تيم بن مرة ، أر باب العصبية لطلحة : إنهما بايعا مكرهين ، وإن الزبير كان
يقول : بايعتُ واللّج على قفّي ، واللّج سيف الأشر ، وقفّي لغة هذليّة ؛ إذا أضافوا المقصور
إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء ، وأدغموا إحدى الياءين في الأخرى ؛ فيقولون : قد وافق ذلك
هوى ، أى هوى ، وهذه عصى ، أى عصا .

وذكر صاحبُ كتاب "الأوائل" ، أنّ الأشر جاء إلى عليّ عليه السلام حين قتل عثمان ،
فقال : قم فبايع الناس ، فقد اجتمعوا لك ، ورغبوا فيك ؛ والله لئن نكّلت عنها لتعصرن
عليها عينيك مرة رابعة ، فجاء حتى دخل بئر سكن ، واجتمع الناس ، وحضر طلحة والزبير ،
لا يشكّان أنّ الأمر شورى ، فقال الأشر : أنتظرون أحداً ! قم باطلحة فبايع ، فتعاس ،
فقال : قم يا بن الصّعبة - وسلّ سيفه - فقام طلحة يجرّ رجله ؛ حتى بايع ، فقال قائل : أول
من بايعه أشلّ ، لا يتم أمره ، ثم لا يتم ، قال : قم يا زبير ، والله لا ينازع أحد إلا وضربت
قرطه بهذا السيف ، فقام الزبير فبايع ؛ ثم انثال الناس عليه فبايعوا .

وقيل : أول من بايعه الأشر ، ألقى خيصة كانت عليه ، واختط سيفه ، وجذب يد
عليّ عليه السلام فبايعه : وقال للزبير وطلحة : قوما فبايعا ؛ وإلا كنتما الليلة عند عثمان ، فقاما
يعثران في ثيابهما ، لا يرجوان نجاة ، حتى صفا بأيديهما على يده ، ثم قام بعدها البصريون ؛

وأولهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، فبايعوا . وقال له عبد الرحمن :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَاعْلَمَنَّ أبا حَسَنٍ أَنَا نَمِرَ الأَمْرِ إِمْرَارَ الرَّسَنِ

وقد ذكرنا نحن في شرح الفصل^(١) الذي فيه أن الزبير أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليعة :

أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة ، أولهم طلحة والزبير ، وذكرنا في ذلك ما يبطل رواية الزبير .

وذكر أبو مخنف في كتاب " الجمل " ، أن الأنصار والمهاجرين اجتمعوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليعظروا من يولونه أمرهم ، حتى غصّ المسجد بأهله ، فاتفق رأى عمار وأبي الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيوب خالد بن يزيد ، على إبعاد أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة ، وكان أشدهم تهالكا عليه عمار ، فقال لهم : أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه ، وأتم على شرف من الوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإنّ عليا أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته ، فقالوا : رضينا به حينئذ ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين : أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيرا وأنفسنا إن شاء الله ، وإنّ عليا من قد علمتم ، وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر منه ، ولا أولى به . فقال الناس بأجمعهم : قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل ، وقاموا كلهم ، فأتوا عليا عليه السلام ، فاستخرجوه من داره ، وسألوه بسط يده ، فقبضها فتداكوا عليه تدالك الإبل الهميم على وزدها ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا ؛ فلما رأى منهم مارأى ، سألم أن تكون بيغته في المسجد ظاهرة للناس . وقال : إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر .

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد ، فسكان أول من بايعه طلحة . فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدي : تخوفت ألا يتم له أمره ، لأن أول يد بايعته شلاء ، ثم بايعه الزبير ،

(١) الجزء الأول ص ٢٣٠ ، الوليعة : الأمر يسر ويحكم .

و بايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وسعد ابن أبي وقاص ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام .

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر ، فقال له : يا بايع ، قال : لا أبايع حتى يبايع جميع الناس ، فقال له على عليه السلام : فأعطني حِمِيلاً ألا تبرح ، قال : ولا أعطيك حِمِيلاً ، فقال الأشر : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا قد أسن سوطك وسيفك ، فدغى أضرب عنقه ، فقال : لست أريد ذلك منه على كُرّه ، خلّوا سيده ، فلما انصرف قال أمير المؤمنين : لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق ، وهو في كِبَره أسوأ خلقاً .

ثم أتى بسعد بن أبي وقاص ، فقال له بايع ، فقال : يا أبا الحسن ختني ، فإذا لم يبق غيري بايعتكم ، فوالله لا يأتيتك من قبلي أمر تكرهه أبداً ، فقال : صدق ، خلّوا سيده .

ثم بعث إلى محمد بن مسلمة ، فلما أتاه قال له : يا بايع ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني إذا اختلف الناس وصاروا هكذا - وشبك بين أصابعه - أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد فإذا تقطع أتيت منزلي ، فكنت فيه لا أبرح حتى تأتيني يد خاطية ، أو منية قاضية . فقال له عليه السلام : فانطلق إذا ، فكن كما أمرت به .

ثم بعث إلى أسامة بن زيد ، فلما جاء قال له : يا بايع ، فقال : إني مولاك ولا خلاف مني عليك ، وستأتيتك بيعتي إذا سكن الناس . فأمره بالانصراف ، ولم يبعث إلى أحد غيره .

وقيل له : ألا تبعث إلى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن سلام ! فقال : لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا .

فأما أصحابنا فإنهم يذكرون في كتبهم أن هؤلاء الزهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به

لما نذبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل ، وأنهم لم يتخلفوا عن البيعة ، وإنما تخلفوا عن الحرب .

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب ” الغرر “ أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار ، قال لهم : ما كل مفتون يعاتب ، أعندكم شك في بيعتي ؟ قالوا : لا ، قال : فإذا بايعتم فقد قاتلتم . وأعفاهم من حضور الحرب .

فإن قيل : رويتم أنه قال : إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر ، ثم رويتم أن جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم .

قيل : إنما مراده عليه السلام أنه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضت يدي عن الأمر ولم أدخل فيه ، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة ، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه ؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة ، وإذا ثبتت لم يجوز له تركها .

وروى أبو مخنف عن ابن عباس ، قال : لما دخل عليّ عليه السلام المسجد ، وجاء الناس ليبايعوه خفت أن يتكلم بعض أهل الشنآن لعليّ عليه السلام ممن قتل أباه وأخاه ، أو ذا قرابته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيزهده عليّ في الأمر ويتركه ، فكنيت أرصد ذلك وأتخوفه ، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غير مكرهين .

لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتخلف عبد الله بن عمر ، وكلمه علي عليه السلام في البيعة فامتنع عليه ، أتاه في اليوم الثاني ، فقال : إني لك ناصح ، إن بيعتك لم يرض بها كلهم ، فلو نظرت لدينك ورددت الأمر شورى بين المسلمين ! فقال علي عليه السلام : ويحك ! وهل ما كان عن طلب مني له ! ألم يبلغك صديهمهم ؟ قم عني يا أحمق ، ما أنت وهذا الكلام !

فلما خرج أنى عليا فى اليوم الثالث آتٍ ، فقال : إن ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك ، فأمر بالبعث فى أثره ، فجاءت أم كلثوم ابنته ، فسألته وضربت إليه فيه ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما خرج إلى مكة ليقم بها ، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن ، وطلبت إليه أن يقبل شفاعتها فى أمره ؛ لأنه ابنُ بعلها . فأجابها وكفَّ عن البعثة إليه ، وقال : دعوه وما أرادوه .



ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إزته لهم في القتال بصفين :

الأصل :

أَمَا قَوْلُكُمْ: أَكُلُّ ذَٰلِكَ كِرَاهِيَةَ الْمَوْتِ! فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي؛ دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ
أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَا قَوْلُكُمْ: شَكَا فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ
يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَمْتَدِي بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وَذَٰلِكَ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبْؤُهُ بِأَثْمِهَا.

الشَّرْحُ :

من رواه : « أَكُلُّ ذَٰلِكَ » بالنصب فمفعول فعل مقدر ، أى تفعل كل ذلك ، وكراهية منصوب لأنه مفعول له . ومن رواه « أَكُلُّ ذَٰلِكَ » بالرفع أجاز في « كراهية » الرفع والنصب ، أما الرفع فإنه يجعل « كل » مبتدأ ، وكراهية خبره ؛ وأما النصب فيجعلها مفعولاً له كما قلنا في الرواية الأولى ، ويجعل خبر المبتدأ محذوفاً ، تقديره : أكل هذا مفعول ! أو تفعله كراهية للموت ! ثم أقسم أنه لا يبالي أتعرض هو للموت حتى يموت أم جاء الموت ابتداء من غير أن يتعرض له .

وعشا إلى النار يَعْشُو : استدلّ عليها ببصر ضعيف ، قال :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو . إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مُوقِدٍ (١)

وهذا الكلام استعارة ، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشوا ليلاً إلى النار ؛ وذلك لأن بصائرَ أهل الشام ضعيفة ؛ فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشوا ببصرٍ ضعيف إلى النار في الليل ، قال : ذاك أحبّ إليّ من أن أقتلهم على ضلالهم ، وإن كنتُ لو قتلهم على هذه الحالة لباءوا بآثامهم ، أي رجعوا ، قال سبحانه : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ ^(١) أي ترجع .

[من أخبار يوم صفين]

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة ، رجاء أن يعطفوا إليه ، واستماله قلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السيرة فيهم ، مكث أياماً لا يرسل إلى معاوية ، ولا يأتيه من عند معاوية أحدٌ ، واستبطن أهل العراق إذنه لهم في القتال ، وقالوا : يا أمير المؤمنين خلّفنا ذراريّنا ونساءنا بالكوفة ، وجئنا إلى أطراف الشام لنتخذها وطننا ، ائذن لنا في القتال ، فإنّ الناس قد قالوا . قال لهم عليه السلام : ما قالوا؟ فقال منهم قائل : إنّ الناس يظنون أنّك تكره الحرب كراهيةً للموت ، وإن من الناس من يظن أنّك في شكٍ من قتال أهل الشام . فقال عليه السلام : ومتى كنت كارها للحرب قطّاً ! إنّ من العجب حُبّي لها غلاماً ويَقَعَا ، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاذ العمر وقرب الوقت . وأما شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة ، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وِبِئْسَ ، فما وجدت يسعني إلا القتال أو أن أعصى الله ورسوله ، ولسكني أستأني بالقوم ، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة ، فإن

رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوم خيبر : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس .

قال نصر بن مزاحم : حدثنا^(١) محمد بن عبيد الله عن الجرجاني ، قال : فبعث عليّ عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مخصن الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمدانيّ وشبث ابن الربيع التيميّ ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه [إلى الله عز وجلّ ، و]^(٢) إلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله سبحانه . فقال له شبث : يا أمير المؤمنين ، ألا تطعمه في سلطان توليه إياه ، ومنزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايعك ؟ فقال : ائتوه الآن والقوه واحتجوا عليه ، وانظروا مارأيه في هذا^(٣) .

فأتوه فدخلوا عليه ، فحمد أبو عمرو بن مخصن الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد يا معاوية فإن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله مجازيك بعملك ومحاسبك بما قدّمت يداك ، وإنتى أنشدك الله ألا تفرّق جماعة هذه الأمة ، وألا تسفك دماءها بينها . فقطع معاوية عليه السلام وقال : فهلاً أوصيت صاحبك ! فقال : سبحان الله ! إن صاحبي لا يوصي ، إن صاحبي ليس مثلك ، صاحبي أحقّ الناس بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقراية من الرسول ! قال معاوية : فتقول ماذا ؟ قال : أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دينك ، وخير لك في عاقبة أمرك . قال : ويطلّ دم عثمان ! لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً .

(١) صفح ٢٠٩

(٢) تكملة من صفح .

(٣) صفح : « وانظروا مارأيه - وهذا في شهر ربيع الآخر - فأتوه » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلم ، فبدره شَبَث بن الرَبِيعِ ، فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
يامعاوية ، قد فهمتُ ما رَدَدْتَ على ابنِ مَحْصَن ؛ إنه لا يخفى علينا ما تقرّ وما تطلب ،
إنك لا تجدُ شيئاً تستغوي به الناس ، ولا شيئاً تستميل به أهواءهم ؛ وتستخلص به طاعتهم
إلا أن قلتَ لهم : قُتِل إمامكم مظلوما ، فهلُّوا نطلب بدمه ؛ فاستجاب لك سفهاء طَعام
رُذَال ، وقد علمنا أنك أبطأتَ عنه بالنصر ، وأحببتَ له القتل ؛ لهذه المنزلة التي تطلب ؛
وربّ مبتغٍ أمراً ، وطالبٍ ^(١) له يحولُ الله دونه ، وربّما أوتى الممتنى أمنيته ، وربّما لم يُؤتها ،
ووالله مآلكَ في واحدةٍ منهما خير ؛ والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشرُّ العرب حالا ، ولئن
أصبت ما تمناه لا تصيبه حتى تستحقَّ صَلى النار ؛ فاتق الله يامعاوية ، ودع ما أنتَ عليه ،
ولا تنازع الأمر أهله .

فحَمِد معاوية الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعد ؛ فإن أولَ ما عرفتُ به سفهك وخفة حِلْمك قطعك على هذا الحسيب
الشرِيف سيِّد قومه منطقه . ثم عتبتَ بعدُ فيما لا علم لك به ، ولقد كذبتَ وأؤمت ^(٢)
أيها الأعرابي الجلف الجاني في كلِّ ما وصفت [وذكرت] ^(٣) . انصرفوا من عندي ؛
فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف .

وغضب . فخرج القوم وشَبَث يقول : أعلينا تهوّل بالسيف ! أما والله لنعجلنّه إليك ،
[فأتوا عليا عليه السلام ، فأخبروه بالذي كان من قوله ، وذلك في شهر ربيع الآخر] ^(٣)
قال نصر : وخرَج قراء أهلِ العِراق ، وقراء أهل الشام فمسكروا ناحية صِفين في
ثلاثين ألفا .

(١) صفين : « وطالبه » .

(٢) صفين : « ولوبيت » .

(٣) تكملة من صفين .

قال : وعسكر على عليه السلام على الماء ، وعسكر معاوية فوقه على الماء أيضا ، ومشت القُرَاء فيما بين على عليه السلام ومعاوية ، منهم عبيدة السلماني ، وعلقمة بن قيس النَّخَعِيّ ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد القيس - وقد كان في بقض تلك السواحل - فانصرف إلى عسكر على عليه السلام؛ فدخلوا على معاوية فقالوا : يا معاوية، ما الذي تطلب؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قالوا : بمن تطلب بدم عثمان؟ قال : أطلبه من على ، قالوا : وعلى قتله؟ قال : نعم هو قتله ، وآوى قتلته ، فانصرفوا من عنده فدخلوا على على عليه السلام ، فقالوا : إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان ، قال : اللهم لكذب فيما قال . لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنه إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً ، فرجعوا إلى على فقالوا : إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك ، فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان ، فقال : اللهم لكذب فيما قال ، فرجعوا إلى معاوية ، فقالوا : إن عليا يزعم أنه لم يفعل ، فقال معاوية : إن كان صادقا فليُقدنا ^(١) من قتله عثمان ، فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعَضُدِهِ . فرجعوا إلى على عليه السلام ، فقالوا . إن معاوية يقول لك : إن كنت صادقا فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكنا منهم ، فقال لهم . إن القوم تأولوا عليه القرآن ، ووقعت الفرقة ، فقتلوه في سلطانه ، وليس على ضربهم قود ؛ فخصم ^(٢) على معاوية .

قلت : على ضربهم هاهنا على مثلهم : يقال : زيدٌ ضرب عمرو ، ومن ضرب به أذى مثله ومن صنفه ، ولا أدري لم عدل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام؛ وهو أن يقول : إن الذين باشروا قتله بأيديهم ؛ كانوا اثنين وهما قتيبة بن وهب وسُودان ابن حُمران ، وكلاهما قُتل يوم الدار، قتلهما عبيد عثمان ، والباقون الذين هم جندي وعَضُدِي

(١) صفتين : فليُكنا .

(٢) خصمه ، أي غلبه بالحجة .

كما تزعمون ، لم يقتلوا بأيديهم ؛ وإنما أغرؤا به ، وحصروه وأجلبوا عليه ، وهجموا على داره ، كمحمد بن أبي بكر والأشتر وعمرو بن الحمق وغيرهم ؛ وليس على مثل هؤلاء قود . قال نصر : فقال لهم معاوية إن كان الأمر كما تزعمون ؛ فلم ابتز الأمر^(١) دوننا على غير مشورة منا ولا من هاهنا معنا ؟ فقال على عليه السلام : إن الناس تبع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولاتهم وأمرائ دينهم ، فرضوا بي وبايعوني ، ولست أستحل أن أدع ضرب^(٢) معاوية يحكم بيده على الأمة ويركبهم ويشق عصام . فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك ، فقال : ليس كما يقول ، فما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤامروا فيه^(٣) .

فانصرفوا إلى على عليه السلام ، فأخبروه بقوله ، فقال : وَيَحْكُم ! هذا للبدرين دون الصحابة ، ليس في الأرض بدري إلا وقد بايعني وهو معي ، أو قد قام ورضى ، فلا يفرتكم معاوية من أنفسكم ودينكم .

قال نصر : فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر : ربيع الآخر ، وجماديين ؛ وهم مع ذلك يفرعون الفرعة فيما بينهما ، فيزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القراء بينهم . قال : فزعوا في ثلاثة أشهر خمسا وثمانين فرعة ؛ كل فرعة يزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال .

قال نصر : وخرج أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء ، فدخلوا على معاوية وكانا معه ، فقالا : يا معاوية ، علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لو أقدم منك إسلاما^(٤) ، وأحق بهذا

(١) صفين : « فإله ابتز الأمر دوننا ؟ »

(٢) ضرب معاوية : شبيهه .

(٣) المؤامرة : المشاورة ، وفي صفين : « فيؤامروه » .

(٤) صفين : « سلما » ، وهما بمعنى .

الأمر ؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعلام تقاتله ! فقال : أقاتله على دَمِ
عُثْمَانَ ، وأنه آوى قَتْلته ، فقولوا له : فَلْيَقِدْنَا مِنْ قَتْلته وأنا أول من بايعه من أهل الشام .

فانطلقوا إلى علي عليه السلام فأخبروه بقول معاوية ، فقال : إنما يطلب الذين تَرَوْنَ ،
فخرج عشرون ألفاً أو أكثر متسربلين الحديد ؛ لا يرى منهم إلا الحدق ، فقالوا : كُنَّا
قتله ؛ فإن شاءوا فَلْيَرُومُوا ذلك منا . فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال .

قال نصر : حتى إذا كان رجب ، وخَشِيَ معاوية أن يتابع القراء علياً عليه السلام ،
أخذ في المسكر ، وأخذ يَحْتَال للقراء لكيما يُجْجَمُوا ويكفوا حتى ينظروا .

قال : فكتب في سهم : من عبد الله الناصح ؛ إني أخبركم أن معاوية يريد أن يُفَجِّرَ
عليكم القراء فيغريكم ، فخذوا حذرکم . ثم رمى بالسهم في عسكر علي عليه السلام ، فوقع
السهم في يد رجل ، فقراه ثم أقرأه صاحبه ، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه من أقبل وأدبر ،
قولوا : هذا أخ لنا ناصح ؛ كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية ؛ فلم يزل السهم يُقرأ ويرتفع
حتى رُفِعَ إلى علي عليه السلام ؛ وقد بعث معاوية مائتي رجل من العملة إلى عاقول^(١) من
النهر ، بأيديهم المرور والزبل^(٢) يحفرون فيها بحيال عسكر علي عليه السلام . فقال علي عليه
السلام : ويحكم ! إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له ، ولا يقوى عليه ؛ إنما يريد أن يُزِيلَكم
عن مكانكم ؛ فاتموا عن ذلك ، فقالوا له : لاندعهم والله يحفرون ، فقال علي عليه السلام :
لا تكونوا ضَعْفَى ، ويحكم ! لاتعابوني على رأيي . فقالوا : والله لنترحلن ، فإن شئت فارتحل ،
وإن شئت فأقم ؛ فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم مايا ، وارتحل علي عليه السلام في آخريات
الناس ، وهو يقول :

(١) عاقول النهر : ماعوج منه .

(٢) المرور : جمع مر ؛ وهو المعاءة . والزبل : جمع زبيل وهو القفة .

فَلَوْ أَنِّي أَطِغْتُ عَصَمْتُ قَوْمِي إِلَى رُكْنِ الْيَمَامَةِ أَوْ شَمَامٍ (١)
وَلَكِنِّي مَتَى أَبْرَمْتُ أَمْرًا مُنِيتُ بِمُخْلِفِ آرَاءِ الطَّعَامِ

قال : وارتحل معاوية حتى نزل معسكر عليّ عليه السلام الذي كان فيه ، فدعا عليّ عليه السلام الأشتر ، فقال : ألم تغلبنى على رأيي (٢) أنت والأشعث ! فدونكبا . فقال الأشعث : أنا أكفيك يا أمير المؤمنين ، سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك ، فجمع كندة فقال لهم : يا معشر كندة ، لا تفضحوني اليوم ولا تحزوني ؛ فإنني إنميا أقارع بكم أهل الشام ، فخرجوا معه رجاله يمشون ، وييده رمح له يلقيه على الأرض ، ويقول : امشوا قيد رمحي هذا ، فيمشون ، فلم يزل يقيس لهم الأرض برمحه ، ويمشون معه رجاله حتى لقي معاوية وسط بني سليم واقفا على الماء ، وقد جاءه أداني عسكره ، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء ساعة ، وانهى أوائل أهل العراق فنزلوا ، وأقبل الأشتر في خيل من أهل العراق ، فحمل على معاوية ، والأشعث يحارب في ناحية أخرى ؛ فانهز معاوية في بني سليم ، فردّ وجوه إبله قدر ثلاث فراسخ ، ثم نزل ووضع أهل الشام أثقلم ، والأشعث يهدر ويقول : أرضيتك يا أمير المؤمنين ! ثم تمثل بقول طرفة بن العبد :

فِذَا لَبِنِي سَعْدٌ عَلَى مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ (٣)
مَا أَقَلَّتْ قَدَمَايَ مِنْهُمْ نَعِيمَ السَّاعُونَ فِي الْحَيِّ الشُّطْرِ (٤)
وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَيْكُمْ عَاتِبًا فَعَقَبْتُمْ بِذُنُوبِ غَيْرِ مُرٍّ (٥)

(١) صفتين : « عصمت قومي » . وشمام : جبل لباهلة .

(٢) صفتين : « على رأيي » ، والرأي والرأي بمعنى .

(٣) ديوانه ٧٢ وروايته : « لبني قيس . . . من سر وضر »

(٤) الشطر : جمع شطير ؛ وهو الغريب البعيد

(٥) عاتبا : واجدا ، وعقبتم ، أي جدم عقب ذلك . ومر : تقيض حلو ؛ قال شارح الديوان : « أي

عقبتم عتي عليكم بمطاه حلو » .

كنت فيكم كالمغطى رأسه فانجلى اليوم قناعي ومُخِرٌ (١)
سادرًا أحسب غيَّ رَشَدًا فتناهيتُ وقد صابت بِقُرٍّ (٢)

وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين ؛ قد غلب الله لك على الماء ، فقال على عليه السلام : أتما

كما قال الشاعر :

تلاقينَ قيسًا وأشياعهُ فيؤدُّ للحرِّبِ نارًا فنارًا
أخو الحرب إن لقيتْ بازِلًا سَمًّا للعلا وأجل الخطارا (٣)

قال نصر: فكان كل واحدٍ من عليٍّ ومعاوية يُخرج الرجلَ الشريفَ في جماعة ،

فيقاتل مثله ؛ وكانوا يكرهون أن يتزاحفوا بجميع الفيلق مخافة الاستئصال والملاك ، فاقتل

الناسُ ذَا الحجة كلّه ، فلما انقضى تداعوا إلى أن يكفَّ بعضهم عن بعض ، إلى أن

ينقضى الحرم ؛ لئلا الله أن يُجرى صلحا أو إجماعا ، فكفَّ الناس في الحرم بعضهم

عن بعض .

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد ، عن أبي الجاهد عن المحلِّ بن خليفة ، قال (٤) : لما

توادعوا في الحرم ، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصلح ، فأرسل عليٌّ عليه

السلام إلى معاوية عدى بن حاتم الطائي وشبث بن ربعي التميمي ويزيد بن قيس وزياد

ابن خصفة ، فلما دخلوا عليه ؛ حمد الله تعالى عدى بن حاتم الطائي وأثنى عليه ،

ثم قال :

أما بعد ، فإننا أتيناك لندعوك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمتنا ، ويحمن به دماء

(١) المغطى : اسم فاعل من التغطية وانجلى : انكشف . ومخِر : جمع خار .

(٢) السادر : الذى لا بهم ولا يبالي ما صنع . وتناهيت ، أى انتهيت من سفهي

(٣) العير البازل : الذى طعن في الناسه ، والمخار : المخاطرة .

(٤) صفين ٢٢١ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٢

المسلمين . ندعوك إلى أفضل الناس سابقه ، وأحسنهم في الإسلام آثارا ؛ وقد اجتمع إليه ^(١) الناس ، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا وأتوا ، فلم يبق أحدٌ غيرك وغير من معك ؛ فانت يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنك إنما جئت مُهدّدا ، ولم تأت مصلحا ، هيهات يا عدوي ! إني لابن حرب ! ما يُقَعِّمُ لي بالشَّنان ^(٢) أما والله إنك من المجلبين على عثمان ، وإنك لَمِن قتلته ؛ وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله .

فقال له شَبَّ بن رِبِيعي ، وزِياد بن خَصَفَة ، وتنازعا كلاما واحدا : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال ؛ دع ما لا ينفعُ من القول والفعل ؛ وأجِبنا فيما يعمنا وإياك نفعه .

وتكلّم يزيد بن قيس الأرحبيّ ، فقال : إنا لم نأتِكَ إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ، ولِنؤدّيَ عنك ما سمعنا منك ؛ ولم ندعُ أن ننصح لك : وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجّة ، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرَفْت وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفي عليك ؛ إن أهلَ الدين والفضل لا يعدُّونك بعليّ ، ولا يميلون ^(٣) بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا ؛ فإننا والله ما رأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهدي في الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه .

فحمِد الله معاوية وأثنى عليه ؛ وقال : أما بعد ، فإنكم دعوتكم إلى الجماعة والطاعة ؛ فأما الجماعة التي دعوتكم إليها ففِعْمًا هي ! وأما الطاعة لصاحبكم ؛ فإننا لانراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلنا ؛ وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ؛ فنحن

(١) صفين : « اجتمع له الناس » . الطبري : « استجمع له الناس » .

(٢) الشنان : جمع شن ؛ وهو القرية الخلق ؛ كانوا يحركونها للابل إذا أرادوا حثها على السير ؛ والكلام

على التمثيل .

(٣) التميل : الترجيح بين الشيئين .

لانرد ذلك عليه أرايتم قتلة صاحبنا! أستم تعلمون أنهم أصحاب أصحابكم ؛ فليدفعهم
إينا فلنقتلهم به ؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شبث بن ربعي : أيسرك بالله يا معاوية ، أن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته !
قال : وما يعنني من ذلك ؛ والله لو أمكنتني صاحبكم من ابن سمية ماقتلته بعمان ؛
ولسكني كنت أقتله بنائل مولى عثمان !

فقال شبث : وإله السماء ما عدت معدلا ، ولا والذي لا إله إلا هو ؛ لاتصل
إلى قتل ابن ياسر حتى تمدر الهام عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرض الفضاء
عليك برحبها .

فقال معاوية : إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيقت .

ثم رجع القوم عن معاوية ، فبعث إلى زياد بن خصفة من بينهم ، فأدخل عليه ، فحمد
معاوية الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أخا ربيعة ؛ فإن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ،
وأوى قتلة صاحبنا ؛ وإني أسألك النصرة بأسرتك وعشيرتك ؛ ولك على عهد الله وميثاقه
إذا ظهرت أن أولئك أي المصريين أحببت .

قال أبو المجاهد : فسمعت زياد بن خصفة يحدث بهذا الحديث .

قال : فلما قضى معاوية كلامه ، حمدت الله وأثنت عليه ، ثم قلت : أما بعد ؛ فإنني
لعلي بينة من ربي وبما أنعم علي ؛ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ؛ ثم قت .

فقال معاوية لعمر بن العاص - وكان إلى جانبه - : ما لهم عصبهم الله! ما قنهم إلا قلب
رجل واحد !

قال نصر : وحدثنا سليمان بن أبي راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ،

قال^(١): بعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبعث معه شُرْحَبِيل بن السَّمْط ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي ، فدخلوا على علي عليه السلام فتكلم حبيب بن مسلمة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعدُ فإنَّ عثمان بن عفان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ويُثيب إلى أمر الله ، فاستنقلمُ حياته ، واستبطأتم وفاته . فعدوتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به ؛ فإن قلت : إنك لم تقتله فاعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم هذا شوري بينهم ، يولئ الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم .

فقال له عليّ : وما أنت لأمّ لك ! والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر . اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهلٍ لذلك . فقام حبيب بن مسلمة ، وقال : أما والله لتريني حيثُ تكره . فقال له عليه السلام : وما أنت ! ولو أجلبت بجنيك ورجلك . اذهب فصوب وصد ما بدا لك ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت !

فقال شُرْحَبِيل بن السَّمْط : إن كلمتك ، فلمعمرى ما كلامي لك إلا نحو كلام صاحبي ، فهل لي عندك جواب غير الجواب الذي أجبتّه به ؟^(٢) فقال : نعم ، قال : فقله^(٣) ؛ فحمد الله على عليه السلام ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فإنَّ الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه فأنقذ به من الضلالة ، ونعش^(٤) به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ؛ وقد أدى ما عليه ؛ فاستخلف النَّاس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ؛ فأحسننا السيرة ، وعدلنا في الأمة ؛ ووجدنا

(١) وقعة صفين ٢٢٥ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٤

(٢-٢) وقعة صفين : « فقال علي عليه السلام : عندي جواب غير الذي أجبتّه به ، لك ولصاحبك » وفي الطبري : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبتّه به » .

(٣) الطبري : « واتناش به من الهلكة » .

عليهما أن توليا الأمر دوننا، ونحن آل الرسول، وأحقُّ بالأمر؛ فغفرنا ذلك لهما. ثم ولي أمر الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فسار إليه ناسٌ فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم، فقالوا لي: بايع، فأبنتُ عليهم، فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا نرضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس؛ فبايعتهم فلم يرُغنى إلا شقاق رجلين قد بايعا^(١)، وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، وحزب من الأحزاب؛ لم يزل الله ورسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلاً في الإسلام كارهين مكرهين، فيا عجبا^(٢) لكم، وإجلابكم معه، وانقيادكم له؛ وتدعون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم؛ ولا تعدلوا بهم أحداً من الناس؛ إني أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم، وإمارة الباطل، وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة. فقال له شرْحبيل ومَعْن بن يزيد: أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً. فقال لهما: إني لأقول ذلك؛ قالوا: فمن لم يشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فنحن برآء منه! ثم قاما فانصرفا. فقال علي عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٣).

ثم أقبل على أصحابه، فقال: لا يمكن هؤلاء في ضلالتهم بأولي بالجدت منكم في حقكم وطاعة إمامكم. ثم مكث الناس متوادعين إلى انسلاخ الحرم، فلما انسلاخ الحرم واستقبل الناس صَفْرًا من سنة سبع وثلاثين، بعث علي عليه السلام نقرأ من أصحابه؛ حتى إذا كانوا

(١) صفة: « قد بايعا »

(٢) صفة: « فعجبنا لكم ». وفي الطبري: « فلا فرو إلا خلافتكم معه ».

(٣) سورة النمل ٨٠ - ٨١.

من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت ، قام مرثد بن الحارث الجشمي ، فنادى عند غروب الشمس : يا أهل الشام : إن أمير المؤمنين عليا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم : إننا لم نكف عنكم شكاً في أمركم ؛ ولا إبقاء عليكم ؛ وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم ، وقد انسلخ ؛ وإننا قد نبذنا إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فتحاجز الناس وثاروا إلى أمرائهم .

قال : نصر فأما رواية عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبي الزبير : أن نداء مرثد بن الحارث الجشمي ، كانت صورته : يا أهل الشام ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتكم واستأنيتُ بكم ، لتراجعوا الحق ، وتُثيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فنار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم .

قال نصر : وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب ، وبُعبيان العساكر ، وأوقدوا النيران ، وجاءوا بالشموع ، وبات على عليه السلام تلك الليلة كلها ، يعبى الناس ، ويكتب الكتائب ويدور في الناس ويحرضهم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، بإسناده عن عبد الله بن جندب ، عن أبيه أن^(١) عليا عليه السلام كان يأمرنا في كل موطن لقينا معه عدوه ؛ فيقول :

(١) وقعة صفين ٢٢٩ وتاريخ الطبرى ٦ : ٦

لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ؛ فهى حُجَّةٌ أخرى لكم عليهم ؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدِيرًا ، ولا تُجهزوا على جَرِيحٍ ، ولا تكشفوا عَوْرَةَ ، ولا تُمَثِّلُوا قَتِيلًا ؛ فإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سِتْرًا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذنى ؛ ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأةً إلا بإذنى ، وإن شتمنَ أعراضكم ، وتناولنَ أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهن ضِعافُ القوى والأنفس والعقول ؛ ولقد كنّا وإنا لنؤمر بالسكفَ عنهنّ وهن مشركات ، وإن كان الرجلُ ليدناول المرأة فى الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعيرُ بها عَقِبَهُ من بعده .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن يزيد - يعنى ابن أبى خالد - عن أبى صادق ، أن علياً ^(١) عليه السلام حرّض الناس فى حروبه ، فقال :
 عبادَ الله ، اتقوا الله وغيضوا أبصاركم ، واخفضوا الأصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجاولة والمبارزة والمعانقة ؛ واثبتوا : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) ؛ ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٣) . اللهم ألهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر .

قال نصر : وكان ترتيب عسكر على عليه السلام ، بموجب ما رواه لنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن محمد بن على ، وزيد بن حسن ، ومحمد بن عبد المطلب ^(٤) : أنه جعل على الخليل عَمَّار بن ياسر ، وعلى الرجالة عبد الله بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى ، ودفع اللواء

(١) وقعة صفين ٢٣٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦

(٢) سورة الأنفال آية ٤٥

(٣) سورة الأنفال آية ٤٦

(٤) وقعة صفين ٢٣١

إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهرى ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس ، وعلى
 للميسرة عبد الله بن العباس ، وجعل على رجالة الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي ، وعلى
 رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبدى ، وجعل القلب مضر الكوفة والبصرة ، وجعل
 على ميمنة القلب اليمين وعلى ميسرته ربيعة ، وعقد ألوية القبائل ، فأعطاها قوماً منهم
 بأعيانهم ؛ وجعلهم رؤساءهم وأمرأهم ، وجعل على قریش وأسد وكنانة عبد الله بن عباس ،
 وعلى كندة حُجر بن عدى الكندى ، وعلى بكر البصرة الحُصين بن المنذر الرقاشى ،
 وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس ، وعلى خزاعة عمرو بن الحقيق ، وعلى بكر الكوفة
 نعيم بن هبيرة ، وعلى سعد البصرة وربابها جارية بن قدامة السعدى ، وعلى بجيلة رفاعة
 ابن شداد ، وعلى ذهل الكوفة رُوَيْمًا الشيبانى ، أو يزيد بن رُويم ، وعلى عمرو البصرة
 وحفظتها أعين بن ضبيعة ، وعلى قضاعة وطبي عدى بن حاتم الطائى ، وعلى لهازم
 الكوفة عبد الله بن حجل العجلي ، وعلى تميم الكوفة عمير بن عطار ، وعلى الأزد واليمن
 جندب بن زهير ، وعلى ذهل البصرة خالد بن المعمر السدوسى ، وعلى عمرو الكوفة
 وحفظتها شبت بن ربعى ، وعلى همدان سعيد بن قيس ، وعلى لهازم البصرة حرث
 ابن جابر الجعفى^(١) ، وعلى سعد الكوفة وربابها الطفيل أبا صريمة ، وعلى مذحج الأشتر
 ابن الحارث النخعى ، وعلى عبد القيس الكوفة صعصعة بن صوحان ، وعلى عبد القيس
 البصرة عمرو بن حنظلة ، وعلى قيس الكوفة عبد الله بن الطفيل البكائى ، [وعلى
 عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعلى قریش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمى]^(٢) وعلى
 قيس البصرة قبيصة بن شداد الهلالى ، وعلى اللقيف من القواصى القاسم بن حنظلة الجهنى .
 وأما معاوية فاستعمل على الخليل عبید الله بن عمر بن الخطاب ، وعلى الرجالة مسلم
 ابن عقبة المرثى ، وجعل على الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلى الميسرة حبيب

(١) صفين : « الحنفى » .

(٢) من صفين .

ابن مسلمة الفهريّ ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على أهل دمشق
- وهم القلب - الضحاك بن قيس الفهريّ ، وعلى أهل حِمْص - وهم الميمنة - ذا الكلاع
الحيريّ ، وعلى أهل قَدَسرين - وهم في الميمنة أيضاً - زُفَر بن الحارث الكلابيّ ، وعلى
أهل الأردنّ - وهم الميسرة - سفيان بن عمرو أبا الأعور السّلميّ ، وعلى أهل فلسطين
- وهم في الميسرة أيضاً - مسلمة بن مَخْلَد ، وعلى رجالة أهل دمشق بُسْر بن أبي أرطاة
العامريّ ، بن لؤي بن غالب ، وعلى رجالة أهل حِمْص حَوْشبا ذا ظَلَم ، وعلى رجالة قيس
طريف بن حابس الألهانيّ ، وعلى رجالة الأردنّ عبد الرحمن بن قيس القينيّ ، وعلى رجالة
أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزديّ ، وعلى رجالة قيس دمشق هام بن قبيصة ؛ وعلى
قيس حِمْص وإيادها بلال بن أبي هُبيرة الأزديّ ، [وحاتم بن المعتمر الباهليّ] ^(١) ، وعلى رجالة
الميمنة حابس بن سعيد الطائيّ ، وعلى قضاة دمشق حَسّان بن بَحْدَل الكلابيّ ، وعلى
قضاة عباد بن يزيد الكلابيّ ، وعلى كِنْدَةَ دمشق حسان بن حوىّ التّسكسكيّ ، وعلى
كِنْدَةَ حِمْص يزيد بن هُبيرة السّكونيّ ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَليّ ، وعلى
حَمِير وحضرموت اليمان بن غفير ، وعلى قضاة الأردنّ حبيش بن دلجة القينيّ ، وعلى
كنانة فلسطين شريكا الكنانيّ ، وعلى مذحج الأردنّ الحارق بن الحارث الزبيديّ ،
وعلى جُذام فلسطين ولحما ناتل بن قيس الجذاميّ ، وعلى هَمْدان الأردنّ حمزة بن مالك
الهمدانيّ ، وعلى الخثعم حَمَل بن عبد الله الخثعميّ ، وعلى غسان الأردنّ يزيد بن الحارث ،
وعلى جميع القواصي القمقاع بن أبرهة الكلاعيّ ؛ أصيب في المباراة أول يوم تراءت
فيه الفئتان .

قال نصر : فأما رواية الشعبيّ ، التي رواها عنه إسماعيل بن أبي مُحمّرة ^(٢) ؛ فإنّ عليا

(١) من صفين .

(٢) صفين ٢٣٤ .

عليه السلام ، بعث علي ميمنته عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقَاء الخِزَاعِيّ ، وعلي ميسرته عبد الله بن العباس ، وعلي خيل الكوفة الأشتر ، وعلي البصرة سهل بن حنيف ، وعلي رجالة الكوفة عمار بن ياسر ، وعلي رجالة أهل البصرة قيس بن سعد - كان قد أقبل من مصر إلى صِفِّين وجعل معه هاشم بن عُتْبَةَ ، وجعل مسعود بن فدكي التميميّ علي قراء أهل البصرة ؛ وأما قراء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيْل ، وعمار بن ياسر .

قال نصر : وأما^(١) ترتيب عسكر الشام - فيما رواه لنا عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية - فإنّ معاوية بعث علي ميمنته ذا الكَلَّاجِ ، وعلي يسرته حبيب بن مَسَلَمَةَ الفِهْرِيّ ، وعلي مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلميّ ، وكان علي خَيْلِ دمشق كلّها عمرو بن العاص ، ومعه خيول أهل الشام بأسرها ، وجعل مسلم بن عُقْبَةَ المَرِيّ علي رجالة دمشق ، والضحاك بن قيس علي سائر الرجالة بعد .

قال نصر : ^(٢) وتبّاع رجال من أهل الشام على الموت ، وتحالفوا عليه ، وعَقَلُوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا صُفُوفًا خَمْسَةً [معقلين] ^(٣) كانوا يخرجون فيصطفون أحدَ عشر صفا ، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفون أحدَ عشرَ صفا أيضا . .

قال نصر : فخرجوا أوّلَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين ، وهو يوم الأربعاء ، فاقتتلوا وعليّ من خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر ، وعلي أهل الشام حبيب بن مسleme

(١) صفين ٢٣٩

(٢) صفين ٢٣٩

(٣) من صفين

فاقتلوا قتالا شديدا جُلَّ النهار ، ثم تراجعوا وقد اتصفَ بعضهم من بعض . ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتْبَةَ في خَيْلٍ ورجال حَسَنٍ عددها وعُدَّتْهَا ؛ فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السُّلَمِيُّ ، فاقتلوا يومهم ذلك ، تَحْمِلُ الخيل على الخيل ، والرجال على الرجال . ثم انصرفوا وقد صَبَرَ القومُ بعضهم لبعض ؛ وخرج في اليوم الثالث عَمَّار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ، فاقتل الناس كأشدِّ قتال كان ، وجعل عمار يقول : يا أهل الشام ، أتريدون أن تنظروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين . فلما أراد الله أن يُظهِرَ دِينَهُ ، وينصر رسوله أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم ؛ وهو والله فيما يُرَى راهبٌ غير راغب . ثم قبض الله رسوله ، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ، ومودة المجرم ! ألا وإنه معاوية ؛ فقاتلوه والعنوه ؛ فإنه ممن يطفى نور الله ، ويظاهر أعداء الله .

قال:- وكان مع عَمَّار زياد بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل في الخيل ، فحمل فصَبَرَ له ، وشدَّ عمار في الرَّجَالَةَ ، فأزال عمرو بن العاص عن مَوْقِفِهِ ، وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاه^(١) من بنى عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العقيلي ؛ وأمهما هند الزبيدية ، فانصرف كلُّ واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالما ، ورجع الناس يومهم ذلك .

قال نصر : وحدثني^(٢) أبو عبد الرحمن المسعودي قال : حدثني يونس بن الأرقم ، عَمَّن حدثه من شيوخ بَكْر بن وائل ، قال : كنا مع علي عليه السلام بصِفَّين ، فرفع عمرو ابن العاص شُقَّة خميصة سوداء في رأس رُمُح ، فقال ناس : هذا لواء عَقَدَهُ له وسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يزالوا يتحدَّثون حتى وصل ذلك إلى علي عليه السلام ، فقال :

(١) في الطبري : « لأمه » .

(٢) صفين ٢٤١

أُتَدْرُونَ مَا أَمْرُ هَذَا اللّوَاءِ ! إِنْ عَدُوَّ اللَّهِ عَمَرًا أَخْرَجَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هَذِهِ الشُّقَّةَ ، فَقَالَ : مَنْ يَأْخُذُهَا بِمَا فِيهَا ؟ فَقَالَ عَمْرُو : وَمَا فِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : فِيهَا أَلَا تَقَاتِلُ بِهَا مُسْلِمًا وَلَا تَقْرَبُهَا مِنْ كَافِرٍ ؛ فَأَخْذُهَا ؛ فَقَدْ وَاللَّهِ قَرَّبَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَاتِلُ بِهَا الْيَوْمَ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأ النَّسْمَةَ ؛ مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْهُمْ اسْتَسْلَمُوا وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ ؛ فَلَمَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ أَعْوَانًا أَظْهَرُوهُ .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَسْعُودِيِّ ، عَنْ يُونُسَ بْنِ الْأَرْقَمِ ، عَنْ عَوْفِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ عَمْرُو بْنِ هَنْدِ الْبَجَلِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ ^(١) : لَمَّا نَظَرَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَايَاتِ مَعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ ، قَالَ : وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأ النَّسْمَةَ ؛ مَا أَسْلَمُوا ؛ وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ ؛ فَلَمَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ أَعْوَانًا ، رَجَعُوا إِلَى عَدَاوتِهِمْ لَنَا ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا الصَّلَاةَ .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ سِيَاهٍ ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ ، قَالَ ^(١) : لَمَّا كَانَ قِتَالُ صَفِينٍ ، قَالَ رَجُلٌ لِعِمَارٍ : يَا أَبَا الْيَقْظَانَ ؛ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « قَاتِلُوا النَّاسَ حَتَّى يُسْلَمُوا ؛ فَإِذَا أَسْلَمُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ » ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا أَسْلَمُوا ؛ وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ حَتَّى وَجَدُوا عَلَيْهِ أَعْوَانًا .

وَرَوَى نَصْرٌ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ ، عَنْ مَنْذَرَ الثَّوْرِيِّ ، قَالَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ : لَمَّا ^(١) أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي وَمِنْ أَسْفَلِهِ ،

وملاً الأودية كتائب - يعني يوم فتح مكة - استسلموا حتى وجدوا أعوانا .

وروى نصر ، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل ، عن الحسن ، قال : وحدثنا الحكم أيضا عن عاصم بن أبي النجود ، عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه » ، فقال الحسن : فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا^(١)



ومس كلام له عليه السلام :

الأضل :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا
وَأَعْمَامَنَا ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ؛ وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ
الْأَلَمِ ، وَجِدًّا فِي (١) جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخِرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ
تَصَاوُلَ الْفَخْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا : أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ
عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا
النُّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ ، وَمُتَّبِعُونَ أَوْطَانَهُ .
وَلَمَعَرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا أَخْضَرَ لِلإِيمَانِ عُودٌ .
وَأَيْمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا ، وَلَتَتَّبِعُنَّهَا نَدْمًا !

الشُّرْحُ :

لَقْمُ الطَّرِيقِ : الجَادَّةُ الواضحة منها . وَالْمَضَضُ : لدغ الألم وبرحاؤه . وَالتَّصَاوَلُ :
أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرْنَيْنِ عَلَى صَاحِبِهِ . وَالتَّخَالَسُ : التَّسَالُبُ وَالتَّهَابُ .
وَالكَبْتُ : الإِذْلَالُ . وَجِرَانُ البعير : مَقْدَمُ عُنُقِهِ . وَتَبَوَّاتُ الْمَنْزِلِ : نَزَلَتْهُ . وَيُقَالُ
لِمَنْ أَسْرَفَ فِي الْأَمْرِ لَتَحْتَلِبَنَّ دَمًا ، وَأَصْلُهُ النَّاقَةُ يُفْرِطُ فِي حَلْبِهَا فَيَحْلِبُ الْحَالِبُ الدَّمَ .

(١) مخطوطة النهج : « في جهاد العدو » .

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة ؛ وهى :

قوله: « استقرّ الإسلامُ ملقياً جِرانه »، أى ثابتاً متمكناً، كالبعير يلقى جِرانه على الأرض.

وقوله : « متبوتاً أوطانه » ، جعله كالجسم المستقرّ فى وطنه ومكانه .

وقوله : « ما قام للدين عمود » ، جعله كالبيت القائم على العُمدِ .

وقوله : « ولا اخضرّ للإيمان عود »، جعله كاشجرة ذات الفروع والأغصان .

فأما قتلهم الأقاربَ فى ذات الله ؛ فكثير ؛ قتلَ علىّ عليه السلام الجُمّ الغفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار فى يوم بدرٍ وأحد ؛ وهم عشيرته وبنو عمّه ، وقتلَ عمرُ ابن الخطاب يومَ بدرٍ خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شبيبة ابن ربيعة يوم بدرٍ ؛ وهو ابنُ عمه لأنهما ابنا عبدِ مناف ؛ ومثل ذلك كثير مذكور فى كتب السيرة .

وأما كونُ الرجل منهم وقيرنه يتصاولان ويتخالسان ؛ فإنّ الحال كذلك كانت ؛ بارز علىّ عليه السلام الوليد بن عُتبة، وبارز طلحةَ بن أبى طلحة ، وبارز عمرو بن عبد ود؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة ، وبارز كثيرا من الأبطالِ غيرهم وقتلهم ؛ وبارز جماعةً من شُجّبان الصحابة جماعةً من المشركين ؛ فمنهم من قُتل ، ومنهم من قُتل ، وكتب المغازى تتضمن تفصيل ذلك .

[فتنة عبد الله بن الحضرميّ بالبصرة]

وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى قصة ابن الحضرميّ حيث قدم البصرة

من قبل معاوية ، واستنهض أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة ؛ فتقاعدوا .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال النقفى فى كتاب ” الغارات “ :

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا الحسن بن علي الزعفراني ، عن محمد بن عبد الله ابن عثمان ، عن ابن أبي سيف ، عن يزيد بن حارثة الأزدي ، عن عمرو بن محسن ، أن معاوية لما أصاب محمد بن أبي بكر بمصر وظهر عليها ، دعا عبد الله بن عامر الحضرمي ، فقال له : سر إلى البصرة ؛ فإن جل أهلها يرون رأينا في عثمان ، ويعظمون قتله ، وقد قتلوا في الطلب بدمه ، فهم متورون حنقون لما أصابهم ؛ ودوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم في الطلب بدم عثمان ؛ واحذر ربيعة ، وانزل في مضر ، وتودد الأزدي ؛ فإن الأزدي كلها معك إلا قليلاً منهم ؛ وإنهم إن شاء الله غير مخالفيك .

فقال عبد الله بن الحضرمي له : أنا سهم في كنانتك ، وأنا من قد جرت ، وعدو أهل حربك ، وظهرك على قتلة عثمان ؛ فوجهني إليهم متى شئت . فقال : أخرج غداً إن شاء الله . فودعه وخرج من عنده .

فلما كان الليل جلس معاوية وأصحابه يتحدثون ، فقال لهم معاوية : في أي منزل ينزل القمر الليلة ؟ فقالوا : بسعد الذابح ، فكره معاوية ذلك ، وأرسل إليه ألا تبرح حتى ياتيك أمرى . فأقام .

ورأى معاوية أن يكتب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر ، عامه عليها ، يستطلع رأيه في ذلك ، فكتب إليه ؛ وقد كان تسمى بإمرة المؤمنين بعد يوم صيفين ، وبعد تحكيم الحكيم :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإني قد رأيت رأياً هممت بإمضائه ، ولم يخذلني عنه

إلا استطلاع رأيك ؛ فإن توافقتني أحدُ الله وأمضه ؛ وإن تخالفتني ؛ فإنني أستخيرُ الله وأستهديه. إنى نظرتُ في أمرِ أهل البصرة فوجدتُ معظمَ أهلها لنا ولياً وعلياً وشيعته عدوا ؛ وقد أوقعَ بهم على الوَقعة التي علمت ، فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرح ولا تريم ؛ وقد علمتَ أن قتلنا ابنَ أبي بكر ، ووقعتنا بأهل مصر ، قد أطفأتُ نيران أصحابِ عليّ في الآفاق ، ورفعت رءوسَ أشياعنا أينما كانوا من البلاد ؛ وقد بلغَ مَنْ كان بالبصرة على مثلِ رأينا من ذلك ما بلغَ الناس ، وليس أحدٌ ممن يرى رأينا أكثرَ عدداً ، ولا أضرَّ خلافاً على عليّ من أولئك ؛ فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمي ، فينزل في مَضْرٍ ويتودّد الأزدي ، ويحذرَ ربيعة ، ويتغنى دم ابن عفان ، ويذكرهم وقعة عليّ بهم ؛ التي أهلكتُ صالحى إخوانهم وآبائهم وأبنائهم ، فقد رجوتُ عند ذلك أن يُفسدَ عليّ عليّ وشيعته ذلكَ الفرج من الأرض ؛ ومتى يؤتوا من خلفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ، ويبطل كيدهم . فهذا رأيي فما رأيك ؟ فلا تحبس رسولى إلا قدر مضى الساعة التي ينتظرُ فيها جواب كتابي هذا . أرشدنا الله وإياك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

أما بعدُ ، فقد بلغنى رسولك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيك الذي رأيتَه ، فعبجت له ، وقلت : إنَّ الذي ألقاه في روعك ، وجعله في نفسك هو الثائر بابن عفان ، والطالب بدمه ؛ وإنه لم يكِ منك ولا مِنَّا منذ نهضنا في هذه الحروب وناديناهم أهلها ، ولا رأى الناس ، رأياً أضرَّ على عدوك ، ولا أسرَّ لوليكِ من هذا الأمر الذي ألهمتَه ، فامض رأيك مسدداً ؛ فقد وَجَّهتَ الصَّليب الأريب الناصح غير الظنين والسلام .

فلما جاءه كتاب عمرو ، دعا ابن الحضرمي - وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمره بالشخص ، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه - فقال : يا ابن الحضرمي ، سر على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل في مضر ، واحذر ربيعه ، وتودد الأزدي ، وانع ابن عفان ، وذكّرهم الوقعة التي أهلكتهم ، ومنّ لمن سمع وأطاع دنيا لا تفنى ، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده .

فودعه ثم خرج من عنده ، وقد دفع إليه كتاباً ، وأمره إذا قدّم أن يقرأه على الناس . قال عمرو بن محصن : فكنتُ معه حين خرج ، فلما خرجنا سرنا ما شاء الله أن نسير ، فسنح لنا ظبي أعضب ^(١) عن شمائلنا ، فنظرت إليه ؛ فوالله لرأيتُ الكراهية في وجهه ؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة في بئى تميم ، فسمعَ بقُدومنا أهلُ البصرة ؛ فجاءنا كلٌّ من يرى رأى عثمان ، فاجتمع إلينا رموس أهلها ؛ فحمد الله ابنُ الحضرمي وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ أيها الناس ؛ فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفان ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام ظلماً ، فطلبتم بدمه ، وقاتلتم من قتله ، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً ؛ وقد أصيبَ منكم الملائ الأختيار ؛ وقد جاءكم الله بإخوان لكم ؛ لهم بأسٌ يُتقى ، وعدد لا يُحصى ؛ فلقوا عدوكم الذين قتلوكم ؛ فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين ، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا ، فالثوم وساعدوهم ، وتدكروا ثأركم لتشفوا صدوركم من عدوكم .

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلالي ، فقال : قَبِحَ اللهُ ما جئتنا به ، وما دعوتنا إليه ! جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير ؛ أتينانا وقد بايعنا علياً ، واجتمعنا له ، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم ، فدعوانا إلى الفرقة ، وقاما فينا بزُخرف القول ؛ حتى ضربنا بعضنا ببعضِ عدوانا وظلماً ؛ قاتلتنا على ذلك ، وإيمُ الله ، ما سلمنا من عظيم وبال

(١) الأعضب : مكسور أحد القرنين ؛ وكانوا يتشاءمون منه

ذلك ؛ ونحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذي أقال العثرة ، وغفا عن المسيء ، وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا . أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أعقادها ، ثم يضرب بعضنا بعضا ، ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدّل بهذا الأمر عن عليّ ! والله ليومٌ من أيام عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ؛ ما الدنيا باقية .

فقام عبد الله بن حازم السلمي ، فقال للضحّاك : اسكت ؛ فليست بأهلٍ أن تتكلم في أمرِ العامة . ثم أقبل على ابن الحضرمي ، فقال : نحن يدك وأنصارك ؛ والقول ماقلت ؛ وقد فهمنا عنك ؛ فادعنا أنى شئت ! فقال الضحّاك لابن حازم : يا ابن السوداء ؛ والله لا يعزّ من نصرت ، ولا يذلّ بمخذلانك من خذلت ؛ فقتشأتما .

قال صاحب كتاب الغارات : والضحّاك هذا هو الذي يقول :

يأَيُّهَا السَّائِلِي عَنْ نَسَبِي بَيْنَ ثَقِيفٍ وَهَلَالٍ مَنْصِبِي
* أُمِّيَ أَسْمَاءَ وَضَحَّاحُ أَبِي *

قال : وهو القائل في بني العباس :

مَا وَلَدَتْ مِنْ نَاقَةٍ لِفَحْلٍ فِي جَبَلٍ نَعْلُهُ وَسَهْلٍ
كَسْتَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّ الْفَضْلِ أَكْرَمَ بِهَا مِنْ كَهْلَةٍ وَكَهْلٍ
عَمَّ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى ذِي الْفَضْلِ وَخَاتَمَ الْأَبْنَاءِ بَعْدَ الرَّسْلِ

قال : فقام عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشيّ ثم التميمي ، فقال : عباد الله ؛ إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد أن تقتتلوا ولا تتنازروا ؛ ولكننا إنما ندعوكم إلى أن تجتمعوا كلمتكم ، وتوازرروا إخوانكم ؛ الذين هم على رأيكم ، وأن تلمّوا شعثكم

وتصلحوا ذات بينكم ؛ فهلا مهلا ! رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب وأطيعوا ، الذي يقرأ عليكم .

ففضوا كتاب معاوية وإذ فيه : من عبد الله معاوية أمير المؤمنين ، إلى من قرى كتابي هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة :

سلام عليكم . أما بعد ، فإن سفك الدماء بغير حنما ، وقتل النفوس التي حرم الله قتلها هلاك موبق ، وخسران مبين ؛ لا يقبل الله ممن سفكها صرفا ولا عدلا ؛ وقد رأيتم رحمكم الله آثار ابن عفان وسيرته ، وحببه للعافية ، ومعدلته ، وسدده للشغور ، وإعطاءه في الحقوق ، وإنصافه للمظلوم ، وحببه للضعيف ؛ حتى توثب عليه المتوثبون ؛ وتظاهر عليه الظالمون ، نقتلوه مسلما محرما ظان صائما لم يسفك فيهم دما ، ولم يقتل منهم أحدا ، ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوط ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه ، وإلى قتال من قتله ؛ فإننا وإياكم على أمر هدى واضح ، وسبيل مستقيم . إنكم إن جامعتمونا طفئت النائرة ، واجتمعت الكلمة ، واستقام أمر هذه الأمة ، وأقر الظالمون المتوثبون الذين قتلوا إمامهم بغير حق فأخذوا بجرائزهم وما قدمت أيديهم . إن لكم أن تعمل فيكم بالكتاب ، وأن أعطيتكم في السنة عطاءين ، ولا أحتمل فضلا من فيثكم عنكم أبدا ، فسارعوا إلى ماتدعون إليه رحمكم الله ! وقد بعثت إليكم رجلا من الصالحين ؛ كان من أمناء خليفتم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يجيب إلى الحق ويعرفه ، وينكر الباطل ويحجده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

قال : فلما قرى عليهم الكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

قال : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن علي ، عن أبي زهير ، عن أبي منقر الشيباني ، قال : قال الأحنف لما قرى عليهم كتاب معاوية : أما أنا فلا ناقة لي في هذا ولا جمل ، واعتزل أمرهم ذلك .

وقال عمرو بن مرحوم ، من عبد القيس : أيها الناس ، الزموا طاعتكم ، ولا تنكثوا بيمينكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ؛ ولا يكن بعدها لكم بقية ؛ ألا إني قد نصحت لكم ؛ ولكن لا تحبون الناصحين .

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، عن الأسود بن قيس ، عن ثعلبة بن عباد أن الذي كان سدّد معاوية رأيه في تسريح ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن ضحّاك العبديّ ، وهو ممن كان يرى رأى عثمان ، ويخالف قومه في حبهم عليّاً عليه السلام ونصرتهم إياه ؛ وكان الكتاب :

أما بعد فقد بلغنا وقعتك بأهل مصر ؛ الذين بَغَوْا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمعاً وبغياً ، فقرت بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ؛ وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولندوه مغارقين ؛ نولكم موالين ، وبك راضين ؛ فإن رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً ذكياً ذا عفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْت ؛ فإنني لا أخال الناس إلا مجمعين عليك ؛ وأن ابن عباس غائب عن المصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لا عزمْتُ رأياً سوى ما كتب به إلى هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك ، فعرفت نصيحتك ، وقبّلت مشورتك ، ربحك الله وسددك ، اثبت هداك الله على رأيك الرشيد ، فكانك بالرجل الذي سألت قد أتاك ، وكانك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحييت ؛ والسلام .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني علي بن أبي سيف عن أبي زهير

قال : لما نزل ابن الحضرمي في بني تميم أرسل إلى الرؤوس فاتوه ، فقال لهم : أجيئوني إلى الحق ، وانصروني على هذا الأمر .

قال : وإن الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس ، وقدم على علي عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبي بكر ، قال : فقام إليه ابن ضحّاك ، فقال : إي والذي له أسعى ، وإياه أخشى ، لنصرتك بأسيافنا وأيدينا .

وقام المثني بن محرمة العبدي فقال : لا والذي لإله إلا هو ، إن لم ترجع إلى مكانك الذي أقبلت منه لنجاهدتك بأسيافنا وأيدينا ، ونبالنا وأسمّة رماحنا ، نحن ندع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيد المسلمين ، وندخل في طاعة حزب من الأحزاب طاغ ! والله لا يكون ذلك أبدا حتى نسير كتيبة ، ونفلق السيوف بالهام .

فأقبل ابن الحضرمي على صبرة بن شيّمان الأزدي فقال : يا صبرة ، أنت رأس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ، وأحد الطلبة بدم عثمان ، رأينا رأيك ، ورأينا رأيك ، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت فانصرتني ، وكُن من دوني . فقال له : إن أنت أتيتني فزلت في داري نصرتك ومنعتك . فقال : إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أنزل في قومه من مضر ، فقال : اتبع ما أمرك به .

وانصرف من عنده ، وأقبل الناس إلى ابن الحضرمي ، وكثرت تبعه ، ففرغ لذلك زياد وهالة وهو في دار الإمارة ، فبعث إلى الحصين بن المنذر ومالك بن مسمع ، فدعاها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم أنصار أمير المؤمنين وشيعته وثقته ، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم ، فأجيروني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورأيه .

فأما مالك بن مسمع ، فقال : هذا أمر فيه نظر ، أرجع إلى من ورأى ، وأنظر وأستشير في ذلك . وأما الحصين بن المنذر فقال ، نعم ، نحن فاعلون ، ولن نخذلك ولن نسلك .

فلم يرَ زياد من القوم ما يطمئن إليه ، فبعث إلى صبرة بن شيان الأزدي ، فقال :
يا بن شيان ، أنت سيد قومك ، وأحد عظماء هذا المِصر ، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم
أهله فانت ذاك ؛ أفلا تجيرني وتمنئني ، وتمنع بيتَ مال المسلمين ! فإنما أنا أمين عليه .
فقال : بلى ، إن تحملت حتى تنزل في داري منعُتك ، فقال : إني فاعل .

فارتحل ليلاً حتى نزل دار صبرة بن شيان ، وكتب إلى عبد الله بن عباس - ولم يكن
معاوية ادعى زياداً بعد ؛ لأنه إنما ادعاه بعد وفاة علي عليه السلام :
للأمين عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد .

سلام عليك ، أما بعدُ فإنَّ عبدَ الله بن عامر بن الحضرمي أقبل من قبل معاوية
حتى نزل في بني تميم ، ونعى ابنَ عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه جُلُّ أهلِ البصرة ، فلما
رأيت ذلك استجرتُ بالأزد بصبرة بن شيان وقومه لنفسى ولييت مال المسلمين ، ورحلتُ
من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإنَّ الأزد معي ، وشيعة أمير المؤمنين من فرسان القبائل
تختلف إلى ، وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمي ؛ والقصر خالٍ منا ومنهم ، فارفع ذلك
إلى أمير المؤمنين ، ليَرى فيه رأيه : يا عَجِل إلى بالذي ترى أن يكون منه فيه ، والسلام
عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فرجع ذلك ابنُ عباس إلى علي عليه السلام ، وشاع في الناس بالكوفة ما كان
ذلك ، وكانت بنو تميم وقيس ، ومن يرى رأى عثمان قد أمرُوا ابنَ الحضرمي أن يسيرَ
إلى قصر الإمارة حين خلاه زياد ، فلما تهيأ لذلك ودعا أصحابه ، ركبت الأزد ، وبعثت
إليه وإليهم : إنا والله لا ندعكم تاتونَ القصرَ فتنزلون فيه من لا نرضى ، ومن نحب له
كارهون ؛ حتى يأتيَ رجل لنا ولكم رضا . فأبى أصحابُ ابن الحضرمي إلا أن يسيروا إلى القصر ،
وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم . فركب الأحنف فقال لأصحاب ابن الحضرمي : إنكم والله

ما أتم أحق بقصر الإمارة من القوم ، وما لكم أن تؤمروا عليهم من يكرهونه ، فانصرفوا عنهم : ففعلوا ، ثم جاء إلى الأزدي ، فقال : إنه لم يكن ماتكرهون ، ولا يؤتني إلا ما تحبون ؛ فانصرفوا رحمكم الله ، ففعلوا .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف ، عن الكلبي ، أن ابن الحضرمي لما أتى البصرة ، ودخلها نزل في بني تميم في دار سبيل ، ودعا بني تميم وأخلاق مضر ، فقال زياد لأبي الأسود الدؤلي : أما ترى ما صنع أهل البصرة إلى معاوية ؛ وما في الأزدي مطمع ؛ فقال : إن كنت تركتهم لم ينصروك ، وإن أصبحت فيهم منعوك .

فخرج زياد من ليلته ، فأتى صبرة بن شيان الحداني الأزدي ، فأجاره ، وقال له حين أصبح : يا زياد ؛ إنه ليس حسنا بنا أن نقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا ؛ فأعد له منبرا وسريرا في مسجد الحدان ، وجعل له شرطا ، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحدان .

وغلب ابن الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها ، وأجمعت الأزدي على زياد ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معشر الأزدي ، إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي ، وأولى الناس بي . وإني لو كنت في بني تميم وابن الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبدا وأتم دونه ، فلا يطمع ابن الحضرمي في وأتم دوني ، وليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان ، بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ؛ وقد أصبحت فيكم مضمونا ، وأمانة مؤداة ، وقد رأينا وقفتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق ، صبركم مع الباطل ؛ فإنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تغفرون على الجبن .

فقام شيان أبو صبرة - ولم يكن شهد يوم الجمل ، وكان غائبا - فقال : يا معشر الأزدي ،

مأبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على عليّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أنّ إسلامكم له ذلّ وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حتى مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم ، وإن استمدّوا معاوية ، فاستمدّوا عليا عليه السلام ، وإن وادّعوك فوادّعوهم .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : يامعشر الأزد ، إنا قلنا يوم الجمل : نمنع مِصرنا ، ونطيغ أماننا ، نطلب دم خليفتنا المظلوم ، نجدّنا في القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتل منا من لاخير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من عليّ ما نخاف من معاوية ، فهبوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم أو فأبلغوه مأمته .

فقال الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجبروه . فضحك زياد ، وقال : يا صبرة ، أتخشون ألا تقوموا النبي تميم ! فقال صبرة : إن جاءونا بالأحنف جئناهم بأبي صبرة ، وإن جاءوا بالحباب جئنا أنا وإن كان فيهم شباب كثير . فقال زياد : إنما كنت مازحا .

فلما رأت بنو تميم أنّ الأزد قد قامت دون زياد بعثت إليهم : أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا ، فأى الأُميين غلب : عليّ أو معاوية دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .

فبعث إليهم أبو صبرة : إنما كان هذا يُرجى عندنا قبل أن نجبره ، ولعمري ما قتل زياد وإخراجه إلا سؤالا ؛ وإنكم لتعلمون أنّا لم نُجبره إلا كرما ، فاهلوا عن هذا .

قال : وروى أبو الكنود أنّ شَبث بن ربيع قال لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادعهم إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم أزدَ عُمان البُعداء البُعضاء ؛ فإنّ واحدا من قومك خيرٌ لك من عشرة من غيرهم .

فقال له مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمِ الْأَزْدِيِّ : إن البعيد البغيض ، من عَصَى اللَّهَ وخالف أمير المؤمنين ، وهم قومك ، وإن الحبيب القريب مَنْ أطاع اللَّهَ ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومي ، واحدهم خيرٌ لأمر المؤمنين من عشرة من قومك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مه ! تناهوا أيها الناس ، وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغى والتهاذى ، ولتجتمع كلمتكم ، والزماوا دين اللَّه الذى لا يقبل من أحد غيره ، وكلمة الإخلاص التى هى قوام الدين ، وحجة اللَّه على الكافرين ؛ واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرقين فآلف بينكم بالإسلام فكثرتُمْ ، واجتمعتم وتحاببتم فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم ، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم ؛ وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة^(١) وقد تداعوا إلى العسائر والقبائل ؛ فاقصدوا لهاهم ووجوههم بالسيف حتى يفرعوا إلى اللَّه ، وإلى كتابه وسنة نبيه ؛ فأما تلك الحمية من خطرات الشياطين فاتهوا عنها ، لا أبالكم تفلحوا وتنجحوا !

ثم إنه عليه السلام دعا أعين بن صبيعة المجاشعي ، وقال : يا أعين ، ألم يبلغك أن قومك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمي بالبصرة ، يدعون إلى فراق وشقاق ويساعدون الضلال القاسطين على !

فقال : لا نساء يا أمير المؤمنين ، ولا يكن ماتكره ، ابغنى إليهم ؛ فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم ، ونفى ابن الحضرمي من البصرة أو قتله .
قال : فاخرج الساعة .

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة .

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات .

وروى الواقدي أن علياً عليه السلام ، استنفرَ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي ، ويردّ عادية بنى تميم ، الذين أجاروه بها ، فلم يُجبه أحد ، فخطبهم ، وقال : أليس من العجب أن ينصرني الأزدي ، وتخذلني مضر ! وأعجب من ذلك تقاعدُ تميم الكوفة بي ، وخلاف تميم البصرة عليّ ، وأن أستنجد بطائفة منها ، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد ، فإن أجابت ؛ وإلا فاللنا بذة والحرب . فكأنني أخاطبُ صماً بكماً لا يفقهون حواراً ، ولا يجيبون نداء ؛ كلُّ هذا جبناً عن البأس ، وحبّاً للحياة ؛ لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا الفصل إلى آخره .

قال : فقام إليه أعين بن صبيعة المجاشعيّ ، فقال : أنا إن شاء الله أ كفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطب ، وأتكفلُ لك بقتل ابن الحضرمي ، أو إخراجه عن البصرة . فأمره بالتهيؤ للشخص ؛ فشخص حتى قدم البصرة .

قال إبراهيم بن هلال : فلما قدمها دخلَ عليّ زياد وهو بالأزد مقيم ، فرحب به وأجلسه إلى جانبه ، فأخبره بما قال له عليّ عليه السلام ، وما ردّ عليه ، وما الذي عليه رأيه ؛ فإنه يكلمه إذ جاءه كتاب من عليّ عليه السلام فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زياد ابن عبيد :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنني قد بعثت أعين بن صبيعة ، ليفرق قومَه عن ابن الحضرميّ ، فارقب ما يكون منه ؛ فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظنّ به ، وكان في ذلك تفریق تلك الأوباش ؛ فهو ما نحبّ ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ،

فانبذ مَنْ أطاعك إلى مَنْ عصاك ؛ فجاهدْهم ، فإن ظهرتَ فهو ما ظننت ، وإلا فطاولهم
وما طلهم ؛ فكانَ كتائب المسلمين قد أطلت عليك ؛ فقتلَ الله المفسدين الظالمين ،
ونصر المؤمنين المحقين ، والسلام .

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن صبيعة ، فقال له : إني لأرجو أن يُكفَى هذا الأمر
إن شاء الله . ثم خرج من عنده ؛ فأتى رَحله ، فجمع إليه رجلا من قومه ، فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال :

يا قوم على ، ماذا تقتلون أنفسكم ! وتَهْر يقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار !
وإني والله ما جئتكم حتى عَبَّيت إليكم الجنود ؛ فإن تُنبئوا إلى الحق يقبل منكم ،
ويكفَّ عنكم ؛ وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم .

فقالوا : بل نسمع ونطيع . فقال : انهضوا الآن على بركة الله عزَّ وجل . فهض بهم
إلى جماعة ابن الحضرمي ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمي فصاقوه وواقفهم ^(١) عامة يومه
يُناشدُهم الله ، ويقول : يا قوم لا تنكثوا بِيَعْتكم ، ولا تخالفوا إمامكم ، ولا تجملوا على
أنفسكم سييلا ، فقد رأيتم وجرَّ بتم كيف صنعَ الله بكم عند نكثكم بِيَعْتكم وخلافكم .
فبكفوا عنه ، ولم يكن بينه وبينهم قتال ؛ وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه ، فانصرف
عنهم وهو منهم منتصف . فلما أوى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظن الناس أنهم خوارج ،
فضربوه بأسيا فهم ؛ وهو على فراشه ، ولا يظن أن الذي كان يكون ، فخرج يشتدَّ عُريانا ،
فلحقوه في الطريق فقتلوه ، فأراد زياد أن يناهضَ ابنَ الحضرمي حين قتل أعين بجاعة
مَنْ معه من الأزد وغيرهم من شيعة على عليه السلام ، فأرسل بنو تميم إلى الأزد : والله
ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه ، ولا المال هو له ولا لأحدٍ ليس على رأينا ؛ فما تريدون

(١) صافوه ؛ أي وقفوا صافوا ويقال : واقفه في الحرب ؛ أي وقف كل منهما مع الآخر .

إلى حرّ بنا وإلى جارنا؟ فكان الأزد عند ذلك كرهت قتالهم .

فكتب زياد إلى علي عليه السلام : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن أعين بن صبيعة قدم علينا من قبلك بجدّ ومناحة وصدق ويقين ، فجمع إليه من أطاعه من عشيرته ، فجمعهم على الطاعة والجماعة ، وحذّروهم الخلاف والفرقة ، ثم نهض بمن أقبل معه إلى من أدبر عنه . فواقفهم عامّة النهار ، فهال أهل الخلاف تقدّمه ، وتصدّع عن ابن الحضرمي كثير ممن كان يريد نصرته ، فكان كذلك حتى أمسى ، فأتى في رَحْله فيبته نفر من هذه الخارجة المارقة ، فأصيب رحمه الله تعالى ، فأردت أن أناهض ابن الحضرمي عند ذلك ، فحدث أمرٌ قد أمرتُ صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمر المؤمنين ، وقد رأيتُ إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، ومطاع في العشيّة ، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين ، فإنّ يقدم يفرّق بينهم بإذن الله ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما جاء الكتاب ، دعا جارية بن قدامة ، فقال له : يا بن قدامة ، تمنع الأزد عاملي وبيت مالي ! وتشاقتني مضر وتنابذني ! و بنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة ، وعرفها الهدى ، وتداعوا إلى المعشر الذين حادوا الله ورسوله ، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه ، حتى علّت كلمة الله وهلك الكافرون .

قال : يا أمير المؤمنين ، ابعثنى إليهم واستعن بالله عليهم . قال : قد بعثتك إليهم ، واستعنت بالله عليهم .

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني ابن أبي السيف ، عن سليمان ابن أبي راشد ، عن كعب بن قعين ، قال : خرجتُ مع جارية من الكوفة إلى البصرة

في خمسين رجلا من بني نعيم ، ما كان فيهم يمانى غيرى ، وكنت شديد التشيع ، فقلت لجارية : إن شئت كنت معك وإن شئت ملت إلى قومي ! فقال : بل معي ؛ فوالله لو ددت أن الطير والبهائم تنصرني عليهم ، فضلا عن الإنس .

قال : وروى كعب بن قعين أن عليًا عليه السلام كتب مع جارية كتابا ، وقال : اقرأه على أصحابك ، قال : فمضينا معه ، فلما دخلنا البصرة ، بدأ يزيد ، فرحب به وأجلسه إلى جانبه ، وناجاه ساعة وساء له ، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال : احذر على نفسك ، واتق أن تلتقى ما اتقى صاحبك القادم قبلك .

وخرج جارية من عنده ، فقام في الأزدي ، فقال : جزاكم الله من حى خيرا ! ما أعظم غناءكم ، وأحسن بلاءكم ، وأطوعكم لأمركم ! لقد عرفتم الحق إذ ضيعة من أنكره ، ودعوتهم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه ، ثم قرأ عليهم وعلى من كان معه من شيعة علي عليه السلام وغيرهم . كتاب على عليه السلام ، فإذا فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من قرى عليه كتابى هذا من ساكنى البصرة من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعد فإن الله حلیم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة قبل البينة ، ولا يأخذ المذنب عند أول وهلة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويرضى الإنباة ليكون أعظم للحجة ، وأبلغ فى المذرة ؛ وقد كان من شقاق جلكم أيها الناس ما استحققتم أن تعاقبوا عليه ، فعوت عن مجرمكم ، ورفعت السيف عن مذبركم ، وقبلت من مقبلكم ، وأخذت ببيعتكم ، فبن تفوا ببيعتى ، وتقبلوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتى ، أعمل

فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق ، وأقيم فيكم سبيل الهدى ، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك مني ، ولا أعمل بقولي . أقول قولي هذا صادقاً ، غيرَ ذامٍ لمن مضى ، ولا منتقاصاً لأعمالهم ، وإن خَبَطْتُ^(١) بكم الأهواء المرذبة ، وسفهُ الرأي الجائر إلى منابذتي ، تريذون خلافي ! فيها أنا ذا قرَّبتُ جيادى ، ورَحَلتُ ركابى ، وإيمُ الله لئن ألتأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعةً ، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعقة لاقى ، وإني لظانٌ ألا تجعلوا إن شاء الله على أنفسكم سيلاً . وقد قدمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ، ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً ، إن أتم استغششتم نصيحتى ، ونابذتم رسولى ، حتى أكون أنا الشَّخصَ نحوكم إن شاء الله تعالى . والسلام .

قال : فلما قرئ الكتاب على الناس ، قام صبرة بن شيان ، فقال : سمعنا وأطعنا ، ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم ، إن كَفَيْتَ يا جارية قومك بقومك فذاك ، وإن أحببت أن ننصرَكَ نصرناك .

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه ، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بنى تميم .

فقام زياد في الأزدي ، فقال :

يا معشر الأزدي ، إن هؤلاء كانوا أمس سِلاً ، فأصبحوا اليوم حرباً ، وإنكم كنتم حرباً فأصبحتم سلماً ، وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقت فيكم إلا على الأمل ، فارضيتم أن أجرتموني ، حتى نصبتم لي منبراً وسريراً ، وجعلتم لي شُرطاً وأعواناً ، ومنادياً وجمعة ، فافقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم ، لا أجبىه اليوم ، فإن لم أجبىه اليوم أجبىه غدا إن شاء الله . واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس علياً ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله على

(١) كذا في ١ ، ج ، وفي ب : « خطت » .

ليصدع أمرَ قومه ، والله ما هو بالأمر المطاع ، ولو أدرك أمه في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أول كان لي تبعاً ، وأنتم أهامة العظمى ، والجزمة^(١) الحامية ، فقدّموه إلى قومه ، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم ذلك .

فقام أبو صبرة بن شيان فقال : يا زياد ، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل ، رجوت ألا يقاتلوا عليا ، وقد مضى الأمر بما فيه . وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيئ ، والتوبة مع الحق ، والنفوس مع الندم ، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، واسكنها جماعة دماؤها حرام ، وجروها قصاص ، ونحن معك نحب ما أحببت .

فغضب زياد من كلامه ، وقال : ما أظن في الناس مثل هذا .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل ، وإنا لندرجو اليوم أن نمتحص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأما أنت يا زياد ، فوالله ما أدركت أمك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك ، ونحن رادوك إليها غدا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أَوْلَى بك مِنّا ، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك^(٢) ، وإنا والله نخاف من حرب علي في الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا ، فقدّم هواك وأخر هوانا ، فنحن معك وطوعك .

ثم قام خنقر^(٣) الحماني ، فقال : أيها الأمير ، إنك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرض ذلك لأنفسنا ، بنا إلى القوم إن شئت ، وإيّم الله ما لقينا يوماً قط إلا اكتفينا بعفوننا دون جهدنا ؛ إلا ما كان أمس .

(١) الجزمة : كل قبيلة انضموا فصاروا يبدأ واحدة ولم يحالفوا غيرهم .

(٢) ج : « تشبهه » .

(٣) ج : « حيقن » .

قال إبراهيم : فأما جارية ، فإنه كلم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه وأسمعوه ، فأرسل إلى زياد والأزد ، يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه ، فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابنُ الحضرمي ، وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمي ، فاقتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة علي عليه السلام ، وصديقا لجارية بن قدامة - فقال : ألا أقاتل معك عدوك ؟ فقال : بلى ؛ فما لبثت بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سبيل السعدى ؛ فحصرُوا ابنَ الحضرمي وحدثوه ، فأبى رجل من بني تميم ، ومعه عبد الله بن حازم السلمي ، فجاءت أمه وهي سوداء حبشية اسمها عجلي ، فنادت ، فأشرف عليها ، فقالت : يا بُني ، انزل إلي ، فأبى فسكشفت رأسها وأبدت قناعها ، وسألته النزول فأبى ، فقالت : والله لتنزلن أو لأنعرين ، وأهوت بيدها إلى ثيابها^(١) ، فلما رأى ذلك نزل ، فذهبت به ، وأحاط جارية وزياد بالدار ، وقال جارية : علي بالنار ، فقالت الأزد : لسنا من الحريق بالنار في شيء ؛ وهم قومك وأنت أعلم ، فحرق جارية الدار عليهم ، فهلك ابنُ الحضرمي في سبعين رجلا ؛ أحدهم عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي ، ثم التيمي ؛ وسمي جارية منذ ذلك اليوم محرقة ؛ وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ؛ ومعه بيت المال ، وقالت له : هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ قال : لا ، قالوا : فبرئنا منه ، فقال : نعم ؛ فانصرفوا عنه . وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قدِم من عندك ، فناهض جمع ابن الحضرمي بمن نصره وأعانه من الأزد ففضّه واضطره إلى دارٍ من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما ، فقتل ابنُ الحضرمي وأصحابه ، منهم من أحرق بالنار ؛ ومنهم من ألقى عليه جدار ؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ؛ ومنهم من قُتل بالسيف ، وسلم

منهم نفر أنابوا وتابوا ، فصَفَحَ عنهم ، وبعداً لمن عصى وغوى ! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصل كتاب زياد قرأه علىّ عليه السلام على الناس ، وكان زياد قد أنفذه مع ظَبْيَانِ بنِ عُمارَةَ ، فسَرَ علىّ عليه السلام بذلك وسرَّ أصحابه ، وأثنى على جارية وعلى الأزدي ، وذمَّ البصرة فقال : إنها أول القرى خراباً ؛ إما غرقاً وإما حرقاً ؛ حتى يبقى مسجدها كجَوْجُو سفينة . ثم قال لظَبْيَانِ : أين منزلك منها ؟ فقال : مكان كذا ، فقال : عليك بضواحيها .

وقال ابن العرندس الأزدي يذكر تحريق ابن الحضرمي ، ويعبرُ تَمِيمًا بذلك :

رَدَدْنَا زياداً إلى دَارِهِ وجار تميم ينادى الشَّجَبُ (١)

لِما اللهُ قوماً شَوَوْا جارهم لَعَمْرِي لبئس الشَّوَاءُ الشُّصْبُ (٢)

ينادى الخناق وأبناءها وقد شَيَّطُوا رأسها باللَّهَبُ

والخناق لقب قوم بني تميم .

(١) الشَّجَبُ : الهلاك

(٢) الشُّصْبُ : الشاة السلوخة .

ومن كلامه عليه السلام لأصحابه :

الأضل :

أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رَحْبُ البُلْعومِ ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ ، فَاقْتُلُوهُ - وَلَنْ تَقْتُلُوهُ . أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّ الْبِرَاءَةِ مِنِّي ؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّنِي ؛ فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجَاةٌ ، وَأَمَّا الْبِرَاءَةُ فَلَا تَتَّبِعُوهَا مِنِّي ؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَسَبَّتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ .

الشَّيْخُ :

مُنْدَحِقُ البَطْنِ : بارزها ، والدَّحِقُ . من النوق : التي يخرج رَحِمُهَا . عند^(١) الولادة . وسيظهر : سيغلب . ورَحْبُ البُلْعومِ : واسعه .

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عَنِّي زيادا ، وكثير منهم يقول : إنه عَنِّي الحجاج ، وقال قوم : إنه عَنِّي المغيرة بن شعبة . والأشبه عندي أنه عَنِّي معاوية ، لأنه كان موصوفا بالنهم وكثرة الأكل ، وكان بطينا ، يقعد بطنه إذا جلس على فخذيته ، وكان معاوية جوادا بالمال والصلوات ، وبخيلا على الطعام ؛ يقال : إنه مازح أعرابيا على طعامه ، وقد قَدَّمَ بين يديه خروف ، فأمعن الأعرابي في أكله ، فقال له : ما ذنبه إليك؟ أنطحك أبوه؟ فقال الأعرابي : وما حُنُوكُ عليه؟ أأرضعتك أمه!

وقال لأعرابي يا كلُّ بين يديه ، وقد استعظم أكله : أَلَا أُنَبِّئُكَ سِكِّينَا ، فقال :

« كلَّ امرئٍ سِكِّينُهُ فِي رَأْسِهِ » .

فقال : ما سُمك ؟ قال : لقيم ، قال : منها أتيت .

كان معاوية يأكل فيكثر ، ثم يقول : ارفموا ، فوالله ماشيت ، ولكن
مِلت وتعبت .

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله دَعَا عَلَى معاوية لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ
يَسْتَدْعِيهِ ، فوجده يأكل ، ثم بعث فوجده يأكل ، فقال : « اللهم لا تُشَبِّعْ بطنه » ،
قال الشاعر :

وَصَاحِبِ لِي بَطْنِهِ كَالنَّهَائِيَةِ كَانٌ فِي أَحْسَانِهِ مُعَاوِيَةَ

وفي هذا الفصل مسائل :

الأولى : في تفسير قوله عليه السلام : « فاقتلوه ولن تقتلوه » فنقول : إنه لاتنافية بين
الأمر بالشيء والإخبار عن أنه لايقع ، كما أخبر الحكيم سبحانه عن أن أبا لهب لا يؤمن
وأمره بالإيمان ، وكما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) ثم قال :
﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ ^(٢) ، وأكثرت التكاليفات على هذا المنهاج .

[مسألة كلامية في الأمر بالشيء مع العلم بأنه لايقع]

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا في أنه تعالى قد يأمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر
عن أنه لايقع ؛ وإنما اختلفوا : هل يصح أن يريد ما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عنه أنه لايقع ؟
فقال أصحابنا : يصح ذلك ، وقالت المجبرة : لا يصح ؛ لأن إرادة ما يعلم المريد أنه لايقع قضية
متناقضة ، لأن تحت قولنا : « أراد » مفهوم أن ذلك المراد مما يمكن حصوله ، لأن إرادة المحال
ممتنعة . وتحت قولنا : « إنه يعلم أنه لايقع » مفهوم أن ذلك المراد مما لايمكن حصوله ، لأننا قد

(١) سورة البقرة ٩٥

(٢) سورة الجمعة ٧

فرضنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصوله مع فرض كونه لا يقع ، فقال لهم أصحابنا : هذا يلزمكم في الأمر ؛ لأنكم قد أجزتم أن يأمر بما يعلم أنه لا يقع ، فقالوا في الجواب : نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد ، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عن أنه لا يقع . كان ذلك الأمر أمراً عارياً عن الإرادة ، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع ، وهاهنا لا إرادة .

فقيل لهم : هب أنكم ذهبتُم إلى أن الأمر قد يعرَى من الإرادة مع كونه أمراً ، أستم تقولون : إن الأمر يدلّ على الطلب ، والطلب شيء آخر غير الإرادة ! وتقولون : إن ذلك الطلب قائم بذات الباري ، فنحن نلزمكم في الطلب القائم بذات الباري ، الذي لا يجوز أن يعرَى ^(١) الأمر منه ما ألزمتونا في الإرادة .

ونقول لكم : كيف يجوز أن يطلب الطالب ما يعلم أنه لا يقع ! أليس تحت قولنا طلب مفهوم أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه ! فالحال في الطلب كالحال في الإرادة ، حدّو التعل بالمثل . ولنا في هذا الموضوع أبحاث دقيقة ذكرناها في كتبنا الكلامية .

[فصل فيما روى من سبّ معاوية وحزبه لعلي]

المسألة الثانية : في قوله عليه السلام : « يأمركم بسبي والبراءة مني » ، فنقول : إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرها بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه .

وخطب بذلك على منابر الإسلام ، وصار ذلك سنة في أيام بني أمية إلى أن قام عمر ابن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه فأزاله . وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة : اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك ، وصدّ عن سبيلك

فألغنه لعنا وبيلا ، وعذبه عذاباً أليماً . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو عثمان أيضاً أن هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم ، فقام إليه إنسان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب ، فقال : اكفف ، فما لهذا جئنا .

وذكر المبرّد في "الكامل" ، أن خالد بن عبد الله القسريّ لما كان أمير العراق في خلافة هشام ، كان يلعن علياً عليه السلام على المنبر ، فيقول : اللهم العن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ! ثم يقبل على الناس ، فيقول : هل كنّيت ^(١) !

وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بني أمية قالوا للمعاوية : يا أمير المؤمنين ، إنك قد بلغت ما أملت ، فلو كفت عن لعن هذا الرجل ! فقال : لا والله حتى يربو عليه الصغير ، ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً !

وقال أبو عثمان أيضاً : وما كان عبد الملك مع فضله وأناته وسدّاده ورُجحانه ممن يخفى عليه فضلُ علي عليه السلام ، وإن لعنه على رؤس الأشهاد ، وفي أعطاف الخطب ، وعلى صهوات المنابر مما يعود عليه نقصه ، ويرجع إليه وهنه ، لأنهما جميعاً من بني عبد مناف ، والأصل واحد ، والجرثومة منبت لهما ، وشرف عليّ عليه السلام وفضله عائد عليه ، ومحسوب له ، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ مافعله الأسلاف ، وأن يقرّر في أنفُس الناس أن بني هاشم لاحظّ لهم في هذا الأمر ، وأن سيّدَهم الذي به يصلون ، وبفخره يفخرون ،

(١) الكامل ٤١٤ (طبع أوروبا) .

هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَنْ ينتمى إليه ويُدلى به عن الأمر أبداً ، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح .

ورى أهل السيرة أن الوليد بن عبد الملك في خلافته ذكر علياً عليه السلام ، فقال : لعنه « الله » بالجر ، كان لص ابن لص .

فعجب الناس من لحنه فيما لا يلحن فيه أحد ، ومن نسبته علياً عليه السلام إلى اللصوصية وقالوا : ما ندري أيهما أعجب ! وكان الوليد لحاناً .

وأمر المغيرة بن شعبة - وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل معاوية - حُجْر بن عدى أن يقوم في الناس ، فيلعن علياً عليه السلام ، فأبى ذلك ، فتوعده ، فقام فقال : أيها الناس ، إن أميركم أمرني أن ألعن علياً فالعنوه . فقال أهل الكوفة : لعنه الله ! وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد .

وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه . وأن يقتل كل من امتنع من ذلك ، ويُخرب منزله ، فضر به الله ذلك اليوم بالطاعون ، فمات - لارحمه الله - بعد ثلاثة أيام ، وذلك في خلافة معاوية .

وكان الحجاج لعنه الله يلعن علياً عليه السلام ، ويأمر بلعنه . وقال له متعرض به يوماً وهو راكب : أيها الأمير ، إن أهلي عَقُونِي فسمَوْنِي علياً ، فغير اسمي ، وصلني بما أتبلغ به ، فإني فقير . فقال : لِلطُّف ما توصلت به قد سميتك كذا ، ووليتك العمل الفلاني فاشخص إليه .

فأما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإنه قال : كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود ، فمرّ بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان ، ونحن نلعنُ علياً ،

فكره ذلك ودخل المسجد ، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وزدى ، فلما رآنى قام فصلّى وأطالَ فى الصلاة - شبه المعروض عني ، حتى أحسست منه بذلك ، فلما انفتل من صلاته كَلَحَ فى وجهى ، فقلت له : ما بال الشيخ ؟ فقال لى : يا بنى ، أنت اللاعن علياً منذ اليوم ا قلت : نعم ، قال : فمتى علمتَ أن الله سَخِطَ على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم ! فقلت : يا أبت ، وهل كان على من أهل بدر ؟ فقال : ويحك ! وهل كانت بدر كلهم ! إلا له ا فقلت : لا أعود ، فقال : الله أنك لانعود ! قلت : نعم . فلم العنه بعدها ، ثم كنتُ أحضر تحت منبر المدينة ، وأبى يخطب يوم الجمعة ، وهو حينئذ أمير المدينة ، فكنت أسمع أبى يمر فى خطبته تهدير شفاشقه ، حتى يأتى إلى لعن على عليه السلام فيجتمجم ، ويمرض له من الفهاة والحصر ما الله عالم به ، فكنت أعجب من ذلك ، فقلت له يوماً : يا أبت ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم ، فما بالى أراك أفصحَ خطيب يوم حَفَلِك ، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل ، صيرتَ ألكن عيياً ! فقال : يا بنى ، إن من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم ، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعله أبوك لم يتبعنا منهم أحد . فوقرت كلمته فى صدرى ؛ مع ما كان قاله لى معلى أيام صغرى ، فأعطيت الله عهداً ؛ إن كان لى فى هذا الأمر نصيب لأغيرته ، فلما من الله على بالخلافة أسقطت ذلك ، وجعلت مكانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(١) ، وكتبت به إلى الآفاق فصار سنة .

وقال كثير بن عبد الرحمن يمدح عمرَ ويذكر قطعه السبِّ :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف
برياً ولم تقبل إساءة مجرم^(٢)
وكفرت بالعمو الذنوب مع الذى
أتيت فأضحى راضياً كل مسلم

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الأغاني ٩ : ٢٥٨ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية .

الأإنما يكفى الفتى بعد زبغه من الأود البادى ثفاف المقوم
وما زلت تواقا إلى كل غاية بلغت بها أعلى العلاء المقدم
فلسا أذاك الأمر عفواً ولم يكن لطالب دنياً بعده من تكلم
تركت الذى يفنى لأن كان بائدا وآثرت ما يبقى برأى مصمم

وقال الرضى أبو الحسن رحمه الله تعالى :

يا بن عبد العزيز لو بكت العين فتى من أمية لباكيتك (١)
غير أنى أقول إنك قد طببت وإن لم يطب ولم يرك يبتك
أنت نزهتنا عن السب والقذ ف؛ فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو أنى رأيت قبرك لاستحييت من أن أرى وما حيتك
وقليل أن لو بزلت دماء السبدن صرفاً على الذرا وسقيتك
دير سمعان فيك ماوى أبى حنيفة هو بودى لو أنى آويتك
دير سمعان لا أغبك غيث خير مبيت من آل مروان مبيتك (٢)
أنت بالذكر بين عيني وقلبي إن تدانيت منك أو إن نايتك
وإذا حرك الحشا خاطر منك توهمت أنى قد رأيتك
وعجيب أنى قلنت بنى مره وان طراً وأننى ما قلنتك
قرب العدل منك لما نأى الجوز رهم فاجتويتهم واجتيتك
فلو أنى ملكت دفعا لمانا بك من طارق الردى لقد ديتك

(١) ديوانه لوحة ١٢٤

(٢) دير سمعان ، بكسر السين وفتحها ؛ دير بنواحي دمشق عنده قبر عمر بن عبد العزيز (ياقوت)

وروى ابن السكبي ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هاني ، وهو رجل من بني أودة حتى من قحطان ، وكان شريفاً في قومه ، قد شهد مع الحجاج مشاهدة كلها ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كفاتك بعد ! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجه سيد بني فزارة : أن زوّج عبد الله بن هاني بابنتك ، فقال : لا والله ولا كرامة ! فدعا بالسياط ، فلما رأى الشرّ قال : نعم أزوجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس المهداني رئيس اليمانية : زوّج ابنتك من عبد الله بن أود ، فقال : ومن أود ! لا والله لا أزوجه ولا كرامة ! فقال : على بالسيف ، فقال : دَعْنِي حتى أشاور أهلي ، فشاوهم ، فقالوا : زوّجه ولا تعرض نفسك لهذا الفاسق ، فزوجه . فقال الحجاج لعبد الله : قد زوجتُك بنت سيد فزارة وبنت سيد همدان ، وعظيم كهلان وما أود هناك ! فقال : لا تقل أصلح الله الأمير ذاك ! فإن لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب ، قال : وما هي ؟ قال : ما سبَّ أمير المؤمنين عبد الملك في نادٍ لنا قط ، قال : منقبة والله ، قال : وشهد مِنّا صِفِّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً ، ماشهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرأً سوء ، قال : منقبة والله ، قال : ومنا نسوة نَدَرْنَ : إن قتل الحسين بن علي أن تنحر كل واحدة عشر قلائص ، ففعلن ، قال : منقبة والله ، قال : وما مِنّا رجل عُرِضَ عليه شتمُ أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيه حسناً وحسيناً وأمهما فاطمة ، قال : منقبة والله ، قال : وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة مالنا ، فضحك الحجاج ، وقال : أما هذه يا أبا هاني فدعها . وكان عبدُ الله دميماً شديد الأدمة^(١) مجدوراً في رأسه عَجْر ، مائل الشّدق ، أحول قبيح الوجه ، شديد الحول .

وكان عبد الله بن الزبير يُبغض علياً عليه السلام ، وينتقصه وينال من عرضه .

وروى عمر بن شبة وابن الكلابي والواقدي وغيرهم من رواة السير، أنه مكث أيام ادعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلّي فيها على النبي صلى الله عليه وآله، وقال: لا يمنعني من ذكره إلا أن تسمخ رجال بآنافها.

وفي رواية محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: أن له أهيل سوء يُنفضون رؤوسهم عند ذكره.

وروى سعيد بن جبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس: ما حديثُ أسمعهُ عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تأنيبي وذمي! فقال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بئس المرء المسلم يشبع ويجوع جاره»، فقال ابن الزبير: إني لأكتم بفضلكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة. وذكر تمام الحديث.

وروى عمر بن شبة أيضا عن سعيد بن جبير، قال: خطب عبد الله بن الزبير، فقال من على عليه السلام، فبلغ ذلك محمد بن الحنفية، فجاء إليه وهو يخطب، فوضع له كرسي، فقطع عليه خطبته، وقال: يامعشر العرب، شامت الوجوه! أئنتقصُ علي وأتم حضورا! إن عليا كان يد الله على أعداء الله، وصاعقة من أمره، أرسله على الكافرين والجاحدين لحقه، فقتلهم بكفرهم فشتنوه وأبغضوه، وأضرموا له السيف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وآله حتى بعد لم يمت؛ فلما نقله الله إلى جواره، وأحب له ما عنده، أظهرت له رجال أحقادها، وشفّت أضعانها، فمنهم من ابتزّه حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم من شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لدريته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفر على أجسادهم؛ والأبدان منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذل رقابهم، فيكون الله عز اسمه قد عذبهم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشفّا صدورنا منهم؛ إنه والله ما يشتم عليا إلا كافر يسير شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوح به،

فيكنى بشتم على عايبه السلام عنه . أما إنه قد تحطت المنية منكم من امتدّ عمره ، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، فعاد ابن الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرتُ بنى الفواطم يتكلمون ؛ فما بال ابن أم حنيفة ! فقال محمد : يا بن أم رومان ^(١) ؛ ومالي لأتكم ، وهل فاتني من الفواطم إلا واحدة ! ولم يفتني غيرها ؛ لأنها أم أخوي . أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائد بن مخزوم ، جدة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، كافلة رسول الله صلى الله عليه وآله ، والقائمة مقام أمه ؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماترتك في بنى أسد بن عبد العزى عظما إلا هشمته ! ثم قام فانصرف .

[فصل في ذكر الأحاديث الموضوعة في ذم علي]

وذكر شيخنا أبو جعفر ^(٢) الإسكافي رحمه الله تعالى - وكان من المتحققين بموالاته على عليه السلام ، والمبالغين في تفضيله ؛ وإن كان القول بالتفضيل عاما شائعا في البغداديين من أصحابنا كافة ؛ إلا أن أبا جعفر أشدّهم في ذلك قولاً ، وأخلصهم فيه اعتقاداً - أن معاوية وضع قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام ، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه ؛ وجعل لهم على ذلك جعلا يرغّب في مثله ؛ فاختلقوا ما أراضاه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير .

روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه ، قال : حدثتني عائشة ، قالت : كنت عند

(١) كذا في ا ، ب ، وفي ج : « قتيلة » .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي ؛ من متكلمي المعتزلة وأحد أئمتهم ؛ وإليه تنسب الطائفة الإسكافية منهم ؛ وهو بغدادى أصله من سمرقند ؛ قال ابن النديم : كان عجيب الشأن في العلم والذكاء والسياسة ونبل الهمة والزهادة ؛ بلغ في مقدار عمره ما لم يبلغه أحد ؛ وكان المعتصم يعظمه . وله مناظرات مع السكرابيسى وغيره . توفي سنة ٢٤٠ ، أسان الميزان ٥ : ٢٢١

رسول الله إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال : يا عائشة ، إن هذين يموتان على غير ملتي -
أو قال ديني .

وروى عبد الرزاق عن معمر ، قال : كان عند الزهريّ حديثان عن عُرْوَة عن عائشة
في عليّ عليه السلام ؛ فسألته عنهما يوما ، فقال : ماتنصع بهما وبجديهما ! الله أعلم بهما ؛
إني لأتھمهما في بني هاشم .

قال : فأما الحديث الأول ؛ فقد ذكرناه ؛ وأما الحديث الثاني فهو أن عُرْوَة زعم أن
عائشة حدثته ، قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال :
«يا عائشة ؛ إن سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا» ،
فنظرت ، فإذا العباس وعليّ بن أبي طالب .

وأما عمرو بن العاص ، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاريّ ومسلم في صحيحيهما
مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إن
آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليّ الله وصالح المؤمنين » .

وأما أبو هريرة ، فروى عنه الحديث الذي معناه أن عليا عليه السلام خطب ابنة
أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسخطه ، فخطب على المنبر ، وقال :
لاها الله ! لا تجتمع ابنة وليّ الله وابنة عدو الله أبي جهل ! إن فاطمة بضعة^(١) مني يؤذيها
ما يؤذيها ؛ فإن كان علي يريد ابنة أبي جهل فيلقارق ابنتي ، وليفعل ما يريد ، أو كلاما
هذا معناه ، والحديث مشهور من رواية الكرايبسي .

قلت : هذا الحديث أيضا مخرج في صحيحي مسلم والبخاري عن المسور بن مخرمة
الزهريّ ؛ وقد ذكره المرتضى في كتابه « المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة » ، وذكر أنه رواية

(١) بضعة ، أى قطعة .

حسين السكرايبي^(١)، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعداوتهم
والمناصبه لهم، فلا تقبل روايته.

ولشباع هذا الخبر وانتشاره ذكره مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها الرشيد،
ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنعى عليهم، ويذمهم، وقد بالغ حين ذمّ عليا عليه
السلام ونال منه، وأولها:

سَلَامٌ عَلَى جُبَلٍ ، وَهَيْهَاتَ مِنْ جَمَلٍ وَيَا حَبْبًا جَمَلٌ وَإِنْ صَرَمَتْ حَبْلِي
يقول فيها :

عَلَى أَبِيكُمْ كَانَ أَفْضَلَ مِنْكُمْ أَبَاهُ ذُو الشُّورَى وَكَانُوا ذُرَى الْفَضْلِ
وَسَاءَ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ سَاءَ بَنَتْهُ بِحَبْطِهِ بِنْتَ الْعَيْنِ أَبِي جَمَلٍ
فَذَمَّ رَسُولَ اللَّهِ صَهْرَ أَبِيكُمْ عَلَى مَنْبَرٍ بِالْمَنْطِقِ الصَّادِعِ الْفَضْلِ
وَحَكَمَ فِيهَا حَاكِمِينَ أَبِيكُمْ هَا خَلَصَ خَلْعَ ذِي النَّعْلِ لِلنَّعْلِ
وَقَدْ بَاعَهَا مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ ابْنُهُ فَقَدْ أَبْطَلَتْ دَعْوَاكُمْ الرُّثَّةُ الْحَبْلِ
وَخَلَيْتُمُوهَا وَهِيَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا وَطَالِبْتُمُوهَا حِينَ صَارَتْ، إِلَى أَهْلِ

وقد روى هذا الخبر على وجوه مختلفة، وفيه زيادات متفاوتة؛ فمن الناس من يروى
فيه: «مهما ذمنا من صهر فإننا لم نذم صهر أبي العاص بن الربيع»، ومن الناس من يروى
فيه: «ألا إن بني المغيرة أرسلوا إلى عليّ ليزوجه كريمتهم»؛ وغير ذلك.

وعندي أن هذا الخبر لو صح لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قدح، لأن

(١) هو أبو علي الحسين بن علي بن يزيد السكرايبي البغدادي؛ صاحب الإمام الشافعي، وأشهرهم
بارتياد مجلسه وأحفظهم لمذهبه؛ وله تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه. توفي سنة ٢٤٨. ابن
خلكان ١: ١٤٥

الأمة مجمعة على أنه لو نكح ابنة أبي جهل ، مضافا إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز ، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع ؛ فابنة أبي جهل المشار إليها كانت مسلمة ، لأن هذه القصة كانت بعد فتح مكة ، وإسلام أهلها طوعا وكرها ، ورواة الخبر موافقون على ذلك ؛ فلم يبق إلا أنه إن كان هذا الخبر صحيحا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى فاطمة عليها السلام قد غارت ، وأدركها ما يدرك النساء ، عاتب عليها عيبه السلام عتاب الأهل ، وكما يستتبت الوالد رأى الولد ، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلاح زوجته . ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام فخرّف وزيد فيه . ولو تأملت أحوال النبي صلى الله عليه وآله مع زوجاته ، وما كان يجري بينه وبينهن من الغضب تارة ، والصلح أخرى ، والسخط تارة والرضا أخرى ، حتى بلغ الأمر إلى الطلاق مرة ، وإلى الإيلاء مرة ، وإلى الهجر والقطيعة مرة ، وتدبرت ما ورد في الروايات الصحيحة مما كُنّ يلقينه عليه السلام به ، وبُسمِعنه إياه ؛ لعلمت أن الذي عاب الحسدة والشائنون عليّا عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط ، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تينك الامراتين من الأحوال والأقوال ؛ حتى أنزل فيهما قرآن يُتلى في المحاريب ، ويكتب في المصاحف ، وقيل لهما ما لا يبال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حيا ، منابذا رسول الله صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (١) ، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف : ﴿ عَمَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ . . . ﴾ (١) الآيات بتامها . ثم ضرب لهما مثلا امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعليهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وتام الآية معلوم ، فهل ما روى في الخبر من تعصب فاطمة على عليّ عليه السلام

وغيرتها من تعريض بنى المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قويس إلى هذه الأحوال وغيرها :
تأ كان يجرى ، إلا كنسبة التأيف^(١) إلى حرب البسوس ! ولكن صاحب الهوى والعصية
لا علاج له .

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبي جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى . قال أبو جعفر :
وروى الأعمش ، قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة ، جاء إلى مسجد
الكوفة ، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جنأ على ركبته ، ثم ضرب صلته مرارا ،
وقال : يا أهل العراق ، أنزعون أنى أ كذب على الله وعلى رسوله ، وأحرق نفسى بالنار !
والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إن لكل نبي حَرَمًا ، وإن
حَرَمى بالمدينة ، ما بين عَيْر إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين » ، وأشهد بالله أن عليا أحدث فيها ؛ فلما بلغ معاوية قوله أجازاه وأكرمه
وولاه إمارة المدينة .

قلت : أما قوله : « ما بين عَيْر إلى ثور^(٢) » ، فالظاهر أنه غلط من الراوى ، لأن ثورا بمكة
وهو جبل يقال له : ثور أطلح ، وفيه الغار الذى دخله النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر ؛ وإنما
قيل : « أطلح » لأن أطلح بن عبد مناف بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار
ابن عدنان كان يسكنه . وقيل اسم الجبل أطلح ، فأضيف « ثور » إليه ؛ وهو ثور بن عبد مناف ،
والصواب : « ما بين عَيْر إلى أحد » .

فأما قول أبي هريرة : « إن عليا عليه السلام أحدث فى المدينة » ، فحاش لله ! كان على
عليه السلام أتقى لله من ذلك ؛ والله لقد نصر عثمان نصرالو كان المحصور جعفر بن أبى طالب
لم يبدل له إلا مثله .

قال أبو جعفر : وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضى الرواية ، ضربه عمر

(١) ج : « التأيف » .

(٢) عير : جبل بالحجاز .

بالدرة ، وقال : قد أ كثرَ من الرواية وأخر بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه !

وروى سفيان الثوري عن منصور ، عن إبراهيم التيمي ، قال : كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلا ما كان من ذكر جنة أو نار .

وروى أبو أسامة عن الأعمش ، قال : كان إبراهيم صحيح الحديث ، فكنت إذا سمعت الحديث أتيتُه فعرضتُه عليه ، فأثبته يوماً بأحد من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، فقال : دعني من أبي هريرة ، إنهم كانوا يتركون كثيراً من حديثه .

وقد روى عن علي عليه السلام أنه قال : ألا إن أ كذبَ الناس - أو قال : أ كذبَ الأحياء - على رسول الله صلى الله عليه وآله أبو هريرة الدؤسي .

وروى أبو يوسف ، قال : قلت لأبي حنيفة : انظر يحيى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يخاف قياسنا ما تصنع به ؟ قال : إذا جاءت به الرواة الثقات عملنا به وتركنا الرأي ، فقلت : ما تقول في رواية أبي بكر وعمر ؟ فقال : ناهيك بهما ! فقلت : علي وعثمان ، قال : كذلك ، فلما رأني أعدت الصحابة قال : والصحابة كلهم عدول ما عدأ رجالاتي ، ثم عدت منهم أبا هريرة وأنس بن مالك .

وروى سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن عمر بن عبد الغفار ، أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية ، كان يجلس بالعشيات بباب كندة ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شاب من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هريرة ، أنشدك الله ، أسمعك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ! فقال : اللهم نعم ، قال : فأشهد بالله ، لقد واليت عدوه ، وعاديت وليه ! ثم قام عنه .

وزوت الرواة أن أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان في الطريق ، ويلعب معهم ، وكان يخطب وهو أمير المدينة ، فيقول : الحمد لله الذي جعل الدين قياما ، وأبا هريرة إماما ؛ يضحك الناس بذلك . وكان يمشى وهو أمير المدينة في الشوق ، فإذا انتهى إلى رجل يمشى أمامه ، ضرب برجليه الأرض ، ويقول : الطريق الطريق ! قد جاء الأمير ! يعني نفسه .

قلت : قد ذكر ابن قتيبة هذا كله في كتاب " المعارف " ،^(١) في ترجمة أبي هريرة ، وقوله فيه حجة لأنه غير متهم عليه .

قال أبو جعفر : وكان المغيرة بن شعبه يلعنُ عليا عليه السلام لعنا صريحا على منبر الكوفة وكان بلغه عن عليّ عليه السلام في أيام عمر أنه قال : لئن رأيتُ المغيرة لأرجمنه بأحجاره - يعني واقعة الزنا بالمرأة التي شهد عليه فيها أبو بكر ، ونكل زياد عن الشهادة - فكان يُبغضه لذلك وانفيره من أحوال اجتمعت في نفسه .

قال : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الرّمع^(٢) عند ذكر عليّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : وما يعني أنه لم يخالف إلى ما نهى عنه وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق !

قال : وقد كان في المحدثين من يُبغضه عليه السلام ، ويروى فيه الأحاديث المنكرة ؛ منهم حرّيز بن عثمان ، كان يُبغضه وينتقصه ، ويروى فيه أخبارا مكذوبة . وقد روى

(١) المعارف ص ١٢١
(٢) الرّمع : تحريك الأنف غضبا .

المحدثون أنّ حَرِيْزاً رُئِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَقِيلَ لَهُ . مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ قَالَ : كَادَ يَغْفِرُ لِي لَوْلَا بَغْضُ عَلِيٍّ .

قلت: قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب " السقيفة " ، قال : حدثني أبو جعفر بن الجنيد ، قال : حدثني إبراهيم بن الجنيد ، قال : حدثني محفوظ ابن الفضل بن عمر ، قال : حدثني أبو البهلول يوسف بن يعقوب ، قال : حدثنا حمزة ابن حسان - وكان مولى ابني أمية ، وكان مؤذناً عشرين سنة ، وحجّ غير حجة ، وأثنى أبو البهلول عليه خيراً - قال : حضرت حَرِيْزَ بْنَ عُمَانَ ، وَذَكَرَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ : ذَاكَ الَّذِي أَحَلَّ حَرَمَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، حَتَّى كَادَ يَقَعُ .

قال محفوظ : قلت ليعحي بن صالح الوُحَاظِيّ : قد رويت عن مشايخ مِنْ نَظَرَاءِ حَرِيْزٍ ، فَمَا بَالُكَ لَمْ تَحْمِلْ عَنْ حَرِيْزٍ ؟ قَالَ : إِنِّي أَتَيْتُهُ فَنَاقَلْتَنِي كِتَابَهَا ، فَإِذَا فِيهِ : حَدَّثَنِي فَلَانٌ عَنْ فَلَانٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْصَى أَنْ تُقَطَعَ يَدُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَرَدَدْتُ الْكِتَابَ ، وَلَمْ أُسْتَحَلَّ . أَنْ أُكْتُبَ عَنْهُ شَيْئًا .

قال أبو بكر : وحدثني أبو جعفر ، قال : حدثني إبراهيم ، قال : حدثني محمد ابن عاصم ، صاحب الخانات ، قال : قال لنا حَرِيْزُ بْنُ عُمَانَ : أَتَمُّ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ تَجْبُرُنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ نُبْغِضُهُ ، قَالُوا : لَمْ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُ قَتَلَ أَجْدَادِي .
قال محمد بن عاصم : وكان حَرِيْزُ بْنُ عُمَانَ نَازِلًا عَلَيْنَا .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وكان المغيرة بن شعبه صاحبَ دُنْيَا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِالْقَلِيلِ النَّزْرَ مِنْهَا ، يُرِضِي مَعَاوِيَةَ بِذِكْرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ يَوْمًا فِي مَجْلَسِ مَعَاوِيَةَ : إِنَّ عَلِيًّا لَمْ يُنْكَحْهُ رَسُولُ اللَّهِ ابْنَتُهُ حَبَابًا ؛ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكْفِيَهُ بِذَلِكَ إِحْسَانَ أَبِي طَالِبٍ إِلَيْهِ .

قال : وقد صح عندنا أن المغيرة لعنه على منبر العراق مراتٍ لا تحصى ؛ ويروى أنه لما مات ودفنوه ، أقبل رجل راكب ظليماً ، فوقف قريباً منه ثم قال :

أمن رَسْمِ دَارٍ مِنْ مَغِيرَةَ تَعْرِفُ عَلَيْهَا زَوَانِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تَعْرِفُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ لَاقَيْتَ فِرْعَوْنَ بَعْدَنَا وَهَامَانَ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَا الْعَرْشِ مَنْصِفُ

قال : فطلبوه فغاب عنهم ولم يروا أحداً ، فعلموا أنه من الجن .

* * *

قال : فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقل من أن يذكر في الصحابة الذين قد غمضناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم ؛ لأنه كان مجاهراً بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص ؛ وهما الطريدان اللعينان ، كان أبوه عدو رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه في مشيه ، ويفمز عليه عينه ، ويدلج^(١) له لسانه ويتهم به ، ويتهافت عليه ؛ هذا وهو في قبضته وتحت يده ، وفي دار دعوته بالمدينة ؛ وهو يعلم أنه قادر على قتله أي وقت شاء من ليل أو نهار ، فهل يكون هذا إلا من شانى شديد البغضة ، ومستحکم العداوة ؛ حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة ، وسيره إلى الطائف .

وأما مروان ابنه فأحبب عقيدة ، وأعظم إلحاداً وكفراً ؛ وهو الذي خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة ؛ وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال :

يَا حَبْدًا بَرْدُكَ فِي الْيَدَيْنِ وَحُمْرَةٌ تُجْرِي عَلَى الْخَدَّيْنِ

* كَأَنَّما بَتَّ بِمَحْشَدَيْنِ *

(١) يدلج لسانه . يخرججه .

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبي ، وقال : يا محمد ، يوم بيوم بدر . وهذا القول مشتق من الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزُبَيْرِ يوم وصل الرأس إليه . والخبر مشهور^(١) .

قلت : هكذا قال شيخنا أبو جعفر ؛ والصحيح أن مروان لم يكن أميرَ المدينة يومئذ ؛ بل كان أميرَها عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحمل إليه الرأس ؛ وإنما كتب إليه حُيد بن زياد يبشّره بقتل الحسين عليه السلام ؛ فقرأ كتابه على المنبر ، وأنشد الرجز المذكور ، وأوماً إلى القبر قائلاً : يوم بيوم بدر ، فأنكر عليه قوله قومٌ من الأنصار . ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب "المثالب" .

قال : وروى الواقدي أن معاوية لما عادَ من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال : أيها الناس ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي : « إنك ستلي الخلافة من بدي ، فأختر الأرض المقدّسة ، فإن فيها الأبدال ؛ وقد اخترتكم ، فالتنوا أبا تراب . فلتنوه ، فلما كان من الصد كتب كتاباً ، ثم جمعهم فقرأ عليهم ؛ وفيه : هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية ، صاحب وحى الله الذي بعث محمداً نبياً ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فاصطفى له من أهله وزيراً كاتباً أميناً ، فكان الوصي ينزلُ على محمد وأنا أكتبه ؛ وهو لا يعلم ما أكتب ؛ فلم يكن بيني وبين الله أحدٌ من خلقه . فقال له الحاضرون كلهم : صدقت يا أمير المؤمنين .

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الصالبيين ١١٩ : « وقيل : إنه تمثل أيضا والرأس بين يديه بقول عبد الله بن الزبيرى :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدْرِ شَهْدُوا جَزَعَ انْخَرْجَ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ
قَدْ قَتَلْنَا الْقَرَمَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَا بِبَدْرِ فَاغْتَدَلِ

والبيتان من قصيدة أنشدها يوم أحد ؛ في الحيوان ٥ : ٥٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٤ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩ ، ٢٠٠

قال أبو جعفر : وقد روى أن معاوية بذل لِسَمْرَةَ بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروى أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْإِخْلَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾^(١)، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشِرُ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾^(٢)، فلم يقبل ، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل فبذل له ثلثمائة ألف فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة ألف فقبل ، وروى ذلك .

قال : وقد صحّ أن بنى أمية منَعُوا من إظهار فضائل علي عليه السلام ، وعاقبوا ذلك الراوى له ؛ حتى إن الرجل إذا رَوَى عنه حديثا لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسرُ علي ذكر اسمه ؛ فيقول : عن أبي زينب .

وروى عطاء ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : ودِدْتُ أن أترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام يوما إلى الليل ؛ وأن عُنُقِي هذه ضربت بالسيف .

قال : فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطع نقلها للخوف والتقية ، من بنى مروان مع طول المدّة ، وشدة العداوة ؛ ولولا أن لله تعالى في هذا الرجل سرًّا يعلمه من يعلمه لم يُرَوَّ في فضله حديث ، ولا عُرِفَتْ له منقبة ؛ ألا ترى أن رئيس قرية لو سخِط على واحد من أهلها ، ومنع الناس أن يذكروه بخيرٍ وصالحٍ لخلل ذكره ، ونسى اسمه ، وصار وهو موجود معدوما ، وهو حيٌّ ميتا . هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى في هذا المعنى في كتاب التفضيل .

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) سورة البقرة ٢٠٧

[فصل في ذكر المنحرفين عن عليّ]

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أن عدة من الصحابة والتابعين والمحدثين كانوا منحرفين عن علي عليه السلام ، قائلين فيه السوء ، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلا مع الدنيا ، وإيثارا للعاجلة ؛ فتنهم أنس بن مالك ، ناشد عليّ عليه السلام الناس في رحبة القصر - أو قال رحبة الجامع بالكوفة - : أأيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ » ؟ فقام اثنا عشر رجلا فشهدوا بها ، وأنس بن مالك في القوم لم يقم ، فقال له : يا أنس ، ما يمنعك أن تقوم فتشهد ، ولقد حضرتها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كبرتُ ونسيتُ ، فقال : اللهم إن كان كاذبا فارمه بها بيضاء لاتوارى بها العامة . قال طلحة بن عمير : فوالله لقد رأيتُ الوَاضِحَ به بعد ذلك أبيض بين عينيه .

وروى عثمان بن مطرف أن رجلا سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن علي بن أبي طالب ، فقال : إني آليتُ ألا أكنم حديثا سئلت عنه في عليّ بعد يوم الزحبة ؛ ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة ، سمعته والله من نبيكم .

وروى أبو إسرائيل عن الحكم عن أبي سليمان المؤذن ، أن عليا عليه السلام نشد الناس مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، يَقُولُ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ » ! فشهد له قوم وأمسك زيد بن أرقم ، فلم يشهد - وكان يعلمها - فدعا علي عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمى ، فكان يحدث الناس بالحديث بعد ما كُفِّ بصره .

قالوا : وكان الأشعث بن قيس الكندي وجري بن عبد الله البجليّ يُبغضانه ؛ وهدم عليّ عليه السلام دار جري بن عبد الله .

قال إسماعيل بن جري : هدم عليّ دارنا مرتين .

وروى الحارث بن حصين ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبد الله ثقلين من نعاله ، وقال : احتفظ بهما ، فإن ذهبتاهما ذهب دينك ؛ فلما كان يوم الجمل ذهبت إحداهما ، فلما أرسله على عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى ؛ ثم فارق عليا واعتزل الحرب .

وروى أهل السيرة أن الأشعث خطب إلى علي عليه السلام ابنته ، فزّبره ، وقال : يا بن الحائك ، أغرك ابن أبي قحافة !
وروى أبو بكر الهدليّ عن الزهريّ ، عن عبيد الله بن عدى بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف ، قال : قام الأشعث إلى علي عليه السلام ، فقال : إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليك عهدا لم يعهده إلى غيرك ؛ فقال : إنه عهد إلى ماني قراب سيفي ؛ لم يعهد إلى غير ذلك . فقال الأشعث : هذه إن قاتها فهي عليك لالك ؛ دّعها ترحل عنك ، فقال له : وما علمك بما على مالى ! منافق ابن كافر ، حائك ابن حائك ! إني لأجد منك تيه الفرل^(١) . ثم التفت إلى عبيد الله بن عدى بن الخيار ، فقال : يا عبيد الله ، إنك لتسمع خلافا وترى عجبا ، ثم أنشد :

أصبحت هزا لراعي الضأن أتبعه^(٢) ماذا يربيك منى راعي الضأن !

وقد ذكرنا في بعض الروايات المتقدمة أن سب قوله هذه : « عليك لالك » ، أمر آخر ، والروايات تختلف .

وروى يحيى بن عيسى الرمليّ ، عن الأعمش : أن جريرا والأشعث خرجا إلى جبان^(٣) الكوفة ، فر بهما ضبّ يمدو ، وهما في ذمّ علي عليه السلام ، فنادياه : يا أبا حنبل ؛ هلم

(١) الفرل : المسترخى الخلق ، وفي ج « الفرل » .

(٢) ج : « أصبحت فردا » .

(٣) الجبان في الأصل : الصحراء ، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة ، وفي ١ : « إلى الجبال » .

وانظر مراد الاطلاع .

يدك نبايعك بالخلافة ، فبلغ عليا عليه السلام قولها ، فقال : أما إنهما يحشران يوم القيامة
وإمامهما ضب .

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفاً عنه عليه السلام ، روى شريك ، عن عثمان
ابن أبي زرعة ، عن زيد بن وهب ، قال : تذاكرنا القيام إذ مرّت الجنّاة عند عليّ عليه
السلام ، فقال أبو مسعود الأنصاريّ : قد كنا نقوم ، فقال عليّ عليه السلام : ذاك وأتم
يومئذ يهود .

وروى شعبة ، عن عبيد بن الحسن ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : حضرتُ
عليا عليه السلام ، وقد سأله رجل عن امرأة تُوفّي عنها زوجها وهي حامل ، فقال : تتربصُ
أبعدَ الأجلّين ، فقال رجل : فإن أبا مسعود بقول : وضئها انقضاء عدتها ، فقال عليّ
عليه السلام : إن فزوجا لا يعلم ؛ فبلغ قوله أبا مسعود ، فقال : بلى ، والله إنى لأعلم أن
الآخر شرّ .

وروى المنهال ، عن نعيم بن دجاجة ، قال : كنت جالسا عند عليّ عليه السلام ، إذ جاء
أبو مسعود ، فقال عليّ عليه السلام : جاءكم فرّوج ، فجاء فجلس ، فقال له عليّ عليه السلام :
بلغني أنك تُفتي الناس ، قال : نعم ، وأخبرهم إن الآخر شرّ ، قال : فهل سمعت من
رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا؟ قال : نعم ، سمعته يقول : « لا يأتي على الناس سنة مائة
وعلى الأرض عين تطرف » ، قال : أخطأت استك الحفرة ، وغلطت في أوّل ظنك ؛ إنما
عني من حضره يومئذ ، وهل الرخاء إلا بعد المائة !

وروى جماعة من أهل السَّير أن علياً عليه السلام كان يقول عن كعب الأخبار :
إنه لكذاب ؛ وكان كعب منحرفاً عن علي عليه السلام . وكان النعمان بن بشير الأنصارى
منحرفاً عنه ، وعدواً له ، وخاض الدماء مع معاوية خوفاً ، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى
قتل وهو على حاله .

وقد روى أن عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام ، وأن علياً
سيَّره إلى المدائن ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مات علي فلا أدري ما موته ، وإن قتل فمسي
أني إن قتل زوجت له .

ومن الناس من يجعل عمران في الشيعة .

وكان سمرة بن جندب من شرطة زياد ، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن ، قال :
جاء رجل من أهل خراسان إلى البصرة ، فترك مالا كان معه في بيت المال ، وأخذ براءة ،
ثم دخل المسجد فصلى ركعتين فأخذه سمرة بن جندب ، واتهمه برأى الخوارج ، فقدمه
فضرب عنقه ؛ وهو يومئذ على شرطة زياد ، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال ،
فقال أبو بكر : يا سمرة ، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَاكَرَ ﴾ . وَذَكَرَ
أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ ^(١) ، فقال : أخوك أمرني بذلك .

وروى الأعمش ، عن أبي صالح ، قال : قيل لنا : قد قدم رجل من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فأتيناه فإذا هو سمرة بن جندب ، وإذا عند إحدى رجله خنز ، وعند
الأخرى ثلج ، فقلنا : ما هذا ؟ قالوا : به النقرس ، وإذا قوم قد أتوه ، فقبالوا يا سمرة ،

ما تقول لرَبِّك غدا؟ تؤتى بالرجل فيقال لك : هو من الخوارج فتأمر بقتله؟ ثم تؤتى بآخر فيقال لك : ليس الذى قتلته بخارجي ، ذاك فتى وجدناه ما ضياً في حاجته ، فشبّه علينا ، وإنما الخارجي هذا ، فتأمر بقتل الثاني ! فقال سمرة : وأى بأس في ذلك ؛ إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة ؛ وإن كان من أهل النار مضى إلى النار .

وروى واصل مولى أبي عيينة ، عن جعفر بن محمد بن علي عليه السلام عن آبائه ، قال : كان لسمرّة بن جندب نخل في بستان رجل من الأنصار ، فكان يؤذيه ، فشكا الأنصاري ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبعث إلى سمرة ، فدعاه فقال له : بع نخلك من هذا ، وخذ ثمنه ، قال : لا أفعل ، قال : فخذ نخلًا مكان نخلك ، قال : لا أفعل ، قال : فاشتر منه بستانه ، قال : لا أفعل ، قال : فاترك لي هذا النخل ولك الجنة ، قال : لا أفعل ، فقال صلى الله عليه وآله للأنصاري : « اذهب فاقطع نخله ، فإنه لاحق له فيه » .

وروى شريك قال : أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجر بن عدى ، قال : قدمت المدينة فجلست إلى أبي هريرة ، فقال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ، قال : ما فعل سمرة ابن جندب ؟ قلت : هو حي ، قال : ما أحدٌ أحبّ إليّ طول حياة منه ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي وله ولحذيفة بن اليمان : « آخركم موتاً في النار » ، فسبقنا حذيفة ؛ وأنا الآن أتمنى أن أسبقه ، قال : فبقى سمرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين .

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام ، قال : كان سمرة بن جندب أيام مسير

الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرطة عبيد الله زياد ، وكان يحرّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله .

ومن المنحرفين عنه ، للبغضين له عبد الله بن الزبير ؛ وقد ذكرناه آنفا ؛ كان على عليه السلام يقول : ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله ، فأفسده .

وعبد الله هو الذي حمل الزبير على الحرب ؛ وهو الذي زين لعائشة مسيرها إلى البصرة ؛ وكان سبّابا فاحشا ، يُبغض بنى هاشم ، ويلعن ويسب على بن أبي طالب عليه السلام . وكان على عليه السلام يقنّت في صلاة الفجر وفي صلاة المغرب ، ويلعن معاوية ، وعمرا ، والمنيرة ، والوليد بن عقبة ، وأبا الأعور ، والضحاك بن قيس ، وبُسْر بن أرطاة ، وحبيب بن مسلمة ، وأبا موسى الأشعري ، وعمرّوان بن الحكم ؛ وكان هؤلاء يقنّتون^(١) عليه ويلعنونه .

وروى شيخنا أبو عبد الله البصري المتكلم رحمه الله تعالى ، عن نصر بن عاصم الليثي ، عن أبيه ، قال : أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والناس يقولون : نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : معاوية قام الساعة ، فأخذ بيد أبي سفيان ، فخرجا من المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لعن الله التابع والمتبوع ؛ رب يوم لأمتي من معاوية ذى الأستاه » ، قالوا : يعنى الكبير العجّز .

وقال روى العلاء بن حريز القشيري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « لتتخذنّ يامعاوية البدعة سنة ، والقبيح حسنا ، أكلك كثير ، وظلمك عظيم » .

قال : وروى الحارث بن حصيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، قال : قال

(١) يقنّتون عليه : يدعون عليه .

على عليه السلام : نحن وآل أبي سفيان قوم تعادوا في الأمر ، والأمر يعود كما بدا .

قلت : وقد ذكرنا نحن في تلخيص نقض " السفينانية " ما فيه كفاية في هذا الباب .

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق ، عن جُنْدَب بن عبد الله ، قال : ذُكِرَ
المغيرة بن شُعبة عند عليّ عليه السلام وجده مع معاوية ، قال : وما المغيرة ! إنما كان إسلامه
لفجرةٍ وغدرةٍ غدرها بنفر من قومه فتك بهم ؛ وركبها ، فهرب منهم ؛ فأتى النبي صلى
الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام ؛ والله ما رأى أحداً عليه منذ ادعى الإسلام خُضوعاً
ولا خشوعاً ، ألا وإنه كان من ثقيف فراعنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق ، ويسنّرون
نيران الحرب ويوازرون الظالمين ؛ ألا إن ثقيفا قوم غُدُر ، لا يوفون بعهد ، يبغضون العرب
كأنهم ليسوا منهم ؛ ولرب صالح قد كان فيهم . فمنهم عروة بن مسعود وأبو عبيد بن مسعود
المستشهد يوم قسّ الناطف . وإن الصالح في ثقيف لفرّيب .

قال شيخنا أبو القاسم البلخي : من العلوم الذي لا ريب فيه لاشتهار الخبر به ؛ وإطباق
الناس عليه ، أن الوليد بن عُقبّة بن أبي مُعيط ، كان يُبغض علياً ويشتمه ، وأنه هو الذي
لأحاه في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ونابذه ، وقال له : أنا أثبتُ منك جنانا ،
وأحد سنانا ، فقال له علي عليه السلام : اسكت يا فاسق ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ أَفَعَنَ
كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ... ﴾ ^(١) الآيات المتلوة ؛ وسمى الوليد بحسب ذلك
في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق ؛ فكان لا يُعرفُ إلا بالوليد الفاسق .

وهذه الآية من الآيات التي نزل فيها القرآن بموافقة عليّ عليه السلام ، كما نزل في مواضع بموافقة عمر ؛ وسماه الله تعالى فاسقا في آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾^(١) ؛ وسبب نزولها مشهور ؛ وهو كذب به علي بن المصطلق ، وادعاؤه أنهم منعوا الزكاة وشهروا السيف ؛ حتى أمر النبي صلى الله عليه وآله بالتجهز^(٢) للمسير إليهم ؛ فأنزل الله تعالى في تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية^(٣) .

وكان الوليد مذموما معيبا عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبشئوه ويُعرض عنه ؛ وكان الوليد يُبغض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضا وبشئوه ، وأبوه عُقبة بن أبي مُعيط هو العدو الأزرق بمكة ، والذي كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه وأهله ؛ وأخباره في ذلك مشهورة ، فلما ظفر به يوم بدر ضرب عنقه . وورث ابنه الوليد الشنآن والبغضة^(٤) لمحمد وأهله ؛ فلم يزل عليهما إلى أن مات .

قال الشيخ أبو القاسم : وهو أحد الصبية الذين قال أبوه عُقبة فيهم ، وقد قُدم لِيُضْرَبَ عنقه : مَنْ للصبية يا محمد ، فقال : « النار ، اضربوا عنقه » .

قال : وللوليد شعر يقصد فيه الرد على رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال : « إن تولوها عليا ، تجدوه هاديا مهديا » . قال : وذلك أن عليا عليه السلام لما قتل قصد بنوه أن يُخَفُّوا قَبْرَهُ خوفا من بني أمية أن يحدِّثوا في قبره حدِّثًا ، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة - وهي ليلة دفنه - إيهاماتٍ مختلفة ، فشدُّوا على جمل تابوتا موثقا بالحبال ، يفوح منه روائح الكافور ، وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل صحبة ثقاتهم ، يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام ، وأخرجوا بَغْلًا وعليه جنازة^(٥) مغطاة ،

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) ج : التجهيز .

(٣) أسباب النزول ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤) البغضة : شدة البغض .

(٥) الجنازة ، بالكسر ويفتح : الميت .

يوهون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عدة، منها بالمسجد، ومنها برحبة القصر؛ قصر الإمارة، ومنها في حجرة من دور آل جمدة بن هبيرة الخزومي؛ ومنها في أصل دار عبد الله ابن يزيد القسري بجذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد، ومنها في الكناسة، ومنها في التوبة، فعسى كل الناس موضع قبره؛ ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواص المخلصون من أصحابه؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السحر في^(١) الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه على النجف، بالموضع المعروف بالفرى بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك، وعهد كان عهد به إليهم، وعسى موضع قبره على الناس؛ واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافا شديدا، وافترت الأقوال في موضع قبره الشريف وتشتبت، وادعى قوم أن جماعة من طي وقموا على جبل في تلك الليلة، وقد أضله أصحابه ببلادهم، وعليه صندوق، فظنوا فيه مالا، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يطلبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم؛ واعتقدوه حقا؛ فقال الوليد بن عقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها:

فإن يك قد ضلّ البعير بحمله فَمَا كان مهديًا ولا كان هاديا

وروى الشيخ أبو القاسم البلخي أيضا، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبي، قال: مرّ ناس بالحسن بن علي عليه السلام، وهم يريدون عيادة الوليد بن عقبة، وهو في علة له شديدة، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائدا، فقال للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس؛ إلا ما كان بيني وبين أبيك، فإني لا أتوب منه. قال شيخنا أبو القاسم البلخي: وأكّد بفضّه له ضربه إياه الحدّ في ولاية عثمان، وعزّله عن الكوفة.

(١) ج: « من الليلة ».

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين ؛ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا يُبغضك إلا منافق ، ولا يحبك إلا مؤمن » .

قال : وروى حَبَّةُ العُرْنَى ، عن عليّ عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل أخذ ميثاق كل مؤمن على حُبِّي وميثاق كل منافق على بغضِي ، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحببني .

وروى عبد الكريم بن هلال ، عن أسلم المكيّ ، عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، وهو يقول : لو ضربتُ خياشيمَ المؤمن بالسيف ما أبغضني ، ولو نثرتُ^(١) على المنافق ذهبا وفضة ما أحببني ؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبِّي وميثاق المنافقين ببغضِي ، فلا يُبغضني مؤمن ولا يحببني منافق أبدا .

قال الشيخ أبو القاسم البلخيّ : وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة ، قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض علي بن أبي طالب .

ذكر إبراهيم بن هلال ، صاحب كتاب " الغازات " ، فيمن فارق عليا عليه السلام والتحق بماوية يزيد بن حُجَيَّة التيميّ ، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وكان عليه السلام قد استعمله على الرِّمَى ودَسْتَبَنِي^(٢) ، فكسّر الخوارج ، واحتجج المال لنفسه ، فحبسه عليّ عليه السلام ، وجعل معه سعدا دِلاه ، فقرّب يزيد ركائبه ، وسعد نائم ، فالتحق بماوية ، وقال :

(١) ج : « صببت » .

(٢) دسّبتني ، بالفتح ، ثم السكون وفتح التاء : كورة كانت مشتركة بين الرى وهمدان .

خَادَعْتُ سَعْدًا وَارْتَمَتْ بِي رِكَابِي إِلَى الشَّامِ وَاخْتَرْتُ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ
وَغَادَرْتُ سَعْدًا نَائِمًا فِي عِبَادَةٍ (١) وَسَعْدٌ غُلَامٌ مُسْتَهَامٌ مُضَلَّلٌ

ثم خرج حتى أتى الرقة، وكذلك كان يصنع من يفارق عليا عليه السلام، يبدأ بالرقة حتى يستأذن معاوية في القدوم عليه، وكانت الرقة والزها وقرقيسيا (٢) وحران من حيز معاوية؛ وعليهم الضحاك بن قيس، وكانت هيت وعانات ونصيبين ودارا وآمد وسنجار من حيز علي عليه السلام؛ وعليها الأشتر، وكانا يقتتلان في كل شهر.
وقال يزيد بن حجية وهو بالرقة يهجو عليا عليه السلام:

يَاطُولَ لَيْلِي بِالرَّقَاتِ لَمْ أَنْمِ مِنْ غَيْرِ عِشْقِي صَبَّتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمِ
لَكِنْ لَذِكْرِ أُمُورٍ جَمَّةٍ طَرَقَتْ أَخَشَى عَلَى الْأَصْلِ مِنْهَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
أَخَشَى عَلِيًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلَ الْعَقُورِ الَّذِي عَنَى عَلَى إِرَمِ
وبعد ذلك ما لاندكره.

قال إبراهيم بن هلال: وقد كان زياد بن خصفة التيمي، قال لعلي عليه السلام يوم هرب يزيد بن حجية: ابعتني يا أمير المؤمنين في أثره أردّه إليك؛ فبلغ قوله يزيد بن حجية، فقال في ذلك:

أَبْلَغُ زِيَادًا أَنْتَى قَدْ كَفَيْتُهُ أُمُورِي وَخَلَيْتُ الَّذِي هُوَ عَاتِبُهُ
وَبَابٌ شَدِيدٌ مُوثِقٌ قَدْ فَتَحْتُهُ عَلَيْكَ، وَقَدْ أَعَيْتَ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهُ
هُبِلْتَ أَمَا تَرْجُو غَنَائِي وَمَشْهَدِي إِذَا لَخِصْمٍ لَمْ يُوجَدْ لَهُ مَنْ يُجَادِبُهُ! (٣)

(١) كذا في ج، وفي أ، ب « غيابة » .

(٢) قرقيسيا : بلد على الحابور عند مصبه .

(٣) يجاذبه ، أى يحوله عن طريقه .

فَأَقْسِمُ لَوْ لَا أَنْ أُمَّكَ أُمَّنَا وَأَنْكَ مَوْلَى مَا طَفِقْتُ أَعَاتِبُهُ
وَأَقْسِمُ لَوْ أَدْرَكْتَنِي مَارَدَدْتَنِي كَلَانَا قَدْ اصْطَفَتْ إِلَيْهِ جَلَابِئُهُ

قال ابن هلال : وكتب إلى العراق شعرا يذم فيه عليا عليه السلام ، ويخبره أنه من أعدائه ، فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصَّلَاةِ : ارفعوا أيديكم فادعوا عليه . فدعا عليه وأمن أصحابه .

قال أبو الصلت التيمي : كان دعاؤه عليه : اللهم إني يزيد بن حُجَّية هرب بمال المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين ، فاكفينا مكره وكيدَه واجزِهِ جزاء الظالمين .

قال : ورفع القومُ أيديهم يُؤمِّنون ، وكان في المسجد عِفاق بن شَرَحْبِيل بن أبي رهم التيمي شيخا كبيرا ، وكان يمدّ من شهد على حُجْر بن عدى حتى قتله معاوية ، فقال عِفاق : كَلَى مَنْ يَدْعُو القوم ؟ قالوا : عَلِيّ يزيد بن حُجَّية ، فقال : تَرَبَّتْ أيديكم ! أَطَلَى أشرافنا تدعون ! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلك . وقام زياد بن خَصَفَةَ - وكان من شيعة علي عليه السلام - فقال : دعوا لي ابنَ عَمِّي . فقال عليّ عليه السلام : دعوا للرجل ابنَ عمه ، فتركه الناس ، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد ، وجعل يمشي معه يمسح التراب عن وجهه ، وعِفاق يقول : وَاللَّهِ لَا أَحَبَّكُمْ مَأْسَعِيَتْ وَمَشِيَتْ ، وَاللَّهِ لَا أَحَبَّكُمْ مَا اخْتَلَفَت الذَّرَّةُ وَالْحَرَّةُ ؛ وزياد يقول : ذَلِكَ أَضْرَّ لَكَ ، ذَلِكَ شَرُّ لَكَ .

وقال زياد بن خَصَفَةَ يذكُر ضرب الناس عِفاقا :

دَعَوْتُ عِفاقا لِلهُدَى فَاسْتَعَشِنِي . يَوَلَى فَرِيًّا قَوْلُهُ وَهُوَ مُغْضَبٌ
وَلَوْلَا دَفَاعِي عَنْ عِفاقٍ وَمَشْهَدِي هَوَتْ بِعِفاقٍ عَوْضُ عَنقَاءِ مُغْرِبٍ (١)

(١) عوض ، معناه أبدا . وعنقاء مغرب ، قال في اللسان : « العنقاء المغرب : كلمة لا أصل لها ؛ ويقال إنها ضائر عظيم لا ترى إلا في الدهور ؛ ثم كثر ذلك حتى سماها الداهية عنقاء مغرباً ومغربة . »

أَنْبَتْهُ أَنْ الْمَهْدَى فِي اتِّبَاعِنَا فَيَأْبَى، وَيُضْرِبُهُ الْمِرَاءَ فَيَشْغَبُ^(١)
 فَإِلَّا يَشَابِعُنَا عِغَاقُ فَإِنَّا^(٢) عَلَى الْحَقِّ مَاغْنَى الْحَمَامِ الْمَطْرَبُ
 سَيُغْنِي إِيَّاهُ عَنْ عِغَاقٍ وَسَعِيهِ إِذَا بَعَثَ لِلنَّاسِ جَأْوَاءَ تُحْرَبُ^(٣)
 فَإِنَّكَ مِنْ حَتَّى مَعْدٍ وَمِثْلَهَا يَمَانِيَةٌ لِاتْتَنِّي حِينَ تُنْدَبُ^(٤)
 لَهُمْ عَدَدٌ مِثْلُ التَّرَابِ وَطَاعَةٌ تَوَدُّ، وَبَأْسٌ فِي الْوَعْيِ لَا يُؤَنَّبُ

فقال له عِغَاقُ : لو كنتُ شاعراً لأجيتك ؛ ولكنني أخبركم عن ثلاث خصال ، كن منكم ؛ والله ما أرى أن تُصيبوا بعدهن شيئاً مما يسركم :

أما واحدة ، فإنكم سرتم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم ؛ فلما ظنّ القومُ أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف ، فسحروا بكم فردوكم عنهم ، فلا والله لا تدخلونها بمثل ذلك الجِدَّةِ والحِدَّةِ والعدد الذي دخلتموها أبداً .

وأما الثانية ، فإنكم بعثتم حَكَمًا وبعث القوم حَكَمًا ؛ فأما حَكَمُكم فخلعكم ، وأما حَكَمُهم فأثبتهم ؛ فرجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين ورجعتم متلاعنين متباغضين ؛ فوالله لا يزال القوم في علاء ، ولا تزالون في سِفال .

وأما الثالثة ، فإنه^(٥) خالفكم قُرَاؤُكُمْ وفرسانكم فعدوئهم عليهم فذبحتموهم بأيديكم ؛ فوالله لا تزالون بعدها متضعضين^(٦) .

قال : وكان يمرّ عليهم بعد ، فيقول : اللهم إني منهم بريء ولا ابن عفان وليّ !
 فيقولون : اللهم إنا لئلى أولياء ومن ابن عفان برآء ، ومنك يا عِغَاقُ !

(١) الشغب : الشر .

(٢) ج : « يتابعنا » .

(٣) كتيبة جأواء : هي التي يعلوها لون السواد لكثرة الدروع .

(٤) تندب : تدعى فتخف للدعوى .

(٥) ج : « فإنكم » .

(٦) تضعض : خضع وذل .

قال : فأخذ لا يُقْلِع ؛ فدعوا رجلا منهم له سجاعة كسجاعة الكهان ، فقالوا : ويحك !
أما تكفيننا بسجعك وخطبك هذا ! فقال : كفيتمكم ، فرَّ عِفاق عليهم ، فقال كما كان
يقول ، فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتل عِفاقا ، فإنه أسرَّ نفاقا ، وأظهر شِقاقا ، وبينَ فراقا ،
وتلون أخلاقا .

فقال عِفاق : وَيَحْكُم ! من سَلَطَ على هذا ؟ قال : الله بعثني إليك ، وسَلَّطَني عليك
لأقطع لسانك ، وأنصِلَ سِنانك ^(١) ، وأطرد شيطانك .
قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد ؛ إنما يمرّ على مزينة .

ومن فارقة عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن
مُعْتَبِ الثقفى ، شهد مع على عليه السلام صفين ، وكان في أول أمره مع معاوية ؛ ثم صار
إلى على عليه السلام ، ثم رجع بعد إلى معاوية ، وكان على عليه السلام يسميه المهجّج ،
والمهجّج : الطويل .

ومنهم القمّاع بن شور ، استعمله على عليه السلام على كَسْكَر ، فنقم منه أمورا ؛ منها
أنه تزوج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم ؛ فهرب إلى معاوية .

ومنهم النجاشى الشاعر من بنى الحارث بن كعب ، كان شاعر أهل العراق بصفين ،
وكان على عليه السلام يأمر بمحاربة شعراء أهل الشام ، مثل كعب بن جُعَيْل وغيره ،
فشرب الخمر بالكوفة ، فخذه على عليه السلام ، فغضب ولحق بمعاوية ؛ وهجا عليا
عليه السلام .

(١) أنصِلَ السنان : جعل له سنا ، ونزعه عنه ، من الأضداد ؟

حدث ابن الكلبي عن عوانة ، قال : ^(١) خرج النجاشي في أول يوم من شهر رمضان ، فمر بأبي سمائل الأسدي ، وهو قاعد بفناء داره ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أردت الكناسة ، فقال هل لك في رءوس وآليات قد وضعت في التنور من أول الليل ، فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ قال : وينحك ! في أول يوم من رمضان ! قال : دعنا مما لا نعرف ، قال : ثم مه ، قال : أسقيك من شراب كالوزس ، يطيب النفس ، ويجري في العروق ، ويزيد في الطرقي ، يهضم الطعام ، ويسهل للفم ^(٢) الكلام ؛ فنزل فتغديا ، ثم أتاه بنبيد فشرباه ، فلما كان آخر النهار علت أصواتهما ، ولها جارٌّ من شيمة على عليه السلام ، فأتاه فأخبره بقصتهما ، فأرسل إليهما قوما فأحاطوا بالدار ، فأما أبو سمائل فوثب إلى دور بني أسد فأفلت ؛ وأخذ النجاشي ، فأتى عليه السلام به ، فلما أصبح أقامه في سراويل ، فضربه ثمانين ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الحد فقد عرفته ، فما هذه العلاوة ؟ قال : لجراءتك على الله ، وإفطارك في شهر رمضان . ثم أقامه في سراويله للناس ، فجعل الصبيان يصيحون به : خزى النجاشي ، خزى النجاشي ! وجعل يقول : كلاً إنها يمانية وكاؤها شعر ^(٣) .

قال : ومرة به هند بن عاصم السلولي ، فطرح عليه مطرفاً ، فجعل الناس يمرّون به ويظرون عليه المطارف ؛ حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة ، فدح بني سلول فقال :

إذا الله حيّاً صالحاً من عباده	تقيّاً فحياً الله هند بن عاصم
وكلّ سَـلُولِيّ إذا ما دعوتُهُ	سريع إلى داعي العلاء والمكارم
عم البيض أقداما وديباجُ أوجه	جلوها إذا سودت وجوه الملائم
ولا يَأْكل الكلب السروق نعالهم	ولا يبتغي الخ الذي في الجاجم

(١) الخبر في الشعر والشعراء ٢٨٩ والخزانة ٤ : ٣٦٨

(٢) القدم : النمي .

(٣) كذا في الأصول .

ثم لحق معاوية ، وهجا عليا عليه السلام ، فقال :

أَلَا مِنْ مُبْلِغِ عَنِّي عَلِيًّا بَأْتِي قَدْ أَمِنْتُ فَلَا أَخَافُ
عَمِدْتُ لِمُسْتَقَرِّ الْحَقِّ لَمَّا رَأَيْتُ أُمُورَكُمْ فِيهَا اخْتِلَافُ

وروى عبد الملك بن قُريب الأَصمعي ، عن ابن أبي الزناد ، قال : دخل النجاشي على معاوية ، وقد أذن للناس عامة ، فقال لحاجبه : ادعُ النجاشي ، والنجاشي بين يديه ، ولكن اقتحمته عينه ، فقال : هأنذا النجاشي بين يديك يا أمير المؤمنين ؛ إن الرجال ليست بأجسامها ؛ إنما لك من الرجل أصغراه : قلبه ولسانه ، قال : ويحك ! أنت القائل (١) :

وَنَجَّيْ ابْنَ حَرْبٍ سَابِحٍ ذُو عُلَّالَةٍ أَجَشَّ هَزِيمٌ وَالرِّمَاحُ دَوَانِي (٢)
إِذَا قَلْتُ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تَنْوُشُهُ مَرَّتَهُ بِهِ السَّاقَانِ وَالْقَدَمَانِ (٣)

ثم ضرب بيده إلى نذيه (٤) ، فقال : ويحك ! إن مثلي لا تعدو به الخليل ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني لم أعنك ؛ إنما عنيت عُقْبَةَ .

وروى صاحب كتاب " الغارات " أن عليا عليه السلام لما حدث النجاشي غضبت اليمانية لذلك ، وكان أخصمهم به طارق بن عبد الله بن كعب التهدي ، فدخل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء ؛ حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث ،

(١) البيتان في الأغاني ١٣ : ٢٦٠ (طبعة الدار) ، والأول مع الخبر في الشعر والشعراء ٢١٩
(٢) السابح : الفرس السريع كأنه يسبح بيديه والعلالة هنا بقية جرى الفرس . والأجش الغليظ الصوت في صهيله ؛ وهو مما يحمى في الخيل . وهزيم : الفرس الشديد الصوت .
(٣) مرته : استدرت جريه
(٤) في الشعر والشعراء : « تندوءتبه » ، والتندوءة : اللحم الذي حون للئدى .

فأوغرت صدورنا، وشتت أمورنا، وحملتنا على الجادة^(١) التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار. فقال على عليه السلام: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢)؛ يا أخا نهدي، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله، فأقمنا عليه حداً كان كفرته؛ إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٣). قال: فخرج طارق من عنده، فلقبه الأشر، فقال: يا طارق؛ أنت القائل لأمر المؤمنين: «أَوْغَرَتْ صُدُورَنَا، وَشَتَّتْ أُمُورَنَا»؟ قال طارق: نعم، أنا قائلها، قال: والله ما ذلك كما قلت؛ إن صدورنا له لسامة، وإن أمورنا له لجامعة، ففضب طارق وقال: ستعلم يا أشر أنه غير ما قلت؛ فلما جت الليل همس^(٤) هو والنجاشي إلى معاوية، فلما قدما عليه، دخل آذنه فأخبره بقدمهما، وعنده وجوه أهل الشام، منهم عمرو بن مرة الجهني وعمرو بن صيفي وغيرهما، فلما دخلا نظر معاوية إلى طارق، وقال: مرحبا بالمورق غصنه، والمريق أصله، السود غير المسود؛ من رجل كانت منه هفوة ونبوة، باتباعه صاحب الفتنة، ورأس الضلالة والشبهة، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رجليها، ثم أوجف في عشوة ظلمتها وتيه ضلالتها؛ واتبعه رجرجة^(٥) من الناس، وأشابة^(٦) من الخثالة لا أفئدة لهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمَّ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾^(٧)

فقام طارق، فقال: يا معاوية إني متكلم فلا يسخطك، ثم قال: وهو متكى على سيفه: إن الحمود على كل حال ربُّ علا فوق عباده، فهم منه بمنظر ومسمع؛ بعث فيهم

(١) الجادة: معظم الطريق، أو وسطه.

(٢) سورة البقرة ٤٥.

(٣) سورة المائدة ٨.

(٤) همس: السير بالليل.

(٥) الرجرجة: الجماعة السكثيرة من الناس.

(٦) الأشابة: أخلاط الناس.

(٧) سورة محمد ٢٤.

رسولا منهم ، يتلو كتابا لم يكن من قبله ولا يحطه بيمينه ؛ إذا لارتاب البطلون ؛ فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًا رحيمًا ! أما بعد ، فإن ما كنا نوضع فيما أوضعنا فيه بين يدي إمامٍ تقىّ عادل ، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، أتقياء مرشدين ، ما زالوا منارًا للهدى ، ومعالم للدين ، خلفًا عن سلف مهتدين ، أهل دين لا دنيا ، كل الخير فيهم ، وأتبعهم من الناس ملوك وأقيال ، وأهل بيوتات وشرف ، ليسوا بنا كثيرين ولا قاسطين ، فلم يكن رغبةً من رغب عنهم عن صحبتهم إلا لمرارة الحق حيث جرّعوها ، ولوعورته حيث سلّكوها ؛ وغلبت عليهم دنيا مؤثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ؛ وقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم فرارًا من الضيم ، وأنفا^(١) من الدّلة ، فلا تفخرن يا معاوية ؛ إن شدّنا نحوك الرحال ، وأوضعنا إليك الركاب ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لى وجميع المسلمين .

فمظّم على معاوية ما سمعه وغضب ، لكنه أمسك^(٢) ؛ وقال : يا عبد الله ؛ إنا لم نرد بما قلناه أن نوردك مشرع ظمًا ، ولا أن نصدرك عن مكرّع ريمى ؛ ولكن القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل ، ثم أجلسه معه على سريريه ، ودعا له بمقطعات وبرود يضعها عليه ؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدثه حتى قام .

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفى الجهنيان ، فأقبلا عليه بأشدّ العتاب وأمضه ، يلومانه فى خطبته ، وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ما قتت بما سمعناه حتى خيل لي أن بطن الأرض خير لي من ظهرها عند سماعي ما أظهر من العيب والنقص لمن هو خير منه فى الدنيا والآخرة ، وما يزهدت به نفسه ، ومملكه عجبته ، وغاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقصهم ، فقامت مقامًا أوجب الله علىّ فيه ألا أقول إلا حقًا ، وأى خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غدا !

(١) ج : « وأنفة من المذة » .

(٢) ج : « تماسك » .

فبلغ علياً عليه السلام قوله ، فقال : لو قتل النهديّ يومئذ لقتل شهيداً .
وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبي العريان - وكان عُمانياً ، وكانت امرأته عَلوِيّة-
الرأى ، تكتب بأخبار معاوية في أعنة الخيل وتدفعها إلى عسكر على عليه السلام بصفين
فيدفعونها إليه - فقال معاوية بعد التحكيم : ياهيثم ، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعلي في
صِفين أم أهل الشام لي ! فقال : أهل العراق قبل أن يُضربوا بالبلاء كانوا أنصحَ
أصاحبهم ؛ قال : كيف قلت ذلك ؟ قال : لأنّ القوم ناصحوه على الدّين ، وناصحك أهل
الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبرُ ، وهم أهل بصيرة ، وإنما أهل الدنيا أهلُ طمع ؛ ثم والله
مالبت أهلُ العراق أن نبذوا الدّين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا ، فالتحقوا بك .
فقال معاوية فما الذي يمنع الأشعثَ أن يقدم علينا ، فيطلب ما قبلنا ! قال : إن الأشعث
يكرّم نفسه أن يكون رأساً في الحرب ، وذنباً في الطمع .

ومن المفارقين لعلّي عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبي طالب ؛ قدّم على أمير المؤمنين
بناكوفة يسترفده^(١) ، فعرض عليه عطاءه ، فقال : إنما أريدُ من بيت المال ، فقال : تقيم
إلى يوم الجمعة ، فلما صلّى عليه السلام الجمعة ، قال له : ماتقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟
قال بئس الرجل ! قال : فإنك أمرتني أن أخونهم وأعطيتك ، فلما خرج من عنده شخص
إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم ، وقال له : يا أبا يزيد ، أنا خير لك أم علي ؟
قال : وجدت علياً أنظرَ لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك .

وقال معاوية لعقيل : إن فيكم يا بني هاشمَ ليناً ، قال : أجل إنّ فينا ليناً من غير

(١) يسترفده : يطلب عطاءه .

ضَعَف ، وَعِزًّا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ، وَإِنْ لَيْسَ لَكُمْ بِمَعَاوِيَةَ غَدْرٌ ، وَسَلِّمُوا كُفْرًا . فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :
وَلَا كُلَّ هَذَا يَا أَبَا يَزِيدَ !

وقال الوليد بن عُقبة لعقيل في مجلس معاوية : غلبك أخوك يا أبا يزيد على الثروة !
قال : نعم ، وسبقني وإياك إلى الجنة ، قال : أما والله إن شِدْقِيهِ لمضمومان من دم عثمان ،
فقال : وما أنت وقريش ! والله ما أنتَ فينا إلا كَنَطِيحِ التَّيْسِ . فغضب الوليد
وقال : والله لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لأرهِمُوا صَعُودًا^(١) ، وإن أخاك لأشدَّ
هذه الأمة عذابا ، فقال : صه ! والله إنا لنرغب بعبدٍ من عبيده عن صُحْبَةِ أَبِيكَ عُقْبَةَ
ابن مَعِيْطِ .

وقال معاوية يوما - وعنده عمرو بن العاص - وقد أقبل عقيل : لأضحكتك من عقيل ،
فلما سلم قال معاوية : مرحبا برجل عمه أبو لهب ، فقال عقيل : وأهلا برجل عمته : ﴿ حَمَّالَةَ
أَلْطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾^(٢) ؛ لأن امرأة أبي لهب أم جميل بنت حرب
ابن أمية .

قال معاوية : يا أبا يزيد ما ظنك بعمك أبي لهب ! قال : إذا دخلت النار فخذ على
يسارك تجده مفترشا عمك حمالة الحطب ؛ أفنا كح في النار خيرٌ أم منكوح ! قال :
كلاهما شرّ والله .

ومن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب ، خرج هو وجرير بن عبد الله البجلي من
الكوفة إلى قرقيسيا ؛ وقالوا : لا نقيمُ ببلدة يُعاب فيها عثمان .

(١) الصعود : العقبة الشاقة .

(٢) المسد : حبل من ليف القطن .

ومن فارقه وائل بن حجر الحضرمي ، وخبره مذکور في قصة بئر بن أرطاة .

وروى صاحب كتاب " الفارات " عن إسماعيل بن حكيم ، عن أبي مسعود الجريري ، قال : كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلون على بغض عليّ عليه السلام : مطرف بن عبد الله ابن الشخير ، والعلاء بن زياد ، وعبد الله بن شقيق .

قال صاحب كتاب " الفارات " : وكان مطرف عابدا ناسكا ؛ وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين : أن عمار ابن ياسر دخل على أبي مسعود وعنده ابن الشخير ، فذكر عليا بما لا يجوز أن يُذكر به ، فقال عمار : يا فاسق وإني لك لها هنا ! فقال أبو مسعود : أذكرك الله يا أبا اليقظان في ضيبي !

قال : وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانية ، وكانت في أنفسهم أحقاد يوم الجمل ، وكان هو عليه السلام قليل التآلف للناس ، شديدا في دين الله ، لا يبالي مع علمه بالدين ؛ واتباعه الحق من سخط ومن رضي .

قال : وقد روى يونس بن أرم ، عن يزيد بن أرقم ، عن أبي ناجية ، مولى أم هانئ ، قال : كنت عند علي عليه السلام ، فأتاه رجل عليه زي السفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أتيتك من بلدة مارأيت لك بها محبا ، قال : من أين أتيت ؟ قال : من البصرة ، قال : أما إنهم لو يستطيعون أن يحبوني لأحبوني ؛ إني وشيعتي في ميثاق الله لا يزداد فينا رجلا ، ولا ينقص إلى يوم القيامة .

وروى أبو غسان البصري ، قال : بنى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة ، تقوم على بغض علي بن أبي طالب والوقعة فيه : مسجد بني عدي ، ومسجد بني مجاشع ،

ومسجد كان في العلافين على فرضة البصرة ، ومسجد في الأزدي .

ومما قيل عنه إنه يبغض عليا عليه السلام ويذمه ، الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد ؛ روى عنه حماد بن سلمة أنه قال : لو كان عليّ يأكل الخشف^(١) بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه . ورووا عنه أنه كان من الخذلين عن نصرته .

وروى عنه أن عليا عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة ، وكان ذا وسوسة ، فصبّ على أعضائه ماء كثيرا ، فقال له : أرقت ماء كثيرا يا حسن ؛ فقال : ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر ! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فلا زلت مسوّاً .
قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات .

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكروونه ويقولون : إنه كان من محبي علي ابن أبي طالب عليه السلام والمُعظّمين له .

وروى أبو عمر بن عبد البر الحديث في كتابه المعروف بـ ” الاستيعاب في معرفة الصحاب “ أن إنسانا سأل الحسن عن علي عليه السلام ، فقال : كان والله سهماً صائبا من مرابي الله على عدوّه ، ورباني هذه الأمة وذا فضلها ، وذا سابقها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لم يكن بالثؤمنة عن أمر الله ، ولا بالملومة في دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمها ففاز منه برياض مؤنفة ، ذلك علي بن أبي طالب يالكع !
وروى الواقدي ، قال : سئل الحسن عن علي عليه السلام - وكان يظنّ به الانحراف عنه ، ولم يكن كما يظنّ - فقال : ما أقول فيمنّ جمع الخصال الأربع ، اثمانه على براءة ،

(١) الخشف : أرداد التمر .

وما قال له الرسول في غزاة تبوك ، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه ، وقول النبي صلى الله عليه وآله : « الثقلان كتاب الله وعترتي » ، وإنه لم يؤمر عليه أميرقظ ، وقد أمرت الأمراء على غيره .

وروى أبان بن عياش ، قال : سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام ، فقال : ما أقول فيه ! كانت له السابقة ، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأى والصحبة والتجدة والبلاء والزهد والقضاء والقراءة ، إن عليا كان في أمره عليا ، رحم الله عليا ، وصلى عليه ! فقلت : يا أبا سعيد ، أتقول : « صلى عليه » لغير النبي ! فقال : ترحم على المسلمين إذا ذكروا ، وصل على النبي وآله وعلى خير آله . فقلت : أهو خير من حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخير من فاطمة وبنيتها ؟ قال : نعم ، والله إنه خير آل محمد كلهم ، ومن يشك أنه خير منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « وأبوها خير منهما » ! ولم يجر عليه اسم شرك ، ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام : « زوجتك خير أمتي » ، فلو كان في أمته خير منه لاستثناه ، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه ، فأخى بين علي ونفسه ، فرسول الله صلى الله عليه وآله خير الناس نفسا ، وخيرهم أخوا . فقلت : يا أبا سعيد ، فما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في علي ؟ فقال : يا بن أخي ، أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لسالت بي الخشب .

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى ، ووجدته أيضا في كتاب " الغارات " ، لإبراهيم بن هلال الثقفى : وقد كان بالكوفة من فقهاءها من يعادى عليا ويُبغضه ، مع غلبة التشيع على الكوفة ، فمنهم مرة الهمداني .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكين عن فطر بن خليفة ، قال : سمعت مُرّة يقول : لَأَنَّ
يكون عليٌّ جَمَلًا يَسْتَقِي عليه أهله خير له مما كان عليه .

وروى إسماعيل بن بهرام ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عمرو بن مرة ، قال : قيل لمُرّة
المُهدانيّ : كيف تخَلَّفْتَ عن عليٍّ ؟ قال ^(١) : سَبَقْنَا بِحَسَنَاتِهِ ، وَابْتَلَيْنَا بِسَيِّئَاتِهِ .

قال إسماعيل بن بهرام : وقد روينا عنه أنه قال أشدَّ فحشًا من هذا ؛ ولكننا نتورّع
عن ذكره .

وروى الفضل بن دُكين ، عن الحسن بن صالح ، قال : لم يصلِّ أبو صادق علي
مُرّة المُهدانيّ .

قال الفضل بن دُكين : وسمعتُ أن أبا صادق قال في أيام حياة مُرّة : والله لا يظلّني
وإياه سَقَفُ بيتِ أبدا .

قال : ولما مات لم يحضره عمرو بن شرحبيل ، قال : لا أحضره لشيء كان في قلبه
مَلَى عليّ بن أبي طالب .

قال إبراهيم بن هلال : حَدَّثَنَا السَّعُودِيُّ ، عن عبد الله بن نُمَيْرٍ بهذا الحديث . قال :
ثم كان عبد الله بن نُمَيْرٍ يقول ، وكذلك أنا ؛ والله لو مات رجلٌ في نفسه ^(٢) شيءٌ مَلَى عليّ
عليه السلام لم أحضره ، ولم أصلِّ عليه .

ومنهم الأسود بن يزيد ومَسْرُوق بن الأجدع ؛ روى سَلَمَةُ بن كَهَيْلٍ : أَنَّهُمَا كَانَا
يَمْشِيَانِ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَيَقَعَانِ فِيهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَأَمَّا
الْأَسْوَدُ فَسَاتَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَمَّا مَسْرُوقٌ فَلَمْ يُمْتْ حَتَّى كَانَ لَا يَصَلِّيُ لِلَّهِ تَعَالَى صَلَاةً

(١) : ب « فقال » .

(٢) ب « في قلبه » .

إلا صلى بعدها صلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، لحديث سمعه من عائشة في فضله .
وروى أبو نعيم الفضل بن دُكين ، عن عبد السلام بن حرب ، عن ليث
بن أبي سليم ، قال : كان مسروق يقول : كان علي كحاطب ليل ؛ قال : فلم يمت مسروق
حتى رجع عن رأيه هذا .

وروى سلمة بن كهيل ، قال : دخلتُ أنا وزبيد اليمامي على امرأة مسروق بعد
موته ؛ فحدثتنا ، قالت : كان مسروق والأبوسود بن يزيد يفرطان في سب علي
ابن أبي طالب ، ثم مات مسروق حتى سمعته يصلي عليه ، وأما الأبوسود فمضى لشأنه ،
قال : فسألناها : لم ذلك ؟ قالت : شيء سمعته من عائشة تزويه عن النبي صلى الله عليه وآله
فيمين أصاب الخوارج .

وروى أبو نعيم ، عن عمرو بن ثابت ، عن أبي إسحاق ، قال : ثلاثة لا يؤمنون صلى علي
ابن أبي طالب : مسروق ، ومرة ، وشريح .
وروى أن الشعبي رابعهم .

وروى عن هيثم ، عن مجالد ، عن الشعبي ، أن مسروقاً ندِمَ صلى إبطائه عن علي
ابن أبي طالب عليه السلام .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ؛ قال : قال علي عليه السلام لشريح ؛ وقد قضى
قضية نَمَّ عليه أمرها : والله لأنفيك إلى بانقياً^(١) شهرين تقضى بين اليهود ، قال : ثم
قُتِلَ علي عليه السلام ومضى دهر ؛ فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشريح : ما قال لك
أمير المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال : إنه قال لي كذا ، قال : فلا والله لا تقعد ، حتى
تخرج إلى بانقياً تقضى بين اليهود . فسيره إليها فقضى بين اليهود شهرين .

(١) بانقياً ، بكسر النون : ناحية من نواحي الكوفة كانت على شواطئ الفرات (مراسد الاطلاع) .

ومنه أبو وائل شقيق بن سلمة ، كان عثمان يقع في عليّ عليه السلام ، ويقال :
إنه كان يرى رأيَ الخوارج ، ولم يختلف في أنه خرج معهم ؛ وأنه عاد إلى عليّ عليه السلام
مُنِيْبًا مَقْلَعًا .

روى خلف بن خليفة ، قال : قال أبو وائل : خرجنا أربعة آلاف ، فخرج إلينا عليّ ، فما زال
يكلمنا حتى رجع منا ألفان .

وروى صاحب كتاب " الغارات " ، عن عثمان بن أبي شيبة ، عن الفضل
بن دُكَيْنٍ ، عن سفيان الثوريّ ، قال : سمعت أبا وائل يقول : شهدت صِفَيْنِ وبئس
الضُفوف كانت !

قال : وقد روى أبو بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبي النجود ، قال : كان أبو وائل
عثمانيا ، وكان زُرُّ بن حُبَيْشِ عَلَوِيًّا .

ومن المبغضين القالين أبو بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعريّ ، ورث البغضة له ،
لا عن كلاله (١) .

وروى عبد الرحمن بن جُنْدَبٍ ، قال : قال أبو بردة لزياد : أشهد أنّ حُجْرَ بن عدىّ
قد كفر بالله كفره أصْلَع ، قال عبد الرحمن : إنّما عَنَى بذلك نِسْبَةَ الكفر إلى عليّ
ابن أبي طالب عليه السلام ؛ لأنّه كان أصْلَع .

قال : وقد روى عبد الرحمن السعديّ ، عن ابن عياش المتوفى ، قال : رأيت أبا بُرْدَةَ
قال لأبي العادية الجهنّيّ قاتلَ عمار بن ياسر : أنت قتلتَ عمار بن ياسر ؟ قال : نعم ، قال :
ناولني يدك . فقَبَلَهَا ، وقال : لا تَمْسُك النار أبدا .

(١) يقال : لم يرته كلاله ، أي لم يرته عن عرض بل قرب ؛ يريد أنه ورث البغض عن أبيه أبو
موسى الأشعريّ .

وروى أبو نعيم عن هشام بن المغيرة ، عن الغضبان بن يزيد ، قال : رأيت أبا بُرْدَةَ قال لأبي العادية قاتلِ عمار بن ياسر : مرحبا بأخي هاهنا ! فأجلسه إلى جانبه .

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن الشُّلَمِيُّ القَارِيُّ ؛ روى صاحب كتاب " الغارات " عن عطاء بن السائب ، قال : قال رجل لأبي عبد الرحمن الشُّلَمِيِّ : أنشدك بالله ، إن سألتك لتخبرني ؟ قال : نعم ، فلما أكد عليه قال : بالله هل أبغضت علياً إلا يوم قسم المال في الكوفة فلم يصلك ولا أهل بيتك منه بشيء ! قال : أما إذ أنشدتني بالله ، فلقد كان كذلك .

قال : وروى أبو عمر الضَّرِير ، عن أبي عوانة ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبي عبد الرحمن الشُّلَمِيِّ شيء في أمر علي عليه السلام ؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حَيَّان ، فقال : هل تدرى ما جرأ صاحبك على الدماء ؟ يعني عليا ، قال : وما جرأه لا أبا لغيرك ؟ قال : حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، أو كلاما هذا معناه .

وكان عبد الله بن عُكَيْمِ عُمَانِيَا ؛ وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى عَلَوِيًّا ، فروى موسى الجهني ، عن ابنة عبد الله بن عُكَيْمِ ، قال : تحدثنا يوما ، فسمعت أبي يقول لعبد الرحمن : أما إن صاحبك لو صَبَرَ لَأَتَاهُ الناس .

وكان سهم بن طريف عُمَانِيَا ، وكان علي بن ربيعة عَلَوِيًّا ، فضرب أمير الكوفة على الناس بعثا ، وضرب على سهم بن طريف معهم ، فقال سهم لعلی بن ربيعة : اذهب إلى الأمير فكلّمه في أمرى لِيُعْفِيَنِي ، فأتى علي بن ربيعة الأمير ، فقال : أصلحك الله !

إن سهما أعمى فأغفه ، قال : قد أعفيتُهُ ، فلما التقيا قال : قد أخبرت الأمير أنك أعمى ؛
وإنما عنيت عمى القلب .

وكان قيس بن أبي حازم يُبغض عليا عليه السلام ؛ روى وكيع ، عن إسماعيل
ابن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، قال : أتيت عليا عليه السلام ليكلم لي عثمان في
حاجة ، فأبى فأبغضته .

قلت : وشيوخنا المتكلمون - رحمهم الله - يُسقطون روايته عن النبي صلى الله عليه وآله :
« إنكم لتروُن ربكم كما تروُن القمر ليلة البدر » ، ويقولون : إنه كان يُبغض عليا عليه
السلام ؛ فكان فاسقا ، ونقلوا عنه أنه قال : سمعت عليا عليه السلام يخطب على المنبر ،
ويقول : « انفروا إلى بقية الأحزاب » ، فدخل بغضه في قلبي .

وكان سعيد بن المسيّب منحرفا عنه عليه السلام ، وجبهه عُمر بن علي عليه السلام في
وجهه بكلام شديد .

روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبي داود الهمداني ، قال : شهدت سعيد
ابن المسيّب - وأقبل عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يا بن أخي ،
ما أراك تكثير غشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله كما يفعل إخوتك
وبنو أعمامك ! فقال عمر : يا بن المسيّب ، أكلما دخلت المسجد أجيء فأشهدك ! فقال
سعيد : ما أحب أن تغضب ، سمعت أباك يقول : إن لي من الله مقاما هو خيرٌ لبي
عبد المطلب مما على الأرض من شيء . فقال عمر : وأنا سمعت أبي يقول : ما كلمة حكمة

في قلب منافق فيخرج من الدنيا، حتى^(١) يتكلم بها . فقال سعيد: يا ابن أخي، جعلتني منافقا !
قال : هو ما أقول لك . ثم انصرف .

وكان الزهريّ من المنحرفين عنه عليه السلام .

وروى جرير بن عبد الحميد ، عن محمد بن شيبة ، قال : شهدتُ مسجدَ المدينة ، فإذا
الزهريّ وهروية بن الزبير جالسان يذكران عليا عليه السلام ، فنالا منه ، فبلغ ذلك عليّ
ابن الحسين عليه السلام ؛ فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : أما أنت يا عروة فإن أبي حاكم
أباك إلى الله ، فحكّم لأبي عليّ أهلك ؛ وأما أنت يا زهريّ ، فلو كنت بمكة لأريتك
كبيراً أهلك .

وقد روى من طرق كثيرة ، أن عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن أحدٌ من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه يزهو إلا عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد .

وروى عاصم بن أبي عامر البجليّ ، عن يحيى بن عروة ، قال : كان أبي إذا ذكّر عليا
نال منه .

وقال لي مرة : يا بني ، والله ما أحجم الناسُ عنه إلا طلبا للدنيا ؛ لقد بعثَ إليه أسامة
ابن زيد أن ابعثْ إليّ بعتائني ، فوالله إنك لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلتُ معك . فكتب
إليه : إن هذا المال لمن جاهد عليه ؛ ولكن لي مالا بالمدينة فأصِبْ منه ما شئت .
قال يحيى : فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به ، ومن عيبه له وانحرافه عنه .

وكان زيد بن ثابت عُمانياً شديداً في ذلك ، وكان عمرو بن ثابت عثمانياً ، من
أعداء علي عليه السلام ومُبغضيه ، وعمرو بن ثابت هو الذي روى عن أبي أيوب الأنصاري
حديث : « ستة أيام من شوال » .

روى عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها ، ويقول : أيها الناس ، إن عليا كان رجلا منافقا ، أراد أن يبخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العتبة ، فالعنوه ، فيلمنه أهل تلك القرية ؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى ، فيأمرهم بمثل ذلك . وكان في أيام معاوية .

وكان مكحول من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحر ، قال : لقيت مكحولا ؛ فإذا هو مطبوع - يعنى مملوء - بنضا لعل عليه السلام - فلم أزل به حتى لأن وسكن .

وروى المحدثون عن حماد بن زيد ، أنه قال : أرى أن أصحاب علي أشد حبا له من أصحاب الجبل لعجلهم . وهذا كلام شنيع .

وروى عن شابة بن سوار أنه ذكر عنده وقد على عليه السلام ، وطلبهم الخلالة فقال : والله لا يصلون إليها أبدا ، والله ما استقامت لعل ، ولا فرح بها يوما ، فكيف تصير إلى ولده ! هيهات هيهات ! لا والله لا يدوق طعم الخلالة من رضى بقتل عثمان .

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافي : كان أهل البصرة كلهم يبغضونه ، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة ؛ وأما أهل مكة فكلهم كانوا يبغضونه قاطبة ، وكانت قریش كلها على خلافه ، وكان جمهور الخلق مع بنى أمية عليه .

وروى عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، وهو يقول : مالتى أحد من الناس مالتى ! ثم بكى عليه السلام .

وروى الشعبي ، عن شريح بن هاني ، قال : قال علي عليه السلام : اللهم إني أستعديك

على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمِي ، وأصغوا^(١) إنائي ، وصَغَرُوا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعتي .

وروى جابر عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : اللهم إني أستعديك على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمِي ، وَغَصَبُونِي حَقِّي ، وأجمعوا على منازعتي أمراً كنت أولى به ، ثم قالوا : إن من الحق أن تأخذه ، ومن الحق أن تتركه .

وروى المسيب بن نَجْبَةَ الفزاريّ ، قال : قال علي عليه السلام : من وجدتموه من بني أمية في ماء فغطوا على صِماخه ، حتى يدخل الماء في فيه .

وروى عمرو بن دينار، عن ابن أبي مُليكة، عن المسور بن مخرمة ، قال : لقيَ عبدالرحمن ابن عوف عمر بن الخطاب ، فقال : ألم نكن نقرأ من جملة القرآن : قاتلهم في آخر الأمر كما قاتلتموهم في أوله ؟ قال : بلى ؛ ولكن ذلك إذا كان الأمراء بني أمية والوزراء بني مخزوم .
وروى أبو عمر النهديّ ، قال : سمعت علي بن الحسين يقول : ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبُّنا .

وروى سفيان الثوريّ ، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخترىّ ، قال : أثنى رجلٌ على عليّ بن الحسين في وجهه - وكان يُبغضه - فقال عليّ : أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك .

وروى أبو غسان النهديّ ، قال : دخل قوم من الشيعة على عليّ عليه السلام في الرحبة ، وهو على حصير خلق ، فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : حبك يا أمير المؤمنين ، قال : أما إنه من أحبني رأيي حيث يحب أن يراني ، ومن أبغضني رأيي حيث يبكره أن يراني ، ثم قال : ما عبد الله أحدٌ قبلي إلا نبيه عليه السلام ؛ ولقد هَجَمَ أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان ، فقال : أو أفعلتموها ! ثم قال لي وأنا غلام : وَيَحْكُ ، انصر ابن عمك ! وَيَحْكُ لاتخذله ،

(١) يقال : أصغى فلان إناء فلان إذا أماله ونقصه حقه . (اللسان) .

وجعل يحثني على موازرتة ومكآفته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلا تصلى أنت معنا يا عم ! » فقال : لا أفعل يا ابن أخي ، لاتعلوني استى . ثم انصرف .

وروى جعفر بن الأحمر ، عن مسلم الأعور ، عن حبة العُرَنيّ ، قال : قال علي عليه السلام : من أحبني كان معي ؛ أما إنك لو صُمت الدهر كله ، وقت الليل كله ، ثم قُتلت بين الصفا والروة - أو قال بين الرُكن والمقام لما بعثك الله إلا مع هواك بالغاً ما بلغ ؛ إن في جنة فني جنة ، وإن في نار فني نار .

وروى جابر الجعفيّ ، عن علي عليه السلام أنه قال : من أحبنا أهل البيت فليستعدّ عدة للبلاء .

وروى أبو الأحوص ، عن أبي حيان عن عليّ عليه السلام : يهلك في رجلان ، محبّ غالٍ ، ومبغض قالٍ .

وروى حماد بن صالح ، عن أيوب ، عن كهَمس ؛ أن علياً عليه السلام قال : يهلك في ثلاثة : اللاعن والمستمع المقرّ ، وحامل الوزر ، وهو الملك المترّف ، الذي يُتقرّب إليه بلعنتي ، ويُبرأ عنده من ديني ، ويُنتقص عنده حسبي ؛ وإنما حسبي حسب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ودينه دينه . وينجو في ثلاثة : من أحبني ، ومن أحبّ محبي ، ومن عادى عدوي ؛ فمن أشرب قلبه بغضاً أو ألب على بغضٍ ؛ أو انتقصني ؛ فليعلم أن الله عدوه وخصمه (١) ؛ والله عدو للكافرين .

وروى محمد بن الصّلت ، عن محمد بن الحنفية ، قال : من أحببنا نفعه الله بحبنا ؛ ولو كان أسيراً بالديلم .

وروى أبو صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن عليّ عليه السلام ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن فيك لشبهاً من عيسى بن مريم ، أحبته النصراني حتى أنزلته بالمنزلة التي ليست له ، وأبغضته اليهود حتى بهتت أمه » .

ورَوَى صاحب كتاب " الغارات " حديثَ البراءة على غَيْرِ الوجه المذكور في كتاب " نهج البلاغة " ، قال : أخبرنا يوسف بن كليب السعدي ، عن يحيى بن سليمان العبدى ، عن أبي مريم الأنصارى ، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام ، قال : خطب على عليه السلام على منبر الكوفة ، فقال : سِعْرَضَ عَلَيْكُمْ سَبِّي ، وسَعْدَبَحُونَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكُمْ سَبِّي فَسُبُونِي ، وَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكُمْ الْبِرَاءَةَ مِنِّي ، فَإِنِّي عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ وَلَمْ يَقُلْ : « فَلَا تَبْرَهُوا مِنِّي » .

وقال أيضا : حدثني أحمد بن مفضل ، قال : حدثني الحسن بن صالح ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : قال علي عليه السلام : والله لتُذبحنَّ عليَّ سَبِّي ، وأشار بيده إلى حلقه ، ثم قال : فَإِنْ أَمْرُوكُمْ بِسَبِّي فَسُبُونِي ؛ وَإِنْ أَمْرُوكُمْ أَنْ تَبْرَهُوا مِنِّي فَإِنِّي عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . ولم ينههم عن إظهار البراءة .

وروى شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى ، عن سلمة بن كهيل ، عن المسيب بن نجبة ، قال : بينا على عليه السلام يخطب إذ قام أعرابي ، فصاح : وامظلتاه ! فاستدناه علي عليه السلام ، فلما دنا قال له : إِنَّمَا لَيْتَ مَظْلَمَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَأَنَا قَدْ ظَلَمْتُ عِدَّةَ الْمَدَارِ وَالْوَبْرِ . قال : وفي رواية عباد بن يعقوب ، أنه دعاه فقال له : وَيَحْكُ ! وَأَنَا وَاللَّهِ مَظْلُومٌ أَيْضًا ؛ هَاتِ فَلِنَدْعُ عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا .

وروى سدير الصيرفي ، عن أبي جعفر محمد بن علي ، قال : اشتكى علي عليه السلام شكاة ، فعاده أبو بكر وعمر ، وخرجا من عنده ، فأتيا النبي صلى الله عليه وآله ، فسألها : مِنْ أَيْنَ جِئْتُمَا ؟ قَالَا : عُدْنَا عَلَيَا ، قَالَ : كَيْفَ رَأَيْتُمَا ؟ قَالَ : رَأَيْنَاهُ يُخَافُ عَلَيْهِ مِمَّا بِهِ ، فَقَالَ : « كَلَّا إِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يُوسَعَ غَدْرًا وَبَغْيًا ، وَلِيَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عِبْرَةً يُعْتَبَرُ بِهِ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ » .

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن الضنوى ، أن عليا عليه السلام خطب بالرحبة ، فقال : أيها الناس ؛ إنكم قد أيتيم إلا أن أقولها ! ورب السماء والأرض ، إن من عهد النبي الأمي إلى : « إن الأمة ستغدر بك بعدى » .

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله . وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه .

وروى أبو جعفر الإسكافي أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام ، فوجد عليا نائما ، فذهبت تنبهه ، فقال : « دعيه فرب سهر له بعدى طويل ، ورب جفوة لأهل بيتي من أجله شديدة » ؛ فبكت ، فقال : « لا تبكي فإنكما معي ، وفي موقف الكرامة عندي » .

وروى الناس كافة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « هذا وليّ وأنا وليّه ، عادت من عاداه ؛ وسالت من سالمه » ، أو نحو هذا اللفظ .

وروى أيضا محمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : « عدوك عدوي وعدوي عدو الله عز وجل » .

وروى يونس بن خباب ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعلى بن أبي طالب معنا ، فمررنا بحديقة ، فقال علي : يا رسول الله ، ألا ترى ما أحسن هذه الحديقة ! فقال : « إن حديقتك في الجنة أحسن منها » ؛ حتى مررنا بسبع حدائق ، يقول علي ما قال ، ويحبيه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف ، فوقفنا ، فوضع رأسه على رأس علي وبكى ، فقال عنى : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « ضعائن في صدور قوم لا يبدهونها لك حتى يفقدوني » ،

فقال : يا رسول الله ، أفلا أضع سيفي على عاتق فأبىدَ خضراءهم ! قال : بل تصبر ، قال :
فإن صبرت ، قال : تلاقى جهدا ، قال : أفى سلامةٍ من ديني ؟ قال : نعم ، قال :
فإذاً لا أبالي .

وروى جابر الجعفيّ ، عن محمد بن علي عليه السلام ، قال : قال علي عليه السلام :
ما رأيت منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله رضاء ، لقد أخافتني قریش صغيراً ،
وأنصبتني كبيراً ؛ حتى قبض الله رسوله ، فكانت الطامة الكبرى ، والله المستعان
على ما تصفون !

وروى صاحب كتاب ” الغارات ” عن الأعمش ، عن أنس بن مالك ، قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : سيظهر على الناس رجل من أمتي ، عظيم
السر ، واسع البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، يحمل وِزرَ الثَّقَلَيْنِ ، يطلب الإمارة يوماً ، فإذا
أدركتموه فابقروا بطنه ، قال : وكان في يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب ، قد وضع
طرفه في بطن معاوية .

قلت : هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله علي عليه السلام في ” نهج البلاغة ” ، ومؤكد
لاختيارنا أن المراد به معاوية ، دون مآله كثير من الناس أنه زياد والمغيرة .

وروى جعفر بن سليمان الضبعيّ ، عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ ،
قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً لعلّي ما يلقي بعده من العنت فأطال ،
فقال له عليه السلام : أنشدك الله والرحمّ يا رسول الله لما دعوت الله أن يقبضني إليه قبلك !
قال : كيف أسأله في أجلٍ مؤجلٍ ؟ قال : يا رسول الله ، فعلام أقاتل من أمرتني بقتاله ؟
قال : على الحدّث في الدين .

وروى الأعمش ، عن عمار الدّهنيّ ، عن أبي صالح الحنفيّ ، عن علي عليه السلام ، قال :

قال لنا يوماً : لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام ، فشكوت إليه ما لقيتُ حتى بكيت ، فقال لي : انظر ، فنظرت فإذا جلاميد ، وإذا رجلان مصفدان - قال الأعمش : هما معاوية وعمرو بن العاص - قال : فجعلتُ أرضخُ رءوسهما ثم تعود ، ثم أرضخُ ثم تعود ؛ حتى انتبته .

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مُرّة ، عن أبي عبد الله بن سلمة ، عن علي عليه السلام ، قال : رأيتُ الليلة رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فشكوتُ إليه ، فقال : هذه جهنم ، فانظر مَنْ فيها ، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلقين بأرجلها منكسين ، تُرَضِّخُ رءوسهما بالحجارة - أو قال : تُشَدِّخُ .

وروى قيس بن الربيع ، عن يحيى بن هانىء الرادى ، عن رجل من قومه ، يقال له زياد ابن فلان ، قال : كنا في بيتٍ مع علي عليه السلام نحن وشيعته وخواصه ، فالتفت فلم ينكرُ منا أحداً ، فقال : إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديكم ويسلمون أعينكم ، فقال رجلٌ منا : وأنت حيا يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعاذني الله من ذلك ؛ فالتفت فإذا واحدٌ يبكي ، فقال له : يا ابنَ الحقاء ، أتريد اللذات في الدنيا والدرجات في الآخرة ! إنما وعد الله الصابرين .

وروى زرارة بن أعين عن أبيه ، عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام ، قال : كان عليّ عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزل معقبا إلى أن تطلع الشمس ؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ؛ فيعلمهم الفقه والقرآن ؛ وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك ؛ فقام يوما فمرّ برجل ، فرماه بكلمة هُجْرٌ - قال : لم يسمه محمد بن علي عليه السلام - فرجع عَوْدَه إلى بدئه حتى صعد المنبر ، وأمر فنودي : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس ، إنه ليس شيء أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من

حِلْمُ إِمَامٍ وَفَقْهٍ ؛ وَلَا شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ ضَرَرًا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ ، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْظَمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ؛ أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا عِزًّا ؛ أَلَا وَإِنَّ الدَّلَّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ مِنَ التَّعَرُّزِ فِي مَعْصِيَتِهِ . ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ آتِفًا ؟ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْإِنْكَارَ ، فَقَالَ : هَآنَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ، قَالَ : أَمَا إِنِّي لَوْ أَشَاءَ لَقُلْتُ ، فَقَالَ : إِنْ تَعَفَّ وَتَصَفَّحَ ، فَأَنْتَ أَهْلُ ذَلِكَ ؛ قَالَ : قَدْ عَفَوْتُ وَصَفَّحْتُ ؛ فَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ ؟ قَالَ : أَرَادَ أَنْ يَنْسِبَهُ .

وَرَوَى زُرَّارَةُ أَيْضًا ، قَالَ : قِيلَ لَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ قَوْمًا هَاهُنَا يَنْتَقِصُونَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : بِمَنْ يَنْتَقِصُونَهُ لَا أَبَا لَهُمْ ! وَهَلْ فِيهِ مَوْضِعٌ نَقِيصَةً ! وَاللَّهُ مَا عَرَّضَ لِعَلَى أَمْرًا قَطًّا كَلَّاهُمَا اللَّهُ طَاعَةَ إِلَّا عَمِلَ بِأَشَدِّمَا وَأَشَقَّهُمَا عَلَيْهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ كَأَنَّهُ قَائِمٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، يَنْظُرُ إِلَى ثَوَابِ هَؤُلَاءِ فَيَعْمَلُ لَهُ ، وَيَنْظُرُ إِلَى عِقَابِ هَؤُلَاءِ فَيَعْمَلُ لَهُ ، وَإِنْ كَانَ لِيُقِيمُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، فَإِذَا قَالَ : وَجَّهَتْ وَجْهِي تَغْيِيرَ لَوْنِهِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ^(١) ؛ وَلَقَدْ أَعْتَقَ أَلْفَ عَبْدٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ ؛ كُلُّهُمْ يَعْزِقُ فِيهِ جَبِينُهُ ، وَتَمْحَى فِيهِ كَفُّهُ ، وَلَقَدْ بُشِّرَ بَعِيْنَ نَبَعَتْ فِي مَالِهِ مِثْلَ عُنُقِ الْجَزُورِ ، فَقَالَ : بَشِّرِ الْوَارِثَ بِشَرِّ ، ثُمَّ جَعَلَهَا صَدَقَةً عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ، بَنِي أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، لِيَصْرِفَ اللَّهُ النَّارَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَصْرِفَ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ .

وَرَوَى الْعِبَادُ ، عَنْ أَبِي مَرْيَمَ الْأَنْصَارِيِّ ، عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَجْبَنِي كَافِرٌ وَلَا وَلَدُ زَنَانَا . وَرَوَى جَعْفَرُ بْنُ زِيَادٍ ، عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ : كُنَّا بَنُورَ إِيْمَانِنَا نَحْبُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَمَنْ أَحْبَبَهُ عَرَفْنَا أَنَّهُ مِنَّا .

[فصل في معنى قول عليّ : « فسبوني فإنه لي زكاة »]

المسألة الثالثة :

في معنى قوله عليه السلام: « فسبوني ، فإنه لي زكاة ، ولكم نجاة » ، فنقول : إنه أباح لهم سبّه عند الإكراه ، لأن الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفظ بكلمة الكفر ؛ فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، والتلفظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسب الإمام .

فأما قوله : « فإنه لي زكاة ولكم نجاة » ؛ فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك ، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين : أحدهما ماورد في الأخبار النبوية أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة في حسنة .

والثاني : أن يريد به أن سبهم لي لا ينقص في الدنيا من قدرى ، بل أزيد به شرفاً وعلوً قدر ، وشياع ذكر ؛ وهكذا كان ، فإن الله تعالى جعل الأسباب التي حاولت أعداؤه بها الغضّ منه عللاً لا تنشر صيته في مشارق الأرض ومغاربها .

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نباتة ، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العلوى :

وأبوك الوصىّ أولٌ من شا دَمَنَارِ الْهُدَى وَصَامَ وَصَلَّى
نشرت حبله قريش فأعطتهُ إلى صُبْحَةِ الْقِيَامَةِ فَتَلَا

واحتذيت أنا حذوه ، فقلت لأبي المظفر هبة الله بن موسى الموسوىّ رحمه الله تعالى :

في قصيدة ، أذكر فيها أباه :

أَمْكُ الدَّرَةِ الَّتِي أَنْجَبْتَ مِنْ جَوْهَرِ الْجَدِّ رَاضِيًا مَرْضِيًا
وأبوك الإمامُ موسى كَظِيمِ الْغَيْظِ حَتَّى يُعِيدَهُ مَنْسِيًا

وأبوه تاج الهدى جعفر الصا دق وخيا عن الثيوب وحيًا
وأبوه محمد باقر العلم مضي لنا هاديًا مهديًا
وأبوه السجاد أتقى عبا د الله مخلصًا ووفيا
والحسين الذي نخير أن يقضى عزيزاً ولا يعيش دنيا
وأبوه الوصي أول من طأ ف ولبي سبعا وساق الهديا
طامت مجده قريش فأعطته إلى سدرة السماء رقيًا
أخلت صيته فطار إلى أن ملأ الأفق ضجة ودويًا
وأبو طالب كفيلاً أبي القاسم كهلاً وبافياً وفتياً
ولشيخ البطحاء تاج معد شية الحمد هل علمت سميًا!
وأبو عمرو الملا هاشم الجو د ومن مثل هاشم بشريًا!
وأبوه الهمام عبد مناف قل تقل صادقاً وتبدي بدياً
ثم زيد - أعنى قصي الذي لم يك عن ذروة العلاء قصياً
نسب إن تلع النسب المحض لفاعاً كان السليب العربيا
وإذا أظلمت مناسخة الأذ ساب يوماً كان المنير الجليًا
ياله مجد على قدم الدهر وقد يفضل العتيق الطريًا
وذكرنا هاهنا ما قبل المعنى وما بعده ؛ لأن الشعر حديث ، والحديث - كما قيل -

يأخذ بعضه براقب بعض ؛ ولأن ما قبل المعنى وما بعده مكمل له ، وموضح مقصده .

فإن قلت : أي مناسبة بين لفظ « الزكاة » وانتشار الصيت والسمع ؟

قلت : لأن الزكاة هي النماء والزيادة ؛ ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمي

لمال المزكي ، وانتشار الصيت نماء وزيادة .

[فصل في اختلاف الرأي في معنى السبِّ والبراءة]

المسألة الرابعة :

أن يقال : كيف قال عليه السلام : « فأما السبُّ فُسبُّوني ، فإنه لي زكاة ، ولكم نجاته ، وأما البراءة فلا تبرءوا مني » ؟ وأي فرق بين السبِّ والبراءة ؟ وكيف أجاز لهم السبِّ ومنعهم عن التبري ، والسبِّ أحش من التبري !

والجواب ؛ أما الذي يقوله أصحابنا في ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبِّه ^(١) والتبري منه ، في أنهما حرام وفسق وكبيرة ، وأن المكره عليهما يجوز له فعلهما عند خوفه على نفسه ، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف .

ويجوز ألا يفعلهما ؛ وإن قتل ، إذا قصد بذلك إعزاز الدين ، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازاً للدين ؛ وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأن هذه اللفظة ماوردت في القرآن العزيز إلا عن المشركين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَنْ اللَّهُ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٣) ، فقد صارت بحسب العرف الشرعي مطلقاً على المشركين خاصة ؛ فإذا نُحْمَل هذا النهي على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبِّ ، وإن كان حكمهما واحداً ؛ ألا ترى أن إلقاء المصحف في القدر أحش من إلقاء المصحف في دنّ الشراب ؛ وإن كانا جميعاً محرمين ، وكان حكمهما واحداً !

فأما الإمامية فتروى عنه عليه السلام أنه قال : إذا عُرِضْتُمْ عَلَى البراءة منّا فمدّوا الأعناق .

ويقولون : إنه ^(٤) لا يجوز التبري منه ؛ وإن كان الحالف صادقاً ، وإنّ عليه الكفارة .

(١) ج : « السب » .

(٢) سورة التوبة ١ .

(٣) سورة التوبة ٣ .

(٤) ساقطة من أ .

ويقولون: إنَّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ، ومن أحد الأئمة عليهم السلام ، حكم واحد .

ويقولون إنَّ الإكراه على السبِّ يُبيح إظهاره ؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه ، وأما الإكراه على البراءة ؛ فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبري ، والأولى أن يستسلم للقتل .

[فصل في معنى قول عليّ : « إني ولدت على الفطرة »]

المسئلة الخامسة :

أن يقال : كيف علل نهيّه لم على البراءة منه عليه السلام ، بقوله : « فإني ولدت على الفطرة » ؛ فإن هذا التعايل لا يختص به عليه السلام ، لأن كلَّ أحدٍ ^(١) يولد على الفطرة ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله : « كلَّ مولودٍ يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهودانه وينصرانه » .

والجواب ، أنه عليه السلام علل نهيّه لم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل ؛ وهي كونه ولد على الفطرة ، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة ؛ ولم يعمل بأحد هذا المجموع ، ومراده هاهنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية ؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل ؛ والنبي صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل ؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة ، أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشرين يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ؛ وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام ، مُفكِّم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله ؛ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولّى لتربيته مولود في أيام كأيام النبوة ، وليس بمولود في جاهلية محضة ، ففارقت حاله حال مَنْ يدعى له من الصحابة بمائلته في الفضل . وقد روى أنَّ السَّنة التي ولد فيها عليّ

(١) ج : « واحد » .

عليه السلام هي السنة التي بدى فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسمع الهُتافَ من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصاً ؛ ولم يخاطب فيها ^(١) بشيء . وهذه السنّة هي السنة التي ابتداء فيها بالتبثّل والانقطاع والعزلة في جبل حراء ، فلم يزل به حتى كُوْشِفَ بالرسالة ، وأنزل عليه الوحي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمن بتلك السنة ، وبولادة عليّ عليه السلام فيها ، ويسمّيها سنّة الخير وسنّة البركة ؛ وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً : « لقد وُلِدَ لنا الليلة مولود يفتّحُ اللهُ علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة » ، وكان كما قال صلوات الله عليه ، فإنه عليه السلام كان ناصره ، والحامى عنه ، وكاشف الغمّاء ^(٢) عن وجهه ؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام ، وأرست دعائمهُ ، وتمهدت قواعده عليه السلام .

وفي المسألة تفسير آخر ؛ وهو أن يعنى بقوله عليه السلام : « فإني ولدتُ على الفطرة » ، أى على الفِطْرَةِ التي لم تتغيّر ولم تحلّ ، وذلك أن معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفِطْرَةِ » أن كلّ مولودٍ فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذي خلقه فيه وبصحة الحواس والمشاعر ، لأنّ يعلم التوحيد والعدل ، ولم يجعل فيه مانعاً يمنعه عن ذلك ؛ ولكن التربية والعقيدة في الوالدين والإلف لاعتقادهما وحسن الظنّ فيهما يصدّه عما فُطِرَ عليه ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام دون غيره، وُلِدَ على الفِطْرَةِ التي لم تحلّ ولم يصدّه عن مقتضاها مانع ؛ لامن جانب الأبوين ولا من جهة غيرها ، وغيره ولد على الفِطْرَةِ ، ولكنه حالّ عن مقتضاها ، وزالّ عن موجبها .

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرَةِ العِصْمَةَ ؛ وأنه منذ ولد لم يواقع قبيحاً ؛

(١) ج : « منها » .

(٢) ج : « الغم » .

ولا كان كافرا مَرَفَةً عين قطّ ، ولا مخطئا ولا غالطا في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين .
وهذا تفسير الإمامية .

[فصل فيما قيل من سبق عليّ إلى الإسلام]

للسّألة السادسة :

أن يقال : كيف قال : « وسبقتُ إلى الإيمان » ، وقد قال قوم^(١) من الناس : إن أبا بكر سبّقه ، وقال قوم : إن زيد بن حارثة سبّقه ؟

والجواب ، أن أكثر أهل الحديث وأكثر المحققين من أهل السيرة روّوا أنه عليه السلام أول من أسلم ؛ ونحن نذكر كلام أبي عمر يوسف بن عبد البرّ ، المحدث في كتابه المعروف " بالاستيعاب " .

قال أبو عمر في ترجمة^(٢) عليّ عليه السلام : الروى عن سلمان وأبي ذرّ والمقداد وخبّاب وأبي سعيد الخدريّ وزيد بن أسلم أن عليا عليه السلام أول من أسلم ؛ وفضله هؤلاء على غيره .
قال أبو عمر : وقال ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ وهو قول ابن شهاب ؛ إلا أنه قال : « من الرجال بعد خديجة » .

قال أبو عمر : وحدثنا أحمد بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الفضل ، قال : حدثنا محمد ابن جرير ، قال : حدثنا علي بن عبد الله الدهقان ، قال : حدثنا محمد بن صالح ، عن سيّاك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : لعليّ عليه السلام أربع حصال ، ليست

(١) ب : « كثير » ، وما أثبتته من ج .

(٢) الاستيعاب ٤٥٦ وما بعدها .

لأحد غيره : هو أول عربيّ وعجميّ صلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو الذي كان معه لواؤه في كل زحف ، وهو الذي صبر معه يوم قرء عنه غيره ؛ وهو الذي غسّله وأدخله قبره .

قال أبو عمر : ورؤي عن سلمان الفارسيّ أنه قال : أول هذه الأمة ورؤدا على نبيها صلى الله عليه وآله الحوض ، أولها إسلاما : عليّ بن أبي طالب . وقد رؤي هذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلاما : عليّ بن أبي طالب » .

قال أبو عمر : ورفعه أولى ، لأن مثله لا يُدرَك بالرأى .

قال أبو عمر : فأما إسناد المرفوع ؛ فإن أحمد بن قاسم ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال : حدثني يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا سفيان الثوريّ ، عن سلمة بن كهيل ، عن أبي صادق ، عن حنّس بن العتير ، عن عليم^(١) الكنديّ ، عن سلمان الفارسيّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أولكم وارداً على الحوض أولكم إسلاما ؛ عليّ بن أبي طالب » .

قال أبو عمر : وروى أبو داود الطيالسيّ ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بلج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس أنه قال : أول من صلي مع النبي صلى الله عليه وآله بعد خديجة عليّ بن أبي طالب .

قال أبو عمر : وحدثنا عبد الوارث بن سفيان ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ ، قال : حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، قال : حدثنا الحسن بن حماد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بلج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس ، قال : كان عليّ أول من آمن من الناس بعد خديجة .
قال أبو عمر : هذا الإسناد لامطعن فيه لأحد ؛ لصحته وثقة نقلته ؛ وقد عارض^(٢)

(١) في الأصول : « عكيم » ، وما أثبتته عن الاستيعاب .

(٢) ج : « عورض » ، والاستيعاب : « وهو يعارض » .

مأذوننا في باب أبي بكر الصديق ، عن ابن عباس : والصحيح في أمر أبي بكر أنه أول من أظهر إسلامه كذلك . قاله مجاهد وغيره ، قالوا : ومنعه قومه .

قال أبو عمر : اتفق ابن شهاب ، وعبد الله بن محمد بن عقيل ، وقتادة ، وابن إسحاق على أن أول من أسلم^(١) من الرجال عليّ . واتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصداقه فيما جاء به ، ثم عليّ بعدها .
وروى عن أبي رافع مثل ذلك .

قال أبو عمر : وحدّثنا عبد الوارث ، قال : حدّثنا قاسم ، قال : حدّثنا أحمد بن زهير ، قال : حدّثنا عبد السلام بن صالح ، قال : حدّثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي ، قال : حدّثنا عمر مولى غفرة ، قال : سئل محمد بن كعب القرظي عن أول من أسلم : عليّ أم أبي بكر ؟ فقال : سبحان الله ! عليّ أولهما إسلاما ؛ وإنما شُبّه عليّ الناس ؛ لأنّ عليا أخني إسلامه من أبي طالب ، وأسلم أبو بكر ، فأظهر إسلامه .

قال أبو عمر : ولا شك عندنا أنّ عليا أولهما إسلاما ، ذكر عبدالرزاق في جامعه ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن وغيره ، قالوا : أول من أسلم بعد خديجة عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وروى معمر ، عن عثمان الجزريّ ، عن مِقْسَم ، عن ابن عباس ، قال : أول من أسلم عليّ بن أبي طالب .

قال أبو عمر : وروى ابن فضيل عن الأجلح ، عن حبة بن جوين العُرنِيّ ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين .

قال أبو عمر : وروى شعبة ، عن سلمة بن كهيل ، عن حبة العُرنِيّ ، قال : سمعت عليا يقول : أنا أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه .

قال أبو عمر : وقد روى سالم بن أبي الجعد ، قال : قلت لابن الحنفية : أبو بكر كان أولهما إسلاما ؟ قال : لا .

قال أبو عمر : وروى مسلم الملائني ، عن أنس بن مالك ، قال : استنبي النبي صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء .

قال أبو عمر : وقال زيد بن أرقم : أول من آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب .

قال : وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه ، ذكرها النسائي وأسلم بن موسى وغيرهما ؛ منها ما حدثنا به عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا علي بن الجعد ، قال : حدثنا شعبة ، قال : أخبرني عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا حمزة الأنصاري قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب .

قال أبو عمر : [وحدثنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، ^(١)] ، حدثنا أبي ، قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، قال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنا يحيى بن أبي الأشعث ، عن إسماعيل بن إلياس بن عفيف الكندي ، عن أبيه ، عن جده ، قال : كنت امرأة تاجرا ، فقدمت الحج ، فأتيت العباس ابن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، وكان امرأة تاجرا ، فوالله إني لعنده بميني ، إذ خرج رجل من خيباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلي ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخيباء الذي خرج منه ذلك الرجل ، فقامت خلفه تصلي ، ثم خرج غلام حين رآهق الحلم من ذلك الخيباء ، فقام معه يصلي ، فقلت للعباس : ما هذا يا عباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخي ، قلت : من هذه المرأة ؟

قال : امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : ما هذا الفتى ؟ قال : علي بن أبي طالب ابن عمه ، قلت : ما هذا الذي يصنع ؟ قال : يصلي ، وهو يزعم أنه نبي ، ولم يتبعه علي أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام ؛ وهو يزعم أنه سيفتح علي أمته كنوز كسرى وقيصر ، قال : فكان غفيف الكندي يقول - وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه : لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ كنت أكون ثانيا مع علي .

قال أبو عمر : وقد ذكرنا هذا الحديث من طرق في باب غفيف الكندي من هذا الكتاب .

قال أبو عمر : ولقد قال علي عليه السلام : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا ، لا يصليّ معه غيري إلا خديجة .

فهذه الروايات والأخبار كلها ، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البر في الكتاب المذكور ، وهي كما تراها تكاد تكون إجماعا .

قال أبو عمر : وإنما الاختلاف في كمية سنه عليه السلام يوم أسلم ، ذكر الحسن ابن علي الحلواني في كتاب " المعرفة " له ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الليث ابن سعد ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن ، أنه بلغه أن عليا والزبير أسلما وها ابنا ثمانين سنين . كذا يقول أبو الأسود يقيم عروة ؛ وذكره أيضا ابن أبي خيثمة عن قتيبة بن سعيد ، عن الليث بن سعد ، عن أبي الأسود ؛ وذكره معمر بن شببة ، عن الحرامى ، عن أبي وهب ، عن الليث ، عن أبي الأسود ، قال الليث : وهاجرا وها ابنا ثمانين عشرة سنة .

قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا قال بقول أبي الأسود هذا .

قال أبو عمر : وروى الحسن بن علي الحلواني ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا

معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة .

قال أبو عمر : وأخبرنا أبو القاسم خلف بن قاسم بن سهل ، قال : حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الطوسي ، قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السراج ، قال : حدثنا محمد بن مسعود ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم عليّ ، وهو أول من أسلم ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة سنة .

قال أبو عمر : قال ابنُ وضاح : وما رأيت أحداً قطّ أعلم بالحديث من محمد بن مسعود ، ولا بالرأي من سُحنون .

قال أبو عمر : قال ابن إسحاق : أول ذكّر آمن^(١) بالله ورسوله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين .

قال أبو عمر : والروايات في مَبْلَغ سنّ عليه السلام مختلفة ، قيل : أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقيل : ابن اثنتي عشرة سنة . وقيل : ابن خمس عشرة سنة . وقيل : ابن ست عشرة سنة . وقيل : ابن عشر . وقيل : ابن ثمان .

قال أبو عمر : وذكر عمر بن شبة ، عن المدائني ، عن ابن جعدة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : أسلم عليّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

قال : وأخبرنا إبراهيم بن المهذر الحرّامي ، قال : حدثنا محمد بن طلحة ، قال : حدثني جدّي إسحاق بن يحيى ، عن طلحة ، قال : كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام والزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص أعماراً واحدة .

قال : وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا إسماعيل بن علي الخطيبي ، قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا حُجّين أبو عمر ، قال : حدثنا حبان عن معروف ، عن أبي معشر ، قال : كان عليّ عليه السلام وطلحة والزبير في سنّ واحدة .

قال : وروى عبد الرزاق ، عن الحسن وغيره : أن أولَ مَنْ أسلم بعد خديجة عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة .

قال أبو عمر : وروى أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا شريح بن النعمان ، قال : حدثنا الفُرات بن السائب ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عمر ، قال : أسلم عليّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال أبو عمر : هذا أصحّ ما قيل في ذلك ؛ والله أعلم .

اتهى حكاية كلام أبي عمر في كتاب ” الاستيعاب ” .

واعلم أن شيوخنا المتكلمين لا يكادون يختلفون في أن أول الناس إسلاما عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ؛ إلا من عساه خالف في ذلك من أوائل البصريين ، فأما الذى تقررت المقالة عليه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان ، لا تكاد تجد اليوم في تصانيفهم ؛ وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافا في ذلك .

واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدعى ذلك لنفسه ، ويفتخر به ، ويجعله في أفضليته على غيره ، ويصرّح بذلك : وقد قال غير مره : أنا الصديق الأكبر ، والفاروق الأول ، أسلمت قبلا لإسلام أبي بكر ، وصليت قبل صلته .

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قهية في كتاب ” المعارف ” وهو غير متهم في أمره .

ومن الشعر المروى عنه عليه السلام في هذا المعنى الأبيات التى أولها :

محمد النبيّ أخى وصهرى وحمة سيد الشهداء عمى

ومن جملتها :

سبقتكم إلى الإسلام طرّا غلاما ما بلغت أوان حلى

والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جدا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها ، فانتظلب من مظانها .

ومن تأمل كتب السِّير والتواريخ عَرَفَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَلَنَاهُ .

فأما الذاهبون إلى أن أبا بكر أقدمهما إسلاما فنفره قليلون ؛ ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البر أيضا في كتاب " الاستيعاب " في ترجمة أبي بكر (١) .

قال أبو عمر : حدثني خالد بن القاسم ، قال : حدثنا أحمد بن محبوب ، قال : حدثنا محمد ابن عبدوس ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، قال : حدثنا شيخ لنا ، قال : أخبرنا مجالد ، عن الشعبي ، قال : سألت ابن عباس - أو سئل - : أي الناس كان أول إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان بن ثابت :

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أَخِي ثَقَّةٍ فَادْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا (٢)
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَتَقَاهَا وَأَعْدَلُهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا
وَالثَّانِيَ التَّالِيََ الْحَمُودَ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرِّسْلَا

ويروى أن النبي صلى الله عليه وآله ، قال لحسان : « هل قلت في أبي بكر شيئا ؟ » ، قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع :

وثنائي اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعّدوا الجبلا

فسرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « أحسنت يا حسان » ؛ وقد روى

فيها بيت خامس :

وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

(١) كتاب الاستيعاب ص ٣٣٠

(٢) ديوانه ٢٩٩ ، ٣٠٠ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

وقال أبو عمر : وروى شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النخعي ، قال : أول من أسلم أبو بكر .

قال : وروى الجريري ، عن أبي نصر ، قال : قال أبو بكر لعلي عليه السلام : أنا أسلمت قبلك ؛ في حديث ذكره فلم يشكره عليه .

قال أبو عمر : وقال فيه أبو مخجن الثقفي :

وُسِّمَتْ صِدِّيقًا وَكُلُّ مُهَاجِرٍ سَوَاكُ بِسْمِيَّ بِاسْمِهِ غَيْرَ مُنْكَرٍ
سَبَقَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَدِيسًا بِالْعَرِيشِ الْمَشْهُرِ
وَبِالْفَارِ إِذْ سُمِّيتَ خَلًّا وَصَاحِبًا وَكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ الْمُطَهَّرِ

قال أبو عمر : وروينا من وجوه ، عن أبي أمامة الباهلي ، قال : حدثني عمرو ابن عبسة ، قال : أتيت رسول الله صلى عليه وآله ؛ وهو نازل بمُكَاظ ، فقلت : يا رسول الله ، من اتبعك على هذا الأمر ؟ فقال : حرّ وعبد : أبو بكر وبلال . قال : فأسلمت عند ذلك ، وذكر الحديث .

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في هذا الباب في ترجمة أبي بكر ؛ ومعلوم أنه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التي ذكرها في ترجمة علي عليه السلام الدالة على سبقه ؛ ولا ريب أن الصحيح ما ذكره أبو عمر ، أن عليا عليه السلام كان هو السابق ، وأن أبا بكر هو أول من أظهر إسلامه ، فظن أن السابق له .

وأما زيد بن حارثة ؛ فإن أبا عمر بن عبد البر رضي الله تعالى عنه ذكر في كتاب " الاستيعاب " ؛ أيضاً في ترجمة زيد بن حارثة ، قال : ذكر معمر بن شبة في جامعه عن الزهري أنه قال : ما علمنا أحداً أسلم قبلي زيد بن حارثة ^(١)

قال عبد الرزاق : وما أعلم أحداً ذكره غير الزهري .
ولم يذكر صاحب " الاستيعاب " ما يدل على سبق زيد إلا هذه الرواية ؛ واستغربها ؛
فدلّ مجموع ما ذكرناه أنّ علياً عليه السلام أولُ الناس إسلاماً ، وأنّ المخالف في ذلك شاذّ ،
والشاذّ لا يعتدّ به .

[فصل فيما ذكر من سبق عليّ إلى الهجرة]

المسألة السابعة :

أن يقال : كيف قال : « إنه سبق إلى الهجرة » ومعلوم أنّ جماعة من المسلمين هاجروا قبله ،
منهم عثمان بن مظعون وغيره ؛ وقد هاجر أبو بكر قبله ، لأنه هاجر في صحبة النبي صلى الله
عليه وآله ؛ وتخلف عليّ عليه السلام عنهما ^(١) ، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ؛
ومكث أياماً يردّ الودائع التي كانت عنده ، ثم هاجر بعد ذلك ؟

والجواب ، أنّه هلمه السلام لم يقل : « وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة » ؛ وإنما قال :
« وسبقت » فقط ؛ ولا يدلّ ذلك على سبّقه للناس كافة ؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم
المهاجرين إلى الهجرة ، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جداً .

وأيضاً فقد قلنا إنه عللّ أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور : منها
ولادته على الفطرة ، ومنها سبقه إلى الإيمان ، ومنها سبّقه إلى الهجرة ؛ وهذه الأمور الثلاثة
لم تجتمع لأحد غيره ؛ فكان مجموعها مميّزاً عن كل أحد من الناس .

وأيضاً فإنّ اللام في « الهجرة » يجوز ألا تكون للمعهود السابق ، بل تكون
للجنس ، وأمير المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التي قبل هجرة المدينة ؛
فإنّ النبي صلى الله عليه وآله هاجر عن مكة مراراً ، يطوف على إحياء العرب ، وينتقل من

أرض قوم إلى غيرها ؛ وكان على عليه السلام معه دون غيره .

أما هجرته إلى بني شيان ؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أن عليا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر ، وأنهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوما وعادوا إليها ، لمّا لم يجدوا عند بني شيان ما أرادوه من النّصرة .

وروى المدائني في كتاب " الأمثال " عن المفضل الضبي ؛ أن ^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج عن مكة يعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى ربيعة ، ومعه على عليه السلام وأبو بكر ، فدفموا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدّم أبو بكر - وكان نَسابة - فسلم فرُدُّوا عليه السلام ؛ فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : أمن هَامِتْها أم من لهازِمْها ؟ ^(٢) قالوا : من هَامِتْها العظمى ، فقال : من أي هَامِتْها العظمى أتم ؟ قالوا : من ذُهل الأكبر ، قال : أفتنكم عوف الذي يقال له : لأحرّ بوادي عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفتنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : أفتنكم جَساس حامي الذّمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفتنكم الحوفزان ، قاتل الملوك وسالها أنفسها ؟ قالوا : لا ، قال : أفتنكم المزدلف صاحب العمامة الدرّدة ؟ قالوا : لا ، قال : أفتنكم أخوالُ الملوك من كِنْدَة ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن ذُهلا الأكبر ؛ أتم ذُهل الأصغر . فقام إليه غلام قد بَقَل ^(٣) وجهه ، اسمه دَغِفَل ، فقال :

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ وَالصَّبْرُ لَا تَصْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلُهُ

(١) الخبر في مجمع الأمثال ١٧ ، ١٨

(٢) فسرّه صاحب اللسان فقالت : « وفي حديث أبي بكر والنسابة : « أمن هَامِتْها أو لهازِمْها » ؛ أي من أشرافها أنت أو من أوساطها ؛ والهازم أضول الحنكين ؛ واحتدتها لهزيمة بالكسر ؛ فاستعارها لوسط النسب والقبيلة »

(٣) بقل وجهه ؛ أي خرج شعره .

يا هذا، إنك قد سألتنا فأجبتناك ، ولم نكتمك هيثا ، فممن الرجل ؟ قال : من قريش ،
 قال : بخ بخ ، أهل الشرف والرئاسة ؛ فمن أي قريش أنت ؟ قال : من تميم بن مرة ،
 قال : أمكنت والله الرامي من الثفرة ^(١) ؛ أمينكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من
 فهر فكان يدعى مجعما ؟ قال : لا ، قال : أمينكم هاشم الذي هشم لقومه الثريد ^(٢) ؟
 قال : لا ، قال : أمينكم شيبه الحمد ، مطعم طير السماء ^(٣) ؟ قال : لا ، قال : أمين المفيضين
 بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : أمين أهل الندوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أمين أهل
 الرقادة ^(٤) أنت ؟ قال : لا ، قال : أمين أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أمين
 أهل السقاية ؟ قال : لا ، قال : فاجتذب أبو بكر زمام ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله
 عليه وآله هاربا من الغلام ؛ فقال دغفل :

* صَادَفَ دَرَّةَ السَّيْلِ دَرًّا يَصْدَعُهُ ^(٥) * .

أما والله لو ثبت لأخبرتكَ أنك من زَمَعَاتِ قريش ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه
 وآله . وقال عليّ عليه السلام لأبي بكر : لقد وقعت يا أبا بكر من الأعرابيّ على باقعة ؛ قال :
 أجل ؛ إن لكل طامة طامة ، والبلاء موكل بالمنطق ؛ فذهبت مثلا .

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطائف ؛ فكان معه عليّ عليه السلام وزيد بن

(١) في بجمع الأمثال : « من صفاء الثفرة »

(٢) بعده في بجمع الأمثال : « ورجال مكة مسنون عجاف » .

(٣) بعده في بجمع الأمثال : « الذي كان في وجهه قر يضيء ليل الظلام الداجي » .

(٤) في اللسان : « الرقادة شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ؛ فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته ،
 فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب فلا يزالون يطعمون
 الناس حتى تنتفض أيام الموسم ، وكانت الرقادة والسقاية لبني هاشم والسدانة واللواء لبني عبد الدار ؛ وكانت
 أول من قام بالرقادة هاشم بن عبد مناف » .

(٥) درأ الرادي بالسييل ، دفعه ؛ وأورد المثل صاحب اللسان وفسره بقوله : « يقال للسييل إذا أتاك

من حيث لا تحسبه : سييل درء ؛ أي يدفع هذا ذاك وذاك هذا » .

حارثة في رواية أبي الحسن المدائني ؛ ولم يكن معهم أبو بكر . وأما رواية محمد بن إسحاق ؛ فإنه قال : كان معه زيد بن حارثة وَحَدَه ، وغاب رسول الله صلى عليه وآله عن مكة في هذه الهجرة أربعين يوماً ؛ ودخل إليها في جوار مُطْعِم بن عدى .

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى بني عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان ؛ فإنه لم يكن معه إلا عليّ عليه السلام وَحَدَه ؛ وذلك عَقِيب وفاة أبي طالب ؛ أوحى إليه صلى الله عليه وآله : اخرج منها ؛ فقد مات ناصرك ، فخرج إلى بني عامر بن صعصعة ؛ ومعه عليّ عليه السلام وحده ، ففرض نفسه عليهم وسألم النصر ، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه ؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة ؛ وكانت مدة غيبته في هذه الهجرة عشرة أيام ؛ وهي أول هجرة هاجرها صلى الله عليه وآله بنفسه .

فأما أول هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه ؛ فهجرة الحبشة ؛ هاجر فيها كثير من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة في البحر ؛ منهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام ؛ فغابوا عنه سنين ؛ ثم قدم عليه منهم مَنْ سلم وطالت أيامه ^(١) ؛ وكان قدوم جعفر عليه عام فتح خيبر ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أدري بأيّهما أنا أسرّ ؛ أبقدم جعفر أم بفتح خيبر » !

ومس كلام له عليه السلام كلم به الخوارج :

الأضل :

أصَابَكُمْ حَاصِبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيْرٌ . أَبَعَدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ ، وَجِهَادِي مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ ! لَقَدْ ضَلَّكَ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ . فَأَوْبُوا شَرَّ مَا بٍ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثْرِ الْأَعْتَابِ .
أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا ، وَسَيْفًا قَاطِمًا ، وَأَثْرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ
فِيكُمْ سُنَّةً .

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السلام : « وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيْرٌ » ، يُرْوَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ :
أحدها أن يكونَ كما ذَكَرناه : « آيْرٌ » بالراء ؛ من قولهم : رَجُلٌ آيْرٌ ؛ لذي
يَأْبُرُ النَّخْلَ ، أَى يُضْلِعُهُ .

وَيُرْوَى : « آيْرٌ » بالناء ، بثلاثِ نَقَطٍ ، يُرَادُ بِهِ الَّذِي يَأْبُرُ الْحَدِيثَ ، أَى يَرْوِيهِ
وَيُحْكِيهِ ؛ وَهُوَ أَصْحَحُ الْوُجُوهِ عِنْدِي ، كَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : لَا بَقِيَ مِنْكُمْ مُخْبِرٌ .

وَيُرْوَى : « آيْرٌ » بالزَّايِ الْمُعْجَمَةِ ، وَهُوَ الْوَارِثُ ، وَالْهَالِكُ أَيْضًا يُقَالُ لَهُ آيْرٌ .

الشُّنْخُ :

الحاصب : الريح الشديدة التي تُثير الحصباء ؛ وهو صفار الحصى ؛ ويقال لها أيضا

حَصْبَةٌ ، قال لبيد :

جَرَّتْ عَلَيْنَا إِذْ خَوَّتْ مِنْ أَهْلِهَا أَذْيَالَهَا كُلُّ عَصُوفٍ حَصْبَةٍ (١)

فأما التفسيرات التي فسّر بها الرضى رحمه الله تعالى قوله عليه السلام : « آبر » فيمكن

أن يزداد فيها ، فيقال : يجوز أن يريدَ بقوله : « ولا بقی منكم آبرِ » أى نَمَامٍ يفسد

ذات البين ؛ والمثبرة : النيمة ، وأبر فلان ، أى نَمَ ، والآبر أيضا : مَنْ يَبْنِي القوم الغوائل

خفيةً ، مأخوذ من أَبَرَتُ الكلب إذا أطمعته الإبرة في الخبز ؛ وفى الحديث : « المؤمن

كالكلب المأبور » ؛ ويجوز أن يكون أصله « هابر » ؛ أى مَنْ يَضْرِب بالسيف فيقطع ؛

وأبدلت الهاء همزة ، كما قالوا فى : « آل » أهل ؛ وإن صحّت الرواية الأخرى « آثر » بالناء

بثلاث نقط ، فيمكن أن يريدَ به ساجى باطن خُفّ البعير ؛ وكانوا يُسَجُّون باطن الخلف

بحديدة ليقتص أثره ؛ رجل آثر وبعير مأثور .

وقوله عليه السلام : « فأوبوا شرّ مآب » ، أى ارجعوا شرّ مرجع . والأعقاب : جمع

عَقَب بكسر القاف ؛ وهو مؤخر القدم ، وهذا كله دعاء عليهم ، قال لهم أولا : أصابكم

حاصب ؛ وهذا من دعاء العرب ، قال تميم بن مُقبل :

فَإِذَا خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا وَقَطِينِهَا فَاصَابَهَا الحَصْبَاءُ وَالتَّقَانُ

ثم قال لهم ثانيا : « لا بقی منكم مخبر » . ثم قال لهم ثالثا : « ارجعوا شرّ مرجع » ،

ثم قال لهم رابعا : « عودوا على أثر الأعقاب » ؛ وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَنَزِدُ (٢)

(١) البيت فى اللسان ١ : ٣١٠

(٢) سورة الأنعام ٧١

كَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ﷻ؛ والمراد انكاس حالهم ؛ وعودهم من العزّ إلى الذلّ ؛ ومن الهداية إلى الضلال .

وقوله عليه السلام : « وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة » ، فالأثرة هاهنا الاستبداد عليهم بالنبيء والغنائم وأطراح جانبهم ، وقال النبي صلى الله عليه وآله للأُنصار : « ستلقون بعدى أثرّةً فاصبروا حتى تلقوني » .

[أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم]

واعلم أن الخوارج هَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابه وأنصاره في الجبل وصيقين قبل التحكيم ؛ وهذه المخاطبة لهم ، وهذا الدعاء عليهم ؛ وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم ، وقد وقع ذلك ، فإن الله تعالى سَلَطَ هَلَى الخوارج بدمه الذلّ الشامل ، والسيف القاطع ، والأثرة من السلطان ، وما زالت حالهم تضحلّ ؛ حتى أفنّاهم الله تعالى وأفنى جمهورهم ؛ ولقد كان لهم من سيف المهلب بن أبي صفرة وبينه الحنف القاضى ، والموت الزوام ؛ ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم هاهنا طرفا .

[عروة بن حدير]

فمنهم عروة بن حدير أحد بنى ربيعة بن حفظة بن بنى تميم ؛ ويعرف بعروة ابن أدية ، وأدية جدة له جاهلية ؛ وكان له أصحاب وأتباع وشيعة ، فقتله زياد في خلافة معاوية صبرا .

[نجدة بن عويمر الحنفى]

ومنهم نجدة بن عويمر الحنفى ، كان من رؤسائهم ؛ وله مقالة^(١) مفردة من مقالة الخوارج

وله أتباع وأصحاب ؛ وإليهم أشار الصلّتان العبدى بقوله (١) :

أرى أُمَّةً شَهَرَتْ سِيفَهَا وقد زِيدَ في سَوطِهَا الأَصْبَحِي (٢)
 بنَجْدِيَّةٍ أو حَارُورِيَّةٍ وأزرق يدعو إلى أزرقِي
 فلتنا أَنَّنَا مسلمونَ على دِينِ صَدِيقِنَا والنَّبِي
 أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِ يِرَ مَرَّةً الغَدَاةِ وَكَرَّ العَشِي
 إِذَا لَيْلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا أَنِي بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمَ فِتِي
 نَزُوحٍ وَنَقْدِ حَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مَن عَاشَ لَا تَنْقُضِي
 تَمُوتُ مَعَ المَرءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

وكان نجدة يصلى بمكة بمجذاء عبد الله بن الزبير في جمعه [في كل جمعة] (٣) ، وعبد الله يطلب الخلافة ، فيسكان عن القتال من أجل الحرم .

وقال الراعي يخاطب عبد الملك (٤) :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَى يَمِينِ بَرَّةٍ لَأُكْذِبَ اليَوْمَ الخَلِيفَةَ قِيلاً
 مَا إِن أُنِيتُ أَبَا خُبَيْبٍ وَافِداً يَوْمًا أُرِيدُ لِيَبْعَثَنِي بَدِيلاً (٥)
 لَمَّا أُنِيتُ نُجَيْدَةَ بنِ عُوَيْمِرٍ أَبْنِي الهُدَى فَيَزِيدُنِي تَضْلِيلًا
 مِنْ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ لَأَمِنْ حِيلَتِي أَنِّي أَعِدُّ لَهُ عَلَى فُضُولًا !

واستولى نجدة على اليمامة ، وعظم أمره ؛ حتى ملك اليمن والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر ؛ ثم إن أصحابه نقموا عليه أحكاماً أحدثها في مذهبهم ؛ منها قوله : إن

(١) الأبيات في ديوان الحماصة ٣ : ١٩١ - بشرح التبريزي ومعاهد التنصيص ١ : ٧٣ ، ٧٤ ،
 والكامل ٦ : ١٠١ - بشرح المرصني مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .

(٢) السوط الأصبغي : منسوب إلى ذى أصبح الحميري ؛ وكان أول من اتخذ هذه السباط التي يعاقب عليها
 السلطان . وانظر الكامل ٢ : ٢٤٦ - بشرح المرصني

(٣) من كتاب الكامل ٦ : ١٠٢

(٤) من ملحمة في جبهة أشعار العرب ١٧٤

(٥) أبو خبيب : كنية ابن الزبير

المخطئ بعد الاجتهاد معذور، وإن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ؛ وما سوى ذلك فالناس معذرون بجهله ؛ إلى أن تقوم عليهم الحجة ؛ فمن استحل محرماً من طريق الاجتهاد فهو معذور ؛ حتى إن من تزوج أخته أو أمه مستحلاً لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن ؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه ؛ فاختر لهم أبا فديك أحد بني قيس بن ثعلبة ؛ فجعله رئيسهم ، ثم إن أبا فديك أنفذ إلى نجدة بعد من قتله ، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرقوا عليه ؛ وقالوا قتل مظلوما .

[المستورد بن سعد التيمي]

ومنهم المستورد بن سعد أحد بني تميم ؛ كان ممن شهد يوم النخيلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيف علي عليه السلام ؛ ثم خرج بعد ذلك بمدة على المغيرة بن شعبة وهو والي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان في جماعة من الخوارج ؛ فوجه المغيرة إليه معقل بن قيس الرياحي ، فلما توافقا دعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له : علام تقتل الناس بيني وبينك ؟ فقال معقل : النصف سألت ، فأقسم عليه أصحابه ، فقال : ما كنت لأبي عليه ؛ فخرج إليه فاختلفا ضربتين ، خر كل واحد منهما من ضربة صاحبه قتيلا .
وكان المستورد ناسكا كثير الصلاة ؛ وله آداب وحكم ماثورة (١) .

[حوثة الأسدى]

ومنهم حوثة الأسدى ، خرج على معاوية في عام الجماعة في عصابة من الخوارج ؛ فبعث إليه معاوية جيشا من أهل الكوفة ، فلما نظر حوثة إليهم ، قال لهم : يا أعداء الله ؛ أتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا وسلطانها ؛ وأتم اليوم تقاتلون معه لتشدوا وسلطانها ؛ فلما

(١) الكامل ٥٧٧ (طبعة أوربا) ؛ وأورد من كلامه : إذا أفضيت بسرى إلى صديق فأفشاء لم أله ؛ لأنني كنت أولى بحفظه ، لانفخ إلى أحد سرا وإن كان مخلصا إلا على وجه المشاورة ، كن أحرم الناس على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك .

التحمت الحربُ قَتْلُ حوثرَة ، قَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ طَيْيٍّ ، وَفَضَّتْ جَموعَهُ (١)

[قُرَيْبُ بْنُ مَرَّةٍ وَزَحَّافُ الطَّائِيَّ]

وَمِنْهُمْ قُرَيْبُ بْنُ مَرَّةٍ الْأَزْدِيُّ ؛ وَزَحَّافُ الطَّائِيَّ ، كَانَا عَابِدِينَ مُجْتَهِدِينَ مِنْ أَهْلِ
الْبَصْرَةِ ، فَخَرَجَا فِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ فِي إِمَارَةِ زِيَادٍ ؛ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ : أَيُّهُمَا كَانَ الرَّئِيسَ ؟ فَاعْتَرَضَا
النَّاسَ ، فَلَقِيَا شَيْخًا نَاسِكًا مِنْ بَنِي ضَبِيْعَةَ مِنْ رِبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ فَقَتَلَاهُ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ رُوْبَةٌ
الضُّبَيْعِيُّ ؛ وَتَنَادَى النَّاسُ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي قَطِيْعَةَ ، مِنْ الْأَزْدِ ، وَفِي يَدِهِ السَّيْفُ ، فَنَادَاهُ
النَّاسُ مِنْ ظُهُورِ الْبَيْوتِ الْحَرُورِيَّةِ : ائْجُ بِنَفْسِكَ ؛ فَنَادَوْهُ : لَسْنَا حَرُورِيَّةً ، نَحْنُ الشَّرَطُ
[فَرَقَفَ] (٢) فَقَتَلُوهُ ؛ فَبَلَغَ أَبُو بَلَالٍ مَرْدَاسُ بْنُ أُدِيَّةَ خَبْرَهُمَا ، فَقَالَ : قُرَيْبُ بْنُ مَرَّةٍ ، لَا قَرَبَةَ لِلَّهِ !
وَزَحَّافُ لَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ! رَكَبَاهَا عَشَوَاءَ مَظْلَمَةٍ - يَرِيدَا عِتْرَا ضَمَانِ النَّاسِ - ثُمَّ جَعَلَا لَا يَمْرَانَ
بِقَبِيْلَةٍ إِلَّا قَتَلَا مِنْ وَجْدٍ ؛ حَتَّى مَرَّ عَلَى بَنِي عَلِيٍّ بْنِ سُودٍ ، مِنْ الْأَزْدِ ؛ وَكَانُوا رَمَاهُ ، كَانَ
فِيهِمْ مِائَةٌ يُجِيدُونَ الرَّمِيَّ ؛ فَرَمَوْهُ رَمِيًّا شَدِيدًا فَصَاحُوا : يَا بَنِي عَلِيٍّ ، الْبَقِيَا ، لَا رِمَاءَ بَيْنَنَا .
فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَلِيٍّ بْنِ سُودٍ :

لَأَشِيءُ لِلْقَوْمِ سِوَى السَّهَامِ مَشْحُوذَةً فِي غَلَسِ الظَّلَامِ

فَمَرَدَ عَنْهُمْ الْخَوَارِجُ (٣) ، وَخَافُوا الطَّلَبَ ، وَاشْتَقَوْا مَقْبَرَةَ بَنِي يَشْكُرَ حَتَّى نَفَذُوا إِلَى
مُزَيْنَةَ يَنْتَظِرُونَ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنْ مُضَرَ وَغَيْرِهَا ، فَجَاءَهُمْ ثَمَانُونَ ، وَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو
طَاحِيَّةَ ، مِنْ بَنِي سُودٍ ، وَقَبَائِلُ مِنْ مُزَيْنَةَ وَغَيْرِهَا ، فَاسْتَقْبَلَتِ الْخَوَارِجُ ، وَحَارَبَتْ حَتَّى
قَتَلَتْ عَنْ آخِرِهَا ، وَقَتِلَ قُرَيْبُ بْنُ مَرَّةٍ وَزَحَّافُ (٤) .

(١) الكامل ٥٧٩ (طبع أوروبا) .

(٢) من كتاب الكامل

(٣) عردوا ، من التعرید وهو الفرار .

(٤) الكامل ٥٨١ ، ٥٨٢ (طبع أوروبا) .

ومنهم أبو بلال مرداس بن أدية ، وهو أخو عروة بن حدير الذي ذكرناه أولاً ؛ خرج في أيام عبید الله بن زياد ، وأُنفذ إليه ابنُ زياد عباس بن أخضر المازني ، فقتله وقتل أصحابه ، وحل رأسه إلى ابن زياد ؛ وكان أبو بلال عابداً ناسكاً شاعراً ؛ ومن قدماء أصحابنا من يدعيه ، لما كان يذهب إليه من العدل وإنكار المنكر ؛ ومن قدماء الشيعة من يدعيه أيضاً .

[نافع بن الأزرق الحنفي]

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفي ، وكان شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج ، وإليه تنسب الأزارقة ، وكان يفتي بأن الداردار كفر ، وأنهم جميعاً في النار ؛ وكل من فيها كافر ؛ إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة ؛ ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ؛ ولا أن يبايعوا كحومهم ، ولا يتوارث الخارجي وغيره ؛ وهم مثل كفار العرب وعبيدة الأوثان ؛ لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والبعد بمنزلتهم ، والتقية لا تحل لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (١) وقال فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢) ، فتفرق عنه جماعة من الخوارج .

[نجدة بن عامر]

ومنهم نجدة بن عامر ، واحتج نجدة بقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ (٣) فسار نجدة وأصحابه إلى اليمامة ، وأضاف نافع إلى مقالة قدمناها ، استحلاله القدر بأمانته لمن خالفه ، فكتب نجدة إليه :

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) سورة المائدة ٥٤

(٣) سورة غافر ٢٨

أما بعد ؛ فإنَّ عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأمِّ البرة ، تعاقد قوَى المسلمين ، وتصنع للأخرق منهم ؛ لاتأخذك في الله لومة لائم ؛ ولا ترى معونة ظالم ؛ كذلك كنت أنت وأصحابك ؛ أولاً تتذكر قولك : لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر رعيته ماتوليت أمر رجلين من المسلمين ! فلما شرَّيت نفسك في طاعة ربِّك ابتغاء مرضاته ، وأصبت من الحقِّ فصه^(١) ، وصبرت على مرِّه ، تجرد لك الشيطان ؛ ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك وأغواك ؛ فعويت ، وأكفرت الذين عذَّروهم الله تعالى في كتابه ، من قعدة المسلمين وضعفتهم ؛ قال الله عزَّ وجلَّ ؛ وقوله الحقِّ ، ووعد الصديق : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٢) : ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾^(٣) ثم استحلَّت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتلهم ؛ وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾^(٤) ، وقال سبحانه في القعدة خيراً ، فقال : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٥) ففضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هودون المجاهدين ، أو ما سمعت قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾^(٥) فجعلهم من المؤمنين . [وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم]^(٦) ثم إنك لا تؤدى أمانة إلى من خالفك ؛ والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها ؛ فاتق الله في نفسك ؛ واتق يوماً لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ؛ فإن الله بالمرصاد ، وحكمه العدل ؛ وقوله الفصل^(٧) . والسلام .

(١) فصه : كفه

(٢) سورة التوبة ٩١

(٣) سورة الإسراء ١٥

(٤) سورة النساء ٩٥

(٥) سورة النساء ٩٥

(٦) من كتاب الكامل

(٧) الكامل ٦١٢ (طبع أوروبا) .

فكتب إليه نافع :

أما بعد ؛ أتاني كتابك تعظني فيه ، وتذكركني وتنصح لي وتزجرني ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ؛ وأنا أسأل الله أن يجعلني من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وعبت على ما دنت به ؛ من إكفار القعدة وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة من المخالفين ؛ وسأفسر لك إن شاء الله . . .

أما هؤلاء القعدة ؛ فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ؛ وهؤلاء قد تفقهوا في الدين ، وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح . وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم ؛ إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) فقال : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ (٣) فخير بتعذيرهم ، وأنهم كذبوا الله ورسوله ، ثم قال : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفال ، فإن نوحا نبي الله ، كان أعلم بالله مني ومنك ، وقد قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَتْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (٤) فسماهم بالكفر وهم أطفال ؛ وقبل أن يولدوا ؛ فكيف كان ذلك

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة التوبة ٨١

(٣) سورة التوبة ٩٠

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

في قوم نوح ، ولا تقوله في قومنا ؛ والله تعالى يقول : ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ ^(١) ، وهؤلاء كمشركي العرب ، لا يقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإنَّ الله تعالى أحلَّ لنا أموالهم ، كما أحلَّ دماءهم لنا ، فدماؤهم حلال طلق ^(٢) ، وأموالهم فيء للمسلمين ؛ فاتقِ الله وراجع نفسك ، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة ؛ ولن يسمك خذلاننا والعود عتاً وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا ؛ والسلام على من أقرَّ بالحق وعمل به ^(٣) .

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكِّمة ؛ أما بعد فإنَّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ؛ إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة ، والدين واحد ، فقيم المقام بين أظهر الكفار ثرون الظلم ليلاً ونهاراً ؛ وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد ؛ فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ ^(٤) ؛ ولم يجعل لكم في التخلف عذراً في حالٍ من الأحوال ؛ فقال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ^(٥) ؛ وإنما عذر الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، ومَنْ كانت إقامته لعلّة ، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) ، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا ؛ فإنها غرارة مكّارة ، لذتها نافذة ، ونعيمها بائد ، حُفَّتْ بالشهوات اغترارا ؛ وأظهرت حَبْرَةَ ^(٦) وأضمرت عَبْرَةَ ؛ فليس آكلٌ منها أكلةً تسره ، ولا شاربٌ منها شربةً تؤنقه ^(٧) ؛ إلا ودناها درجةً إلى أجله ؛ وتباعد بها مسافةً من أمّله ؛ وإنما جعلها الله دار المتزوّد منها ، إلى النعيم المُقيم ، والعيش السليم ، فليس يرضى بها حازماً داراً ولا حكيماً قراراً ؛ فاتقوا الله وتزودوا ؛

(١) سورة القمر ٤٣

(٢) يقال : حل طلق ، أي حلال طيب .

(٣) الكامل للمبرد ٦١٣ (طبع أوروبا)

(٤) سورة التوبة ٣٦

(٥) سورة التوبة ٤١

(٦) الحبرة : النعمة .

(٧) تؤنقه : تعجبه .

فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهدى ^(١) .

فلما أظهر نافعٌ مقالته هذه، وانفرد عن الخوارج بها، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس، ويقتل الأطفال، ويأخذ الأموال، ويحبي الخراج؛ وفشا أعماله بالسواد؛ فارتاع لذلك أهل البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسأله أن يؤمر عليهم أميراً يحميهم من الخوارج، ويجاهد بهم؛ فأتى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمى بـبنة، فسأله أن يؤمر عليهم—وبنة يومئذ أمير البصرة من قبل ابن الزبير—فأمر عليهم مسلم بن عبيس بن كرز، وكان ديناً شجاعاً؛ فلما خرج بهم من جسر البصرة، أقبل عليهم، وقال: أيها الناس، إني ما خرجت لامتيار ^(٢) ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ذفرت بهم؛ فما وراءهم إلا السيوف والرماح؛ فمن كان شأنه الجهاد، فلينهض، ومن أحب الحياة فليرجع .

فرجع نفرٌ يسير، ومضى الباؤون؛ معه فلما صاروا بدولاب ^(٣) خرج إليهم نافع وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح؛ وعقرت الخيل؛ وكثر الجراح والقتل، وتضاربوا بالسيوف والعمد ^(٤)، فقتل ابن عبيس أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج؛ وادعى قتله سلامة الباهلي، وكان نافع قد استخلف عبيد الله ابن بشير بن الماحوز السليطي اليربوعي، واستخلف ابن عبيس الربيع بن عمرو الأجدم الغدافي اليربوعي؛ فكان الرئيسان من بني يربوع؛ فاقتتلوا بعد قتل ابن عبيس ونافع قتالاً شديداً نيفاً وعشرين يوماً؛ حتى قال الربيع لأصحابه: إني رأيت البارحة كأن يدي

(١) السكامل ٦١٥ (طبع أوربا)

(٢) امتيار؛ مصدر امتار لأهله؛ أي جلب لهم الميرة، والميرة: الطعام .

(٣) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

(٤) العمد، بفتحين، أو بضتين جمان للعمود

التي أصيبت بكابل انحطت من السماء ، فاستشلتني ^(١) ، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل ؛ ثم عاودهم القتال ؛ فقتل ، فدافع أهل البصرة الراية ؛ حتى خافوا العطب ؛ إذا لم يكن لهم رئيس ؛ ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحميري ، فأبأها ؛ فقيل له : ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم ؟ فقال : إنها مشنومة ، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل ؛ ثم أخذها فلم يزل يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبي ؛ وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهر ؛ فاختلفا ضربتين ، فخرًا ميتين ^(٢) .

وقام حارثة بن بدر الغداني بأمر أهل البصرة بعده ؛ وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشة خفيفة ؛ ويزجي الأوقات انتظاراً لقدم أمير من قبل ببة يلي حرب الخوارج ؛ وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب ؛ وهي من حروب الخوارج المشهورة ، انتصف فيها الخوارج من المسلمين ، وانتصف المسلمون منهم ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

[عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي]

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قتل نافع بن الأزرق ؛ وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر النخعي ؛ ولاء عبد الله بن الزبير ذلك ؛ ولقيه كتابه بالإمارة وهو يريد الحج ، وقد صار إلى بعض الطريق ، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلقاه أهل البصرة الذين كانوا في وجه الأزارقة ، ومعهم حارثة بن بدر الغداني ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية ، وكان ابن الماحوز حينئذ في سوق الأهواز ، فلما عبر

(١) استشلتني ؛ قال اللبرد : استشلتني ؛ أي أخذتني إليها واستنقذتني ؛ يقال : استشلاه واشتلاه .

(٢) السكامل ٦١٦ (طبع أوربا) .

عُمان إليهم دُجَيْلا ، نهضت إليه الخوارج ، فقال عُمان لحارثة : ما الخوارج إلا ما أرى ، فقال حارثة : حسبك بهؤلاء ! قال : لا جَرَم ! لا أنفدى ، حتى أناجزهم ، فقال حارثة : إن هؤلاء القوم لا يقاتلون بالتعمسَف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتُم يا أهلَ العراق إلا جُبنا ! وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ! أنت والله بغير هذا أعلم - يُعرِّض له بالشراب ، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب - فغضب حارثة ، فاعتزل ، وحاربهم عُمان يومه إلى أن غربت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلا ، وانهزم الناس ، وأخذ حارثة بن بدر الراية ، وصاح بالناس : أنا حارثة بن بدر ! فتاب إليه قوم فعب بهم دجَيْلا ، وبلغ قتل عُمان البصرة ، فقال شاعر من بني تميم :

مضى ابن عُبيسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ وأعقبنا هذا الحجازيَ عُمانُ^(١)
فأرعد من قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ وأبرق ، والبرقُ اليمانيَ خَوانُ^(٢)
فَضَحَتْ قريشاً غَنَمًا وسمينها وقيل بنو تميم بن مرةَ غيلان^(٣)
فلولا ابنُ بدرٍ للعراقيين لم يَقُمُ بما قام فيه للعراقيين إنسانُ
إذا قيل منْ حامى الحقيقة أومات إليه مَعَدُّ بالأكف وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بعزله ، وروى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي المعروف بالقباع^(٤) البصرة ، فقدمها ، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد ، فأراد توليته ، فقال له رجل من بكر بن

(١) الأبيات في السكامل ٦٢٥ (طبعة أوروبا)

(٢) قال المبرد : قوله : « فأرعد » زعم الأصمعي أنه خطأ . . . وأنه لا يقال إلا رعد وبرق . . .

وروى غير الأصمعي : أرعد وأبرق على ضعف . وقوله : والبرق اليماني خوان ، يريد : والبرق اليماني يخون

(٣) كذا في الج ، وفي السكامل : « عزلان » ، وفي ب : « غزلان » .

(٤) قال المبرد : « وإنما سمي الحارث بن عبد الله القباع ؛ لأنه ولي البصرة ؛ فعبر على الناس مكابليهم ؛

فنظر إلى مكبال صغير في مرآة العين ؛ وقد أحاط بدقيق استكثره ؛ فقال : إن مكبالكم هذا لقباع ؛

والقباع : الذي يخفى أو يخفى ما فيه . السكامل ٧ : ٤٣ - بشرح المرصفي .

وائل : إن حارثة ليس بذلك ؛ إنما هو صاحب شراب ، وكان حارثة مستهترا بالشراب ، معاقراً للخمير ؛ وفيه يقول رجل من قومه (١) :

ألم ترَ أن حارثةَ بنَ بَدْرِ يُصَلِّي وهوَ أَكْفَرُ من حِمَارِ
ألم ترَ أنَ اللَّفْتِيانِ حَظًّا وحَظُّكَ في البغايا والمُعَارِ (٢)

فكتب إليه انقباع : تُكفني حربهم إن شاء الله : فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرق أصحابه عنه وبقى في خِيفٍ منهم ؛ فأقام بنهر تيرمي ، فعبرت إليه الخوارج ، فهرب من تخلف معه من أصحابه ؛ وخرج يركض حتى أتى دُجَيْلا ، فجلس في سفينة ، وأتبعه جماعة من أصحابه ؛ فكانوا معه فيها ؛ ووافاه رجلٌ من بني تميم ، عليه سلاحه والخوارج وراءه ؛ وقد توسط حارثة دُجَيْلا ، فصاح به : يا حارثة ، ليس مثلي يضيع ! فقال للملاح : قرب ؛ فقتل إلى جُرف (٣) ؛ ولا فُرْضة هناك ، فَطَفَّرَ (٤) بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعا وهلك حارثة (٥) .

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب ” الأغاني الكبير ” ، أن (٦) حارثة لما عقدوا له الرئاسة ، وسلموا إليه الراية ، أمرهم بالثبات ، وقال لهم : إذا فتح الله عليكم فللمعرب زيادة فريضتين ، وللموالي زيادة فريضة ، وندب الناس ، فالتقوا وليس بأحدٍ منهم طَرِقَ (٧) قد فشت فيهم الجراحات ، وما تطأ الخيلُ إلا على القتلى ؛ فبيناهم كذلك ، إذ أقبل جمعٌ

(١) نقل المرصني في رغبة الآمل أن البيتين نسبا إلى علقمة بن معبد المازني .

(٢) المعار : الخمر .

(٣) الجرف : ما أكله السيل من أسفل سن الوادي والنهر .

(٤) طفر : وثب .

(٥) السكامل ٦٢٦ وما بعدها (طبعة أوروبا)

(٦) الأغاني ٦ : ١٤٦ وما بعدها (طبعة الدار) . مع اختلاف في الرواية

(٧) طرق ، أي قوة .

من الشُّرَاة من جهة اليمامة ، - يقول المَكْتَرُ : إنهم مائتان ، والمَقْتَلُ إنهم أربعون -
فاجتمعوا وهم مُرِيحُونَ مع أصحابهم ، فصاروا كَوَ كَبَّةً^(١) ، واحدة ، فلما رآهم حارثة بن بدر
ركض برايته منهزماً ، وقال لأصحابه :

كِرِّبُوا وَدَوِّبُوا أَوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فَادْهَبُوا^(٢)

وقال :

أَبْرَ الْجَمَارِ فَرِيضَةً لِعَبِيدِكُمْ وَالْخَصِيَّتَانِ فَرِيضَةَ الْأَعْرَابِ

قال : كَرِّبُوا ، أى اطلبوا كَرَنِي ، وهى قرية قريبة من الأهواز ، ودَوِّبُوا : اطلبوا
دُؤْلَابٌ ؛ وهى ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

قال : فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين ، وتبعتهم الخوارج ، فألقى الناس أنفسهم فى
الماء ، ففرق منهم بدُجَيْلِ الأهواز خلق كثير .

[الزبير بن على السليطى وظهور أمر المهلب]

ومنهم الزُّبَيْرُ بن على السليطى التيمى ؛ كان على^(٣) مقدمة ابن الماحوز ، وكان
ابن الماحوز يخاطب بالخلافة ، ويخاطب الزبير بالإمارة ، ووصل الزبير بعد هلاك حارثة
ابن بدر ، وهرب أصحابه إلى البصرة ، فخافه الناس خوفاً شديداً ، وضج أهل البصرة
إلى الأحنف ، فأتى القبايع ، فقال : أصلىح الله الأمير ! إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا
وفيتنا ، فلم يبق إلا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هزلاً . قال : فسئوا إلى رجلايلى
الحرب ، فقال الأحنف : لا^(٣) أرى لها رجلاً إلا المهلب بن أبى صُفْرَةَ ؛ فقال : أو هذا رأى

(١) الكوكبة : الجماعة ، وفى الأغانى « كوكبة » ، وما يعنى

(٢) الكامل المبرد ٨ : ١٠ وما بعدها - بشرح المرصفي .

(٣) فى الكامل قبل هذه الكلمة : « أن الرأى لا يخيل » ، أى لا يشك ولا يشبهه .

جميع أهل البصرة؟ اجتمعوا إلىّ في غد لأنظر؛ وجاء الزبير حتى نزل على البصرة، وعقد الجسرَ ليعبرُ إليها؛ فخرج أكثر أهل البصرة إليه، وانضم إلى الزبير جميع كور الأهواز وأهلها رغبة ورهبة، فوافاه البصريون في السفن وعلى الدواب^(١)، فاسودت بهم الأرض، فقال الزبير لما رآهم: أبي قومنا إلا كفراً، وقطع الجسر، وأقام الخوارج بإزائهم، واجتمع الناس عند القباع، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً، وكانوا ثلاث فرق: سُمي قوم المهلب، وسُمي قوم مالك بن مسمع، وسُمي قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكي، فاختر القباع ما عند مالك وزياد، فوجدهما مُتتالين عن الحرب، وعاد إليه من أشار بهما؛ وقالوا: قد رجعنا عن رأينا؛ ما نرى لها إلا المهلب، فوجه إليه القباع فأتاه، فقال له: يا أبا سعيد، قد ترى ما قد رهقنا من هذا العدو، وقد أجمع أهل مصرك عليك؛ وقال له الأحنف: يا أبا سعيد، إنا والله ما آثرناك، ولكننا لم نرَ من يقوم مقامك.

ثم قال القباع - وأوماً إلى الأحنف: إن هذا الشيخ لم يسمك إلا إيثاراً للدين والبقيا^(٢) وكل من في مصرك مادّ عينه إليك، راج أن يكشف الله عنه هذه النعمة بك، فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله، إني عند نفسي لدون ما وصقتم، ولست آبي ما دعوتم إليه؛ لكن لي شروطاً أشرطها. قالوا: قل، قال: على أن أنتخب من أحببت، قال الأحنف: ذاك لك، قال: ولي إمرة كل بلد أغلب عليه، قالوا: لك ذلك، قال: ولي في كل بلد أظفر به، قال الأحنف: ليس ذاك لك ولا لنا؛ إنما هو في المسلمين؛ فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم، ولكن لك أن تعطى أصحابك من في كل بلد تغلب عليه ما أحببت، وتنفق منه على محاربة عدوك؛ فما فضل عنكم كان للمسلمين؛ فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله! فمن لي بذلك؟ قال الأحنف: نحن وأميرك وجماعة أهل مصرك، قال: قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتاباً، ووضع على يدي الصلت بن حريث بن جابر الجعفي، وانتخب المهلب من جميع الأحماس، فبلغت نُحْبَتُهُ اثني عشر ألفاً، ونظروا في بيت المال،

(١) في السكامل بعد هذه الكلمة: «ورجالة».

(٢) كذا في ج، وفي ا، ب: «التق»، وهي ساقطة من السكامل.

فلم يكن إلا مائتا ألف درهم ، فعجزت ، فبعث المهلب إلى التجار ، فقال : إن تجاراتكم منذ حول قد فسدت بانقطاع مواد الأهواز وفارس عنكم ، فهلتوا فبايعوني واخرجوا معي أو فكم حقوقكم . فبايعوه وتاجروه ، فأخذ منهم من المال ما أصلح به عسكره واتخذ لأصحابه الخفاتين^(١) والرانات المحشوة بالصوف ؛ ثم نهض - وكان أكثر أصحابه رجالة - حتى إذا صار بنجذاء القوم أمر بسفن فأصلحت وأحضرت ، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها ، ثم أمر الناس بالعُبور ، وأمر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشط خاضت إليهم الخوارج ، فخاربهم وحاربهم المغيرة ، ونصّحهم^(٢) بالسهم حتى تنحّوا ، وصار هو وأصحابه على الشط ، فخاربوا الخوارج ، فكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر ، وعبر والخوارج منهزمون ، فهى الناس عن اتباعهم ، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد :

إنّ العراق وأهله لم يخبروا مثل المهلب في الحروب فسلموا
أمضى وأيمن في اللّقاء نقييةً وأقلّ تهليلاً إذا ما أحجموا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبري ، من فرسان تميم وشجعانهم . ومن

شعر عطية :

يُدعى رجالٌ للعطاء وإنما يُدعى عطية للطعان الأجرد

وقال فيه شاعر من بني تميم :

وما فارسٌ إلا عطيةٌ فوقه إذا الحربُ أبدت عن نواجذها الفمّا
به هزمَ الله الأزارقَ بعد ما أباحوا من المضرّين حلاً ومحرماً

فأقام المهلب أربعين ليلة يجبي الخراج بگور دجلة ، والخوارج بنهر تيرى ، والزبير ابن على منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز ؛ ففضى المهلب التجار ، وأعطى أصحابه ،

(١) الخفتان : ثوب من القطن يلبس فوق الدرع . الأناط الفارسية ٥٦

(٢) نصّحهم : رشقهم ورممهم .

فأسرع الناس إليه رغبة في مجاهدة العدو وطمعا في الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزديّ وعبد الله بن رباح ، ومعاوية بن قُرّة المُرزّنيّ ، وكان يقول : لوجاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربتُ الحرورية ؛ وجاءه أبو عمران الجونيّ . وكان يروى عن كعب أن قتييل^(١) الحرورية يفضل قتييل^(٢) غيرهم بعشرة أبواب .

ثم أتى المهلب إلى نهر تيرى ، ففتحوا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلب ينجي ما حواليه من الكور ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومنّ في عسكرهم ؛ وإذا حشوة^(٣) ما بين قصاب وحداد وداعر^(٤) . فخطب المهلب الناس ، وذكر لهم ذلك ؛ وقال : أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم ، ولم يزل مقيا حتى فهمهم ، وأحكم أمرهم وقوى أصحابه ، وكثرت الفرسان في عسكره ، وتنام^(٥) أصحابه عشرين ألفا .

ثم مضى يؤمّ كور الأهواز ، فاستخلف أخاه المearك بن أبي صفرة على نهر تيرى ، وجعل المغيرة على مقدمته ، فسار حتى قاربهم ، فناوشهم وناوشوه ؛ فانكشف عن المغيرة بعض أصحابه ، وثبت المغيرة نفسه بقية يومه وليلتته يو قد النيران ، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران في بقية متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل خيل المهلب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث القباع كتابا يقول فيه :

أما بعد ؛ فإننا مذ خَرَجنا نؤمّ العدو ، في نعم من فضل الله متصلة علينا ، ونعمٍ متتابعة عليهم ، نُقدّم ويحجمون ، ونحلّ ويرتحلون ؛ إلى أن حَلَلْنَا سوقَ الأهواز ؛ والحمد لله رب العالمين ؛ الذي من عنده النصر ؛ وهو العزيز الحكيم .

(١) ب « فنك » ، وما أثبتته من ؛ ج والسكامل .

(٢) الحشوة : رذال الناس .

(٣) الداعر : الخبيث المفسد .

(٤) ج : « والتأم » .

فكتب إليه الحارث :

هنيئاً لك أخا الأزد الشرف في الدنيا والأجر في الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلب لأصحابه : ما أجنى أهل الحجاز ! أما ترونه عرف ^(١) اسمي وكنيتي

واسم أبي !

قالوا : وكان المهلب يبث الأحراس في الأمن ، كما يبثهم في الخوف ، ويذكر ^(٢)

العيون في الأمصار كما يذكر في الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرز ، ويخوفهم البيات ^(٣) ؛

وإن بعد منه العدو ، ويقول ^(٤) : احذروا أن تُكادوا كما تكيدون ؛ ولا تقولوا : هزمنام

وغلبنام ؛ والقوم خائفون وجلون ، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة .

ثم قام فيهم خطيباً ، فقال : أيها الناس ؛ قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم

إن قدرُوا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلهم على ما قاتلهم عليه

أولكم على بن أبي طالب ؛ لقد لقيهم ^(٥) انصار المحتسب مسلم بن عيسى ، والعجل المفرط

عثمان بن عبيد الله ، والمعصم الخالف حارثة بن بدر ؛ فقتلوا جميعاً وقتلوا ؛ فالقوم بحدٍ وجدّ

فإنما هم مهنتكم وعبيدكم ؛ وعازُّ عليكم ، ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء

على فيثكم ؛ وبطثوا حريمكم .

ثم سار يريدهم وهم بمنأز ^(٦) الصغرى ؛ فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيسُ

الخوارج رجلاً يقال له واقد ، مولى لآل أبي صُفْرة من سبى الجاهلية ، في خمسين رجلاً ،

فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تيرى ، وبها المعارك بن أبي صُفْرة ، فقتلوه وصلبوه ، فمسي

(١) الكامل : « يعرف » .

(٢) أنميون : الجواسيس ؛ وإذكاؤهما لإرسالها .

(٣) البيات : اسم من « بيت القوم والعدو تبييتا » ؛ أوقف بهم ليلاً وهم غارون .

(٤) ج : « فإن بعد منه العدو يقول » .

(٥) الكامل : « لقيهم قبلكم » ، وفي ب « لقيتم » ، وما أثبتته من ج

(٦) منأز الصغرى ، وكذلك منأز الكبرى : كورتان من كور الأهواز

الخبير إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى ، وقد خرج واقد منها ، فاستنزل عمه فدفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه ، وقد نزل بسولاف^(١) والخوارج بها ، فواقمهم ، وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجل من أصحاب المهلب ؛ يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحض الناس ويهون أمر الخوارج ، ويحتال بين الصّفين ، فقال رجل من الخوارج لأصحابه : يا معشر المهاجرين ؛ هل لكم في قتلة فيها الجنة ! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ، ثم كبا به فرسه ، فقاتلهم راجلا قائما وباركا ، ثم كثرت به الجراحات فذّيب بسيفه ، ثم جعل يحنو في وجوههم التراب ، والمهلب غير حاضر ؛ فقتل ثم حضر المهلب فأعلم ، فقال للحريش ولعطية العنبري : أسلمتما سيد أهل العراق^(٢) ، لم نعيناه ولم تستنقذاه حسداً له ؛ لأنه رجل من الموالي ؛ ووبخهما .

وحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه فقتله ، ومال الخوارج بأجمعهم على العسكر ؛ فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلاً ؛ وثبت المهلب وابنه المغيرة يومئذ ، وعرف مكانه .

ويقال : حاص^(٣) المهلب يومئذ حَيضة . ويقول الأزدي : بل كان يردّ المنهزمة ويحمي أديبارهم ، وبنو تميم تزعم أنه قرّ ، وقال شاعرهم :

سُولَافٍ أَضَعَّتْ دِمَاءَ قَوْمِي وَطَرَّتْ عَلَى مُوَأَشِكَةِ دَرُورِ^(٤)

وقال آخر من بنى تميم :

تَبَعْنَا الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ طَوْعاً يُجِيّ كُلَّ أَرْبَعَةِ حَمَارَا^(٥)

(١) سولاف ، بضم السين : قرية في غرب دجيل ؛ قرب مناذر الكبرى .

(٢) كذا في ١ ، ج ، وفي ب والكامل : « سيد أهل العسكر » .

(٣) حاص حيصه : جال جولة .

(٤) قال المبرد : موأشكة ، يريد سريرة ، ودور ، « فقول » ، من در الشيء إذا تابع .

(٥) يزجي : يسوق .

فِيانَدِمِي عَلَى تَرْكِ عَطَائِي مَعَايِنَةً وَأَطْلُبُهُ ضِمَارًا (١)
إِذَا الرَّحْمَنُ يَسْتَرُ لِي قُفُولًا فَخَرْتُ فِي قُرَى سُولَافِ نَارَا

قوله : « الأعرور الكذاب » ، يعني به المهلب ، كانت عينه غارتُ بسهم أصابها ؛
وسمّوه الكذاب ؛ لأنه كان فقيها ، وكان يتأول ما ورد في الأثر من أن كل كذب
يكتب كذبا إلا ثلاثة : الكذب في الصلح بين رجلين ، وكذب الرجل لامرأته بوعد ،
وكذب الرجل في الحرب بتوعد وتهدّد . قالوا : وجاء عنه صلى الله عليه وآله : « إنما أنت
رجل فخذل عَنَّا ما استطعت » . وقال : « إنما الحرب خدعة » ، فكان المهلب
ربما صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ما ضعف ، ويضعف به من أمر الخوارج
ما اشتدّ ، وكان حتى من الأزدي يقال لهم النَّدَب ؛ إذا رأوا المهلب رأحوا إليهم قالوا : راح
يكذب ؛ وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كلّ الفتى لو كنت تصدق ما تقول

فبات المهلب في ألقين ، فلما أصبح رجع بمض' المنهزمة ، فصاروا في أربعة آلاف ،
فخطب أصحابه ، فقال : والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهل' الجبن والضعف
والطبع (٢) والطمع ؛ فإن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح' مثله ، فسيروا إلى عدوكم
على بركة الله .

فقام إليه الحرّيش بن هلال ، فقال : أنشدك الله أيها الأمير أن تقاتلهم ؛ إلا أن
يقاتلوك ؛ فإن في أصحابك جراحا ، وقد أئخنتهم هذه الجولة .

فقيل منه ؛ ومضى المهلب في عشرة فأشرف على عسكر الخوارج ؛ فلم ير منهم أحدا

(١) الضمار : الغائب الذي لا يرتجى .

(٢) الطبع في الأصل : الصداً يكتب على السيف وغيره ؛ ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآتام .

يتحرك ، فقال له الحرّيش : ارتحل عن هذا المنزل ؛ فارتحل ، فمَبر دُجَيْلا وصار إلى عاقول^(١) ، لا يؤتى إلا من جهة واحدة ؛ فأقام به وأقام الناس ثلاثا مستريحين .

وفي يوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات :

أَلَطَرَتْ مِنْ آلِ مِيَّةَ طَارِقَةً عَلَيَّ أَنَّهَا مَعْشُوقَةُ الدَّلِّ عَاشِقَةٌ^(٢)
تَرَاءتِ وَأَرْضُ الشُّوسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَرَسْتَقِ سُولَافٍ حَمَمَتُهُ الْأَزَارِقَةُ
إِذَا نَحْنُ شَتْنَا صَادَفْتَنَا عِصَابَةٌ حَرُورِيَّةٌ فِيهَا مِنْ الْمَوْتِ بَارِقَةٌ
أَجَارَتْ عَيْلَنَا الْعَسْكَرِينَ كَلَيْمَاهَا فَبَاتَتْ لَنَا دُونَ الْأَحَافِ مَعَانِقَةٌ

فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ، ثم ارتحل ، والخوارج بسلى وسلبرى فنزل قريبا منهم ؛ فقال ابن الماحوز لأصحابه : ماتنتظرون بعدوكم وقد هزتموهم بالأمس ، وكسرتهم حدهم ؟ فقال له واقد مولى أبي صفرة : يا أمير المؤمنين ؛ إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجنين ، وبقي أهل النجدة والقوة ؛ فإن أصبتهم لم يكن ظفراً^(٣) هيناً ؛ لأنى أراهم لا يصابون حتى يصيبوا ؛ وإن غلبوا ذهب الدين . فقال أصحابه : نافق واقد ، فقال ابن الماحوز : لانعجلوا على أخيكم ؛ فإنه إنما قال هذا نظرا لكم .

ثم وجه الزبير بن عليّ إلى عسكر المهلب ؛ لينظر ما حالهم ؛ فاتاهم في مائتين فخرهم ورجع ، وأمر المهلب أصحابه بالتحارس ؛ حتى إذا أصبح ركب إليهم في تعبئة ، فالتقوا بسلى وسلبرى ، فتصافوا ، فخرج من الخوارج مائة فارس ؛ فرَكزوا رماحهم بين الصفيين ؛ واتكثروا عليها ، وأخرج إليهم المهلب أعدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرعون إلا الصلاة ؛ حتى إذا أمسوا رجع كل قوم إلى معسكرهم ؛ ففعلوا هكذا ثلاثة أيام .

(١) العاقول : منعطف الوادى .

(٢) السكامل : « من آل بيبة » .

(٣) ظفرك » .

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث ، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان ، فجالوا ساعة ؛ ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم ؛ كما صنعوا يوم سُولاف فضعفوا الناس ، وفقد المهلب ، وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عُمان .

ثم نجح^(١) المهلب في مائة ، وقد انغمس كغماه^(٢) في الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر محشوة قزاً ، وقد تمزقت ؛ وإن حشوها ليطاير وهو يلهث ، وذلك في وقت الظهر ، فلم يزل يحاربهم حتى أتى الليل ، وكثر القتل في الفريقين ؛ فلما كان الغد غاداهم ؛ وقد كان وجهه بالأمس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهيم ، من الأزدي من ثقافته وأصحابه ، يرد المهزمين ، قرّبه عامر بن مسمع فردّه ، فقال : إن الأمير أذن لي في الانصراف ؛ فبعث إلى المهلب ، فأعلمه ، فقال : دعه فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف . ثم غاداهم المهلب في ثلاثة آلاف ، وقد تفرق عنه أكثر الناس ، وقال لأصحابه : ما بكم من قلة ! أبعجز أحدكم أن يلقى رجمه ثم يتقدم فيأخذه ! ففعل ذلك رجل من كندة ، واتبعه قوم ؛ ثم قال المهلب لأصحابه : أعدوا محالٍ فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الغفلة ؛ فإنها تصدّ الفارس ، وتصرعُ الراجل ؛ ففعلوا . ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه ، يأمرهم بالجدِّ والصبر ، ويطمعهم في العدو ، ففعل ذلك حتى مرّ بنى العدوية ؛ من بنى مالك بن حنظلة ؛ فنادى فيهم فضربوه ، فدعا المهلب بسيدهم - وهو معاوية بن عمرو - فجعل يركله برجله ، فقال : أصلح الله الأمير ! أعفني من أمّ كيسان - والأزد تسمى الركبة أم كيسان - ثم حمل المهلب وحملوا ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فجهّد الخوارج ، ونادى مناد منهم : ألا إن المهلب قد قُتل !

(١) نجح : ظهر .

(٢) الكمال : كغماه .

فركب المهلب بَرْدُونَاً وَرَدَاً^(١) ، وأقبل يركض بين الصّفين ؛ وإن إحدى يديه لفي القباء ، وما يشعر لها ، وهو يصيح : أنا المهلب ! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنّوا أن أميرهم قد قتل ، وكلّ الناس مع العضر ، فصاح المهلب بابنه المغيرة : تقدّم ؛ ففعل وصاح بذكوان مولاه : قدّم رايتك ؛ ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تعرّر بنفسك ، فزبره وزجره ، وصاح : يا بني سلمة ، أمركم فتعصوني ! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشدّ جِلاداً ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوا لي رجلاً جَلداً يطوف في القتلى ، فأشاروا عليه برجل من جرّم ، وقالوا : إننا لم نر قطّ رجلاً أشدّ منه ؛ فجعل يطوف ومعه النيران ، فجعل إذا مرّ بجرّيح من الخوارج ، قال : كافر وربّ الكعبة ! فأجهز عليه ، وإذا مرّ بجرّيح من المسلمين أمر بسقيه وخله ، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتراس ؛ حتى إذا كان في نصف الليل ، وجّه رجلاً من اليحمّد^(٢) في عشرة : فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أرتجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال لهم : أنا الساعة أشدّ تخويفاً ، احذروا البيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً : إن هؤلاء الخوارج قد يتسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ؛ فإن يكن ذلك فاجعلوا شعاركم : « حم لا ينصرون » فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بها .

ويروى أنه كان شعار أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام .

فلما أصبح القوم غدّوا على القتلى ؛ فأصابوا ابن الماحوز قتيلاً ، ففي ذلك يقول رجل

من الخوارج :

(١) الكامل : « بردونا قصباً أشهب » .

(٢) اليعمّد : بطن من الأزد .

بِسَلَى وَسَلْبَرَى مَصَارِعَ فَتِيَةٍ كِرَامٍ وَعَقْرَى مِنْ كَمَيْتٍ وَمِنْ وَرْدٍ^(١)
وقال آخر :

بِسَلَى وَسَلْبَرَى جَاجِمٍ فَتِيَةٍ كِرَامٍ وَصَرَعَى لَمْ تَوْسَدْ خَدُودَهَا^(٢)

وقال رجل من موالى المهلب : لقد صرعت يومئذ بجحر واحد ثلاثة ، رميت به رجلا
فصرعته ، ثم رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر وصرعت
به ثالثا ؛ وفي ذلك يقول رجل من الخوارج :

أَنَا بِأَحْجَارٍ لَيَقْتَلُنَا بِهَا وَهَلْ يُقْتَلُ الْأَبْطَالُ وَيُنْحَكَ بِالْحَجْرِ !

وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سَلَى وَسَلْبَرَى ، وقتل ابن الماحوز :

وَيَوْمَ سَلَى وَسَلْبَرَى أَحَاطَ بِهِمْ مَنَا صَوَاعِقُ لَا تُبْقِي وَلَا تَدْرُ^(٣)

حَتَّى تَرَكَنَا عُبَيْدَ اللَّهِ مُنْجَدِلًا كَمَا تَجَدَّلُ جِذْعُ مَالٍ مُنْقَعِرٍ^(٤)

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سَلَى ، حمل على رجل من أصحاب المهلب ؛

قطعته ، فلما خالطه الرمح صاح : يَا أُمَّتَاهُ ! فصاح به المهلب : لَا كَثُرَ اللَّهُ مِنْكَ^(٥) فِي

الْمَسْلَمِينَ ، فضحك الخارجى ، وقال :

أُمُّكَ خَيْرٌ لَكَ مَنِّي صَاحِبًا تَسْقِيكَ نَحْضًا وَتَعْلَ رَائِبًا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه ، نكس^(٦) عَلَى

(١) نقل المرسني عن ابن بري أنه لأبي المقدم بهس بن صهيب الخنفي . وعقرى : جمع عقير ، أى معقور ؛ من عقر الفرس والبعير ، إذا قطع قوائمه .

(٢) سَلَى وسَلْبَرَى ، ضبطهما المراد بكسر السين ؛ وقال الأخفش بنتجهما ؛ وقال : موضعان بالأهواز .

(٣) قال المراد : « تقول العرب : صاعقة وصواعق ؛ وهو مذهب أهل الحجاز ؛ وبه نزل القرآن ، وبنو

تميم يقولون : صائقة وصوائع »

(٤) المنقعر : المنقلع من أصله .

(٥) كذا في ج ، وفي ب : « مثلك » ، وفي السكامل : « بمثلك المسلمين »

(٦) نكس : طأطأ .

قَرَبُوسُ^(١) السَّرْجِ ، وَحَمَلٌ مِنْ تَحْتِهَا ، فَبَرَاها بِسَيْفِهِ ، وَأَثْرَفَى أَصْحَابِهَا ، فَتَحْوَمِيَتِ المِيْمَنَةُ مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَكَانَ أَشَدَّ مَا تَكُونُ الحَرْبُ اسْتِعَارًا أَشَدَّ مَا يَكُونُ تَبَسُّمًا . وَكَانَ المَهْلَبُ يَقُولُ : مَا شَهِدَ مَعِيَ حَرْبًا قَطُّ إِلَّا رَأَيْتِ البُشْرَى فِي وَجْهِهِ !

وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم :

فَإِنْ تَكُ قَتَلَى يَوْمَ سِلَى تَتَابَعْتَ فَكَمْ غَادَرْتَ أَسْيَافُنَا مِنْ قُمَا قِمِ^(٢)
غَدَاةَ نَكْرُ المَشْرِفِيَّةِ فِيهِمْ بِسُولَافِ يَوْمِ المَازِقِ المَتَلَا حِمِ^(٣)

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاعِ^(٤) :

أما بعد ، فَإِنَا لَقِينَا الأَزْرَاقَةَ المَارِقَةَ بِمَجْدٍ وَجِدِّ ، فَكَانَتْ فِي النَاسِ جَوَولَةً ، ثُمَّ ثَابَ أَهْلُ الحِفاظِ وَالصَّبْرِ بِنَيَّاتِ صادِقَةٍ ، وَأَبْدَانِ شَدَادٍ ، وَسِيفِ حِدَادٍ ؛ فَأَعْقَبَ اللهُ خَيْرَ عَاقِبَةٍ ، وَجَاوَزَ بِالنِّعْمَةِ مَقْدَارَ الأَمَلِ ، فَصَارُوا دَرِيئَةً^(٥) رَمَاحِنَا ، وَضَرَائِبَ^(٦) سِيفُونَا ، وَقَتَلَ اللهُ أَمِيرَهُمُ ابْنَ المَاحُوزِ ؛ وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ آخِرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ كَأَوَّلِهَا . وَالسَّلَامُ .

فكتب إليه القُبَاعِ :

قَدِ قرَأْتُ كِتَابَكَ يَا أَخَا الأَزْدِ ، فَرَأَيْتُكَ قَدِ وَهَبَ^(٧) لَكَ شَرَفُ الدُّنْيَا وَعِزُّهَا ، وَذَخِرَ لَكَ إِنْ شاءَ اللهُ ثَوَابُ الآخِرَةِ وَأَجْرُهَا ، وَرَأَيْتُكَ أَوْثَقَ حِصُونِ المُسْلِمِينَ ، وَهَادِ

(١) قربوس السرج : مقدمه ؛ والسرج قربوسان مقدم ومؤخر .

(٢) القيام ، بضم أوله : السيد الكثير الواسع الفضل ؛ كالفمقام .

(٣) المأزق : الموضع الضيق يقتتلون فيه ، والمتلاحم ، من قولهم : شجرة متلاحمة ؛ وهي التي تشق اللحم دون العظم ثم تلاحم فلا يجوز فيها المسبار . والمشرفية : السيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام .

(٤) في السكامل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ... » .

(٥) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .

(٦) الضرائب : جمع ضريبة ؛ وهو كل ما ضربت بسيفك

(٧) السكامل : « وهب الله لك ... وذخر لك ... » .

أركان المشركين ، وذا الرياسة ، وأخا السياسة ؛ فاستدِم الله بشكره ، يتمم عليك نعمته . والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنتونه ، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا : أنا لك على ما فارقتك عليه ؛ فلم يزل يقرأ الكتب وينظر في تضاعيفها ، ويلتمس كتاب الأحنف فلا يراه ، فلما لم يره ، قال لأصحابه : أما كتب أبو بجر ؟ فقال له الرسول : إنه حَمَلَنِي إِلَيْكَ رسالة ، فأبلغه ، فقال : هذا أحبُّ إليّ من هذه الكتب .

واجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن علي ؛ وهو من بنى سليط بن ربوع ، من رهط ابن الماحوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بينا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وآله ؛ ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ؛ وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ؛ فما صار إليه خيرٌ مما خلف ؛ وقد أصبتم منهم مسلم بن عبّيس وربيعة الأجدم ، والحجاج بن رباب ^(١) ، وحاتثة بن بدر ؛ وأشجيتُ المهلب ، وقتلتُم أخاه المارك ، والله يقول لإخوانكم المؤمنين : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(٢) ، فيوم نَسَلِيّ كان لكم بلاء وتمحيصا ، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُعلِنَنَّ على الشُّكر في حينه ، والصبر في وقته ؛ وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلب ؛ فنفتحهم المهلب نفحة ، فرجعوا وأكمنوا للمهلب في غَمُضٍ من غَمُوض ^(٣) الأرض يقرب من عسكره - مائة فارس ، ليقتالوه ، فسار المهلب

(١) الكامل : « باب » .

(٢) - سورة آل عمران ١٤٠ -

(٣) الغمض : المطمئن من الأرض

يوماً يُطِيفُ بِمَسْكِرِهِ ، وَيَتَفَقَّدُ سِوَادَهُ ، فَوَقَفَ عَلَى جَبَلٍ ، فَقَالَ : إِنَّ مِنَ التَّدْبِيرِ لِهَذِهِ الْمَارِقَةِ أَنْ تَسْكُونَ قَدْ أَكْمَنْتَ فِي سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ كَمِينًا ، فَبَعَثَ الْمَهْلَبَ عَشْرَةَ فِوَارِسَ ، فَاطَّلَعُوا عَلَى الْمَائَةِ ، فَلَمَّا عَلِمُوا بِهِمْ قَطَعُوا الْقَنْطَرَةَ وَنَجَوْا وَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ ، فَصَاحُوا : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، لَوْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ لَجَدَدْنَا وَنَحْنُ فِي جِهَادِكُمْ .

ثم يس الزبير من ناحية المهلب ، فضرب إلى ناحية أصبهان ، ثم كرّ راجعاً إلى أركان ، وقد جمع جموعاً ؛ وكان المهلب يقول : كأتى بالزبير ، وقد جمع لكم ؛ فلا ترهبوهم ؛ فتخشب^(١) قلوبكم ، ولا تغفلوا الاحتراسَ فيطمعوا فيكم . فجاءوه من أركان ، فلقوه مستعداً آخذاً بأفواه الطُّرُق ، فخار بهم ، فظهر عليهم ظهوراً بيناً ، ففي ذلك يقول رجل من بني يربوع :

سَقَى اللَّهُ الْمَهْلَبَ كُلَّ غَيْثٍ مِنْ الْوَسْمِيِّ يَنْتَحِرُ انْتِحَارًا^(٢)

فَمَا وَهَنَ الْمَهْلَبُ يَوْمَ جَاءَتْ عَوَابِسُ خَيْلِهِمْ تَبغِي الْغَوَارَا^(٣)

وقال المهلب يومئذ : ما وقفتُ في مضيق من الحرب إلا رأيت أُمَامِي رَجَالًا مِنْ بَنِي

الهِجِيمِ بَنِ عَمْرٍو بَنِ تَمِيمٍ يَجَالِدُونَ ؛ وَكَأَنَّ لِحَامَ أُذُنَابِ الْعَقَاقِقِ^(٤) وَ[كَانُوا]^(٥) صَبَرُوا مَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ .

وقال رجل من أصحاب المهلب من بني تميم :

(١) تنخب : تضيف ، وفي السكامل : « تخبث » .

(٢) الوسميّ : مطر الربيع الأول ، سمي به لأنه يسم الأرض بالنبات ؛ وانتحر الوسمي ، أي انبعث بماء كثير ؛ ومنه قول الراعي :

فَمَرَّ هَلَى مَنَازِلِهَا وَأَلْتَى بِهَا الْأُنْقَالَ وَانْتَحَرَ انْتِحَارًا

(٣) الغوار : مصدر غاور العدو مغاورة وغوارا ؛ أغار عليه .

(٤) العقاقق : جمع عقق ؛ وهو طائر ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب .

(٥) من السكامل .

أَلَا يَا مَنْ لِيَصَبَ مُسْتَهَامٍ (١) قَرِيحِ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ الْمَرْوَنَاءَ (٢)
 لَهَا عَلَى الْمَهْلَبِ مَا لَقِينَا إِذَا مَارَحَ مَسْرُورًا بَطِينَا (٣)
 يَجْرُ السَّابِرِيَّ وَنَحْنُ شُعْتُ كَانَ جُلُودَنَا كُسَيْتٌ طَحِينَا

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف ؛ وكان من أنجد فرسان الخوارج ،
 فطمته فدقَّ صلبه ؛ وقال :

قيس الإكاف غداة الرُّوعِ يَعْلَمُنِي ثَبَتَ الْمَقَامِ إِذَا لَاقَيْتُ أَقْرَانِي
 وقد كان بعض جيش المهلب يوم سَلَّى وَسَلَّزِي صاروا إلى البصرة ، فذكروا أن
 المهلب قد أصيبَ ، فهم أهل البصرة بالنقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابه بظفره ، فأقام
 الناس ؛ وتراجع مَنْ كان ذهب منهم ؛ فعند ذلك قال الأحنف : البَصْرَةُ بَصْرَةُ الْمَهْلَبِ ؛
 وقدم رجل من كِنْدَةَ يعرف بابن أَرْقَمَ ؛ فعنى ابن عم له ، وقال : إني رأيت رجلاً من
 الخوارج ؛ وقد مكن رمحهُ من صُلْبِهِ ، فلم ينشب أن قدم المنعَى سالماً ، فقيل له ذلك ،
 فقال : صدق ابن أرقم ؛ لما أَحْسَسْتُ بِرَمْحِهِ بَيْنَ كَتْفَيْ صِحْتُ بِهِ : الْبَقِيَّةُ ؛ فرفعه ؛ وتلا :
 ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) . ووجه المهلب بعقب هذه الواقعة رجلاً
 من الأزد ، برأس عبيد الله بن بشير بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله ، فلما صار
 بكرُ بَيْج (٥) دينار ؛ لقيته إخوة عبيد الله : حبيب ، وعبد الملك ، وعلى ؛ بنو بشير بن الماحوز ؛

(١) الكامل : « مستهمن » ، من استعنه الشوق إلى وطنه ؛ أي استطر به .

(٢) قال المبرد : المزون : عمان ؛ وهو اسم من أسماءها قال الكمي :

فَأَمَّا الْأَزْدُ أَزْدُ بَنِي سَعِيدٍ فَأَكْرَهُ أَنْ أُسَمِّيَهَا الْمَرْوَنَاءَ

وقال جرير :

وَأَطْفَاتُ نِيرَانَ الْمَزُونِ وَأَهْلَهَا وَقَدْ حَاوَلُوهَا فِثْنَةً أَنْ تُسْعَرَا

(٣) البطن : عظيم البطن

(٤) سورة هود ٨٦

(٥) كريج : موضه قرب سهوق الأهواز .

فقالوا : ما الخبر ؟ وهو لا يعرفهم ؛ فقال : قتل ابن الماحوز المارق ، وهذا رأسه معي ، فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ، ودفنوا رأس أخيهم عُبيد الله ، فلما ولي الحجاج دخل عليه عليّ ابن بشير ، وكان وسمياً جسيماً ، فقال : مَنْ هذا ؟ فخبره ، فقتله ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزديّ المقتول ، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة ، فوهبوا لها .

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب " الكامل " ،^(١) : ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية الحارث القُباع ؛ حتى عُزل وولّى مصعب بن الزبير ، فكتب إلى المهلب أن أقدم عليّ ، واستخلف ابنك المُغيرة ، ففعل بعد أن جمع الناس ، وقال لهم : إني قد قد استخلفت المُغيرة عليكم ، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمةً ، وابنُ كبيركم طاعةً وبراً ، وتبجيلاً ، وأخو مثله مواساةً ومناصحةً ، فلتحسُنْ له طاعتكم ، وليلنْ له جانبكم ، فوالله ما أردتُ صواباً قطُّ إلا سبقني إليه .

ثم مضى إلى مصعب ، فكتب مصعب إلى المُغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك إن لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليت^(٢) ، فشمّر واثنز^(٣) ، وجدّ واجتهد .

ثم شَخَّص المصعب إلى المزار ، فقتل أحمر بن شميطة ؛ ثم أتى الكوفة فقتل المختار ، وقال للمهلب : أشيرْ عليّ برجل أجعله بيني وبين عبد الملك ؛ فقال له : اذكرْ واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عطارد الدرامي ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكيّ ، أو داود ابن قحذَم ، قال : أو تكفيني أنت ؟ قال : أ كفيك إن شاء الله ، فشَخَّص فولاه الموصل ففرج إليها ، وصار مُصعب إلى البصرة لينفِر إلى أخيه بمكة ، فشاور الناس فيمن يستكفيه

(١) الكامل ٦٤٣ وما بعدها (طبع أوروبا)

(٢) الكامل : « وليتك »

(٣) الكامل : « واثنز »

أمر الخوارج ، فقال قوم : ولَّ عبد الله بن أبي بَكْرَةَ ، وقال قوم : ولَّ عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقال قوم : ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم ؛ وبلغت المشورة الخوارج فأداروا الأمر بينهم ، فقال قطري بن الفجاءة المازني - ولم يكن أمره عليهم بعد : إن جاءكم عبد الله بن أبي بَكْرَةَ ، أناكم سيِّدٌ سَمَّحٌ كريم جواد مُضِيْعٌ لسكره ، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ، أناكم فارس شجاع ، بطل جاد ، يقاتل لدينه ولملكه ، وبطبيعة لم أرَ مثلها لأحد ؛ فقد شهدته في وقائع ؛ فما نُودِيَ في القومِ لحربٍ إلا كان أولَ فارس ؛ حتى يَشُدَّ على قرنه ويضربه ؛ وإن رُدَّ المهلبُ فهو مَنْ قد عرفتموه ، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه إذا أرسلتموه ، ويُرسله إذا مددتموه ، لا يبدؤكم إلا أن تبتدئوه ؛ إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبرِّ (١) ، والثعلب الرّواغ ، والبلاء المقيم .

فولى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر ، ولأه فارس ، والخوارجُ بأرجان يومئذ ، وعليهم الزُّبير بن عليّ السَّليطيّ ، فشخص إليهم فقاتلهم ، وألح عليهم حتى أخرجهم منها ، فألحقهم بأصبهان ، فلما بلغ المهلب أن مصعباً وليّ حربَ الخوارج عمرَ بن عبيد الله ، قال : رماهم بفارس العرب وفتأها ، فجمع الخوارج له ، وأعدُّوا واستعدُّوا ، ثم أتوا سابور (٢) فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن أبي حسان الأزديّ : إن المهلب كان يذكي العيون ، ويخاف البيات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر : اسكُتْ ، خَلَعَ اللهُ قلبك ! أتراك تموتُ قبلَ أجلك ! وأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشيء ! فأقبل على مالك بن أبي حسان ، فقال : كيف رأيت ؟ فقال : قد سلّم اللهُ ، ولم يكونوا

(١) المبر : الغالب ؛ من أبر عليه ؛ إذا غلبه

(٢) سابور : كورة مشهورة بأرض فارس ، بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً

يطمعون في مثلها من المهلب ، فقال : أما إنكم لو ناصحتموني مناصحةكم المهلب ، لرجوت أن أنفي هذا العدو ، ولكنكم تقولون : قرشي حجازي ، بعيد الدار خير له غيرنا ، فقتلونا معي تعذيراً^(١) . ثم زحف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى ألجأهم إلى قنطرة ، فكائف الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها^(٢) ، ثم عبر ، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر - وأمه من بني سهيم بن عمرو بن هيصم بن كعب - فقاتلهم حتى قُتِل ، فقال قطري للخوارج : لا تقاتلوا عمر اليوم ؛ فإنه موتور ، قد قتلتم ابنه - ولم يعلم عمرُ بقتل ابنه حتى أفضى إلى القوم ؛ وكان معه ابنه النعمان بن عباد - فصاح به عمر : يا نعمان ، أين ابني ؟ قال : احتسبه فقد استشهد صابراً مقبلاً غير مدبر ؛ فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم حمل على الخوارج حملة لم ير مثلاً ، وحمل أصحابه بجملته ؛ فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الخوارج ، وحمل على قطري فضربه على جبينه ففلقه ، وانهمزمت الخوارجُ وانتهبها ؛ فلما استقرُّوا ورأى ما نزل بهم ، قال : ألم أشرْ عليكم بالانصراف ! فجملوه حينئذ من^(٣) وجوههم ؛ حتى خرجوا من فارس ، وتلقاهم في ذلك الوقت الفِزر بن مهزم العبدي ، فسأله عن خبره ، وأرادوا قتله ، فأقبل على قطري ، وقال : إني مؤمن مهاجر ؛ فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها ؛ فخلَّوا عنه ، فني ذلك يقول في كلمة له :

فشدوا وثاقى ثم ألجوا خصومتى إلى قطري ذي الجبين المفلتي
وحاجبتهم في دينهم فحججتهم وما دينهم غير الهوى والتخلي

ثم رجعوا وتكاتفوا^(٤) ، وعادوا إلى ناحية أركان ، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ،

وكتب إلى مصعب :

(١) تعذيراً ؛ أي تقاتلون معي من غير تمام أو مبالغة .

(٢) ج : « فأصلحها » .

(٣) كذا في ب ، وفي ا ، ج والكامل : بحذف كلمة « من » .

(٤) في زيادات الأخص على الكامل : « تكاتفوا ؛ أعان بعضهم بعضاً واجتمعوا وصار بعضهم في

كنف بعض » .

أما بعد ، فإني لقيت الأزارقة ؛ فرزق الله عزّ وجلّ عبيد الله بن عمر الشهادة ، ووهب له السعادة ، ورزقنا بعدُ عليهم الظفر ، فتفرقوا شذر مذر^(١) . وبلغني عنهم عودةٌ فيمّتهم ؛ وبالله أستعين ؛ وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ، وتجماعة بن سُمر فالتقوا ، فألحّ عليهم عمر حتى أخرجهم ، وانفرد من أصحابه ، فعمد إلى أربعة عشر رجلاً من مذّ كورهم وشجعانهم ؛ وفي يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرّعه ، فركض إليه قطريّ على فرس طيمر^(٢) ، وعمر على مُهر ، فاستعلاه قطريّ بقوة فرسه ؛ حتى كاد يصرّعه ، فبصرّ به تجماعة ، فأسرع إليه ، فصاحت الخوارج : يا أبا نعامة ، إنّ عدوّ الله قد رهقك^(٣) . فانحطّ قطريّ على قرابوسه وطعنه تجماعة ؛ وعلى قطريّ درعان فهتكهما ، وأسرع السنان في رأس قطريّ ، فكشط جلده ونجا ، وارتحل القوم إلى أصفهان ، فأقاموا برهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصطخر^(٤) ، فأمر تجماعة لحجبي الخراج أسبوعاً ؛ فقال له : كم جبيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هي لك .

وقال يزيد بن الحكم لمجماعة :

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ فَأَجَبْتَهُ عُمرٌ وَقَدْ نَسِيَ الْحَيَاةَ وَضَاعَا^(٥)
فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الْكَتِيبَةِ عَنْ فَتَى قَدْ كَادَ يُتْرَكُ لِحْمِهِ أَوْزَاعَا^(٦)

قال : ثم عزّل مُضعبُ بن الزُّبير ؛ وولّى عبيدُ الله بن الزبير العراقَ ابنة حمزة

(١) شذر ، مذر ؛ بالتحرريك فيهما : ذهبوا في كل وجه ؛ ومذر إتباع .

(٢) فرس طمر ؛ هو الطويل القوائم الخفيف ، أو هو المستفز اللئب والعدو ؛ والأنتى طمرة .

(٣) رهقك : غشاك .

(٤) إصطخر : بلد من أعيان بلاد فارس .

(٥) المرهق : هو الذي أدرك ليقتل ؛ من أوهق الرجل إذا قتله . و « عمر » فاعل : « دعاك » .

(٦) المادية : الخيل تعدو ، أو الرجال يعدون . وأوزاعا : قطعاً .

ابن عبد الله بن الزبير؛ فكث قليلا؛ ثم أعيد مُصعب إلى العراق، والخوارج بأطراف أصبهان، والوالى عليها عتاب بن وزيعة الرياحي؛ فأقام الخوارج هناك يجيئون شيئا من القرى، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس؛ فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيد الله: ما أنصفتنا! أقت بفارس تجبى الخراج؛ ومثل هذا العدو يجتاز بك لا تحاربه! والله لو قاتلت ثم هزمت لكان أعذر لك!

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم؛ وأقبل عمر بن عبيد الله يريدهم، فتنحى الخوارج إلى الشوس، ثم أتوا إلى المدائن؛ وبسطوا في القتل؛ فجعلوا يقتلون النساء والصبيان؛ حتى أتوا المذار^(١)؛ فقتلوا أحر طيء؛ وكان شجاعا، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

تَرَ كُتْمُ فَتَى الْفَتِيَّانِ أَحْمَرَ طَيْءٍ بِسَابَاطٍ لَمْ يَمْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ^(٢)

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة، فلما خالطوا سوادها - ووالها الحارث القباع - تناقل عن الخروج، وكان جباناً؛ فذمره^(٣) إبراهيم بن الأشتر، ولامه الناس؛ فخرج متحاملا حتى أتى النخيلة، ففي ذلك يقول الشاعر:

إِنَّ الْقَبَاعَ سَارَ سَيْرًا نُكْرًا يَسِيرُ يَوْمًا وَيُقيمُ عَشْرًا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج؛ والخوارج يعيئون؛ حتى أخذوا امرأة، فقتلوا أباهما بين يديها، وكانت جميلة، ثم أرادوا قتلها، فقالت: أقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين! فقال قائل منهم: دعوها، فقالوا: قد فتنتك، ثم قدموها فقتلوها.

(١) المذار: بلدة في ميسان بين واسط والبصرة.

(٢) ساباط: موضع بالمدائن؛ يقال له: ساباط كسرى.

(٣) ذمره، أي حظه معلوم ليجد.

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُبَاع ، والجسر معقود بينهم ؛ فقطعه القُبَاع وهو في ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهي تُقْبَل ؛ وتقول : علام تقتلونني ! فوالله ما فسقت ، ولا كفرت ، ولا زنت^(١) ، والناس يتقلبون^(٢) إلى القتال ، والقُبَاع يمنعهم .

فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر ، فأقام بين دبيرى ودبأها^(٣) خمسة أيام ، والخوارج بقربه ، وهو يقول للناس في كل يوم : إذا لقيتم العدو غدا ، فأثبتوا أقدامكم واصبروا ؛ فإن أول الحرب الترامي ، ثم إشراع الرماح ، ثم السلة^(٤) ؛ فشكلت رجلا أمه فر من الزحف !

فقال بعضهم لما أكثر عليه : أما الصفة فقد سمعناها ، فتي يقع الفعل ؟
وقال الراجز :

إِن القُبَاعَ سَارَ سَيْرًا مَلْسًا بَيْنَ دَبَاها وَدَبِيرَى خَمْسًا

وأخذ الخوارج حاجتهم ، وكان شأن القُبَاع التحصن منهم ؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ؛ وساروا من فورهم إلى أصبهان ، فبعث عتاب بن ورقاء الرياحي إلى الزبير بن علي : أنا ابن عمك ، ولست أراك تقصد في انصرافك من كل حرب غيري . فبعث إليه الزبير : إن أدنى الفاسقين وأبعدهم في الحق سواء .

فأقام الخوارج يُفَادُونَ عتاب بن ورقاء القتال ويرأو حونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا بكبير شيء ؛ فلما كثر عليهم ذلك انصرفوا ؛ لا يمرّون بقريّة بين أصبهان والأهواز إلا استباحوها ، وقتلوا من فيها . وشاور المصعبُ الناسَ فيهم ؛ فأجمع رأيهم على

(١) الكامل : « ارتددت » .

(٢) الكامل : « يتفلتون » .

(٣) دبيري ودبأها ، بفتح الدال فيهما : قريتان من نواحي بغداد .

(٤) السلة : استلال السيوف .

المهلب ، فبلغ الخوارج مشاورتهم ؛ فقال لهم قَطْرِي : إن جاءكم عَتَاب بن وَرْقَاء ؛ فهو قَاتِكُ يطلع في أولِ المَقْتَبِ (١) ولا يظفر بكثير (٢) ، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ففارس يُقَدِّم ؛ إيا عليه وإيما له ؛ وإن جاءكم المهلب فرجل لا يُنَاجِرُكم حتى تُنَاجِرُوهُ ؛ ويأخذُ منكم ولا يُعْطِيكم ؛ فهو البلاء الملائم ، والمكروه الدائم .

وعزم مُصْعَب على توجيهِ المهلب ، وأن يشخص هو لحرب عبد الملك . فلما أحسَّ به الزبير خرج إلى الرِّمَى - وبها يزيد بن الحارث بن رويم - فخاربه ثم حصَّره ؛ فلما طال عليه الحِصَار خرج إليه ؛ فكان الظفرُ للخوارج ، فقتل منهم يزيد الحارث بن بن رويم ؛ ونادى يزيد ابنه حَوْشِبَا ، ففرَّ عنه وعن أمه لطيفة [وكان علي بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد ، فقال : عندي جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك ، فسماها يزيد لطيفة] (٣) فقتلت مع بعلها (٤) يزيد يومئذ ، وقال الشاعر :

مواقِفُنَا في كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٌ أَسْرَ وَأَشْفَى مِنْ مَوَاقِفِ حَوْشَبِ
دعاه أبوه والرَّماحُ شَوَارِعُ (٥) فلم يستجِبْ بل رَاغَ تَرَوَاغَ ثَمَلَبِ
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أَوْ ذَا حَفِيظَةٍ رَأَى مَا رَأَى في المَوْتِ عِيسَى بنِ مُصْعَبِ

وقال آخر :

نَجَى حَلِيلَتَهُ وَأَسْلَمَ شَيْخَهُ نَصَبَ الأَسِنَّةَ حَوْشَبُ بنُ يَزِيدِ (٦)

(١) المقتب : جماعة الخيل .

(٢) كذا في ا ، ج ، و في ب والكمال : « بكبير » .

(٣) تكملة من كتاب الكامل

(٤) الكامل : « فقتلت معه » .

(٥) كذا في ا ، ج والكمال ، و في ب : « تنوشه » .

(٦) نصب الأسننة ؛ أي مخاقمها .

قال : ثم ^(١) انحط الزبير على أصفهان ، فحصر بها عتاب بن ورقاء سبعة أشهر ، وعتاب يُحارب به في بعضهنّ ؛ فلما طال به الحصار قال لأصحابه : ماتنتظرون ! والله ماتوثون من قلة ؛ وإنكم لفرسان عشايركم ؛ ولقد حاربتموم مرارا فانتصتم منهم ؛ وما بقي مع هذا الحصار إلا أن تفتني ذخائركم ، فيموت أحدكم ، فيدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه ؛ فقاتلوا القوم وبكم قوّة من قبل أن يضمف أحدكم عن أن يمشی إلى قرنه .

فلما أصبح صلى بهم الصبح ؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غارون ^(٢) ، وقد نصب لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين ؛ ومن أراد الجهاد فليخرج معي ؛ فخرج في ألفين وسبعائة فارس ؛ فلم يشعر بهم الخوارج حتى غشوم ، فقاتلهم بجدّ لم تر الخوارج منهم مثله ؛ فعقروا منهم خلقا كثيرا وقتل الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتاب ، ففي ذلك يقول القائل :

وَيَوْمَ بَجَى تَلَايْتُهُ ^(٣) وَلَوْلَاكَ لَأَصْطَلِمَ الْعَسْكَرُ ^(٤)

وقال آخر :

خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ مُسْتَمِيمًا وَلَمْ أَكُ فِي كَتِيبَةٍ يَأْسِمِينَا

(١) في السكائل قيل هذا الكلام : « وقال ابن حوشب لبلال بن أبي بردة يعيره بأمه ؛ وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يا ابن حوراء ! فقال بلال - وكان جلدا : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة . وزعم السكلي أن بلالا كان جلدا حيث ابتلى . قال السكلي : ويعجبنى أن أرى الأسير جلدا . قال : وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف : الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدّ ركنك ، وغير حالك ؛ فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفاً بالشريف ، مظهرا للعصية ؛ فقال له بلال : إنما طال لسانك ياخالد ثلاث معك هن عليّ : الأمر عليك مقبل وهو عنى مدير ؛ وأنت مطلق وأنا مأسور . وأنت في طينتك وأنا في هذا البلد غريب - وإنما جرى إلى هذا لأنه يقال : إن أصل آل الأهم من الحيرة ، ولأنهم أشابة دخلت في بني منقر من الروم . »

(٢) غارون : غافلون .

(٣) جىّ : اسم مدينة كانت ناحية أصفهان ، والبيت لأعشى همدان (ياقوت) .

(٤) اصطلم : أييد .

أَلَيْسَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَنْ قَوْمِي غَدَوْا مُسْتَلْتِمِينَ مَجَاهِدِينَ (١)
 قال : وتزعم الرواية أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضهم على بعض ،
 وربما كانت مُواقفة (٢) بغير حرب ، وربما اشتدت الحرب بينهم ؛ وكان رجلٌ من أصحاب
 عتاب - يقال له : شريح ، ويكنى أبا هريرة - إذا تحاجز (٣) القومُ مع المساء نادى
 بالخوارج ، والزبير :

يَابْنَ أَبِي الْمَاحُوزِ وَالْأَشْرَارِ كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلَابَ النَّارِ
 شَدَّ أَبِي هُرَيْرَةَ الْهَرَّارِ يَهْرُهُ كَمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 أَلَمْ تَرَوْا جَيْتًا عَلَى الْمِضَارِ تُمْسِي مِنَ الرَّحْمَنِ فِي جِوَارِ

فعاظهم ذلك ، فكمن له عبيدة بن هلال ، فضربه بالسيف ، واحتمله أصحابه ، وظنت
 الخوارج أنه قد قتل ؛ فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الهرار ؟ فيقولون : ما به من بأس ؛
 حتى أبل من علاته ، فخرج إليهم ، فقال : يا أعداء الله ، أترون بي بأسا ؟ فصاحوا به : قد كنا
 نرى أنك قد لحقت بأتمك الهاوية إلى النار الحامية .

[قَطْرِيَّ بْنَ الْفَجَاءَةِ الْمَازِنِيِّ]

ومنها قَطْرِيَّ بْنَ الْفَجَاءَةِ الْمَازِنِيِّ ، قال أبو العباس (٤) :
 لما قتل (٣) الزبير بن عليّ أدارت الخوارجُ أمرها ، فأرادوا توليةَ عبيدة بن هلال ؛
 فقال : أدلكم على مَنْ هو خيرٌ لكم مني ؟ مَنْ يَبَاعِنُ فِي قُبُلِ ، وَيَحْمِي فِي دُبُرِ ؛ عَلَيْكُمْ

(١) مستلمين : لابسين اللأمة ؛ وهي الدرع ، وفي ج : « مستلمين » .

(٢) المواقفة في الحرب والمصومة : أن يقف كل من الطرفين أمام الآخر .

(٣) ج : « تأخر » .

(٤) السكامل ٦٥٢ وما بعدها (طبعة أوربا) .

بِقَطْرِيّ بن الفُجَاءة المازنيّ . فبايعوه ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ امض بنا إلى فارس ، فقال : إن بفارس عمر بن عبيد الله بن معمر ؛ وليكن نصير إلى الأهواز ؛ فإن خرج مُصعب من البصرة دخلناها ، فأتوا الأهواز ثم ترفعوا عنها على إيدج^(١) . وكان المُصعب قد عَزَم على الخروج إلى باجيرا^(٢) . وقال : لأصحابه : إن قَطْرِيًّا لمُطلٌ علينا ؛ وإن خرجنا عن البصرة دخلها ، فبعث إلى المهلب فقال : اِكْفِنَا هَذَا العَدُوَّ ؛ فخرج إليهم المهلب ؛ فلما أحسن به قَطْرِيّ يَمّ نحو كِرْمَان ، وأقام المهلب بالأهواز ، ثم كرّ عليه قَطْرِيّ ، وقد استعدّ ، وكانت الخوارج في حالاتهم أحسن عُدّة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب ، وحصانة الجنّ^(٣) . فخاربتهم المهلب ، فدفعهم فصاروا إلى رامهرمز ؛ وكان الحارث بن عُميرة الهمدانيّ قد صار إلى المهلب مرّا غمّ العتاب بن ورقاء ، ويقال : إنّه لم يُرضه ؟ عن قتله الزبير بن عليّ ، وكان الحارث بن عُميرة ، هو الذي قتله وخاض إليه أصحابه ، ففي ذلك يقول أعشى همدان :

إِنَّ السَّكَارِمَ أَكَمَلَتْ أَسْبَابُهَا لابن اللبوثِ الفَرُّ من هَمْدَانَ^(٤)
للفارسِ الحامِي الحَقِيقَةَ مُعَلِّمًا زَادِ الرَّفَاقِ وفَارِسِ الفُرْسَانَ^(٥)

(١) إيدج ، بكسر الهمزة وفتح الذال : بلد بين خوزستان وأصبهان .

(٢) باجيرا ، بضم الجيم وفتح الميم وباء ساكنة : موضع دون تكريت .

(٣) الجن : جمع جنة ؛ وهي الدرع .

(٤) ديوان الأعشين ٣٤٣ ، وروايته : « من قحطان » ، وهي رواية الكامل أيضا .

(٥) ديوان الأعشين والكمال : « زاد الرفاق إلى قرى نجران » قال المبرد : وتأويله أن الرفقة إذا صحبها أغناها عن التزدد ؛ كما قال جرير : وأراد ابن له سفرا ، وفي ذلك السفر يحيى بن أبي حفصة ؛ فقال لأبيه : زودني ؛ فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريد وصاحباً ألا إن يحيى نعم زاد المسافرِ

فما تُنكرُ الكوماءَ ضربةَ سيفه إذا أرملوا أو خفّ ما في الغرائرِ

وزاد في الديوان بعد هذا البيت :

حتى تداركهم أغرّ سَمِيدَعِ فجاهمُ إن الكريمَ يمان

الحارث بن عميرة الليث الذي يحمي العراق إلى قرى نجران^(١)
 ودّ الأزرأق لو يصاب بطعنة ويموت من فرسانهم مائتان
 قال أبو العباس: وبخرج مُصعب إلى باجيزا، ثم أتى الخوارج خبر مقلته بمسكين،
 ولم يأت المهلب وأصحابه، فتواقفوا يوما برا مَهْرُمَز على الخندق، فناداهم الخوارج: ماتقولون
 في مُصعب؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: ضالّ مضلّ، فلما
 كان بعد يومين أتى المهلب قتلُ المصعب؛ وأن أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك، وورد
 عليه كتاب عبد الملك بولايته؛ فلما تواقفوا ناداهم الخوارج: ماتقولون في المصعب؟ قالوا:
 لا نخبركم؛ قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: يا أعداء الله، بالأمس
 ضالّ مضلّ؛ واليوم إمام هدى! يا عبید الدنيا عليكم لعنة الله.

وروي أبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني الكبير"، قال: ^(٢) كانت
 الشّراة والمسلمون في حرب المهلب وقطرى يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين
 وغير ذلك، على أمان وسكون، لا يهيج بعضهم بعضا، فتواقف يوما عبيدة بن هلال
 اليشكري، وأبو حُزابة^(٣) التميمي، فقال عبيدة: يا أبا حُزابة، إني أسألك عن أشياء،
 أفترصدُ قني عنها في الجواب؟ قال: نعم؛ إن ضمنت لي مثل ذلك، قال: قد فعلت، قال:
 فسَلْ عما بدالك، قال: ماتقولون في أمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام، قال: ويحك!
 فكيف فعلهم في المال؟ قال: يحبونه من غير حلّه، ويُنفقونه في غير وجهه، قال:
 فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه ماله، ويمنعونه حقّه، ويَنيكون أمّه، قال: ويحك
 يا أبا حُزابة! أمثل هؤلاء تدبّع! قال: قد أجبتك، فاسمع سؤالي، ودع عتابي على رأيي،

(١) الديوان: «إلى قرى كرمان».

(٢) الأغاني ٦: ١٤٩ وما بعدها (طبعة الدار).

(٣) هو الوليد بن؛ حنيفة أحد شعراء الدولة الأموية

قال : سل ، قال : أئىّ الخمر أطيب ؟ خمر السهل أم خمر الجبل ؟ قال : ويحك ! أمثلئى يسألُ عن هذا ! قال : قد أوجبت على نفسك أن تجيب ، قال : أما إذا أبيت : فإن خمر الجبل أقوى وأسكر ، وخمر السهل أحسن وأسلس ، قال : فأئىّ الزوانى أفره ؟ أزوانى رامهرمز ، أم زوانى أرجان ؟ قال : ويحك ! إن أمثلئى لا يسأل عن هذا . قال : لا بد من الجواب أو تغدر .

قال : أما إذ أبيت فزوانى رامهرمز أرقّ أبطارا ، وزوانى أرجان أحسن أبدانا . قال : فأئىّ الرجلين أشعر ، جرير أم الفرزدق ؟ قال : عليك وعليهما لعنة الله ، قال : لا بدّ أن تجيب ، قال : أيهما الذى يقول :

وطوى الطرادُ مع القياد بطونها طوى التجار بحضرموت برودا

قال : جرير ، قال : فهو أشعرهما .

قال أبو الفرج : وقد كان الناسُ تجادلوا فى أمر جرير والفرزدق فى عسكر المهلب ؛ حتى توائبوا ، وصاروا إليه محكمين له فى ذلك ، فقال : أتريدون أن أحكم بين هذين الكلبين المتهارشين ، فيمضغانى ! ما كنت لأحكم بينهما ؛ ولكنى أدلكم على مَنْ يحكم بينهما ، ثم يهون عليه سبابهما ؛ عليكم بالشرأة ، فاسألوهم إذا تواقفتم . فلما تواقفوا سأل أبو حُرَابة عبيدة بن هلال عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب .

وروى أبو الفرج أنّ (١) امرأةً من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة ، يقال لها أم حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجلهم وجها ، وأحسنهم بالدين تمسكا ، وخطبها

جماعة منهم فردتهم ولم تجبهم ؛ فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز ، فتقول :

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَمِمَتْ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَّتْ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
* أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقَلَهُ *
والخوارج يفدونها بالآباء والأمهات ؛ فإرأينا قبلها ولا بعدها مثاها .

وروى أبو الفرج^(١) ، قال : كان عبيدة بن هلال ، إذا تكاف الناس ناداهم : ليخرج إلى بعضكم ؛ فيخرج إليه فتيان من عسكر المهلب ؛ فيقول لهم : أيتما أحب إليكم ؟ أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر ؟ فيقولون له : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ؛ ولكن نشدنا ، فيقول : يا فسقة ؛ قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ! ثم لا يزال يُنشدُهم حتى يمألوا ويفترقوا .

قال أبو العباس^(٢) : وولى خالد بن عبد الله بن أسيد فقدم فدخل البصرة ، فأراد عزل المهلب ، فأشير عليه بالآلا يفعل ؛ وقيل له : إنما أمن [أهل]^(٣) هذا المضر ؛ لأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ؛ فقد تنحى عمر ، وإن نَحَيْتَ المهلب لم تأمن على البصرة . فأبى إلا عزله ، فقدم المهلب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ؛ فاستصحبه^(٤) ، فلما صار بكر بيج دينار لقيه قطري ، فمنعه حط أنقاله ، وحرار به ثلاثين يوما .

ثم أقام قطري بإزائه ، وخذق على نفسه ، فقال المهلب لخالد : إن قطرياً ليس

(١) الأغاني ٦ : ١٥١ (طبعة الدار) .

(٢) الكامل ٦٥٤ (طبعة أوربا) .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : فأشخصه .

بأحق بالخندق منك ، فعبر دُجَيْلا إلى شقّ نهرِ تيرى ، واتبعه قطرىّ فصار إلى مدينة نهرِ تيرى ، فبنى سورها ، وخندق عليها ، فقال المهلب لخالد : خندق على نفسك ، فإني لا آمنُ البيّات ، فقال : يا أبا سعيد ، الأمرُ أعجل من ذلك ، فقال المهلب لبعضِ ولده : إني أرى أمراً ضائعا ، ثم قال لزيد بن عمرو : خندق علينا ، فحندق المهلب على نفسه ، وأمر بسفنه ففترغت ، وأبى خالد أن يفرغ سفنه ، فقال المهلب لفيروز بن حصين : صر معنا ؛ فقال : يا أبا سعيد ، إن الحزم ما تقول ، غير أنى أكره أن أفارق أصحابى ، قال : فكن بقرُ بنا ، قال : أما هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف ، أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ ففعل ، فقدم عليه عبد الرحمن ، فأقام قطرىّ يُعاديهم القتال ويُرأوهم أربعين يوما ؛ فقال المهلب لمولى أبي عيينة : سرّ^(١) إلى ذلك النّاس ، فبت عليه كلّ ليلة ، فتي أحسست خبراً للخوارج ، أو حركةً أو سهيلَ خيل ، فأنجّل إلينا .

فجاء ليلة ، فقال : قد تحرك القومُ ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعدّ قطرىّ سفنا فيها حطب وأشعلها ناراً ، وأرسلها على سفن خالد ، وخرج في أدبارها ، حتى خالطهم ، لا يمرّ برجلٍ إلا قتله ، ولا بدابةً إلا عقّرها ، ولا بفسطاط إلا هتّكه ؛ فأمر المهلب يزيد ابنه ، فخرج في مائة فارس . فقاتل ، وأبلى عبدُ الرحمن بن محمد ابن الأشعث يومئذ بلاءً حسناً ، وخرج فيروز بن حصين في مواليه ؛ فلم يزل يرميهم بالنشاب هو ومن معه ، فأثر أترأ جميلاً ، وصرع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصرع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ؛ فخامى عنهما أصحابهما ؛ حتى ركبا ، وسقط فيروز بن حصين في

(١) كذا في ب ، وفي ج : « شد » ، وفي الكامل : « انبذ » ، أى سره منفردا . والنّاس في الأصل : مقابر النصارى .

الخنديق ، فأخذ بيده رجل من الأزد ؛ فاستنقذه ؛ فوهب له فيروز عشرة آلاف ، وأصبح
عسكر خالد ، كأنه حرّة سوداء^(١) ، فجعل لا يرى إلا قتيلا أو جريحا ؛ فقال للمهلب :
يا أبا سعيد ، كدنا نفتضح ! فقال : خنديق على نفسك ؛ فإن لم تفعل عادوا إليك ، فقال :
اكفني أمر الخنديق ، فجمع له الأحماس^(٢) فلم يبق شريف إلا عمل فيه ، فصاح بهم
الخوارج : والله لولا هذا الساحر المزوني ، لكان الله قد دمّر عليكم - وكانت الخوارجُ
تسمّى المهلب الساحر - ، لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدون المهلب قد سبق
إلى نقض تديبرهم .

وقال أعشى همدان لابن الأشعث ، يذكره بلاء القحطانية عنده ؛ في كلمة طويلة^(٣) :

وَيَوْمَ أَهْوَاكِ لَا تَنْسَهُ لَيْسَ الثَّنَا وَالذِّكْرُ بِالْبَائِدِ

ثم مضى قطريث إلى كركمان ؛ وانصرف خالد إلى البصرة ؛ وأقام قطريث بكركمان
شهرًا ، ثم عمّد لفارس ، فخرج خالد إلى الأهواز ونذّب الناس للرحيل ؛ فجمعوا يطلبون
المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلب بحظّ هذا المضر ؛ إني قد وليت أخي قتال الأزارقة .
فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلاثمائة ؛ ومضى عبد العزيز
والخوارج بدرا بجرّد وهو في ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه : يزعم أهلُ
البصرة أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلا بالمهلب ؛ سيعلمون !

قال صعقب^(٤) بن يزيد : فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز ، جاءني كركم دوس ،

(١) الحرّة : أرض ذات حجارة سوداء نخرة ؛ كأنما أحرقت بالنار .

(٢) الأحماس : جمع حمس ، جمع الأحمس ؛ وهم الشجعان المتشددون في القتال .

(٣) ديوان الأعشين ٣٤ ؛ ومطلعها :

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَهَا بِالْحَضْرِ فالروضة من آمدِ

دَارٌ نَحْوِ طِفْلَةٍ رُوْدَةٍ بَانَتْ فَامْسَى جِهَا عَامِدِي

(٤) الكامل : « صعّب بن زيد » .

حاجب المهلب، فدعاني، فجئت إلى المهلب وهو في سطح، وعليه ثياب هَرَوِيَّة، فقال: يا صَغْبُ؛ أنا ضائع كَأَنِّي أنظر إلى هزيمة عبد العزيز، وأخشى أن توافيني الأزارقة، ولا جند معي، فابث رجلا من قبلك يأتيني بخبرهم سابقا إلى^١ به، فوجهت رجلاً من قبلي يقال له عمران بن فلان؛ وقلت له: اصحب عسكر عبد العزيز، واكتب إلى بخبر يوم فيوم؛ فجعلت أورده على المهلب، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة، فقال له الناس: هذا منزل، فينبغي أن تنزل فيه أيها الأمير؛ حتى نطمئن ثم نأخذ أهبتنا، فقال: كلاً، الأمر قريب؛ فنزل الناس عن غير أمره، فلم يستتم النزول؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع في خمسمائة فارس؛ كأنهم خيطة ممدود، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة، ثم انهزموا عنه مكيدة، واتبعهم فقال له الناس: لاتبعهم؛ فإننا على غير تعبئة، فأبى؛ فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبة، فاقتحمها وراءهم والناس ينهونه ويأبى، وكان قد جعل على بني تميم عُبْس بن طَلْق الصَّرِيمِي الملقب عُبْس الطَّعَان، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسمع، وعلى شُرطته رجلا من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار. فنزلوا عن العقبة، ونزل خلفهم و [كان] ^(١) لهم في بطن العقبة كمين، فلما صاروا من ورائها؛ خرج عليهم الكمين، وعطف سعد الطلائع، فترجل عبس بن طلق، فقتل وقتل مقاتل بن مسمع، وقتل الضبيعي، صاحب شُرطة عبد العزيز، وانحاز عبدُ العزيز واتبعهم الخوارج فرسخين يقتلونهم كيف شاءوا، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أم حفص بنت المنذر بن الجارود امرأته، فسبوا النساء يومئذ، وأخذوا أسارى لا تحصى، فقتلوا في غار بعد أن شدوهم وثاقا، ثم سدوا عليهم بابها، حتى ماتوا فيه.

وقال بعض من حضر ذلك اليوم: رأيتُ عبد العزيز، وإن ثلاثين رجلا ليضربونه

بسيوفهم؛ فماتحيكُ في جنبه^(١)، ونودي على السَّبِي يومئذ، فقُولِي بأمّ حَنَص، فبلغ بها رجل سبعين ألفا، وكان ذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا، ولحقوا بالخوارج، فقرَضوا لكلِّ رجل منهم خمسمائة، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أمّ حَفص، فشَقَّ ذلك على قَطْرِي، وقال: ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا؛ إن هذه لِفِتْنَةٌ! فوثب عليها أبو الحديد العبدِي فقتلها؛ فَأَتِي به قَطْرِي، فقال: مَهْمَ^(٢) يَا أبا الحديد! فقال: يا أمير المؤمنين؛ رأيت المؤمنين تزايدوا في هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة، فقال قَطْرِي: أحسنت، فقال رجل من الخوارج:

كفَانَا فِئْتَنَةً عَظُمَتْ وَجَلَّتْ بِمُحَمَّدِ اللَّهِ سَيْفُ أَبِي الْحَدِيدِ

أَهَابَ الْمَسْلُومُونَ بِهَا وَقَالُوا عَلَى فَرْطِ الْهَوَى هَلْ مِنْ مَزِيدٍ!^(٣)

فزادَ أبو الحديد بنصلِ سَيْفِ رَقِيقِ الْحَدِّ فَعَلَّ فَتَى رَشِيدِ

وكان العلاء بن مطرف السعديّ ابن عم عمرو القنا، وكان يجب أن يلقاه في

صدرمبارزة^(٤)، فلحقه عمرو القنا يومئذ؛ وهو منهزم، فضحك منه وقال متمثلا:

تَمَنَّانِي لِيَلْقَانِي لَقِيطُ أَعَامَ لَكَ ابْنَ صَعْمَةَ بْنِ سَعْدِ^(٥)

ثم صاح به: انج يا أبا المصدّي^(٦)، وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين:

(١) قال المبرد: «يقال: ما أحاك فيه السيف، وما يحيك فيه؛ وما حك ذا الأمر في صدرى، وما

حكى في صدرى، وما احتكى في صدرى. ويقال: حاك الرجل في مشيته يحيك إذا تبختر.»

(٢) مهم: حرف استفهام، معناه: ما الخبر؟ وما الأمر؟ فهو دال على ذلك مخذوف الخبر.

(٣) أهاب به: أعلن.

(٤) الكامل: «في تلك الحروب مبارزة.»

(٥) البيت من شرح سيبويه، ١: ٣٢٩، في باب المنادى، ونسبه لشریح بن الأحوص، ونسبه المبرد في

الكامل إلى يزيد بن الصعق وفي شرح الشواهد للأعلم: «الشاهد في قوله: «لك»، والمعنى:

يا عامر، دعائي لك، والمعنى معنى التعجب؛ كما تقول: يالك فارسا!؛ أى يا هذا دعائي لك من فارس؛

أى أعجب لك في هذه الحال... وكان لقيط بن زرارمة التميمي قد توعد الأحوص أبا شريح السكلابي،

وتعنى أن يلقاه فيقتله؛ فقال هذا متعجبا لقومه من بني عامر من تمنيه لقتله وتوعده له... وأراد عامر

ابن صعمة فرخم.»

(٦) هى كنية عمر القنا.

إحداها من بنى ضَبَّة ، يقال لها أم جميل ، والأخرى بنت عمه ؛ يقال لها فلانة بنت عَمِيل ، فطلق الضَّبِّيَّة ، وحملها أولا ، وتخلص بابنة عمه ، فقال في ذلك :

أَلَسْتُ كَرِيماً إِذْ أَقُولُ لِفَتِيَّتِي قِفُوا فَاحْمِلُوهَا قَبْلَ بِنْتِ عَمِيلِ
وَلَوْلَمْ يَكُنْ عُوْدِي نَضَاراً لَأَضْبَحَتْ تُجَرَّ عَلَى الْمُتَنِّينِ أُمَّ جَمِيلِ^(١)

قال الصقعب بن يزيد : وبعثني المهلب لآتيه بالخبر ، فصرت إلى قنطرة أربك^(٢)

على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ؛ فلم أحسن خيرا ، فسرت مهجراً^(٣) إلى أن أمسيت ؛ فلما أمسينا وأظلمنا ، سمعتُ كلامَ رجل عرفته من الجماضم ، فقلت : ما وراءك ؟ قال : الشر ، قلت : فأين عبدالعزيز ؟ قال : أمامك ؛ فلما كان آخر الليل ؛ إذا أنا بزهاء خمسين فارسا معهم لواء ، فقلت : لواء من هذا ؟ قالوا : لواء عبد العزيز ، فتقدمت إليه ، فسأمت عليه وقلت : أصلح الله الأمير ! لا يكبرن عليك ما كان ، فإنك كنت في شرّ جند وأخبثه ، قال لي : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ؛ ولكن كأني شاهد أمرك ، ثم أقبلت إلى المهلب وتركته ، فقال لي : ما وراءك ؟ قلت : ما يسرك ؛ هُزم الرجلُ وفلّ جيشه ؛ فقال : وَيْحَكَ ! وما يسرني من هزيمة رجل من قریش ، وفلّ جيش من المسلمين ! قلت : قد كان ذلك ، ساءك أو سرّك ؛ فوجه رجلا إلى خالد يخبره بسلامة أخيه . قال الرجل : فلما خبرت خالدا ، قال : كَذَبْتَ وَلَوْ مِتْ ، ودخل رجل من قریش فكذبني ، فقال لي خالد : والله لقد هممتُ أن أضرب عنقك ، فقلت : أصلح الله الأمير ! إن كنت كاذبا فاقنلني ، وإن كنت صادقا فأعطني مطرف هذا المتكلم ، فقال خالد : لبئس ما أخطرت به دمك ! فما برحتُ حتى دخل عليه بعض القفل ، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلب وكساه ، وقدم معه على خالد ، واستخلف المهلب ابنه حبيبا ، وقال له : تجسّس على الأخبار ، فإن

(١) الكامل : « تجرّ على المتنين » .

(٢) أربك : قرية بخوزستان .

(٣) مهجرا : وقت الهجرة .

أحسست بنخيل الأزارقة قريباً منك ؛ فانصرف إلى البصرة على نهر تيرى . فلما أحسَّ حبيب بهم ، دخل البصرة وأعلم خالدا بدخوله ، فغضب وخاف حبيب منه ، فاستتر في بني عامر بن صعصعة ، وتزوج هناك في استناره الهلالية ، وهي أم ابنه عباد بن حبيب . وقال الشاعر خالد يُفَيْل (١) رأيه :

بمَثَ غلاماً من قريشِ فَرَوَقَةً وتتركُ ذا الرأى الأصيلَ المهلباً (٢)
أبى الدَّمِّ واختارَ الوفاءَ وأحكمتُ قواه ، وقدَّ سأسَ الأمورَ وجرباً
وقال الحارث بن خالد المخزومي :

فَرَّ عبدُ العزيزِ إذ رآه عيسى وابنَ داودَ نازلاً قطرياً (٣)
عاهدَ الله إن نجأ من ملنايا ليعودنَ بمدها حرماً (٤)
يسكنُ الخُلَّ (٥) والصفاحَ فغورياً نَ مراراً ومرةً نجدياً
حيثُ لا يشهد القتالَ ولا يسمع يوماً لكرِّ خيلٍ ذويًا

وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى أمير المؤمنين صانعاً بي ؟ قال : يعزلك ، قال : أترأه قاطعاً رحي ! قال : نعم ؛ قد أتته هزيمة أمية أخيك (٦) ففعل - يعني هرب أمية من سجستان - فكتب عبد الملك إلى خالد :

(١) يفيل رأيه : بخطه .

(٢) الفروقة : شديد الفزع .

(٣) في الكامل :

فَرَّ عبدُ العزيزِ لما رأى الأبطالَ في السَّفحِ نازلوا قطرياً

(٤) قال البرد : العرب تنسب الحرم فيقولون : حرماً وحرماً

(٥) الخُل والغوريان مواضع ، ورواية البيت في الكامل :

يَسْكُنُ الخُلَّ والصفاحَ فمراً نَ وسلعاً وتارةً نجدياً

(٦) عبارة الكامل : « أتته هزيمة أمية أخيك من البحرين وتأتبه هزيمة أخيك عبد العزيز من

أما بعد ؛ فإني كنت حَدَدْتُ لكَ حَدًّا فِي [أمر] ^(١) المهلب ؛ فلما ملكتَ أمرَكَ ،
نبئتَ طاعتي وراءَكَ ، واستبددتُ برأيِكَ ؛ فوليتَ المهلبَ الجبَايةَ ، ووليتَ أخاك
حَرْبَ الأزارقةَ ؛ فقَبَّحَ اللهُ هذا رأيا ؛ أتبعْتُ غلامًا غِرًّا لم يجرِّبِ الأمورَ والحروبَ للحربِ ؛
وتتركُ سيِّدا شجاعًا مدبرًا جازما قد مارسَ الحروبَ فقلج ^(٢) ؛ فشغلته بالجباية ! أما لو كافأناكَ
على قدرِ ذنبِكَ لأناكَ من نكيري ما لا بقيَّةَ لك معه ! ولكن تذكَّرتُ رحمتي فكففتني
هناك ؛ وقد جعلت عقوبتَكَ عَزْلًا . والسلام .

قال : وولِّي بشر بن مروان الإمارة وهو بالكوفة ؛ وكتب إليه :

أما بعد ؛ فإنك أخو أمير المؤمنين ؛ يجمعُك وإياه مروان بن الحكم ؛ وإن خالدًا
لا يجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية ، فانظر المهلب بن أبي صفرة ، فوله حرب الأزارقة ؛
فإنه سيد بطل مجرَّب ، وامدده من أهل الكوفة ثمانية آلاف رجل ؛ والسلام .

فشقَّ على بشر ما أمره به في المهلب ؛ وقال : والله لأقتلنه ، فقال له موسى بن نصير :
أيها الأمير ؛ إن للمهلب حناظا ووفاء وبلاء .

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة ؛ فكتب موسى بن نصير وعكرمة بن ربيع
إلى المهلب أن يتلقاه لقاء لا يعرفه به ؛ فتلقاه المهلب على بعل ، وسلم عليه في غمار ^(٤)
الناس ؛ فلما جلس بشر مجلسه ، قال : ما فعل أميركم المهلب ؟ قالوا : قد تلقاك أيها الأمير ،
وهو شك .

فهمَّ بشر أن يولِّي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله بن معمر ؛ وشيَّد عزَّمه أسماء

(١) من الكامل .

(٢) ج : « فاستبددت » .

(٣) فلج : ظفر واتصر .

(٤) غار ، بكسر العين : جمع غمرة ؛ والغمرة المزدهم . وفي الكامل : « خار الناس » ، وخار
الناس كثرتهم وزحمتهم وجماعتهم .

ابن خارجة ، وقال له : إنما ولّك أمير المؤمنين لترى رأيك ؛ فقال له عكرمة بن ربیع :
اكتب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلب ، فكتب إليه بذلك ، وأنّ بالبصرة من يعنى
غناه ، ووجه بالكتاب مع وفد أوفدم إليه رئيسهم عبد الله بن حكيم الجاشعي .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب خلا بصيد الله ، فقال له : إن لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمن
لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلب ؛ قال : إنه عليل ، قال : ليست علته بمانعة ^(١) ،
فقال عبد الملك : لقد أراد بشر أن يفعل ما فعل خالد ؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولّى
المهلب الحرب ، فوجه إليه ، فقال : أنا عليل ، ولا يمكنني الاختلاف ؛ فأمر بشر بحمل
الدواوين إليه ؛ فجعل ينتخب ، فعزم عليه بشر بالخروج ؛ فقطع أكثر نخبته ، ثم عزم
عليه ألا يقيم بعد ثلاثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلفوها وراء ظهورهم ؛ وصاروا
بالفرات ، فخرج المهلب حتى صار إلى شهار طاق ؛ فأتاه شيخ من بني تميم ، فقال :
أصلح الله الأمير ! إن سنّي ماترى ، فهبني لعيالي ، فقال ^(٢) : على أن تقول للأمير إذا خطب
فحكّم على الجهاد : كيف تحمّنا على الجهاد ؛ وأنت تحبس عنه أشرافنا ، وأهل النجدة
منا ! فضل الشيخ ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ! ثم أعطى المهلب رجلاً ألف
درهم ، على أن يأتي بشرأ فيقول له : أيها الأمير ، أعين ^(٣) المهلب بالشرطة والمقاتلة ؛ فضل
الرجل ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ فقال : نصيحة حضرتني للأمير والمسلمين ؛
ولا أعود إلى مثلها ؛ فأمدّه بشر بالشرطة والمقاتلة ، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن
يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف ؛ من كل رُبْع ألفين ، ويوجه بهم
مدداً للمهلب .

(١) الكامل : « بمانعته » .

(٢) ساقطة من ج .

(٣) ب : « أغن » .

فلما أتاه الكتاب ، بعث إلى عبد الرحمن بن مَخْنَفِ الأزدِيّ يعقد^(١) له ، واختار من كل رُبْع ألفين ، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشْر بن جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمْدانيّ ، وعلى رُبْع كِنْدَةَ محمد ابن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْدِيّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجِيّ ؛ فقدموا على بِشْر بن مروان ، فخلا بعبد الرحمن بن مَخْنَفِ ، وقال له : قد عرفت رأيي فيك ، وثقتي بك ؛ فكن عند ظنّي بك ؛ وانظر إلى هذا المزُونِيّ ، فخالفه في أمره ، وأفسد عليه رأيه .

فخرج عبدُ الرحمن ، وهو يقول : ما عَجَبَ ما طَلَبَ^(٢) مِنِّي هذا الغلام ! يأمرني أن أصغر شأن^(٣) شيخٍ من مشايخ أهلي ، وسَيِّد من ساداتهم ! فلحق بالمهلب .

فلما أحسّ الأزارقة بدنوّ المهلب منهم انكشفوا عن القُرات ، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها ؛ ثم اتبعهم إلى رَامَهْرُمَزْ فهزمهم عنها ، فدخلوا فارسَ ، وأبلى يزيد ابنه في وقائمه هذه بلاءً شديدا ، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة .

فلما صار القومُ إلى فارس ، وجّه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صالح : أيها الأمير ؛ إنه ليس لك برأيٍ قتلُ هذه الأكلب ؛ ولئن والله قتلتم لتقعدن في بيتك ؛ ولكن طاولهم ، وكلّ بهم . فقال : ليس هذا من الوفاء ؛ فلم يلبث برَامَهْرُمَزْ إلا شهرا ؛ حتى أتاه موت بِشْر بن مروان .

فاضطرب الجند على ابن مَخْنَفِ ، فوجه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر ، فاستحلفهما ألا يبرحا ، فلفقا له ولم يفيا ، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلون حتى اجتمعوا

(١) الكامل : « فقد » .

(٢) كذافي ا ، ج ، وفي الكامل ، وب : « طمع » .

(٣) ج : « رأى » .

بُسُوقِ الْأَهْوَازِ؛ وَأَرَادَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ الْإِنْسِلَالَ مِنَ الْمَهْلَبِ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَسْتُمْ كَأَهْلِ الْكُوفَةِ؛ إِنَّمَا تَذَبُّونَ عَنِ مِصْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَحَرَمِكُمْ.

فَأَقَامَ مِنْهُمْ قَوْمٌ، وَتَسَلَّلَ مِنْهُمْ قَوْمٌ كَثِيرٌ.

وَكَانَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ خَلِيفَةَ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ، فَوَجَّهَ مَوْلَى لَهُ بِكِتَابٍ مِنْهُ إِلَى مَنْ بِالْأَهْوَازِ؛ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَجْتَهِدًا: لَئِنْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مِرَاكِرِهِمْ، وَانصَرَفُوا عَصَاةً لَا يَنْظُرُ بِأَحَدٍ إِلَّا قَتَلَهُ. فَجَاءَهُمْ مَوْلَاهُ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، وَلَا يَرَى فِي وُجُوهِهِمْ قَبُولًا؛ فَقَالَ: إِنِّي أَرَى وُجُوهًا مَا الْقَبُولُ مِنْ شَأْنِهَا، فَقَالَ لَهُ ابْنُ زَحْرٍ: أَيُّهَا الْعَبْدُ؛ اقْرَأْ مَا فِي الْكِتَابِ، وَانصَرَفْ إِلَى صَاحِبِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا فِي أَنْفُسِنَا، وَجَعَلُوا يَسْتَحْثُونَهُ بِقِرَاءَتِهِ؛ ثُمَّ قَصَدُوا قَصْدَ الْكُوفَةِ؛ فَزَلُّوا التُّخَيْلَةَ، وَكَتَبُوا إِلَى خَلِيفَةِ بَشْرِ بِسَأْلُونَهُ أَنْ يَأْذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْكُوفَةِ؛ فَأَبَى، فَدَخَلُوهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ.

فَلَمْ يَزَلِ الْمَهْلَبُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوَادِهِ وَابْنُ مَخْنَفٍ؛ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَلِيَ الْحِجَّاجُ الْعِرَاقَ.

فَدَخَلَ الْكُوفَةَ قَبْلَ الْبَصْرَةِ؛ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ؛ فَخَطَبَهُمُ الْخَطْبَةُ الْمَشْهُورَةُ^(١)، وَتَهَدَّدَهُمْ؛ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ لَوُجُوهِ أَهْلِهَا: مَا كَانَتْ الْوَلَاةُ تَفْعَلُ بِالْعَصَاةِ؟ قَالُوا: كَانَتْ تَضْرِبُ وَتَجْبَسُ، فَقَالَ: وَلَكِنْ لَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي إِلَّا السِّيفُ؛ إِنْ الْمُسْلِمِينَ لَوْ لَمْ يَغْزُوا الْمَشْرِكِينَ لَغْزَاهُمُ الْمَشْرِكُونَ، وَلَوْ سَاغَتْ الْعَصِيَّةُ لِأَهْلِهَا، مَا قُوتِلَ عَدُوٌّ، وَلَا جُيِبَ فَيْءٌ، وَلَا عَزَّ دِينٌ.

ثُمَّ جَلَسَ لِتَوْجِيهِ النَّاسِ، فَقَالَ: قَدْ أَجَلْتَكُمْ ثَلَاثًا، وَأَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا يَتَخَلَفُ أَحَدٌ مِنْ

(١) فِي الْكَامِلِ: « وَقد ذَكَرْنَا الْخَطْبَةَ مُتَقَدِّمًا »؛ وَهِيَ فِي الْكَامِلِ ٢١٧ (طَبْعَةُ أَوْرِبَا).

أصحاب ابن مَخْنَفٍ بعدَها إلا قتلته . ثم قال لصاحب حرّسه ولصاحب شرطته^(١) : إذا مضت ثلاثة أيام ، فاشحذا^(٢) سيوفكما . ^(٣) فجاءه عمير بن ضابئ [البرجمي]^(٤) بابنه فقال : أصلح الله الأمير ! إن هذا أنفع لكم مني ؛ وهو أشدّ مني تميم أبدا^(٥) ، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جاشا ؛ وأنا شيخ كبير عليل ؛ واستشهد [جُلجُل]^(٦) ؛ فقال له الحجاج : إن عذرك لواضح ، وإن ضعفك كَبِينٌ ؛ ولكنني أكره أن يموت مني بك الناس على ؛ وبعد ؛ فأنت ابن ضابئ صاحب عمان ، وأمر به قتل^(٧) ؛ فاحتمل الناس ؛ وإن أحدكم لِيُتَّبِعَ بزاده وسلاحه ، ففي ذلك يقول [عبد الله]^(٨) بن الزبير الأسدي^(٩) :

أقولُ لعبدِ الله يومَ لقيتهُ أرى الأمرَ أمسى مُنصبًا مُتسَعِبًا^(٧)

(١) الكامل : « شرطه » .

(٢) الكامل : « فاشحذا » .

(٣-٣) وفي رواية أخرى للبرد ٢١٧ : « فوضع للناس أعطياتهم ؛ فحملوا بأخذون ، حتى أتاه شيخ يرعش كبرا ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إني من الضعف على ما ترى ، ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني ؛ فتقبله بدلامي ؛ فقال الحجاج : ففعل أيها الشيخ ؛ فلما ولي قال له قائل (هو عنبسة بن سعيد الأموي) : أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا . قال : هذا عمير بن ضابئ البرجمي الذي يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتني تركتُ على عثمان تبكي حلاللله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا ؛ فوطئ^(١) بطنه ، فكسر ضلعين من أضلاعه . فقال : ردوه ؛ فلما رد قال له الحجاج : أيها الشيخ ؛ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ! إن في قتلك أيها الشيخ لصلاحا للسلهين ؛ يا حرسى ، اضرب عنقه ؛ فحمل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ؛ ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأبيات . وانظر الشعر والشعراء ٣١١ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٤٥ ، وتاريخ الطبري ٥ : ١٣٧

(٤) من الكامل .

(٥) الكامل : « أيدا » .

(٦) نقل المرصفي في رغبة الأمل ؛ أنه في هذه الأبيات يخاطب إبراهيم بن عامر الأسدي ؛ وروى البيت الأول :

أقولُ لإبراهيمَ لما لقيتهُ أرى الأمرَ أضحي مُنصبًا مُتسَعِبًا

وذكر بعده :

تجهز وأسرِع فالحق الجِيشَ لا أرى سوى الجيشِ إلا في المهالكِ مذهبًا
فأنا إن أرى الحجاجَ بغمْدُ سيفه مَدَى الدهرِ حتى يتركَ الطفلَ أشيبًا

(٧) منصبا : معييا مجهدا .

تجهز فإما أن تزور ابن ضابيه عميراً ، وإما أن تزور المهلباً
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركو بك حوлия من الثلج أشهباً^(١)
فإما أن أرى الحجاج يعمد سيفه مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيباً
فأضحى ولو كانت خراسان دونه تزاهي مكان السوق أو هي أقرباً^(٢)

وهرب سوار بن المضرب السعدي من الحجاج ، وقال :

أقاتلي الحجاج إن لم أزل له دراب وأترك عند هند فوادياً^(٣)

في قصيدة مشهورة له .

فخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان أشد عليهم إلحاحاً ؛
وقد كان أتام خبره بالكوفة ، فتحتمل الناس قبل قدومه . وأتاه رجل من بني يشكر ،
وكان شيخاً أعور ؛ يحمل على عينه العوراء صوفة ، فكان يلقب ذا الكر سفة ، فقال :

(١) نقل المرصني بعده :

فكأئن ترى من مكره الغزو مُسمرأ تحمم حنو السرج حتى تحمباً

والمسمر : الذي لم ينم ، وتحمم حنو السرج : لزمه ؛ حتى صار كأنه حميم له . وحنو السرج : ما انطف
منه . وتحمب : تقوس .

(٢) الهاء في « دونه » عائدة على المهلب ؛ أي لو كانت خراسان قريبة من موضع غزوه ، والسوق :
هو سوق حكمة ؛ موضع بناوحي الكوفة . وأقرب مفعول ثان ؛ على أن « رأى » بمعنى « ظن » ،
والضمير الرفوع وضع موضع الضمير المنصوب ، و « أو » بمعنى « بل » ؛ وانظر الكامل - بشرح
المرصني ٤ : ٧٩

(٣) دراب ؛ هي دار بجرذ ؛ اقتصر على أحد الجزأين : كورة بفارس وروى المبرد في الكامل ٢٨٩
(طبع أوروبا) بعد هذا البيت :

فإن كان لا يرُضيك حتى تردني إلى قطري ما إخالك راضياً

إذا جاوزت درب المجيزين ناقتي فباست أبي الحجاج لما ثنائياً

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة وراثياً

أصلح الله الأمير ! إنَّ بي فتقاً ، وقد غدَّر بي بشر بن مروان ؛ وقد رددت العطاء ، فقال :
إنك عندي لصادق ؛ ثم أمر به فضربت عنقه ؛ فني ذلك يقول كعب الأشقرى -
أو الفرزدق (١) :

لَقَدْ ضَرَبَ الْحِجَّاجُ بِالْمِصْرِ ضَرْبَةً تَقَرَّرَ مِنْهَا بَطْنُ كُلِّ عَرِيفٍ (٢)

ويروى عن أبي البثر (٣) ، قال : إننا لنتغذى معه يوماً ، إذ جاءه رجل من بني سليم (٤)
برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إن هذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشدك الله
أيها الأمير في دمي ! فوالله ما قبضت ديوانا قط ، ولا شهدت عسكرياً قط ، وإني لخائفك ،
أخذت من تحت الحنف (٥) . فقال : اضربوا عنقه . فلما أحسن بالسيف سجده ، فلاحقه
السيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الأكل ، فأقبل علينا ، وقال : مالي أراكم قد صفرت
أيديكم ، واصفرت وجوهكم ، وحدت نظركم من قتل رجل واحد ! ألا إن العاصي يجمع
خِلالاً ؛ يُحْلَى بمركزه ، ويعصى أميره ، ويفرّ المسلمون ؛ وهو أجيرٌ لهم ؛ وإنما يأخذ الأجرة
ليما يعمل ، والوالى مخير فيه ؛ إن شاء قتل ، وإن شاء عفا .

ثم كتب إلى المهلب :

أما بعد ؛ فإن بشرأ استكره نفسه (٦) عليك ، وأراك غناه (٧) عنك ؛ وأنا أريك
حاجتي إليك ، فأرني الجد في قتال عدوك ، ومن خفته على المعصية بمن قبلك فاقتله ،

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٥٧٠ .

(٢) تقرر : صوت ، والعريف : النقيب دون الرئيس .

(٣) كذا في ب ، وفي ا ، ج : « عن أبي النسر » ، وفي الكامل : « ابن أبي ميرة » .

(٤) كذا في ب والكامل ، وفي ا ، ج : « من بني نعيم » .

(٥) الحنف : القصبة التي تحمي وتذهب .

(٦) استكره نفسه : أدارها على الكره منها .

(٧) أي أراك أنه في غم عنك .

فإني قاتل من قبلي ، ومن كان عندي ممن هرب عنك ؛ فأعلمني مكانه ؛ فإني أرى أن آخذ
السّمى بالسّمى ، والولى بالولى .

فكتب إليه المهلب :

ليس قبلي إلا مطيع^(١) ، وإن الناس إذا [خافوا العقوبة كبروا الذنب ، وإذا]^(٢)
أمنوا العقوبة صغروا الذنب ؛ وإذا يئسوا من العفو أكفرهم^(٣) ذلك ؛ فهب لي هؤلاء
الذين سميتهم عصاة ؛ فإنهم فرسان أبطال ؛ أرجو أن يقتل الله بهم العدو ، وندام
على ذنبه [^(٤) .

فلما رأى المهلب كثرة الناس عنده قال : اليوم قوتل هذا العدو .

ولما رأى ذلك قطري^(٥) ، قال لأصحابه : انهضوا بنا نريد السردن^(٦) ، فنتحصن
فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أوتأتى^(٧) سابور ، فتأخذ منها ما نريد ، وتصير إلى كرمان .
فأتوا سابور ، وخرج المهلب في آثارهم فأتى أرجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا
بالسردن - وليست بمدينة ، ولكنها جبال مُحْدِقة منيعة - فلم يصب بها أحداً ، فخرج
فسكر بكازرون^(٨) ، واستعدوا لقتاله ، فخندق على نفسه ، ووجه إلى عبد الرحمن

(١) من الكامل .

(٢) أكفرهم : حلمهم على الكفر

(٣) من الكامل و : « نادم » معطوف على « مطيع » .

(٤) السردن : موضع ببلاد فارس إزاء كازرون .

(٥) سابور : كورة بينها وبين شيراز خسة وعشرون فرسخا .

(٦) كازرون ، بتقديم الزاى : مدينة من أخصب مدن سابور ؛ وذكر ياقوت أن لها ذكرا في أخبار

الخوارج ؛ وروى للنعمان بن عقبة من أصحاب المهلب :

لَيْتَ الْخَوَاصِنَ فِي الْخُدُورِ شَهِدْنَا فَيَرَيْنَ مَنْ وَخَلَ الْكُتَيْبَةَ أَوْلَا
وَقَرُّوا وَكُنَّا فِي الْوَقَارِ كَمِثْلِهِمْ إِذْ لَيْسَ تَسْمَعُ غَيْرَ قَدَمِ أَوْ هَلَا
رَعَدُوا فَأَبْرَقْنَا لَهُمْ بِسُيُوفِنَا ضَرْبًا تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ تُخْتَلَى
تَرَكُوا الْجَمَاجِمَ وَالرَّمَاحَ تُجِيلُهَا فِي كَازْرُونَ كَمَا تُجِيلُ الْخَنْظَلَا

ابن مخنف : خَنَدِقِ عَلَى نَفْسِكَ ، فَوَجَّهِ إِلَيْهِ : خَنَادِقُنَا سَيُوفُنَا ، فَوَجَّهِ الْمَهْلَبَ إِلَيْهِ : إِنْى
لَا آمَنُ عَلَيْكَ الْبَيَاتِ ، فَقَالَ ابْنُهُ جَعْفَرُ : ذَاكَ أَهْوَنُ عَلَيْنَا مِنْ ضَرْطَةِ جَمَلٍ ، فَأَقْبَلَ
الْمَهْلَبَ عَلَى ابْنِهِ الْمَغِيرَةَ ، فَقَالَ : لَمْ يَصِيبُوا الرَّأْيَ ، وَلَمْ يَأْخُذُوا بِالْوَثِيقَةِ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ الْقَوْمُ عَاوَدُوهُ الْحَرْبَ ؛ فَبِعَثَ إِلَى ابْنِ مَخْنَفٍ يَسْتَمِدُّهُ ، فَأَمَدَهُ بِجَمَاعَةٍ ؛ جَعَلَ
عَلَيْهِمْ ابْنَهُ جَعْفَرًا ، فَجَاءُوا ؛ وَعَلَيْهِمْ أَقْبِيَّةٌ بَيْضٌ جُدُدٌ ، فَأَبْلَوْا يَوْمَئِذٍ حَتَّى عُرِفَ مَكَانُهُمْ ؛
وَحَارَبَهُمُ الْمَهْلَبُ ، وَأَبْلَى بَنُوهُ يَوْمَئِذٍ كِبَالَاءَ الْكُوفِيِّينَ أَوْ أَشَدَّ .

ثُمَّ أَنَى رَيْسٌ مِنَ الْخَوَارِجِ ؛ يُقَالُ لَهُ صَالِحُ بْنُ مَخْرَاقٍ ، وَهُوَ يَنْتَخِبُ قَوْمًا مِنْ جَلَّةِ
الْعَسْكَرِ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعِينَ ؛ فَقَالَ لِابْنِهِ الْمَغِيرَةَ : مَا أَرَاهُ يُعِدُّ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِلْبَيَاتِ ^(١) .

وَانْكَشَفَتِ الْخَوَارِجُ ، وَالْأَمْرُ لِلْمَهْلَبِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ كَثُرَ فِيهِمُ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ؛ وَقَدْ كَانَ
الْحِجَاجُ يَتَفَقَّدُ الْعَصَاةَ ، وَيُوجَّهِ الرِّجَالَ ، وَكَانَ يُجْبَسُهُمْ نَهَارًا ، وَيَفْتَحُ الْحَبْسَ لَيْلًا ، فَيَتَسَلَّلُ
الرِّجَالَ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَهْلَبِ ؛ وَكَانَ الْحِجَاجُ لَا يَعْلَمُ ؛ فِإِذَا رَأَى إِسْرَاعَهُمْ تَمَثَّلَ :
إِنَّ لَهَا لَسَائِقًا عَشْرًا إِذَا وَثَبْنَ وَثْبَةً تَفْشَرًا ^(٢)

ثُمَّ كَتَبَ الْحِجَاجُ إِلَى الْمَهْلَبِ يَسْتَحْتَهُ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ قَدْ أَقْبَلْتَ عَلَى جَبَايَةِ الْخَوَارِجِ ، وَتَرَكْتَ قِتَالَ الْعَدُوِّ ؛
وَإِنِّي وَلِيَتُكَ ^(٣) وَأَنَا أَرَى مَكَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَكِيمِ الْمَجَاشِعِيِّ ، وَعَبَّادِ بْنِ الْحَصِينِ الْحَبْطِيِّ ،
وَإِخْتَرْتِ وَأَنْتِ مِنْ أَهْلِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ رَجَلْتُ مِنَ الْأَزْدِ ؛ فَالْقَهْمُ يَوْمَ كَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا ؛
وَإِلَّا أَشْرَعْتُ إِلَيْكَ صَدْرَ الرَّمْحِ .

(١) الكامل : « ما يعد هؤلاء إلا للبيات » .

(٢) في الكامل : « المشنزرة الصاب ، والنفسمر : ركوب الرأس ، والنفسمر : الجاد على ما خيلت »

يريد : ما خيلت نفسه ؛ وهم يخذفون فاعل هذا الفعل .

(٣) يريد أبقيتك على ولايتك .

فشاور المهلب بنيه ، فقالوا : أيها الأمير ^(١) ، لا تُغْلِظْ عليه في الجواب ^(٢) .
فكتب إليه :

وردَ إلى كتابك ، تزعمُ أني أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتالَ العدو ، ومنَ
تَجَزَّ عن جباية الخراج ، فهو عن قتال العدو أنجز . وزعمتَ أنك وليتني ، وأنت ترى
مكان عبد الله بن حكيم وعَبَاد بن الحصين ، ولو وليتهما لكانا مستحقين لذلك ؛
لفضلهما وغناهما وبطشهما . وزعمتَ أنك اخترتني وأنا رجلٌ من الأزد ؛ ولعمري إن
شراً من الأزد لقبيلة تنازعتهما ثلاث قبائل ؛ لم تستقرَّ في واحدةٍ منهن . وزعمتَ أني
إن لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا أشرعتَ إلى صدرِ الرمح ؛ لو فعلتَ لقلتُ لك ظهر
المجن ^(٢) . والسلام .

قال : ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عقيب هذا الكتاب .

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة ، قال لابنه المغيرة : إني أخاف البيات على بني تميم ،
فانهض إليهم ، فكن فيهم ، فاتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ؛
أخاف الأمير أن يؤتى من ناحيتنا ! قلْ له : فليت آمننا ؛ فإننا كافوه ما قبلنا إن شاء الله .
فلما انتصف الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق في القوم الذين كان
أعدّهم للبيات إلى ناحية بني تميم ، ومعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

إني كمدك للشراة نارها ومانعٌ ممن أتاها دارها

* وغاسلٌ بالسيف عنها عارها *

(١-١) السكامل : « إنه أمير ، فلا تغلظ عليه في الجواب » .

(٢) المجن من السلاح : ما يتقى به .

فوجد بنى تميم أيقاظا متحارسين ، وخرج إليهم الحريش بن هلال ، وهو يقول :
 وَجَدْتُمُونَا وَقُرْأَ أَنْجَادَا لَا كُشْفًا مِيْلًا وَلَا أَوْغَادَا^(١)

ثم حمل على الخوارج ، فرجعوا عنه ؛ فاتبعهم ثم صاح بهم : إلى أين يا كلاب النار !
 فقالوا : إنما أعدت لك ولأصحابك ؛ فقال الحريش : كل مملوك لي حرّ إن لم تدخلوا النار ؛
 مادخلها مجوسى^(٢) فيما بين سفوان^(٢) وخراسان .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكر ابنِ مُخَنَفٍ ؛ فإنه لا خندق عليه ؛ وقد بعث
 فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أننا أهونُ عليهم من ضُرْطَةِ جمل . فأتوهم فلم يشعر
 ابنِ مُخَنَفٍ وأصحابه ؛ إلا وقد خالطوهم في عسكرهم .

وكان ابنِ مُخَنَفٍ شريفا ؛ وفيه يقول رجل من بنى عامر لرجل يعاتبه ، ويضرب بابن
 مُخَنَفٍ المثل :

تَرُوحُ وَتَفْدُو كُلَّ يَوْمٍ مُعْظَمًا كَأَنَّكَ فِينَا مُخَنَفٌ وَابْنِ مُخَنَفٍ

فترجل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم ؛ حتى قتل وقتل معه سبعون رجلا من القراء ؛
 فيهم نفرٌ من أصحاب علي بن أبي طالب ، ونفر من أصحاب ابن مسعود . وبلغ الخبرُ المهلب -
 وجعفر بن عبد الرحمن بنِ مُخَنَفٍ عند المهلب - فجاءهم مُغِيثًا فقاتل حتى ارتث^(٣) ووجه
 المهلب إليهم ابنه حبيبا ، فكشفهم ، ثم جاء المهلب حتى صلى على عبد الرحمن بنِ مُخَنَفٍ
 وأصحابه ، وصار جندُه في جند المهلب ، فضمهم إلى ابنه حبيب ، فعيّزهم البصريّون ،
 وسمّوا جعفرًا خَصْفَةَ الجمل .

(١) في السكامل : « قوله » : وجدتم وقرا ، جمع وقور ، والنجد : ضدّ البليد ؛ وهو المتيقظ الذى
 لا كسل عنده ولا فتور . والأميل : فيه قولان : قالوا : الذى لا يستقر على الدابة ؛ وقالوا : الذى لا سيف
 معه . والأكشف : الذى لا ترس معه . والأجم : الذى لا رمح معه ، والحاسر : الذى لا درع عليه . والأعزل :
 الذى لا يتقوم على ظهر الدابة . والوغد : الضعيف . وذكّر بعه هذا البيت :

هَيْهَاتَ لَا تُلْفُونَنَا رُقَادَا لَا بَلْ إِذَا صِيحَحَ بِنَا آسَادَا

(٢) سفوان ، بفتحين : ماء على قدر مرحلة من مربرد البصرة .

(٣) المرتث : الذى يحمل من المعركة جريحا وبه رمق .

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف :

تركت أصحابكم تَدْمِي نُحُورَهُمْ وَجِثَّ تَسْعَى إِلَيْنَا خَضَفَةَ الْجَمَلِ^(١)

فلام المهلب^(٢) أهل البصرة ، وقال : بئسما قلتم ؛ والله ما فرّوا ولا جبنوا ؛ ولكنهم خالفوا

أميرهم ؛ أفلا تذكرون فراركم بدؤلاب عني ، وفراركم بدآرس^(٣) عن عثمان^(٤) !

ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب يستحثه في مناجزة القوم ، وكتب إليه : إنك

تحبُّ بقاءهم لنا كلَّ بهم ، فقال المهلب لأصحابه : حرَّ كُوم ؛ فخرج فرسان من أصحابه ،

فخرج إليهم من الخوارج جمعٌ كثير ؛ فاقتتلوا إلى الليل ؛ فقال لهم الخوارج : ويلكم ! أما

تملّون ! فقالوا : لا ، حتّى تملّوا ، فقالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، فقالت الخوارج : ونحن تميم

أيضاً ، فلما أمسوا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب ، وخرج إليهم

من الخوارج عشرة ، واحتفر كلُّ واحدٍ منهم حفيرة ، وأثبت قدميه فيها ، كما قُتِل

رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره وقام^(٥) مكانه حتى أغموا^(٦) ، فقال لهم الخوارج :

ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، قالوا لهم : ويلكم من أنتم ! قالوا : تميم ، قالوا : ونحن

(١) في الكامل : « تركت أصحابنا » ، وفيه : قوله : « خضفة الجمل ؛ يريد ضربة الجمل ؛ يقال :

خضف البعير ؛ وأنشدني الرياشي لأعرابي يذم رجلاً اتخذ وليمة :

إِنَّا وَجَدْنَا خَلْفًا بِئْسَ الْخَلْفُ أَغْلَقَ عَنَّا بِأَبِهِ ثُمَّ حَلَفَ

لَا يُدْخِلُ الْبُؤَابُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ عَبْدًا إِذَا مَا نَاءَ بِالْحِمْلِ خَضَفَ

(٢) في الكامل : « فلامهم » .

(٣) في الأصول : « بفارس » ، وما أثبتته عن الكامل . ودارس : موضع ذكره البكري وقال :

لأنه في ناحية مسرقان . ومسرقان : قرية من أعمال البصرة .

(٤) هو عثمان بن قطن بن عبيد الله ؛ أحد بني الحارث بن كعب ؛ وكان الحجاج بعثه إلى شبيب ؛ فانهزم

أصحابه عنه ، وقاتل حتى قتل .

(٥) الكامل : « ووقف » .

(٦) اعتدوا : صاروا في العتمة ، وهي ثلث الليل الأول بعد مغيب الشفق .

تميم أيضاً؛ فرجع البراء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له: مهيم؟^(١) قال: رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله.

وكتب المهلب جواب الحجاج: إني منتظر بهم إحدى ثلاث: موتاً ذريعاً،^(٢) أو جوعاً مضرّاً، أو اختلافاً من أهوائهم.

وكان المهلب لا يتكلم في الحراسة على أحد، كان يتولى ذلك بنفسه، ويستعين عليه بولده، وبمن يحلّ محلهم في الثقة عنده.

قال أبو حزملة العبدى يهجو المهلب، وكان في عسكره:

عَدِمْتُكَ يَا مُهَلَّبُ مِنْ أَمِيرٍ أَمَا تَنْدَى بِمِينِكَ لِلْفَقِيرِ !
بِدُولَابٍ أَضَعْتَ دِمَاءَ قَوْمِي وَطَرِزْتَ عَلَى مُوَأَشِكَةٍ دَرُورٍ^(٣)

فقال له المهلب: ويحك! ووالله إني لأقيكم بنفسى وولدى، قال: جعلنى الله فداء الأمير! فذاك الذى نكره منك، ما كلنا يحب الموت. قال: ويحك! وهل عنه من محيص! قال: لا، ولكننا نكره التعجيل؛ وأنت تقدم عليه إقداماً، قال المهلب: ويحك! أما سمعت قول الكلجة اليربوعى:

فقلتُ لكأسِ الجيها فإتما نزلنا الكئيبَ من زرودٍ لنفرعا^(٤)

(١) مهيم، كلمة استفهام معناها: ما الخبر وما الأمر؟ وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبد الرحمن بن عوف، وعليه درع خاق، فقال: مهيم؟ فقال: تزوجت يارسول الله. وفي الكامل: «مه» وهى بمعنى الاستفهام أيضاً.

(٢) ذريع. سريع.

(٣) قال المبرد: قوله: «مواشكة»، يريد سرية، ويقال: نحن على وشك رحيل. ويقال: ذميل مواشك، إذا كان سريعاً، قال ذو الرمة:

إِذَا مَا رَمَيْنَا رَمِيَةً فِي مَفَازَةٍ عَرَّاقِيهَا بِالشَّيْطَمَى المَواشِكِ

و «درور» فعول، من درر الشيء، إذا تابع.

(٤) كئس: اسم بنته، والعرب لا تنق بأحد في خيلها إلا بأولادها ونساءها. والكئيب: القطعة =

فقال : بلى ، قد سمعت ؛ ولكن قولي أحب إلى منه :

وَلَمَّا وَقَفْتُمْ غُدُوَّةً وَعَدْوًا كُمْ إِلَى مَهْجَتِي وَلَيْتَ أُعْدَاءُكُمْ ظَهَرِي
وَوَطَرْتُ وَلَمْ أَحْفَلْ مَلَامَةً جَاهِلٍ يُسَاقِي الْمَنَابِي بِالرَّدِينِيَّةِ الشُّمْرِ (١)

فقال المهلب: بنس حشو الكتيبة أنت والله يا أبا حرملة ! إن شئت أذنت لك فانصرفت

إلى أهلك . قال : بل أقيم مملك أيها الأمير ، فوهب له المهلب وأعطاه ، فقال يمدحه :

يَرَى حَتْمًا عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ جِلَادَ الْقَوْمِ فِي أَوْلَى النَّفِيرِ
إِذَا نَادَى الشَّرَاةُ أَبَا سَعِيدٍ مَشَى فِي رِفْلِ مُحْكَمَةِ الْقَتِيرِ (٢)

قال : وكان المهلب يقول : ما يسرني أن في عسكري ألف شجاع مكان بيهس بن

صُهيب ، فيقال له : أيها الأمير ، بيهس ليس بشجاع ، فيقول : أجل ؛ ولكنه سيد الرأى ،
محكم العقل ، وذو الرأى حذر سئول ، فأنا آمن أن يُقتل ؛ ولو كان مكانه ألف شجاع
نلخت أنهم ينشامون (٣) حيث يحتاج إليهم .

قال : ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشراة عقبة ،

فقال المهلب : مَنْ يَكْفِينَا أَمْرَ هَذِهِ الْعُقْبَةِ اللَّيْلَةَ ؟ فلم يبق أحد ، فلبس المهلب سلاحه ، وقام
إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة ، فقال رجل من أصحابه : دعانا الأمير إلى ضبط العقبة ، والحظ

= المستطيلة من الرمل ، محذوبة . وزرود : موضع . والفزع : هنا الإغاثة ، وهو من الأضداد .
وقبل هذا البيت :

وَنَادَى مَنَادَى الْحَيِّ أَنْ قَدْ أُتَيْتُمْ وَقَدْ شَرِبْتُ مَاءَ الْمَزَادَةِ أَجْمَعَا

وهما من قصيدة مفضلية وفيها :

أَمَرْتَكُمْ أَمْرِي بِنَعْرِجِ اللَّوِيِّ وَلَا أَمَرَ لِلْمَعْصَى إِلَّا مُضِيْعًا

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَفْشِ الْكُرِيهَةَ أَوْشَكَتْ حِبَالُ الْهَوَيْبِيِّ بِالْفَتَى أَنْ تَقْطَعَا

(١) الكامل : «ملامة عاجز» ، الردينية : الرماح ؛ منسوبة إلى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح .

(٢) الرفل بكسر الراء : الذيل ؛ وقد أرفل رفله ؛ أرسل ذيله ، وأما الرفل بفتحها ، فصدر رفل

كنصر : جرد ذيله وركضه برجله ، والقنير : رءوس سباع حلق الدروع .

(٣) ينشامون ، من انشام الشيء دخل فيه واختبأ ، كتشيم ؛ يريد أنهم يكونون بمنزل مخافة أن يقتلوا .

في ذلك لنا؛ فلم نطعمه، ولبس سلاحه واتبعه جماعة من العسكر، فصاروا إليه؛ فإذا المهلب والمغيرة ولا ثالث لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير؛ فنحن نكفيك إن شاء الله؛ فلما أصبحوا إذا هم بالشراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحمل وفرسه تزلق، ويلقاه مُدرك في جماعة معه؛ حتى ردوهم عن العقبة؛ فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخطب الناس، إذ الشراة قد أكتبوا^(٢)، فقال المهلب: سبحان الله! أفى مثل هذا اليوم! يا مغيرة! كفيهم؛ فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القرْدُوسى^(٣) [ماعدًا]^(٤) وكان سعد مقدما في شجاعته وكان الحجاج^(٥) إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبتة قال له: لو كنت سعد بن نجد القرْدُوسى! فخرج أمام المغيرة، ومع المغيرة جماعة من فرسان المهلب، فالتقوا، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح، مديد القامة، كرية الوجه، شديد الحُملة، صحيح الفروسية؛ فأقبل يحمل على الناس، ويرتجز فيقول:

تَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَدَاةَ النَّحْرِ بِالْحَيْلِ أَمْثَالِ الْوَشِيحِ تَجْرِي^(٦)

فخرج إليه سعد بن نجد القرْدُوسى، من الأزد، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس فصرع المغيرة يومئذ، فخامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستاني^(٧) وجماعة من الفرسان؛ حتى ركب وانكشف الناس عند سقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب؛ فقالوا: قُتِلَ المغيرة، فأتاه دينار السجستاني، فأخبره بسلامته، فأعتق كل مملوك كان بحضرته.

-
- (١) الشراة: الخوارج؛ قال الجوهري: سموا بذلك لقولهم: إنا شربنا أنفسنا في طاعة الله؛ أي بناها بالجنة حين فارقتنا الأئمة الجائرة.
- (٢) السكامل: «تألبوا».
- (٣) في الأصول: «القرْدُوسى»، تصحيف صوابه من السكامل، وقرْدوس: قبيلة من الأزد.
- (٤) من السكامل؛ أي متجاوز لإعجابك إعجابه.
- (٥) السكامل: «المهلب».
- (٦) الوشيح: ما نبت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه في بعض؛ أو ما صلب فيه.
- (٧) السكامل: «السجستاني».

قال : ووجه الحجاج الجراح بن عبد الله إلى المهلب يستبطئه في مناخزة القوم ،
وكتب إليه :

أما بعد ؛ فإنك جَبَيْتَ الجراح بالعلل ^(١) ، وتحصنت بالخنادق ، وطاولت القوم وأنت
أعزُّ ناصراً ، وأكثراً عدداً ؛ وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبناً ؛ ولكنك
اتخذتهم أُكلاً ^(٢) ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ؛ فناجزهم ؛ وإلا أنكرتني ، والسلام .
فقال المهلب للجراح : يا أبا عُقبة ، والله ما تركتُ حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدةً
إلا أعملتها ؛ وما العجبُ من إبطاء النُصرة ^(٣) وتراخي الظفر ؛ ولكن العجب أن يكون
الرأى لمن يملكه دون من يبصره .

ثم ناهضهم ثلاثة أيام ، يغاديهم القتال ، فلا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف
أصحابه وبهم قرح ، وبالخوارج قرح وقتل . فقال له الجراح : قد أعذرت .
فكتب المهلب إلى الحجاج :

أتانى كتابك تستبطنى في لقاء القوم ؛ على أنك لا تظنُّ بى معصية ولا جُبناً ؛
وقد عاتبته معاتبة الجبان ^(٤) ، وأوعدتني وعيد ^(٥) العاصى ؛ فسل الجراح . والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟ قال : والله أيتها الأمير ، ما رأيت مثله
قط ، ولا ظننت أن أحدا يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدتُ أصحابه أياما ثلاثة
يقدون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ؛

(١) بالعلل ، أى سترته بالعلل .

(٢) الأكل بالضم : اسم للمأكل .

(٣) الكامل : « النصر » .

(٤) أى معاتبتك للجبان .

(٥) فى الأصول : « وعد » ، وما أثبتته من الكامل .

ويتخاطبون بالعمد ؛ ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً ، رَوَّاحَ قوم تلك عادتهم ومجارتهم .

فقال الحجاج : لَشَدَّ ما مدحتَه ^(١) أبا عُقْبَةَ ! فقال : الحقّ أوّلى .

وكانت رُكْبُ الناس ^(٢) قديماً من الخشب ، فكان الرّجل يضرب ركابه ، فينقطع ، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد ؛ فأمر المهلب بضرب ^(٣) الرُّكْب من الحديد ؛ فهو أول من أمر بطبعها ؛ وفي ذلك يقول عمران بن عصام العنزيّ :

ضَرَبُوا الدَّرَاهِمَ فِي إِمَارَتِهِمْ . وَضَرَبْتَ لِلْحَدَثَانِ وَالْحَرْبِ
حَلَقًا تَرْمِي مِنْهَا مَرَّاقِهِمْ . كَمَا كَبِ الْجَمَالَةَ الْجُرْبِ ^(٤)

قال : وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحيّ ، من بني رياح بن يَرْبُوع ؛ وهو والي أصفهان يأمره بالمسير إلى المهلب ، وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مخنف ؛ فكلُّ بلدي يدخلانه من فتوح أهل البصرة ؛ فالمهلب أميرُ الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتُمُ بلداً فَتَحَهُ أهلُ الكوفة ^(٥) فأنت أميرُ الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة .

فقدِمَ عتاب في إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلب ، وهو بسابور - وهي من فتوح أهل البصرة - فكان المهلب أميرَ الناس وعتاب على أصحاب ابن مخنف ؛ والخوارج بأيديهم - كَرَمَان ؛ وهم يإزاء المهلب بفارس ، يحاربونه من جميع النواحي .

(١) كذا في ب والكامل ، وفي ا ، ج : « وصفته » .

(٢) ركب الناس ، الركب ، بضمّتين : جمع ركاب ؛ وهو ما يعتمد عليه راكب السرج بقدميه ؛ فأما ما يعتمد عليه راكب البعير ؛ فهو الفرز .

(٣) ج : « فضربت » .

(٤) المراد هنا : معتمدات الأرجل من الخلق ؛ ويريد بتناكب الجمالة الجرب أنها رقيقة الوسط عريضة الطرفين . والجمالة ، مثلثة الجنب مخففة الميم : الطائفة من الجمال .

(٥) الكامل : « فتجه لأهل الكوفة » .

قال : ووجه الحجاج إلى المهلب رجائين يستحسانه لمناجزة القوم : أحدهما يقال له زياد ابن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبي عقيل من رهط الحجاج ، فضم المهلب زيادا إلى ابنه حبيب ، وضم الثقفى إلى ابنه يزيد ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيبا بالمناجزة ، وغادوا الخوارج . فاقتلوا أشد قتال ؛ فقتل زياد بن عبد الرحمن العامرى ، وفقد الثقفى . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ؛ وقد وجد الثقفى ، فدعا به المهلب ، ودعا بالغداء ، فجعل النبل يقع قريبا منهم ويتجاوزهم ، والثقفى يعجب من أمر المهلب ؛ فقال الصلتان العبدى :

ألا يا اصْبَحَانِي قَبْلَ عَوَقِ الْعَوَاتِقِ ^(١) وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مِثْلَ الْمُقَاتِقِ ^(٢)
 غَدَاةَ حَبِيبٍ فِي الْحَدِيدِ يَقُودُنَا يَخُوضُ الْمَنَايَا فِي ظِلَالِ الْخَوَافِقِ
 حَرُونَ إِذَا مَا الْحَرْبُ طَارَ شَرَارُهَا ^(٣) وَهَاجَ مَجَاجُ النَّعْرِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ ^(٤)
 فَمَنْ مَبْلَغُ الْحَجَّاجِ أَنْ أَمِينَهُ زِيَادًا أَطَاحَتْهُ رِمَاحُ الْأَزَارِقِ

فلم يزل عتاب بن وزياد مع المهلب ثمانية أشهر حتى ظهر شبيب بن يزيد ؛ فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه ليوجهه إلى شبيب ، وكتب إلى المهلب يأمره أن يرزق الجند ، فرزق أهل البصرة ، وأبى أن يرزق أهل الكوفة ، فقال له عتاب : ما أنا بيارح حتى ترزق أهل الكوفة ، فأبى ، فجرت بينهما غلظة ، فقال له عتاب : قد كان ييلغنى أنك شجاع ، فرأيتك جبانا ، وكان ييلغنى أنك جواد ، فرأيتك بخيلا . فقال له المهلب : يا بن اللخناء ؛ فقال له عتاب : لكك مغم نحول !

(١) اصبحانى ؛ من صبغه إذ اسقاه صبوحا من خر أول ؛ والعواتق : جمع عاتقة ؛ وهى كل ماصرفك عما تريد .

(٢) فى السكامل : « قوله : وقبل اختراط القوم مثل المقاتق ، يعنى السيوف ، والمقاتق : جمع عقيقة ، يقال : سيف كأنه عقيقة برقى ، أى كأنه لمعة برقى ، ويقال : انمق البرق إذ انبسم » .

(٣) حرون ، لقب حبيب ، لأنه كان يحرن فى الحرب فلا يبرح ، وذلك مستعار من قولهم : فرس حرون لا يتقاد ، وانظر رغبة الأمل ٤ : ٨٨ .

(٤) السكامل : « البوارق » ، والبوارق : السيوف .

فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف ، ووثب نعيم بن هبيرة ، ابن أخى مصقلة ابن هبيرة على عتاب فشتمه ، وقد كان المهلب كارهاً للحلف ، فلما رأى نصره بكر ابن وائل له سره ، واغبط به ، فلم يزل يؤكده ، وغضبت تميم البصرة لعتاب ، وغضبت أزد الكوفة للمهلب ؛ فلما رأى ذلك المغيرة مشى بين أبيه وبين عتاب ؛ وقال لعتاب : يا أبا ورقاء ؛ إن الأمير يصيرُ إلى كلِّ ما تحبُّ ، وسأل أباه أن يرزقَ أهل الكوفة ففعل فصلح الأمر ؛ فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يحمّدون المغيرة بن المهلب ، وكان عتاب يقول : إني لأعرف فضله على أبيه .

وقال رجلٌ من الأزد ، من بني إباد بن سواد :

ألا أبلغُ أبا ورقاءَ عَنَّا فلو لا أننا كُنَّا غَضابًا
على الشيخِ المهلبِ إذ جفانا للاقَّتْ خيلُكم منا ضرابًا

قال : وكان المهلب يقول لبنيه : لا تبدءوا الخوارج بقتال حتى يبدءوكم ، ويبتغوا عليكم ، فإنهم إذا بغّوا عليكم نصرتم عليهم .

فشخص عتاب إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين ، فوجهه إلى شبيب فقتله شبيب .

وأقام المهلب على حربهم ، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وافتقرت كلمتهم . وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حداداً من الأزارقة ، كان يعمل نصالاً مسمومة ، فبرئ بها أصحابُ المهلب ؛ فرُفِعَ ذلك إلى المهلب ، فقال : أنا أكنفيكوه إن شاء الله ، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال له : ألقى هذا الكتاب في العسكر والدرهم ، واحذر على نفسك - وكان الحداد يقال له أبرى - فضى الرجل ، وكان في الكتاب : أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلي ، وقد وجهتُ إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال .

فوقع الكتاب إلى قَطْرِيّ ، فدعا بأَبْرِيّ ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدري ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم ، فأمر به فُقْتِل . فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلاً على غير نِقَةِ^(١) ولا تبين ؟ قال قَطْرِيّ : فما حال هذه الألف ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذباً ، ويجوز أن يكون حقاً ، فقال قَطْرِيّ : إن قتلَ رجلٍ في صلاحِ الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً ؛ وليس للرعيّة أن تعترض عليه ؛ فتنكر له عبدُ ربّه في جماعة معه ، ولم يفارقوه .

وبلغ ذلك المهلب فدمس إليهم رجلاً نصرانياً ؛ جعل له جُفلاً يُرُغَب في مثله ؛ وقال له : إذا رأيتَ قَطْرِيّاً فاسجدُ له ؛ فإذا نهاك فقل : إنما سجدتُ لك ؛ ففعل ذلك النصرانيّ ، فقال قَطْرِيّ : إنما السجود لله تعالى ؛ فقال : ما سجدتُ إلا لك ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبدك من دون الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾^(٢) ؛ فقال قَطْرِيّ : إن النصرانيّ قد عبدوا عيسى بن مريم ؛ فما ضرّ عيسى ذلك شيئاً . فقام رجل من الخوارج إلى النصرانيّ فقتله ، فأنكر قَطْرِيّ ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره .

وبلغ المهلب ذلك ، فوجه إليهم رجلاً يسألهم ، فاتأثم الرجل ، فقال : أرايتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما في الطريق ، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يجزئ المحنة ، ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فهو من أهل الجنة ، وأما الذي لم يجزئ المحنة فكافر ؛ حتى يُميز المحنة .

وقال قوم آخرون : بل هما كافران ؛ حتى يميز المحنة ، فكثر الاختلاف .
وخرج قَطْرِيّ إلى حدودِ إسطنخر ؛ فأقام شهراً ، والقوم في اختلافهم . ثم أقبل فقال

(١) ج « وثيقة » .

(٢) سورة الأنبياء ٩٨

لهم^(١) صالح بن مخرق : يا قوم ، إنكم أقررتم عينَ عدوكم ، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا - وهو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم - فنأدى : بأبيها المحلون^(٢) ؛ هل لكم في الطراد فقد طال عهدي به ! ثم قال :

ألم ترَ أنا مذُ ثلاثين ليلةً جديبٌ وأعداء الكتاب على خفص^(٣)

فتهايج القوم ، وأسرع بعضهم إلى بعض ؛ وكانت الوقعة ، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب ، وصار في وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطه وترفعه ، واعتورت رأسه السيوف ، وعليه ساعدٌ حديد ، فوضع يده على رأسه ؛ فلم يعمل السيف فيه شيئاً ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرع ، وكان الذي صرعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل ، وكان يقول يومئذ :

أنا ابن خيرٍ قومه هلالٍ شيخٌ على دينِ أبي بلالٍ

* وذلك ديني آخرَ الليالي *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنا نعجب كيف تُصرع ، والآن نعجب كيف تنجو ! وقال المهلب لبيته : إنَّ سرَّ حَكَم^(٤) لغار ، ولست آمنهم ، عليه أفوكتم به أحداً ؟ قالوا : لا ، فلم يستتم الكلام حتى أتاه آتٍ ، فقال : إن صالح بن مخرق قد أغارَ على السرح ، فشقَّ على المهلب ، وقال : كل أمرٍ لا أليه بنفسى فهو ضائع ؛ وتذمر عليهم ؛ فقال له بشر بن المغيرة : أرخ نفسك ؛ فإن كنتَ إنما تريد مثلك فوالله ما يمدل خيرٌنا شِيع^(٥) نملك ،

(١) ج : « اختلافكم » .

(٢) المحلون : الذين لا يحفظون عهداً ولا يرعون حرمة ؛ فكانت ما أحلوا أعراضهم وأموالهم أن نستباح

(٣) الخفص . الدعة ولين العيش .

(٤) السرح : المال السائم في المرعى من الأنعام ؛ وأراد بالغار الذي يطعم الناس في أخذه حيث لاراعى

له يحفظه .

(٥) الشيع : قبائل النعل .

فقال : خذوا عليهم الطريق ، فبادر بشر بن المغيرة ، ومدرك والمفضل ابنا المهلب ؛ فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة يشل السرح^(١) ، وهو يقول :

نَحْنُ قَمَعْنَاكُمْ بِشَلِّ السَّرْحِ وَقَدْ نَكَّأْنَا الْقَرْحَ بَعْدَ الْقَرْحِ^(٢)

ولحقه المفضل ومدرك ، فصاحا برجل من طيبي : ا كفينا الأسود ؛ فاعتوره الطائي وبشر ابن المغيرة فقتلاه ، وأسرا رجلا من الأزارقة من همدان ، واستردا السرح^(٣) .

قال : وكان عياش الكندي شجاعا بئيسا^(٤) فأبى يومئذ ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك ، قال المهلب : لا ذلت نفس الجبان بعد عياش ! وقال المهلب : مارأيت تالله كهؤلاء القوم ، كلما انتقص^(٥) منهم يزيد فيهم !

ووجه الحجاج رجلين إلى المهلب يستحثانه بالقتال : أحدهما من كلب ، والآخر من سليم ، فقال المهلب متمثلا بشعر لأوس بن حجر :

وَمَسْتَعِجِبُ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنْتِنَا . وَلَوْ زَبَنْتَهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرَمْ^(٦)

فقال المهلب ليزيد ابنه : حرك القوم ، فحركهم فتهايمجوا ؛ وذلك في قرية من قرى إصطخر ؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب وطعنه ، فشك فحذه بالسرج ، فقال المهلب للسلمي والكلبي : كيف يُقاتل^(٧) قوم هذا طعنهم ! وحمل

(١) في الكامل : « يشل السرح ، أى يطرده » .

(٢) في الكامل : « الشل : الطرد . ويقال : نكأت القرحة ، مهموز ، ونكيت العدو غيره مهموز ؛ من النكاية ، ونكأت القرحة نكأ ؛ قال ابن هرمة :

وَلَا أَرَاهَا تَزَالُ ظَالِمَةً نَحْدُ لِي قَرْحَةً وَتَمَسْكُوهَا

(٣) في الكامل : « وخلي سيابه » .

(٤) البئيس ، من يؤس الرجل بيؤس ؛ إذا اشتدت شجاعته .

(٥) الكامل : « ينقص » .

(٦) قال البرد : قوله زبنته ؛ يقول : دفعته . ولم يترمرم : لم يتحرك ؛ يقال : قيل له كذا وكذا فما ترمرم .

(٧) الكامل : « قاتل » .

يزيد عليهم ؛ وقد جاء الرقاد - وهو من فرسان المهلب - وهو أحد بنى مالك بن ربيعة ، على فرس له أدم ؛ وبه تيف وعشرون جراحة ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حمل يزيد وتى الجمع ، وحام فرسان منهم ؛ فقال يزيد لقيس الحشني ، مولى العتيك : من هذين ؟ قال : أنا ، حمل عليهما ، فمظف عليه أحدهما فطمته قيس فصرعه ، وحمل عليه الآخر فتعانقا ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فصاح قيس الحشني : اقتلونا جميعا ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزوا بينهما ، فإذا معايق قيس امرأة ، فقام قيس مستحيا ، فقال له يزيد : يا أبا بشر ، أما أنت فبارزتها على أنها رجل ، فقال : رأيت لو قتلت ، أما كان يقال : قتلت امرأة ! وأبلى يومئذ ابن المنجب السدوسي ، فقال غلام له يقال له خلاج : والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم ؛ حتى نصير إلى مستقرهم ، فأستلب مما هناك جاريتين . فقال له مولاه ابن المنجب : وكيف تمتيت ويحك اثنتين ! فقال : لأعطيك إحداهما وآخذ الأخرى ، فقال ابن المنجب :

أخلاجُ إنكَ لَنَ تعانِقَ طفلةً شرِقاً بها الجادى كالتَّمثالِ (١)
 حتَّى تلاقىَ في الكَتِيبَةِ مُعلِماً عمرو والقنا وعبيدة بن هلالِ (٢)
 وترى المقطرَ في النوارِسِ مقدماً في عُصْبَةِ نَشِطُوا عَلَى الضَّلَالِ (٣)

(١) قال المبرد : « قوله : طفلة ، يقول : ناعمة ؛ وإذا كسرت الطاء قلت : طفلة ؛ فهي الصغيرة . والجادى : الزعفران .

(٢) قال المبرد : « الكتيبة : الجيش ؛ وإنما سمي الجيش كتيبة لانضمام أهله بعضهم إلى بعض ؛ وبهذا سمي الكتاب ؛ ومنه قولهم : كتبت البغلة والناقة وكتبت القرية ؛ إذا خربت ذلك الموضع . والمعلم : الذي قد شمر نفسه بعلامة ؛ إما بهامة صبيغ ؛ أو بمشجرة ، وإما بفسير ذلك . . وعمرو القنا من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بني يشكر بن بكر بن وائل . والذي ضمن صاحب المهلب في نخذه فشكها مع السرج من بني تميم ، قال : ولا أدري : عمرو هو أم غيره ؟ » .

(٣) في الكامل : « قسطوا مع الضلال » . قال : والمقطر : من عبد القيس ، وقوله : « قسطوا ، أى جاروا ؛ يقال : قسط يقسط فهو قاسط ؛ إذا جار ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

أَوْ أَنْ يُعَلِّمَكَ الْمَهْلَبَ غَزْوَهُ وَتَرَى جَبَالاً قَدْ دَنَّتْ لِجِبَالِ
 قال : وكان بدر بن الهذيل من أصحاب المهلب شجاعا ، وكان لحانة ؛ كان إذا أحس
 بالخوارج ينادى : يا خيل الله ازگي ؛ وإليه يشير القائل :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى الْمَهْلَبِ حَاجَةً عَرَضَتْ تَوَابِعُ دُونَهُ وَعَبِيدُ^(١)
 العبد كَرْدُوسٌ وَبَدْرٌ مِثْلُهُ وَعِلَاجُ بَابِ الْأَحْمَرِينَ شَدِيدُ^(٢)

قال : وكان بشر بن المغيرة بن أبي صفرة أبلى يومئذ بلاء حسنا عرف مكانه فيه ؛
 وكانت بينه وبين المهلب جفوة ، فقال لبنيه : يا بني عم ، إني قد قصرت عن شكاة
 العاتب^(٣) ؛ وجاوزتُ شكاة المستعيب^(٤) ؛ حتى كأني لاموصول ولا محروم ؛ فاجعلوا
 لي فرجة أعيش بها ، وهبوني أمراً رجوت من نصره ؛ أو ختم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ،
 وكلوا فيه المهلب ، فوصله .

وولى الحجاج كردماً فارس ، ووجهه إليها والحرب قائمة ، فقال رجل من أصحاب المهلب :

وَلَوْ رَأَاهَا كَرْدَمٌ لَكَرْدَمًا كَرْدَمَةَ الْعَيْرِ أَحْسَنَ الضَّيْفَمَا^(٥)

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودآرا بجرد لأرزاق
 الجند ، ففعل ؛ وقد كان قطري هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب
 بأخباره ؛ وأراد مثل ذلك بمدينة فسا ، فاشتراها منه آزاذ مرذ بن الهر بذ بمائة ألف

(١) قال المبرد : توابع ، أراد به الرجال ؛ لحز في الشعر ؛ وإنما رده إلى أصله للضرورة ؛ وما كانت
 من النعوت على « فاعل » ، فجمعه « فاعلون » ؛ لثلاثين بجمع فاعلة ؛ التي هي نعت .

(٢) قال المبرد : كردوس : رجل من الأزدي ؛ وكان حاجب المهلب . وقوله : « وعلاج باب الأحمريين
 شديد » ؛ العرب تسمى المعجم الحمراء .

(٣) العاتب : الساخط .

(٤) المستعيب : الطالب الرضا .

(٥) في الكامل : « الضيفم الأسد ، والسكردمة : النفور .

درهم ، فلم يهدمها . فواقعه وجهُ المهلب فهزمه ، فنفاه إلى كَرْمان ، وأتبعه المغيرة ابنه ؛ وقد كان دفع إليه سيفاً وجهه به الحجاج إلى المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ماتقلده ، فرجع به المغيرة إليه وقد دَمَّاه ، فسرَّ المهلب ، وقال : مايسرُّني أن يكون كنت دفعته إلى غيرك من ولدي ؛ وقال له : اكَفِّني جباية خراج هاتين الكورتين ، وضمَّ إليه الرقاد ، فجعلاً ينجبيان ، ولا يعطيان الجند شيئاً ، فني ذلك يقول رجل من بني تميم في كلمة له :

وَلَوْ عَلِمَ ابْنُ يُوسُفَ مَا نَلَقِي من الآفاتِ والكربِ الشَّدَادِ
لَفَاضَتْ عَيْنُهُ جَزَعًا عَلَيْنَا وأصلح ما استطاع من الفسادِ
أَلَا قَلْبَ لِلْأَمِيرِ جُزَيْتَ خَيْرًا أَرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةَ وَالرَّقَادِ
فَارزُقِ الْجُنُودَ بِهِمْ قَفِيرًا وقد سَأَسْتُ مطاميرُ الحِصَادِ (١)
أى وقع فيها السوس (٢) .

قال : ثم حاربهم المهلب بالسَّيرجان (٣) حتى نفاهم عنها إلى جِيفَتْ (٤) واتبعهم ونزل قريبا منهم .

ثم اختلفت كلمة الخوارج ، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتهم بامرأة رجل تجار ، رأوه يدخل مرارا إليها بغير إذن ، فأثروا قَطْرِيًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدِّين بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيثُ رأيتم ؛ فقالوا : إنا لا نقارَ على الفاحشة ، فقال :

-
- (١) المطامير : جمع مطمورة ؛ وهي حفرة تحت الأرض يوسم أسفلها ؛ تخبأ فيها الجيوب .
(٢) يقال : ساس الطعام وأساس ؛ إذا وقع فيه السوس .
(٣) السيرجان ، بكسر السين وسكون الياء وفتح الراء : مدينة بين كرمان وفارس .
(٤) جيفت ، بكسر فسكون ففتح راء وسكون فاء : مدينة بكرمان .

انصرفوا ، ثم بحث إلى عبيدة ، فأخبره ، وقال له : أنا لا أفتار على الفاحشة ، فقال : بهتوني^(١)
يا أمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إني جامع بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا
تتطاول تطاول البريء ؛ فجمع بينهم ، فتكلموا فقام عبيدة ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ،
﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ ... حتى تلا الآيات^(٢) ، فبگوا وقاموا إليه
فاعتنفوه ؛ وقالوا : استغفر لنا . ففعل ؛ فقال عبدُ ربِّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة : والله
لقد خدعكم ، فتابع عبدُ ربِّه منهم ناس كثير ؛ ولم يظهروا ، ولم يجدوا على عبيدة في
إقامة الحدِّ ثبثًا^(٣) .

وكان قَطْرِيّ قد استعمل رجلا من الدهاقين ، فظهرت له أموال كثيرة ، فأنوا
قَطْرِيًّا ؛ فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارَّ عماله على مثل هذا ؛ فقال قَطْرِيّ : إني
استعملته ، وله ضياع وتجارات فأوغرَ ذلك صدورهم ؛ وبلغ المهلبَ ذلك ، فقال : اختلافهم
أشدُّ عليهم مِنِّي ، ثم قالوا لقطريّ : ألا تخرج بنا إلى عدوِّنا ؟ فقال : لا ، ثم خرج فقالوا : قد
كذبَ وارتدَّ ، فاتبعوه يوما ، فأحسَّ بالشرِّ ، ودخل دارا مع جماعة من أصحابه ، فاجتمعوا
عليه وصاحوا : اخرج إلينا دابة ، فخرج إليهم ، فقال : أرجعتم بعدي كفارا ! قالوا : أولستَ
دابة ! قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(٤) ؛ ولستَ قد
كفرتَ بقولك : « إنا قد رجعنا كفارا » ، فقتب إلى الله . فشاور عبيدة في ذلك ، فقال له : إن
تبت لم يقبلوا منك ، فقل : إني استفهمت فقلت : « أرجعتم بعدي كفارا ؟ » ، فقال لهم ذلك ،
فقبلوا منه ، فرجع إلى منزله .

(١) بهتوني : قالوا على ما أم أفعال .

(٢) سورة النور ١١ - ٢٠

(٣) ثبثا ؛ بالتجريك ؛ أى حجة .

(٤) سورة هود ٦ .

[عبد ربه الصغير]

ومنهم عبد ربه الصغير ، أحد موالى قيس بن ثعلبة .

لما اختلفت الخوارج على قطريّ بايعه منهم جمع كثير ، وكان قطريّ قد عزم على أن يبايع للمقطر العبدى ، ويخلع نفسه ، فجعله أمير الجيش في الحرب قبل أن يعهد إليه بالخلافة ، فسكره القوم وأبوه ، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه : ابغ لنا غير المقطر ، فقال لهم قطريّ : إني أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوّ ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم ، واستعدوا للقاء القوم ؛ فقال صالح : إن الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاصي عنهم ففعل . ويجب على الإمام أن يُعفي الرعية مما كرهت ، فأبى قطريّ أن يعزل المقطر ، فقال له القوم : فإننا قد خلعتك وبايعنا عبد ربه الصغير - وكان عبد ربه هذا مُعلّم كُتّاب ، وكان عبد ربه الكبير بائع رمان ؛ وكلاهما من موالى قيس ابن ثعلبة - فانفصل إلى عبد ربه الصغير أكثر من شطْرهم ؛ وجلّهم الموالى والمعجم ؛ وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القراء ، ثم ندم صالح بن مخراق ، وقال لقطريّ : هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفنا من المقطر ، وسِرْ بنا إلى عدونا وعدوك ، فأبى قطريّ إلا المقطر ، وحل فتى من الشراة على صالح بن مخراق ، فطعنه فأنفذه ، وأوجره الرمح (١) .

فشبت الحرب بينهم ، فهابوا . ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم ؛ فلما كان الغد اجتمعوا ، فاقتلوا ، فأجالت الحرب عن النبيّ قتيل ، فلما كان الغد عاودوا الحرب ، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت المعجم العرب عن المدينة ، فأقام عبد ربه بها ، وصار قطريّ خارجاً من

(١) قال المبرد : « ومعنى أوجره الرمح طعنه وترك الرمح فيه ؛ قال عنتره :

وَآخِرَ مِنْهُمْ أَجْرِدَتْ رُحْمِي وَفِي الْبَجَلِ مَعْبَلَةٌ وَقِيْعُ

مدينة جيفرت بإزائهم ، فقال له عبيدة بن هلال : يا أمير المؤمنين ، إن أقت لم آمن هذه العبيد عليك ؛ إلا أن تخندق على نفسك ؛ فخذق على باب المدينة وجعل يناوشهم ، وارتحل المهلب ، وكان منهم على ليلة ، ورسول الحجاج معه يستحثه ، فقال له : أصلح الله الأمير ! عاجلهم قبل أن يظلموا ، فقال المهلب : إنهم لن يظلموا ؛ ولكن دَعهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفليحون معها ، ثم دس رجلا من أصحابه ، فقال : أتت عسكر قطري ، فقل : إني لم أزل أرى قطرياً يصيب الرأي ؛ حتى نزل منزله هذا ، فظهر خطؤه : أقيم بين المهلب ، وعبد ربه يفاديه القتال هذا ، ويرواحه هذا ! فنبى الكلام إلى قطري ، فقال : صدق ، تنحوا بنا عن هذا الموضع ؛ فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عذرته رأيت فيه ما تحبون .

فقال له الصلت بن مرة : يا أمير المؤمنين ، إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ؛ وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ؛ ثم قال :

قُلْ لِلْمُحَلِّينَ قَدْ قَرَّتْ عِيُونُكُمْ	بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كُنَّا أَناسًا عَلَى دِينٍ فَغَيَّرْنَا	طولُ الجدالِ وخَلَطُ الجدِّ باللعبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجُلًا قَلَّ جَيْشُهُمْ	عن الجدالِ وأغناهم عن الخطبِ (١)
إِنِّي لَأَهْوَنُكُمْ فِي الْأَرْضِ مَضْطَرَبًا	مالى سوى فرسى والرُّمَح من نَشَبِ

ثم قال : أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نطمع منه فيه .

وارتحل قطري ، وبلغ ذلك المهلب ، فقال لهُزَيْم بن أَبِي طَحْمَةَ الجاشعي : إني لا آمن أن يكون كاذباً بترك موضعه ؛ اذهب فتعرف الخبر ؛ فضى الهزيم في اثني عشر فارساً ؛ فلم ير في المعسكر إلا عبداً وعليجاً مريضين ، فسألها عن قطري وأصحابه ، فقالا :

مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هُزيم إلى المهلب ، فأخبره ، فارتحل حتى نزلَ خندق قطريّ ، فجعل يقاتل عبد ربّه أحياناً بالعداة ، وأحياناً بالعشيّ ، فقال رجل من سدّوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائرَ بالعراق شهيدنَا ورأيننا بالسّفح ذى الأجمالِ
فكحن أهل الجِدّة من فرساننا^(١) والضارين جاجم الأبطالِ

ووجه المهلب يزيدَ ابنته إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قطريّ ، وأنه مقيم على عبد ربّه ، ويسأله أن يوجّه في أثر قطريّ رجلاً جلدًا . فسرّ بذلك الحجاج سروراً أظهره ، ثم كتب إلى المهلب يستحثه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب :

أما بعد ؛ فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي فيرجمون بعدرك ؛ وذلك أنك تُسِك حتى تَبْرأ الجراح ، وتُنسى القتلى ، وتحمل الكال^(٢) ثم تلقام ، فتحمل منهم ثقل ما يَحتملون منك من وَحْشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت تلقام بذلك الجِدّة لكان الداء قد حَسِم ، والقرن^(٣) قد قَصِم ؛ ولعمري ما أنت والقوم سواء ، لأنّ من ورائك رجلا ، وأمامك أموالاً ؛ وليس للقوم إلا ما نعهد ، ولا يُدْرِك الوجيف^(٤) بالديب ، ولا الظفر بالتعدير .

فما ورد عليه الكتاب ، قال لأصحابه : يا قوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة : قطريّ بن الفجاءة ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبد ربّه الصغير في خُشار من خُشار^(٥) الشيطان ، تقتلونهم إن شاء الله تعالى .

(١) الكامل : « أهل الجزء » ؛ والجزء : الناء والسكفاية في الحرب .

(٢) الكامل : « ويجم الناس » .

(٣) قسم القرن ؛ أى كسر ؛ يكفى بذلك عن هلاك القوم .

(٤) الوجيف : ضرب من السير السريع .

(٥) الحُشار : الردى ، وملا خير فيه .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ؛ فكانما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدثون فيه ؛ يضحك بعضهم إلى بعض ؛ فقال عبيد بن موهب للمهلب : قد بان عذرُك ، فاكتب فيني مخبرُ الأمير .

فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فيني لم أعط رُسُلكَ على قول الحقِّ أجرا ، ولم أحتجَّ منهم عن المشاهدة إلى تلقينٍ . ذكرتَ أني أجمُّ القومَ ، ولا بدُّ من وقتِ راحةٍ يستريح فيه الغالب ، ويحتال فيه المغلوب . وذكرتَ أن في الجمام ما ينسى القتلى ، وتبرأ [منه] ^(١) الجراح ؛ وهيهات أن يُنسى ما بيننا وبينهم ! تأبى ذلك قَتَلِي لم تُجَنِّ ^(٢) ، وقُروح لم تنقُرف ^(٣) ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون مِنَّا حالاتٍ ؛ إن طمعوا حاربوا ؛ وإن ملّوا وقفوا ، وإن يسوا انصرفوا ؛ وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، وتتحرز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ؛ فإن تركتني والرأى ، كان القرنُ مقصوما ، والداه ياذن الله محسوما ، وإن أمجلتني لم أطمعك ولم أعصيك ، وجعلتُ وجهي إلى بابك ، وأعوذ بالله من سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس .

قال : ولما اشتدَّ الحصار على عبدِ ربِّه ، قال لأصحابه : لا تنفقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ؛ فإنَّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صحَّ توحيدُهُ عزَّ ربُّه ؛ وقد أراحكم الله من غِلظةِ قطريِّ ، ومجلةِ صالح بن مخراق ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال ، ووكلكم إلى بصائرکم ؛ فالقوا عدوكم بصبر ونية ؛ وانتقلوا عن منزلکم هذا ، فمن قُتل منكم قتل شهيدا ، ومن سلِم من القتل فهو المحروم .

(١) من الكامل .

(٢) لم تجن : لم تدفن في الجنن ؛ وهو القبر

(٣) لم تنقرف : لم تنقشر .

قال : وورد في ذلك الوقت على المهلب عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت النخعي من عند الحجاج ، يستحثه بالقتال ، ومعه أمينان ، فقال للمهلب : خالفت وصية الأمير ، وآثرت المدافعة والمطاوله . فقال له المهلب : والله ما تركتُ جهدا .

فلما كان المشي خرجت الأزارقة ، وقد حملوا حريمهم وأموالهم ، وخيف^(١) متاعهم لينتقلوا ؛ فقال المهلب لأصحابه : الزموا مصافكم ، وأشرعوا^(٢) رماحكم ، ودعوم والذهاب ؛ فقال له عبيدة بن أبي ربيعة : هذا لعمرى أيسر عليك . فغضب وقال للناس : ردوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا في الناس ؛ وقال لعبيدة بن أبي ربيعة : كن مع [يزيد ، فخذ بالحاربة أشد الأخذ ؛ وقال لأحد الأمينين : كن مع]^(٣) المغيرة ، ولا ترخص له في الفتور .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى عُقرت الخيل^(٤) ، وصُرع الفرسان ، وقتلت الرجال^(٥) ؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القدح^(٦) يؤخذ منها ، والسوط والعلف والحشيش^(٧) أشد قتال .

وسقط رمح^١ لرجل من مُراد من الخوارج ، فقاتلوا عليه ، حتى كثر الجراح والقتل ؛ وذلك مع المغرب ، والمرادى يرتجز ، ويقول :

الليل ليل فيه ويل ويل قد سأل بالقوم الشراة السيل

* إن جاز للأعداء فينا قول *

(١) الحف ، بالكسر الخفيف ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* يزل الغلام الخف عن صهواتها *

(٢) أشرع الرمح : رفعه .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « الدواب » .

(٥) الكامل : « الرجان » .

(٦) الكامل : « على القدح » .

(٧) الكامل : « والعلق الحشيش » .

فلما عظم الخطب في ذلك ^(١) الرمح بعث المهلب إلى المغيرة : خَلِّ لهم عن الرمح ؛ عليهم لعنة الله ! فخلّوا لهم عنه ، ومضت الخوارج ، فنزلت على أربعة فراسخ من جِيفَت ، فدخلها المهلب ، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع ، وما خلفوه من دقيق ، وجَمَّ عليه هو والثقيف والأمينان ، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين ^(٢) لا يشرب منها أحد إلا قوى ، يأتي الرجل بالدلو فدشدها في طرف رحله فيستقي بها ، وهناك قرية فيها أهلها ، فسادام القتال ، وضمّ الثقيف إلى ابنه يزيد ، وأحد الأمينين إلى المغيرة ، فاقتتل القوم إلى نصف النهار .

وقال المهلب لأبي علقمة العبدى — وكان شجاعاً ، وكان عابثاً هازلاً : امددنا يا أبا علقمة بجيـل الـيـحـمد ، وقل لهم : فليعبرونا جماجم ساعة ؛ فقال : أيها الأمير ، إن جماجمهم ليست بفخار فتمار ، ولا أعناقهم كرادى ^(٣) فقتبت .

وقال : لحبيب بن أوس : كَرَّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لى الأميرُ بغير علمٍ تقدّم حين جدّ به المراسُ

قالى إن أطعتك من حياةٍ ومالى غير هذا الرأسِ راسُ ^(٤)

وقال لمن بن المغيرة بن أبي صفرة : احمل ، فقال : لا ، إلا أن تزوجني ابنتك أم مالك ،

فقال : قد زوجتكَ ، لحمل على الخوارج فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِي الحِياةَ بِمالٍ مَنكَةً كان عندنا فَيَرانا ^(٥)

(١) الكامل : « فيه » .

(٢) الكامل : « طلى عين لا يشرب منها إلا قوى » .

(٣) في الأصول : « كرات » ، وصوابه من الكامل ؛ قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعدائهم النخل كراد ؛ وهو فارسى عرب » .

(٤) في الكامل : نصب « غير » ، لأنه استثناء .

(٥) رواية الكامل :

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِي الغداةَ بِمالٍ هلـكـه الـيوـم عندنا فَيَرانا

نصّل الكرك عند ذاك بطنين إن لسوت عندنا ألوانا
قوله : « ملكة » ، أى تزويجا ونكاحا .

قال : ثم جال الناس جولةً عند حمله حمله عليهم الخوارج ، فالتفت المهلب ، فقال
للغيرة ابنه : ما فعل الأمين الذى كان معك ؟ قال : قُتل وهرب الثقفى ، فقال ليزيد :
ما فعل عبيد بن أبى ربيعة ؟ قال : لم أره منذ كانت الجولة ، فقال الأمين الآخر للغيرة : أنت
قتلت صاحبي ، فلما كان العشي رجع الثقفى ، فقال رجل من بنى عامر بن صعصعة :

مازلت يا ثقفى تخطبُ بيننا وتعمئنا بوصيةِ الحجاجِ
حتى إذا مالوتُ أقبل زاحراً وسقى لنا صيرفاً بغيرِ مزاجِ
وليتَ يا ثقفى غيرَ مناظيرِ تنساب بين أحزّةٍ وفجاجِ (١)
ليست مقارعةُ الكُماةِ لدى الوغى شربَ المُدّامةِ فى إناءِ زجاجِ

فقال المهلب للأمين الآخر : ينبغى أن تتوجه مع ابني حبيب فى ألف رجل ؛ حتى
تبيتوا عسكرهم ، فقال : ما تريد أيها الأمير إلا أن تقتلنى كما فعلت بصاحبي ! فضحك
المهلب ، وقال : ذاك إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فكان كلٌّ حذراً من صاحبه ؛ غير
أن الطعام والعدّة مع المهلب ؛ وهو فى زهاء ثلاثين ألفاً ؛ فلما أصبح أشرف على وادٍ ؛ فإذا
هو برجلٍ ، معه رمح مكسور مخضوب بالدم ؛ وهو ينشد :

وإنى لأعفى ذاك الخمار بلهنتى إذا راح أطواهُ بنى الأصاغِرِ (٢)

(١) قال اللرد . « قوله : « بين أحزّة » ، هو جمع حزير ؛ وهو من يتقاد من الأرض ويغليظ ، والنفجاج :
الضرق ، واحدهما فج .

(٢) قال اللرد : « قوله : « ذو الخمار » ، يعنى فرساً ، وكان ذو الخمار فرس مالك بن نويرة ؛ قال
جرير وهو امرؤدق :

بير بويج فخرتُ وآل سَعْدِ فلا مجددي بلغت ولا افتخارى
بير بويج فوارسُ كلِّ يومِ يوارى شمسه رهبجُ الغبارِ
عتيبةُ والأحيميرُ وابنُ عمرو وعتابُ وفارسُ دى الخمارِ =

أَخَادِعُهُمْ عَنْهُ لِيَفْبِقَ دُونَهُمْ وَأَعْلَمُ غَيْرَ الظَّنِّ إِنِّي مَغَاوِرُ
كَأَنِّي وَأَبْدَانِ السَّلَاحِ عَشِيَّةَ يَمْرٍ بِنَا فِي بَطْنِ فَيْحَانَ طَائِرٌ (١)

فقال له : أميمي أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحظلي ؟ قال : نعم ، قال : أير بوعى ؟ قال :
نعم ، قال : أمين آل نويرة ؟ قال : نعم ، أنا ولد مالك بن نويرة ؛ قال . قد عرفتك بالشعر .
قال أبو العباس . وذو الخمار فرس مالك بن نويرة .

قال : فكثروا أياما يتحاربون (٢) ودوابهم مسرجة ، ولا خنادق لهم ؛ حتى ضعف
الفريقان ؛ فلما كان الليلة التي قُتِلَ فِي صَبِيحَتِهَا عَبْدُ رَبِّهِ ، جمع أصحابه ، فقال : يامعشرَ
المهاجرين ؛ إن قَطْرِيًا وَعَبِيدَةَ هَرَبَا طَلِبًا لِلْبَقَاءِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، فَاتَّقُوا عَدُوَّكُمْ غَدًا ؛
فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ؛ فَتَلَقَّوْا الرِّمَاحَ بِنَحُورِكُمْ ، وَالسِّيُوفَ
بِوُجُوهِكُمْ ، وَهَبُّوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا ، يَهْبِئُهَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ .

فلما أصبحوا ، غَادُوا الْمَهْلَبَ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا ، أَنْسَى مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَقَالَ رَجُلٌ
مِنَ الْأَزْدِ ، مِنْ أَصْحَابِ الْمَهْلَبِ : مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى الْمَوْتِ ؟ فَبَايَعَهُ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ ،
فَصَرَعَ بَعْضُهُمْ ، وَقَتِلَ بَعْضُهُمْ ، وَجَرِحَ بَعْضُهُمْ .

= وقرله : « أطواء ؛ يقال : رجل طوى البطن ؛ أى منطو ؛ يخبر أنه كان يؤثر فرسه على ولده فيشبعه
وهم جباع ؛ وذلك قوله :

* أَخَادِعُهُمْ عَنْهُ لِيَفْبِقَ دُونَهُمْ *

والنبيق : شرب آخر النهار ؛ وهو شيء تفخر به العرب « واللهن : الطعام الذى يتمل به قبل
الغداء . وفي الكامل :

جَزَائِي دِوَائِي ذُو الْخِمَارِ وَصَنَعَتِي إِذَا بَاتَ أَطْوَاءَ بَنِي الْأَصَاغِرِ

قال المرصني : دوائى ، بالكسر : مصدر دوى الفرس مداواة : سقاه اللبن ، وصنعته الفرس : حسن
القيام عليه .

(١) أبدان السلاح : جمع بدن ؛ وهو الذرع القصيرة ، وفيجان : موضع أو واد فى بنى أسد .

(٢) الكامل : « يتعارسون » .

وقال عبدالله بن رزام الحارثي للمهلب: احمِلوا، فقال المهلب: أعرابي مجنون - وكان من أهل نَجْران - فحمل وحده؛ فاخترق القوم حتى خرج من ناحية [أخرى] ^(١)؛ ثم كرّ ثانية ففعل فَمَلَّتْهُ الأولى، وتهايج الناس، فترجّلت الخوارج، وعَقَرُوا دوابهم، فناداهم عمرو القنّا - ولم يترجل هو ولا أصحابه ^(٢)، وهم زهاء أربعمائة - فقال: موتوا على ظهور دوابكم كراماً، ولا تعقروها، فقالوا: إنا إذا كُنّا على الدواب ذكرنا الفِرار، [فاقتلوا] ^(٣) ونادى المهلب بأصحابه: الأرض - الأرض! وقال لبنيه: تفرّقوا في الناس ليروا وجوهكم، ونادت الخوارج: ألا إن العيال لمن غلب؛ فصبر بنو المهلب؛ ^(٤) وقاتل يزيد بين يدي أبيه قتالا شديداً، ^(٥) أبلّى فيه، فقال له أبوه: يا بني، إني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا من صبر، وما مرّ بي يوم مثل هذا منذ مارستُ الحروب.

وكسرت الخوارجُ أجفان سيوفها، وتجاوزوا، فأجلت جَولتهم عن عبد ربه مقتولاً. فهرب عمرو القنّا وأصحابه، واستأمن قوم، وأجلت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور، وأمر المهلب أن يدفع كل جريح إلى عشيرته، وظفرَ بسكرهم؛ فحوى مافيه، ثم انصرف إلى جِيفَت، فقال: الحمد لله الذي رَدَّنَا إلى الخفضِ والدَّعة، فما كان عيشنا ذلك العيش ^(٥).

ثم نظر المهلب إلى قوم في عسكريه ولم يعرفهم، فقال: ما أشد عادة السلاح! ناولني دِرْعِي، فلبسها، ثم قال: خذوا هؤلاء؛ فلما صيّرهم إليه، قال: ما أتم! قالوا: جئنا لنطلب غِرَّتَكَ للفتك ^(٦) بك، فأمر بهم فقتلوا.

(١) من السكامل.

(٢) السكامل: « هو وأصحابه » .

(٣) من السكامل.

(٤-٤) السكامل: « وصبر يزيد بين يدي أبيه، وقاتل قتالا شديداً » .

(٥) السكامل: « فما كان عيشنا بعيش » .

(٦) السكامل: « لفتك بك » .

[طَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِ الْمُهَلَّبِ]

ووجه كعب بن معدان الأشقري^(١) ومرة بن بليد الأزدي، فوردا على الحجاج؛ فلما طلعا عليه، تقدم كعب فأنشده^(٢) :

* يَا حَفْصُ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمْ السَّفَرُ^(٣) *

فقال الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: شاعر؛ فأنشده القصيدة؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال: خبرني عن بني المهلب، قال: المغيرة سيدهم وفارسهم؛ وكفي يزيد فارسا شجاعا!

(١) الأشقري: منسوب إلى الأشقر؛ بطن في الأزدي
(٢) قصيدة طويلة؛ يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وجيرت، أوردتها الطبري في تاريخه
٢٧٠ : ٢٧٣
(٣) وبقيته :

* وَقَدْ أَرَقْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهْرُ *

وبعد:

عَلَّقْتَ يَا كَعْبُ بَعْدَ الشَّيْبِ غَانِيَةً	والشيبُ فيه عن الأهواز مُزْدَجَرُ
أُمِّمِكُ أَنْتَ عَنْهَا بِالَّذِي عَهَدْتَ	أَمْ حَبْلُهُمْ إِذْ نَأْتِكَ الْيَوْمَ مَنبَرُ
عَلَّقْتَ خَوْدًا بِأَعْلَى الطَّفِ مَزْلُهُمَا	فِي غُرْفَةٍ دُونَهَا الْأَبْوَابُ وَالْحَجَرُ
دُرْمًا مَنَا كِبَهَا رِيًّا مَا كِمَهَا	تَكَادُ إِذْ نَهَضَتْ لِمَشْيِ تَنْبَتِرُ
وَقَدْ تَرَكَتُ بِشَطِّ الزَّابِيَيْنِ لَهَا	دَارًا بِهَا يَسْعَدُ الْبَادُونَ وَالْحَضْرُ
وَاخْتَرْتُ دَارًا بِهَا حَتَّى أُسْرُ بِهِمْ	مَا زَالَ فِيهِمْ لِمَنْ تَخْتَارُهُمْ خَيْرُ
لِمَانِبْتِ بِي بِلَادِي سِرْتُ مُنْتَجِمًا	وَطَالِبِ الْخَيْرِ مَرْتَادٌ وَمُنْتَظَرُ
أَبَا سَعِيدٍ فَإِنِّي جِئْتُ مُنْتَجِمًا	أَرْجُو نَوَالِكَ لَمَّا مَسَّنِي الضَّرَرُ
لَوْلَا الْمُهَلَّبُ مَا زَرْنَا بِلَادَهُمْ	مَا دَامَتِ الْأَرْضُ فِيهَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ
فَمَا مِنَ النَّاسِ مِنْ حَتَّى عَلِمْتَهُمْ	إِلَّا يَرَى فِيهِمْ مِنْ سَيْبِكُمْ أَثَرُ

وجوادهم وسخيتهم قبيصة ، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مُدرك ، وعبدُ الملك سمّ نافع ، وحيب موت ذُعاف ، ومحمد ليث غاب ؛ وكفالك بالفضل تجدة ! فقال له : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلقتهم بخير ؛ قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حُمّة السّرح فإذا ألبوا ففرسان البيات ، قال : فأفيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يدرى [أين]^(١) طرفاها ، قال : فكيف كنتم أتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم ؛ وإذا اجتهدنا واجتهدوا طبعنا فيهم . قال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، فكيف أفلتكم قَطْرِي ؟ قال :^(٢) كدناه وظنّ أن قد كادنا ، بأن صرنا منه إلى التي نحب^(٣) . قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان حربُ الحاضر آثر عندنا من اتباع الفلّ^(٤) قال : فكيف كان المهلب لكم وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقةُ الوالد ، وله منا برّ الوالد ، قال : فكيف كان اغتباطُ الناس به ؟ قال : نشأ^(٥) فيهم الأمن ، وشملهم النفل^(٥) ، قال : أ كنت أعددت [لي]^(٦) هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلم بذلك حيث بعثك .

هذه رواية أبي العباس .

وروى أبو الفرج في الأغاني^(٧) ؛ أنت كعالمنا أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده

قصيدته التي أولها :

(١) من السكامل .

(٢-٢) السكامل : « كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب » .

(٣) السكامل : « كان الحد عندنا آثر من الفل »

(٤) السكامل : « فشا »

(٥) النفل : الغنية .

(٦) من السكامل

(٧) الأغاني الجزء الرابع عشر ٢٨٤ - ٢٨٥ (طبعة الدار) .

يَا حَفْصُ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمْ السَّفَرُ وَقَدْ سَهَبْتُ وَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ^(١)
 يذكر فيها حروب المهلب مع الخوارج ، ويصف وقائمه فيهم في بلد ؛ وهي طويلة ،
 ومن جملتها^(٢) :

كنا نهون قبل اليوم شأنهم حتى تفاقم أمر كان يُحْتَقَرُ^(٣)
 لَمَّا وَهَمَّا وَقَدْ حَالُوا بِسَاحَتِنَا واستنفر الناس تاراتٍ فما فَرُّوا^(٤)
 نَادَى امرؤٌ لا خلافة في عشيرته ، وَلَيْسَ بِهِ عَن مِثْلِهِ قِصْرُ
 خَبُّوا كَمِينَهُمْ بالسَّفْحِ إِذْ نَزَلُوا بكَازِرُونَ فَمَا عَزَّوْا وَلَا نَصَرُوا^(٥)
 بَاتَتْ كِتَابِنَا تَرْدِي مُسَوِّمَةً حَوْلَ المَهْلَبِ حَتَّى نَوَّرَ القَمْرُ^(٦)
 هُنَاكَ وَلَوْ خَزَايَا بَعْدَ مَا هَزَمُوا وحال دونهم الأنهار والجُدُرُ
 تَأْبَى عَلَيْنَا حَزَايَاتُ النُّفُوسِ فَمَا تُنْبِقِي عَلَيْنَهُمْ وَلَا يُبْقُونَ إِنْ قَدَرُوا

فضحك الحجاج ، وقال : إنك لمنصف يا كعب ، ثم قال له : كيف كانت حالكم
 مع عدوكم ؟ قال : كنا إذا لقيناهم بغيرنا وعهؤم يئسنا^(٧) منهم ، وإذا لقيناهم بجِدِّنا
 وجِدِّهم^(٨) طمعنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلب ؟ قال : حماة الحرير نهارا ،
 وفرسان الليل تيقظا^(٩) ؛ قال : فأين السماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان ، قال :

(١) عداه عن الأمر : صرفه عنه

(٢) قال أبو الفرج بعد أن أورد آياتا منها : « وهي قصيدة طويلة ؛ قد ذكرها الرواة في الخبر ؛
 فذكرت ذكرها لطولها ؛ يقول فيها . . . » وأورد الأبيات .

(٣) في الأغاني قبل هذا البيت :

فَمَا يَجَاوِزُ بَابَ الجَنْسْرِ مِنْ أَحَدٍ قَدْ عَصَّتِ الحَرْبُ أَهْلَ المَصْرِ فَانْجَحِرُوا

(٤) استنفر الناس : استنجدم .

(٥) في الطبري : « عبوا جنودهم » .

(٦) الكتيبة : جماعة الخيل ، وتردى : تضرب الأرض بموافرها .

(٧) الأفاني : « ففروم تأيس لهم » .

(٨) الأفاني : « بمجهدنا وجهدم » .

(٩) الأفاني : « أيقاظا » .

صفهم لى رجلا رجلا. قال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، نار ذاكية ، وصعدة^(١) عالية . وكفى
 يزيد فارسا شجاعا ! ليث غاب ، وبحر جَم العُباب . وجوادهم قبيصة ، ليث المغار ، وحامى
 الذمار . ولا يستحى الشجاع أن يفر من مُدرك ؛ وكيف لا يفر من مدرك ، وكيف لا يفر
 من الموت الحاضر ، والأسد الخادر^(٢) ! وعبد الملك بيم نافع ، وسيف قاطع . وحيب
 الموت الذعاف^(٣) ، طود شامخ ، وبحر باذخ^(٤) . وأبو عينة البطل الهمام ، والسيف
 الحسام ، وكفاك بالفضل تجدة ، ليث هدار وبحر موار^(٥) ! ومحمد ليث غاب ، وحسام
 ضراب . قال : فأيهم أفضل ؟ قال : هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها^(٦) قال : فكيف
 جماعة الناس ؟ قال : على أحسن حال ، أرضاهم العدل ، وأغناهم النقل قال : فكيف
 رضاهم بالمهلب ؟ قال : أحسن رضا ، لا يعدمون^(٧) منه إشفاق الوالد ، ولا يعدم منهم
 برّ الوالد^(٧) . وذكر تمام الحديث .

وقال : إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك ؛
 فأمر له بعشرين ألفا أخرى .
 قال أبو الفرج : وكعب^(٨) الأشقرى من شعراء المهلب ومادحيه ؛ وهو شاعر مجيد .
 قال عبد الملك بن مروان للشعراء^(٩) : تشبهوني مرة بالأسد ، ومرة بالبازي ، ألا قلت كما قال
 كعب الأشقرى للمهلب وولده :

بِرَّكَ اللهُ حِينَ بَرَكَ بَجْرًا وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غَزَارًا

(١) ذك النار : اشتد لهما ، والصعدة : القناة المستوية تبيت كذلك .

(٢) أسد خادر : مقيم في عرينه داخل في الخدر .

(٣) الذعاف : السريع .

(٤) الباذخ : العالى .

(٥) موار : مضطرب .

(٦) في الأصول : « طرفها » ، وسأنتبه من الأغاني .

(٧-٧) الأغاني : « وكيف لا يكونون كذلك ؟ وهم لا يعدمون رضا الوالد ، ولا يعدم منهم برّ الولد »

(٨) الأغاني ١٤ : ٢٨٦ - ٢٨٧

(٩) الأغاني : « كان يقول لشعراء » .

بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالَى إِذَا مَا عَظَمَ النَّاسُ اِخْطَارًا (١)
 كَأَنَّهُمْ نَجْمٌ حَوْلَ بَدْرِ تَكْمَلُ إِذْ تَكْمَلُ فَاسْتَدَارَا (٢)
 مُلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ نَفْرٍ إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طَارَا (٣)
 رِزَانٌ فِي الْخَطُوبِ تَرَمَى عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلِ وَالنَّجَارَا (٤)
 نَجْمٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا أُخُو الْفَعْمَاتِ فِي الظُّلْمَاءِ حَارَا (٥)

قال أبو الفرج : وهذا الشعر من قصيدة لكعب ، يمدح بها المهلب ؛ ويذكر
 الخوارج (٦) ، ومنها :

سَلُّوا أَهْلَ الْأَبَاطِحِ مِنْ قُرَيْشٍ عَنِ الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِ أَيْنَ صَارَا (٧)

(١) الخطار : المرانة .

(٢) الأغاني :

* درارى تكمّل فاستدارا *

(٣) الهام : الرأس .

(٤) في الأغاني : « رزان في الأمور » ، والنجار : الحسب والأصل

(٥) في الأغاني : « أخو الظلماء » .

(٦) ذكر صاحب الأغاني ثلاثة أبيات من أولها ؛ مما فيه غناء :

طَرِبْتُ وَهَاجَ لِي ذَاكَ إِذْ كَارَا بَكْشًا وَقَدْ أَطَلْتُ بِهِ الْحِصَارَا
 وَكُنْتُ أَلَدُّ بَعْضِ الْعَيْشِ حَتَّى كَبِرْتُ وَصَارَ لِي هَمِّي شِعَارَا
 رَأَيْتُ الْغَانِيَاتِ كَرِهْنَ وَصَلِي وَأَبْدَيْنَ الصَّرِيمَةَ لِي جِهَارَا

(٧) الأغاني ١٤ : ٢٩٥ ؛ وذكر قبلها :

غَرِضُنَ بِمَجْلِسِي وَكَرِهْنَ وَصَلِي أُوَانَ كُسَيْتُ مِنْ شَمَطِ عِذَارَا
 زَرَيْنَ عَلَيَّ حِينَ بَدَأَ مَشِيبي وَصَارَتْ سَاحَتِي لِلَّهِمْ دَارَا
 أَتَانِي وَالْحَدِيثُ لَهُ نَمَاءٌ مَقَالَةٌ جَائِرٌ أَحْفَى وَجَارَا

وذكر بعده :

وَمَنْ يَحْمِي الثُّغُورَ إِذَا اسْتَحْرَّتْ حُرُوبٌ لَا يَنْوِنُ لَهَا غَرَارَا

لَقَوْمُ الْأَزْدِ فِي الْعِمْرَاتِ أَمْضَى وَأَوْفَى ذِمَّةً وَأَعَزَّ جَارًا (١)
 ثُمَّ قَادُوا الْجِيَادَ عَلَى وَجَاهِهَا مِنَ الْأَمْصَارِ يَقْذِفْنَ الْمِهَارَا (٢)
 إِلَى كِرْمَانَ بِمَحْمِلِنَ الْمَنَابَا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُوقِدْنَ نَارَا (٣)
 شَوَازِبَ مَا أَصْبْنَا الثَّارِ حَتَّى رَدَدْنَاهَا مَكَلَمَةً مَرَارَا (٤)
 غَدَاةَ تَرْكُنَ مَضْرَعِ عَبْدِ رَبِّ نَتَزَنَ عَلَيْهِ مِنْ رَهْجِ غُبَارَا (٥)
 وَيَوْمَ الرَّحْفِ بِالْأَهْوَاِ ظَلْنَا نُرَوِّى مِنْهُمْ الْأَسَلَ الْحِرَارَا (٦)
 فَفَرَّتْ أَعْيُنٌ كَانَتْ حَزِينَا قَلِيلًا نَوْمُهَا إِلَّا غِرَارَا (٧)
 وَلَوْلَا الشَّيْخُ بِالْمِضْرَيْنِ يَنْفِي عَدُوْمُهُ لَقَدْ نَزَلُوا الدِّيَارَا
 وَلَكِنْ قَارَعَ الْأَبْطَالَ حَتَّى أَصَابُوا الْأَمْنَ وَاحْتَلَوْا الْقَرَارَا (٨)

(١) الأغاني : « لغوى الأزدي » .

(٢) الوجي : الحفي ، وذكر بعده :

بِكُلِّ مَفَاذَةٍ وَبِكُلِّ سَهْبٍ بَسَائِسَ لَا يَرَوْنَ لَهَا مَنَارَا

(٣) الثنية : الطريق في الجبل .

(٤) مكلمة : مجروحة ، وفي الأغاني : « لم يصب » ، وبمده :

وَيَشْجُرُنَ الْعَوَالِي السَّمْرِ حَتَّى تَرَى فِيهَا عَنِ الْأَسَلِ اِزْوَرَارَا

(٥) هو عبد ربه الصغير أمير الأزارقة المذكور قبلا ؛ بمد قطري . وفي الأغاني : « يترن عليه من رهج

عصاراً » ، والمصار هو الفبار .

(٦) الحرار : جمع حران ؛ وهو العطشان .

(٧) حزين ؛ فعيل ، مما يستوى فيه الفرد والثني والجمع ، والمذكر والمؤنث ، وفي الأغاني : « حديثاً » ،

وبمده في الأغاني :

صَنَائِعُنَا السَّوَابِغُ وَالْمَذَاكِي وَمَنْ بِالْمِضْرِ يَحْتَلِبُ الْعِشَارَا

فَهِنَّ يُبِحْنَ كُلَّ حَمَى عَزِيزِ وَيَحْمِينَ الْحَقَائِقَ وَالذَّمَارَا

طَوَالَاتُ الْمُتُونِ يُصَنَّ إِلَّا إِذَا سَارَ الْمَهْلَبُ حَيْثُ سَارَا

(٨) الأغاني :

* أَصَابُوا الْأَمْنَ وَاجْتَنَبُوا الْفِرَارَا *

إِذَا وَهَنُوا وَحَلَّ بِهِمْ عَظِيمٌ يَدُقُّ الْعَظْمَ كَأَن لَّمْ جُبَارًا
 وَمُبَهَّمَةً يَمِيدُ النَّاسُ عَنْهَا تَشَبَّ الْمَوْتَ شَدَّ لَهَا إِزَارًا
 شَهَابٌ تَنْجَلِي الظُّلُمَاءِ عَنْهُ يَرَى فِي كُلِّ مُظْلَمَةٍ مَنَارًا^(١)
 بَرَكَ اللَّهُ حِينَ بَرَكَ بَحْرًا وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غِزَارًا

الآيات المتقدمة .

قال أبو الفرج : وحدثنى^(٢) محمد بن خلف وكيع ، بإسناد ذكره ؛ أن الحجاجَ لما كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الخوارج حينئذ ، ويستبطنه ، ويضعفه ويمجّزه من تأخيره أمرهم ، ومطاولته لهم ، قال المهلب لرسوله : قل له : إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه ، لا لمن يعرفه ؛ فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم - على أن أدبرها كما أرى ، فإذا أمكنتني فرصة اتهمتها ، وإن لم تمكّني توقفت - فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ؛ وإن أردت أن أعملَ برأيك وأنا حاضر وأنت غائب - فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعلى - فابعث من رأيت مكاني . وكتب من قوره بذلك إلى عبد الملك ؛ فكتب عبد الملك إلى الحجاج : لا تعارض المهلب فيما يراه ، ولا تعجله ودعه يدبر أمره .

قال : وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج :

إِنَّ ابْنَ يَوْسَفَ غَرَّهَ مِنْ أَمْرِكُمْ خَفَضُ الْمَقَامِ بِجَانِبِ الْأَمْصَارِ^(٣)
 لَوْ شَاهَدَ الصَّافِينَ حَيْثُ تَلَاقِيَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحِيَّةُ الْأَقْطَارِ
 مِنْ أَرْضِ سَابُورِ الْجَنُودِ وَخَيْلِنَا مِثْلُ الْقَدَاحِ بَرَبْتَهَا بِشِفَارِ

(١) الأغاني : « في كل مظلمة » .

(٢) الأغاني ١٤ : ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

(٣) الأغاني : « غره من غروكم » .

من كلِّ صنديدٍ يُرى بلبانه وَقَعُ الطُّبَاةُ مع انْقِنَا الخَطَّارِ (١)
لَرَأَى مُعَاوَدَةَ الرَّبَّاعِ غَنِيمَةً أزمانَ كانَ محالفَ الإقنارِ
فدع الحروبَ لشيبيها وشبابيها وعليك كلِّ غريرةٍ معطارِ (٢)

فلفت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ،
فأعلم [المهلب] (٣) كعبا بذلك وأوفده إلى عبد الملك من ليته، وكتب إليه يستوهبه منه ؛
فقدم كعب على عبد الملك برسالة المهلب ، فاستنطقه فأعجبه ، وأوفده إلى الحجاج ؛ وكتب
إليه يُقسم عليه أن يصفح ، ويعفو عمَّا بلغه من شعره ؛ فلما دخل قال : إيه يا كعب !

* لَرَأَى مُعَاوَدَةَ الرَّبَّاعِ غَنِيمَةً *

قال : أيها الأمير ، والله لوددتُ في بعض ما شاهدته من تلك الحروب ، وما أوردناه
المهلب (٤) من خطرها أن أنجؤ منها ، وأكون حجاجا أو حائكا ، قال : أولى لك !
لولا قسمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما تقول ؛ الحقُّ بصاحبك ؛ وردّه إلى المهلب (٥) .

قال أبو العباس : وكان (٦) كتاب المهلب إلى الحجاج ، الذي بشره فيه
بالظفر والنصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم] (٧) ؛ الحمد لله الكافي بالإسلام فقدّ ماسواه ، الحاكم بالآل
ينقطع المزيد من فضله ؛ حتى ينقطع الشكر من عباده ؛ أما بعد :

(١) اللبان هنا : الصدر ، والطبابة : جمع طبة ؛ وهي حد السيف . ورمح خضار : ذوا هتزاز شديد .

(٢) امرأة معطار : اعتادت أن تتمهد نفسها بالطيب وتكثر منه .

(٣) من الأغاني .

(٤) الأغاني : « يوردناه » .

(٥) الأغاني : « من وثته » .

(٦) الكامل ٦٩٥ (طبع أوروبا) .

(٧) من الكامل .

فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكُنَّا نحنُ وعدُّونا على حالين مختلفين ، بسرنا منهم أكثر مما بسوءنا ، ويسوؤهم مِنَّا أكثر مما بسرنا ، على اشتداد شوكتهم ؛ فقد كان علا أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونوِّم به الرضيع ، فانهزتُ الفرصة منهم في وقت إمكانها ؛ وأدْنيتُ السواد من ^(١) السواد ، حتى تعارفت الوجوه ؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله ، قُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ؛ فقد فعل الله بالمسلمين خيراً ، وأراحهم من بأسِ الجلاذ ، وثقلَ الجهاد ؛ ولقد كنت أعلم بما قبلك ؛ فالحمدُ لله رب العالمين ؛ فإذا وُردَ عليك كتابي فاقسم في المجاهدين فيهم ، وَنَفَلْ ^(٢) الناس على قدر بلائهم ؛ وَفَضَّلْ مَنْ رَأَيْتَ تَفْضِيلَهُ ؛ وَإِنْ كَانَتْ بَقِيَّةُ مِنَ الْقَوْمِ بَقِيَّةً فَخَلَّفْ خِيلاً تَقُومُ بِأَزَائِهِمْ ، وَاسْتَعْمِلْ عَلَى كِرْمَانٍ مَنْ رَأَيْتَ ، وَوَلِّ الْخَيْلَ شَهْمًا مِنْ وَلَدِكَ ، وَلَا تَرْخَصْ لِأَحَدٍ فِي اللَّحَاقِ بِمَنْزِلِهِ دُونَ أَنْ تَقْدَمَ بِهِمْ عَلَى ، وَعَجَّلِ الْقُدُومَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فولَّى المهلب يزيدَ ابنة كِرْمَانَ ، وقال له : يَا بَنِيَّ ، إِنَّكَ الْيَوْمَ لَسْتَ كَمَا كُنْتَ ؛ إِنَّمَا لَكَ مِنْ كِرْمَانَ مَا فَضَّلَ عَنِ الْحَجَّاجِ ؛ وَلَنْ تَحْتَمِلَ إِلَّا ظَلِيَّ مَا احْتَمَلَ عَلَيْهِ أَبُوكَ ، فَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ تَبِعَكَ ؛ وَإِنْ أَنْكَرْتَ مِنْ إِنْسَانٍ شَيْئًا فَوَجِّهْهُ إِلَىَّ ، وَتَفَضَّلْ عَلَى قَوْمِكَ .

(١) أى قربت ما بين الفريقين .

(٢) قال المبرد : قوله « نفل » أى أقسم بينهم ؛ والنفل : العطية التى تفضل ؛ كذا كان الأصل ؛ وإنما تفضل الله عز وجل بالفنائم على عباده ؛ قال ليلى :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ وَيَا ذَنْ اللَّهِ رَيْثٌ وَعَجَلٌ

وقال جل جلاله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ، ويقال : نَفَلْتُكَ كَذَا وَكَذَا ؛ أى أعطيتك ، ثم

صار النفل لازماً واجباً .

ثم قدم المهلب على الحجاج ، فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر برّه وإكرامه ؛ وقال : يا أهل العراق ، أتم عبيدٌ قنٍ للمهلب ؛ ثم قال : أنت والله كما قال لقيط ^(١) :

فَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ اللَّهُ دَرُّكُمْ رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعًا ^(٢)
 لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ بَيْعْتِهِ هَمٌّ يَكَادُ حِشَاءَ يَقْصِمُ الضَّلْمَا ^(٣)
 لَا مَتْرَفًا إِنْ رَخَاهُ الْعَيْشُ سَاعِدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشْمًا ^(٤)
 مَا زَالَ يَجْلِبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ يَكُونُ مَتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعًا ^(٥)
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ كُلِّي شَرِّرٍ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعًا ^(٦)

وروى أنه قام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير! والله لكأني أسمعُ وهو يقول لأصحابه:

المهلب ؛ والله كما قال لقيط الإيادي ، ثم أنشد هذا الشعر ، فسُرَّ الحجاج حتى امتلأ سروراً ؛ فقال المهلب : أما والله ما كُنَّا أشدَّ من عدونا ولا أحدَ ، ولكن دَمَغَ الحقَّ الباطل ، وفهرت الجماعة الفتنة ، والعاقة للمتقين ^(٧) ؛ وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً لنا مما أحببناه من المعالجة .

(١) هو لقيط بن يعمر الإيادي ؛ من بيعة طويلة ؛ ذكرها ابن السجري في مختاراته ١ - ٦ ؛ أنذر فيها قومه من إياد بنز وكسرى ؛ وكان كاتباً في ديوانه ؛ وأولها :

يَادَارُ عَمْرَةَ مِنْ مَحْتَلِّهَا الْجِرَاعَا هَاجَتْ لِي الْهَمُّ وَالْأَحْزَانُ وَالْوَجَاعَا
 تَامَتْ فَوَادِي بَذَاتِ الْجَزَعِ خَرَعَةً مَرَّتْ تَرِيدُ بَذَاتِ الْعَذْبَةِ الْبَيْعَا

(٢) رحب الذراع: يريد واسع الصدر متباعد ما بين المنسكين، كناية عن قوته وشدة مراسه، وضطلما: أي يحمل الأمر ويقوم عليه .

(٣) ريث بيعته ، أي مقدار ما بيعته .

(٤) المترف : المتنعم السادر في ملأه .

(٥) يجلب أشطره ؛ أي أنه اختبر ضروب الدهر من خير شر وحلو ومر .

(٦) المريرة من الجبال : ما طال واشتد قتله ؛ واستمرت استحكت والشزر : القتل إلى فوق ؛ خلاف اليسر ؛ وهو القتل إلى أيسر ؛ والأول أحكم القتلين ؛ ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته . والضرع : الصغير الضعيف ، والقعم : آخرسن الشيخ .

(٧) الكامل : « لتقوى » .

فقال الحجاج : صدقت ، اذ كر لي القوم الذين ابلوا ، وصف لي بلاءهم ؛ [فأمر
الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج ، فقال لهم المهلب : ما دَخَرَ اللهُ لكم خيراً لكم من عاجل
الدنيا إن شاء الله] (١) ؛ فذكرهم (٢) المهلب على مراتبهم في البلاء ، وتفاضلهم في الفناء ،
وقدم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقبيصة ، والمفضل ، وعبد الملك ، ومحمدا ،
وقال : والله لو واحد يقدمهم في البلاء لقدّمته عليهم ؛ ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . فقال
الحجاج : صدقت ؛ وما أنت أعلم بهم مني ؛ وإن حضرت وغبْتُ ؛ إنهم لسيوفٌ من سيوف
الله . ثم ذكر معن بن المغيرة والرقاد وأشباههما .

فقال الحجاج : من الرقاد (٣) ؟ فدخل رجل طويل أجناً (٤) . فقال المهلب : هذا فارس
العرب ، فقال الرقاد للحجاج : أيها الأمير ؛ إني كنت أقاتل مع غير المهلب ؛ فكنت
كبعض الناس ، فلما صرتُ مع مَنْ يُلزمُني الصبر ، ويجعلني أسوةً لنفسه وولده ؛ ويجازيني
على البلاء ؛ صرت أنا وأصحابي فرسانا .

فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم ؛ على قدر بلاءهم ؛ وزاد ولد المهلب ألفين ألفين ،
وفعل بالرقاد وبجاعة شبيهاً بذلك .

وقال يزيد بن حنّاء من الأزارقة :

دَعِيَ اللّوْمَ إِنَّ العَيْشَ لَيْسَ بِدَائِمٍ وَلَا تَعْجَلِي بِاللّوْمِ يَأْمٌ عَاصِمٌ
فَإِنَّ مَجِيئَتُ مَنْكَ المَلَامَةُ فَاسْمِعِي مَقَالَةَ مَعْنِي بِحَقِّكَ عَالِمٌ
وَلَا تَعْذُلِينَا فِي الهِدْيَةِ إِنَّمَا تَكُونُ الهِدَايَا مِنْ فُضُولِ المَغَامِ

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « ثم ذكرهم » .

(٣) الكامل : « أين الرقاد » .

(٤) أجناً ، من الجنأ ، بالتحريك ؛ وهو ميل في الظهر .

وليس بمهدٍ من يكون نهاره
يريد ثوابَ الله يوماً بطغنة
أبيتُ وسِرُّ بآلي دِلاصٍ حصينة
حلفتُ بربِّ الواقفين عشيّة
لقد كان في القوم الذين لقيتهم
توقدُ في أيديهم زاعبية
(١) جِلاداً ، ويُمسى ليله غيرَ نائمٍ
(٢) غموسٍ كشدقِ العنبري بن سالمٍ
(٣) ومفقرها ، والسيفُ فوق الحيازِمِ
لدى عَرَقاتِ حلفَةٍ غيرِ آثمٍ
(٤) بسابورَ شغلٍ عن بُروز اللطائمِ
(٥) ومُرَهفةٌ تفرى شؤونَ الجاجِمِ

وقال الخيرة الحنظلي من أصحاب المهلب :

إني امرؤٌ كَفَنِي رَبِّي وَأَكْرَمَنِي
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما
ما عَاقَنِي عَنْ قَوْلِ الْجُنْدِ إِذْ قَفَلُوا
وَلَوْ أَرَدْتُ قَوْلًا مَا تَجَمَّعَنِي
إِنَّ الْمَهْلَبَ إِنْ أَشْتَقَ لِرُؤْيَيْهِ
أَنَّهُ الْأَرِيبُ الَّذِي تُرْجَى نَوَافِلُهُ
وَالْقَاتِلُ الْفَاعِلُ الْمِيمُونُ طَائِرُهُ
أزمان كَرَمَانٍ إِذْ غَصَّ الْحَدِيدُ بِهِمْ
عن الأمور التي في غيِّها وخمٌ
عاشتُ رجالٌ وعاشتُ قبلها أمٌ
عِيٌّ بِمَا صَنَعُوا حَوْلِي وَلَا صَمَمٌ
إِذْنُ الْأَمِيرِ وَلَا الْكُتَّابُ إِذْ رَقَمُوا
أَوْ أَمْتَدَحَهُ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ عَلِمُوا :
والمستنيرُ الَّذِي تُجَلَّى بِهِ الظُّلَمُ
أَبُو سَعِيدٍ إِذَا مَا عُدَّتِ النَّعَمُ
وَإِذْ تَمَنَّى رِجَالٌ أَنَّهُمْ هُزِمُوا

- (١) قال البرد : « يريد يمسى هو في ليله ، ويكون هو في نهاره ؛ ولكنه جعل الفعل ليل والنهار على السعة ؛ وفي القرآن : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والمعنى : بل مكرهم في الليل والنهار .
- (٢) قال البرد : قوله غموس ، يريد واسعة ، والعنبري بن سالم رجل منهم ؛ كان يقال له الأشدق .
- (٣) الدلاص : الدرع اللساء اللينة .
- (٤) اللطائم ، واحدها لطيمة ؛ وهي الإبل التي تحمل البز والطر .
- (٥) زاعبية ؛ يعنى الرماح . والزاعبية : منسوبة إلى زاعب ؛ وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح وتفري : تقد .
- (٦) الكامل : « في رعيها وخم » .
- (٧) الكامل : « عني بما صنعوا مجز ولا بهم » .

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلب :

أبا سعيدٍ جزاك اللهُ صالحيةً فقد كُفيتَ ولم تَعُفْ على أحدٍ (١)
داويتَ بالحلمِ أهلَ الجَهْلِ فَأَنْقَمُوا وكنْتَ كالوالدِ الحانيِ على الولدِ

وقال عبيدة بن هلال الخارجي يذكر رجلا من أصحابه :

يَهْوِي فترفعهُ الرِّمَاحُ كأنه سَلَوٌ تَنْشَبُ في بِخَالِبِ ضَارٍ (٢)
يَهْوِي صرِيحاً والرِّمَاحُ تَنْوُشُه إن الشُّرَاةَ قَصِيْرَةَ الأَعْمَارِ (٣)

[شبيب بن يزيد الشيباني]

ومنهم (٤) شبيب بن يزيد الشيباني ؛ وكان في ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرح ، أحد الخوارج الضُّفْرِيَّة ؛ وكان ناسكا مصفرا الوجه ، صاحب عبادة ، وله أصحاب يقرئهم القرآن ، ويفقههم ويقص (٥) عليهم ؛ ويقدم الكوفة ، فيقيم بها الشهر والشهرين . وكان بأرض الموصل والجزيرة ؛ وكان إذا فرغ من التحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله ، ذكر أبا بكر فأنشئ عليه ، وثني بعمْر ، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه ؛ ثم عليا عليه السلام وتحكيمة الرجال في دين الله ؛ ويتبرأ من عثمان وعلي ، ثم

(١) لم تمنف ، من المنف ، وهو الشدة .

(٢) الشلو : العضو :

(٣) الكامل « فتوى صريحا » .

(٤) نقل المؤلف أخبار شبيب من تاريخ الطبري ٧ : ٢١٧ ، وما بعدها أحيا بنصه ، وأحيانا مع

تصرف واختصار

(٥) في الطبري : « فكان قبيصة بن عبد الرحمن حدث أصحابنا أن قصص صالح بن مسرح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ؛ فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ؛ ففعل ؛ وكان قصصه : الحمد لله رب العالمين ، الذي خلق السموات والأرض . . . » ؛ ثم أورد نص الكتاب ؛ وآخره : « جعلنا الله ولياكم من الشاكرين الناكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » ؛ وقد أوردته المؤلف ملخصا .

يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال ، وقال : تيسرُوا يا إخواني للخروج من دَارِ الفناء إلى دار البقاء ؛ واللّٰحق ياخواننا المؤمنين ؛ الذين باعوا الدنيا بالآخرة ؛ ولا تجزَعُوا من القتل في الله ، فإنّ القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم ؛ مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ؛ وإن اشتدّ لذلك جزعُكم ؛ ألا فيبيعوا أنفسهم طائعين ؛ وأموالكم تدخلوا الجنة ... وأشياء هذا من الكلام .

وكان فيمن يحضره من أهل الكوفة سُويدَ والبَطين ؛ فقال يوماً لأصحابه : ماذا تنتظرون ؟ ما تزيد أئمة الجور إلا عتواً وعلواً ، وتباعدوا من الحق ، وجرأةً على الرّب ؛ فراسلوا إخوانكم حتى يأتوكم ؛ وننظر في أمورنا ما نحن صانعون . وأمى وقت إن خرجنا نحن خارجون .

فبينما هو كذلك إذ أتاه المجللُ بن وائل ^(١) بكتاب من شبيب بن يزيد ؛ وقد كتب إلى صالح :

أما بعد ؛ فقد [أردت الشخصوص ، وقد] ^(٢) كنت دعوتني إلى أمرٍ أستجيب ^(٣) لك ؛ فإن كان ذلك ^(٤) من شأنك ، فإنك شيخ المسلمين ، ولم يعدل بك منا أحد ^(٥) ؛ وإن أردت تأخر ذلك أعلمني ^(٦) ؛ فإن الآجال غادية ورائحة ؛ ولا آمنُ أن تخترمني المنية ؛ ولما أجاهد الظالمين ؛ [فياله غبنا ! وياله فضلا !] ^(٧) ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه [ورضوانه والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين في دار السلام] ^(٨) . والسلام عليك .

(١) ب : « قائد » ؛ وما أتبعه عن ا ، ج والطبرى .

(٢) تسكلمة من تاريخ الطبرى .

(٣) الطبرى : « فاستجبت لك » .

(٤) الطبرى : « فإن كان ذلك اليوم » .

(٥) الطبرى : « ولن يعدل بك منا أحدا » .

(٦) الطبرى : « وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتني » .

فأجابه صالح بجواب جميل ؛ يقول فيه ^(١) : إنه لم يمنعني من الخروج مع ما أنا فيه من الاستعداد إلا انتظارك ؛ فاقدم علينا ، ثم اخرج بنا ، فإنك تمن لا تقضى الأمور دونه ؛ والسلام عليك ^(٢) .

فلما ورد كتابه على شبيب ؛ دعا القراء من أصحابه ؛ فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد ، والمجلى بن وائل ، والصقر بن حاتم ، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم ^(٣) ؛ ثم خرج حتى قدم على صالح بن مسرح ؛ وهو بدارات ^(٤) أرض الموصل ؛ فبث صالح رسله ، وأوعدهم بالخروج ؛ في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين .

فاجتمع بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا عنده تلك الليلة ؛ فحدث فروة ^(٥) بن لقيط ؛ قال : إني لمعهم تلك الليلة عند صالح ^(٦) ؛ وكان رأيي استعراض الناس ؛ لِمَا رأيتُ من السكر والفساد في الأرض ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، كيف تَرَبَّى السَّيْرَةَ في هؤلاء الظلمة ؛ أنقذتهم قبل الدعاء ، أم ندعوهم قبل القتال ؟ فإني أخبرك برأيي فيهم قبل أن تخبرني بذلك ؛ إنا نخرج على قوم طاعين ؛ قد تركوا أمر الله ، وأراضين بذلك ، فأرى أن نضع السيف ؛ فقال : لا ، بل ندعوهم ؛ ولنعمري لا يجيبك إلا مَنْ يرى رأيك ؛ وليقاتلنك مَنْ يُزِرِّي عليك ؛ والدعاء أقطع لحجتهم ، وأبلغ في الحجة عليهم لك . فقلت :

(١-١) الكتاب كما في الطبري : « أما بعد ؛ فقد كان كتابك وخبرك أبطأ عني ؛ حتى أهمني ذلك ؛ ثم إن أميراً من أمراء المسلمين نبأني بنياً مخرجك ومقدمك ؛ فحمد الله على قضاء ريننا ؛ وقد قدم على رسولك بكتابك ؛ فكل ما فيه قد فهمته ، ونحن في جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعني من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى أحببت ، فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ، ولا تقضى دونه الأمور ، والسلام » .

(٢) في الطبري : « وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بني علم والفضل بن عامر من بني ذهل ابن شيبان » .

(٣) في حواشي ج : « الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، ومن الرمل ما استدار معه وجهه دارات ودور » ، وفي الطبري : « قدم على صالح بدارا » .

(٤) في الطبري : « قال أبو مخنف : فحدثني فروة بن لقيط » .

(٥) كذا في الأصول ، وفي الطبري : « قال - أي فروة - والله إني لمع شبيب بالمدائن ، إذ حدثنا عن مخرجهم ، قال : لما همنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج ، فكان رأيي استعراض الناس إلى آخر الخبر مع اختلاف في الرواية .

وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به ؟ وما تقول في دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إن قتلنا وغنمنا فلنا ، وإن تجاوزنا وغفونا فموسع علينا .

ثم قال صالح ^(١) لأصحابه ليلته ^(٢) تلك : اتقوا الله عباد الله ، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس ؛ إلا أن يكونوا [قوما] ^(٣) يريدونكم [وينصبون لكم] ^(٤) ؛ فإنكم إنما خرَجْتُمْ غَضَبًا لله حيث انتهكت محارمه ؛ وعُصِيَ في الأراض ، ^(٥) وسفكت الدماء بغير حقها ، وأخذت الأموال غَضَبًا ^(٦) فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملونها ^(٧) ؛ [فإن كل ما أتم عاملون أتم عنه مسئولون ، وإن عظمكم رجالة] ^(٨) ، وهذه دواب محمد بن مروان في هذا الرُستاق ^(٩) ؛ ^(١٠) ، وابدءوا بها فاحلوا عليها راجلكم ، وتقووا بها على عدوكم ^(١١)

ففعولوا ذلك ، وتحصن منهم أهل دارا ^(١٢) .

وبلغ خبرهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة ، فاستخف بأمرهم ؛ وبعث إليهم عدى بن عميرة في خمسمائة ، وكان صالح في مائة وعشرة ؛ فقال عدى : أصلح الله

(١) الخبر في الطبري عن أبي مخنف أيضا عن رجل من بني علم .

(٢) الطبري : « ليلة خرج » .

(٣) من الطبري .

(٤-٤) الطبري : « فسفكت الدماء بغير حلها ، وأخذت الأموال بغير حقها » .

(٥) الطبري : « تعملون بها » .

(٦) الرستاق - فيما ذكره حمزة بن الحسن - مشتق من « روضة فستا » ، وروذه : اسم للسطر والصف والسماط . وفستا : اسم للحد ، والمعنى أنه على التسطير والنظام . قال ياقوت : والذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يسمون بالرستاق كل موضع فيه زارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد « معجم البلدان ١ : ٣٧ » .

(٧-٧) الطبري : « فابدءوا بها ، فشدوا عليها ، فاحلوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم » .

(٨) الطبري : « أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجان ، وخرج صالح ليلة خرج في مائة وعشرين ،

وقبل : في مائة وعشرة » .

الأمير ! تبعثنى إلى رأس الخوارج [منذ عشرين سنة]^(١) ، ومعه رجالٌ شُموالي [كانوا
بمازوتنا]^(٢) ؛ وإن الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة ! فقال له : إني أزيدك
خمسمائة ، فسرّ إليهم في ألف فارس .

فسار من حَرَان في ألف رجل ؛ وكأتمنا يساقون إلى الموت - وكان عدى رجلاً
ناسكا^(٣) - فلما نزل دَوغان^(٤) نزل بالناس ، وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسه إليه
فقال : إن عدياً بعثنى إليك يسألك أن تخرج عن هذا البلد ، وتأوى بلداً آخر فتقاتل
أهله ؛ فإني للقتال كاره ، فقال له صالح : ارجع إليه ، فقل له : إن كنت ترى رأينا ، فأرنا
من ذلك مانع ، ثم نحن مُدْجِلون^(٥) عنك ، وإن كنت على رأى الجبايرة وأئمة السوء ،
رأينا رأينا ، فإما بدأنا بك ، وإلا رَحَلْنَا إلى غيرك .

فانصرف إليه الرسول ، فأبلغه ، فقال له عدى : ارجع إليه فقل له : إني والله لا أرى
رأيتك ، ولكنى أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين^(٥) .

فقال صالح لأصحابه : اركبوا ، فركبوا ، واحتبس الرجل عنده ، ومضى بأصحابه حتى
أتى هدياً في سوق دَوغان ؛ وهو قائم بصلّى الضحى ، فلم يشعر إلا بالخليل طالعة عليهم ؛
فلما دنا صالح منهم ، رآهم على غير تعبية^(٦) ، وقد تنادوا ، وبعضهم يجولُ في بعض ،
فأمر شيبيا فحمل عليهم في كتيبة ، ثم أمر سُوَيْدًا فحمل في كتيبة ، فكانت هزيمتهم ،

(١) من الطبرى

(٢) الطبرى : « بتسك » .

(٣) دوغان : قرية بين رأس عين ونصيبين ، كانت سوقاً لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها مرة في كل
شهر . (مراسد الاطلاع) .

(٤) الدج والدجة : السير آخر الليل .

(٥) في الطبرى بعدها : « فقاتل غيرى » .

(٦) عبأ الجيش للحرب تعبته : هياه وجهزه ، يقال بالهمز وبغير الهمز .

وأنى عدىٰ بدابته فركبها ، ومضى على وجهه ، واحتوى صالح على عسكره وما فيه ،
 وذهب فلئ عدىٰ حتى لحقوا بمحمد بن مروان ، فغضب ، ثم دعا بمخالد بن جزء السلمى ،
 فبعثه فى ألف وخمسمائة ، ودعا الحارث بن جعونة فى ألف وخمسمائة ، وقال لهما : اخرجا
 إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة ، ومجلا [الخروج ، وأغذا السير] ^(١) فأبىكما سبق ، فهو
 الأمير على صاحبه ، فخرجا وأغذا ^(٢) فى السير ، وجعلا بسألان عن صالح ، فقيل لهما :
 توجه نحو آمد ^(٣) ، فاتبعاه حتى انتهىا إليه بآمد ، فنزلا ليلا ، وخندقا وهما متساندان ؛ كل
 واحدٍ منهما على حدته ، فوجه صالح شيبيا إلى الحارث بن جعونة فى شطر أصحابه ، وتوجه
 هو نحو خالد السلمى ، فاقتتلوا أشد قتال اقتتله قوم ، حتى حجز بينهم الليل ؛ وقد انتصف
 بعضهم من بعض .

فتحدث بعض أصحاب ^(٤) صالح ، قال : كنا إذا حملنا عليهم استقبلنا رجالهم بالرمح ،
 ونضحنا ^(٥) رماهم بالنبل ، وخيلهم تطاردنا فى خلال ذلك ، فانصرفنا عند الليل ، وقد
 كرهناهم وكرهونا ، فلما رجعنا وصلينا وتروحنا وأكلنا من الكسر ^(٦) ، دعانا صالح
 وقال : يا خلائى ، ماذا ترون ؟ فقال شبيب : إننا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون
 بخندقهم ، لم نزل منهم طائلا ، والرأى أن نرحل عنهم ، فقال صالح : وأنا أرى ذلك ؛
 فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة ، وأرض الموصل ، ومضوا حتى قطعوا
 أرض الدسكرة . فلما بلغ ذلك الحجاج سرح عليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف ،

(١) من الضبرى .

(٢) أغذا فى السير : أسرع فيه .

(٣) آمد ، بكسر الميم : بلد قديم حصين ، تحيط دجلة بأكثره . مراد الاطلاع .

(٤) فى الضبرى : « قال أبو مخنف : حدثنى الخلمى قال . . . » وأورد الخبر باختلاف فى الرواية

(٥) النضح : الرمى بالنبل .

(٦) الكسرة : القضة من الخبر ، وجمعه كسر .

إلى الباب ، وجدوه جَراً ، فأتوه باللبود^(١) فبلّوها بالماء ، ثم ألقوها عليه وخرجوا ، فلم يشمر الحارث بن عميرة إلا وشيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف عسكرهم ، فضارب الحارث حتى صرع ، واحتمله أصحابه ، وانهمزوا وخلّوا لهم المسكر وما فيه ، ومضوا حتى نزلوا المدائن ، وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شيب^(٢) .

[دخول شيب الكوفة وأمره مع الحجاج]

ثم ارتفع في أداني أرض الموصل^(٣) ، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يجي الخراج ، وكان سفیان بن أبي العالیه قد أمر أن يحارب صاحب طبرستان ، فأمر بالقبول نحو شيب ، وأن يصلح صاحب طبرستان ، فصالحه ، فأقبل في ألف فارس ، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج :

^(٤) أما بعد ، فأقم بالدسكرة فيمن معك ؛ حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة . قاتل صالح بن مسرح ، ثم سِر إلى شيب حتى تناجزه^(٥) .

ففعل سفیان ذلك ، ونزل إلى الدسكرة حتى أتوه ، وخرج مرتحلاً في طلب شيب ، فارتفع شيب عنهم ، كأنه يكره قتالهم ولقائهم ؛ وقد أكنّ لهم أخاه مصاداً في خمسين رجلاً ، في هضم^(٥) من الأرض ، فلما رأوا شيباً جمع أصحابه ، ومضى في سفح من الجبل

(١) اللبد : كل شعر أوصوف . تبلد ، سمي به للصوق بهضه ببعض ، وجمه لبود .

(٢) في الطبري بعدها : « وأصيب صالح بن مسرح يوم الثلاث لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته » .

(٣) في الطبري بعدها : « ونحوم أرض جوحى »

(٤-٤) الكتاب كما في الطبري : « أما بعد فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك ، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الهمداني بن ذى الشعار ، وهو الذي قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر ، ثم سر إلى شيب حتى تناجزه » .

(٥) الهضم : السكبان المضمّن من الأرض ، وفي الطبري : « هزمه » .

مشرقاً ، قالوا : هرب عدو الله ، واتبعوه . فقال لهم عَدِيّ بن عميرة الشيبانيّ : أيّها الناس ؛ لا تعجلوا عليهم حتى نضرب في الأرض ونستبرئها^(١) ؛ فإن يكونوا أكنوا كميناً حذرناهم ؛ وإلا كان طلبهم بين أيدينا ، لن يفوتنا . فلم يسمعوا منه ، فأسرعوا في آثارهم .

فلما رأى شيبب أنهم قد جازوا الكمين ، عطّف عليهم ، فحملَ من أمامهم ، وخرج الكمين من ورائهم ؛ فلم يقاتل^(٢) أحد ؛ وإنما كانت الهزيمة ، وثبت سُفيان بن أبي العالية في مائتي رجل ؛ فقاتل^(٣) قتالا شديدا حتى انتصفَ من شيبب^(٤) ؛ فقال سويد بن سليم لأصحابه : أمّنكم أحد يعرف أميرَ القوم ابن أبي العالية^(٥) ؟ فقال له شيبب : أنا من أعرّف الناس به ، أما ترى صاحبَ الفرسِ الأغر الذي دونه المرامية فإنه هو ،^(٥) فإن كنتَ تريده فأمهله قليلا .

ثم قال : يا قَعْنَب ، اخرج في عشرين ، فأتهم من ورائهم . فخرج قَعْنَب في عشرين فارتفع عليهم ، فلما رأوه يريد أن يأتهم من ورائهم ، جعلوا ينتقصون ويتسلّلون ، وحملَ سويد بن سليم على سُفيان بن أبي العالية^(٦) بطاعته ، فلم تصنع رماحهما شيئا ، ثم اضطربا بسيفيهما ، ثم اعتنق كل واحدٍ منهما صاحبه ، فوقعا إلى الأرضِ بعتريّ كان ، ثم تحاجزا ، وحملَ عليهم شيبب ؛ فأنكشف مَنْ كان مع سُفيان ؛ ونزل غلام له يقال له غَزْوَان عن برذونه ، وقال لسفيان : اركب يا مولاي ، فركب سُفيان ، وأحاط به أصحابُ شيبب ، فقاتل دونه غزوان حتى قُتِل ، وكان معه رايته ، وأقبل سُفيان منهزما ؛ حتى انتهى

(١) يقال : استبرأ أرض بني فلان ، إذا سار فيها وانتهى إلى آخرها . وفي الطبري : « سير بها » .

(٢) الطبري : « فلم يقاتلهم أحد » .

(٣-٣) الطبري : « فقاتلهم قتالا شديدا حسنا حتى ظن أنه انتصف من شيبب وأصحابه » .

(٤) في الطبري بعدها : « فوالله لئن عرفته لأجهدن نفسي في قتله » .

(٥) الطبري : « فإنه ذلك » .

(٦) الطبري : « قطعاه » .

إلى بابل مهزود ، فنزل بها ؛ وكتب إلى الحجاج^(١) ، وكان الحجاجُ أمرَ سَوْرَةَ ابن أبحر أن يلحق بسفيان ، فكاتبَ سَوْرَةَ سفيانَ ، وقال له : انتظرني ؛ فلم يفعل ومجى نحو الخوارج ، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان ، وقرأ كتابه ، قال للناس : مَنْ صنع كما صنع هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن . ثم كتب إليه يمهذره^(٢) ، ويقول : إذا خفَّ عليك الوَجَعُ فأقبلْ مأجورا إلى أهلك . وكتب إلى سَوْرَةَ بن أبحر :

^(٣) أما بعد يا بن أم سَوْرَةَ ، فما كنتَ خليقا^(٤) أن تجترىءَ على تركِ عهدي ، وخذلانِ جُندي ، فإذا أتاكَ كتابي فابعث رجلا مِن مَعكَ صليبا إلى^(٥) المدائن ، فلينتخبَ من جندها خمسمائة رجل ، ثم ليقدم بهم عليك ، [ثم سِرْ بهم]^(٥) حتى تَنَاقَى هذه المارقة ، واحزم [في]^(٥) أمرِك ، وكِدْ عَدُوْكَ ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ أَمْرِ الْحَرْبِ حُسْنُ الْمَسْكِيَةِ . والسلام .

فلما أتى سَوْرَةَ كتابُ الحجاج بعث عدى بن عمير إلى المدائن ، وكان بها ألف فارس ، فانتخب منهم خمسمائة ، ثم رحل بهم^(٧) حتى قدم على سَوْرَةَ ببابل مهزود ،

(١) كتابه إلى الحجاج كما في الطبري : « أما بعد ؛ فإن أخير الأمير أصلحه الله ! أتى اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فبينما نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غيبا عنهم ، فحملوا على الناس فهزموهم ، فنزلت في رجال من أهل الدين والصبر ، فقاتلتهم حتى خربت بين القتلى ، فحملت مرتثا ، فأتى بي بابل مهزود ، فها أناها والجنود الذين وجههم الأمير وانفوا لاسورة بن أبحر ، فإنه لم يأتني ، ولم يشهدمى ، حتى إذا ما نزلت بابل مهزود أتاني يقول ما لا أعرف ، ويهتذر بغير العذر والسلام . »

(٢) كتاب الحجاج إلى سفيان كما في الطبري : « أما بعد . فقد أحسنت البلاء ، وقضيت الذي عليك ، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورا إلى أهلك . والسلام . »

(٣-٣) الطبري : « أما بعد فيا بن أم سَوْرَةَ ، ما كنت خليقا أن تجترىء على . »

(٤) الطبري : « إلى الخيل التي بالمدائن . »

(٥) من الطبري .

(٦) عبارة الطبري : « ثم دخل على عبد الله بن أبي عصفير ، وهو أمير المدائن إمارته الأولى ، فسلم عليه ، فأجازه بألف درهم ، وحمله على فرس وكساه أثوابا ، ثم لأنه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه ، حتى قدم بهم على سَوْرَةَ . . . »

فخرج بهم في طلب شبيب، وخرج شبيب يَجُولُ في جُوخى^(١)، وسورة في طلبه، فجاء شبيب إلى المدائن فتحصن منه أهلها فاتهب المدائن الأولى، وأصاب دواباً من دواب الجند، وقتل من ظهر له، ولم يدخل البيوت، ثم أتى فقيل له: هذا سورة قد أقبل إليك، فخرج في أصحابه حتى [انتهى إلى النهروان، فنزلوا به وتوضؤوا وصلوا، ثم]^(٢) أتوا مصارع إخوانهم الذين قتلهم على بن أبي طالب، فاستغفروا لهم، وتبرءوا من علي وأصحابه، وبكوا فأطالوا البكاء، ثم عبروا جسر النهروان، فنزلوا جانبه الشرقي، وجاء سورة حتى نزل بنفطرا^(٣) وجاءته عيونهم، فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان، فدعا سورة رؤوس أصحابه، فقال لهم: إن الخوارج قلما يُلقون في صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا، وقد حدثت أنهم لا يزيدون على مائة رجل؛ وقد رأيت أن أتخبكم، وأسير في ثلثمائة رجل منكم، من أقويائكم وشجعانكم فأبيتكم^(٤) فإنهم آيسون من بيأتكم^(٥)، وإني والله أرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم في النهروان من قبل، فقالوا: اصنع ما أحببت.

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلثمائة من شجعان أصحابه، ثم أقبل بهم حتى قرب من النهروان، وبات وقد أذكى الحرس، ثم بيئهم؛ فلما دنا أصحاب سورة منهم نذروا^(٥) بهم؛ فاستووا على خيولهم، وتعبوا تعبيتهم؛ فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه، أصابوهم، وقد نذروا، فحمل عليهم سورة، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم

(١) جوخى، بالقصر وقد يفتح: نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه لزدان، وهو بين خاتين وخوزستان، قالوا: ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم، حتى صرفت دجلة عنها لغربت، وأصابهم بعد ذلك طاعون شيرون فأثر عليهم، ولم يزل السواد في إدمار من ذلك الطاعون. مرصد الإطلاع ١: ٣٥٥

(٢) من الطبرى.

(٣) كذا في الأصول وفي الطبرى: «قطرانا».

(٤-٤) الطبرى: «فأبيتكم الآن فإنهم آمنون لبياتكم».

(٥) نذروا بهم: علموا بهم وفي ج: «حذروا».

حتى تركوا له العرصة ، وحمل شيب ، وجعل يضرب ويقول :

﴿ مَنْ يَنْكِ الْعَيْرَ يَنْكِ نَيْبًا كَا ^(١) ﴾

فرجع ^(٢) سورة مفلولا ، قد هزم فرسانه وأهل القوة من أصحابه، وأقبل نحو المدائن ، وتبعه شيب ؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن ؛ وانتهى شيب إليهم ، وقد دخل الناس البيوت ، وخرج ابن أبي عصفير ؛ وهو أمير المدائن يومئذ في جماعة ، فلقبهم في شوارع المدائن ، ورماهم الناس بالنبل والحجارة من فوق البيوت .

ثم سار شيب إلى تكريت ^(٣) ، فبينما ذلك الجند بالمدائن إذ أُرْجِفَ ^(٤) الناس فقالوا : هذا شيب قد أقبل يريد أن يبيت أهل المدائن ، فارتحل عامة الجند ، فلحقوا بالكوفة ، ^(٥) وإن شيبا بتكريت ، فلما أتى الحجاج ^(٥) الخبر ، قال : قبح الله سورة ! ضيع العسكر وخرج يبيت الخوارج ؛ والله لأسوءه ^(٦) .

(١) بقيته في الطبرى :

﴿ جَنْدَلَتَانِ اصْطَكْتَا اصْطِكَا كَا ﴾

(٢-٢) الطبرى : « فرجع سورة إلى عسكره ، وقد هزم انفرسان وأهل القوة ، فتحمل بهم حتى أقبل بهم نحو المدائن ، فدفع إليهم وقد تحمل وتمدى الطريق الذى فيه شيب ، واتبعه شيب ، وهو يرجو أن يلحقه فيصيب عسكره ، ويصيب بهزئته أهل العسكر ؛ فأخذ السير في صلبهم ، فانتهوا إلى المدائن فدخلوها ، وجاء شيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن فدفع إليهم وقد دخل الناس ، وخرج ابن أبي عصفير في أهل المدائن ، فرماه بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة ، فارتفع شيب بأصحابه عن المدائن ، فرعى كلوذا فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج ، فأخذها ، ثم أخذ يسير في أرض جوحى ثم مضى نحو تكريت ... » .

(٣) أُرْجِفَ القوم ، أى خاضوا في الأخبار السيئة ، وذكر القتن ، على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شئ ، وفى القرآن الكريم : ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ .

(٤) فى الضبرى عن عبد الله بن علقمة الخثعمى : « والله لقد هربوا من المدائن ، وقالوا : نبيت الليلة ، وإن شيبا لتكريت ، ولما أتى الفل على الحجاج ، سرح الجزل بن سعيد بن شرحبيل بن عمرو الكندى » .

(٥) فى الضبرى : « عن فضيل بن خديج الكندى : أن الحجاج لما أتاه الفل قال . . . » .

(٦) فى الضبرى : « وكان قد حبه ثم عفا عنه » .

ثم دعا الحجاج بالجزل ؛ وهو عثمان بن سعيد ، فقال له : تيسر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتهم فلا تعجل عَجَلَةَ الخرقِ النَّزِقِ^(١) ، ولا تحجم إحجام الوانى الفرقِ^(٢) ، أفهمت^(٣) ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير قد فهمت ؛ قال : فاخرج عَسْكَرَ بَدَيْرِ عبد الرحمن حتى يخرج الناس إليك ، فقال : أصلح الله الأمير ! لا تبعثُ معي أحداً من الجند المهزوم المفلول ، فإنَّ الرعبَ قد دخل قلوبهم ، وقد خشيت ألا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ ، قال : ذلك لك ؛ ولا أراك إلا قد أحسنتَ الرأى ، ووَقَّعتُ ؛ ثم دعا أصحابَ الدواوين ، فقال : اضربوا على النَّاسِ البعث ، وأخرجوا أربعة آلاف من الناس ، وعَجَّلوا ، فجمعت العرفاء ، وجلس أصحابُ الدواوين ، وضرَبوا البعث ، فأخرجوا أربعة آلاف ، فأمرهم باللاحاق بالهسكر ؛ ثم نُودى فيهم بالرحيل ؛ فارتحلوا ، ونادى منادى الحجاج : أنْ بَرِئتِ الدِّمَةُ مِنْ رَجُلٍ أَصْبَنَاهُ مِنْ بَعَثِ الْجَزْلِ متخطفاً .

فمضى بهم الجزل ، [وقد قدَّم بين يديه عياض بن أبى لينة الكندى على مقدمته فخرج]^(٤) ؛ حتى أتى المدائن ، فأقام بها ثلاثاً ؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبى عصفير بقرس وبرذون وألني درهم ، ووضع للناس من الحطب^(٥) والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام ، وأضاف الناس ما شاءوا من ذلك .

ثم إنَّ الجزل خرج بالناس إثرَ شبيب ، فطلبه في أرض جُوخَى ، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة ، فيخرج من رُسْتاقٍ إلى رُسْتاقٍ ، ومن طَشُوجٍ إلى طَشُوجٍ [ولا يقم له]^(٤) ،

(١) الحرق : الرجل الأحمق ، والنزق : الطائش الخفيف عند الغضب .

(٢) الفرق : الشديد الفزع .

(٣) في الطبرى بعدها : « لله أنت يا أخا بنى عمرو بن معاوية » .

(٤) من انطبرى .

(٥) الطبرى : « الجزر » .

يريد بذلك أن يفرّق الجزل أصحابه ، ويتمجّل إليه فيلقاه في عدّد يسير على غير تعبئة ؛ فجعل الجزل لا يسير إلا على تعبئة ؛ ولا ينزل إلا خندق على نفسه وأصحابه ؛ فلما طال ذلك على شيب ، دعا يوماً أصحابه ؛ وهم مائة وستون رجلاً ، وهو في أربعين ، ومصاد أخوه في أربعين ، وسويد بن سليم في أربعين ، والمجمل بن وائل في أربعين ؛ وقد أتته عيونته [فأخبرته] ^(١) ، أن الجزل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد ^(٢) . فقال لأخيه وللأمرء الذين ذكرناهم : إنى أريد أن أبيت الليلة هذا العسكر ، فأتهم أنت يا مصاد من قبل حلوان ^(٣) ، وسأتهم أنا من أمامهم من قبل الكوفة ، وأتهم أنت يا سويد من قبل المشرق ، وأتهم أنت يا مجمل ، من قبل المغرب ، وليدج كل امرئ منكم على الجانب الذي يحمل عليه ، ولا تفلعوا عنهم حتى يأتىكم امرئ .

قال فروة بن لقيط ^(٤) : وكنت أنا في الأربعين الذين كانوا معه ^(٥) ، فقال لجماعتنا : تيسرُوا ؛ وليسر كل امرئ منكم مع أميره ، ولينظر ما يأمره به أميره فليتبعه ؛ فلما فصمت دوابنا - وذلك أول ما هدأت العيون - خرجنا حتى انتهينا إلى دير الحرارة ، فإذا القوم عليهم مسلحة ابن أبي لينة ، فما هو إلا أن رآهم مصاد أخو شيب حتى حمل عليهم في أربعين رجلاً ، وكان شيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتهم من ورائهم ، كما أمره ^(٥)

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « بدير يزدجرد » .

(٣) تطلق حلوان على عدة مواضع ، وهى هنا حلوان العراق ، آخر حدود السواد بمابلي العراق ، كانت مدينة عامرة لم يكن بالعراق بعد البصرة والكوفة ، وواسط بغداد أكبر منها . (مراصد الاصلاح) .

(٤) هو راوى الخبر فى الطبرى ، حدثه به عنه أبو مخنف .

(٥-٥) النص كما فى الطبرى : « حتى إذا قضت دوابنا ، وذلك أول الليل ، أول ما هدأت العيون ، خرجنا حتى انتهينا إلى دير الحرارة ، فإذا القوم مسلحة ، عليهم عياض بن لينة ، فما هو إلا أن انتهينا إليهم ، حمل عليهم مصاد أخو شيب فى أربعين رجلاً - وكان أمام شيب - وقد كان أراد أن يسبق شيباً حتى يرتفع عليهم ويأتهم من ورائه كما أمره » .

فلما لَقِيَ هَوْلًا قاتلهم ، فصبروا له ساعة ، وقتلواهم . ثم إننا دفعنا إليهم جميعا ، فهزمناهم ، وأخذوا الطريق الأعظم ، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدجرد إلا نحو ميل ^(١) ، فقال لنا شيب : اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم ؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم ، فأتبعناهم ملظين ^(٢) بهم ، ملحّين عليهم ، ما نرُفُهُ عنهم وهم منهزمون ، ما لهم همة إلا عسكرهم .

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ، ورشقوهم ^(٣) بالنبل ، وكانت لهم عيون قد أتتهم ، فأخبرتهم بمكاننا ، وكان الجزل قد خندق عليهم وتحرّز ، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم [بدير الخراة] ^(٤) ، ووضع مسلحة أخرى مما تبلى حُلوان .

فلما اجتمعت المسالِح ، ورشقوهم أصحابهم بالنبل ، ومنعونا من خندقهم ، نظر شيب أنه لا يصلُ إليهم ، فقال لأصحابه : سيروا ودعوهم ، فلما سار عنهم أخذ على طريق حُلوان ؛ حتى كان منهم على سبعة أميال ، قال لأصحابه : انزلوا فافصموا دوابكم ، وقيلوا وتروّحوا ، فصلوا ركعتين ، ثم اركبوا . ففعلوا ذلك . ثم أقبل بهم راجعا إلى عسكر الكوفة ، وقال : سيروا على تعبيتكم التي عبأتكم عليها أول الليل ، وأطيفوا ^(٥) بعسكركم كما أمرتكم ، فأقبلنا معه ، وقد أدخل أهل العسكر مسلحهم إليهم ، وأمنوا ، فاشعروا حتى سمعوا وقع حوافر الخيل ، فانهبنا إليهم قبيل الصبح ، وأحطنا بعسكرهم ، وصحنا بهم من كل ناحية ، فقاتلونا ، ورمونا بالنبل ، فقال شيب لأخيه مصاد ، وكان يقاتلهم من الجانب

(١) الطبرى : « قريب من ميل » .

(٢) ملظين : ملحّين .

(٣) الطبرى : « ورشقوتا » .

(٤) من الطبرى .

(٥) الطبرى : « ثم أطيفوا بعسكركم » .

الذى يلى الكوفة : خَلَّ لهم سبيل [طريق] ^(١) الكوفة ، فحَلَّى لهم ، وقالناهم من [تلك] ^(٢) الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح ^(٣) ، ثم سرنا وتركناهم ، لأننا لم نظفر بهم ، فلما سار شبيب سار الجزل في أثره يظن به ، وجعل لا يسير إلا على تعبئة وترتيب ، ولا ينزل إلا على خندق ؛ وأما شبيب فضرب في أرض جُوخَى ، وترك الجزل ، فطال أمره على الحجاج ، فكتب إلى الجزل كتاباً قرىء على الناس ، وهو :

أما بعد ، فإنى بعثتكم في فرسان [أهل] ^(١) المِصر ووجوه الناس ، وأمرتكم باتِّباع هذه ^(٢) المارقة ، وألا تفلح عنها حتى تقتلها وتغنيها ^(٣) ؛ فجعلت ^(٤) التعرّيس في القرى ، والتخيم في الخنادق . أهونَ عليكم من المِضى لماهضتهم ومناجزتهم . [والسلام] ^(٥) .

قال : فشقّ كتابُ الحجاج على الجزل ، وأرجف الناس بأمره ؛ وقالوا : سيعزله ، فما لبث الناس أن بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميراً بدله ، وعهد إليه : إذا لقي المارقة أن يزحف إليهم ، ولا يناظرهم ، ولا يطاولهم ، ولا يصنع صنْعَ الجزل ^(٦) ، وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان ، وقد لزم عسكره ، وخندق عليهم ؛ فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم ، وأغضبتكم عليكم أميركم ، أتم في طلب هذه الأعراب العُجف منذ شهرين ، قد أخرجو بلادكم ، وكسروا أراجكم ؛ وأتم

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « حتى أصبحنا » .

(٣-٣) الطبرى : « المارقة الضالة المضلة ؛ حتى تلقاها فلا تفلح عنها حتى تقتلها وتغنيها » .

(٤) الطبرى : « فوجدت » .

(٥) في الطبرى ، بمدّها : « قرىء الكتاب علينا ، ونحن بقطرنا ودير أبي مریم » .

(٦) بمدّها في الطبرى : « واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم جیدان الضبع » .

حَدِرُونَ فِي جَوْفِ هَذِهِ الْخُنَادِقِ لَا تُزَايِلُونَهَا؛ إِلَّا أَنْ يَبْلَغَكُمْ أَنْتَهُمْ قَدْ ارْتَحَلُوا عَنْكُمْ، وَنَزَلُوا
بِلَدَا سَوَى بِلَدِكُمْ؛ اخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ .

ثم خرج وخرج الناس معه ^(١)، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أقدمُ على
شبيب وأصحابه في هذه الخليل، فقال له الجزل: أقم أنت في جماعة الناس ^(٢)، فارسمهم
وراجلهم ^(٣)؛ ولا تفرق أصحابك، ودعني أصحرُ له ^(٤)؛ فإن ذلك خيرٌ لك وشرٌّ لهم ^(٥)
فقال سعيد: بل تقف أنت في الصف، وأنا أصحرُ له، فقال الجزل: إني بريء من رأيك
هذا؛ سمع الله ومن حضر من المسلمين! فقال سعيد: هو رأيي؛ إن أصبتُ فيه، فالله
وَقَفَنِي، وَإِنْ أَخْطَأْتُ ^(٥) فِيهِ فَأَنْتُمْ بَرَاءَةٌ .

فوقف الجزل في صف [أهل] ^(٦) الكوفة، وقد [أخرجهم من الخندق و] ^(٦) جعل
على ميمنتهم عياض بن أبي لينة الكِنْدِيُّ، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف
أبا حميد الراسبي ^(٧)؛ ووقف الجزل في جماعتهم، واستقدم سعيد بن مجالد [مخرج] ^(٧)
و[أخرج] ^(٦) الناس معه؛ وقد أخذ شبيب إلى برّاز الروز ^(٨)، فنزل قَطْفَتًا،
وأمر دِهْقَانَهَا أَنْ يَشْوِيَ لَمْ غَنَمًا، وَيَمْدَ لَمْ غَدَاءً، ففعل، وأغلق مدينة قَطْفَتًا، ولم يفرغ

(١) في الطبري بعدما: « وجمع إليه خيول أهل العسكر » .

(٢) الطبري: « الجيش » .

(٣-٣) عبارة الطبري: « واصحره، فواقه ليتقدم عليك؛ فلا تفرق أصحابك؛ فإن ذلك
شر لهم وخير لك » .

(٤) أصحر القوم؛ إذا برزوا في الصحراء؛ لا يواريهم شيء .

(٥) الطبري: « وإن يكن غير صواب » .

(٦) من الطبري .

(٧) في الأصول: « وأبا حميد »، والصواب ما أثبتته من الطبري .

(٨) برّاز الروز، بالزاي، وألف ولام وراء مضمومة: من طساسيج السواد بيغداد؛ من الجانب
الشرقي من استان البهباز، كان للمعتضد به أبنية جليلة . (مراسد الاطلاع) .

الدّهقان من طعامه حتى أحاط بها ابن مجالد ، فصعد الدّهقان ، ثم نزل ، وقد تغير لونه ، فقال شبيب : ما بالك ؟ قال : قد جاءك جمع عظيم ، قال : أبلغ^(١) شواؤك ؟ قال : لا ، قال : دعه يبلغ ، ثم أشرف الدّهقان إشرافه أخرى ، ثم نزل فقال : قد أحاطوا بالجوسق ، قال : هات شواءك ؛ فجعل يأكل غير مكترث بهم ، ولا فزع ، فلما فرغ قال لأصحابه : قوموا إلى الصلاة ، وقام فتوضأ ، فصلّى بأصحابه صلاة الأولى ، ولبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وأخذ عموده الحديد ، ثم قال : أسرجوا لي بغلتي ، فقال أخوه : أفي مثل هذا اليوم تركب^(٢) بغلة ؟ قال : نعم ، أسرجوها ، فركبها ، ثم قال : يا فلان ، أنت على اليمين ، وأنت يا فلان على اليسرة ، وأنت يا مصاد - يعني أخاه - على القلب ، وأمر الدّهقان ففتح الباب في وجوههم .

فخرج إليهم وهو يحكم^(٣) ، وحمل حملة عظيمة ، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقري ، حتى صار بينهم وبين الدّير ميل ، وشبيب يصيح : أتاكم الموت الزّوام ! فاثبتوا ، وسعيد يصيح : يا معشر همدان ، إلىّ إلىّ ، أنا ابن ذى مران ! فقال شبيب لمصاد : ويحك ! استعرضهم استعراضاً ؛ فإنهم قد تقطعوا ، وإني حامل على أميرهم ، وأثكلكنك الله ، إن لم أثكلكه ولده ، ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود ؛ ثم سقط ميتا وانهمزم أصحابه ، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد .

وانتهى قتل سعيد إلى الجزل ، فناداهم : أيها الناس ، إلىّ إلىّ ؛ وصاح عياض ابن أبي لينة : أيها الناس ، إن يكن أميركم هذا القادم هلاك ، فهذا أميركم اليمون النقيبة ، أقبلوا إليه ؛ فمنهم من أقبل إليه ، ومنهم من ركب فرسه منهزما ، وقاتل الجزل يومئذ قتالا شديداً ، حتى صرع ، وحامى عنه خالد بن نهيك ، وعياض بن أبي لينة ؛ حتى استنقذاه

(١) البصري : « أبلغ الشواء » ، و« بولغ الشواء » : نضجه .

(٢) البصري : « تسرج » .

(٣) التحكيم : قول الخوارج : « لا حكم إلا لله » .

مرتين ، وأقبل الناس منهزمين ؛ حتى دخلوا الكوفة ، وأتى بالجزل جريحا ، حتى دخل المدائن ، فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإني أخبر الأمير أصلحه الله ، أني خرّجتُ فيمن قبلي من الجند الذي وجّهني فيه إلى عدوّه ، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلىّ فيهم ورأيه ؛ فكنتُ أخرجُ إلى المارقين ^(١) إذا رأيتُ الفرصة ، وأحبس [الناس] ^(٢) عنهم إذا خشيتُ الورطة ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر ، وأرفقُ في التدبير ؛ وقد أراذني العدو بكل مكيدة ، فلم يُصب مني غرّة ، حتى قدم على سعيد بن مجالد ، فأمرته بالتؤدة ، ونهيته عن العجلة ، وأمرته ألا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامة ، فعصاني وتعجّل إليهم في الخيل ، فأشهدتُ الله عليه وأهل المضرّين أني بريء من رأيه الذي رأى ، وأنّي لا أهوى الذي صنع ، فمضى فقتل ، تجاوز الله عنه ، ودفع ^(٣) الناس [إلى] ^(٤) فزلت ودعوتهم إلى نفسي ^(٤) ورفعتُ رابتي ، وقاتلت حتى صرّعت ، فخبلي أصحابي من بين القتلى ، فما أفتت إلا وأنا على أيديهم ، على رأس ميلٍ من المعركة ، وأنا اليوم بالمدائن ، وفي جراحات قد يموت الإنسان من دونها ؛ وقد بعاني من مثلها ؛ فليسأل الأمير أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده ، وعن مكايدي عدوّه ، وعن موقفني يوم البأس ؛ فإنه سيبين له عند ذلك أني صدقته ونصحت له . والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

(١) الطبري : « إليهم » .

(٢) من الطبري

(٣) دفع الناس ، أي جاءوا مرة مجتمعين .

(٤) الطبري : « ودعوتهم إلى » .

أما بعد ، فقد أتاني كتابك وقرأته ، ^(١) وفهمت كل ما ذكرته فيه من أمر سعيد وأمر نفسك ، وقد صدقتك في نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك ، وشدتك على عدوك ، وقد رضيت بحجة سعيد وتودتك ^(٢) . فأما مجلتك ؛ فإنها أفضت به إلى الجنة ، وأما تودتك ؛ ^(٣) فإنها ما لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم ^(٤) ؛ وقد أحسنت وأصبت وأجرت ، وأنت عندى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ؛ وقد أشخصت إليك جبار بن الأعز ^(٥) الطيب ليداويك ، ويعالج جراحاتك ؛ وقد بعثت إليك بالنقود درهم نفقة تصرفها في حاجتك وما ينوبك ^(٦) . والسلام .

وبعث عبد الله بن أبي عصفير والى المدائن إلى الجزل بألف درهم ؛ وكان يتعوده ويتعاهد بالالطاف والمدايا .

وأما شيب ، فأقبل حتى قطع دجلة عند الكرخ ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة ؛ وبلغ الحجاج مكانه بحمام أعين ؛ فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن السعدى ، فجهزه بالنقود فارس منتخبين ، وقال له : اخرج إلى شيب فآلقه ولا تتبعه ؛ فخرج بالناس بالسبخة ^(٧) ، وبلغه أن شيبا قد أقبل ، فسار نحوه كأنما يساق إلى الموت هو وأصحابه ، وأمر الحجاج عثمان بن قطن ، فسكر بالناس في السبخة ، ونادى : ألا برئت الذمة من رجل من هذا الجند ، بات الليلة بالكوفة ؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قطن بالسبخة ، فبينا سويد بن عبد الرحمن يسير في الألفين الذين معه ؛ وهو يعيهم ويحرضهم ؛ إذ قيل له :

(١-١) الطبرى : « وفهمت كل ما ذكرت فيه ، وقد صدقتك في كل ما وصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك وشدتك على عدوك ، وقد فهمت ما ذكرت من أمر سعيد ومجلتك إلى عدوه وتودتك » .

(٢-٢) الطبرى : « فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمكن حزم » .

(٣) الطبرى : « حيان بن أبحر » .

(٤) في الطبرى بهـ : « فقدم عليه حيان بن أبحر السكنانى ، من بني فراس ؛ وهم يعالجون الكلى

وغيره ، فكان يداويه » .

(٥) السبخة : موضع بالبصرة .

قد غشيك شيب ؛ فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه ، وقدّم رايته فأخبر أن شيبا لما علم بمكانه تركه ، ووجد مخاضة^(١) فعبر الفرات ؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذي سويده ابن عبد الرحمن به ، ثم قيل : أما تراه ! فنادى في أصحابه ، فركبوا في آثارهم ، فأتى شيب دار الرزق فنزلها ، وقيل له : إن أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون ، فلما بلغهم مكان شيب ، ماج الناس بعضهم إلى بعض ، وجالوا وهموا بدخول الكوفة ، حتى قيل : هذا سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد لحقهم ؛ وهو يقاتلهم في الخليل ؛ ومضى شيب حتى أخذ على شاطئ الفرات ، ثم أخذ على الأنبار ، ثم دخل دقوقاء ، ثم ارتفع إلى أداني أذربيجان .

وخرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة ، حيث بعد شيب ، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة ؛ فاشعر الناس إلا بكتاب [من]^(٢) ما دارست^(٤) ، دهقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة ، أن تاجراً من تجار [الأنبار من]^(٣) أهل بلادى

(١) المخاضة : موضع الحوض في الماء .

(٢) دقوقاء ، بفتح اوله وضم ثانيه وبعد الواو فاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة : مدينة بين اربيل وبنداد معرفة ؛ قال ياقوت : لها ذكر في الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدى بن أبي عامر الذهلي يرثيهم :

شَبَابٌ أَطَاعَ اللَّهَ حَتَّى أَحَبَّهُمْ وَكُلُّهُمْ شَارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ
فَلَمَّا تَبَوَّأُوا مِنْ دَقُوقَا بَمَنْزِلِ لِمِعَادِ إِخْوَانٍ تَدَاعَوْا فَأَجْمَعُوا
دَعَوْا خَصْمَهُمْ بِالْحِكْمَاتِ وَبَيْنُوا ضَلَالَتَهُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ يَسْمَعُ
بِنَفْسِي قَتَلَى فِي دَقُوقَاءِ غُودِرَتْ وَقَدْ قَطَعَتْ مِنْهَا رُوسٌ وَأَذْرُعُ
لَتَبِكَ نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ وَفِي دُونَ مَا لَأَقِينِ مَبْسُكِي وَجَجْرُعُ

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ما ذروا سب » .

أناي يذكر أن شيبياً يريد أن يدخل الكوفة في أول هذا الشهر المستقبل ، وأحبت إعلامك [ذلك] ^(١) لترى رأيك ؛ ^(٢) وإني لم ألبث بعد ذلك إذ جاءني اثنان من جيراني ^(٣) فحدثاني أن شيبياً قد نزل خانيجار ^(٤) .

فأخذ عروة كتابه ، فأدرجه وسرّح به إلى الحجاج إلى البصرة . فلما قرأ الحجاج أقبل جاداً ^(٥) إلى الكوفة ، وأقبل شبيب [يسير] ^(٦) حتى انتهى إلى قرية حرّبي ^(٧) على شاطئ دجلة ، فعبرها وقال ^(٨) لأصحابه : يا هؤلاء ، إن الحجاج ليس بالكوفة ، وليس دون أخذها شيء ، إن شاء الله . فسيروا بنا فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة ، وكتب عروة إلى الحجاج أن شيبياً قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فاعجل العجل .

فطوى الحجاج المنازل مسابقاً ^(٩) لشبيب إلى الكوفة ، فسبقه ونزلها صلاة العصر ، ونزل شبيب السبخة صلاة العشاء الآخرة ، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئاً يسيراً ، ثم ركبوا خيولهم ، فدخل شبيب الكوفة في أصحابه ؛ حتى انتهى إلى السوق ، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ، فحدث جماعة ^(١٠) أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر ، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة ، وأنشد :

(١) من الطبري

(٢-٣) الطبري : « ثم لم ألبث إلا ساعة حتى جاءني جليان من جيراني » .

(٤) خانيجار : بلدة قريبة من دقواء .

(٥) الطبري : « جوادا » .

(٦) قال باقوت : « حربني مقصور ، والعامّة تلفظ به محلاً : بليعة في أقصى دجيل ، بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة » . .

(٧) في الطبري بعدها : « فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقالوا : حربني ، فقال : حرب يصلي بها عدوكم ، وحرب (بالفتح) تدخلونه بيوتهم ؛ إنما يتخير من يقوف ويعيب . ثم ضرب رايته ، وقال لأصحابه : سيروا ، فأقبل حتى نزل عقر قوقا ، فقال له سويد بن سليم : يا أمير المؤمنين ؛ لو تحولت بنا من هذه القرية المشؤمة الاسم ؛ قال : وقد تطيرت أيضاً ! والله لا أتحول عنها حتى أسير إلى عدوى منها ؛ إنما شؤمها إن شاء الله على عدوكم ، تحمّلون عليهم فيها ، فاعقر لهم » .

(٨) واستبقا إلى الكوفة » .

(٩) الطبري : « قال أبو المنذر ؛ رأيت ضربة شبيب . . . »

وَكَانَ حَافِرَهَا بِكَلِّ ثَنِيَّةٍ فَرَّقَ يَكِيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُقَدِّمٌ^(١)

^(٢) ثم أقدم هو وأصحابه المسجد الجامع ، ولا يفارقه قومٌ يصلون^(٣) فيه ، فقتل منهم جماعة ومرّ هو بدار حَوْشَب - وكان هو على شُرْطَة الحجاج - فوقف على بابه في جماعة ، فقالوا : إنَّ الأمير - يعنون الحجاج - يدعو حوشبا ، وقد أخرج ميمون غلامه برِذَوْنَه ليركب [فكانه أنكرهم ، فظنوا أنه قد اتهمهم]^(٤) فأراد أن يدخل إلى صاحبه ، فقالوا له : كما أنت حتى يخرج صاحبك إليك ، فسمع حوشب الكلام ، فأنكر القوم ، وذهب لينصرف فعجلوا نحوه ، فأغلق الباب دونه ، فقتلوا غلامه ميمونا ، وأخذوا برِذَوْنَه ، ومضوا حتى مرّوا بالبحّاف بن نبيط الشيباني ، من رهط حَوْشَب . فقال له سويد : انزل إلينا ، فقال : ما تصنع بنزولي ؟ فقال : انزل ، إني لم أقصك ثمن البكرة التي ابتعتها منك بالبادية ، فقال البحّاف : بش ساعة القضاء هذه ! وبئس المكان لقضاء الدين هذا ! ويحك ! أما ذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم ، وأنت على متن فرسك ، قبح الله يا سويد ديننا لا يصلح ولا يتم إلا بقتل الأنفس^(٥) وسفك الدماء ، ثم مرّوا بمسجد بني ذهل ، فلقوا ذهل بن الحارث ، وكان يصلي في مسجد قومه ، فيطيل الصلاة إلى الليل ، فصادفوه منصرفا إلى منزله فقتلوه^(٥) ثم خرجوا متوجهين نحو الردمة^(٦) ؛ وأمر الحجاج فنودي : يا خيل الله اركبي وأبشري ، وهو فوق القصر ينادي ، وهناك مصباح مع غلام له قائم .

(١) الفرق : مكيال يسع ثلاثة آسم ، أو ستة عشر رطلا . وفي الطبري : « كيل يكيل به » ؛
وبعد :

عَبْدٌ دَعِيَ مِنْ ثَمُودٍ أَصْلُهُ لَا بَلَّ يُقَالُ أَبُو أَبِيهِمْ يَقْدُمُ

(٢-٢) الطبري : « ثم افتحموا المسجد الأعظم ؛ وكان كثيرا لا يفارقه قوم يصلون فيه » .

(٣) من الطبري .

(٤) الطبري : « بقتل ذوى القرابة وسفك دماء هذه الأمة » .

(٥) في الطبري : « نشدوا عليه ليقتلوه ؛ فقال : اللهم إني أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم ؛ اللهم

إني منهم ضعيف فالتصر لي منهم ؛ فضربوه حتى قتلوه » .

(٦) الطبري : « الردمة » .

وكان أول مَنْ جاء من الناس عثمان بن قطن ، ومعه مواليه ، وناس من أهله ، وقال :
أعلموا الأميرَ مكاني ، أنا عثمان بن قطن ، فيامرني بأمره ، فناداه الغلام صاحب المصباح :
قف مكانك حتى يأتيك أمرُ الأمير ، وجاء الناس من كلِّ جانب ، وبات عثمان مكانه
فيمين اجتمع إليه من الناس بمحتى أصبح .

وقد كان عبدُ الملك بن مروان بعثَ محمد بن موسى بن طلحة على سجستان ، وكتب له
عهده إليها ، وكتب إلى الحجاج : إذا قدم عليك محمد بن موسى الكوفة ، فجهز معه ألفي
رجل ، وعجل سراحه إلى سجستان .

فلما قدم الكوفة ، جلَّ يتجهز^(١) فقال له أصحابه ونصحاؤه : تعجل أيها الرجل إلى
عملك ، فإنك لاتدرى ما يحدث ، وعرض أمرُ شبيب حينئذ ودخوله الكوفة ، فقيل
للحجاج : إنَّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصهره لأمير المؤمنين
عبدالمك ، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه منك منه ، قال : فإ الحيلة ؟ قالوا : أن تذكر له أن
شيبا في طريقه ، وقد أعياك ، وأنت ترجو أن يريح اللهُ منه على يده ، فيكون له ذكر
ذلك وشهرته .

فكتب إليه الحجاج : إنك عامل على كل بلد مرتت به ، وهذا شبيب في طريقك
تجاهده ومن معه ، ولك أجره وذكره وصيته ، ثم تمضى إلى عمك فاستجاب له .

وبعث الحجاج بشر بن غالب الأسدي في ألفي رجل ، وزيايد بن قدامة في ألفين ،
وأبا الضريس مولى تميم في ألف من الموالى ، وأعين صاحب حمام أعين مولى لبشر بن
مروان في ألف ، وجماعة غيرهم ؛ فاجتمعت تلك الأمراء في أسفل الفرات ، وترك شبيب
الوجه الذي فيه جماعة هؤلاء القواد ، وأخذ نحو القادسية ، فوجه الحجاج زحر بن قيس

(١) الطبرى : « جعل ينحبس في الجهاز » ، والنحبس : التوقف والتباطؤ .

في جريدة خيل ، تقناوم ، عدتها ألف وثمانمائة فارس ، وقال له : اتبع شيبيا حتى تواقعه
حيثما أدركته ؛ فخرج زحر بن قيس حتى انتهى إلى السَّيْلِحِينَ ^(١) ، وبلغ شيبيا مسيره
إليه فأقبل نحوه ، فالتقيا ، وقد جعل زحر على ميمنته عبيد الله بن كنفار ، وكان شجاعا ،
وعلى ميسرته عدى بن عدى بن سميرة الكندي ، وجمع شيب خيله كلها كنبكة ^(٢)
واحدة ، ثم اعترض بها الصفَّ يُوجف ^(٣) وجيفا ، حتى انتهى إلى زحر بن قيس ، فنزل
زحر ، فقاتل حتى صرع وانهزم أصحابه ، وظن أنه قد قتل .

فلما كان الليل وأصابه البرد ؛ قام يمشي حتى دخل قرية ، فبات بها وحل منها إلى
الكوفة ، وبوجهه أربع ^(٤) عشرة ضربة ، فكث أياما ، ثم أتى الحجاج ، وعلى وجهه
[وجراحه] ^(٥) القطن ، فأجلسه معه على السرير ^(٦) . وقال أصحاب شيب لشيب ؛

(١) قال ياقوت : « ذكر سيلحين في الفتوح وغيرها من الشعر يدل على أنها قرب الحيرة ضاربة في البر
قرب القادسية ؛ ولتلك ذكر الشعراء أيام القادسية مع الحيرة والقادسية ؛ فقال سليمان بن عمارة بن سير
امرأته من اليمامة إلى الكوفة :

فَرَّتْ بِيَابِ الْقَادِيسِيَّةِ غَدَوَةٌ وراحتها بالسَّيْلِحِينَ العباثرُ
فلما انتهت دون الخورنقِ عَادَهَا وَقَصْرُ بَنِي النُّعْمَانِ حَيْثُ الأواخِرُ
إِلَى أَهْلِ مِضَرٍ أَصْلَحَ اللهُ حَالَهُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَالْجُهُودُ الأَكَابِرُ
فَصَارَتْ إِلَى أَرْضِ الْجِهَادِ وَبِلَدَةٍ مُبَارَكَةٍ وَالْأَرْضُ فِيهَا مَصَائِرُ
فَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ

(٢) الكبكة : الجماعة من الناس

(٣) أوجفت الخيل في السير : سارت سيرا فسيحا واسعا .

(٤) الطبرى : « وبوجهه بضعة عشر جراحة ؛ من بين ضربة وطعنة .

(٥) من الطبرى .

(٦) في الطبرى بعدها : « وقال لمن حوله : من بصره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين الناس
وهو شهيد ؛ فليُنظر إلى هذا » .

وهم يظنون أنهم قد قتلوا زحراً : قد هزمتنا جندهم ؛ وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً ؛ فانصرف بنا الآن موفورين^(١) . فقال لهم : ^(٢) « إن قتلكم هذا الرجل ^(٣) وهزيمتكم هذا الجند ؛ قد أربع هؤلاء الأمراء ^(٤) فاقصدوا بنا قصدهم ؛ فوالله لئن نحن قتلناهم مادون قتل الحجاج ؛ وأخذ الكوفة شيء . فقالوا له : نحن طوعنا لأمرك ورأيك ؛ فانفض بهم ^(٥) « جاداً ؛ حتى أتى ناحية عين ^(٥) التمر ؛ واستخبر عن القوم ، فعرف اجتماعهم في رُوذبار ^(٦) في أسفل الفرات ، على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة .

وبلغ الحجاج مسير شبيب إليهم ؛ فبعث إليهم ^(٧) : « إن جمعكم قتال ؛ فأميرُ الناس زائدة بن قدامة .

فانتهى ^(٨) إليهم شبيب ، وفيهم سبعة أمراء ؛ على جماعتهم زائدة بن قدامة ، وقد عي كل أمير أصحابه على حدة ، وهو واقف في أصحابه ، فأشرف شبيب على الناس ؛ وهو على فرس أغر كميته ^(٩) فنظر إلى تعبيتهم ؛ ثم رجع إلى أصحابه ، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف ^(١٠) بها ، حتى إذا دنا من الناس ، مضت كتيبة فيها سويد بن سليم ؛

(١) الطبرى : وافرين .

(٢-٣) الطبرى : « فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ؛ وهزيمتنا هذا الجند قد أربعت هذه الأمراء والجند التي بعثت في طلبهم . »

(٣) الطبرى : « مادون الحجاج من شيء . وأخذ الكوفة إن شاء الله . »

(٤) الطبرى : « جواداً . »

(٥) في الطبرى : « نجران الكوفة ناحية عين التمر . ونجران الكوفة ، على يمين منها ؛ فيما بينها وبين واسط ، على الطريق ؛ سكنه أهل نجران لما أجلاهم عمر ؛ فسموا الموضع باسمهم . وعين التمر : بلدة في طرف البادية على غربي الفرات ؛ أكثر نخلتها القصب ، ويحمل إلى سائر الأماكن . (مراسد الاطلاع) .

(٦) رُوذبار ؛ ضبطه صاحب مراسد الاطلاع ، بضم أوله وسكون ثانية وذال معجمة ، وباء موحدة ، وآخره راء ؛ قال : ويطلق على عدة مواضع .

(٧) في الطبرى : « بعث إليهم عبد الرحمن بن الفرق ، مولى ابن أبي عقيل ، وكان على الحجاج كريماً . »

(٨) الكلام في الطبرى ، عن أبي مخنف عن عبد الرحمن بن جندب .

(٩) الكميته من الخيل ؛ ما بين الأسود والأحمر . والأغر : ما كان يجبهته غرة .

(١٠) في الطبرى : « يوجفون بها . »

فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة ؛ وفيها زياد بن عمرو العتكيّ ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفت بإزاء الميسرة ، وفيها بشر بن غالب الأسديّ ، وجاء شبيب في كتيبة ؛ حتى وقف مُقابل القوم في القلب ، فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس بين الميمنة والميسرة ، يحرّض الناس ، ويقول : عبادَ الله ؛ إنكم الطيّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ؛ فاصبروا جعلت لكم الغداء ! إنما حملتان أو ثلاث ؛ ثم هو النصر ليس دونه شيء ؛ ألا ترؤنهم والله لا يكونون مائتي رجل ، إنما هم أكلة رأس^(١) وهم الشراق المراق ؛ إنما جاءوكم ليُهرِيقوا دماءكم ، ويأخذوا فيئكم ؛ فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ؛ وهم قليل وأنتم كثير ؛ وهم أهل فرقة وأنتم أهل جماعة ، غَضُوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنة ؛ ولا تحملوا عليهم حتى أمركم .

ثم انصرف إلى موقفه ، فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو العتكيّ ، فكشف صفه ، وثبت زياد قليلا ثم ارتفع سويد عنهم يسيرا ثم كَرَّ عليهم ثانية^(٢) .

فقال فروة بن لقيط الخارجي^(٣) . اطعنا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالا شديدا^(٤) ، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ ، وإنه لأشدّ العرب قتالا وأشجعهم ؛ وهو واقف لا يعرض لهم ؛ ثم ارتفعنا عنهم ؛ فإذا هم يتقوّضون ؛ فقال بعض أصحابنا لبعض : ألا ترؤنهم يتقوّضون ! احمِلُوا عليهم ؛ فأرسل إلينا شبيب : خلّوهم لا تحمِلُوا عليهم حتى يخفّوا ، فتركناهم قليلا ، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو ؛ وإنه ليضربُ بالسيوف ؛ وما من سيف يُضربُ به

(١) يقولون : هم أكلة رأس ؛ أي هم قليل يشبههم رأس واحد .

(٢) في الطبري بعدها : « فاطعنوا ساعة »

(٣) في الطبري : « قال أبو مخنف خدثني فروة »

(٤) في الطبري بعدها : « وجعل ينادي : يا خبي ، وبشد بالسيوف ، فيقاتل قتالا شديدا » .

إِلَّا نَبَأَ عَنْهُ ؛ وَلَقَدْ اعْتَوْرَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِينَ سَيْفًا ، وَهُوَ مَجْتَفٍ ، فَمَا ضَرَّهُ شَيْءٌ مِنْهَا
ثُمَّ انْهَزَمَ ^(١) .

وَأْتَيْنَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ أَمِيرِ سَجِسْتَانَ عِنْدَ الْمَغْرِبِ ؛ وَهُوَ قَائِمٌ فِي أَصْحَابِهِ ؛
فَقَاتَلْنَاهُ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَصَبَّرَ لَنَا .

ثُمَّ إِنْ مَصَادًا حَمَلَ ^(٢) عَلَى يَشْرَ بْنِ غَالِبٍ فِي الْمَيْسِرَةِ فَصَبَّرَ وَكُرُمَ وَأَبْلَى ، وَنَزَلَ مَعَهُ
رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ نَحْوِ خَمْسِينَ ، فَضَارِبُوا بِأَسْيَافِهِمْ ^(٣) حَتَّى قَتَلُوا ثَمَّ انْهَزَمَ أَصْحَابُهُ فَشَدَّ دَنَا عَلَى
أَبِي الضَّرِيرِ ؛ فَهَزَمْنَاهُ ، ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى مَوْقِفِ أَعْيُنَ ، ثُمَّ شَدَدْنَا عَلَى أَعْيُنَ ؛ فَهَزَمْنَاهُمْ حَتَّى
انْتَهَيْنَا إِلَى زَائِدَةَ بْنِ قَدَامَةَ ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ ؛ نَزَلَ وَنَادَى : يَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ ، الْأَرْضَ
الْأَرْضَ ؛ أَلَا يَكُونُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ أَصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى إِيمَانِكُمْ . فَقَاتَلُوا عَامَّةَ اللَّيْلِ
إِلَى السَّحْرِ .

ثُمَّ إِنْ شَيْبِيًّا شَدَّ عَلَى زَائِدَةَ بْنِ قَدَامَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ رِبِضَةَ ^(٤)
حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْحَقَاطِ ؛ وَنَادَى شَيْبِيبٌ فِي أَصْحَابِهِ : ارْضَعُوا السَّيْفَ ؛ وَادْعُوهُمْ إِلَى الْبَيْعَةِ ؛
فَدَعَوْهُمْ عِنْدَ الْفَجْرِ إِلَى الْبَيْعَةِ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ^(٥) بْنُ جَنْدَبٍ : فَكُنْتُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ فَبَايَعَهُ بِالْخِلَافَةِ ؛ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى

(١) فِي الطَّبْرِيِّ بَعْدَهَا : « وَقَدْ جَرِحَ جِرَاحَةً بَسِيرَةً ؛ وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَسَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ شَدَدْنَا عَلَى عَبْدِ الْأَعْلَى
ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ ؛ فَهَزَمْنَاهُ وَمَا قَاتَلْنَا كَثِيرًا قِتَالًا ؛ وَقَدْ ضَارِبٌ سَاعَةً ؛ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ جَرِحَ ثُمَّ لَمَّحَ
بِزِيَادِ بْنِ عَمْرٍو فَضِيًّا مِنْهَزِمِينَ ؛ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى » .

(٢) السِّكْلَامُ هُنَا فِي الطَّبْرِيِّ عَنْ هِشَامِ بْنِ أَبِي مَخْنَفٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَنْدَبٍ وَفُرْوَةَ بْنِ لَقِيطٍ .

(٣) فِي الطَّبْرِيِّ بَعْدَهَا : « حَتَّى قَتَلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ؛ وَكَانَ فِيهِمْ عُرْوَةُ بْنُ زَهْرَةَ بْنِ نَاجِدِ الْأَزْدِيِّ ، وَأُمُّهُ
زُرَّارَةُ ؛ امْرَأَةٌ وَلَدَتْ فِي الْأَزْدِ ، يُقَالُ لَهُمْ بَنُو زُرَّارَةَ ، فَلَمَّا قَتَلُوهُ وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ ، مَالُوا فَشَدَدُوا عَلَى
أَبِي الضَّرِيرِ . » .

(٤) فِي الطَّبْرِيِّ : « وَتَرَكَهُمْ رِبِضَةَ حَوْلَهُ ، ، وَالرِبِضَةُ : كُلُّ قَوْمٍ قَتَلُوا فِي مَوْقِعَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَفِي
الْحَدِيثِ : « الَّذِينَ قَتَلُوا يَوْمَ الْجَاهِجَمِ كَانُوا رِبِضَةَ وَاحِدَةً » .

(٥) فِي الطَّبْرِيِّ بَعْدَهَا عَنْ أَبِي مَخْنَفٍ : « وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَنْدَبٍ قَالَ : سَمِعْتُ زَائِدَةَ بْنَ قَدَامَةَ
لِيَنْتَذِرَ رَافِعًا صَوْتَهُ ، يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ؛ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ تَنْصَرُوا اللَّهُ يَنْصَرِكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . ثُمَّ مَابَرِحَ يَقَاتِلُهُمْ مَقْبَلًا غَيْرَ مَدْبِرٍ حَتَّى قَتَلَ . » .

فرسٍ أغرٍ كُفيت ؛ وخيله واقفة دونه وكلٌّ من جاء ليبياعه يُنزع سيفه عن عاتقه ؛ ويؤخذ سلاحه ؛ ثم يدنو من شبيب فيسلم عليه بإمرة المؤمنين ؛ ^(١) ثم يبايع ؛ فإننا كذلك إذ أضاء الفجر ^(٢) ومحمد بن موسى بن طلحة في أقصى العسكر مع أصحابه ؛ وكان الحجاج قد جعل موقفه آخر الناس ، وزائدة بن قدامة بين يديه ، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلها ، فأمر محمد مؤذنه فأذن ؛ فلما سمع شبيب الأذان ، قال : ما هذا ؟ قيل : هذا ابنُ طلحة لم يبرح ، قال : ظننتُ أن حمقه وخيلاءه سيحملانه على هذا ، نحموا هؤلاء عنا ، وانزلوا بنا فلنصل ، فنزل وأذن هو ؛ ثم استقدم فصلى بأصحابه ، وقرأ : ﴿ وَيَلِي لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٌ ﴾ ، و﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴾ ثم سلم وركب ^(٣) ؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة : إنك امرؤ مخدوع قد اتقى بك الحجاج النية ، وأنت لى جارٌ بالكوفة ، ولك حق ؛ فانطلق لما أمرت به ؛ ولك الله ألا أسوءك ^(٤) ؛ فأبى محاربتة ^(٥) فأعاد عليه الرسول فأبى إلا قتاله ؛ فقال له شبيب : كأنتى بأصحابك لو التقت حلقمتا ^(٦) البطان لأسلوك ، وصُرِعتَ مصرعَ أمثالِك ؛ فأطغنى وانصرف

(١) في الطبرى : « ثم يخلى سبيله » .

(٢) في الطبرى : « إذ أفضر الفجر » .

(٣) في الطبرى : « ثم ركبوا فحمل عليهم ، فانكشفت طائفة من أصحابه ، ونبئت طائفة ؛ قال فروة : فأأنسى قوله ؛ وقد غشينا وهو يقاتل بسيفه ؛ وهو يقول : ﴿ أَلَمْ ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . قال : وضارب حتى قتل ، فسعت أصحابى يقولون : إن شيبيا هو الذى قتله . ثم إنا نزلنا فأخذنا ما كان فى العسكر من شىء ، وهرب الذين كانوا بايعوا شيبيا ، فلم يبق منهم أحد . . . » :

(٤) فى الطبرى : « ولك الله لا آذيتك » .

(٥-٥) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ؛ بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٦) البطان : حزام الرجل أو الثوب الذى يلى البطن ، له حلقتان فى كل طرف حلقة ؛ يصعب التقاؤهما ؛ فإذا التقتا ، بلغ الشد غاية ؛ يريدون أن الشدة بلغت متهاها ؛ وهو مثل ، ومنه قول أوس :

وَإِذَا التَّتَقَّتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ بِأَقْوَامٍ وَطَارَتْ نَفُوسُهُمْ جَزَعًا

لشأنك ؛ فإني أنفسُ بك عن القتل ؛ فأبى وخرج بنفسه ؛ ودعا إلى البراز ، فبرز له البطين ، ثم قَعَنَبَ بن سويد ؛ وهو أبى إلا شيبياً ، فقالوا للشيب : إنه قد رَغِبَ غَنَّا إليك ؛ قال : فما ظنُّكم بمن يرغب عن الأشراف ! ثم برز له ، وقال له : أنشدك الله يا محمد في دمك ! فإن لك جواراً . فأبى إلا قتاله ، فحمل عليه بعموده الحديد ؛ وكان فيه اثنا عشر رِطَلاً ، فهشم رأسه وبيضة كانت عليه فقتله ؛ ونزل إليه فكفنه ، ودفنه ، وتتبّع ماغثم الخوارج من عسكره ؛ فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه ، وقال : هو جارِي بالكوفة ؛ ولى أن أهب ماغنمت ، فقال له أصحابه : مادون الكوفة الآن أحد يمنعك ؛ فنظر فإذا أصحابه قد فسّأ فيهم الجراح ؛ فقال : ليس عليكم أكثر مما قد فعلتم^(١) .

وخرج بهم على نَفَرٍ^(٢) ، ثم خرج بهم نحو بَدَادٍ^(٣) ؛ يطلب خانيجار^(٤) . وبلغ الحجاج أن شيبياً قد أخذ نحو نَفَرٍ ؛ فظن أنه يريد المدائن ؛ وهى باب الكوفة ؛ ومن أخذ المدائن كان مافى يديه من أرض الكوفة أكثر ؛ فهال ذلك الحجاج ، وبعث إلى عثمان بن قطن ، فسرعاه إلى المدائن ، وولاه منبرها والصلاة ، ومعوثة جوخي كلها ؛ وخرج الإستان ، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحجاج ابن أبي عصفير عن المدائن ، وكان الجزل مقياً بها يدأوى جراحاته ؛ وكان ابن أبي عصفير يعود ويكرمه ، ويُلطِّفه^(٥) ، فلما قدم عثمان بن قطن لم يكن يتعاهده ولا يُلطِّفه بشيء ؛ فكان الجزل يقول : اللهم زد ابن أبي عصفير فضلاً وكرماً ؛ وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلًا .

(١-١) الكلام هنا يختلف عما في الطبرى ، بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٢) نفر ، بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتح وراه : بلدة أو قرية على نهر الترس ، من بلاد الفرس ، عن الخطيب ، فإن كان عنى أنه من بلاد الفرس قديماً جاز ، فأما الآن فهو من نواحي بابل بأرض الكوفة (ياقوت) .

(٣) فى الطبرى : « ثم على الصراة ، ثم على بداد » .

(٤) خانيجار : بليدة قرب دقوقاء ، وبمدها فى الطبرى : « فأقام بها » .

(٥) أَلطَفَ فلاناً ، فلاناً : أكرمه وبره وأحفه .

ثم إن الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال له : انتخب الناس ؛ فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَةَ ؛ وأخرج من سائر الناس ستة آلاف ، واستحثه الحجاج على الشخوص ؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن ؛ فلما استتموا هناك ، كتب إليهم الحجاج كتاباً قرئ عليهم :

أما بعد ؛ فقد اعتدتم عادة الأذلاء ، ووليتم الذُّبُر يوم الزحف ؛ دأب الكافرين ^(١) وقد صفحتُ عنكم مرّةً بعد مرّة ، وتارة بعد أخرى ؛ وإني أقسم بالله قَسماً صادقاً ، لئن عدتُم لذلك لأوقعنَّ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدو الذي تنهزمون ^(٢) منه في بطون الأودية والشعاب ، وتستترون منه بأثناء ^(٣) الأنهار والوادي ^(٤) الجبال ؛ فليخفَ من كان له معقولٌ ^(٥) على نفسه ، ولا يجعل عليها سبيلاً ، فقد أعذر من أنذر ، والسلام .

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس ؛ حتى مرَّ بالمدائن ، فنزل بها يوماً ليشتري أصحابه منها حوائجهم ؛ ثم نادى في الناس بالرحيل ؛ وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودعاً ؛ ثم أتى الجزل عائداً ، فتنأله عن جراحته ، وحادته ، فقال الجزل : يا بن عمّ ؛ إنك تسير إلى فرسان العرب ، وأبناء الحرب ، وأحلاس ^(٦) الخيل ؛ والله لكأتما خلقوا من ضلوعها ؛ ثم رُبوا ^(٧) على ظهورها ؛ ثم هم أسدُ الأجم ؛ الفارسُ منهم أشدُّ من مائة ؛ إن لم يُبدأ به

(١) الطبري : « وذلك دأب الكافرين » .

(٢) الطبري : « تهربون » .

(٣) الأثناء : جمع نبي ، وهو المنعطف .

(٤) الألواذ : جمع لوذ ، وهو جانب الجبل .

(٥) المعقول هنا : العقل ، وهو مصدر من المصادر التي وردت على اسم المفعول ، كالمجهود والميسور ، ووق

المثل : « ماله حول ولا معقول » .

(٦) الحلاس في الأصل : كل شيء ، ولي ظهر البعير والذابة تحت الرجل والقتب والسرّج ، كالمرشحة تكون

تحت التلبد ويقال : فلان من أحلاس الخيل ، أي من راضتها وسابستها والملازمين ظهورها ، على التشبيه بالحلس .

(٧) في الطبري : « بنوا » .

بدأ هو ، وإن هُجِجَ^(١) أقدم ؛ وإني قد قاتلتهم وبلوتهم ؛ فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا مِنِّي ؛ وكان لهم الفضل علىّ ، وإذا خندقتُ أو قاتلت في مَضِيق نلت منهم ما أحب ؛ وكانت لي عليهم ؛ فلا تَلَقَهُمْ وأنت تستطيع إلا وأنت في تعبٍ أو خندق ؛ ثم ودعه ، وقال له : هذه فرسى الفسيساء ؛ خذها ؛ فإنها لا تجاري ؛ فأخذها ؛ ثم خرج بالناس نحو شيب ، فلما دنا منه ارتفع شيب عنه إلى دَقُوقاه وشهر زور ؛ فخرج عبدُ الرحمن في طلبه ؛ حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام ، وقال : إنما هو في أرض الموصل ؛ فليقاتل أميرُ الموصل وأهلها عن بلادهم ؛ أو فليدعوا .

وبلغ ذلك الحجاج ؛ فكتب إليه .

أما بعدُ فاطلب شيبا ؛ واسلك في أثره^(٢) أين سلك حتى تدرِكه فتقتله ، أو تنفِيه عن الأرض ، فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين ، والجندُ جنده . والسلام .

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرجَ في طلب شيب ؛ فكان شيب يدَّعه ؛ حتى إذا دنا منه لبيته فيجده قد خندق وحذر ، فيمضي ويتركه ؛ فيتبعه عبدُ الرحمن فإذا بلغ شيبا أنه قد تحمل وسار يطلبه كَرَّ في الخليل نحوه ؛ فإذا انتهى إليه وجده قد صفَّ خيله ورجاله المرامية ، فلا يصيبُ نه غِرَّة ولا غفلة^(٣) ؛ فيمضي ويدَّعه .

ولما رأى شيبُ أنه لا يصيبُ غِرَّتَه ، ولا يصل إليه ؛ صار يخرج كلما دنا منه عبدُ الرحمن ؛ حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخا ؛ ثم يقيم في أرض غليظة وعرَّة ؛ فيجيء عبدُ الرحمن في ثقله وخيله ؛ حتى إذا دنا من شيب ارتحل ؛ فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخا ؛ فنزل منزلا غليظا خشنا ؛ ثم يقيم حتى يبلغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل ؛ ثم يرتحل ؛ فعذب العسكر ، وشقَّ عليهم ، وأحرق دوابَّهم ؛ ولقوا منه كلَّ بلاء .

(١) هجج: صبح به .

(٢) ج : « واسلك أيناسلك » .

(٣) الطبرى : « ولا له علة » .

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه ؛ حتى صار إلى خانقين وجلولاء ، ثم أقبل على تَامَرَا^(١) ؛
فصارا إلى البَتِّ ، ونزل على بُخْمِ الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلَايَا^(٢) ،
وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بَشْرَقِي حَوْلَايَا ، وهم في راذان^(٣) الأعلى من أرض جُوخَى ،
ونزل في عواقل^(٤) من النهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها ، وهي تعجبه ، يرى أنها
مثل الخندق الحصين .

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أن هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ؛ فإن رأيتم أن
توادعونا حتى تمضي هذه الأيام فلتم ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ؛ ولم يكن شيء أحبَّ
إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإني أخبرُ الأميرَ أصلحه الله ! أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
قد حفر جُوخَى كلها عليه خندقا واحدا ، وخلق شيبيا ، وكسر خراجها ، فهو يأكل
أهلها ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

قد فهمتُ ما ذكرت ؛ وقد لعمري فعل عبد الرحمن ، فسرُّ إلى الناس ، فأنت
أميرهم ؛ وعاجل المارقة حتى تلقاهم ؛ [فإن الله إن شاء ناصرك عليهم]^(٥) ، والسلام .
وربعث الحجاج على المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدم على

(١) تامرا ، بفتح الميم وتشديد الراء ، والقصر : نهر كبير تحت بغداد ، شرقها ، يخرج من جبال
شهرزور . (مرصد الاطلاع) .

(٢) حولايا ، بفتح الحاء وسكون الواو وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهر وانخربت بخراجه . (مرصد الاطلاع)

(٣) في الأصول : « راذان » تصحيف ، وصوابه من الطبري ، قال في مرصد الاطلاع : راذان بعد

الألف ذال معجمة وآخره نون : راذان الأعلى وراذان الأسفل : كورتان ببغداد تشمل على قرى كثيرة .

(٤) العواقل : جمع عاقول ، وهو منعطف النهر .

(٥) من الطبري .

عبد الرحمن وَمَنْ سَمِعَهُ ؛ وهم معسكرون على نهر حَوْلَايَا ، قريبا من البت ؛ وذلك يوم التروية ^(١) عشاء ؛ فنادى في الناس ، وهو على تَلْعَةٍ ^(٢) : أيها الناس ، اخرجوا إلى عَدُوِّكُمْ . فوثبوا إليه ، وقالوا : نَشِدُكَ اللهُ ! هذا المساء قد غَشِينَا والناس لم يوطنوا أنفسهم على القتال ، فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبئة ، فجعل يقول : لَأَنَاجِزَنَّهُمَ الليلة ، ولتكوننَّ الفرصة لي أولهم ، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فأخذ يعنان بَعْلَتَهُ ، وناشده الله لما نزل ، وقال له عقيل بن شَدَادِ السلولي : إن الذي تريده من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غدا ، وهو خير لك وللناس ، إن هذه ساعة ريح قد اشتدت مساء ، فانزل ، ثم أَبِكرُ بنا غدوة . فنزل وسَفَّتْ عليه الريح ، وشقَّ عليه الغبار ، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجًا ، فبنوا له قُبَّةً ، فبات فيها ؛ ثم أصبح فخرج بالناس ؛ فاستقبلتهم ريح شديدة وغبرة ، فصاح الناسُ إليه ، وقالوا : نَشِدُكَ اللهُ أَلَا تخرج بنا في هذا اليوم ! فإنَّ الريح علينا ، فأقام ذلك اليوم . وكان شبيب يخرج إليهم ، فلما رآهم لا يخرجون إليه أقام ، فلما كان الغد خرج عثمان يعبِّي الناس على أرباعهم ، وسألهم : مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم ؟ فقالوا : خالد بن نَهِيك بن قيس السكندى على ميسرتنا ، وعقيل بن شَدَادِ السلولي على ميمنتنا ، فدعاها فقال لهما : قفا في مواقفكما التي كنتمأبها ، فقد وليتكما الجنين ، فاثبتا ولا تفرأ ، فوائته لا أزل حتى تزول نخيل راذان عن أصولها ، فقالا : نحن والله انذى لا إله إلا هو لا نفر حتى نظفر أو نقتل ؛ فقال لهما : جزا كما الله خيرا ! ثم أقام حتى صلى بالناس الغداة ، ثم خرج بالخيال ، فنزل يمشى في الرجال ، وخرج شبيب ، ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلا ، فقطع إليهم النهر ؛ وكان هو في ميمنة أصحابه ، وجعل على الميسرة سويد بن سليم ، وجعل في القلب مُصَادَا أخاه ؛ وزحفوا ، وكان عثمان بن قطن يقول لأصحابه فيكثر : ﴿ قُلْ لَنْ

(١) يوم التروية : الثامن من ذي الحجة .

(٢) التلعة هنا : ماعلا من الجبل ، وفي الظهي ؛ « على بقلة » .

يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ .
ثم قال شبيب لأصحابه : إني حاملٌ على ميسرتهم ؛ مما يلي النهر ؛ فإذا هزمتها
فأجمل صاحب ميسرتي على ميمنتهم ، ولا يبرح صاحب القلب حتى يأتيه أمرى ، ثم حمل في
ميمنة أصحابه مما يلي النهر على ميسرة عثمان بن قطن ؛ فانهزموا ، ونزل عقيل بن شداد مع
طائفة من أهل الحفاظ ؛ فقاتل حتى قُتِل ، وقتلوا معه (١) .

ودخل شبيب عسكرهم ، وحمل سويد بن سليم في ميسرة شبيب على عثمان بن قطن ،
فهزمتها ، وعليها خالد بن نهيك الكندي ، فنزل خالد ، وقاتل قتالا شديدا ، فحمل عليه
شبيب من ورائه ؛ فلم يثن حتى علاه بالسيف فقتله ، ومشى عثمان بن قطن ؛ وقد نزلت
معه العرفاء والفرسان وأشرف الناس نحو القلب ؛ وفيه أخو شبيب في نحو من ستين
رجلا ؛ فلما دنا منهم عثمان ؛ شد عليهم في الأشراف ، وأهل الصبر ؛ فضربهم مصاد
وأصحابه ، حتى فرقوا بينهم ، وحمل شبيب من ورائهم بالخييل ، فما شعروا إلا والرماح
في أكتافهم تكبهم لوجوههم ، وعطف عليهم سويد بن سليم أيضا في خيله ؛ وقاتل عثمان
فأحسن القتال .

ثم إن الخوارج شدوا عليهم ؛ فأحاطوا بعثمان ، وحمل عليه مصاد أخو شبيب ؛
فضربه ضربة بالسيف فاستدار لها ، وسقط ، وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ،
فقتل وقتل معه العرفاء ووجوه الناس ، وقتل من كندة يومئذ مائة وعشرون رجلا ،
وقتل من سائر الناس نحو ألف ، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض ، فعرفه

(١) في الطبرى : وقتل يؤمئذ مالك بن عبد الله الهمداني ، ثم الرهبي ، عم عياش بن عبد الله بن عياش
المنتوف ، وجعل يؤمئذ عقيل بن شداد يقول وهو يجادلهم :

لأضربين بالحسام الباتر ضرب غلام من سلول صابر

ابن أبي سبرة ، فنزل وأركبه ؛ وصار رديفًا له ^(١) . وقال له عبدُ الرحمن : نادِ في الناس ، الحقوا بدَيْرِ ابن أبي مریم ؛ فنادی بذلك ؛ وانطلقا ذاهبين ، وأمر شبيب أصحابه ، فرفعوا عن الناس السيف ؛ ودعاهم إلى البيعة ، فأتاه مَنْ بَقِيَ مِنَ الرجال ، فبايعوه ، وبات عبدُ الرحمن بدير اليعار ، فأتاه فارسان ليلاً ، فخلا به أحدهما يناجيه طويلاً ، وقام الآخر قريباً منهما ، ثم مَضِيَا ولم يعرفا ؛ فتحدث الناس أن المناجِيَّ له كان شيبيا ؛ وأنَّ الذي كان يرقُبهما كان مصاداً أخاه ؛ واتَّهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل .

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل ، فسار حتى أتى دير ابن أبي مریم ؛ فإذا هو بالناس قبَّله قد سَبَقوه ، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبْرَ الشعير والْقَتَّ ^(٢) كأنها القصور ؛ ونحروا لهم من الجزور ماشاءوا ، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن ، فقالوا له : إن علم شبيب بمكانك أتاكَ فكنت له غنيمة ؛ قد تفرَّق الناس عنك ، وقُتِلَ خيارهم ، فالحق أيتها الرجل بالكوفة .

فخرج وخرج معه الناس ؛ حتى دخل الكوفة مستترا من الحجاج ، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك .

ثم إن شيبيا اشتدَّ عليه الحرّ وعلى أصحابه ، فأتى ماه بهراذان فصَيَّفَ ^(٣) بها ثلاثة أشهر ، وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير ، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم

(١) في الطبري : « فقال عبد الرحمن بن محمد : أينما الرديف ؟ قال ابن أبي سيرة : سبحان الله ! أنت الأمير تسكون المقدم فركب » .

(٢) في الأصول : « القيت » ، وما أثبتته من الطبري ، وفيه : « بعضه على بعض » .

(٣) صيف بالمسكان : أقام به صيفا ، وفي الطبري : « تصيف » ، وهما بمعنى .

الحجاج بمال وتبعة^(١) ، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبد الله بن عوف ؛ كان قتل دِهقانين من أهل دير قيط ؛ كانا أساءا إليه ، ولحق بشيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك ؛ وله مقام عند الحجاج ، وكلام سلّم به من القتل ؛ وهو أن الحجاج بعد هلاك شيب ، آمن كلّ من خرج إليه من كان يطلبهم الحجاج بمال ، أو تبعة ، فخرج إليه الحرّ فيمن خرج ، فجاء أهل الدهقانين يستعدون عليه الحجاج ، فأحضره ، وقال : يا عدوّ الله ؛ قتلت رجلين من أهل الخراج فقال : قد كان أصلحك الله ! منى ما هو أعظم من هذا ، قال : وما هو ؟ قال : خروجي عن الطاعة ، وفراق الجماعة ؛ ثم إنك أمنت كلّ من خرج عليك ؛ وهذا أمانى وكتابتك لى .

فقال الحجاج : قد لعمري فعلت ذلك أولى لك ! وخلى سبيله .

ثم لما باخ الحرّ^(٢) ، وسكن عن شيب ؛ خرج من ماه نهر وان في نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن ؛ وعليها الطرف بن المغيرة بن شعبة ؛ فجاء حتى نزل قناطر حذيفة^(٣) بن اليمان فكتب مازراسب^(٤) وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شيب وقدمه إلى قناطر حذيفة ، فقام الحجاج في الناس وخطبهم ، وقال :

أيها الناس ؛ لتقاتلنّ عن بلادكم وفيكم ، أو لأبعثنّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ؛ وأصبر على البلاء^(٥) منكم ، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيكم - يعنى جند الشام .

فقام إليه الناس من كلّ جانب ؛ يقولون : بل نحن نقاتلهم ، ونُفيث^(٦) الأمير ؛ فليندبنا إليهم ؛ فإنّا حيث يسره .

(١) في الطبرى : « التباعات » .

(٢) باخ الحر : سكن وفتر . وفي الطبرى : « انفسح » .

(٣) قناطر حذيفة : بسواد بغداد .

(٤) في الطبرى : « ما ذرواسب » .

(٥) الطبرى : « اللاؤاء » .

(٦) الطبرى : « ونفيث » .

وقام إليه زهرة بن حوية ؛ وهو يومئذ شيخ كبير لا يستقيم قائما ؛ حتى يؤخذ بيده ،
فقال : أصلح الله الأمير ! إنك تبعث الناس متقطعين ؛ فاستنفر إليهم الناس كافة ،
وابعث عليهم رجلا متينا شجاعا مجربا ، يرى الفرار هضما وعارا ، والصبر مجدا وكرما .
فقال الحجاج : فانت ذاك ؛ فاخرج .

فقال : أصلح الله الأمير ! إنما يصلح لهذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدرع ويهز
السيف ، ويثبت على متن الفرس ، وأنا لأطبق ذلك ؛ قد ضفت وضفت بصرى
« ولكن اثنى مع أميرٍ تعتمده ؛ فأكون في عسكره ، وأشير عليه »^(١) برأى .
فقال : « جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيرا »^(٢) ؛ لقد نصحت وصدقت ، وأنا مخرج
الناس كافة ؛ ألا فسيروا أيها الناس .

فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون ، ولا يدرون من أميرهم .
وكتب الحجاج إلى عبد الملك :

أما بعد ؛ فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ؛ أن شبيا قد شارف المدائن ؛ وإنما
يريد الكوفة ؛ وقد عجز أهل العراق عن قتاله في مواطن كثيرة ، في كلها تقتل أمراؤهم
ويقتل خيولهم^(٣) وأجنادهم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلى جنداً من جند الشام ، ليقاتلوا
عدوهم ، ويأكلوا بلادهم ؛ فقل إن شاء الله .

فلما أتى عبد الملك كتابه ، بعث إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف ، وبعث إليه حبيب
ابن عبد الرحمن [الحكى]^(٤) من^(٥) مذحج في ألفين ؛ وسرّحهم نحوه حين أتاه الكتاب .

(١-١) الطبرى : « ولكن أخرجني في الناس مع الأمير ، فإني إنما أثبت على الراحة ، فأكون مع الأمير
في عسكره ، وأشير عليه برأى » .

(٢-٢) الطبرى : « جزاك الله عن الإسلام وأهله في أول الإسلام خيرا ، وجزاك الله عن الإسلام في
آخر الإسلام خيرا »

(٣) الطبرى : « جنودهم » .

(٤) من الطبرى .

(٥) في الأصول . « ابن » ، وما أثبتته من الطبرى .

وقد كان الحجاج يبعث إلى عتاب بن ورقاء الرِّياحى لِيأتيه ، وكان على خيل الكوفة مع المهلب ، ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة، منهم زهرة بن حويّة ، وقبيصة بن والى ، فقال : مَنْ ترون أن أبعث على هذا الجيش ؟ قالوا : رأيك أيها الأمير أفضل ؛ قال : إني قد بعثتُ إلى عتاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة ، فيكون هو الذى يسير بالناس ، فقال زهرة بن حويّة : أصلح الله الأمير ! رميتهم بحجرهم ، لا والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل .

فقال قبيصة بن والى : وإني مشيرٌ عليك أيها الأمير برأى اجتهدته ، نصيحة لك ولأمير المؤمنين ولعامة المسلمين ، إن الناس قد تحدّثوا أن جيشاً قد وصل إليك من الشام ؛ لأن أهل الكوفة قد هزموا ، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة ، فكانت قلوبهم فى صدور قوم آخرين ؛ فإن رأيت أن تبعث إلى الجيش الذى قد أمددت به من أهل الشام ، فليأخذوا حذرهم ، ولا يثبتوا بمنزل إلا وهم يرون أنهم يبيتون ، فإن فلت فإنك إنما تحارب حوّلًا قلبًا محلّلاً مظلماً^(١) ، إن شيبا بينا هو فى أرض إذا هو فى أخرى ، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارون ، فإن يهلكوا يهلك العراق كله .

فقال الحجاج : لله أبوك ! ما أحسن ما رأيت ! وما أصح ما أشرت به . فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرأوه وقد نزلوا هيت ؛ وهو : أما بعد ؛ فإذا حاذيتم هيت ، فدعوا طريق الفرات والأنبار ، وخذوا على عين التمر ، حتى تقدموا الكوفة ، إن شاء الله^(٢) .

فأقبل القوم سِراعا ، وقدم عتاب بن ورقاء فى اللية التى قال الحجاج إنه فيها قادم ؛ فأمره الحجاج ، فخرج بالناس ، وعسكر بمحمام^(٣) أعين ، وأقبل شبيب حتى انتهى

(١) الطبرى : « ظلما رَحالا » .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وخذوا حذرکم ومجّلوا السير ، والسلام » .

(٣) حمام أعين : موضع بالكوفة ، منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

إلى كَلَوَازِي (١) ، فقطع منها دِجْلَةَ ، وأقبل حتى نزل بَهْرُسِير (٢) ، وصار بينه وبين مطرف وابن المغيرة بن شعبة جسر دجلة ، فقطع مطرف الجسر ، ورأى رأيا صالحا كاد به شيبيا ؛ حتى حبسه عن وجهه ، وذلك أنه بعث إليه : أن ابثُ إلى رجالا من فقهاء أصحابك وقرائهم ؛ وأظهر له أنه يريد أن يدارسهم القرآن ، وينظر فيما يدعون إليه ، فإن وجد حقا اتبعه ، فبعث إليه شيبب رجالا ؛ فيهم قَمْنَب وسويد والمجلل ، ووصاهم ألا يدخلوا السفينة حتى يرجع رسوله من عند مطرف ، وأرسل إلى مطرف : أن ابثُ إلى من أصحابك ووجوه فرسانك بعدة أصحابي ؛ ليكونوا رهنا في يدي ، حتى تردّ علي أصحابي ، فقال مطرف لرسوله : الله ، وقل له : كيف آمنك الآن على أصحابي ، إذ أبعثهم إليك ، وأنت لا تأمئني على أصحابك ! فأبلغه الرسول ، فقال : قل له : قد علمت أنا لا نستحل الغدر في ديننا ، وأتم قوم غدر تستحلون الغدر وتفعلونه ، فبعث إليه مطرف جماعة من وجوه أصحابه ، فلما صاروا في يد شيبب ، سرح إليه أصحابه ، فعبروا إليه في السفينة ، فأتوه ، فكثروا أربعة أيام يتناظرون ، ولم يتفقوا على شيء ، فلما تبين لشيبب أن مطرفا كاده ، وأنه غير متابع له ، تعبى للمسير ، وجمع إليه أصحابه ، وقال لهم : إن هذا التفتي قطعني عن رأبي منذ أربعة أيام ، وذلك أتى هممت أن أخرج في جريدة من الخيل ، حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام ، وأرجو أن أصادف غرتهم قبل أن يحذروا ، وكنت ألقاهم متقطعين عن المصر ، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ، ولا لهم مِصرٌ كالكوفة يعتمسون به ، وقد جاءني عيون (٣) أن أوائلهم قد دخلوا عين التمر ، فهم الآن قد شارفوا الكوفة ، وجاءني أيضا عيون من نحو عتاب (٣) أنه نزل بجمام أعين بجماعة أهل الكوفة (٤) وأهل البصرة ، فما أقرب ما بيننا وبينهم ! فتيسرُوا بنا للمسير إلى عتاب .

(١) كلواذى : موضع قرب بغداد .

(٢) بهر سير : من نواحي بغداد قرب المدائن .

(٣) الطبرى : « عيونى » .

(٤) الطبرى : « بجماعة أهل الكوفة الصراة » .

وكان عتاب حينئذ قد أخرج معه خمسين ألفاً من المقاتلة ، وهدّهم الحجاج إن هربوا
كعادة أهل الكوفة ، وتوعّدّهم ، وعرض شيب أصحابه بالمدائن ، فكانوا ألف رجل
فخطبهم وقال : يا معشر المسلمين ، إن الله عز وجل كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان ،
واليوم فاتم مثون [ومثون] ^(١) ، ألا وإني مصلّ الظهر ، ثم سأربكم إن شاء الله .
فصلى الظهر ، ثم نادى في الناس ، فتخاف عنه بعضهم .

قال فروة بن ^(٢) لقيط : فلما جاز ساباط ، ونزلنا معه ، قصّ علينا ، وذكرنا بأيام الله ،
وزهدنا في الدنيا ، ورغبنا في الآخرة . ثم أذن مؤذنه فصلى بنا العصر ، ثم أقبل حتى
أشرف على عتاب بن ورقاء ، فلما رأى جيش عتاب نزل من ساعته ، وأمر مؤذنه ، فأذن
ثم تقدّم ، فصلى بأصحابه صلاة المغرب ^(٣) ، وخرج عتاب بالناس كلهم فعبأهم ، وكان
قد خندق على نفسه مذ يوم نزل .

وجعل على ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني ؛ قاله : يابن أخي ،
إنك شريف ، فاصبر وصابر ، فقال : أما أنا فوالله لأقاتلن ما ثبتت معي إنسان .
وقال لقبیصة بن والقي النخعي ^(٤) : اكفني اليسرة ، فقال : ^(٥) أنا شيخ كبير ، غابتي
أن أثبت تحت رايتي ، أما تراني لا أستطيع القيام إلا أن أقام ، وأخي نعيم بن عليم ذو غناء ،
فابته على اليسرة . فبعته عليها ^(٥) . وبعث جنظلة بن الحارث الرياحي ابن عمه ، وشيخ

(١) من الطبري

(٢) راوى الخبر في الطبري

(٣) في الطبري : « وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيباني » .

(٤) في الطبري : « وكان على ثلث بنى تطلب »

(٥-٥) الطبري : « أنا شيخ كبير ، كثير منى أن أثبت تحت رايتي ، قد أثبت منى القيام ، ما أستطيع
القيام إلا أن أقام ، ولكن هذا عبید الله بن الحليس ، ونيهم بن عليم النخعيان ، وكان كل واحد
منهما على ثلث من أثلاث تطلب ، ابنت أيهما أحببت ، فأيهما بعثت فلتبعن ذا حزم وعزم وغناء ،
بعث نعيم بن عليم على ميسرته » .

أهل بيته على الرجالة، وبعث معه ثلاثة صفوف: صف فيه الرجالة ومعهم السيوف، وصف ثمهم أصحاب الرماح؛ وصف فيه الرماية .

ثم سار عتاب بين الميمنة والميسرة يمرّ برايته؛ فيحرض من تحتها على الصبر؛ ومن كلامه يومئذ: إن أعظم الناس نصيباً من الجنة الشهداء؛ وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي؛ ألا ترون عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه؛ لا يرى ذلك إلا قرابة لهم؛ فهم شرار أهل الأرض، وكلاب أهل النار. فلم يجبه أحد، فقال: أين القصاص يتصون على الناس، ويحرضونهم؟ فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يروى شعر عنتره، فيحرك الناس؛ فلم يجبه أحد ولا رد عليه كلمة؛ فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ والله لكأني بكم وقد تفرقتم عن عتاب وتركتموه بسني في استه الریح؛ ثم أقبل حتى جلس في القلب، ومعه زهرة بن حويّبة، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وأقبل شيبب في ستمائة، وقد تخلف عنه من الناس أربعمائة، فقال: إنه لم يتخلف عني إلا من لا أحب أن أراه معي؛ فبعث سويد بن سليم في مائتين إلى الميسرة، وبعث المحلل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة؛ وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة؛ حين أضاء القمر؛ فنادهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات محمدان . فقال: رايات طالماً نصرت الحق، وطالماً نصرت الباطل؛ لها في كل^(١) نصيب؛ أنا أبو المدله اثبتوا إن شئتم . ثم حمل عليهم؛ وهم على مستاة أمام الخندق؛ ففضّهم، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق .

نجاء شيبب فوقف عليه، وقال لأصحابه: مثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ

(١) بعدها في الطبري: « والله لأجاهدنكم محسباً للخير في جهادكم، أتم ربعة وأنا شيبب، أنا أبو المدله لا حكم إلا لله »

نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٠٠﴾ ،
ثم حمل على الميسرة ففضها ، وصمد نحو القلب ، وعتاب جالس على طِنْفِسَةٍ ، هو وزهرة
ابن حَوِيَّةَ ، فغشيهم شبيب ، فانفضَّ الناسُ عن عتاب وتركوه ؛ فقال عتاب : يا زهرة ،
هَذَا يَوْمٌ كَثُرَ فِيهِ الْعُدَدُ ؛ وَقُلَّ فِيهِ الْغَنَاءُ ، لَهْفِي عَلَى خِمْسَائَةِ فَارِسٍ مِنْ وُجُوهِ النَّاسِ ؛
أَلَا صَابِرٌ لَعْدُوهُ ! أَلَا مُوَاسٍ بِنَفْسِهِ ! فَضَى النَّاسَ عَلَى وَجُوهِهِمْ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ شَبِيبٌ وَتَبَّ
إِلَيْهِ فِي عَصَابَةٍ قَلِيلَةٍ صَبَرَتْ مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ
قَدْ هَرَبَ ؛ وَانصَفَقَ مَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ ، فَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ فَرََّ قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَمَا رَأَيْتَ مِثْلَ ذَلِكَ
الْفَتَى ؛ مَا يَبَالِي مَا صَنَعَ ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ سَاعَةً ؛ وَهُوَ يَقُولُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطَّ مَوْطِنَا
لَمْ أَبْلِ بِمِثْلِهِ ؛ أَقَلَّ نَاصِرًا ، وَلَا أَكْثَرَ هَارِبًا خَاذِلًا ؛ فَرَأَاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ مِنْ أَصْحَابِ
شَبِيبٍ ، وَكَانَ أَصَابَ دِمَا فِي قَوْمِهِ ، وَالتَّحَقَّقَ بِشَبِيبٍ ؛ فَقَالَ : إِنِّي لِأُظَنَّ هَذَا الْمَتَكَلِّمَ عِتَابَ
ابنِ وِرْقَاءَ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ ؛ فَوَقَعَ وَقُتِلَ ، وَوَطِئَتْ الْخَلِيلُ زَهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ ، فَأَخَذَ يَذَبُّ
بِسَيْفِهِ ؛ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَضَ ؛ فَجَاءَهُ الْفَضْلُ بْنُ عَامِرِ الشَّيْبَانِيِّ فَقَتَلَهُ ،
وَاتَهَى إِلَيْهِ شَبِيبٌ ؛ فَوَجَدَهُ صَرِيحًا فَعَرَفَهُ ، فَقَالَ : مَنْ قَتَلَ هَذَا ؟ قَالَ الْفَضْلُ : أَنَا قَتَلْتُهُ ؛
فَقَالَ شَبِيبٌ : هَذَا زَهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ كُنْتُ قُتِلْتُ عَلَى ضَلَالَةٍ ؛ لَرَبِّ يَوْمٍ مِنْ
أَيَّامِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ حَسُنَ فِيهِ بِلَاؤُكَ ، وَعَظُمَ فِيهِ غِنَاؤُكَ ، وَلَرَبِّ خَيْلٍ لِلْمُشْرِكِينَ هَزَمَتْهَا ،
وَسَرِيَّةٍ لَمْ ذَعَرَتْهَا ، وَمَدِينَةٍ لَمْ فَتَحَتْهَا ! ثُمَّ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ تُقْتَلَ نَاصِرًا لِلظَّالِمِينَ .

وقتل يومئذ وجوه العرب من عسكر العراق في المعركة ؛ واستمكن شبيبٌ من أهل
العسكر ، فقال : ارفعوا عنهم السيف ، ودعاهم إلى البيعة ، فبايعه الناس عامة من ساعتهم ؛
واحتوى على جميع ما في العسكر ، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن ؛ فأتاه فأقام بموضع المعركة
يومين ؛ ودخل سفيان بن الأبرد السكلي ، وحبیب بن عبد الرحمن فيمن معهما

إلى الكوفة ، فشدوا ظهرَ الحجاج ، واستغنى بهم عن أهل العراق ؛ ووصلته أخبار عتاب وعسكره ، فصعد المنبر ، فقال : يا أهل الكوفة ؛ لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد منكم النصر ؛ اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا ، والحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ^(١) ولا يقاتلن معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء .

وخرج شبيب يريد الكوفة ، فاتمى إلى سورا ^(٢) ، فقال لأصحابه : أيكم يأتي برأس عاملها ، فانتدب إليه قطين ، وقمنب ، وسويد ، ورجلان من أصحاب شبيب ، فكانوا خمسة ، وساروا حتى اتهموا إلى دار الخراج ، والعمال فيها ، فقالوا : أجبوا الأمير ؛ فقال الناس : أى أمير ؟ قالوا : أمير قد خرج من قبل الحجاج ، نريد هذا الفاسق شبيبا ، فاغتر بذلك عامل سورا ، فخرج إليهم ، فلما خالطهم شهرُوا السيوف ، وحكموا وخبطوه بها ، حتى قتلوه ، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مال ، ولحقوا بشبيب .

فلما رأى شبيب البدر ، قال : أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلم يا غلام الحربه ، فخرق بها البدر ، وأمر أن تنحس الدواب التي كانت البدر عليها ، فرت رائحة ، والمال يتناثر من البدر ، حتى وردت الصراة ، فقال : إن كان بقي شيء فاقدفوه في الماء .

وقال سفيان بن الأبرد للحجاج : ابشني إلى شبيب أستقبله قبل أن يرد الكوفة ، فقال : لا ؛ ما أحب أن نفترق حتى ألقاه في جماعتكم ، والكوفة في ظهرنا ، وأقبل شبيب حتى نزل حمام أعين ، ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفي ، فوجهه في ناس لم يكونوا شهدوا يوم عتاب ، فخرج في ألف رجل ، حتى انتهى شبيب ليدفنه عن الكوفة ، فلما رآه شبيب حمل عليه فقتله ، وقل أصحابه ، فجاءوا حتى دخلوا

(١-١) الطبرى : « ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عالا ، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء » .

(٢) سورا : كورة قريبة من الفرات .

الكوفة ، وبعث شبيب البطين في عشرة فوارس يرتادون له منزلا على شاطئ الفرات ، في دار الرزق ، فوجه الحجاج حوشب بن يزيد ، في جمع من أهل الكوفة ، فأخذوا بأفواه السكك ، فقاتلهم البطين فلم يقوَ عليهم ، فبعث إلى شبيب ، فأمدّه بفوارس من أصحابه ، فمقروا فرس حوشب وهزموه ، فنجنا بنفسه ، ومضى البطين إلى دار الرزق في أصحابه ، ونزل شبيب بها ، ولم يوجه إليه الحجاج أحداً ، فابتنى مسجداً في أقصى السبخة ، وأقام ثلاثاً لم يوجه إليه الحجاج أحداً ، ولا يخرج إليه من أهل الكوفة ، ولا من أهل الشام أحدٌ ، وكانت امرأته غزالة ، نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران (١) .

فجاء شبيب مع امرأته حتى أوقفت بنذرهما في المسجد ؛ وأشير على الحجاج أن يخرج بنفسه إليه ، فقال لقتيبة بن مسلم : إني خارج ، فأخرج أنت ، فارتدت لي معسكرا ، فخرج وعاد ؛ فقال : وجدت المدي سهلا ، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون ؛ فخرج الحجاج بنفسه ، ومرّ على مكان فيه كناسة وأقذار ؛ فقال ألقوا لي هنا بساطا ، فقيل له : إنّ الموضوع قدّر ، فقال : ماتدعوني إليه أقدر ، الأرض تحتها طيبة ، والسماء فوقه طيبة .

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبي الورد ، وعليه تجفاف (٢) ، وأحاط به غلمان كثير ؛ وقيل : هذا الحجاج ؛ فحمل عليه شبيب فقتله ؛ وقال : إن يكن الحجاج ، فقد أرحت الناس (٣) منه ؛ ودلف الحجاج نحوه حينئذ ، وعلى يمينته مطرف بن ناجية ، وعلى مبسرتة خالد بن عتاب بن ورقاء ؛ وهو في زهاء أربعة آلاف ؛ فقيل له : أيها الأمير ؛ لانعرف

(١) في الطبرى . « فعلت » .

(٢) التجفاف : آلة للحرب يلبسها الفارس في الحرب للوقاية ؛ كأنها درع .

(٣) الطبرى : « أرحنكم » .

شيبيا بمكانك ، فتنكر ، وأخفى مكانه ؛ وتشبه به مولى آخر للحجاج في هيئته وزيه ، فحمل عليه شيب ، فضربه بالعمود فقتله ، ويقال إنه قال لما سقط : « أخ » بالخاء المعجمة ؛ فقال شيب : قاتل الله ابن أمّ الحجاج ! اتقى الموت بالعبيد ؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه « أح » بالخاء المهملة .

ثم تشبه بالحجاج أعين صاحب حمام أعين ، ولبس لبسته ، فحمل عليه شيب فقتله ، فقال الحجاج : علىّ بالبغل لأركبه ، فأتى ببغل محجل ؛ وقيل : أيها الأمير أصلحك الله إنّ الأعاجم كانت تتطير أن تركب مثل هذا البغل في مثل هذا اليوم ؛ فقال : أدنوه مني ، فإنه أغر محجل ؛ وهذا يومٌ أغرّ محجل فركه ، ثم سار في الناس يمينا وشمالا ثم قال : اطرحوا لي عباءة ، فطرحته له ، فنزل فجلس عليها ، ثم قال : اثنوني بكرسى ، فأتى به ، فقام فجلس عليه ، ثم نادى أهل الشام ، فقال : أهل الشام ؛ يأهل السمع والطاعة ، لا يباينن باطل هؤلاء الأرجاس حَقِّكم ، غَضُّوا الأبصار ، واجثوا على الرُّكْب ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسينة ، فجثوا على الرُّكْب ، وكانهم حرّة سوداء .

ومنذ هذا الوقت ركبت ريح شيب ، وأذن الله تعالى في إدبار أمره ، وانقضاء أيامه ؛ فأقبل ، حتى إذا دنا من أهل الشام عتبي أصحابه ثلاثة كراديس ، كتيبة معه ، وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع الحثل بن وائل ، وقال لسويد : احمل عليهم في خيلك فحمل عليهم فثبتوا له حتى إذا غشي أطراف أسنتهم ، وثبوا في وجهه ، فقاتلهم طويلا ، فصبروا له ، ثم طاعنوه ؛ قدما قدما ؛ حتى ألحقوه بأصحابه .

فلما رأى شيب صبرهم ، نادى : يا سويد ، احمل في خيلك في هذه الرايات الأخرى ، لعلك تزيل أهلها ؛ فتأني الحجاج من ورائه ، ونحى نحن عليه من أمامه . فحمل سويد على تلك الرايات ، وهى بين جدران الكوفة فرمى بالحجارة من سطوح البيوت ، ومن أفواه السكك . فانصرف ولم يظفروا .

ورماه عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهم ، وقد كان الحجاج جعله في ثمانمائة رامٍ من أهل الشام ، رِداءً له كي لا يؤتى من ورائه، فصاح شبيب في أصحابه :

يا أهلَ الإسلام ! إنما شَرَيْتُمْ اللهَ ، ومن يكن شِراؤه (١) لله لم يضره ما أصابه من ألم وأذى، لله أبوكم، الصبر الصبر ؛ شدة كشداتكم الكريمة في مواطنكم المشهورة .

فشدوا شدة عظيمة ، فلم يزل أهل الشام عن مراكرهم ؛ فقال شبيب : الأرض ! دبوا ديننا تحت ترأسكم ؛ حتى إذا صارت أسنة أصحاب الحجاج فوقها ، فأذلقوها صُعداً ، وادخلوا تحتها ، واضربوا سوقهم وأقدامهم ؛ وهي الهزيمة يأذن الله ، فأقبلوا يدبّون دبيبا تحت الحَجَف : صنداً صنداً ، نحو أصحاب الحجاج .

فقال خالد بن عتاب بن رفاء : أيها الأمير ؛ أنا موتور ؛ ولا أتهم في نصيحتي (٢) ؛ فأذن لي حتى آتيتهم من ورائهم ؛ فأغير على معسكرهم وثقلهم ؛ فقال : افعل ذلك (٣) ، فخرج في جمع من مواليه وشاكرتيته (٤) وبنى عمه ؛ حتى صار من ورائهم ؛ فالتقى بمصاد أخى شبيب فقتله ؛ وقتل غزاةً امرأة شبيب ، وألقى النار في معسكرهم ، والتفت شبيب والحجاج ؛ فشهدا النار ، فأما الحجاج فكبر وكبر أصحابه ، وأما شبيب ، فوثب هو وكلُّ راجلٍ من أصحابه على خيولهم ، مرعوبين ؛ فقال الحجاج لأصحابه : شدوا عليهم ؛ فقد أتاهم ما أروعهم ؛ فشدوا عليهم ؛ فهزموم ، وتخلّف شبيب في خاصّة الناس ، حتى خرج من الجسر ؛ ونبعه خيل الحجاج ، وغشيه النّعاس ؛ فجعل يخفق برأسه ؛ والجل تطلبه .

قال أصغر الخارجي (٥) : كنت معه ذلك اليوم ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ التفت

(١-١) الطبرى : « ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى » .

(٢) الطبرى : « في نصيحة » .

(٣) الطبرى : « ما بدالك » .

(٤) الشاكرية : جمع شاكرى ، وهو الأجير .

(٥) في الطبرى : « قال هشام : فحدثني أصغر الخارجي ، قال : حدثني من كان مع شبيب .. »

فانظر مَنْ خلفك ، فالتفتَ غير مكثرٍ ؛ وجعل^(١) يخفق برأسه ، قال : ودنوا منا ، فقلت :
يا أميرَ المؤمنين ؛ قد دنا القوم منك ، فالتفتَ والله ثانيةً غيرَ مكثرٍ بهم ، وجعل
يخفق برأسه ؛ وبعث الحجاج خيلاً تركض تقول : دعوه يذهب في حرق الله ؛ فتركوه
وانصرفوا عنه^(٢) .

ومضى شبيب بأصحابه ؛ حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا دَيْرًا هناك ، وخالد بن
عتاب يَقْفُوم ، فحصرهم في الدير ؛ فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه ، نحووا من فرسخين ،
حتى ألقى خالد نفسه في دجلة هو وأصحابه بنحيوهم ؛ فمر به شبيب ؛ فرآه في دجلة ، ولوأوه
في يده ، فقال : قاتله الله فارساً ، وقاتل فرسه فرساً هذا أشدُّ الناس قوة ، وفرسه أقوى
فرس في الأرض ؛ وانصرف ، فقيل له بعد انصرافه : إنَّ الفارس الذي رأيت هو خالد بن
عتاب بن ورقاء ، فقال : معرق في الشجاعة لو علمت لأفحمت خلفه ؛ ولو دخل النار .

ثم دخل الحجاج الكوفة بعد هزيمة شبيب ، فصعد المنبر ، وقال : والله ما قُوتل شبيب
قطّ قبل اليوم ؛ ولّى هاربا ، وترك امرأته يُكسر في استها القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وقال :
احذر بيّاته ، وحيماً لقيته فنازله ؛ فإنَّ الله تعالى قد فلَّ حدَّه ، وقصم نابه ، فخرج حبيب
في أثره ، حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال : أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب ؛
مَنْ جاءنا منكم فهو آمن ، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة في دين الخوارج ، ممن هزَّه^(٣)
القتال ، وكرهه ذلك اليوم فيؤمن . وقبل ذلك كان الحجاج نادى يوم هُزِمَ شبيب : من
جاءنا فهو آمن ، ففرق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه .

(١) الطبري : « ثم أكب يخفق برأسه » .

(٢) الطبري : « ورجعوا » .

(٣) الطبري : « هزه القتال » . . .

و بلغ شيبياً منزلاً حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه ؛ فقال يزيد السكسكى^(١) ، كنت مع أهل الشام بالأنبار ، ليلة جاءنا شيب ، فبيتنا ، فلما أمسينا جمعنا حبيب بن عبد الرحمن ، فجعلنا أرباعاً ، وجعل على كل رُبع أميراً ، وقال : لنا^(٢) :
لِيَحْمَ كُلُّ رُبْعٍ مِنْكُمْ جَانِبَهُ ، فَإِنْ قُتِلَ هَذَا الرَّبْعُ ، فَلَا يُبْنِهُمُ الرَّبْعُ الْآخَرَ ، فَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ الْخَوَارِجَ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَوْطَنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنْكُمْ مَبِيتُونَ فَمَقَاتِلُونَ ، قَالَ : فَمَا زِلْنَا عَلَى تَمْبِيتِنَا حَتَّى جَاءَنَا شَيْبُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَبَيْتَنَا ، فَشَدَّ عَلَى^(٣) رُبْعٍ مِنَّا فَصَابِرَهُمْ طَوِيلًا ، فَمَا زَالَتْ قَدَمُ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَأَقْبَلَ إِلَى رُبْعٍ آخَرَ فَقَاتَلَهُمْ طَوِيلًا فَلَمْ يَظْفَرْ بِشَيْءٍ ، ثُمَّ طَافَ بَنَاءٌ يَحْمِلُ عَلَيْنَا رُبْعًا رُبْعًا ، حَتَّى ذَهَبَ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ اللَّيْلِ^(٤) ، وَلَصِقَ بِنَا^(٥) حَتَّى قَلْنَا : لَا يَفَارِقُنَا ، ثُمَّ تَرَجَّلَ فَنَازَلْنَا رَاجِلًا نَزَالًا طَوِيلًا هُوَ وَأَصْحَابُهُ ، فَسَقَطَتْ وَاللَّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ ، وَفَقِئْتُ الْأَعْيُنَ ، وَكَثُرَتِ الْقَتْلَى ، فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ نَحْوَ ثَلَاثِينَ ، وَقَتَلُوا مِنَّا نَحْوَ مِائَةٍ ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ مِائَتِي رَجُلًا لَأَهْلَكُونَا ، ثُمَّ فَارَقُونَا وَقَدْ مَلَلْنَا مِنْهُمْ وَمَلُّونَا ، وَكَرِهْنَا مِنْهُمْ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنَّا يَضْرِبُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ بِالسِّيفِ ، فَمَا يَضْرِبُهُ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَالضَّعْفِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنَّا يِقَاتِلُ جَالِسًا يَنْفَعُ بِسِيفِهِ ، مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَالْبُهْرِ . حَتَّى رَكِبَ شَيْبُ ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ نَزَلُوا مَعَهُ : ارْكَبُوا ؛ وَتَوَجَّهَ بِهِمْ مُنْصَرِّقًا عَلَيْنَا .

فقال فروة بن لقيط الخارجي - وكان شهد معه مواطنه كلها - قال لنا ليلتئذ ، وقد رأى

(١) في الطبري : « قال أبو مخنف ، فحدثني أبو يزيد السكسكى قال » .

(٢) الطبري : « ليجز كل ربع » .

(٣-٣) الطبري : « فشدد على ربع منا ، عليهم عثمان بن سعيد العذري ، فصار بهم طويلاً ، فإذ زالت قدم الإنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وقد جعل عنهم سعد بن مجل العامري ، فقاتلهم فإذ زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وعليهم النعمان بن سعد الحميري ، فاقدر منهم على شيء ، ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقصر المنعمي ، فقاتلهم طويلاً ، فلم يظفر بشيء » ، ثم أطاف بنا يحمل علينا ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل » .

(٤) الطبري : « وألز بنا » .

بنا كآبة ظاهرة ، وجراحاتٍ شديدة: ما أشدَّ هذا الذي بنا لو كنا نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا في طاعة الله وثوابه ! فقال أصحابه: صدقت يا أمير المؤمنين .

قال فرّوة بن لقيط : وسمعتُه تلك الليلة يحدثُ سويد بن سليم ، ويقول له : لقد قتل منهم أمسٍ رجُلين من أشجع^(١) الناس ، خرجت عشيةً أمس طليعةً لكم ، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلوا قرية يشترون منها حوائجهم ، فاشترى أحدهم حاجته ، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه ، فقال لي : أراك لم تشتري علفاً^(٢) . فقلت : إن لي رُفقاء قد كفوني ذلك ، ثم قلت له : أين ترى عدوّنا [هذا نزل]^(٣) ؟ فقال : بلغني أنه قد نزل قريبا منا ، وإيم الله لو دِدْتُ أني لقيتُ شبيبهم هذا ، قلت : أفتحِب ذلك؟ قال : إي والله ، قلت : فخذ حذرُك ، فأنا والله شبيب ، وانتضيتُ السيف ، فخرّ والله ميتاً] فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قدمات [^(٤) فانصرفت راجعاً ، فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهبُ هذه الساعة التي يرجع فيها الناس إلى معسكرهم ؟ فلم أكلّمه ، ومضيت ، فنفرتُ بي فرسى ، وذهبت تتمطرُ^(٤) ، فإذا به في أثرِي حتى لحقني ، فعطفت عليه ، وقلت : ما باللك ؟ قال : أظنك والله من عدوّنا . قلت : أجل والله ، قال : إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلني ؛ فحملت عليه وحمل عليّ ، فاضطر بنا بسيفينَا ساعة ، فوالله ما فضلته في شدة نفس ولا إقدام ، إلا أن سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته .

وبلغ شيبيا أن جند الشام الذي مع حبيب حملوا معهم حجراً ، وحلفوا لا يفرّون حتى يفر هذا الحجرُ ، فأراد أن يُكذّبهم ، فعمد إلى أربعة أفراس ، وربط في أذنانها ترسةً ،

(١) الطبري : « قتل منهم أمس رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس » .

(٢) الطبري : « كأنك لم تشتري علفاً » .

(٣) من الطبري

(٤) تتمطر : تسرع في جريها .

في ذنب كل فرس تُرسين ثم ندب ثمانية نفر من أصحابه ، وغلاما له يقال له حيان - كان شجاعا فاتكا - وأمره أن يحمل معه إداوة من ماء ، ثم سار ليلا حتى أتى ناحية من عسكر أهل الشام ، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر الأربع ، وأن يكون مع كل رجلين فرس ؛ ثم يلبسوها الحديد حتى تجدد حره ، ثم يخلوها في العسكر ، وواعدهم ثلثة قريبة من العسكر ، وقال : من نجا منكم ؛ فإن موعدة الثلثة ؛ فكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم ؛ فنزل بنفسه حتى صنع بالخليل ما أمرهم به ؛ حتى دخلت في العسكر ، ودخل هو يتلوها ، ويشد خلفها شدا محكما ؛ ففرقت في نواحي العسكر ، واضطرب الناس ، فضرب بعضهم بعضا ، وماجوا ، ونادى حبيب بن عبد الرحمن : ويحكم إنها مكيدة ! فالزموا الأرض ؛ حتى يتبين لكم الأمر ؛ ففعلوا ، وحصل شيب بينهم ، فلزم الأرض معهم ، حتى رأهم قد سكنوا ، وقد أصابته ضربة عمود أو هنته .

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم خرج في غمارهم ، حتى أتى الثلثة ، فإذا مولاه حيان ؛ فقال : أفرغ ويحك على رأسي من هذه الإداوة ! فلما مد رأسه ليصّب عليه من الماء ، همّ حيان بضرب عنقه ؛ وقال لنفسه : لا أجِدُ مكرمة لي ، ولا ذكرا أرفع من هذا في هذه الخلوة ، وهو أمانى من الحجاج ؛ فأخذته الرعدة حين همّ بما هم به ؛ فلما أبطأ عليه ، قال له : ويحك ! ما انتظارك ! بجلها ناولنيها وتناول السكين من موزجه^(١) فخرقها به ، ثم ناوله إياها ، فأفرغ عليه من الماء ، فكان حيان بعد ذلك يقول : لقد هممت فأخذتني الرعدة فجبنت عنه ؛ وما كنت أعهد نفسي جباناً .

ثم إن الحجاج أخرج الناس إلى شيب ، وقسم فيهم أموالا عظيمة ، وأعطى الجرّحي وكلّ ذى بلاء ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسير بهم ، فشق ذلك على حبيب

(١) الموزج : الخف .

ابن عبد الرحمن ، وقال : تبعث سفیان إلى رجل قد فلتته ، وقتلتُ فرسانه ! وكان شبيب قد أقام بكرة مان حتى جبر واستراش هو وأصحابه ؛ فمضى سفیان بالرجال واستقبله شبيب بدجيل الأهواز ؛ وعليه جسر معقود ، فمبر إلى سفیان ، فوجده قد نزل بالرجال ، وجعل مضاض^(١) بن صيفي على خيله ، وبشر بن حيان^(٢) الفهري على ميمنته ، وعمر بن هبيرة الفزاري على ميسرته ، وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس ! هو في كتيبة ، وسويد بن سليم في كتيبة ، وقعنّب في كتيبة ، وخلف الجلل في عسكره ؛ فلما حمل سويد وهو في ميمنته على ميسرة سفیان وقعنّب وهو في ميسرته على ميمنة سفیان ، وحمل هو على سفیان ، ثم اضطر بوا منيا ، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذي كانوا فيه .

فقال يزيد السكسكي - وكان من أصحاب سفیان يومئذ : كرت علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كرتة ، ولا يزول من صفنا أحد ، فقال لنا سفیان : لا تحملوا عليهم متفرقين ؛ ولكن لترحف عليهم الرجال زحفا ، ففعلنا ، وما زلنا نطاعنهم حتى اضطرتناهم إلى الجسر ، فقاتلونا عليه أشد قتال يكون لقوم قط . ثم نزل شبيب ، ونزل معه نحو مائة رجل ؛ فسا هو إلا أن نزلوا حتى أوقعوا بنا من الضرب والطنن شيئا ما رأينا مثله قط ؛ ولا ظنناه يكون ؛ فلما رأى سفیان أنه لا يقدر عليهم ، ولا يأمن ظفرهم ، دعا الرماة فقال : ارشقوهم بالنبل ؛ وذلك عند المساء ، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصف النهار ، فرشقهم أصحابه ؛ وقد كان سفیان صفهم على حدة ، وعليهم أمير ، فلما رشقوهم شدوا عليهم ، فشددنا نحن ، وشغلناهم عنهم ؛ فلما رأوا ذلك ركب شبيب وأصحابه ، وكرتوا على أصحاب النبل كرتة شديدة ، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين راميا ، ثم عطف علينا بطاعتنا بالرماح ، حتى اختلط الظلام ، ثم انصرف عنا ، فقال سفیان بن الأبرد لأصحابه :

يا قوم ، دعوهم لا تتبعوهم ؛ يا قوم دعوهم لا تتبعوهم حتى نصبّهم . قال : فكفنا عنهم
وليس شيء أحبّ إلينا من أن ينصرفوا عنا .

قال فروة بن لقيط الخارجي : فلما انتهينا إلى الجسر . قال شبيب : اعبروا معاشر المسلمين
فإذا أصبحنا بكرناهم إن شاء الله تعالى ، قال : فعبرنا أمامه ، وتخلف في آخرنا ، وأقبل
بعبّر الجسر ، وتحتة حصان ججوح ، وبين يديه فرس أنثى ما ذيانة ، فترا حصانه عليها وهو
على الجسر ؛ فاضطرت الماذيانة ، وزلّ حافر فرس شبيب عن حَرَف السفينة ، فسقط
في الماء ، فسمعناه يقول لما سقط : ﴿ لَيْقِضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ^(١) واغتمس ^(٢)
في الماء ثم ارتفع فقال : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٣) ثم اغتمس في الماء ،
فلم يرتفع .

هكذا روى أكثر الناس . وقال قوم : إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه في
الوقائع التي كان يهزم الجيش فيها ، وكانت بيعتهم إياه على غير بصيرة ، وقد كان أصاب
عشايرهم وحاداتهم ؛ فهم منه موتورون ، فلما تخلف في آخريات الناس يومئذ ، قال بعضهم
لبعض : هل لكم أن نقطع به الجسر ، فندرك ثأرنا الساعة ! فقالوا : هذا هو الرأي ،
فقطعوا الجسر ، فالت به السخينة ، ففزع حصانه ونقر ، فسقط في الماء وغرق .

والرواية الأولى أشهر ؛ فحدث قومٌ من أصحاب سُفْيَانَ ، قالوا : سمعنا صوت الخوارج
يقولون : غرق أمير المؤمنين ، فعبّرنا إلى عسكرهم ، فإذا هو ليس فيه صافر ^(٤) ولا أثر ؛
فزلنا فيه ، وطلبنا شبيبا حتى استخرجناه من الماء ، وعليه الدَّرْع ؛ فيزعم الناس أنهم

(١) سورة الأفعال آية ٤٢

(٢) الطبرى : « اغتمس » .

(٣) سورة يس آية ٣٨

(٤) هو مثل ، يقال : « ما بالدار من صافر » أى أحد .

شقوا بطنه وأخرجوا قلبه فكان مجتمعاً صلباً كالصخرة ؛ وأنه كان يضرب به الأرض
فينبؤ ، ويثب قامة الإنسان .

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدق أحداً نعاها إليها ، وقد كان قيل لها مرارا إنه
قد قتل فلا تقبل ، فلما قيل لها : إنه قد غرق بكت ؛ فقيل لها في ذلك ، فقالت : رأيت
في المنام حين ولدته أنه خرج من فرجى ناراً ملأت الآفاق ، ثم سقطت في ماء فحمدت .
فعلت أنه لا يهلك إلا بالغرق^(١) .

وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ويتلوه الجزء الخامس
إله شاء الله^(٢)



(١) وفي رواية أخرى ذكرها الطبري ٧ : ٢٥٧ : « كان شبيب يرمى لأمه ، فيقال قتل ، فلا تقبل ،
فقيل لها : إنه غرق ، فقالت وقالت : لئن رأيت حين ولدته أنه خرج مني شهاب نار ، فعلت أنه لا يطفئه
إلا الماء » .

(٢) هذا آخر ماورد في نسخة (ج) ، وجاء في آخر نسخة (ب) : « وهذا آخر الجزء الرابع من
شرح نهج البلاغة ، ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الأنبياء
وسند الأصفياء محمد وآله الطيبين الطاهرين » :

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة	
٥-٣	اختلاف الفقهاء في حكم الأضحية
٦	٥٣ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة
١١-٧	بيعة عليّ وأمر المتخلفين عنها
١٢	٥٤ - ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين
٣٢-١٣	من أخبار يوم صفين
٣٣	٥٥ - ومن كلام له عليه السلام يذكر حروبه مع الرسول عليه السلام
٥٣-٣٤	فتنة عبد الله بن الحضرمي بالبصرة
٥٤	٥٦ - ومن كلام له عليه السلام يخبر به عن يأمر بسبّه
٥٦-٥٥	مسألة كلامية في الأمر بالشئ مع العلم بأنه لا يقع
٦٣-٥٦	فصل فيما روى من سب معاوية وحزبه لعل
٧٣-٦٣	فصل في ذكر الأحاديث للوضوعة في ذم عليّ
١١٠-٧٤	فصل في ذكر المنحرفين عن عليّ
١١٢-١١١	فصل في معنى قول عليّ : « فسبونني فإنه لي زكاة »
١١٤-١١٣	فصل في اختلاف الرأي في معنى السب والبراءة
١١٦-١١٤	فصل في معنى قول عليّ : « إني ولدت على الفطرة » .
١٢٥-١١٦	فصل فيما قيل من سبق عليّ إلى الإسلام
١٢٨-١٢٥	فصل فيما قيل من سبق عليّ إلى الهجرة

١٢٩	٥٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج
١٣٢	أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم
١٣٢	عروة بن حدير
١٣٤-١٣٢	نجدة بن عويمر الحنفي
١٣٤	المستورد بن سعد التميمي
١٣٥-١٣٤	حوثرة الأسدي
١٣٦-١٣٥	قريب بن مرة وزحاف الطائي
١٣٦	نافع بن الأزرق الحنفي
١٤١-١٣٦	نجدة بن عامر
١٤٤-١٤١	عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي
١٦٧-١٤٤	الزبير بن طي السليطي وظهور أمر المهلب
٢٠٣-١٦٧	قطري بن الفجاءة المازني
٢١٢-٢٠٤	عبد ربه الصغير
٢٢٥-٢١٣	طرف من أخبار المهلب
٢٢٥	شبيب بن يزيد الشيباني
٢٣٢	دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج

(*) استدرارك وتعليق

الجزء الأول

الصفحة	السطر	
١٦	١٦	المقدمة صواب كتابة الشطر الثاني من البيت :
		* سيكرَمُ مِثْوَاهُ وَيَمْدُبُ شِرْبُهُ *
١١٩	١٧	صواب كتابة البيت :
		من فوقِ عرشِ جالسٍ قد حَطَّ رِجْلَيْهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ الْمَنْصُوبِ
٢٥٤	١١	رواية البيت في كتاب صفين :
		* لَمَّا حَكَى حُكْمَ الطَّوَاغِيَةِ الْأُولَى *
٢٨٠	١٩	الأجود في كتابة البيت :
		* وَيَعْشِبُ جَنْبَاهُ تَمُوتُ الضَّفَادِعُ *
٢٩٩	٢٢	صواب كتابة البيت :
		أَقُولُ لِلنَّازِ وَهِيَ تَوْقَدُ لِلْعَرَى ضِرْبِ ذَرِيهِ لَا تَقْرَبِي الرَّجُلَا
٣٢٧	١١	رواية البيت كما في حماسة التبريزي :
		* لَتَرْجِمَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ *
٣٣٦	١٢	البيت من البحر الكامل : الأجدود أن يكتب هكذا :
		* إِمْنِ الصَّبِيِّ بِجَانِبِ الْبَطْحَا *

(*) انظر ماسبق في آخر الجزء الثاني والثالث .

الجزء الثاني

الصفحة	السطر	
٧٧	٦	الصواب « كالدَّرْع والحجفة » ، والحجفة : ضرب من الترسمة ؛ وقيل : هى من الجلود خاصة .
٩٢	١٢	المشهور « صَلَح » ، بفتح اللام ؛ وحكى الفراء عن أصحابه : « صَلَح » أيضا بضم اللام . راجع الصحاح .
٩٣	٧	صواب العبارة : « أخذه ابن نباتة مصالته » ؛ والمصالته عند الشعراء أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى ؛ وهى من أفصح السرقات الشعرية ؛ من الصَّلَت ، بمعنى اللص ، وانظر الأغاني ٧ : ١٥٥ (طبعة الدار) .
١١٩، ١١٨		كتاب عقيل بن أبى طالب إلى أخيه على وردّ على عليه ؛ انظرهما فى الأغاني ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ نشرة دار الثقافة ببيروت .
١٥٣	١١	صواب العبارة : « ولم تقدّ من نفسك مَنْ ظلمته » ؛ وانظر تاريخ الطبرى ١ : ٢٩٥٥ (طبع أوربا) .
١٥٥	٥	صواب العبارة : « هذا ما أمر به طلحة » ؛ وانظر تاريخ الطبرى ١ : ٣٠٠٠ (طبع أوربا) .

الجزء الثالث

الصفحة	السطر	
١١٨	٩	الصواب : واسمه مالك بن عبقر بن إراش، بالكسر؛ وانظر تاج العروس.
١٥٨	١٤	الصواب : «لقد علمت وما الإشراف» ، والإشراف هنا الحرص ؛ كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .
١٦٠	٧	البيتان وقبلهما بيتان غيرهما في الحيوان ٥ : ٤٨٠ ؛ ورواية البيت الأول فيه :
		يَارُوحَ مَنْ حَسَمَتْ قَنَاعَتُهُ سَبَبَ الْمَطَامِعِ مِنْ غَدٍ وَغَدٍ
		والبيت الثاني ينسب لأبي نواس ؛ من قصيدة له في ديوانه ١٩٣ .

الجزء الرابع

٤٨	١٦	صواب كتابة البيت :
		* وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ الرَّسُولِ *
		والبيتان الأولان في الإصابة ٣ : ٨٧ ؛ منسوبان إلى عبد الله بن يزيد ابن أصرم الهلالي ؛ وهي أيضا في مجمع الزوائد ٩ : ٢٧١ ؛ من غير نسبة ؛ ورواية البيت الثالث فيه :
		* وَخَاتَمُ الرَّسُلِ وَخَيْرُ الرَّسُلِ *
٢٠٦	٣	تكتب العبارة هكذا : « يا خيل الله اركبي » ؛ بكسر اللام من كلمة « خيل » على اللحن .

نصوبات مطبعية (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
١٤٩	١٤	شرح بيل	١١	٤	تمثل
١٩٢	١٦	لا والذي	١٤	١٤	الزبد
٢٠٦	٢	كتاب أبي جعفر بن قبة	٢٠	١٣	من العاشر إلى الخامس عشر
٢٥٦	٩	الضبي	٢٠	١٧	والجموعة
٢٧٨	١٤	من لم تسعه	٣٧	٢١	نخبة الأخبار
٢٨٢	٤	عبد الله بن قتيبة	٥٤	١٠	وتذوها
٢٩٢	٢٢	قريع	١٤٣	١٠	الحارث بن عبدالمطلب
٣٣٥	٥	صاحب العير			
٣٤٢	٢	الظنن			

الجزء الثاني

٤٧	٢٢	فامر أبو بكر	١٤	١٧	فاني
٥٦	٢٢	شده	١٦	١٧	قدم
٧٩	١٤	ينصرم	١٧	١٩	الأغاني ١٧: ٦٩ (ساسي)
٨٥	٩	يطهر	٤١	٥	أيقنت
٩٢	٧	عليه السلام	٤٥	٨	على أبي فصيل

(*) انظر ما سبق في آخر الجزء الثاني والثالث

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
١٥٧	٤	إلا أني	١١٣	٣	لم شَعْرَد
١٥٧	١٥	كفانة بن بشر	١٢٠	١٧	شراف
١٥٧	٢١	ابن الأنباري	١٥٠	٩	من عمَلِ مروان
١٦٠	١٤	البرجمي	١٥٠	١٥	أَلْبَسْنِيهِ
١٦٧	٥	وليتاه	١٥٥	٢	فَأَخَذَ
٢٠٠	٩	جعفر بن أبي طالب	١٥٥	٤	ثم رَجَعَ

الجزء الثالث

٢١	٣	الحكم	٧	٧	دينار
٢٢	١٧	إني أتهمك	٧	٨	فلم أرجع
٢٥	٦	ليخرج ويحوج	٩	١٠	على الهدى
٢٨	١٧	أحد	١٥	٢	تحذف كلمة «أن» المكررة
٣١	١٧	لأن أشق	١٥	١٨	فكيف
٣٢	٤	والوقية	١٧	١٣	التخعي
٣٥	٣	المِسور	١٨	١٣	نقدت
٣٧	١١		١٨	٢٢	لقرنت
٤٤	١	فكسر ضلعا	٢٠	٧	أحي نفسك
٤٦	١٢	القراءة	٢٠	٨	وأن الوليد
			٢٠	١١	في أنه

الصواب	السطر	الصفحة	الصواب	السطر	الصفحة
ابن أبي طالب	١	٨١	وَلَوْجِبَ أَنْ يَكُونَ	٦	٤٨
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ	١١	١٠٨	لَمَّا نُقِمَ عَلَيْهِ ضَرْبُهُ	١٤	٤٨
وَضَرْبِ الرِّقَابِ	١	٢١١	أَكَابِدُهُ	١٢	٧٨
			خَلَّةٌ	١٥	٨٠

الجزء الرابع

صواب كتابة رقم الخطبة هو (٥٧)	١	١٢٩	صواب كتابة رقم الخطبة هو (٥٦)	١	٥٤
----------------------------------	---	-----	----------------------------------	---	----

.....